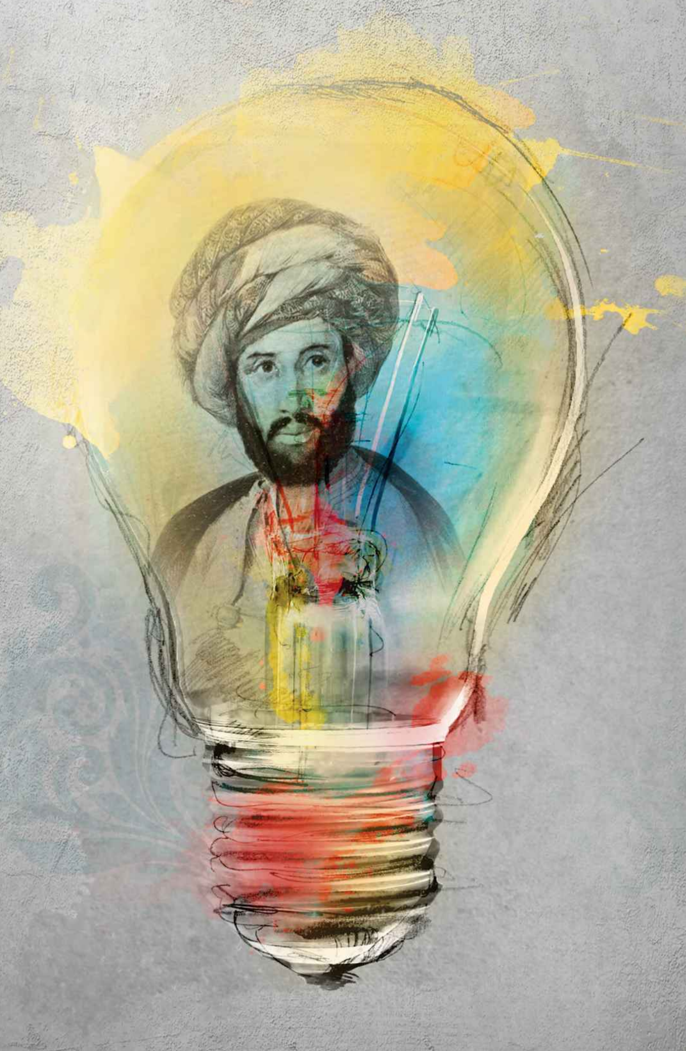
رفاعة رافع الطهطاوي



مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية

مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية

تأليف
رفاعة رافع الطهطاوي



مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية

رفاعة رافع الطهطاوي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: وفاء سعيد.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٩٧٢ ٢

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الخير وخير الحديث؛ حمدًا لله القديم، وأَتَمُّ صلاته وأَعَمُّ سلامه على نبيه الكريم، ذي الخُلُق العظيم، المُرْسَل بدينه القويم، والهادي إلى صراطه المستقيم، وعلى آله منابع الحِكَم ومنافع الأمم، وأصحابه الهادين، وخلفائه الراشدين، ثم الدعاء ببلوغ أشرف الدرجات العلِيَّة للحضرة العزيزية الإسماعيلية، أدام الله لتجديد هذا العصر علاها، وخلَّد على جِيد مصر حُلاها.

«أما بعدُ» فكل عاشِق لجمال العمران، وناشِق لشَذَا عبير هذا الزمان يتهلل سرورًا، ويمتلئ قلبه حبورًا؛ حيث يرى بعين المحبة أنه قد عاد لمصر عِزُّها القديم، وبَهْوُها الفخيم، ومَجْدُها المؤثل، وسعْدُها الأول، وأنها لا زالت مُجِدَّة السير على غاية من السرعة؛ لتحظى بالحظ الوافر من نُمُو المجادة وسُمُو المَنَعة، وتستَحْوِذ على ضخامة الشأن وفخامة الرفعة، وتصير أبْهى قُطْر من أقطار المعمورة وأزهى بقعة، وليس هذا التقدم العجيب والسَّبْق في ميدانه الرحيب إلا من عهد المرحوم محمد علي وورثائه مِن بَعْده؛ فكلٌّ منهم أبدى في مصر من المحَسِّنات بقَدْر طاقته وجهده، وعلى حُسْن نِيَّته وخلوص قَصْده، وفي هذه الحالة الراهنة ظَهَرَتْ بمادة العمران ظهورًا جليًّا، وصار في مُعَلَّاها مسعى إسماعيل بصفا النية عَلِيًّا، وحَظِيَتْ بما تُحِب وتشتهي، وفازت مِنْ ثغر التَّمْدِين ونية الصفاء بلثم مقبلة الشهي.

ومن يَكُن أَصْلُه قد طاب منْبَتُه فما له غَيْرُ إحراز العُلَا ثَمَرَهْ

فقد تعزز الوطن المحروس والبلد المأنوس بالعلوم والمعارف والمنافع واللطائف جملةً وتفصيلًا وتأسيسًا وتأصيلًا، وصارت فيه قواعد التَّمْدِين على أساسٍ مَكِين، وتَمَكَّنَ وُجُودُها من وصْف البقاء أَتَمَّ تَمْكِين، فَلِلّٰه مَن أحيا بها آثار المَكْرمات، وبنى بها أسوار العهود، وبَيَّن أسرار المُبْهَمات بالهمة العلية والنخوة العُلْوِيَّة، حتى ائتَلَفَتْ مَعَالِم العلوم وآداب البراعة بعوامل الفنون وعمليات الصناعة، واكتَسَبَتْ براءة التجارة كمال البراعة، وبتحري العدل استقامت الأمور واعتدلت مصالح الجمهور، ونَمَتْ بركة المنافع العمومية بالأمنية، وسَمَتْ حركة المعاملة وبَلَغَتْ درجة الأهمية، وأحرزَتْ مصر بين الممالك المُتَمَدْيِنَة أَسْنَى الرُّتَب، وصارت في البلاد المَشْرِقيَّة أهنى الأقطار الْمُنَزَّهَة عن شوائب الريب، فعاد إلى بَحْرها العذب دُرَرُه وجواهره، وتَرَنَّمَ من روضها فوق الأَيْك طَائِرُه، ووَفَد عليها من جميع المسالك كل سَالِك، ومن رَفِيع المالِك كُلُّ أمير ومالِك، ووَرَدَ إليها كُلُّ صاحب صناعة يؤديها وبضاعة يُبدِيها، وقَصَدَها كل سيَّاح مُتَفَرِّج ومُتَنَزِّه مُتَبَرِّج، ومَشْرِقيٍّ ومَغْرِبِيٍّ، وأَعْجَمِيٍّ وعَرَبِيٍّ، وامْتَزَجَ أهلُها بِهِم امتزاج الماء بالراح، والأجساد بالأرواح، وقوَّى جأش الجميع حُسْن سياسة الحكومة المصرية وشُمُولها بِعَيْن العدل الحقيقي المسوِّي بين الرعية وغير الرعية؛ مع ما في طباع أَهْل مصر من الوفاء للأقارب، وخلوص النية والصفاء للأجانب، والتوادد والتحبب مع أهل المشارق والمغارب كما قيل:

لا تعْجبوا من أهل مصر أَنْ وَفَوْا	بوعودهم ما في الوفا مِنْهُمْ جَفَا
وافى لَهُم في كُلِّ عامٍ نِيلُهُم	فتَعَلَّموا من نِيلهم ذاك الْوَفَا

وحُسْن سياسة حكومتها في هذه الأزمان الأخيرة قد قَوَّت استعدادها فيما يكون لزيادة العمارية عمدة وذخيرة، فقد اخْتَلَطَتْ معاشرة الأغراب في الأطراف والأكناف بكل عشيرة، واقتبس الأهالي لوطنهم من مُسْتَحْسَن الصنائع والفنون ما لا يُحْصَى كثْرةً في مُدَّة يسيرة، وهذا أَدَلُّ دليل وأَجَلُّ برهان على أنها قدْ عادَ لها الزمان وعَدَلَها بقسطاس تعديل الأماني والأمان، وصَحَّ ما قيل فيها من مُوَافِيها:

ديار مصر هي الدنيا وساكنُها	هم الأنام فقابِلْها بتفضيلِ
يا مَنْ يباهي ببغدادَ ودِجْلَتِهَا	مصرُ مُقَدِّمةٌ والشَّرْح للنِّيلِ

فمن ذا الذي يَجْحَد الآن تَقَدُّمها في التَّمَدُّنية، ولا يَشْهَد بِتَرَقِّيها في القيام بحقوق الوطنية ومراعاتها لما تَقْتَضِيه عَلَائِق المودة مع أهالي الممالك الأجنبية، فإنها وسيلة عظمى لانقياد المنافع العمومية الأبيَّة، وكما حَسُنَتْ أخلاق أهل الوطن مع الأجانب وجذبوهم بمغناطيس الْأُلْفَة مِن كل جانب يَحْسُن أيضًا من الأغراب أن يُحْسِنُوا أخلاقهم ويَحْفَظُوا لرفاقهم وِفَاقَهُم.

لا تُعَادِ الناس في أَوْطَانِهِمْ قَلَّمَا يُرْعَى غريبُ الوَطَنِ
وإذا ما شِئْتَ عَيْشًا بَيْنَهُمْ خَالِقِ الناسَ بِخُلْقٍ حَسَنِ

ولَمَّا كان من الواجب على كل عضو من أعضاء الوطن أن يُعِينَ الجمعية بِقَدْر الاستطاعة، ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة لِمَنْفَعَة وَطَنِه العمومية، ويَنْصَح لبلاده ببث ما في وُسْعِهم من المَعْلُومِيَّة، بَذَلْتُ جهدي، وجُدْتُ بما عندي، وجُلْتُ في مضمار المُحَسِّنات، وقُلْتُ: «إنما الأعمال بالنيات» عِلْمًا بأن مَنْ خَدَمَ وَطَنَهُ بُرْهة من الزمن عَطَفَ عليه بتنسيق أحواله الوطن، ومن المعلوم أن طرائق خدمِهِ عديدة، وكلها سديدة مفيدة، وأدناها يرجع إلى تحريضِ مَنْ يَعِي، إذا لَمْ تُحَارِبْ يا جَبَانُ فَشَجِّعِ:

إني سَمِعْتُ مع الصياح منادِيًا يا مَنْ يُعِين على الغنى المعوانا

ولا شك أن الوطن كالجسد يُصْلِحُه إزالة العضو غير النافع، كما أن الشجرة تُثْمِر بتقليم الغصن اليابس وإبقاء المثمر اليانع؛ فلهذا بَذَلْتُ المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نُخْبة جليلة وترصيف تُحْفَة جميلة في المنافع العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التَّمَدُّنِية، اقْتَطَفْتُها من ثمار الكتب العربية اليانعة، واجْتَنَيْتُها من مؤلفات الفرنساوية النافعة مع ما سَنَحَ بالبال وأَقْبَل على الخاطر أحسن إقبال، وعزَّزْتُها بالآيات البينات والأحاديث الصحيحة والدلائل المبيِّنَات، وضَمَّنْتُها الجم الغفير من أمثال الحكماء وآداب البُلَغَاء وكلام الشعراء من كل ما ترتاح إليه الأفهام، وتنزاح به عن الذهن الأوهام، وتتأيَّدُ به السعادة وتتأَبَّدُ به السيادة، وبالجملة فقد أَوْدَعْتُها ما يكون لأهل الوطن ذُخرًا ويَعْقُبه النجاح دُنْيَا وأُخْرَى، وسَمَّيْتُها مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، مُتْحِفًا بها حضرة وَلِيٍّ عهد هذا الوطن الشريف وحامي حمى مصر المنيف، الوزير الأعظم والمشير الأفخم، الجامع لأسباب الفضائل والحِكَم، والرافع لجمعية

المعارف تحت لواء أبيه أعلى عَلَم، مَنْ هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق، حضرة محمد باشا توفيق، لا زال في ظل والده مُمَتَّعًا بطريف العز وتالِدِه.

وإذا الصنيعة صادَفَتْ أهلًا لها　　　دَلَّتْ على توفيق مُصْطَنِع اليد

فقد بَدَتْ من جنابه العالي دلائل حُبِّ الأوطان باصطناع التطول لجمعية العرفان؛ حيث حَلَّى جيدها بعقود المنَّة، وجعل حصين حماه لها وقاية وجُنَّة، فلذلك شَكَرَ حُسْن صَنِيعِه الوطن، وأَطْلَقَ حِسَان مَدْحِه على مُحْمَد الفضائل لِسَانُهُ بالثناء الحَسَن.

أَطْلِقْ لسانَكَ بالثناء على الذي　　　أَوْلَاك حُسْن رغائبٍ وغَرَائِبِ
واشكره شُكْرَ الرَّوْض حَيَّاه الحَيَا　　　كَيْمَا تَقُوم له بِبَعْض الواجبِ

وكم له — حَفِظَه الله — على الوطن من صِلَات موصولات وعوائد متواصلات، تقول بلسان حالها — مُعْرِبَةً عما أَسْدَتْه اليد البيضاء من جزيل نوالها:

كم مِنْ يَدٍ بيضاء قد أَسْدَيْتَهَا　　　تُثْنِي إليك عنان كل وِدَادِ
شَكَرَ الإله صنائعًا أَوْلَيْتَهَا　　　سَلَكَتْ مع الأرواح في الأجساد

ورَتَّبْتُ هذا الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة حسنى بحسنها الدعاء مستجاب، وعلى الله القبول، وهو لبلوغ الأمل مسئول.

مقدمة

في ذكر هذا الوطن وما قاله في شأن تمدينه أرباب الفطن

قد تَحَقَّقَ في مصر اسمها بالمعنى المتعارف أكثر من غيرها؛ لمصير الناس إليها واجتماعهم فيها لمنافعهم ومكاسبهم، وما ذاك إلا لحسن موقعها العجيب الذي أَسْرَعَ في اتساع دائرة تَقَدُّمِهَا في التأنس الإنساني والعمران، وإحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان وعلى مَرِّ العصور وكَرِّ الدهور، انصَقَلَتْ في مرآة جوهرها صور أخلاق الخلائق، وتَهَذَّبَتْ طباعهم على التدريج وتشبَّثوا بثمرات العلوم والمعارف ووقفوا على الحقائق، وبمخالطة غيرهم من الأمم ذاقوا حلاوة الأخذ والعطاء وكثرة العلائق، وكما تَمَدْيَنُوا بصنائع العمران تَدَيَّنُوا بما اتخذوه من الأديان، وكان يُعْرَف خواصهم وحكماؤهم في الباطن بوحدة الملك الديان.

وَرَقُ الرياض إذا نَظَرْتَ دَفَاتِرٌ مشحونة بأَدِلَّة التوحيد

فتَحَقَّقَ فيهم من الأحقاب القديمة الواسطتان المقوِّمتان إذ ذاك لكمال التمدين والعمران: «إحداهما» تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الإنسانية التي هي لسلوك الإنسان في نفسه ومع غيره مادة تحفظية تَصُونُه عن الأدناس وتُطَهِّرُه من الأرجاس؛ لأن الدين يَصْرِف النفوس عن شهواتها ويَعْطِف القلوب على إراداتها حتى

يَصِير قاهرًا للسرائر زاجرًا للضمائر رقيبًا على النفوس في خلواتها، نَصوحًا لها في جَلَوَاتها، فبهذا المعنى كان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وهو زمام للإنسان؛ لأنه مِلاك العدل والإحسان، فالدين الصحيح هو الذي عليه مدار العمل في التعديل والتجريح، فحقيق على العاقل أن يكون به متمسكًا ومحافظًا عليه ومتنسِّكًا، فأدب الشريعة ما أدى الفرض، وأدب السياسة ما عَمَّر الأرض، وكلاهما يَرْجِع إلى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان؛ لأن مَنْ تَرَكَ الفَرْضَ فقد ظَلَم نَفْسه، ومن خَرَّبَ الأرض فقد ظَلَمَ غيره وأَظْلَمَ بالإساءة أَمْسه.

«والواسطة الثانية» هي المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية وتُبْعِدُها عن الحالة الأولية الطبيعية، فإنَّ نُور التمدن الجامع لهاتين الوسيلتين تذوق به العباد طَعْم السعادة، ويُعَدُّ تمدنًا عموميًّا، وأما إذا كان في البلد تقدمات جزئية في أشياء خصوصية كالبراعة في الفلاحة فلا يُعَدُّ هذا التمدن إلا مَحَلِّيًّا؛ ولذلك نرى كثيرًا من الممالك والأمصار امتاز أَهْلُها بمزايا خصوصية، وبرعوا فيها بحيث لا تَصِل إلى اصطناعها الممالك المتمدنة، ومع ذلك فلا تُعَدُّ في باب التمدن مِثْلَ غيرها مُتَمَكِّنَة، وأيضًا الفنون الموجبة لِتَقَدُّم التمدن مختلفة قوة وضَعْفًا فيه؛ ففَنُّ الملاحة مثلًا أقوى في إنتاج التمدن من الفلاحة، ونَفْعُه أَعَمُّ منها في توسيع دائرة العمران عند عارِفيه.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الله تعالى لَمْ يَجْمَعْ منافع الدنيا في أرض، بل فَرَّقَهَا وأَحْوَجَ بعضها إلى بعض، فلا تُكْتَسَبُ إلا بالأسفار، وَجَوْب مَفَاوِز البراري والبحار، فالمسافر يَجْمَع العجائب ويَكْسِب التجارب ويَجْلِب المكاسب، فالمملكة التي سَخَّر الله لها الجمع بين صنعتي الملاحة والفلاحة كالديار المصرية لقابلية انتظامها مُحْرِزة لوسائط التمدن على وَجْهٍ أَكْمَل، بشرط زوال الموانع والعوائق التي لا تخلو منها مَمْلكة في إدراك مَرَامِها، كما أشار إلى ذلك نابليون الأول مَلِك فرنسا بقوله: «إن فرنسا تُسارِع دائمًا في أسباب التمدن وتَحْصُل منه على الكثير، إلا أن دولة الإنكليز تَعُوقُها عن تتميم بعض أغراضها، ولولا ذلك لَتَقَدَّمَتْ كل التقديم في حيازة جواهر المنافع وأعراضها» انتهى. فقد لا يستوفي كيفه الجوهر القائم بنفسه، ولكل شيء آفة من جنسه.

ويُفْهَم مما قلناه أن للتمدن أصلين: معنوي، وهو التمدن في الأخلاق والعوائد والآداب؛ يعني التمدن في الدين والشريعة، وبهذا القسم قِوام الملة المتمدنة التي تُسَمَّى باسم دينها وجنسها لتتميز عن غيرها، فمن أراد أن يَقْطَعَ عن مِلَّةٍ تَدَيُّنَها بدينها أو يُعَارِضَها في حفظ مِلَّتِها المخفورة الذمة شرعًا فهو في الحقيقة مُعْتَرِض على مولاه فيما قضاه لها وأولاه، حيث قَضَتْ حِكْمَتُه الإلهية لها بالاتصاف بهذا الدين، فمن ذا الذي يجترئ أن يُعَانِده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وحَسْبُنا في هذا المعنى قَوْل الكرار: «أما وقَد اتَّسَع نطاق الإسلام فكل امرئ وما يختار»، فبهذا كانت رُخْصة التمسك بالأديان المختلفة جارية عند كافة المِلَل، ولو خالف دين المملكة المقيمة بها، بشرط أن لا يعود منها على نظام المملكة أدنى خَلَل، كما هو مُقَرَّر في حقوق الدُّوَل والمِلَل، وما أحسن قول بعض الظرفاء:

يقولون نصرانية أُمُّ خالدٍ	فقُلْتُ ذَرُوها كل نفس ودِينُها
فإن تَكُ نصرانية أُمُّ خالدٍ	فإن لها وَجْهًا جميلًا يَزِينُها
ولا عَيْب فيها غير زُرْقَة عَيْنِها	كذاك عتاق الطير زُرْق عُيُونُهَا

وعلى ذِكْر زُرْق العيون يَحْسُن ذِكْر قول الشاعر — مع ما فيه من التورية:

لك يا أَزْرَق اللواحظ مَرْأى	قَمَرِيٌّ أَضْحَى على الوجه يَزْهَى
يا لها مِنْ سَوَالِفٍ وخُدُودٍ	ليس تَحْت الزرقاء أَحْسَنُ منها

«والقسم الثاني» تَمَدُّن مادِّي: وهو التقدم في المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة، ويَخْتَلِف قُوَّة وضَعفًا باختلاف البلاد، ومداره على ممارسة العمل وصناعة اليد، وهو لازِم لتقدم العمران، ومع لزومه فإن أرباب الأخلاق والآداب يَخْشَوْن صَوْلة تَقَدُّم أَهْل الفنون والصنائع، ويخافون ارتفاع مراتبهم بقوة مكاسبهم في المنافع، وأَهْل الفلسفة والعلوم الحِكَمِيَّة النفيسة يعتقدون أن الصنائع من المهن والأمور الخسيسة، وأرباب الاقتصاد في الأموال والإدارة يبالغون في توسيع دائرة المنافع ووسائل العمارة، ويتغالَوْن بتكثيرها في دوائرهم لجباية فوائدهم منها وتيسيرها، ويباشرون جَمْع مُتَفَرِّقِها ونَظْم منثورها، ويَبْحَثون عن نشيد كل شاردة وتقييد كل آبدة؛ لأن مصلحتهم تقتضيها وحاكِمُ أغراضهم يَرْتَضِيها.

وإرادة التَّمَدُّن للوطن لا تنشأ إلا عن حُبِّه من أهل الفِطَن كما رَغَّب فيه الشارع، ففي الحديث: «حُبُّ الوطن من الإيمان»، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عَمَّر الله البلاد بِحُبِّ الأوطان، وقال عليٌّ كَرَّم الله وجهه: سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده، وقال بعض الحكماء: لولا حُبُّ الوطن لَمَا عُمِّرت البلاد الغير المُخْصِبة، وقال الأصمعي: دَخَلْتُ البادية فنزَلْتُ على بعض الأعراب، فقُلْتُ له: أَفِدْنِي. فقال: إذا أَرَدْتَ أن تَعْرِف وفاء الرجل وحُسْنَ عَهْدِه ومكارم أخلاقه وطهارة مَوْلِدِه فانظر إلى حَنِينِه لأوطانه وشَوْقِه إلى إخوانه، قال الشاعر:

وحَبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُ ... مآربُ قَضَّاها الشباب هُنَالِكَا
إذا ذُكِرَتْ أوطانهم ذُكِرَتْ لَهُمْ ... عُهُودُ الصِّبَا فيها فَحَنُّوا لِذَلِكَا
ولي مَوْطِنٌ آليْتُ أني أُعِزُّهُ ... وألَّا أرى غيري له الدهر مَالِكَا

وقال آخَر:

بَلَد صَحِبْتُ به الشبيبة والصبا ... ولبِسْتُ ثَوْب العَيْش وهْو جَدِيدُ
فإذا تَمَثَّل في الضمير رَأَيْتُهُ ... وعليه أغصانُ الشباب تَمِيدُ

وقال آخر:

إذا أنا لا أَشْتَاقُ أرْضَ عشيرتي ... فليس مكاني في النُّهى بِمَكِينِ
مِن العَقْل أن أَشْتَاق أَوَّل مَنْزِلٍ ... غَنِيتُ بخفض في ذَرَاه ولِينِ
ورَوْضٍ رعاه بالأصائل ناظري ... وغُصْنٍ ثناه بالغداة يَمِينِي
وإني لا أنسى العهود إذا أَتَتْ ... بناتُ الهوى دُون الخليط ودُونِي
إذا أنا لَمْ أَرْعَ العهود على النوى ... فَلَسْتُ بمأمونٍ ولا بِأَمِينِ

والمراد ببنات الهوى بنَاتُ الدَّهْر؛ أي حَوَادِثُه، فالوطن محبوب والمنشأ مألوف حتى لغير المتمدن، بل يُقَالُ: إن البادي الجبلي يَتَعَلَّق بحبال جبال أوطانه، ويُعَلَّق بأذيال باديته، ولا يُعَلَّق الحاضر بمدينته وحاضرته، بحيث لا يَنْتَقل الجلف من باديته إلا للانتجاع في الفَلَوات ويَسْتَسْهِل خَرْط القتاد، ويَرَى عِزَّه في الصحاري التي أَلِفَ طَبْعُه

سُكْنَى خيامها، وتَرَيَّضَ عقْلُهُ عليها واعتاد، كما يَدُلُّ لذلك ما حُكِيَ عن مَيْسُون بِنْت بَحْدَل أنها لما اتَّصَلَتْ بمعاوية رضي الله عنه ونَقَلَهَا من البدو إلى الشام كانت تُكْثِر الحنين على ناسها والتذكر بمسقط رأسِها، فسَمِعَها ذات يوم وهي تنشد:

لَبَيْتٌ تَخْفِق الأرواح فيه ... أَحَبُّ إليَّ من قَصْرٍ مَنِيفِ
وأَكْلُ كُسَيْرَة من كَسْر بيتي ... أحبُّ إليَّ من أَكْلِ الرغيفِ
وأصواتُ الرياح بكل فَجٍّ ... أَحَبُّ إليَّ من نَقْر الدُّفُوفِ
ولُبْسُ عباءة وتَقَرُّ عيني ... أحبُّ إليَّ مِن لُبْس الشفوفِ
وكَلْبٌ يَنْبَحُ الطُّرَّاق حَوْلِي ... أحبُّ إليَّ مِنْ قِطٍّ أَلُوفِ
وبكر يَتْبَع الأظعان صَعْب ... أحبُّ إليَّ مِنْ بَغْل زَفُوفِ
وخِرْق مِنْ بني عَمِّي نَحِيفٍ ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِلْجٍ عَنِيفِ

فَلَمَّا سَمِعَ معاوية الأبيات قال: ما رَضِيَت ابنة بَحْدَل حتى جَعَلَتْنِي عِلْجًا من عُلُوج العَجَمِ. فالعربي كثير التعلق ببباديته فلا يَتَمَدَّح إلا بها كما قال بعضهم:

هذا أبو الصقر فَرْدًا في مَحَاسِنِه ... من نَسْلِ شَيْبَان بَيْن الضَّالِ والسَّلَمِ

والضال والسلم من أشجار البوادي ذوات الشوك، فأشار الشاعر بذلك إلى ما يَتَمَدَّح به العرب من سُكْنى البادية؛ لأن العز عندهم مفقودٌ في الحضر، فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نارٍ على عَلَمٍ، أو أنه من البُعْد عن الهضم والضيم شَمْس أو قمر بلا غَيْم بخلاف المتمدن؛ فإنه يُكْثِر التنقل، ولكن في الحقيقة تنقله ثَمَرَة من ثمرات التمدن مرتفعة تَعُود على الوطن بالمنفعة، ولا نظر إلى مَنْ حَصَلَ له ذُلٌّ وهوان فَرَغِبَ بذلك عن الأوطان، كما قال الشريف الرضي:

ما لي لا أَرْغَب عن بلدةٍ ... يُكْثِر فيها الدهر حُسَّادي
ما الرزق في الكَرْخ مُقِيمًا وَلَا ... طوقُ العلا في جِيدِ بغدادِ

وقال بعض أمراء الحرمين:

قَوِّضْ خيامك عن أَرْضٍ تُهَانُ بها   وجَانِب الذل إنَّ الذُّل مُجْتَلَبُ
وارْحَلْ إذا كانت الأوطان مَنْقَصَةٌ   فالمَنْدَلُ الرَّطْبُ في أوطانه حَطَبُ

فقد يُذَمُّ الوطن من واحد ويُمْدَحُ من آخر بحسب حال المتوطن، فقد مَدَحَ الشريف المرتضي بابل وتَشَوَّقَ إليها بقوله:

ألا يا نَسِيمَ الريح من أَرْضِ بابلٍ   تَحَمَّلْ إلى أَهْلِ الخيام سَلَامِي
وإني لأهوى أن أَكُونَ بِأَرْضِهِمْ   على أنني منها اسْتَفَدْتُ مُقَامِي
وقد كُنْتُ كالعِقْد المُنَظَّمِ مِنْهُمُ   فها أنا ذا سِلْكًا بغير نِظَامِ
أبات أُرَجِّي أن يُلِمَّ خَيَالُهُمْ   وكيف يَزُورُ الطَّيْفُ دُونَ مَنَامِي
فلا بَرْقَ إلا خُلَّبٌ بعد بَيْنِهِمْ   ولا عَارِضٌ إلا بَيَاض جَهَامِ

وخَالَفَ ذلك شَرَفُ الدين البيهقي حيث قال:

أَبَابلُ لا واديك بالبر مُفْعَمٌ   لديَّ ولا نَادِيكِ بالرحْبِ آهِلُ
لَئِنْ ضِقْتِ عني فالبلاد فسيحةٌ   وحَسْبُكِ عارًا أنني عَنْكِ رَاحِلُ
وإنْ كُنْتِ بالسِّحْر الحرام مُدِلَّةً   فعندي من السحر الحلال دَلَائِلُ
قوافٍ تُعِيرُ الأعينَ النُّجْلَ حُسْنَهَا   فكُلُّ مكان خَيَّمَتْ فيه بَابِلُ

وقال آخر يُخَاطِبُ أحد الملوك:

إنْ تُكْرِمُونِي فإني غَرْسُ دَوْلَتِكُمْ   فما بَقِيتُ فمِطْواعٌ ومِذْعانُ
وإن أَهَنْتُمْ فأرضُ الله واسعةٌ   لا الناس أنتم ولا الدنيا خُرَاسَانُ

وقال آخر في حَقِّ مصر:

لِمَ لا أدين كِبَارَهُمْ   وصغارهم تِيهًا وكِبْرَا
ما النيل مِنْ مَاءِ الحيا   ةِ ولا جميعُ الأرض مِصْرَا

فهذا قول المغلوب وكلام مَهْجور الوطن لا المحبوب، وأَحْسَنُ من ذلك قول مَنْ تَغَرَّبَ وأُصِيبَ في الغربة بداء حُبِّ وَطَنِهِ وتَجَرَّبَ:

وبَلْدَة قد رَمَتْنِي   بِكُلِّ دَاءٍ عِنَادَا
ولَوْ رَجَعْتُ لِأَهْلِي   كانَتْ بلادي بِلَادَا

ويكفي حُبِّ الوطن أن كراهة الإجلاء منه مقرونة بكراهة قَتْل الإنسان نَفْسَه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ﴾ مما يُحْكى أن عُمَرَ بْنَ الخطاب رضي الله تعالى عنه مَرَّ ليلًا في المدينة فسمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمرٍ فَأَشْرَبُهَا   أم هل سبيل إلى نَصْر بْن حَجَّاجِ

أَيْ إلى وَصْلِه؛ لأنه كان حسن الصورة وهو من بني سليم، فدعاه عُمَرُ فرآه أحسن الناس وَجْهًا وله شَعْر حَسْن، فَحَلَقَ شَعْرَه فكان أَحْسَنَ الناس بلا شَعْر، فقال له أمير المؤمنين: لا تُساكِنِّي في بلدي، فَتَشَفَّعَ نَصْرٌ إليه أن لا يُخْرِجَه من المدينة، فَلَمْ يَقْبَلْ عُمَرُ رضي الله عنه، فَلَمَّا وَدَّعَه نَصْر قال له: يا أمير المؤمنين سُمْتَنِي قَتْل نفسي، فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ﴾، فَقَرَنَ هذا بهذا، فقال: ما أَبْعَدْتَ يا نصْرُ لكن أقول ما قال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾، وقد أَضْعَفْتُ لكَ يا نَصْرُ عطاءك؛ ليكون ذلك عِوَضًا لك. ومِنْ أَحْسَن ما قيل في حب الأوطان قول الصقلي:

ذَكَرْتُ صِقِلِّيَة والأسى   يُهَيِّج للنفس تَذْكَارَهَا
فإن كُنْتُ أُخْرِجْتُ من جَنَّةٍ   فإني أُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا
ولولا مُلُوحَة ماء البُكَا   حَسِبْتُ دُمُوعِيَ أَنْهَارَهَا

وصقلية جزيرة بإيطاليا المسماة الآن سيسيليا، كانت في يد الإسلام زمنًا طويلًا، ويُنَاسِبُ هذا قَوْل مَنْ قال:

نَقِّل فُؤَادَكَ ما اسْتَطَعْتَ من الهوى   ما الحُبُّ إلا للحبيب الأولِ

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرض يَأْلَفُه الفتى   وحَــنِـيـنُــهُ أبــدًا لِأَوَّل مَــنْــزِلِ

وما أَحْسَن قَوْل بَعْضِهِمْ:

علـيَّ لـربـع الـعـامـريـة وقـفـةٌ   ليملي عليَّ الشوق والدمع كَاتِبُ
ولي مذهَبٌ حُبُّ الديار لِأَهْلِهَا   وللناس فيما يَعْشَقُون مَذَاهِبُ

وقال آخر:

وقـائـلـة مـاذا وُقُـوفُكَ هـا هـنـا   بِبَرِّيَّة يَعْوِي من العصر ذِيبُهَا
فَقُلْتُ لها قِلِّي الملامة وانْصِفِي   هوى كُلِّ نَفْسٍ حيث حَلَّ حبيبُهَا

وحسْب المؤمن بِحُبِّ الوطن أن رسول الله ﷺ حين خَرَجَ من مكة علا مَطِيَّتَهُ واستقبل الكعبة وقال: «والله لَأَعْلَم أَنَّكِ أَحَبُّ بلد الله إليَّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله تعالى عز وجل وأنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أَنَّ أَهْلَك أَخْرَجُوني منك لما خَرَجْتُ.» وبالجملة فحب الأوطان على عظم الحسب وكَرَم الأدب أبهى عنوان، وهو فضيلة جليلة لا يُؤَدِّي حق الوفاء بها إلا من حَازَ الشمايل النبيلة، ولا تُعِين عليها إلا الهمم العلية والعزائم الملوكية التي تُقَلِّد أعناق الأمة حُلِيَّ المنة والنعمة، فتبعثهم على التشبث بالأوطان والتعلق بأذيال الإخوان والخلان، لا سيما إذا كان الموطن مَنْبِتَ العز والسعادة والفخار والمجادة كديار مصر، فهي أعز الأوطان لبنيها ومستحقة لِبِرِّها منهم بالسعي لبلوغ أمانيها بتحسين الأخلاق والآداب من جهتين عظيمتين: الأولى؛ أنها أُمٌّ لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلًا وشرعًا على كل إنسان. الثانية؛ أنها ودودة بارَّة بهم مُثْمِرَة للخيرات مُنْتِجة للمبرات، فبِرُّها يعود على أبنائها ثَمَرَتُهُ، وترجع إليهم فائدته، ويَحْسُن الصنيع بتضاعف الفوائد العوائد أضعافًا مضاعفة.

وكلما تَحَسَّنَتْ جهات البر من أهاليها حَسَّنَتْ أيضًا الثمرات لطالبيها، فإذا كانت لا تُحْرَم من ثمرات مصر الأجانب فبالأحرى أن تَتَمَتَّعَ بها الأقارب، ففي الأثر: من أَعْيَتْه المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربي منها، ويروى أيضًا: قُسِمَت البركة عشرة أجزاء؛ تسعة في مصر وجزء في الأمصار كلها، ولا يزال في مصر بركة ما في الأرضين كلها، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ

الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ أن المراد بمشارق الأرض ومغاربها أرض مصر، وقال عليه الصلاة والسلام: مصر خزائن الأرض والجيزة غيضة من غياض الجنة، ذَكَرَ هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام، قال بعض من انْتَصَبَ لتفضيل دمشق لكونها وَطَنه على مصر: عَرَفْنَا طيب الديار المصرية ورقة هوائها، ولكن نحن لا نجفو الوطن؛ حيث حبه من الإيمان، ومع هذا فلا نُنْكِر أن مصر إقليم عظيم الشأن، وأن مغلها كثير، وأن ماءها نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، وأن الذهب فيها لا يُوزن بالمثاقيل ولكن بالقناطير، وأن دمشق يَصْلح أن تكون بستانًا لمصر، ولا شك أن أحسن ما في البلاد البستان، وهل دمشق إلا لمصر مثل الجنان؟!

وقال عبد الله بن عمر: أهل مصر أَكْرَمُ الأعاجم كلها، وأَسْمَحُهُم يدًا وأفضلهم عنصرًا وأَقْرَبُهُم رَحِمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة. يشير بهذا إلى هاجر أُمِّ إسماعيل عليه السلام، فإنها من قرية أم دينار أو قرية أم دنين، وكلاهما بمصر، أو يقال: إنها من بلدة بقرب الفرما، وإلى مارية أم إبراهيم فإنها من قرية بصعيدها من إقليم الجيزة، وقد رُوِيَ عن أبي ذر أنه قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورَحِمًا، فإذا رأيتم رَجُلَيْنِ يقْتَتِلَان في موضع لَبِنَة فاخرجوا منها. قال: فمر بربيعة وعبد الرحمن ابني شرحبيل يتنازعان في موضوع لَبِنَة فخرج منها.»

ويُرْوَى عن عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل سَيَفْتَح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لهم مِنْكُم صِهْرًا وذمة.» وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «دعا نوح عليه الصلاة والسلام لولده وَوَلَدِ ولده مصريم الذي به سُمِّيَت مصر مصرًا، فقال: اللهم إنه قد أجاب دَعْوَتِي فبارِك فيه وفي ذريته وأسكِنْه الأرض الطيبة المباركة التي هي أم الدنيا.» وما أحسن قول الشاعر:

جميع الأرض فيها طِيبُ عَيْشٍ ... ولَـذَّات وروضــات أنـيـقَـةْ
وهـذا كلـه فـي غَيْـرِ مِـصْـر ... مَجَازِيٌّ وفي مِصْرَ حَقِيقَةْ

فلهذا يقال: إن مصر هي اختيار نوح عليه السلام لولده، وكذلك صارت اختيار الحكماء لأنفسهم، واختيار عمرو بن العاص لنفسه، واختيار مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز وهكذا، فكيف لا وهي بَلَدُ العِلْم والحكمة من قديم الدهر وحِدِيثِه، ومنها خرج

العلماء والحكماء الذين عمَّروا ممالك الدنيا بتدبيرهم وحكمتهم وفنونهم وصنائعهم، ولَمْ تَزَلْ إلى الآن يسير إليها طلبة العلم وأصحاب الفهم من سائر الأقطار؛ لتحصيل درجة الكمال، وكفاها فخرًا أنها تُسَمَّى خزائن الأرض، كما حكاه الله تعالى عن يوسف عليه السلام في قوله لِمَلِكِ مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

ولذلك قال بعضهم: إن مصر خزائن الأرض كلها وسُلْطَانُهَا سلطان الأرض كلها، يعني أن يوسف لَمَّا تَمَكَّنَ من أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء كان بسلطانه فيها سلطانَ جميع الأرض كلها لحاجتهم إليه وإلى ما تحت يديه، حتى في أيام الخلفاء كانت مَثْرِيَّة بالمآثر والمكارم، تُغْنِي الوافد عليها والقادم كما قال بعض الشعراء:

قَدِمْتُ مِصْر فأَوْلَتْنِي خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأملِ
قومٌ عَرَفْتُ بهم كَسْبَ الألوف وَمِنْ ... تَمَامِهَا أنها جَاءتْ وَلَمْ أسلِ

ويدل أيضًا على أنها كانت بمكانة من التمدين في قديم الأزمان قوله تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكذا قوله تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، قال بعض المفسرين: ولم يكن في الأرض مُلْكٌ أعظم من مُلْك مصر، وكان جميع الأرضين يحتاجون إلى مصر، وأما الأنهار فكانت قَنَاطِرَ وجُسُورًا بتقدير وتدبير، حتى إن الماء يجري من تحت مَنَازِلها وأَفْنِيَتِها فيَحْبِسُونَه كيف شاءوا. انتهى.

وهذا عَيْن التمدن؛ إذ لا يكون ذلك إلا بتَقَدُّم الصنائع والفنون، ويُؤَيِّده بقايا الآثار المشاهَدَة التي لا كان مِثْلها في غير مصر، ولا يكون مع ما انمحى منها بشهادة قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، وقد قَنَعَ المأمون بهذه الآية حين اسْتَصْغَرَ مصر في عَيْنه، وذُهِلَ عن حقيقة الدراية والرواية، فأدرك بها من الحكمة الغاية.

وبالجملة فهي فُرْضة الدنيا يُحْمَلُ خَيْرها إلى ما سواها، فيُحْمَلُ منها من طريق بحر القلزم إلى الحرمين واليمن والهند والصين والسند وبلاد إفريقية، ومن جهة بَحْر الروم إلى بلاد الروم والقسطنطينية والإفرنج وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق وإلى صقلية وكريد وبلاد المغرب، ومن جهة الصعيد إلى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن، ولا سيما الآن بوصل البحرين الأبيض والأحمر واتصال

أفريقيا بآسيا على وَجْهٍ أظهر، فهذا يُقَرِّب النقل منها وإليها من سائر الأقطار المعمورة، والمنظور أنها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا مغمورة وتَكْثُر مخالطَتُها مع جميع الأمم، فلا غَرْوَ أنْ يأتيَ لها زمان يَصِير فيه تَمَدُّنُها راسخ القدم، فإن لِطَالع التَّمَدُّن دورًا مخصوصًا من أدوار الجمعيات التأَنُّسِية عند حضور الأوان تَسْطَعُ أَنْوَاره على سائر الآفاق والبلدان:

وما البَدْرُ إلا واحد غَيْر أنه　　　يغيبُ ويأتي بالضياء المجدَّدِ
فلا تَحْسَبِ الأقمار خَلْقًا كَثِيرَةً　　　فَجُمْلَتُهَا من نَيِّرٍ مُتَرَدِّدِ

فكل مملكة تأخذ حَظَّهَا الأوفر من نير التَّمَدُّن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم في حب الأوطان، فقد شَبَّهَ بعضهم حُبَّ الأوطان الحقيقي والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية متمكنة من الأبدان الأهلية متى حلَّتْ ببدن الإنسان غَلَبَتْ على الحرارة الغريزية، فلذلك إذا ظَهَرَت الحمية الوطنية في أبناء الديار المصرية ووَلِعَتْ بمنافع التَّمَدُّنِيَّة فلا جَرَمَ أن تَذْكُوَ نارُها وتغلب على القوة الأولية، فيَحْصُل لهذا الوطن من التمدن الحقيقي — المعنوي والمادي — كمالُ الأمنية، فيَقْدَح زناد الكد والكدح والنهض بالحركة والنقلة والإقدام على ركوب الأخطار تَنَال الأوطان بلوغ الأوطار.

دَعِ الْهُوَيْنَا وانتَصِبْ وانْتَشِبْ　　　واكْدَحْ فنفْس المرء كَدَّاحَهْ
وكن عن الراحة في مَعْزِلٍ　　　فالصفع موجود مع الرَّاحَهْ

وقال آخر:

تنقَّلْ فَلَذَّات الهوى في التَّنَقُّلِ　　　وَرِدْ كُلَّ صافٍ لا تَقِفْ عند مَنْهَلِ

فما دامَت المنافع متفرقة في الجهات؛ فلتكن الهمم في تحصيلها من جهاتها قضايا مُوَجَّهَات، فلا بد لكل إنسان وكل مملكة من الحصول على المادة الكافية لبلوغ الوطر، لا سيما التي لا يُعَرَّى منها بَشَر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، فإذا انعدمت المادة التي هي قِوَام النَّفْس لم تَدُم الحياة، ولم تَسْتَقِم الدنيا لأهلها، فإذا تَعَذَّرَ على الإنسان شيء من مَعايِش الدنيا؛ لَحِقَه الوهن والاختلال

في دنياه بِقَدْر ما تَعَذَّر من المادة عليه؛ لأن الشيء القائم بغيره يَكْمُل بكماله ويخْتَلُّ باختلاله، ولما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها؛ وجب الحصول عليها من جهاتها، ثم إن أسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب مُتَشَعِّبة.

وإنما كانت كذلك ليكون اختلاف أسبابها عِلَّة الائتلاف بها، وتَشَعُّب جِهَاتها تَوْسِعة لِطلابها؛ كي لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون، أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يَكْتَفُون، وقد هداهم الله سبحانه وتعالى بعقولهم، وأرشدهم إليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعايش المختلفة، فيعجزوا ولا يعانوا تقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة؛ فيَخْتَلُّوا، حِكْمَة من الله سبحانه اطَّلع بها على عواقب الأمور، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قيل في تفسيره: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ما يُصْلِحُهُ، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ دَلَّه، وقيل: أعطى كل شيء صورته، ثم هداه لمعيشته، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: معايشهم؛ متى يزرعون ومتى يغرسون، وقال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: قَدَّرَ في كل بلدة منها ما لم يُقَدِّرْه في الأخرى؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد.

ثم إن الله تعالى جعل للناس مع ما هداهم إليه من مكاسبهم وأَرْشَدَهُمْ إليه من معايشهم، دينًا يكون لهم حَكَمًا، وجَعَلَ لهم شَرْعًا يكون عليهم قَيِّمًا؛ ليصلوا إلى مُرَادِهم بتقديره، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره، حتى لا يَنْفَرِدُوا بإرادتهم فيَتَغَالَبُوا، ولا تَسْتَوْلِي عليهم أَهْوَاؤُهم فيتقاطعوا، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، ثم إنه — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — جَعَلَ تَوَصُّلَهُم إلى مَنَافِعِهِمْ مِنْ وجهين: مادةٍ، وكَسْبٍ؛ أما المادة فهي حادثة عن اقتناءِ أصولٍ ناميةٍ بذواتها، وهي شيئان: نَبْت نَامٍ، وحيوان متناسِل، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أغنى خَلْقَه بالمال، وجَعَلَ لهم قُنْية؛ وهي أصول الأموال، وأما الكسب: فيكون بالأفعال المُوصِلة إلى الكفاية، والتصرف المؤدي إلى الحاجة من وجهين؛ أحدهما: تَقَلُّب في تجارة، والثاني تَصَرُّف في صناعة، وهذان الوجهان هما فَرْع لِوَجْهَي المادة السابقين، فصارت أسباب المواد المألوفة وَجِهَات المكاسب المعروفة أربعة أَوْجُه: نَمَاء زِراعة، ونِتاج حيوان، ورِبْح تجارة، وكَسْب صناعة، وكذلك حكى الحسن بن رجاء، عن الخليفة المأمون: أنه كان يقول: «معايش الناس على أربعة أقسام: زراعة، وصناعة، وتجارة، وإمارة، فمن خرج عنها؛ كان كَلًّا علينا»، ولكن سيأتي لنا أن الإمارة هي قُطْب رَحَى المنافع العمومية.

ثم إن أحوال المنافع العمومية تَخْتَلِف بِتَنَقُّل الأحوال وتَغَيُّر العادات، ولا يمْكن استيعاب طرق تحسينها وأدوات تمكينها، وإنما يَجْتَهِدُ كل إنسان في الحصول على ما بَلَغَه من الوسع في صنائع زمانه، وما استحسن عُرْفًا من محسنات عصره وأوانه، ولولا تَغَيُّر الأحوال والعادات؛ لكان المُتَقَدِّم كَفَى المتأخر تَكَلُّفها، وإنما حَظُّ المتأخر أن يُعَانِي نُشْدَ الشارد مع حِفْظِه، وجَمْع المتفرِّق بِلَحْظه، ثم يعرض ما تَقَدَّم على حكم زمانه وعادات وقْته وأوانه، فيُثْبِت ما كان موافقًا، وينفي ما كان شَاقًّا، ثم يَسْتَمِد خاطره في استنباط الزوائد، واستخراج الفوائد، واختراع ما به السهولة، وابتداع ما يبْلغ رب البصائر مَأْمُوله.

لعمرك ما الأبصار تَنْفَع أهْلَهَا إذا لم يَكُنْ للمُبْصِرين بصائِرُ
وهل يَنْفَع الخَطِّيُّ غير مُثَقَّفٍ وتَظْهَر إلا بالصِّقَال الجواهرُ

فمتى أُسْعِفَ الإنسان بشيء اخترعه؛ حَظِيَ بِفَضْله بشرط أن يكون مألوفًا للوقت وعُرْفِ أَهْلِه، فإن لأهل كل وَقْت عادة تُؤلف، ومنافع تُعْرف، تَقَع من النفوس بموقع المحبة والرغبة؛ لوضوح مَسْلَكِها وسهولة مأخذها، وإلا كان ضائعًا مُسْتَهْجَنًا، والإتيان به تَعَسُّف، والإلزام به تَكَلُّف، فإن العادة حقيقة بقول القائل:

شيء به فُتِنَ الورى غَير الذي يُدْعَى الجَمَالَ ولَسْتُ أدري ما هُوَ

فإن مُسْتَحْسَنَ العُرْف والعادة لا يُوجِبُهُ عَقْل أو شَرْع؛ بدليل اختلاف ذلك باختلاف البلاد؛ كالتجمل والزينة، فإن لأهل المشرق زِيًّا مألوفًا، ولأهل المغرب زيًّا معروفًا غيره، وكذلك يختلف العُرف باختلاف أجناس الطوائف، فإن للأجناد زيًّا مألوفًا يُخَالِف مَأْلُوف العلماء والتجار، وأصله أن يكون للناس على اختلافهم سِمة يتميزون بها، فإن عَدَلَ واحد عن عُرْف بلده وجِنْسه بدون مندوحة؛ عُدَّ ذلك منه حُمْقًا، فكلٌّ يَتْبَع القيافة الخاصة به، ولزوم العرف المعهود، واعتبار الحد المحدود أَدَلُّ على الحق، وأَمْنَع من الذم، وربما تَوَهَّمَ البعض أن التزيي بزي البلاد الأجنبية المشهورة بالتمدن هو من المروءة الكاملة، والسيرة الفاضلة، فَبَادَرَ بالامتياز بها عن الأكثرين بدون مُوجِب، مع أن قِيَافَةَ بلده لا

تَنْقُصُ عنها شيئا، وإنما قَصَدَ بذلك الخروج من قِيَافَة وطنه التي استَرْذَلَهَا الأجانب، وخَفِي عليهم تَعَدِّي طَوْرِهم، وتَجَاوُز قَدْرِهم، وقَبُحَ بَيْن أهل الوطن ذِكْرُهم.

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللؤم عِرْضُهُ   فكل رداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

فالتمدن ليس في زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه، لا سيما إذا كان لا يمكن لمن تَزَيًّا به إحسانه.

وما الحُلْيُ إلا زينة لنقيصةٍ   يُتَمِّم مِنْ حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرَا
وأما إذا كان الجمال مُوَفَّرًا   كَحُسْنِك لَمْ يُحْتَجْ إلى أَنْ يُزَوَّرَا

فحاجة الوطن إلى المنفعة الحقيقية أشد من حاجته إلى تَقْلِيد العرف، الذي هو منفعة ظاهرية، ولما كانت الديار المصرية فائقة في المآثر جاهلية وإسلامًا، ولها أَسْبَقِيَّة التمدن قديمًا وحديثًا، والآن تنافس الممالك الأخرى في الفنون والصنائع وسائر أنواع المنافع؛ لها الآن أن تُزَاحِمَ في ميادين صحيح الفخار، وتصون درجة السلف التامة الاعتبار، حتى يَصِحَّ أن نقول:

نَشِيدُ كما شادوا ونبني كما بَنَوْا   لنا شَرَفٌ مَاضٍ وآخَرُ غَابِرُ

فلهذا وجب علينا أن نَسرُد في صحائف هذا الكتاب ما يَبْدُو لنا من أحوال المنافع الملائمة لِمِزَاج الوقت والحال، مما عَسَاه أن يَسْتَفِيدَ منه الأهالي الفوائد الجمة من أسباب الرفاهية والنعمة، كما قال النابلسي:

لم أزل في الحب يا أملي   أَمْزج التوحيد بالغَزَل

وتكفي الأدلة الإقناعية في إفادة أهمية المنافع العمومية، وليكون للجميع في وسائلها ومقاصدها كمال المعلومية.

كل له غرض يسعى لِيُدْرِكَهُ   والحُرُّ يَجْعَلُ إدراكَ العُلَا غَرَضَا

فالآن تَعَطَّرَ مُلْكُ مِصْر بشذا نَسَائِمِ مَنَافع الممالك الأجنبية، فصار كما قيل:

كأن تجَارًا تَحْمِلُ الطِّيبَ عَرَّسُوا   بـه ثـم فَـضُّـوا ثَـمَّ كُـلَّ خِـتَـامِ

أي: فَضُّوا خِتَام المسك فَتَعَطَّرَت الأرجا، فهو لرجاء بلوغ الدرجة الكمالية أَقْرَب حصولًا وأرجى.

الباب الأول

في بيان المنافع العمومية من حيث هي وفي موادها ومتفرعاتها وما يتعلق بها وفيه فصول.

الفصل الأول

فيما تُطْلَق عليه المنافع وبيان موادها الأصلية وأنها دالة على التمدن والعمران.

* * *

المنافع جمع منفعة، وهي في اللغة ضد المَضَرَّة، ومنه قوله:

إذا أنت لَمْ تَنْفَعْ فَضُرَّ فإنما يُرجَّى الفتى كَيْمَا يَضُرَّ ويَنْفَعِ

وقد تُطْلَقُ على الدواء؛ كقوله:

هم الناس فالْزَمْ — إنْ عَرَفْتَ — طَرِيقَهُمْ فَـفِـيـهِـمْ لـضُـرِّ الـعـالـمـيـن مَـنَـافِـعُ

وتُطْلَقُ على المنفعة الشرعية، فتكون عبارة عن جميع ما شُرِع من أنواع البر للتعاون عليه؛ كالقرض، والعارية، والهبة، والصدقة، والوقف، وما أشبه ذلك مما يقتضي الأُلْفَة، واتفاق الآراء في تدبير المعاش والمعاد، وتُطْلَقُ في عُرف تدبير المنزل على ما يُفْعَل لمصلحة تَخُصُّ بلدة أو مدينة أو مملكة؛ لراحة أهلها، وتنظيم أحوالهم من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وَقَعَ في المملكة، وبها يترقى الوطن، وتشترك في ثمرتها أربابه؛ فلهذا تُقَيَّدُ بالعمومية، فهي بالمعنى العُرْفِي تَخُصُّ السياسة؛ حيث إنه قد لا تقتضي الأوضاع الشرعية المتأدب بها في المملكة عين المنفعة السياسية، إلا بتأويلات للتطبيق على الشريعة، ومع ذلك فمبنى المنفعة في السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال مِنْ غَيْر مهانة ولا عَسَف، وإنفاقه في المصارف الحميدة والعاقبة الجميلة الذكر، ومبنى المنفعة أيضًا على صرف

الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس، بِقَدْر ما تَسَعُهُ القُدْرَة البشرية من إسعافهم وإعانتهم، وسيأتي في الفصل الأول من الباب الثاني تعريفها في اصطلاح الإدارة الأوروبية، وأنها مَجْمَع الفضائل.

وَقَدْ ذَكَرْنا في المقدمة انقسام أسباب المعايش إلى أربعة أقسام: وهي زراعة، وصناعة، وتجارة، ونتاج الحيوانات، ونقول: إن هذه المنافع إذا وُجِدَتْ في مملكة؛ دامت متى رُوعِيَ فيها العدل والإنصاف، فتكون مقابلة للاستثمار والتمول وتحصيل النقود والمتاع والعقارات وجميع الأملاك الاحتياطية، فبواسطة اكتساب الأهالي هذه المكاسب؛ يَصِحُّ لهم الإنفاق المنزلي مع السعة والثروة، وبفضول أموالهم يؤدون حقوق المملكة القائمة بحفظهم وصيانتهم، مما يُوجِب ثَرْوَتَها واقتدارها، وينفقون في سبيل الله ما شاء أن ينفقوا؛ رحمة بذوي الحاجات، فبهذا يتم النظام المنزلي والنظام المدني، وقِوَام كل من النظامين على الاقتصاد في الإنفاق، وتَرْك الحرص والطمع والإسراف والتبذير؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تُمْسِك عن الإنفاق بحيث تُضَيِّق على نَفْسك وأهلك في وجوه صلة الرحم، وسبيل الخيرات؛ أي: لا تَجْعَل يَدَكَ في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط، ثم قال: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تُوَسِّع في الإنفاق تَوَسُّعًا مُفْرِطًا؛ بحيث لا يَبْقَى في يدك شيء، ثم قال تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أي: تَلُومُ نَفْسك، وأصحابُك يلومونك على تضييع المال بالكلية، ومعنى «محسورًا»: مقطوعًا عن الإنفاق؛ يعني: عاجزًا مُتَحَيِّرًا.

وقد ذَكَرَ الحكماء أَنَّ لكل خُلُق طرفين؛ أحدهما: الإفراط، وثانيهما: التفريط، وهما مذمومان، فالبخل مَثَلًا إفراط في الإمساك وهو مذموم، والتبذير تفريط في الإنفاق وهو مذموم أيضًا، والوسط ممدوح وهو العدل في الإنفاق، وهكذا كل فضيلة لها طرفان ووَسَط، والوسط عبارة عن الإنصاف في الفضيلة، وهو الممدوح منها، ولكن ربما يقطع في الوهم فضيلة أحد الطرفين؛ لعدم الوقوف على الحقيقة بترك معاشرة أرباب الفضائل؛ فلهذا ينبغي تعيين محل تَعَلُّم الفضائل حتى لا تَشْتَبِه بأضدادها، وبيان ذلك أن الإنسان من بين جميع الحيوان لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، ولا بُدَّ له من معاونة قوم كثيري العدد حتى تتم حياته طيبة، ويجري أمره على السداد؛ ولهذا قال الحكماء: «إن الإنسان مدنيٌّ بالطبع» أي: هو محتاج إلى مدينة فيها خَلْق كثير؛ لتَتِمَّ له السعادة الإنسانية، فكل إنسان بالطبع وبالضرورة محتاج إلى غيره، فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس، ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ويحبهم المحبة الصادقة؛ لأنهم يُكْمِلون ذاته، ويُتِمُّون

إنسانيته، وهو أيضًا يَفْعَل بهم مثل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك بالطبع وبالضرورة؛ فكيف يُؤْثِر العاقل العارف بنفسه التَّفَرُّد والتخلي، وتعاطي ما يرى الفضيلة في غيره؟!

فإِذَنْ القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد، وتَرْك مخالطة الناس، وتَفَرَّدوا عنهم إما بملازمة المَغَارات في الجبال، وإما ببناء الصوامع في المفاوز، وإما بالسياحة في البلدان للدروشة؛ لا يَحْصُل لهم شيء من الفضائل الإنسانية المدنية المعهودة التي عَدَدْناها، وذلك أن من لم يُخالِط الناس ويُساكِنْهم في المدن؛ لا تَظْهَر فيه هذه الفضائل من العفة والنجدة والسخاء والعدالة، بل تصير قواهم وملكاتهم التي رُكِّبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة؛ لأنها لا تَتَوَجَّه إلى خير ولا إلى شر بالنسبة للعموم، فإذا تَعَطَّلَتْ ولم تَظْهَر أفعالها الخاصة بها؛ صاروا بالنسبة لقصور صفاتهم عليهم، وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم بمنزلة الجمادات، أو الموتى من الناس؛ ولذلك يَظُنُّون ويُظَنُّ بهم أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء، فهم كما قال الشاعر:

يقول أبو سَعِيدٍ مُذْ رآني عفيفًا مُنْذُ عامٍ ما شَرِبْتُ
على يدِ أيِّ شَيْخٍ تُبْتَ؟ قُلْ لِي فقُلْتُ: على يد الإفلاس تُبْتُ

وتقول العامة: من العفة أن لا تجد، وكذلك في سائر الفضائل؛ أعني: أنه إذا لم يَظْهَر منهم أضدادُ هذه التي هي شرور؛ ظَنَّ بهم الناس أنهم أَفَاضِلُ، وليست الفضائل إعدامًا، بل هي أفعال وأعمال تَظْهَر عند مشاركة الناس ومساكنتهم، وفي المعاملات، وضروب الاجتماعات، ونحن إنما نَعْلَم ونَتَعَلَّم الفضائل الإنسانية التي نُسَاكِن بها الناس ونخالطهم؛ لِنَصِلَ منها وبها إلى سعادات أُخَرَ إذا صرنا إلى حال أخرى، وتلك الحال غير موجودة لنا الآن، فالسخاء مُفَرَّع عن وجود مال بيد الإنسان استفاد بالمخالطة حُسْن صَرْفِه في الخير، فإذا أَحْسَنَ صَرْفَه بالوجه الأوسط؛ كان حائزًا لفضيلة السخاء.

وعلى كل حال فمن جوامع الكلم قول بعض الحكماء: «لا خير في السرف كما لا سرف في الخير»، فمن يَطْلُب زيادة المال ويَلْتَمِس الكثرة في أسباب الكسب ليصرف مكاسبه في وجوه الخير، ويَتَقَرَّب بها في جهات البر، ويصنع بها المعروف؛ جدير بالحمد إذا تَوَقَّى مطالب التبعات، ومَكَاسِب الشبهات؛ لأن المال آلة المكارم، وعَوْن على الدين، ومُؤَلِّف للإخوان، ومَنْ فَقَدَهُ من أبناء الدنيا؛ قَلَّت الرغبة فيه وكَثُرَت الرهبة منه، ومن لم يكن منهم بموضع رَغْبة ولا رَهْبة؛ استهان الناس به، وما أَحْسَنَ ما قاله مع التورية

الإمام العارف بَقِيَّة السلف الطاهر أبو الفضل ابن وَفِيٍّ:

وخِلٍّ سِمْتُه صَفْعًا بِمَالٍ فقال تَوَازَعُوه يا صِحابي
إذا الحِمْل الثقيل تَوَازَعَتْهُ أَكُفُّ القوم هَانَ على الرِّقَابِ

ومثله في التورية ما كَتَبَه ابن أبي حجلة إلى الخواجة شهاب الدين الذهبي، وقد مَطَلَه بحوالة ذهب من قوله:

قد مَنَعْتُم صَرْف الدنانير عني ولَكُم في الورى هِبات كثيرهْ
وأنا شاعر وفي شَرْع نَظْمِي صَرْفُها واجب لِأَجْلِ الضرورهْ

قال مجاهد: «الخير في القرآن كله المال» فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: المال، و﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني: المال، وقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني: مالًا، وقال تعالى، عن شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: بمال وغِنًى، وإنما سمى الله المال في القرآن خيرًا إذا كان في الخير مصروفًا؛ لأن ما أَدَّى إلى الخير فهو في نفسه خير، وقد رُوِيَ عن عبد الله بن بُرَيْدَة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحساب أهل الدنيا هذا المال»، وقال عبد الرحمن بن عوف: «يا حبذا المال أَصُونُ به عِرْضي وأُرْضِي به ربي»، وقال ابن عباس: «الدراهم والدنانير خواتم الله في الأرض، لا تُؤْكَلُ ولا تُشْرَبُ، وحيث قَصَدْتَ بها قَضَيْتَ حاجتك»، قيل لبعضهم: لِمَ تُحِبُّ الدنانير وهي تُدْنِي من النار؟ قال: هي وإن أَدْنَتْ منها فقد صانت عنها، وقال بعض الحكماء من الملوك: «مَن أُصْلِح مَالُه فَقَدْ صان الأكرمَيْن: الدين، والعِرض»، ومَرَّ رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء فتحرَّكَ له وأكْرَمَهُ وأدناه، فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إليه حاجة؟ فقال: لا، ولكن رأيتُ ذا المال مَهِيبًا فَهِبْتُه، ويقال: الدراهم مراهم؛ لأنها تُدَاوِي كُلَّ جرح، ويَطِيب بها كل صلْح، وقال أُحَيْحَة بن الجلاح:

رُزِقْتُ لُبًّا وَلَمْ أُرْزَقْ مُرُوءَتَهُ وما المروءة إلا كَثْرَة المالِ
إذا أَرَدْتَ مواساةً تقاعَد بي عَمَّا يُنَوِّه باسمي رِقَّةُ الحالِ

وقال بعضهم:

وَمَنْ يَطْلُبِ المال المُمَنَّعَ بالقَنَا يَعِشْ ماجدًا أو تَخْتَرِمْه الخوارِمُ

وقال آخر:

كفى حَزَنًا أني أَرُوح وأَغْتَدِي وما لِيَ من مالٍ أَصُونُ به عِرْضِي
وأَكْثَرُ ما أَلْقَى الصديق بمَرْحَبًا وذلك لا يكفي الصديقَ ولا يُرْضي

وأما ذَمُّ جمع المال فهو محمول على مَنْ يَقْتَنِي الأموال ليدَّخِرها، ويَكُفَّ عن صَرْفها في وجوه الخيرات، حيث إن ذلك يستدعي سوءَ ظنه بخالقه، مع أن في حُسْنِ الظن بالله راحةُ القلوب، مصداق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم إن مشروعية التعاون على المنافع العمومية يدل عليها كثير من الآيات والأحاديث النبوية؛ فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: أَنَّ مَنْ أنفق كان من جملة الأبرار الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ الآية، والبر أيضًا أكثر أعمال الخير، فهو صفة جامعة، ومعنى الآية عليه: لن تتصفوا بهذه الصفة وهي استجماع أعمال الخير، حتى تنفقوا مما تحبون، فتفوزوا بفضيلة البر، فأفضل طاعات الإنسان إنفاق ما يحبه، فكان السلف إذا أحبوا شيئًا؛ جعلوه لله تعالى.

رُوِيَ: أنه لما نزلت هذه الآية؛ قال أبو طلحة: «يا رسول الله، لي حائط؛ أي: بستان بالمدينة، وهو أحب أموالي إليَّ أن أتصدق به، فقال عليه السلام: بخ بخ، ذاك مال رابح، وإني أرى أن تَجْعَلَهَا في الأقربين، فقال أبو طلحة: أَفْعَل يا رسول الله، فَقَسَمَهَا في أقاربه.» ويُرْوَى: أنه جعلها بين حسان بن ثابت وأُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنهما، «ورُوِيَ»: أن زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يُحِبُّه، وجعله في سبيل الله، فحَمَلَ عليه رسول الله ﷺ أسامة، فوَجَدَ زَيْد في نفسه، فقال عليه السلام: «إن الله قد قَبِلَها»، واشترى ابن عمر جارية أَعْجَبَتْه فأَعْتَقَهَا، فقيل له: أَعْتَقْتَهَا ولم تُصِبْ منها؟!

فقال: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والإنفاق هنا: يشمل الزكاة، وغيرها من كل شيء أنفقه الإنسان من ماله، يبتغي به وجه الله تعالى، حتى التمرة، وقوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّون﴾ فيه إشارة إلى أن إنفاق الكل لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ فهذا أَدَب الله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»، وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها   نجاة ولا تَرْكَب ذَلُولًا ولا صَعْبَا

ويقال: ثلاثة من حقائق الإيمان: الاقتصاد في الإنفاق، والإنصاف من نفسك، والابتداء بالسلام. وضابط الاقتصاد في الإنفاق أن ما دَبَّرَه العقل وناله الفضل فهو الاقتصاد الجميل الحسن، فالعقل السليم لا يَميل إلى الفَرَط ولا إلى الشَّطَط، بل يَتْبَع الوسط الذي هو خير الأمور.

ومن شواهد فضيلة البر ودلائل الكرم والإنفاق المروءة، التي هي حِلْية النفوس وزينة الهِمَم، وهي مجاراة النفس على أفضل أحوالها، «رُوِي» عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن عامَل الناس فَلَمْ يَظْلِمْهم، وحَدَّثَهم فَلَمْ يَكْذِبْهم، ووعَدَهُم فلم يُخْلِفْهم؛ فهو مِمَّن كَمُلَتْ مروءته، وظَهَرَتْ عدالته، ووَجَبَتْ أُخُوَّته، وحَرُمَتْ غَيْبَتُه»، «وسُئِلَ» بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: «العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأرفع، ولا ينقاد للمروءة مع ثِقَل تَكَلُّفها إلا مَنْ سَهُلَتْ عليه المَشَاقُّ؛ رَغْبَة في المَحْمَدَة، وهانَتْ عليه المَلَاذُّ؛ حَذَرًا من المَذَمَّة»؛ ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم؛ أي: أكثرهم مَشَقَّة، قال المتنبي:

لولا المَشَقَّة سَادَ الناس كُلُّهُمُ   الجود يُفْقِرُ والإقدام قَتَّالُ

وقال:

وإذا كانت النفوس كِبَارًا   تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

والداعي إلى استسهال الصعب في التمسك بالمروءة شيئان: عُلُوُّ الهمة، وشَرَف النفس؛ فأما عُلُوُّ الهمة: فإنه باعث على التقدم، وداعٍ إلى التخصص؛ أَنَفَةً من خمول الضعة، واستكبارًا لمهانة النقص، وفي الحديث الشريف: «إن الله تعالى يُحِبُّ مَعَالِيَ الأمور، ويكره سَفْسَافَها»، وأما شَرَف النفس فبه يكون قبول التأديب، وتقويم التهذيب، فإذا شَرُفَت النفس؛ كانت للآداب طالِبةً، وفي الفضائل راغبة، فإذا تَجَرَّد شَرَف النفس عن علو الهمة؛ كان الفضل به عاطلًا، حتى قيل: إن شَرَف النفس مع صِغَر الهمة أَوْلَى من عُلُوِّ الهمة مع دناءة النفس؛ لأن من غَلَبَتْ عليه هِمَّتُه مع دناءة نَفْسه؛ كان مُتَعَدِّيًا إلى طَلَب ما لا يَسْتَحِقُّه، ومُتَخَطِّيًا إلى الْتِماس ما لا يَسْتَوْجِبه، ومن شَرُفَتْ نفسه مع صِغَر هِمَّتِه؛ فهو تارك لما يَسْتَحِقُّه، ومُقَصِّر عما يَجِب له، والفرق بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب، قال الشاعر:

إن المروءة ليس يُدْرِكُها امرؤ ... وَرِثَ المكارم عن أبٍ فَأَضَاعَهَا
أَمَرَتْهُ نَفْس بالدناءة والخَنَا ... ونَهَتْهُ عن سُبُل العُلَا فَأَطَاعَهَا
فإذا أصاب من المكارم خَلَّةً ... يبني الكريم بها المَكَارِم بَاعَهَا

قال أنوشروان: «الكامل المروءة من حَصَّنَ دينه، ووَصَلَ رَحِمه، وأَكْرَم إخوانه»، وقال بعض الحكماء: «كامل المروءة مَنْ أَحَبَّ المكارم، واجتنَبَ المحارم»، فالبِرُّ الحقيقي المذكور في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حليف للمروءة الكاملة، ويطابق هذه الآية الشريفة قولُهُ ﷺ: «إذا مات ابن آدم انْقَطَعَ عَمَلُه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو عِلْم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه الإمام مسلم رضي الله عنه بلفظ: «إذا مات المسلم» بدل «ابن آدم»، فقدْ حَثَّ الحديث النبوي على ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين في حَقِّ صاحب العمل، تُدِيم عَمَله، وتجعله باقيًا؛ كأن صاحب العمل حَيٌّ بِعَمَلِه، مأجور دائمًا، فهذه الفضائل مُخَلِّدة للذِّكْر، مُؤَبِّدة للأجر، وبِضِدِّها تتميز الأشياء، فإن مَنْ لا صدقة له في حياته، ولا عِلْم، ولا ذُرِّيَّة؛ فعَمَلُه مقطوع من أَصْله، فهو مَيِّت الأحياء، حيث عُدِم الفضائلَ الثلاثة.

فالفضيلة الأولى الصدقة الجارية: خَصَّهَا بعْضُ العلماء بالوقف، وجَعَلَهَا من أدلة تشريعه، وقال بعدم دخول الوصية في معنى الصدقة، وبعدم دخول صدقة التطوع،

والقرينة دالة على العموم، لا سيما إذا كان الحديث في مَعْرِض فضائل الأعمال، فالعبرة بعموم لفظه، فالمدار على أن تكون الصدقة جارية مُسْتَمِرَّة باقية مُخَلَّدَة، لا يَنْقَطِع نَفْعُها، ولا يَمْتَنِعُ من الدَّرِّ ضرعها؛ كحفر الآبار في أي محل من المحالِّ، حيث يَصِير النفع بها، رُصِدَتْ على جهة أم لم تُرْصَدْ، وغَرْس الأشجار التي يُتَظَلَّل بها، وإجراء الأنهار، وتسليك الطرق، وجميع الأفعال الخيرية الدائمة، فالصدقة الجارية بهذا المعنى جامعة لأكثر أركان المنافع العمومية، والأوقاف داخلة فيها، مما يُرْصَد للمساجد والمارستانات، ونحو ذلك مما يبتغي به الواقف وَجْه الله تعالى، حتى يكون من المنافع العمومية، والباقيات الصالحات، والأعمال الحسنات، فإن كثيرًا من أرباب اليسار يحرصون على بناء المساجد والمدارس، ويحبسون عليها الدور والخانات والحوانيت وغيرها، ويكتبون أسماءهم عليها؛ لِيَتَخَلَّدَ ذِكْرُهم، ويُذْكَر في صُحُف أهل الخير، فإذا كان هذا البناء وما يُرْصَد عليه من وَجْهٍ حلال طَيِّب؛ كان من مِصْداق الحديث؛ يَعْني من الصدقات الجارية النفْعِ والثواب، وإلا بأن كان بِوَجْه الاغتصاب، أو كان لمجرد الفخر كان راصِدُه مُجَرَّدًا عن الأجر، مُجَازًى بالعقاب، فلو كان صاحبه رَدَّ المال على أربابه لكان أَوْلَى.

وكذلك مَنْ تَظَاهَرَ بِصَرْف مَالِه على الفقراء؛ كمن يُرْسل إلى نُظَّار الجوامع والمساجد أشياء جسيمة، لا تَصِل إلى أربابها المحتاجين إليها، بل أَخَذَهَا مَن لا يَسْتَحِقُّها، ويَظُن مُرْسِلُها أَنَّ صَدَقَتَه صادَفَتْ مَحِلًّا، فقد تَسَاهَلَ في صَدَقَته، إذْ قَدْ تَعَدَّتْ مصارِفَها الحقيقية، فأَوْلَى من هذه الصدقات الظاهرية صَرْفُ الأموال في منفعة عمومية حقيقية، يكون فيها الغبطة والمنفعة للفقراء والمساكين، بحيث تعود عليهم مُسْتَمِرَّة لا مُنْقَطِعَة.

ومن جملة الصدقات ما يكون للنفس فيه خبيئة، وهي حُبُّ المدح والإعطاء، والرياء والسمعة؛ لِيُقَالَ فلان يُعْطِي، كصدقة المتصدقين في المحافل؛ لِقَصْد الشكر وإفشاء المعروف، ومن الناس من يُكْثِر من الملاهي والأفراح بدون لزوم، ويُنْفِق في ذلك النفقات الجسيمة وهو يَعْلَم كثرة الفقراء في قريته، والجياع من جيرته وأهل بلدته، بل ومن أرحامه، فَلَوْ أَنْفَقَ عليهم ما صَرَفَه في مَحْض اللهو واللعب لَفَازَ، ولو اسْتَفْتَى العقل في ذلك لأفتاه بالنجاز، ولكن قد فاته كمالُ السباق إلى الفضائل في ميدان السابقين، وما درى أَنَّ أداء الواجب خصوصًا في إطعام الفقراء المستحقين خير من نوافل النوافل بيقين.

ودون مَنْ لا يَعْرِف وجوه المصارف الحقيقية وأبواب المنافع العمومية مَنْ يَجْمَع المال ويبخل بإخراجه، ولا يتصدق به، ولا يُقْرِضه لمحتاجه، فيُجْهِد النفس في البخل المُهْلِك، ويرى أن الإمساك خير من الإنفاق وأَوْلَى، فلا يَنْتَفِع بثواب الآخرة ولا بمَنْفَعَة الأُولَى، فهذا قابض بيده على أسباب الحرص والأمل، ولا شك أن الحرص من سُبُل المتالف، وآفة من آفات الحرمان، وإطالة الأمل من إساءة العمل، وذلك لما فيه من التسويف، وقيل: الأمل مذموم إلا من العلماء، فلولا أَمَلُهُمْ لما صَنَّفُوا، وأيضًا لا يخلو الْأَمَلُ مِنْ سِرٍّ لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تَهَنَّأَ أحدٌ بِعَيْش، ولا طابت نَفْسُه أن يَشْرَع في عَمَل مِنْ أعمال الدنيا، فالمذموم منه الاسترسال فيه، وعليه يُحْمَل حديث أنس رَفَعَه: «أربعة من الشقاوة: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا» أخرجه البزار، قال بعض الحكماء: «الرزق مقسوم، والحريص محروم، والحسود مغموم، والبخيل مذموم» وقال الشاعر:

لا تَحْسُدَنَّ أَخَا حِرْص على سَعَة ... وانظر إليه بِعَيْن الماقت القالي
إن الحريص لمشغول بِشِقْوَتِهِ ... عن السرور بما يحوي من المال

وكان المأمون يُعْجِبُه قول أبي العتاهية:

تعالى الله يا سَلمَ بْنَ عَمْرٍو ... أَذَلَّ الحِرْص أَعْنَاق الرِّجَالِ

وقَبْلَه:

نَعَى نَفْسِي إليَّ مِنَ الليالي ... تَصَرُّفُهُنَّ حالًا بَعْدَ حَالِ
فما لي لَسْتُ مشغولًا بنفسي؟! ... وما لي لا أخاف الموتَ ما لي؟!
لقد أيقَنْتُ أني غيْرُ باقٍ ... ولكني أراني لا أبالي

تعالى الله يا سَلمَ بْنَ عَمْرٍو ... إلخ.
وبَعْدَه:

هَب الدنيا تُسَاق إليك عَفْوًا ... أليس مَصِيرُ ذاك إلى الزوالِ؟

فما ترجو بشيء ليس يَبْقَى　　وتنسى ما تُغَيِّرُه الليالِي

قال: فلما بَلَغَ سَلم الخاسر قول أبي العتاهية؛ قال:

ما أَقْبَحَ التزهيدَ مِنْ واعِظٍ　　يُزَهِّد الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيده صادقًا　　أضحى وأَمْسَى بَيْتَه المَسْجِدُ
إنْ رَفَضَ الدنيا فما بَالُهُ　　يُكْثِر المال ويَسْتَرْفِدُ
يخاف أن تَنْفَدَ أرزاقُهُ　　والرزق عند الله لا يَنْفَدُ
الرزق مقسوم على مَنْ ترى　　يَسْعَى له الأبيض والأسودُ

فقد بَيَّنَ ذلك البيت وهو «تعالى الله يا سَلم بن عَمْرو ... إلخ»؛ نتيجةَ الحرص وعاقبة البخل، فشَطْرُه الأول من التهويل المُبْكِت، وشَطْره الأخير من جوامع الكلم المُسْكِت.

وقد تَفَنَّنَ الأدباء وأرباب النوادر في حكاية وقائع للبخلاء؛ إما واقعية أو اختراعية، فَلْنَذْكُرْ جُملةً منها لترويح النفوس، فنقول مما يُحْكَى: أنه قيل لبعض البخلاء: ما الفرج بَعْد الشدة؟ فقال: أن يُحْلَف على الضيف فيَعْتَذِر بالصوم، قيل: إن رجلًا من البخلاء حَضَرَ بخَصْم إلى حاكِم، فقال: يا حاكِم المسلمين، اشْتَرَيْتُ البارحة رأسًا فأَكَلْتُ لَحْمَه، وتَرَكْتُ عَظْمه على بابي لأتجمل به، فجاء جاري هذا فنَقَلَه إلى بابه، وتخاصَما فسَمِعَه الحاكم وهو يقول له: ويحك أنت تَقْعد يومًا على باب داري، ويومًا تَقْعُد في ظل جداري، ويومًا تقول: كيف راح فلان؟ فهل بَلَغَكَ أنني على مطلب، قيل: وكان العماد الحِلِّي يقول: «ليس الشجاع عندي عمرو بن معدي كرب، ولا عنترة العبسي، ولا خالد بن الوليد، إنما الشجاع الذي يرى طعامَه يُؤْكَل بحَضْرَتِه وهو صابر.»

ويقال: إن العماد الحِلِّي المذكور اشْتَرى مملوكًا تركيًّا فحضر إليه يَوْم سَبْت بدمشق المحروسة، فقال له: «أريد أن أَتَفَرَّج مع المماليك فأعطني شيئًا، فأعطاه فلسًا فرماه، فغضب العماد وقال: وَيْحك، ترمي الفلس وهو النقطة التي في وسط الدينار، فقال له المملوك: وكيف ذلك؟ فقال: لا ترى في يدك فلسًا حتى تَصْرِف درهمًا، ولا ترى في يدك درهمًا حتى تَصْرف دينارًا، وهذا الفلس الذي رَمَيْتَ به يقضي حاجة ساعة، وحاجة يوم، وحاجة أسبوع، وحاجة شهر، وحاجة عام، وحاجة الدهر كله، فقال له مملوكه: وكيف ذلك؟ فقال: أما حاجة ساعة فقصعة عقيد أو كوز فقاع، وأما حاجة يوم فباقة بقل أو

زيت للسراج، وأما حاجة أسبوع فقطن للقناديل، وأما حاجة شهر فكبريت، وأما حاجة عام فملح، وأما حاجة الدهر فَوَتَد يُدَقُّ في الحائط ليُعَلَّق عليه الثياب.»

قال عبد العظيم بن أبي الإصبع: نَزَلْتُ من قلعة الرها يومًا وصَحِبَنِي اثنان من أصحاب الملك المُظَفَّر شهاب الدين؛ لِقَصْد السلام على العماد الحِلِّي بالمدرسة، وكان وكيل بيت المال بالرها من قِبَل الملك العادل، قال: فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا به طَلَبْنَا الغداء منه، فقال: نحن بصريون نتخارج على جاري عادتنا، ولكن ما أَحِيف عليكم؛ لأني صاحب البيت أنا وحدي، مِنْ عندي ثلاثة أشياء، وأنتم الثلاثة مِنْ عِنْدِكم شيء واحد؛ أنا من عندي الغلام الذي يشتري الحاجة، والبيت للجلوس، والسفرة التي يُؤْكَل عليها، وأنتم الثلاثة من عندكم الفضة التي يُشْتَرَى بها الحاجة، فقُلْتُ له: يا عمادُ ما أَشْبَه هذه المُخارَجة بِمُخَارَجة بعض الخلفاء مع نديم له، اجْتَمَع به في يوم نوروز وعَزَمَا على الشرب، فقال له نديمه: مِنْ عِنْدِك شيء ومِن عِنْدِي شيء، وقد تَمَّ المقام، وقال: اسمع مني شعرًا أَذْكُر فيه ما يكون مِن عِنْدي وما يكون مِنْ عِنْدِك، وأَنْشَدَ:

منـي ومنك غدًا يوم نُسَرُّ بِهِ ... في صُبْحَة اليوم إن اليوم نوروزُ
البَيْتُ مِنْكَ ومني الكَنْسُ أَكْنُسُهُ ... والرَّش مِنِّي ومنك الماء والكوزُ
واللحم مِنْك ومِنِّي النار تَطْبُخُهُ ... والأكل مِنِّي ومِنْكَ الخبزُ مخبوزُ
والراح منك وَرَيْحَانٌ وفاكهةٌ ... والشُّرْب مني إذا دَارَتْ قَوَاقِيزُ[1]
هذي مخارجة ما سَنَّ سُنَّتَهَا ... في مثل ذا اليوم بهرام وفيروزُ

وأما قوله: «نحن بصريون نتخارج على جَارِي عَادَتِنَا» فإشارة إلى بُخْل أهل البصرة، كما تُفِيدُه واقعة النضر بن شميل النحوي، فإنه لَمَّا ضَاقَتْ معيشته بالبصرة خرج يريد خراسان، فَشَيَّعَه من أهلها نَحْوٌ من ثلاثة آلاف رجل، ما فيهم إلا مُحَدِّث أو نَحْوِيٌّ أو عَرُوضِيٌّ أو إِخْبَارِيٌّ أو لُغَوِيٌّ، فلما صار بالمربد؛ قال: يا أهل البصرة، يَعِزُّ عليَّ فراقُكُم، والله لو وَجَدْتُ كل يوم كيلجة باقلي ما فارقْتُكم، فلم يَكُن فيهم من يَتَكَلَّف له بذلك، وهذه الواقعة تُشْبِه واقعة القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، فإنه لما نَبَتْ به بغداد خرج منها طالبًا مصر، فشَيَّعه من أكابرها وفضلائها جماعة موفورة، فقال لهم لَمَّا

[1] قوله: قواقيز — جمع قازوزة — وهي مشربة أو قدح أو الصغير من القوارير. ا.هـ. (مؤلفه).

وَدَّعَهُم: لو وَجَدْتُ بين ظهرانيكم كل غداة وعَشِيَّة رغيفين ما فارَقْتُ بغداد، ومِنْ شِعْره فيها:

بَغْدَادُ دَارٌ لأهل المال طَيِّبَةٌ ... وللمفاليس دار الضَّنْك والضيقِ
أَقَمْتُ فيها مُضَاعًا بين سَاكِنِهَا ... كأنني مُصْحَفٌ في بَيْت زِنْدِيقِ

وقيل: حَلَفَ بعض البخلاء على صديق له، فأحضر له خُبْزًا وجُبْنًا، وقال: لا تَسْتَقِلَّ هذا الجُبْن فإن رطْلَه بثلاثة دراهم، فقال ضَيْفُه: أنا أَجْعَل الرطل بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: آكُلُ لُقْمَة بجبن ولُقْمَة بغير جبن، وقيل: شُوِيَ لبعض البخلاء دجاجة وقُدِّمَت إليه، فوَجَد فَخِذَها قد عَدِمَ، فنادى في داره: من ذا الذي تَعَاطَى فَعَقَرَ، والله لا خَبَزْتُ في هذا التنور خُبْزًا مُدَّةَ شَهْر، فقال له غلامه وكان ذكيًّا: يا سيدي، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟! فقال: وَيْحَكَ، أما قَرَأْتَ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، وقيل: سَمِعَ بعضُ البخلاء قارئًا يَقْرَأُ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ فقال: هَنَّأَهُم الله، قيل: كان أبو دلف سَخِيًّا بالمال، بخيلًا بالطعام، سُئِلَ رَجُلٌ كان يأكل معه: كيف كان طعامه؟ فقال: كان على مائدته رغيفان، قيل: كيف كانت صحانه؟ قال: كأنها خُرِطَتْ من الخردل، قيل: فكم بَيْن اللون واللون؟ قال: فَتْرَة نبي، قيل: فمن كان يأكل معه؟ فقال: الكرام الكاتبون، وأنشد فيه:

أبو دلف يُضَيِّع أَلْفَ ألفٍ ... ويَضْرِبُ بالحسام على الرَّغِيفِ
أبو دلف لمطبخه قَتَارٌ ... ولكن دُونَه ضَرْبُ السيوفِ

والقتار: رائحة القدر. ومما قيل من الأشعار في البخلاء:

ثَقُلْتُ على الرئيس أبي عَلِيٍّ ... وكنْتُ على قَرِينَتِه خَفِيفَا
وما لي عِنْدَه والله ذَنْبٌ ... سوى أني كَسَرْتُ له رَغِيفَا

غَيْرُه:

رأيْتُ الشيخ أعرَضَ حين جِئْتُ وكاد يموتُ لَمَّا أَنْ دَخَلْتُ
فقلْتُ عَلَامَ تَجْزَع مِنْ لقائي؟ لك البشرى فإني قَدْ أَكَلْتُ

غَيْرُه:

ويَعْجِن للضيف في مُسْعَط دقيق الشعير ولا يَنْخُلُ
ويَسْتَقْبِل الضيفَ مِنْ فَرْسَخٍ أيا ضَيْفُ قُلْ لي متى تَرْحَلُ؟

وقال آخر:

أَتَيْتُ عَمْرًا سَحَرًا فقال: إني صائمُ
فقُلْتُ: إني قَاعِدٌ فقال: إني قَائِمُ
فَقُلْتُ: آتِيكَ غَدًا فقال: صَوْمِي دَائِمُ

وقال الشيخ شمس الدين المزين:

مُسْلِمَانِي أَضَافَنَا لبنًا ما له ثَمَنْ
بَيَّضَ الله وَجْهَهُ كُلَّمَا جَاءَ باللبَنْ

وقال الحمدوني:

رأيْتُ أبا زُرَارة قال يَوْمًا لِحَاجِبِهِ وقد حَضَرَ الطعامُ
حَلَالُ اللَّهِ مِنْ أَهْلٍ ومَالٍ عليَّ وكُلُّ ما يجري حَرَامُ
لئن فَارَقْتَ باب الدار شبرًا وعنْدِي مِنْه عِرْق أو عِظَامُ
لَأَنْتَصِفَنَّ مِنْك بِكُلِّ حَقِّي وَأَمْلَأُ مِنْكَ سيفي والسلامُ
فقال له الغلام: فإن أتاني أَبُوكَ وليس لي فيه مرامُ؟
فقال: لَئِنْ أتى في البيت هِرٌّ على خُبْزِي أُضَارِبُ أو أُضَامُ
إذا حضر الطعام فلا حُقُوقٌ عليَّ لوالِدَيَّ ولا ذمامُ

فما في الأرض أَقْبَحُ مِنْ خوان عليه الخبز يَحْضُره زِحَامُ

وقال ابن بسام:

أما الرغيف على الخوا نِ فمن حَمَامَاتِ الحَرَمْ
ما إن يُحَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُذَاق ولا يُشَمْ

وقال الحمدوني:

أبو نُوحٍ دَخَلْتُ عليه يومًا فغَدَّاني برائحة الطعامِ
وجاء بِلَحْمٍ لا شَيء سَمِين وَقَدَّمَه على طَبَق الكَلَامِ
فكان كمن سَقَى الظمآنَ آلًا وكُنْتُ كَمَنْ تَغَدَّى في المنامِ

فالمُمْسك عن الإنفاق حِرْصًا على الدنيا، وَخَشْيَة من الإملاق ضعيف الإيمان، قليل الوثوق بالرزق الذي ضَمِنَه لعباده المَلِك الرزاق؛ حيث قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مع أن الرزق يَتَيَسَّر بالصدقات وفعل الخيرات، فهي من جملة أسبابه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة»، وقال جعفر بن محمد: «إني لأُمْلِقُ فأناجِزُ الله بالصدقة فأَرْبَح»، وقيل لعلي رضي الله عنه: كيف يحاسِبُ الله العباد على كثرتهم؟ قال: «كما قَسَمَ فيهم أَرْزَاقهم»، وقال الإمام مالك: «سَمِعْتُ أهل مكة يقولون: ما مِنْ أهل بيت فيهم اسم مُحَمَّد إلا رُزِقوا، ورُزِق خيرًا»، وقال بعض الحكماء: «ليس كل طالِبٍ للدنيا مَذْمُومًا، بل المذموم من طَلَبَهَا لنفسه، فمن طَلَبَ الدنيا للدنيا كان مذمومًا، ومن طَلَبَ الدنيا لإصلاح معاشه ومعاده كان ممدوحًا.»

وعلى هذا تُحْمَل أحوال الصحابة رضي الله عنهم، فكل ما دخلوا فيه من أسباب الدنيا فهم بذلك إلى الله متقرِّبون، وفي رضاه متسبِّبون، لا يَقْصِدُون بذلك زخرُف الدنيا وزينَتَها، ولا ذَوْق حلاوتها ولذتها؛ ولذلك وَصَفَهُم الْحَقُّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾، وما ظَنُّكَ بقوم اختارهم الله تعالى لصحبة رسوله ﷺ، ولمواجهة خطابه في تنزيله، فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه مِنَن لا تُحْصَى، وأَيَادٍ لا تُسْتَقْصَى؛ لأنهم هم الذين حَمَلُوا إلينا عنه ﷺ الحِكَم والأحكام، وبَيَّنُوا

الحلال والحرام، وفَهِمُوا الخاصَّ والعامَّ، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقَهَرُوا أَهْل الشرك والعناد، وقال ﷺ فيهم: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وقد وَصَفَهُم الله تعالى بأوصافٍ إلى أن قال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ فَدَلَّ ذلك على أَنَّ ما ابْتَغَوْهُ من الدنيا لم يَقْصِدوا به إلا وجه الله الكريم.

وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ فَلَمْ يَنْفِ عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء، فلا يُخْرِجُهم عن المدحة غِنَاهم إذا قاموا بحقوق مولاهم.

قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان رضي الله عنه يوم قُتِلَ مائة ألف وخمسون دينارًا، وألف ألف درهم، وتَرَكَ ألف فَرَس، وأَلْفَ مملوك، وخَلَّفَ مِنْ ضِيَاعه بِئْرَ أَرِيس وخَيْبَر ووادي القرى ما قيمته مائتا ألف دينار، وبَلَغَ مالُ الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وتَرَكَ أَلْفَ فَرَس، وأَلْفَ مملوك، وغِنَى عَبْد الرحمن بن عوف أَشْهَر مِنْ أن يُذْكَرْ، وكانت الدنيا في أَكُفِّهِم لا في قلوبهم، صَبَرُوا عنها حين فُقِدَتْ، وشَكَرُوا الله تعالى حين وُجِدَتْ، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالفاقة في أَوَّلِ أَمْرِهِمْ حتى تَكَمَّلَتْ أنوارهم، وتَطَهَّرَتْ أسرارهم، فَبَذَلَهَا لهم حينئذ؛ لأنهم لو أُعْطَوْهَا قبل ذلك فَلَعَلَّهَا كانت تأخذ بمجامع قلوبهم، فلما أُعْطَوْهَا بعد التمكين والرسوخ في اليقين؛ تَصَرَّفُوا فيها تَصَرُّفَ الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، فكانت الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم.

ويكفيك في ذلك خروج عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عن نِصْف ماله، وخروج أبي بكر عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن سبعمائة بعير موقورة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان رضي الله عنه جَيْشَ العسرة، إلى غير ذلك من أفعالهم، فَتَضَمَّنَت الآية التزكيةَ لظواهرهم وسرائرهم، ولا شَكَّ أن الصحابة الأكرمين والسلف الصالح صاروا قدوة لغيرهم، فبهذا المعنى سَنُّوا سننًا فكان لهم أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، ولا شك أنها من الصدقات الجارية، وداخلة أيضًا في العلم الذي يُنتفع به، الآتي في الفضيلة الثانية، وأما ما صَنَعَه الخلفاء من الصدقات؛ فهو أكثر مِنْ أن يُحْصَرَ، ولو لم يكن إلا ما فَعَلَتْه أم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد من الخيرات؛ لكان كافيًا في الدلالة على هِمَّة الخلفاء في فِعْل المعروف، فقِصَّتُها في حَجِّها وما اعتمدَتْه في طريقها مشهورة، أَوَليس أنها سَقَتْ أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية

عندهم بدينار، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحَطِّ الجمال ونَحْت الصخر حتى غَلْغَلَتْهُ من الحِلِّ إلى الحَرَم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها: يَلْزَمُكِ نفقة كثيرة، فقالت: أَعْمَلُهَا ولو كانت ضربة فأس بدينار.

ثم إن فِعْل الصدقة يكون في البلاد المتمدنة للمحتاج إليها من الفقراء العاجزين والمتقاعدين والآرامل وأهل الضرورات من أهل الديار، أو من غريب الأقطار، ومن المعلوم أن دين الإسلام الذي شُرِعَ لسعادة الأمة هو وسيلة التمدن العظمى فأول ما فَتَحَ الله سبحانه وتعالى مِصْرَ في عَهْد أمير المؤمنين سيدنا عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه كان أَوَّل مَنْ رَتَّبَ وَأَرْصَدَ من بيت مال المسلمين على الخيْرات والعلماء والمجاهدين وأولادهم وعيالهم وأهل الضرورات ما لزم من الإرصادات، وما زالت هذه الإرصادات الشرعية مستمرة في جميع الدول والقرون، ولله في شريعته أسرار لا يعقلها إلا العالِمون.

وتَبِعَ أميرَ المؤمنين رَضِي الله عنه — على زيادة هذه الإرصادات وإجراء حقوقها — مَنْ جاء بعده من الخلفاء والسلاطين، فكانت سُنَّةً حَسَنَة مُتَّبَعَة إلى وَقْت تَوْلِيَة السلطان نور الدين الشهيد، فأَحْدَثَ هذا السلطان مُرَتَّبَات وعلوفات، وأنشأ أوقافًا كثيرة من بيت المال على جهات خَيْر من مساجد ومارستانات، أعانت المستحقين على وُصُول حَقِّهِم إليهم من بيت المال بسهولة، فقيل للسلطان نور الدين الشهيد: إن في بيت المال مرتبات كثيرة مصروفة للفقراء والضعفاء والقراء، فلو استعَنْتَ بها في الجهاد ومَنَعْتَهَا عن هؤلاء وصرفتَها للأجناد لكان أَمْثَل، فغضب رحمه الله تعالى، وقال: إني لأرجو النصر بأولئك القوم، قال ﷺ: «وهل تُنْصَرُون وتُرْزَقُون إلا بضعفائكم؟» كيف أَقْطَع خَيْرات قوم يقاتِلون عني وأنا نائم على فراشي، وأَصْرِفها إلى قوم لا يُقَاتِلون عني إلا إذا رأوني، بسهام قد تُخْطِئ وتصيب، وهؤلاء لهم نصيب في بيت المال، وكيف أَقْطَعُهُ عنهم ولا أَصْرِفه لهم؟

ثم تَبِعَه على ذلك السلطان صلاح الدين يوسف فأرْصَد كثيرًا من بيت المال للمُسْتَحِقِّين والأرامل، وأرباب الأنساب مِن البَكْرِيَّة والعُمَرِيَّة وغيرهم، وتَبِعَه الملك الكامل من بني أيوب، فإنه لَمَّا مَلَكَ مصر؛ أَرْسَل وزيره ليكشف له على أموال مصر وخَرَاجِها، فأرسل الوزير يُخْبِره في رُقْعة: «إن المرتبات من بَيْت المال للعلماء والفقراء في كل سنة مائتان وسبعون ألف دينار، وإنه يَحْصُل بذلك خَلَل في الخزائن السلطانية، ونَقْص من الأموال»، فكتب الملك الكامِل تَحْتَ ذلك بِخَطِّه: الفاقة مُرَّة المذاق، والمال مال الله الرحيم الرزاق، والخلق عيال الله وهو الواحد الخلاق، ما عِنْدَكُم يَنْفَد وما عِنْدَ الله باقٍ، أَجْرُوا

الناسَ على عوائدهم في الاستحقاق، فإنا لا نُحِبُّ أن يُنْسَبَ إلينا المَنْعُ وإلى غَيْرِنَا الإطلاق. والآثار الحسنة مِنْ مكارم الأخلاق، وإليكم هذا الحديث يُسَاق، وقال ﷺ: «من تَسَبَّبَ في قَطْع رِزْق أخيه المسلم قَطَعَ الله رِزْقَه.»

فلما تَوَلَّى السلطان الظاهر برقوق الديار المصرية أراد أن يُبْطِل المرتبات والعلوفات التي أَحْدَثَها ملوك الأكراد قَبْلَه من بيت المال، وعَقَدَ لذلك مجلسًا حافلًا، وقال: إن أصول هذه المرتبات قد أُخِذَتْ من بيت المال بالحيلة، وقد اسْتَغْرَقَتْ نصف أموال بيت المال، وأراد إبطال ذلك، فأقنعه علماء عَصْره ومنهم شيخ الشيوخ، أكمل الدين، شارح الهداية مفتي السعادة الحنفية، وعلَّامة عَصْره الشيخ البلقيني شيخ السادة الشافعية، وغيرهما من العلماء، وقالوا: جميع ما أُرْصِد وقُرِّرَ على مُسْتَحِقِّي بيت المال ومصارفه، فلا سبيل لولي الأمر على نَقْضِه، وانقضى المجلس على ذلك.

وقد أفتى بذلك أيضًا سلطان العلماء العز بن عبد السلام وغيره من العلماء الأعلام، ولم تَزَل الملوك العادلون يَقْتَفُون أَثَرَ مَنْ قَبْلَهُم في ذلك، ويسلكون في ترتيب الخيرات وإجراء الصدقات الجارية أَقْوَمَ المسالك، إلى أن تولى الملك المُظَفَّر السلطان سليم خان، ونَظَمَ مصر في سلك دولة بني عثمان، فأبقى جميع ما بمصر من العلوفات والمرتبات على ما كان عليه، ولما وَشَى إليه بَعْض أمرائه بأن تلك العلوفات قد استغرقت كثيرًا من الأموال، وطَلَبَ منه رَفْعَها لاقتضاء الأحوال؛ قابَلَه بالمنع والطرد، وَرَدَّ عليه أَشْنَعَ الرد، وقال: تلك صدقات مَنْ قَبْلَنَا، فلا نُحِبُّ أن يكون قَطْعُها مِنْ قِبَلِنَا، ولما تولى بعده ولدُهُ السلطان سُلَيْمَان خان تغمده الله بالرحمة والرضوان سعى إليه بعض أهل الحدثان، وذكروا له أن هذه المرتبات الآيلة للأولاد والعيال والحريمات لم تُصادف من الشرع محلًّا، وأنها باطلة فرعًا وأصلًا، فأرسل خطًّا شريفًا بإبطال ذلك، فراجعه علماء عَصْره وزمانه وتَرَجَّوْا عظيم عَطْفِه وإحسانه، وذَكَرُوا له أن ما رُتِّبَ وأُرْصِدَ على تلك الخيرات وعلى الأرامل وعيال المقاتِلَة وأولادهم والعلماء لا سبيل إلى نقضه شرعًا؛ لصدوره عن نواب السلطنة مع موافقته المصالح الشرعية، وذكروا له إحسان والده على الأقطار المصرية، فأبقى ما كان على ما كان، وزاد مِنْ لُطْفِه فوق ذلك الإحسان، وأَصْدَرَ فرمانه الشريف وخطه الهمايوني المنيف بإبقاء المرتبات على ما هي عليه؛ اغتنامًا للثواب وإحرازًا للدعوات الصالحات التي ليس دونها حجاب.

ولَمْ تَزَلْ هذه الأرزاق على مستحقيها دارَّة، وبها عيون العواجز والأرامل وأهل العلم والقرآن قارة، إلى أن حَصَلَتْ التقلبات والفتن وتصاريف الدهر بالمحن وتَغَلَّبَ الفرنساوية

على الديار المصرية بعد عَسْف وجور دولة المماليك وسوء تدبيرهم في الرعية، ثم أُزِيحَتْ أشكال هذه البلية وأنتج الإنتاج الصحيح نظم مقدمات القضية باستيلاء المرحوم محمد علي على المملكة اليوسفية، فكان من أعظم الأعوان والأنصار لمصر في رفع التكاليف الشاقة ودفع متاعب الآصار، فقصد إعادة فضيلة مصر على سائر الأمصار مما لَمْ يَسْبِقْ لها مِثْلُه في سائر الأعصار، وقد وَجَدَ في أرصاد هذه المُرَتَّبَات شذوذًا في أساليب التراتيب فَرَدَّ ترتيبها إلى نظام جَيِّد عجيب، وزاد في هذه الخيرات أضعافًا مضاعفة، وأجرى ما دَرَجَ عليه ملوك الإسلام من الطرائق الشرعية والمتعارفة وما أُسُسُهُ من صنائع الخير والمبرات، يكاد أن يكون خصوصية جَعَلَهَا الله له من أعظم الكرامات واقتدى به في ذلك خَلَفُه الصالح، فجَدَّدُوا لفعل الخير في مصر صالح المصالح، وفي مشهور الحكم: أَسْعَدُ الملوك مَلِك له وزير إذا نَسِيَ ذَكَّرَه، وإذا ذَكَرَ أعانه، ونسأل الله تعالى أن يُدِيمَ العز والنصر لمن يريد الخير العميم لمصر.

ومما ينبغي إعانة ولي الأمر على مضاعفة المَحَالِّ الخيرية من أرباب جمعيات الأغنياء وأهل الميسرة لتكثير وسائل البر والتقوى، كتكثير المارستانات التي تُرْصَدُ على المرضى والزمنى العاجزين عن المعالجة في بيوتهم، وكترتيب مارستانات تُرْصَدُ على الأطفال الذين يَلْتَقِطُونَهُمْ من الطرق والأيتام، وعلى الشيوخ المتقدمين في السن، والعميان والبله والمجانين وأرباب العاهات العاجزين، وكالمحال الخيرية والشركات السلمية؛ أي: المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السلم؛ لتسهيل الأخذ والعطاء، وقَطْع دابر الربا، ولإغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل، ولإعانة المعسرين والمفلسين من التجار المتعطلين عن الأشغال لحصول حادثة جبرية أَوْجَبَت الكساد وسوء الحال.

وبالجملة فإرصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شَرْعًا وكل ما فيه مصلحة، هي مشروعات خيرية، لا يستطيع أن تقوم بها الدولة وَحْدَهَا، أو إنسان مخصوص وحده، ويد الله مع الجماعة، فلا بد في إبراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء، تَرْصُد عليها الإرصادات، وتُرَتِّبُ لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستغلال، فهذه صدقات جارية من جهة شركات تعاونية، يقتسمون أَجْرَها، ويحرزون شُكْرَها، فجمعيات فِعْل الخير بالاشتراك قليلة في بلادنا، بخلاف التصدقات الشخصية، والإرصادات الأهلية يَرْصُدها الواحد في الغالب كالسبيل والصهريج والمكتب، فإن هذا يتجدد بمصر كثيرًا، ولا يتأسس له ما به يكون الدوام والاستمرار.

ومن العجيب أنه يَسْهُل على النفوس إحداث الجديد، ويَصْعُب عليها إصلاح القديم المحتاج للإصلاح والتعمير، ومع ذلك فالمُصِرُّ لا يستغني عن الخيرات العمومية التي

تقتضيها الأوقات والأحوال؛ كإرصاد مكاتب لتعليم البنات، لا سيما مكتبًا لتعليم فاقدات البصر منهن، ويتمنى أن من يفوز بإرصاد هذه المكاتب للنساء يكون من الخواتين الغنيات اللاتي يُوقِفْنَ في العادة أوقافًا عظيمة دون ما ذُكِرَ في الأهمية، ومن الثابت أن زبيدة زوجة الرشيد فَعَلَتْ كثيرًا من الخيرات، وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة وِرْد عُشْر القرآن وكان يُسْمَع في قصرها كدَوِيِّ النحل من قراءة القرآن، مع ما أحدثَتْهُ من الخيرات العديدة، وحَسْبُها العين الجارية بالحجاز المسماة: عيْن زبيدة، فلَيْتَ جميع الخواتين والهوانم يقتدين بها في إحياء المآثر وإسداء المكارم.

وكذلك عظماء الأمراء فإنهم أَوْلَى بالإرصادات العظيمة التي تليق بمقامهم، فيا ليتهم يقتدون في ذلك بحضرة الأمير راتب باشا الشهير ناظر عموم الأوقاف سابقًا، حيث بنى رواقًا واسعًا متصلًا بالجامع الأزهر، مُوقَفًا على طلبة العلم من الحنفية وعلى مُدَرِّسِي هذا المذهب، وأَجْزَلَ فيه من الخيرات الوفية؛ لتكثير أهل المذهب، فرواقه الآن بالأزهر عَلَم منيف وطِرَاز مُذَهَّب، بل عَمَّتْ خيرات الباشا المشار إليه المتواصلة حتى اقتضت إحياء مذهب السادة الحنابلة، فقد رَتَّبَ لرواقهم جرايات للشيخ والطلبة، وحضروا من الشام لإحياء هذا المذهب، وكان المشار إليه للخير العظيم سببه، فهذا هو فعل الخير المبني على الإخلاص في البر والإحسان، من أمير خطير هو خلاصة أشراف معد وعدنان، فما أحسن هذا الصنيع من الأمير صاحب المقام الرفيع، الذي وَضَعَ الندى في مَوْضِعِه وما أَوْضَع الحريص المضيعَ لمَالِه لِشَرَهِهِ وطمعه.

ومما يُنْظَم في سلك التعاون على البر والتقوى ومراعاة وجه الله الكريم في التمسك بالسبب الأقوى ما صنعه حضرة خليل أغا باش أغاوات حضرة ذات الدولة والعصمة والدة الجناب الخديوي ولي النعمة؛ حيث أنشأ بجانب المشهد الحسيني مدرسة لعدد كثير من الأيتام المنقطعين، وأوقف عليها ما يقوم بإجراء عوائدها، وتبرع لها بما لَمْ يَسْبِقْه به أحد من المتبرعين، فخَصَّصَ رأس مال جسيم لدوام هذه المدرسة، ونَشَرَ علومَها وأَسَّسَ أصولًا مستحسنة لِحُسْن إدارتها وتنظيمها، وأنشأ أيضًا تكية للأغوات العديمي الاكتساب، ولم يُسْبَقْ في ذلك، وخَصَّهُ الله بإلهام هذا الصواب، وهذا مما يُخَلِّدُ ذِكْرَه ويُضاعف ثوابَه وأَجْرَه، وقد قال ﷺ: «لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يَرُدُّ القدر إلا الدعاء.»

وهذا كله إنفاق ممدوح، وعلامة القبول عليه تلوح، بخلاف إنفاق مَنْ يَحْمِل نَفْسَه ولو في الضيق، فوق ما تطيق، فيعلوه الدَّيْن الذي لا يَعْرِف له جِهَة وفاء، فيدْخِل نَفْسَهُ في ربقة الضيق، ويُعْدَم الحميم والصديق، فتسوء أخلاقه، ولا يَنْفَعُه تَصَدُّقُه وإنفاقه،

قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت إنْ قُتِلْتُ في سبيل الله مُقْبلًا غير مُدْبِر، أيُكَفِّر الله عني خطاياي؟ قال: «نَعَمْ إلا الدَّيْن، بذلك أخبرني جبريل»، وعنه عليه الصلاة والسلام: أنه قال: «صاحب الدَّيْن محبوس عن الجنة بدَيْنِه.»

طَلَبَ رجل حكيم من رجل أن يُدِينَهُ دَيْنًا، فلم يَفْعَل، فقال: الحمد لله، لم يَكُنْ مِنْ مَنْعِكَ إلا أَنَّ وجهي احْمَرَّ من الحياء مرة واحدة، ولو أَعْطَيْتَنِي لَمْ يَصْفَرَّ وجهي من مُطالَبتِكَ مرة بل ألف مرة، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وعلى لسان العامة: لا همَّ إلا همُّ الدَّيْن، ولا وَجَع إلا وَجَع العَيْن، وهذا كله محمول على الدَّيْن الذي يُنْفَق في غير الرشد، أو يَتَرَتَّب عليه المطل وعدم الوفاء، وإلا لما كان القرض مشروعًا، وقال جعفر بن محمد: «المستدين تاجِر الله في أَرْضِه»، وقال عمر بن عبد العزيز: «الدَّيْن وِقْر طَالَمَا حَمَلَه الكرام»، وقال عمرو بن العاص: «من كَثُرَ صديقه كَثُرَ دَيْنه»، وقال بعضهم: «الدَّيْنُ رِقٌّ فلينظر أَحَدُكُمْ أين يضع رقه»، وكان ابن الزبير رضي الله عنه ينشد:

ألا لَيْتَ النهار يعود ليلًا ... فإن الصبح يأتي بالهمومِ
حوائج ما نُطِيقُ لها قَضَاءً ... ولا دَفْعًا وروعات الغريمِ

وذلك لأن الدَّين هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار، فالعجب كل العجب ممن يتطوع بالخير، ويَتَصَدَّق بأموال الناس، ويخلط العمل الصالح بالسيئ، ويظن أنه من الفعل الحسن مع أنه بمَعْزِل عن الحزم والاستقامة، مُعْتَمِدًا على قضاء دَيْنه الذي استدانه بدون باعث شرعِيٍّ، ولا مقتضًى سياسيٍّ، ومُعَوِّلًا على سوف وعسى ولعل، فهذا هو المِدْيَانُ الذي يَتَرَاكَمُ عليه الدَّيْنُ ودَيْنُ الدَّيْنِ، لا إلى نهاية ولا إلى أَجَلٍ، بل ربما لا يَنْقَضِي، وإن انقضى الأجل فصدقة مَنْ هو بهذه المثابة قَلَّ أَنْ تَقَعَ مَوْقِعَ الإصابة، فليست موضع الصدقة الجارية المذكورة في حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية» الحديث، وإنما موضوعها أرباب الغنى واليسار، انفرادًا واجتماعًا، انفصالًا واشتراكًا، ومن المعلوم أن مكارم الأخلاق ممدوحة عند جميع الدول والملل؛ لإعانة المحتاجين لا لأهل البطالة والكسل.

ولهذا لَمَّا تَغَلَّبَت الفرنساوية على الديار المصرية؛ لمحوا أن بها كثيرًا من الكسالى القادرين على الأشغال، الذين يُؤْثِرُون السؤال على الأعمال، ويُلِحُّون في الطلب، فحَنِقَ

حاكِمُهُم من ذلك، ونَشَرَ قانونًا مشتملًا على خمسة بنود:

البند الأول: جميع الناس الذين يَسْأَلون الناس في الطريق، ويطلبون الحسنة منهم يَصِيرُ القبض عليهم وحضورهم أمام ضابط مصر، ثم يتوجهون إلى سجن القلعة ما لم يكونوا من أصحاب العاهات؛ كالعميان والعرجان والعاجزين عن الأشغال.

البند الثاني: كل ملة من الإسلام والنصارى من أروام وقِبْط وشوام ومن اليهود أيضًا تعمل من الآن فصاعدًا حانوتًا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون مُعِدًّا لهم.

البند الثالث: كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته، وكافة مصاريف الحانوت؛ من نفقة الأكل والشرب وخلافه، تتقرر على أهالي الملة المذكورة.

البند الرابع: في مدة تدبير الحوانيت وترتيبها: يَأْمُر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء مِلَّتِه ويرضيهم، ويعطيهم لوازم الأكل والشرب والسكنى إلى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكورة واستكمالها.

البند الخامس: يجب على كبير كل ملة أن يَتَبَصَّر في أَمْر تدبير الحانوت لِمِلَّتِه، ويأخذ الأمر اللازم لذلك من شيخ البلد، ويسعى في إتمامه، فهذه التدابير في حَدِّ ذاتها خيرية، ولكن الحكومة المصرية قد كَفَتْ أهل الحاجة والمسكنة مُؤْنَةَ السؤال، ورتَّبَتْ للجميع في جامع طيلون اسبتالية جسيمة، منقسمة إلى بلوكات للفقرات والمساكين وأرباب العاهات من نساء ورجال وكبار وأطفال، يتحقق بها جاري الصدقات الوطنية، حيث نافست قديم المرتبات القلاوونية، فمثل هذه من الصدقات الجارية المذكورة في حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» الحديث.

والفضيلة الثانية تُؤْخَذ من قوله ﷺ: «أو عِلْم يُنْتَفَعُ به» أي: عِلْم عَلَّمَه الإنسان لغيره فَصَار نافعًا، والعلم النافع مرادف للحِكمة المفسرة به، فهو ما يُوصِل إلى الصفات العَلِيَّة والمناقب السَّنِيَّة، ويُثْمِر الثمرات الدنيوية والأخروية، ويدعو إلى المكرمة، وينهى عن القبح، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ حيث فَسَّر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة تَرْجِع إلى العلم النافع والأفعال الحسنة الصائبة، فالعلم بهذا المعنى يَشْمَل العلوم النظرية والعملية؛ يعني: معرفة الحقائق والإقدام عليها بالعلم، فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله ﷺ: «أو عِلْم يُنْتَفَع به».

ثم إن العلم أَشْرَف ما رَغِبَ فيه الراغب، وأَفْضَل ما طَلَبَه وجَدَّ فيه الطالب، وأَنْفَع ما اكتسبه واقتناه الكاسب:

إذا رُمْتَ تَسْمُو لِنَيْل العلا　　وقَدْرُك بالله عَالٍ وغَالِي
فبالعلم فاسْمُ لها مُحْرِزًا　　فما مِثْلُه لِطِلَاب المَعَالِي

لأن شَرَفَه يتم على صاحبه، وفَضْله يُنَمَّى عند طالبه، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فمَنَعَ من المساواة بين العالم والجاهل؛ لِمَا خُصَّ به العالم من فضيلة العلم، وأنشد الرشيد عن المهدي:

يا نَفْس خوضي بحار العلم أو غُوصِي　　فالناس ما بين معمومٍ ومَخْصُوصِ
لا شيء في هذه الدنيا يُحَاطُ به　　إلا إحاطة مَنْقُوصٍ بِمَنْقُوصِ

وقال عَلِيٌّ كَرَّم الله وَجْهَه: «قيمة كل امرئ ما يُحْسِن»، فقيل في هذا المعنى:

لا يكُون العَلِيُّ مِثْلَ الدَّنِيِّ　　لا ولا ذو الذكاء مِثْلَ الغَبِيِّ
قيمة المرء قَدْرُ ما يُحْسِنُ المَرْ　　ءُ قضاءً من الإمام عَلِيِّ

واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل عِلْم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها أَمْر محال، قيل لبعض الحكماء: مَنْ يعرف كل العلوم؟ فقال: كل الناس، وحسبك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال بعض الحكماء: «المتعمق في العلم كالسابح في البحر، ليس يرى أرضًا، ولا يَعْرف طُولًا ولا عَرْضًا.»

قل للذين قَضَوْا في العلم عُمْرَهُمُ　　ثم اطمأنوا وظَنُّوا أنهم فَرَغُوا
العلم أَعْظَمُ مما تَزْعُمُونَ فَكَمْ　　قد بالَغَ الناس في هذا وما بَلَغُوا

وإذا لم يَكُن إلى معرفة جميع العلوم سبيل؛ وَجَبَ صَرْف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأَوْلَاها وأفضلها، فأَوْلَى العلوم وأفضل العلوم الشرعية التي بمعرفتها جميع الناس يرشدون، وبجهلها يضلون ولا يهتدون، فهي كما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وقال ﷺ: «خيار أمتي علماؤها، وخَيْر علمائها فقهاؤها»، ورُوِيَ عن

أنس، أن النبي ﷺ قال: «التفقه في الدين حَقٌّ على كل مسلم، ألا فتَعَلَّمُوا وعَلِّمُوا وتَفَقَّهُوا، ولا تموتوا جُهَّالًا» انتهى.

وربما مال بعض المتهاونين بالدين إلى العلوم العقلية، ورأى أنها أَحَقُّ بالفضيلة وأَوْلَى بالتقدمة؛ استثقالًا لما تَضَمَّنَه الدين من التكليف، واستصعابًا لما جاء به الشرع الشريف من التعبد والتوقيف، ولكن قَلَّ أن ترى ذلك فيمن سَلِمَتْ فِطْنَتُهُ وصَحَّتْ رَوِيَّتُهُ؛ لأن العقل يَمْنَع من أن يكون الناس هُمَّلًا أو سُدًى، يعتمدون على آرائهم المختلفة، وينقادون لأهوائهم المتشعبة؛ لما تئول إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع، وتُفْضِي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع، فلم يَسْتَغْنوا عن شريعة يأتلفون إليها ويتفقون عليها. ونَقَلَ القُطْب الشعراني، عن شيخه سيدي علي الخواص، أنه قال: «أُحِبُّ لإخواننا من طلبة العلم أن لا يتحكموا على عِلْم الله القديم بظاهر أدلتهم وأقاويلهم، وأن لا يُعَطِّلوا أنفسهم من العمل، ويقولون: حتى نفرغ من التعلم ثم نَعْمَل، وأن لا يستغرقوا عُمْرَهم في زوائد العلوم التي لا يُحْتَاج إليها إلا في النادر، وأن لا يتركوا عَمَلَ الحرفة التي يكون بها قَوَام معاشهم؛ خوفًا عليهم أن يأكلوا بدينهم وعِلْمِهم، أو يتعرضوا لصدقات الناس وأوساخهم، فإن الأكل بذلك يُطْمِس أَفْهَامَهُم بخلاف أكل الحلال، فإن له مدخلًا في فَهْم دقائق العلوم.»

ولذلك فاق النووِيُّ أقرانه مع قِصَر عُمْره، وصار ترجيح المذهب راجعًا إليه؛ لأنه كان لا يأكل إلا من الحلال، وقال بعضهم: «أرزاق الفقهاء من صدقة أموال الظلمة مُكَدِّرَة بشروط الواقفين، مُنَغِّصَة بمنن النظار، من باشرها أَكَلَهَا صدقة، ومن لم يباشرها أَكَلَهَا حرامًا.» وبالجملة: فإن الأكل من صدقات الناس وولائمهم يقسي القلب، ويَسُدُّ الفهم، وهو ضد الورع، فالعلماء للشريعة هم الزمام، وبانتظام أحوالهم يَكْمُل الانتظام، فإذا تَكَسَّبوا من الحلال بصنعة؛ اسْتَغْنَوْا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال، واكتَفَوْا شَرَّ السؤال؛ كما قيل:

إنْ حُزْتَ عِلْمًا فاتَّخِذْ حِرْفَة   تَصُون ماء الوجه لا يُبْذَلُ
ولا تُهِنْهُ أن يُرى سَائِلًا   فشَأْنُ أَهْلِ العلم أن يُسْأَلُوا

ويَتَعَلَّق بالشريعة الغراء عدة علوم، بَيَّنَ الشافعي رضي الله تعالى عنه فضيلة كل علم منها؛ فقال: من تَعَلَّمَ القرآن عَظُمَتْ قِيمَتُه، ومن تَعَلَّمَ الفقه نَبُلَ مِقْدَارُه، ومن كَتَبَ الحديث قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، ومن تَعَلَّمَ الحساب جَزُلَ رَأْيُه، ومن تَعَلَّمَ العربية رَقَّ طَبْعُه.

انتهى. فقد جَمَعَ في ذلك العلوم الشرعية النقلية وأدواتها، وهي علوم العربية، والرياضية التي عَبَّر عنها بالحساب، قال بعضهم: وأما العلوم العقلية فتَرْجِع إلى أربعة علوم: فعِلْم له أَصْل وفَرْع، وعِلْم له أَصْل ولا فَرْع له، وعِلْم له فَرْع ولا أَصْل له، وعِلْم لا أَصْل له ولا فَرْع. فأما الذي له أَصْل وفَرْع: فهو الحساب والعلوم الرياضية، ليس بين أحد من الخلق فيها اختلاف.

فالحساب مُسْتَنْبَط من حروف المعجم، وهو في حد ذاته أصل من أصول العلوم النافعة؛ لأنه كما قال ابن حجاج: به يُعْلَم عَدَدُ الصلوات، والزكوات، والصيام، والشهور، والسنين، وتَحْدُث السنون من الشهور، والشهور من الجمعات، والجمعات من الأيام، والأيام من الساعات، والساعات من الدرج، والدرج من الدقائق، والدقائق من الشعائر، والشعائر من الأنفاس، وتنتهي قسمة الأنفاس إلى أجزاء لا يَعْلَمُها إلا الله تعالى، ومنشأ هذه الأزمنة من دوران الفلك، ويُسْتَدَلُّ على ذلك بسير الكواكب والشمس والقمر، فتنشأ بين ذلك كله الأزمنة والأوقات، التي يُسْتَدَلُّ بها على معالم الدِّين؛ من أوقات الصلوات، والصيام، والحج، وحين الزكاة، ومُدَد عِدَد النساء، ومحل الآجال، ويُقَيَّد ذلك كله بالحساب والعدد، حتى لا يَشُذَّ شيء مما يحتاج علمه بالتاريخ المصطلح عليه.

وقد عَدَّد الله تعالى نِعَمَه علينا بذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وقد أَخَذَتْ العرب حسابهم من أبجد، فوجدوه ينتهي من واحد إلى أَلْف لا زيادة ولا نقصان، أَوَّلُها الأَلِف الذي هو واحد، وآخرها الغين الذي هو ألف، ولكن تعبدت الأمة المحمدية برؤية الهلال عند الصوم وعند الإفطار، لا بالحساب الذي يقوله الحساب والمنجمون من أن الهلال لم يَظْهَر؛ لأنه كان في حجاب الشمس أو في السرار مما لم نَتَعَبَّدْ به، بل أحالنا الشرع على الرؤية التي يستوي فيها الناس، فقال ﷺ: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فاقدروا له» أي: أكملوا عدة شعبان، فهذه منافع الحساب في العبادات والعادات، ومنافعه في المعاملات والعقليات، وفي كل شيء لا تُحْصَى ولا تُحْصَر، فهو أَصْل له فروع كثيرة.

والعلم الذي له أَصْل ولا فَرْع له: فهو عِلْم النجوم، فالنجوم لها حقيقة وأَثَر ظاهري في العالم؛ كالفصول والأوقات ونحو ذلك، ولا يتفرع عنها شيء.

وأما العلم الذي له فَرْع ولا أَصْل له: فالطب، فإنه مبني على التجارب إلى يوم القيامة؛ يعني: أن أَصْلَه من نفسه، فهو يتجدد بفروعه التجريبية، وهذا لا يَمْنَع من كَوْنه

ينقسم إلى عدة أقسام، اتسعت أيضًا فروعها بالتجارب، حتى صارت علومًا، وتعددت موضوعاتها بالنسبة لأجزاء بدن الإنسان على تعددها، فالموضوع الكلي للطب المبحوث عنه فيه هو بدن الإنسان صحة واعتلالًا، ثم تعدد الموضوع كطب العين والأذن والأنف وهكذا وكالتشريح وتشخيص الأمراض، وكل هذا هو عين التجربة التي هي دائمًا آخذة في التجدد إلى ما شاء الله.

وأما العلم الذي لا أَصْل له ولا فَرْع: فهو العلوم السوفسطائية والمغالطات والجدليات، التي هي عبارة عن الفلسفة الفاسدة الهادمة لأصول الأديان، لا الفلسفة الصحيحة المرادفة للحكمة، وأما العلوم الشرعية فهي وآلاتها أَوَّل العلم النافع.

وقد اعتنى العلماء بالتآليف فيها، لا سيما العلوم الثمانية؛ وهي عِلْم التفسير ويَلْحق به عِلْم القراءات والتجويد، ثم عِلْم الحديث دراية ورواية، ثم عِلْم الفقه، ثم عِلْم أصول الدين، ثم عِلْم النحو ومنه الصرف، ثم عِلْم المعاني والبيان، ويَلْحَق بهما البديع والعروض، ثم عِلْم التصوف، وكل هذه علوم نافعة، ثم يليها الفنون والصناعات وهي أيضًا علوم وعمليات من درجات أخرى متفاوتة، لا تَتِمُّ العلوم الشرعية إلا بها، وما لا يَتِمُّ الواجب إلا به فهو واجب، فإن الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد، فهي من فروض الكفايات، أَوليس أن من الفنون صناعة الخط الذي له فَضْل وشَرَف ومنفعة لا يَجْهَلها مَن عَرَف، وبه تُقَيَّد العلوم، وتُثَبَّت وتُزْرَع في الصدور فتَنْبُت، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه المحكم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «قيدوا العلم بالكتابة.»

ولَمَّا لم يكن عند أكثر العرب كتابة في الجاهلية، وكانت إذ ذاك أمة أُمِّيَّة؛ جُعِلَ لها الشعر عِوَضًا، فأدركت به مرامًا وغَرَضًا أُقِيمَ عن الكتابة مقامها، فأَبْدَت بمحفوظ الشعر كلامها، وعَرَفَتْ به أنسابها وأيامها، فكان أَوَّل من أدخل في بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا إسماعيل، فاخْتُصَّ بهذه الفضيلة الأولية، وأول من أدخل الكِتَاب العربي أَرْضَ الحجاز هو حَرْب بن أمية أو سفيان بن أمية، فتشبثوا بالحقيقة وساعدَتْهم على المجاز؛ يعني: فازوا بالصناعتين، واتسعت تجارتهم بالبضاعتين، وقِسْ على منفعة الخط في البلاد المنظمة غَيْرَه من الفنون والصناعات، التي أَكْسَبَتْ جميع البلاد المجد والعظمة، مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح، فإنه لا تَصْلُح الفِعَال إلا بالأموال من الحلال،

والأموال لا تكون إلا بالكسب من وَجْهٍ مِن وجوه الصنائع المعاشية؛ لتعين على المعادية، فلا أَحْسَنَ ممن يَكْسِب المال مِنْ حِلِّه، ويصرفه في مَحِلِّه، ويَكُف به وجْهَهُ عن الناس.

فالفنون التي هي وسائل ذلك ليس عنها مندوحة، وهي في الشرع ممدوحة، فلا مانع من دخولهما تحت قوله ﷺ: «أو عِلْم يُنْتَفَع به» أي: نفعًا متصلًا دائم الثواب، فالحديث الشريف في قوله: «أو عِلْم يُنْتَفَع به» شامِلٌ لتعليم المعارف النافعة، سواء كانت علومًا أو فنونًا أو صناعات أو آلات، فإنها لا تَخْلُو عن مَدارِك علمية، وشامِلٌ أيضًا لاجتهاد المجتهدين، ووضْع الواضعين، وتدوين المدَوِّنِين، وللتصنيف والتدريس وغير ذلك، فالعمدة على العمل الذي ينشأ عنه معلومات نافعة لأهل الملة والوطن وللناس أجمعين، ويدل على ذلك ما ورد في رواية أخرى: «إذا مات ابن آدم خُتِمَ على عَمَلِه إلا عَشْرٌ» فذكر هذه الثلاثة، وزاد: «غَرْس النخل، ووراثة المصحف، والرباط في الثغر، وحفْر البئر، وإجراء النهر، وبناء بيت للغريب، وبناء مسجد لله تعالى، وتعليم القرآن»، فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ما ذُكِر كما بَيَّنَّاه أولًا، وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان في العلم المنتفع به، وأن الثلاثة المذكورة ليست حاصرة، فلا مانع أن يُقَاسَ على التعليم كتابة الكتب، وطبعها ممن يأمر بذلك، أو يباشره، أو يُعِين عليه، أو مَنْ يَدُلُّ عليه، حيث كان الدالُّ على الخير كفاعله.

فكل مَنْ سَنَّ سنة حسنة دائمةَ النفع فهي داخلة في العلم النافع، يدل على ذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في قوله: «من سن سنة حسنة فَلَهُ أَجْرُها وأَجْر مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»، فالمؤمن الغارس غرسًا حِسِّيًّا أو معنويًّا يَحْصُد ثَمَرَه ثمرًا حلوًا حسيًّا أو معنويًّا، فغرسه لا يُثْمِر شوكًا ما دام ملازِم الإخلاص، فقاصد النفع العمومي يُثَاب ثَوَاب الخواصِّ، فحصر الإمام السيوطي للمستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مَذْكُور في النظم الآتي، وهو:

إذا مات ابنُ آدم جاء يَجْرِي	عليه الأجرُ عدَّ ثلاثَ عَشْرِ
علوم بَثَّهَا ودعاء نَجْل	وغَرْس النخل والصدقات تَجْري
وبيت للغريب بناه يَأْوي	إليه أو بِنَاء مَحَلِّ ذِكْرِ
وراثة مُصْحَف ورِبَاط ثَغْرٍ	وحَفْر البئر أو إجراء نَهْرِ
وتعليم لقرآن كريم	شهيد في القتال لِأَجْلِ بِرِّ
كذا مَنْ سَنَّ صالحة لِيَقْضِي	فَخُذْهَا من أحاديثٍ بِشِعْرِ

والكل في الحقيقة ترجع إلى الثلاث، وتزيد بالنظر لفروعها التي لا تَنْحَصِر، فالعدد لا مفهوم له.

وما أحسن قول الزمخشري وقَوْل من خمسة أبياته:

قَطَعَ الجهول زَمَانَه بِتَغَزُّلِ إن الجهول عن الكمال بِمَعْزِلِ
أنا لا أميل إلى كلام العُذَّلِ سهري لتنقيح العلوم أَلَذُّ لِي
مِنْ وَصْل غانية وطِيبِ عناقِ
إن كُنْتَ جئْتَ لدى العدا بنقيصةٍ فهي الكمال وذاك عن خِصِّيصَةٍ
طلَبِي لغالية بِبَذْل رَخِيصَةٍ وتمايُلِي طربًا لِحَلِّ عَوِيصَةٍ
في الذِّهْن أَبْلَغ من مُدَامة سَاقِي
سم الجهالة زال من ترياقها وهي العلوم بمقتضى إشراقها
حَرَّرْتُهَا بالطرس باستحقاقها وصرير أقلامي على أوراقها
أشهى من الدوكاء والعشاق
فانهض لتحصيل العلوم وَوَفِّهَا حقًّا بأشرف حالة وأَعَفِّهَا
إني كَفَفْتُ عن السوى بأَكُفِّهَا وألذ من نَقْر القِيَانِ لِدُفِّهَا
نقري لِأُلْقِي الرَّمْلَ عن أوراقي
تَعْلُو على أَوْجِ المعالي هِمَّتِي في نَيْل مقصودي وقُرْب أَحِبَّتِي
وأنا الذي عَزْمِي كسيف مُصْلَتِ يا من يُبَالِغُ بالأماني رُتْبَتِي
كم بَيْن مُشْتَغِلٍ وآخَرَ رَاقِي
أصبحْتُ موصوف العلا مَنْعُوتَهُ لا أختشي من جانبٍ تَفْوِيتَهُ
يا قاصرًا فينا يحاول صِيتَهُ أأبيت سهرانَ الدجى وتَبِيتَهُ
نومًا وتبغي بَعْدَ ذاك لِحَاقِي؟

فمن هذا يَنْتِج أن صاحب العلم أو الفن أو الصناعة ينبغي دائمًا أن يجتهد في تكميل قواعد عِلْمِه أو فَنِّه أو صناعته، أصولًا وفروعًا، اجتهادًا واستنباطًا، ويَرْغَب إلى الله تعالى في العون على ذلك، فإذا تَمَّتْ فضيلته وكَمُلَتْ أَهْلِيَّتُهُ؛ فعليه أيضًا أن يَشْتَغِل بالتصنيف والجمع والتأليف؛ ليُطْلِعَ جميع الناس على حقائق الفنون ورقائق العلوم ودقائق الصنائع، وعليه أن يُجِيدَ البيان حسب الإمكان، وكل ما يَعُمُّ نَفْعُه وتكون الحاجة إليه أَوْلَى، يُقَدِّمُه على غيره، ويعتني بما لم يُسْبَقْ إليه.

ويُقَدِّم المبادي على المقاصد؛ لأن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومَدَاخِل تُفْضِي إلى حقائقها، فلا يَطْلُب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قَبْل المَدْخَل؛ لأن البناء على غير أساس لا يَثْبُت، والثمر في غير غَرْس لا يُجْنَى ولا يُنْبِت، فلا تَحْمِل طالبَ المنفعةِ الأسبابُ الفاسدة والدواعي الواهيةُ على أن يَتَّبِعَ أغراض نَفْسِه المُخْتَصَّة بنوع من العلم، فيدعوه الغرض إلى قَصْد ذلك النوع، ويَعْدِل عن مقدماته؛ كرجل يُؤْثِر القضاء أو يَتَصَدَّى للحُكْم فيَقْصِد من عِلْم الفقه أدب القاضي وما يتعلق به من الدعاوي والبينات، أو يُحِبُّ أن يَخْتَصَّ بوظيفة الشهود، فيتعلم كتاب الشهادات؛ لئلا يَصِير موسومًا بجَهْل ما يعاني، فإذا أَدْرَكَ ذلك ظَنَّ أنه قد حَازَ مِن العلم جمهوره، وأدرك منه مَطْوِيَّه ومَنْشُورَه، ولم يَرَ ما بَقِيَ إلا غامضًا طَلَبُه وعويصًا استخراجه، فلو نَصَحَ نَفْسَه لَعَلِمَ أن ما تَرَكَ أَهَمُّ مِمَّا أَدْرَكَ؛ لأن بعض العلوم مرتبط ببعض، ولكل باب منها تَعَلُّق بما قَبْلَه، فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها، وقد يَصِحُّ قيام الأوائل بأنفسها، فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تَرْكًا للأواخر والأوائل جميعًا، ومِثْل ذلك الفنون والصنائع.

وقد يقصد الإنسان بطلب العلم التكسب أو التجميل، فينهض من العلم بتعلم ما يَشْتَهِر به من مسائل الجدل وطريق النظر، ويتعاطى عِلْم ما اخْتُلِفَ فيه دُونَ ما اتُّفِقَ عليه؛ ليُنَاظِر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق، ويجادل الخصوم وهو بِجَهْل مَذْهَبه مخصوم، فكثيرًا ما تَجِدُ مِنْ هذه الطبقة عددًا، وقد تحققوا بالعلم تَحَقُّق المتكلفين، واشتهروا به اشتهار المتَحَزِّبين، فإذا أخذوا في مناظرة الخصوم ظَهَرَ كلامهم، وإذا سُئِلُوا عن واضح مَذْهَبِهِمْ ضَلَّتْ أَفْهَامُهُم، حتى إنهم لَيَخْبِطُونَ في الجواب خَبْطَ عشواء، فلا يَظْهَرُ لهم صواب، ولا يَتَقَرَّرُ لهم جواب، ثم لا يرون ذلك نَقْصًا حيث نَمَّقُوا في المجالس كلامًا موصوفًا، ولَفَّقُوا في المحافل احتجاجًا مألوفًا، وقد جَهِلُوا من المذهب ما يَعْرِفُه المبتدي، فهذه طرائق من يقول: اعْرِفُونِي وهو غير عروف ولا معروف، وقد قال زهير:

ومهما تَكُنْ عند امرئ من خليقة   وإن خالَها تَخْفَى على الناس تُعْلَم

وبالجملة فالمتواضع من طَلَبَة العلم أَكْثَرُهم عِلْمًا، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء، وينبغي لطالب العلم أن يَخْرُج دائمًا في عباراته من الرمز الخَفِيِّ إلى اللفظ الجلي، فإن الرمز لا يَلِيق بالعلم المعنوي ولا الكلام اللغوي، وإنما يختص غالبًا بأحد شيئين: إما بمذهب شنيع يُخْفِيه مُعْتَقِدُه، ويجعل الرمز به سببًا لِتَطَلُّع النفوس إليه،

واحتمال التأويل فيه سببًا لدفع التهمة عنه؛ كالتنجيم والطلاسم، وإما بما يَدَّعِي أربابه أنه عِلْم مُعْوِز، وأن إدراكه بعيد مُعْجِز؛ كالصنعة التي وَضَعَهَا أربابها أسماءً لعلم الكيمياء ورمزًا بأوصافه؛ لِيُوهِمُوا الشح به والأسف عليه؛ خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة، وقد قال الشاعر:

مَنَعْتُ شيئًا فأَكْثَرْتُ الوُلُوعَ به   أحب شيء إلى الإنسان ما مَنَعَا

فالمتشبثون بمثل هذه الأمور لا يُنْتَفَعُ بعلمهم، فلا يَدْخُل في هذه الفضيلة المذكورة في قوله: «أو عِلم ينتفع به».

«الفضيلة الثالثة» المذكورة في قوله ﷺ: «أو ولد صالح يدعو له» إشارة منه ﷺ إلى أن الإنسان مخلوق لحكمة إلهية، وهي تعمير الدنيا وتمام انتظامها، وهذه الحكمة إنما تَتِمُّ بتكثير النوع البشري واستمرار نسله، وهذا إنما يكون بالتوالد والتناسل، وأن كل إنسان اجتهد في تحصيل مال أو عِلْم أو جَاهٍ يُحِبُّ — طبعًا — امتيازه به في حياته دون غيره، وأن لا يتوارثه عنه إلا نَسْلُهُ بَعْدَه؛ ليكون حيًّا حياة معنوية دائم النسل باقيَ الذكر، وإلا لكان الإنسان لا يَجْتَهِد إلا بقدر عِيشَتِه الضرورية، فأمل انتقال الوراثة إلى النسل والولد أكَّدَ في النوع البشري تَكْثِير العمل، فقد يكون مدار الأعمال المعاشية والمعادية على الآمال التولدية، فأشار الحديث الشريف إلى معنًى لطيف؛ وهو الحث على التناسل والتوالد وتأهيل النسل، لدرجة الرشد، وبلوغ غرض الوراثة النافعة، وينبغي للوالد أن يَهْتَمَّ بشأن الصبي في شبيبته؛ لِيَعْلَمَ ما ينبغي تَعَلُّمه حفظًا في حال صغره، لينكشف له معناه في حال كِبَره، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق، وذلك مما يَحْصُل في الصبي من غير برهان، فقد مَنَّ الله عز وجل على قلب الإنسان بالحفظ، وشَرَحَ له صَدْرَه في أول نشأة الإيمان من غير حجة وبرهان، وإنما تحصل التقوية والإثبات في الصبي والعامي بعد ذلك حتى يَرْسَخ الإيمان ولا يَتَزَلْزَل.

وليست التقوية والإثبات في الصبي أن يُعَلِّمَه وَلِيُّه صَنْعَة الجدل والكلام، بل يشغله بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل مع ذلك بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخًا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يَرِد عليه من شواهد الحديث وفوائده، وبما يسطع عليه من أنوار العبادة ووظائفها، وبما يَسْرِي إليه من مشاهدة الصالحين ومُجَالَسَتِهم وسيماهم وهيئاتهم في الخضوع لله تعالى، وهذه هي التربية الحسنى حتى يَنْمُوَ في الصبي بذر الإيمان، ويَقْوَى فيه شجرة راسخة طيبة

أصلها ثابت وفرعها في السماء، فيظهر اعتقاده في الثبات كالطود الشامخ، ثم ينوطه بالصناعة التي تميل إليها نفسه ويستحسنها ظَنُّه وحدثه، ومع ذلك فلا يتأخر مع أداء صنعته عن تلاوة القرآن، قال ﷺ: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل يا رسول الله: وما جلاؤها، قال: قراءة القرآن»، وقال ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أُوتِي أفضل مما أُوتِي فقد استصغر ما عَظَّمَ الله.»

وعن مالك بن أنس رضي الله عنه: أنه كان إذا دخل رمضان نَفَرَ من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم وأَقْبَلَ على القراءة في المصحف، «وكان» أبو حنيفة، والشعبي يختمان في رمضان ستين ختمة، وقال ﷺ: «القرآن فيه خَبَر مَن قَبْلكم، ونبأ مَنْ بَعْدكم، وحُكْم ما بَيْنكم»، قال علي رضي الله عنه: «من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو مِمَّن كان يَتَّخِذ آيات الله هزؤًا»، وتقييد الولد بالصالح مع زيادة قوله: «يدعو له»، إشارة منه ﷺ إلى حق الولد على الوالد، وهي تربيته تربية حسنة وتوصيله إلى درجة الصلاح والاستقامة، وإلى حق الوالد على الولد وهي الدعاء لوالده؛ لأن فَرْض الكلام بقاء الولد بعد موت والده المفهوم من قوله: «إذا مات ابن آدم» إلخ، والمراد بالولد: ما يَعُمُّ الذكر والأنثى، كما أن المراد بالدعاء له عموم أعمال ولده الصالحة، فإن الوالد ينتفع بأعمال ولده الصالحة؛ لأنه السبب في وجوده وصلاحه وإرشاده إلى الهدى، ومن جملة الأعمال التي تصدر عن الولد الصالح ويَنْتَفِع بها والده دعاؤه له، فقد ورد: «إن الإنسان ينعم في الآخرة بنعيم عظيم، فيقول: من أين هذا النعيم، فإني لم أَعْمَل في الدنيا عملًا يُوجب لي ذلك؟ فيقال: هذا من دعاء ولدك الصالح لك»، وبالجملة فالولد الصالح من الباقيات الصالحات؛ لأن أعماله الصالحة يُنْتَفَع بها، والمراد أيضًا بالولد: ما يَعُمُّ ولد الولد ذكورًا وإناثًا أسباطًا وحَفَدَة، فإنهم لأصولهم كالأجنحة وهم أصول، يَصُول بهم الأكبر، ويَدُه بهم تَطُول، وهم العُدَّة عند الشدة.

قيل لمحمد ابن الحنفية: كيف كان علي رضي الله عنه يُقْحِمُكَ في المآرق؛ أي: المتالف، ويولجك في المضائق دون الحسن والحسين؟ فقال: لأنهما كانا عينيه وكنت يديه، فكان يقي بيديه عينيه.

ورأى علي رضي الله عنه الحسن يَتَسَرَّع إلى الحرب، فقال: امْلُكوا عني هذا الغلام لا يَهُدَّنِي، فإني أنفس بهذين على الموت؛ لئلا ينقطع بهما نَسْل رسول الله ﷺ وقوله: فإني أنفس بهذين؛ أي: بالحسن والحسين؛ أي: أخشى أن ينقطع بموتهما النسل النبوي، «وكان» يُقال لعمر بن الوليد بن عبد الملك فحل بني مروان، وقد كان يَرْكَب معه ستون

رجلًا لصُلْبِه. وقد كان لماوية امرأة لؤي بن غالب أولاد منه، فقالت له يومًا: أيُّ بنيك أحب إليك؟ قال: الذي لا يَرُدُّ بَسْطَ يده بُخْل، ولا يلوي لسانه عُجْر بالراء المهملة؛ أي: لَكْنَة، ولا يُلَوِّنُ طبيعته سَفَه، وهو أحد ولَدِكِ بارك الله لي ولك فيه؛ يعني: كَعْب بْن لؤي أحد أجداده ﷺ.

ودخل عبد الملك بن مروان على معاوية ومعه بنوه، فلما جلسوا على الكراسي وأخذوا مَجَالِسَهُم اغتاظ معاوية، ثم قال: كأنك أَرَدْتَ مُكَاثَرَتِي ببنيك يا ابن مروان، وما وَجَدْتُ مِثْلي ومِثْلك إلا كما قال الشاعر:

تُفَاخِرُني بكثرتها قُرَيظ وقبلي والد الحجل الصقور

فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين إنما هم وَلَدُك وَيَدُك وعَضُدك، وقد عَلِمْتَ إنما خِفْتُ عليهم من العين وليسوا عائدين، قال بعضهم للمهلب: ما النُّبْل؟ أي: الشرف، قال: أن يَخْرُج الرجل من مَنْزِله وَحْدَه ويعود في جماعة، وكان المهلب كَثِير البنين، ومن الشجاعة والسخاء بمكانة، فقيل له: إنك لَتُلْقِي نفسك في المهالك، قال: إن لم آتِ الموت مسترسلًا أتاني مستعجلًا، ثم أنشد:

تأَخَّرْتُ أستبْقِي الحياة فَلَمْ أَجِدْ لنفسي حياة مثل أنْ أَتَقَدَّمَا

ومَرَّ بقوم من ربيعة في مجلس لهم، فقال رجل من القوم: هذا سيد الأزد، قيمته خمسمائة درهم، فسمعه المهلب فأرسل إليه بخمسمائة درهم وقال: دُونَكَ يا بن أخي قيمة عَمِّكَ، ولو كُنْتَ زِدْتَ فيها لزِدْتُك، وقال بعضهم في المهلب وبنيه يمدحه:

يراكَ الله حيث يَرَاكَ بحرًا وفَجَّرَ منك أنهارًا غزارا
بنوك السابقون إلى المعالي إذا ما أَعْظَمَ الناس الخطارَا

والخطار فِعال من خَاطر؛ يعني: سَابِق وراهِن، وبمعنى الخطر وهو المراد، وهذان البيتان لكعب بن معدان الأشقري الأزدي، يقال: إن الخليفة المنصور حَسَدَ آل المُهَلَّب على المدح بهما، وكذلك بعده للمأمون، قال للشعراء: أَلَا قُلْتُم فيَّ كما قال كَعْب في المهلب وَوَلَدِه، وأنشدهم هذين البيتين السابقين.

وقد يَنْتِجُ من العنصر الطَّيِّب فُرُوع تزيده طِيبًا على طِيبِه، ومن غير الطَّيِّب فروع تَكُون سببًا في ذِكْرِه وتوصيل الثواب له، فكان يُقَال: بنو أمية دَنٌّ خَلٍّ، أخرج الله مِنْه زُقَّ عَسَل؛ يعني: عُمَر بن عبد العزيز، فهو الولد الصالح المستوفي للفرد الأكمل النسبي من الحديث، «ويُحكى» أنَّ الخليفة المنصور قال له رجل من الهاشميين: اعْتَلَّ أبي رحمه الله ومات في وقت كذا رَحِمَهُ الله، فقال الربيع وَزِير المنصور: كم تَتَرَحَّم على أبيك بين يدي أمير المؤمنين وكيف ذلك؟ فقال له الهاشمي: لا ألومك، فإنك لم تَعْرِف حلاوة الآباء، فضحك المنصور وخجل الربيع؛ لأنه لم يكن له أب يُعرف على ما قِيلَ، والذي في التواريخ أنه ابن يونس بن أبي فَرْوَة مولى الحرث الحفار مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان حاجبًا للمنصور ثم صار وزيره، وكان يميل إليه ويعتمد عليه، فقال له يومًا: يا ربيع، سَلْ حَاجَتَكَ، فقال: حاجتي أن تُحِبَّ الفضل ابني، فقال له: وَيْحَكَ، إن المحبة تَقَع بأسباب، فقال له: قد أَمْكَنَكَ الله من إيقاع سببها، قال: وما ذاك؟ قال: تَفَضَّل عليه، فإنك إذا فَعَلْتَ ذلك أَحَبَّكَ، وإذا أَحَبَّكَ أَحْبَبْتَه، قال: قد والله حَبَّبْتَه إليَّ قبل إيقاع السبب، ولكن كيف اخْتَرْتَ له المحبة دون كل شيء؟ قال: لأنك إذا أَحْبَبْتَه كَبُر عندك صَغِيرُ إحسانه، وصَغُر عندك كَبِيرُ إساءته، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان، وحاجَتُه إليك حاجةَ الشفيع العريان، يشير بذلك إلى قول الفرزدق:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرًا   مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

فقد سعى الربيع في تقديم ولده الفضل عند الخليفة، وأدى ما يجب للولد على الوالد.

وبالجملة فقد قال ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة»، وقال بعضهم: الولد ريحانة إلى سبع، ووزير إلى سبع أخرى، وبعد ذلك إما صديق حميم، وإما عدو مبين، وبُشر الإمام عمرُ الفاروق رضي الله عنه بولد، فقال: ريحانة أشمها برهة من الزمان، وعما قليل إما ولد بار وإما عدو ضار، وأنشد بعضهم:

هـذا الـزمـان الـذي كـنـا نُـحَـاذِرُهُ   في قول كَعْب وفي قول ابن مسعود
إن دام هـذا ولـم يَـحْـدُث لـه غَـيْـر   لـم يُبْكَ مَيْت ولـم يُفْرَحْ بمولود

وقال الفضيل: ريح الولد من الجنة، ومزايا الأولاد دنيا وأخرى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فإنه قد يعود من الولد على رحمه، ولو كان الرحم حاملًا أنواع الرعاية، فقد روى كعب

بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «استوصُوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا» يعني: أن هاجر أمَّ إسماعيل كانت قبطية ومارية أم سيدنا إبراهيم كانت كذلك، وقال ﷺ: «لو عاش إبراهيم لَوَضَعْتُ الجزية عن كل قبطي»، ولحرمة الولد والوالد وارتباط العلاقة المتينة بينهما بما تقتضيه الحقوق؛ أَقْسَم الله بهما في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ المراد بالبلد: مكة المشرفة التي جَعَلَهَا الله حرمًا آمنًا، وجعل مَسْجِدَها قِبْلَة لأهل المشرق والمغرب، والمراد بالوالد: إبراهيم وإسماعيل، وما ولد: محمد ﷺ لأن إبراهيم باني مكة، وإسماعيل ومحمد عليهما السلام سُكَّانُهَا، وقيل: المراد بالوالد في الآية إبراهيم، وما ولد: جميع ولد إبراهيم من العرب والعجم، فإنهم مكان البقاع الفاضلة من أرض الشام وبيت المقدس وأرض العرب ومنهم الروم؛ لأنهم ولد عيص من إسحاق، فقد عَمَّرَت البقاع الفاضلة من نَسْل إبراهيم عليه السلام، وآخر الأنبياء وهو نبينا محمد ﷺ من أولاده؛ فلذلك قُرِنَ اسمه باسمه في الصلوات بالصيغة الإبراهيمية التي هي أيضًا عظيمة الفضيلة في جميع الأوقات، وكان ﷺ يصلي بها فيذكر بها جَدَّه، فقد دخل ﷺ في ضِمْن حديثه الشريف من قوله: «أو ولد صالح يدعو له».

ثم إن توصيل الولد إلى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة تتوقف على حُسْن التربية والتهذيب والتعليم والتأديب، ولا يَخْفى أن الله سبحانه وتعالى شَرَّف الإنسان بمُضْغَتَيْن صغيرتين؛ وهما قَلْبه ولسانه، وخَصَّه بصفتين عظيمتين؛ وهما هِمَّته وإحسانه، وما عدا ذلك من مَحْض المال أو الجمال فإنما هو حظ الأدنياء من النساء والرجال، فلا يَرْتفع المرء حتى يَرْفَعَه أكبراه وأصغراه، فالجنان قَابِل واللسان قائل، والهمة حاملة والإحسان فضيلة عاملة، والجنان عارِف مُسْتَقِرٌّ واللسان مُعْتَرِف مُقِرٌّ، والهمة حركة منتشرة والإحسان بركة مبشرة، فإن الجنان ينشي واللسان يفشي، وكلاهما يساعد الهمة والإحسان والعزم والإتقان؛ ولذلك كان المرء بأَصْغَرِيه.

ومعلوم أن الولد الصغير مُسْتَعد بأصغريه إلى استكمال أكبريه، فيحتاج إلى التربية التي هي صفة المربي الذي يقيمه الوليُّ لتأديب الصبي فيما يُقْصَد منه، فيجب على الولي أن يتأمل في حال الصبي وما هو مُسْتَعِدٌّ له من الأعمال ومُتَهَيِّئ له منها، فيعلم أنه مخلوق له؛ لحديث: «اعملوا فكل مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له»، فلا يَحْمِلُه على غيره، فإنه إن حمله على غير ما هو مُسْتَعِدٌّ له لم يُفْلِح فيه عادة، فيفوته ما هو متهيئ له، فإذا رآه حَسَنَ الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيًا؛ فهذا من علامة قَبُولِه للعلوم والفنون وتَهَيُّئِه

لها، فليَنْقُشْها في لَوْح قلبه ما دام خاليًا، فإنها تَتَمَكَّن من القلب وتَسْتَقِرُّ فيه وتزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وَجْه؛ عَلِمَ أنه لم يُخْلَق لذلك.

فإن رأى عينه طامحة إلى صنعة من الصنائع مستعدًّا لها قابلًا عليها وهي صناعة مباحة نافعة لأَهْل وَطَنِه؛ فليُمَكِّنه منها، وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التي يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأنسية، وهي الكتابة والقراءة وما يحتاج إليه في دِينِه من العقائد وغيرها، وأصول الحساب، ونحو ذلك من السباحة والعوم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمي واللعب بالرمح والسيف وأشباه ذلك من آلات الحرب؛ ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه، فإن هذه الأشياء من المنافع العمومية التي ينبغي تمرين الأطفال في زمن الشبوبية عليها، هذا بالنسبة للذكور.

وأما بالنسبة للبنات فإن وَلِيَّ البنت يُعَلِّمُها ما يَلِيق بها من القراءة وأمور الدين، وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز، وإن اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادئ المعارف النافعة في إدارة المنازل؛ فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن، ويشترك الصبيان والبنات في تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك.

فبهذا كله يتيسر للجميع كسب الفوائد الجسيمة المنتجة للاستقامة التامة وغنى النفس، بما اكْتَسَبَه العقل من العلوم والمعارف، ومارَسَتْه الأيدي من الصنائع واللطائف، التي هي أَمْن مِن الفقر الذي استعاذ منه ﷺ في قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» وفي رواية أخرى: «من الفقر والعيلة»، وقال ﷺ: «كسب اليد أمان من الفقر.» وقال أيضًا: «إن الله يحب العبد المحترف، ويكره الصحيح الفارغ.»

وفي عوارف المعارف رُوِيَ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: إن الله تعالى لَيُصْلِح بصلاح الرجل وَلَدَه وَوَلَدَ ولده وأَهْلَ دُوَيْرَتِه ودويرات حَوْله، ولا يزالون في حِفْظ الله ما دام فيهم، انتهى، وفي ذلك قيل:

رأيت صلاح المرء يُصْلِح أَهْلَه ... ويُعْدِيهم عِنْد الفساد إذا فَسَد
يُعَظَّمُ في الدنيا لِفَضْل صَلَاحِه ... ويُحْفَظ بعد الموت في الأهل والولد

فهذا هو الصلاح الموروث المسلسل المقصود من قوله في الحديث أيضًا: «أو ولد صالح يدعو له»، فالرجل إذا عَلَّمَ ولده ما فيه صلاحه واستقامته؛ اجتنى ثواب ثَمَرَة عمله دنيا وأخرى، أما ثواب الآخرة فأَمْرُه ظاهِر، وأما ثَمَرَة عمله في الدنيا فهي البر

والطاعة، وهما حَقٌّ كبير على الولد لوالده، قال الخليفة المأمون: لم أرَ أحدًا أبَرَّ من الفضل بن يحيى — وهو في سجن الرشيد — لأبيه، بَلَغَ من بِرِّه أنه كان أبوه لا يتوضأ إلا بماء مسَخَّن فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة، فَلَمَّا أخذ يحيى مَضْجَعَهُ قام الفضل إلى قمقم فأدناه إلى المصباح فَلَمْ يَزَلْ قائمًا وهو في يده حتى أصبح فشعر السجان بذلك فغيب المصباح، فتأبطه إلى الصباح.

قال علي رضي الله عنه: لو عَلِم الله شيئًا من العقوق أدنى مِنْ أُفٍّ لَحَرَّمَهُ، فليعمل العاق ما شاء أن يَعْمَل فلن يَدْخُل الجنة، وليَعْمَل البَارُّ ما شاء فلن يَدْخُل النار.

ومن البر أن لا ينتمي الولد إلى غير أبيه، قال ﷺ: «ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه، أو ادعى غير مواليه»، ومن البر أيضًا أن لا يكون سببًا لِسَبِّ أبيه؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: لا تمشين أمام أبيك، ولا تجلس قَبْلَه، ولا تَدْعُه باسمه، ولا تَسْتَسِبَّ له؛ أي: لا تُعَرِّضْه للسب وتجره إليه؛ بأن تَسُبَّ أبا غَيْرِك فَيَسُبَّ أباك مجازاة لك، وقد جاء مُفَسَّرًا في الحديث الآخر: «إن من أكبر الكبائر أن يَسُبَّ الرجل والديه، قيل: وكيف يَسُبُّ والديه؟ قال: يَسُبُّ الرجلَ فيَسُبُّ أباه وأمه»، وقال ابنُ عُمَرَ رضي الله عنه: «أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: إن والدي يأخذ مالي وأنا كاره، فقال: أما عَلِمْتَ أَنَّكَ ومالك لأبيك»، ومِنْ حَقِّ الأولاد إعظام الأصغر للأكبر، وحُنُو الأكبر على الأصغر، قال ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على وَلَدِهِ.»

وقد ذُكر في كتاب الحسبة في الكلام على مؤدبي الأطفال: أنه لا يجوز لهم تعليم الأطفال في المساجد؛ لنهي النبي ﷺ عن ذلك، وأَمْره بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين؛ لأنهم لا يَتَحَرَّزُون من تسويد حيطان المساجد، بل يتخذون للتعليم حوانيت في الدروب وأطراف الأسواق، قال: وينبغي للمؤدب أن لا يعلم الصبي القصار من سور القرآن إلا بَعْد حَذْقِه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، وتأليف طبعه إليها، ثم يُؤَلِّف طبعه على القرآن وحِفْظِه، ثم يُعَرِّفْه عقائد الدين، ثم أصول الحساب، وما يَسْتَحْسِنه من المراسلات والأشعار، ثم يأمر الصبيان بتجويد الخط على المثال والمشق، ويكلفهم بالحفظ على ظَهْر الغيب، ومن كان عُمْره سَبْع سنين أَمَرَهُ بالصلاة في الجماعة، وهذا لا ينافي قوله ﷺ: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَنَا صبيانكم، ومجانينكم، وشراءكم، وبَيْعَكم، وخصوماتكم، ورَفْعَ أصواتكم، وإقامةَ حدودكم، وسَلَّ سُيُوفكم، واتَّخِذُوا على أبوابها المَطَاهِر، وجَمِّرُوها في الجُمَع»؛ لأن النبي ﷺ قال: «مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لِعَشْر» فالمنع محمول على ما دون السبع التي هي سن التمييز.

قال صاحب الأخلاق — عند ذِكْر تأديب الأحداث والصبيان خاصة: إن أول قوة تَظْهَر في الإنسان أَوَّلَ ما يكون هي القوة التي يَشْتَاق بها إلى الغذاء، الذي هو سَبَب كَوْنه حيًّا، فيتحرك بالطبع إلى اللبن، ويَلْتَمِسُه من الثدي الذي هو مَعْدنه من غير تعليم ولا توقيف، وتحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته، ودليله الذي يَدُلُّ به على اللذة والأذى، ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها أبدًا إلى الازدياد والتصرف بها في أنواع الشهوات، ثم تَحْدُث له قوة على التحرك نَحْوها بالآلات التي تُخْلَق له، ثم يَحْدُث له الشوق إلى الأفعال التي تحْصُل له هذه، ثم تَحْدُث له من الحواس قُوَّة على تَخَيُّل الأمور، ويَرْسم في قُوَّتِه الخيالية مثالات فيَتَشَوَّق إليها، ثم تَظْهَر فيه قوة الغضب التي يَشْتَاق بها إلى دَفْع ما يُؤْذِيه، ومقاومة ما يَمْنَعه من منافعه، فإن أطاق بنفسه أن يَنْتَقِم من مؤذياته انتقم منها، وإلا الْتَمَسَ معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء، ثم يَحْدُث له الشوق إلى تمييز الأفعال الإنسانية خاصة أَوَّلًا أَوَّلًا حتى يصير إلى كماله في هذا التمييز، فيسمى حينئذ عاقلًا، وهذه القوى كثيرة وبعضها ضروري في وجود الأخرى إلى أن ينتهي إلى الغاية الأخيرة، وهي التي لا تراد لعلة أخرى، وهي الخير المُطْلَق الذي يَتَشَوَّقه الإنسان من حيث هو إنسان.

وأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء، وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه؛ ولذلك قُلْنَا إن أول ما ينبغي أن يُتَفَرَّسَ في الصبي ويُستدل به على عَقْلِه الحياء، فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به هو يَحْذَره ويَتَجَنَّبُه ويخاف أن يظهر فيه أو منه، فإذا نَظَرْتَ إلى الصبي فَوَجَدْتَه مُسْتَحْيِيًا مطرقًا بطرفه إلى الأرض، غيْر وَقَّاح الوجه، ولا مُحَدِّقًا إليك؛ فهو أَوَّل دَلِيل نَجَابَتِه، والشاهد لك على أن نَفْسه قد أَحَسَّت بالجميل والقبيح، وأن حياءه هو انحصار نَفْسه خوفًا من قبيح يظهر منه، وهذا ليس شيء أكْثر من إيثار الجميل، والهرب من القبيح بالتمييز والعقل.

وهذه النفس مُسْتَعِدَّة للتأديب، صالحة للعناية، لا تُحِبُّ أن تُهْمَلَ ولا تُتْرَكَ، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارَبة والمُداخَلة مَنْ كان بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة، فإن نَفْس الصبي ساذجة، لم تُنْتَقَشْ بَعْد بصورة، ولا لها رَأْي وعزيمة تُمِيلُها من شيء إلى شيء، فإذا نُقِش بصورة وقَبِلَهَا نَشَأَ عليها واعتادها، فالأَوْلَى بِمِثْل هذه النفس أن تُنَبَّه أبدًا على حُبِّ الكرامة، ولا سيما ما يُحَصَّل له منها بالدِّينِ دُونَ المال مِنْ سُنَنِه ووظائفه، ثم يُمْدَح الأخيار عنده ويُمْدَح هو في نفسه إذا ظَهَر شيء حَسَن منه، ويُخَوَّف بالمذمة على أدنى قبيح يَظْهَرُ منه، ويُؤَاخَذ بالاستهانة بالمآكل والمشارب

والملابس الفاخرة، ويُزَيَّن عنده صلف النفس، والترفع عن الحرص في المطاعم خاصة وفي اللذات عامة، ويُحَبَّبُ إليه إيثار غَيْرِه على نفسه بالغذاء، والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد في التماسها، وأن أَوْلى الناس بالمَلابس الملوَّنة النساء اللواتي تتزين للرجال ثم العبيد والخول، وأن الأحسن بأهل النُّبْل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه.

حتى إذا تَرَبَّى على ذلك وسَمِعَه قَلَّمَا يقرب منه، ويكرر عليه ذلك، ولا يُتْرَكُ ومخالطة مَنْ يُسْمَع منه ضِدُّ ما ذَكَرْتُهُ، لا سيما من أترابه ومن كان في مِثْل سِنِّه ممن يُعَاشِرُه ويُلَاعِبُه، وذلك أن الصبي في ابتداء نَشْئِهِ كثيرًا ما يكون قَبِيح الأفعال جدًّا، فإنه يكون كذوبًا يُخْبِرُ ويحكي بما لم يَسْمَعْه ولم يَرَهُ، ويكون حَسُودًا سَرُوقًا نَمُومًا لَحُوحًا ذا فُضُول ومِحَك وكِيَاد، أَضَرَّ شيء بنفسه وبكل أَمْر يلابسه، ثم لا يزال به التأديب والسن والتجارب حتى يَنْتَقِل في أحوال بعد أحوال.

فلذلك ينبغي أن يُؤَاخَذ ما دام طفلًا بما ذَكَرْنَاه ونَذْكُره، ثم يُطَالَبُ بحِفْظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مَجْرَى ما تَعَوَّدَه بالأدب حتى يَتَأَكَّد عنده بروايتها وحِفْظِها والمذاكرة بها جَمِيعُ ما قَدَّمْنَا ذِكْرَه، ويُحَذَّر من النظر في الأشعار السخيفة، وما فيها من ذِكْر العِشْق وأهله وما يُوهِمه أصحابها أنه ضَرْب من الظرف ورِقَّة الطبع، فإن هذا الباب مَفْسَدة للأحداث جدًّا، ثم يُمْدَح بِكُل ما يَظْهَر منه من خُلُق جميل وفِعْل حَسَن، ويُكْرَه عليه، فإن خَالَف في بعض الأوقات ما ذَكَرْتُه فالأَوْلَى أن لا يُوَبَّخ عليه، ولا يُكَاشَف بأنه أَقْدَمَ عليه، بل يُتَغَافَل عنه تَغَافُل مَنْ لا يَخْطِر بباله أنه قد تَجَاسَر على مِثْلِه ولا هَمَّ به، لا سيما إن سَتَرَه الصبي واجْتَهَدَ في أن يُخْفِيَ ما فَعَلَه على الناس، فإن عَادَ فلْيُوَبَّخ عليه سرًّا، وليُعْظَمْ عنده ما أتاه، ويُحَذَّر من مُعَاوَدَتِه، فإنك إن عَوَّدْتَه التوبيخ والمكاشفة حَمَلْتَهُ على الوقاحة، وحَرَّضْتَهُ على مُعَاوَدة ما كان استقبحه، وهان عليه سماع المَلَامة في ركوب القبائح من اللذات التي تَدْعو إليها نَفْسُه، وهذه اللذات كثيرة جدًّا.

والذي ينبغي أن نبدأ به في تقويمها أدب المطاعم، فيُفَهَّم أولًا أنها إنما تُرَاد للصحة لا للذة، فإن الأغذية كُلَّها إنما خُلِقَتْ وأُعِدَّتْ لنا لِتَصِحَّ بها أَبْدَانُنا وتصير مادةً لِحَيَاتِنَا، فهي تَجْرِي مجرى الأدوية، يُدَاوَى بها الجوعُ والألم الحادث منه، فكما أن الدواء لا يُراد للذة ولا يُسْتَكْثَر منه للشهوة، كذلك الأطعمة، لا ينبغي أن يُتَنَاوَل منها إلا ما يَحْفَظ صحة البدن، ويَدْفَع أَلَم الجوع، ويَمْنَع من المرض، فيُحَقَّر عنده قَدْر الطعام الذي يَسْتَعْظِمُه أَهْلُ الشَّرَه، ويُقَبَّح عنده صُورَةُ مَنْ شَرِهَ إليه، ونال منه فَوْق حاجة بَدَنِه، أو ما لا يوافقه حتى يَقْتَصِرَ على لون واحد، ولا يُرَغَّب في الألوان الكثيرة، وإذا جلس مع

غيره لا يُبَادِر إلى الطعام، ولا يَمُدُّ يَدَهُ قَبْل غَيْرِه، ولا يُدِيم النَّظَر إلى ألوانه، ولا يُحَدِّق إليه شديدًا، ويَقْتَصِر على ما يَلِيهِ، ولا يُسْرِع في الأكل، ولا يُوالي بيْنَ اللُّقَم بسرعة، ولا يُعْظِم اللُّقْمَة، ولا يَبْتَلِعُها حتى يُجِيدَ مَضْغَهَا، ولا يَتَتَبَّع نَظَرُه مَوْقِع الأيدي من الطعام.

ويُعَوَّد أنْ يُؤْثِر غَيْرَه بما يَلِيه إن كان أفضل ما عِنْدَه، ثم يَضْبِط شَهْوَتَه حتى يَقْتَصِر على أدنى الطعام وأَدْوَنه، وليأكل الخُبْز القفار الذي لا أدم معه في بعض الأوقات، وهذه الآداب وإن كانت جميلة بالفقراء فهي بالأغنياء أجمل، وينبغي أن يَسْتَوْفِي غِذَاءه بالعشي، فإنه إن استوفاه بالنهار كَسُلَ واحتاج إلى النوم، وتَبَلَّدَ فَهْمُه مع ذلك، وإن مُنِعَ اللحم في أَكْثَر أوقاته كان نافعًا له في الحركة والتيقظ، وقِلَّة البلادة، وبَعْثِه على النشاط والخفة.

فأما الحُلْو أو الفواكه فينبغي أن يُمْنَع منها البتة إن أمكن، وإلا فليتناول أَقَلَّ ما يُمْكِن، فإنها تستحيل في بدنه فيَكْثُر انحلالها، وتُعَوِّدُه أيضًا الشَّرَه ومَحَبَّة الاستكثار من المأكل، ويُعَوَّد أن لا يَشْرَب في خلال طعامه الماء، فأما النبيذ وأصناف الأشربة المسكر فإياه وإياها، فإنها تَضُرُّه في بدنه وفي نفسه، وتَحْمِلُه على سرعة الغضب والتَّهَوُّر، والإقدام على القبائح، وعلى القحة فيها، وسائر الخلال المذمومة، ولا ينبغي أن يحضر مجلس أهل النبيذ بل مجلس الأدباء والفضلاء، فأما مجلس غيرهم فلا؛ لئلا يَسْمَعَ الكلام القبيح والسخافات التي تجري فيه، وينبغي أن لا يأكل حتى يَفْرُغ من وظائف الأدب التي يَتَعَلَّمها، ويَتْعَب تَعَبًا كافيًا، وينبغي أن يُمْنَع من كُلِّ فِعْل يَسْتُره ويُخْفِيه، فإنه ليس يُخْفِي شيئًا إلا وهو يَظُنُّ أو يَعْلَم أنه قبيح.

ويُمْنَع من النوم الكثير، فإنه يُقَبِّحُه ويُغَلِّظُ ذِهْنَه ويُمِيتُ خَوَاطِرَه، وهذا بالليل، فأما النهار فلا ينبغي أن يَتَعَوَّدَه، ويُمْنَع أيضًا من الفراش الوطيء؛ أي: اللين، وجميع أنواع الترفع والرخاوة حتى يَصْلُبَ بَدَنُه ويَتَعَوَّدَ الخشونة، ولا يُعَوَّدُ الملابس الرقيقة، والمداراة في الصيف، ولا الفراء والنيران في الشتاء، ويُعَوَّد المشي والحركة والركوب والرياضة، حتى لا يَتَعَوَّدَ أضدادها، ويُعَوَّد أن لا يَكْشِف أطرافه، ولا يُسْرِع في مَشْيِه، ولا يُرْخِي يديه بل يضمها إلى صدره، ولا يُربي شَعْرَه، ولا يُزَيَّن بملابس النساء، ولا يَلْبَس خاتمًا إلا وقت حاجته إليه، ولا يَفْتَخِر على أقرانه بشيء مما يَمْلِكُه والداه، ولا بشيء من مآكِلِه وملابِسِه وما يجري مجراه، بل يَتَوَاضَع لكل أَحَدٍ، ويُكْرِم كُلَّ مَن يُعَاشِرُه، ولا يَتَوَصَّلُ بِشَرَفٍ — إن كان له أو سلطان من أهله إن اتَّفَقَ — إلى غَضَبِ مَنْ هو دُونَه، أو استهداء مَنْ

لا يُمْكِنُه أنْ يَرِدَه مَنْ هَوَاهُ أو تَطَاول عليه، كمن اتَّفَق له إن كان خاله وزيرًا أو عَمُّه سلطانًا، فيَطْرق به إلى هضيمة أقرانه وثَلْم إخوانه واستباحة أموال جيرانه ومَعَارِفِه.

وينبغي أن يُعَوَّد أن لا يَتَبَزَّق في مجلسه، ولا يَتَمَخَّط، ولا يتثاءب بحضرة غَيْره، ولا يضع رجلًا على رجل، ولا يَضْرِب تحت ذَقْنِه بساعده، ولا يعمد رأسه بيده، فإن هذا دَلِيل الكلل، وأنه قد بَلَغَ به التنعم أن لا يَحْمِل رأسه حتى يستعين بيده، ويُعَوَّد أن لا يَكْذِب ولا يَحْلِف ألبتة لا صادقًا ولا كاذبًا، فإن هذا قبيح بالرجال مع الحاجة إليه في بعض الأوقات، فأما الصبي فلا حاجة به إلى اليمين.

ويُعَوَّدُ أيضًا الصَّمْت وقِلَّة الكلام ولا يتكلم إلا جوابًا، فإذا حَضَرَ مَنْ هو أكبر منه اشْتَغَلَ بالاستماع منه والصمت له، ويُمْنَع مِن خبيث الكلام وهَجِينِه، ومن السب واللعن واللغو مِن الكلام، ويُعَوَّد حُسْن الكلام وطرايفه، وجميل اللقاء وكريمه، ولا يُرَخَّص له أن يستمع لأضدادها من غيره، ويُعَوَّد خِدْمَة نفسه ومُعَلِّمِه وكُلِّ مَنْ كان أَكْبَر منه.

وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمُتْرَفِين، وينبغي إذا ضَرَبَهُ المعلم أن لا يَصْرُخَ ولا يَسْتَشْفِع بأحد، فإن هذا فِعْل المماليك ومَنْ هو خَوَّار ضعيف، ولا يُعَيِّر أحدًا لا بالقبيح ولا بالسيئ من الأدب، ويُعَوَّد أن لا يُوحش الصبيان، بل يَبَرُّهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه؛ لئلا يتعود الريخ على الصبيان وعلى الصديق، ويُبَغَّض إليه الفضة والذهب، ويُحَذَّر منهما أَكْثَر من تحذير السباع والحيات والعقارب والأفاعي، فإن حُبَّ الفضة والذهب للصبي آفَتُه أَكْثَر من آفة السموم.

وينبغي أن يُؤْذَنَ له في بعض الأوقات أن يلعب لعبًا جميلًا؛ ليستريح إليه مِنْ تَعَب الأدب، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد، ويُعَوَّد طاعةَ والديه ومُعَلِّمِيه ومُؤَدِّبِيه، وأن يَنْظُر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم.

وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضًا نافعة، ولكنها للأحداث أنفع؛ لأنها تعودهم محبة الفضائل، ويَنْشَئُون عليها فلا يَثْقُل عليهم تَجَنُّب الرزائل، ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما تَرسُمُه الحكمة وتَحُدُّه الشريعة والسنة، ويعتادون ضبط النفس عما تَدْعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها، وتَسُوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية؛ أي: الحكمة النافعة، وتُرَقِّيهم إلى معالي الأمور، من التقرب إلى الله عز وجل ومشابهة الملائكة في التنزه عن الشهوات، مع حسن الحالة في الدنيا، وطيب العيش، وجميل الأحدوثة، وقلة الأعداء، وكثيرة المداح والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة، فإذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه إلى أن يَفْهم

أغراض الناس وعواقب الأمور؛ فَهِم أن الغرض الأخير من هذه الأشياء التي يقصدها الناس ويحرصون عليها؛ من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك، إنما هو ترقية البدن وحفظ صحته، وأن يبقى على اعتداله مُدَّة ما، وأن لا يقع في الأمراض، وأن لا تفجأه المنية، وأن يَتَهَنَّى بنعمة الله عليه، ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية، وأن اللذات كلها بالحقيقة هي خلاص من آلام النصب وراحات من التعب، فإذا عَرَفَ ذلك وتَحَقَّقَه ثم تَعَوَّده بالسيرة الدائمة عود الرياضات التي تحرك الحرارة الغريزية، وتحفظ الصحة، وتبقي الكسل، وتطرد البلادة، وتبعث النشاط، وتُزَكِّي النفس.

فمن كان مُمَوَّلًا مُتْرَفًا كانت هذه الأشياء التي رسمناها أصعب عليه؛ لكثرة مَنْ تَحْتَف به وتغويه، ولموافقة طبيعة الإنسان في أول ما ينشأ هذه اللذات، وإجماع جمهور الناس على ما أمكنهم منها، وطَلَب ما تَعَذَّر عليهم بغاية جهدهم، فأما الفقراء فالأمر عليهم سَهْل، بل هم قريبون إلى الفضائل، قادرون عليها متمكنون مِنْ نَيْلِها والإصابة منها، وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين.

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يُرَبُّون أولادهم بين حَشَمِهم وخوَاصِّهم؛ خوفًا عليهم من الأحوال التي ذَكَرْناها، وكانوا يُنْفِذُونهم مع ثقاتهم إلى النواحي البعيدة منهم ومِنْ سماع ما حَذَّرْنا منه، وكان يَتَولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش، ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه، وأخبارهم في ذلك مشهورة، وكثير من رؤساء الديلم ينقلون أولادهم عندما يَنْشَئُون إلى غير بلادهم؛ ليتعودوا بها هذه الأخلاق، ويبعدوا عن الترفه وعادات أهل البلدان الرديئة.

وإذْ قد عرفت هذه الطريق المحمودة في تأديب الأحداث فقد عَرَفْتَ أضدادها؛ أعني: أنَّ مَنْ نَشَأَ على خلاف هذا المذهب والتأديب؛ لم يُرْجَ فَلَاحُه، ولا ينبغي أن يُشْتَغَل بصلاحه وتقويمه، فإنه قد صار بمنزلة الوحش الذي لا يُطْمَع في رياضته، فإن نَفْسَه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهي مُنْهَمِكَة في مطالبها من النزوات، وكما أنه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية التي لا تَقْبَل التأديب، كذلك لا سَبِيل إلى رياضة من نَشَأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلًا في السنن، اللهم إلا أن يكون في جميع أحواله عالمًا بقبح سيرته، ذامًّا لها، عائبًا على نَفْسه، عازمًا على الإقلاع والإنابة، فإن مِثْل هذا الإنسان مَنْ يُرْجَى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج والرجوع إلى الطريقة المثلى بالتوبة، وبمصاحبة الأخيار وأهل الحكمة، وبالإكباب على التفلسف والعلوم النافعة.

وقد كُنْتُ نَظَمْتُ في كتاب تعريب الأمثال في تأديب الأطفال منظومة لطيفة تحسن بمنوال التعريب نَسْجُها، فيَحْسُن هنا بمناسبة المقام إِدْرَاجُها:

الحمد لله وَصَلِّ رَبِّ على النبي وآلِه والصَّحْبِ
وبعْدُ فالتأديب للأبناءِ آكَدُ واجبٍ على الآباءِ
مِنْ أَجْلَ ذا نَظَمْتُ للتنبيهِ خمسًا وأربعين بَيْتًا فيهِ
في نحو ساعتين والمولى على قصدي أَعَانَ جَلَّ ربي وَعَلَا
في بِرِّ والِدَيْك بَالِغْ تَغْنَمِ لا سيما في العيد أو في المَوْسِمِ
وإن تَرُمْ سُرور أُمٍّ أو أَبِ يومًا فكَسْب العلم خَيْر مَكْسَبِ
مَنْ رَامَ عند الناس طرًّا أنْ يُحَبْ فلْيَلْتَزِم حُسْن السلوك والأدبْ
وأن يكون طَيِّب السريرهْ مُهَذَّب الأخلاق زاكي السِّيرَهْ
من رام بَيْن العالَم ارْتِفَاعَهْ فلْيَلْزَمِ العِفَّة والقناعهْ
هل ذَلَّ عند الناس عَبْدٌ يِقْنَعُ أو عَزَّ سَيِّد لديهم يَطْمَعُ؟
إِنْ رُمْتَ أَنْ تُشَوِّقَ الأولادَا وأن ترى مِنْ نَجْلِك اجتهادَا
فَعِدْه بالإتحاف يَوْم العيدِ وَقَدِّم الوَعْدَ على الوعيدِ
يُعَاقَب الجاني بما جَنَاهُ وذاك في دنياه أو عقباهُ
والظلم لا يَتْرُكه المولى سُدَى مآل كُلِّ ظَالِم إلى الرَّدَى
من رام أن يَكْتَسِبَ اللطافهْ عليه طُولَ الدهر بالنظافهْ
فإنها مِنْ شُعَب الإيمانِ تُطْلَب في الثياب والأبدانِ
وشَرُّ أوصاف الفتى هو الغَضَبْ يفضي إلى ارْتِكَاب ما لا يُرْتَكَبْ
فيا له من خصلَة ذَميمهْ في تَرْكِها مَصْلَحة جسيمهْ
وقُوَّة الرأسِ مع العِنَادِ مِنْ أَقْبَح الخصال في الأولادِ
والامتثال صِفَةٌ جليلهْ للود ليس مِثْلُها وسيلهْ
مِمَّا يُعَدُّ من صفات الذَّمِّ كَتْم الصغير عن أبٍ أو أُمِّ
سرًّا حقيرًا أو جليلًا بل يَجِبْ إبداؤُه وعنهما لا يَحْتَجِبْ
يَطَّلِعُ المولى على ما تَعْمَلُهْ بِعِلْمِه لكنه قَدْ يُمْهِلُهْ
فَفُزْ بفعل صَالِح الأعمالِ تَحُزْ صلاح الحال والمآلِ
من يَعْصِ والديه ضَلَّ ونَدِمْ وساءَ حَالُهُ وللرشد عَدِمْ

وضاع سَعْيُه وخَابَ أَمَلُهْ ما لَمْ يَتُبْ فلا يَضِيعُ عَمَلُهْ
وعِفَّة الشريف عِنْدَ الفقرِ وصَبْرُه لعُسْره مع شُكْرِ
خيرُ فضيلة عليها يُحْمَدُ يعْقُبُهَا اليُسْرُ ويَبْقَى السُّؤْدَدُ
والولد الصالح عند الأهْلِ يُحَبُّ بَلْ يُكْرَم عند الكُلِّ
يَمْتَاز عن أقرانه في المَكْتَبِ تَشْمَلُه بَرَكَةُ المُؤَدِّبِ
فَضْلُ البنات الشغْلُ والتطريزُ ومَنْ حَوَتْ عِلْمًا به تَفُوزُ
في سائر الأحوال الاحتشامُ مِنْ جِنْسِهِنَّ والحيا يُرَامُ
الرفق بالفقير والضعيفِ مِنْ حُسْنِ أخلاق الفتى الشريفِ
وخَوْفُ رَبِّ العرش والمراقَبهْ أَمْنٌ مِن الشَّرِ وسوء العاقِبَهْ
مَن رَامَ نَظْمَه بسِلْكِ السُّعَدَا فَلْيُسْعِد الناس لِيَبْقَى مُسْعَدَا
يُحِبُّ مِثْلَ ما له لِغَيْرِهِ يعطي أخاه جانبًا مِنْ خَيْرِهِ
يَحْسُنُ حِفْظُ اللوح للصغيرِ على مِرَارٍ بَلْ وللكبيرِ
يَرْسُخُ في الذهن وليس يُمْحَى جَرِّبْه بالتقسيم واقْبَل نُصْحَا
الكبر ناشِئٌ عن الحماقهْ وما لِعَاقِلٍ عليه طاقَهْ
يُبْغِضُ كُلُّ الناس رَبَّ الكِبْرِ وبالرفيع والوضيع يُزْرِي
تَسْتَحْسِنُ الطباعُ وَصْفَ الأدبِ وأحْسَنُ الآداب آدَابُ النَّبِي
وما سوى أخلاقه فَبَاطِلُ ومَنْ تَحَلَّى بسواها عَاطِلُ
ولا يَلِيقُ مِنْ غُلَامِ الطَّاعَهْ خروجُ رَأْيِهِ عن الجماعَهْ
ففي اجْتِمَاع الكِلْمَة السلامهْ بها يُتَمِّمُ الفتى مَرَامَهْ
والحمد لله وصَلَّى اللهُ على النبِي وَكُلِّ مَنْ والاهُ

وينبغي أن يُعَلَّم أنَّ كل إنسان مُعَدٌّ نحو فضيلة ما؛ فهو إليها أقرب، وبالوصول إليها أحرى، ولأجل ذلك يَجِب على مُدَبِّر المدن أن يسوق كل إنسان نحو سعادته التي تَخُصُّه، ثم يُقَسِّم عنايته بالناس ونظره إليهم إلى قسمين: أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية، والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية، فكل مِنْ هاتين الفضيلتين عليه مدار العمل وخلاصته، العمل الذي لا يَنْقَطِع ثوابُهُ المشار إليه بحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ...» الحديث.

فتَلَخَّصَ من هذا الحديث النبوي أن الإنسان يُخَلَّد عَمَلُه بعد انقضاء حياته بالعلم النافع للأمة، والصدقة الجارية التي تُؤَبِّد شَرَفَه ونُبْلَه، والولد الصالح الذي يُؤَبِّد نَسْلَه، فإذا كَثُر أفراد هؤلاء الناس الجامعين لهذه الفضائل، المسْتَكْمِلِين للمآثر الجميلة والشمائل؛ انْتَظَمَ بهم التمدن والعمران، وَحَسُنَتْ أحوال الأهالي والبلدان، لا سيما وأن ابن آدم في الحديث هو الإنسان، فهو يَعُمُّ أشخاص الملوك والسوقة، وأكثر الملوك جامع للاتصاف باستجماع هذه المزايا، ثم يليهم الوزراء والأمراء والكبراء والقضاة ووجوه التجار ووجوه أهل الفلاحة والصناعة، فكُلٌّ على قَدْر مَرْتَبَتِه، وبحسب مَيْسَرَته يُسَارِع في تقويم أَوْد مَمْلَكَتِه، وتقديم منافع بَلْدَتِه؛ لكسب القوة الملية وإحراز الرُّتْبَة العَلِيَّة، وهذا كُلُّه إنما يَتِمُّ بتمام السعي بالنفس والمال، وقد قيل في الحِكَم والأمثال: من العجائب عبْد بَطَّال، ويَطْلُب منازل الأبطال، فخَيْر الناس من صَنَعَ الخير وانتفع بمعروفه، قال الشاعر:

لا تَقْطَعَنَّ يَدَ المعروف عَنْ أَحَدٍ ... ما دُمْتَ تَقْدِرُ فالأيام تَارَاتُ
واشْكُرْ فضيلة صُنْعِ الله إِذْ جَعَلَتْ ... إِلَيْكَ لا لَكَ عِنْد الناس حَاجَاتُ

وقال امرؤ القيس:

ولو أَنَّ ما أَسْعَى لأدنى مَعِيشَةٍ ... كفاني وَلَمْ أَطْلُبْ قليلٌ من المال
ولكنما أَسْعَى لِمَجْد مُؤَثَّل ... وقد يُدْرِك المجدَ المُؤَثَّل أمثالي

وقال أيضًا:

بكى صاحبي لَمَّا رأى الدَّرْبَ دُونَه ... وأيقن أنَّا لاحقان بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ له لا تَبْكِ عَيْنَاك إنما ... نُحَاوِلُ مُلْكا أو نَمُوتُ فنُقْبَرَا

ومن الكلام الهاشمي قَوْل عبد المطلب:

لَنَا نُفُوس لِنَيْل المجد عَاشِقَةٌ ... ولو تَسَلَّتْ أَسَلْنَاهَا على الأَسَلِ
لا يَنْزِل المجد إلا في مَنَازِلِنَا ... كالنوم ليس له مَأْوًى سِوَى المُقَلِ

وقال آخر:

يَغُوصُ البحر مَنْ طَلَبَ اللآلي　　ومَنْ طَلَبَ العلا سَهَرَ الليالي
تَـرُومُ الـعِـزَّ ثُـمَّ تـنـام لـيـلًا　　لَقَدْ أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ في الوبالِ
وَمَنْ رام الـعـلا مِـنْ غيـر كَدٍّ　　أَضَاعَ العُمْرَ في طَلَبِ المُحَالِ

فمدار تأسيس قوة الملة والدولة ونفع الأوطان وعَمَار البلدان على العمل الآتي في الفصل الآتي.

الفصل الثاني

في العمل الذي هو القوة الأولية في إبراز المنافع الأهلية وفي تطبيقه على الأرض الزراعية.

* * *

قد سَبَقَ أن منابع الثروة تَرْجِع إلى أربعة أشياء: وهي الزراعة، والصناعة، والتجارة، وتنمية الحيوانات، وأما الإمارة فهي القوة المُدَبِّرة لهذه المنابع، ويمكن إدخال تنمية الحيوانات في الزراعة، فتكون أصول المكاسب ثلاثة، وأفضل هذه الأشياء الزراعة؛ لأنها أطيب الجميع حيث هي إلى التوكل أَقْرَب، والله يحب المتوكلين، قال النووي: «إنما كانت الزراعة أفضلَ مِنْ غَيْرِها؛ لأن نَفْعَها يتعدى إلى غير الزراع من الطيور والبهائم وكثير من الحيوانات، وما كان متعديًا فهو أفضل من اللازم في غالب الأوقات.» وقد قال ﷺ: «لا يغرس مسلم غَرْسًا، ولا يَزْرَع زرعًا فيأكل منه إنسان أو دابة أو طير إلا كانت صدقة يوم القيامة.»

فمن فضائل الزرع أن الله سبحانه وتعالى كَرَّر في كثير من الآيات ما أنعم به في إخراج الزرع والنبات، وَوَصَفَ نَفْسه بأنه هو الذي أَخْرَجَه للحاجات، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ يعني: من الماء ﴿خَضِرًا﴾ يعني: أخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعني: سنابل البر والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب، يُرَكَّبُ بعضه بعضًا.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ وهو ما انْبَسَطَ على الأرض وانتشر؛ كالعنب والقرع وهو شجرة الدباء والبطيخ وغيرها، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما قام على ساق وبَسَق؛ كالنخل والزرع وسائر الأشجار، ثم قال: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ

مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي: ثَمَرُهُ وطَعْمُه الحامض والمر والحلو متدانيات، يَقْرُب بعضها من بعض في الجوار، تَخْتَلِف بالتفاضل ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي: بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ الآية، والصنوان: النخلات، يَجْمَعُهُنَّ أَصْل واحد، ويَتَشَعَّب منه الرءوس فيكون نخلًا.

وقال سبحانه: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ الآية، وقال عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْحَبُّ﴾ يعني: جميع الحبوب من حنطة وشعير وغيرها ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: البذر أول ما يَبْدو.

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يعني: فراخه، يقال: أشطأ الزرع إذا أفرخ، فآزره أي: قَوَّاه من المؤازَرة؛ بمعنى: المعاوَنة، أو من الإيزار وهي الإعانة ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قَصَبِهِ، جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وَقُوَّتِه وغِلَظِهِ وحُسْن مَنْظَرِهِ، وهو مَثَل ضَرَبَه الله للصحابة، قَلُّوا في بدء الإسلام ثم كَثُرُوا، واستحكموا فَتَرَقَّى أَمْرُهم بحيث أعجب الناس.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ فحَسْب أرباب الزراعة فخرًا أن الله تعالى وَصَفَ نَفْسه بهذا الوصف في قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ وهو مِثْل قوله تعالى خطابًا للنبي ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ﴾ ومعنى الزارعون: المُنْبِتُون، وسيأتي بعض الكلام على هذه الآية.

فالأفعال في الحقيقة كلها لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فقد امْتَنَّ الله سبحانه وتعالى على عباده ببناء السماء؛ أي: خَلْقِها، وبتمهيد الأرض، وخلقة زوجين من كل شيء؛ لأن السماء يأتي من جهتها المطر النازل من السحاب، ولأن فيها تقدير الأرزاق كلها، ولولاه لَمَا حَصَلَ في الأرض حَبَّة قوت، وجمع بين السماء والأرض في الامتنان؛ لأن السماء مَسْكن الأرواح، والأرض موضع الأعمال،

والمراد بالأيد: القوة، ولِكَوْن المخلوقات المُتَعَيِّشة بالأرض هي التي تَعْمُرها، قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ والمراد بالزوجين: ما يَشْمَل الزوجَيْن الحقيقيَّيْن والمتشاكِلَيْن والضدَّيْن ونحو ذلك.

وقوله تعالى في جانب السماء: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أوسعناها، بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسِعَتِهَا؛ كحلقة في فلاة، والبناء الواسع الفضاء العجيب، فإن القبة الواسعة لا يَقْدِر عليها البناءون؛ لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يَصِح بها استدارتها، ويَثْبُت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضُها إلى بعض، فقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يرجع إلى تمام القدرة بالنسبة إليه تعالى، ومنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: ما تَقْدِر عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ يعني: الفارشون لها بعد خلق السماء، ومع ذكر الامتنان على عباده ففيه إفادة الوحدانية في الذات والصفات والأفعال الحقيقية، وفيه تعليم لعباده أن يَتَشَبَّثُوا باستثمار ما خُلِق لِأَجْلِهم، واكتساب فوائده كما أَرْشَد موسى عليه السلام حين استسقى لقومه بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فبضربه عليه السلام الحجر بعصاه؛ اسْتَخْرَج الماء الذي به حياة النفوس من الصخرة الصماء، فالرزق إنما يكون عَادَة بالعمل في الأرض لكن بفعل الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ فأشار بذلك إلى خَلْق الرزق الذي به بَقَاء المخلوقات.

ثم ذَكَر الماء الذي به الإنبات ومنه المشروب، ثم ذَكَر ما به إصلاح المأكول وهو النار، فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تَقْدَحُونَهَا ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ فامْتَنَّ سبحانه وتعالى بثلاثة أمور؛ وهي المأكول، والمشروب، والمُصْلِح للمأكول، فَذَكَر مِن المأكول الحَبَّ؛ لأنه الأصل، ومن المشروب الماء؛ لأنه الأصل، ومن المصلِحات النار؛ لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها، ودَخَلَ في كل واحد منها ما هو دونه.

ثم إن الحرث هو أوائل الزرع ومقدماته؛ من برش الأرض وَرَدِّها، وتخديدها، وخِدْمَتِها، وإلقاء البذر فيها، وسَقْي المبذور، وأما الزرع فهو آخر الحرث؛ من خروج النبات، واستغلاظه، واستوائه على الساق، فهو بهذا المعنى ليس فِعْلًا للحارث الذي لا يُنْسَب إليه إلا المبادي، فإن إيجاد الحب في السنبلة ليس بفعل الناس، وإنما فِعْلُهم هو إلقاء البذر والسقي، ولكن لما كان الحرث مُتَّصلًا بالزرع، وكان الحرث أوائل الزرع،

والزرع أواخر الحرث؛ جاز إطلاق أحدهما على الآخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: الزُّرَّاع ﴿نَبَاتُهُ﴾ أي: الحراث، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ بمعنى: المُنْبِتُون، وقوله ﷺ: «الزرع للزراع» بمعنى آخر، وفيه فائدة أخرى وهي أن الزرع لا يكون إلا لِمَن أتى بالأمر المتأخر، وهو إلقاء البذر؛ أي: مَنْ له البذر على مذهب أبي حنيفة رحمه الله، فقوله: للزراع أظهر؛ لأنه بمجرد الإلقاء في الأرض يُجْعَل الزرع للمُلْقِي، سواء كان مالكًا أو غاصبًا، وهذا يُفِيدُه لفظ الزراع؛ لأنه لو قال: الزَّرْعُ للحارث؛ لأفاد أنه لا بد من الابتداء بعامل الزرع، وتقليب الأرض وتسويتها، وإلقاء البذر فيها، مع أن المقصود الأخير؛ أي: من له البذر.

فعُلِمَ من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد مَنَّ على عباده بالأرض الزراعية والسقي، وخَلْقِ بقية العناصر النافعة لإنباتها، وإنما يحتاجون إلى الأعمال الحراثية وغيرها، فجَعَلَ سبحانه وتعالى فيهم القدرة على ذلك، وخَلَقَ أفعالهم المستعدة لذلك، فأَعَدَّهُم للأشغال وبَعَثَ هِمَّتَهُم صَوْب الأفعال، فللأمور المُعَايَشَة في الظاهر جهتان: جهة فاعلية، وجهة انفعالية؛ أي: محلية، والأول هو الانشغال، والثاني هو الأراضي الزراعية.

ثم اخْتُلِفَ هل مَنْبَع الغِنَى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض، وإنما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قِيمة له إلا بتطبيقه على الفلاحة، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة، وأنه هو الأصل الأَوَّلِيُّ للعِلَّة والأُمَّة؛ يعني: أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون إليه لَمَنْفَعَتِهم من الأرض، أو لراحة المعيشة، فالفضل للعمل، وأما فَضْل الأرض فهو ثَانَوِيٌّ تَبَعِيٌّ.

وهذا هو الذي يَعْتَمِده أهل الفلاحة، ويسْتَدِلُّون على ذلك بأنه لا يُمْكِن إيجاد الخصب من الأرض إلا بدوام الشغل واستمرار العمل، وإلا لَبَقِيَتْ مُجْدِبَةً إذا انْقَطَعَ الشغل عنها، فإن الشغل يُعْطِي قِيمَةً لجميع الأشياء التي ليست مُتَقَوِّمَةً بدونه، كالأشياء المباحة التي لا تُبَاع ولا تُشْرَى مما لو خُلِّيَت ونفسها لا تساوي شيئًا؛ مثلًا الماء والهواء أصلان لمنافع حياة الإنسان، ولا يدخلان في الثروة والسعادة ولا في المِلْكِيَّة المُسْعِدة؛ لأن هذين العنصرين اقْتَضَت الحكمة الإلهية الإكثار منهما في جميع المحال، وأُبِيحَ لكل إنسان التمتعُ بهما، فهما في حد ذاتهما على العموم ليسا من الأملاك المتقومة وإن عَظُمَتْ فائدتها، ولا يزيد في منفعتهما النسبية إلا العمل والشغل؛ يعني: أَنَّ جَلْبَهُمَا إذا احتاج للعمل كان له قيمة بِقَدْر العمل فقط؛ لأن الظمآن إذا احتاج إلى مَنْ يَجْلِب له الماء في إناء؛ كان الماء المجلوب لِسَدِّ خلة العطش مُقَوَّمًا عند جلبه إليه دون قِيمَته في النهر، فإن كوز الماء قد يُعْطَى

لمن يَطْلُبه مجانًا بدون مقابل، وقد يُعْطَى بثمن على قَدْر العمل، وقد يَبْلُغ عند الضرورة والاحتياج ثَمَنًا جسيمًا كما وَقَعَ في غزوة الفرنساوية بمصر: أن أَحَدَ رؤساء العسكر الفرنساوية دَفَعَ في كوز الماء مائة فرنك؛ يعني: أربعمائة قرش.

وإذا كان الإنسان في بيته واحتاج إلى استنشاق الهواء فالعمل الذي يكون به فتح المنافذ كالأبواب والطاقات والشبابيك؛ تَجْعَل له قيمة لم تَكُن له قَبْل ذلك وكذلك عند الضرورة؛ كالهواء للمسجون، فإنه يتغالى في تحصيله بدفعه للسجان قدرًا جسيمًا، فما يصرفه الإنسان لتحصيل المباح من الماء والهواء إنما هو قيمة العمل وأجرة الخدمة، وفي مقابلة الأمر والنهي والسلب والإيجاب بحسب منافع هذه الأشياء ومضارها، فهذا هو الذي يُعَدُّ مِلْكًا للإنسان وثَرْوة له باستحوازه على الماء والهواء، وفيه ترويج للعقارات المشتملة على منافع هذين العنصرين، ومثلهما النار والكلأ المباح؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار» فلا يجوز لأحد تَحَجُّرُهَا، ولا للإمام إقطاعُها.

فالمدار على العمل في الرواج؛ إذ به يستحوذ الإنسان على منافع الحيوانات وصناعتها الإلهامية فيؤلفها لهذه المنافع؛ لينتفع بها أَهْل وَطَنِه، ويؤنس المتوحش منها لذلك، فيتملك الإنسان صناعة النحل، وصناعة دود القز بتربيتها، وبجودة العمل يتوصل الإنسان إلى اغتنام العون بحركة الهواء والماء، وبصلابة الأجسام ولِينِها، وبتصعب الأبخرة وبالسيارات، وبكل ما فيه قوة معنوية، وأسرار منتشرة في أجزائه الكونية، وخواص تجريبية، أليست من دائرة تصرف القوه البشرية؟ وإنما حَدَثَتْ للإنسان من جودة الصناعة، وتَقَدُّم المهارة والبراعة، ومعرفة الانتفاع بتلك القوى الطبيعية التي بَثَّتْهَا في الكون الحكمة الإلهية، فالمولى سبحانه وتعالى خَلَقَ لنا هذه الأسرار والخواصَّ، وخَلَقَ فينا العقل لِنَقْدِرَ على الاستعانة بها؛ لتكميل ضَعْفِنَا والاستفادة منها فيما نحتاج إليه، فإن الآلات والدواليب البخارية مثلًا والسفن المنشورة الشراع في البحار العظيمة نستفيد منها الفوائد الجمة لقوة العمل، الذي يَعْسُر أن يكون مِثْلُه بالأيدي مُنْتِجًا مقدار إنتاجه بالآلات.

وفي الحقيقة جميع هذه الأعمال لا يَتَمَكَّن الإنسان من الانتفاع بها حق الانتفاع إلا بوجود الأرض المخصبة، أو القابلة للخصوبة بالصناعة التي هي محل العمل.

ولن تصادف مرعًى مُمْرِعًا أبدًا   إلا وَجَدْتَ به آثارَ مُنْتَجِعِ

فالأرض المخصبة فَضْلُهَا إنما هو وجود خاصية الخصب الذي هو قبول الإنتاج والإثمار، وهذه الخاصية بالنسبة لذات الأرض غير محسوسة، بل هي عبارة عن الاستعداد والقبول لاستخراج المحصولات منها بالعمل، فهي في أول أَمْرِها وقبل إصلاحها تحتاج كغيرها من الأشياء الطبيعية إلى قوة إرادة واختيار، صادرة عن عقل وتمييز ممن يريد أن يتعاهدها بالعمل ويُصْلِحها.

فالمملكة المتسعة الأراضي القابلة للزراعة اتساعًا بليغًا يَزِيد عن حاجتها ليس فيها حَقُّ المِلْكِيَّة مشروعًا ولا مُنْتَظِمًا، وليس لها إيراد ولا محصول يَنْتِج من القدر الزائد عن حاجة أهاليها لِقِلَّتِهِم، فالقدر الزائد من الأراضي ضائع بالنسبة إلى المملكة هباء منثورًا، ولكون طَرِيقِها وعرًا بقي إقليمها قفرًا.

كم مِنْ رياض لا أَنِيسَ بها   تُرِكَتْ لأن طَرِيقَها وَعِرُ

ومع ذلك لو اسْتَيْقَظَ أهلها من الغفلة؛ لَأَدَّوْا لِوَطَنِهِمْ مَفْرُوض العمران ونَفْلَه:

لا تَكُونَنَّ للأمور هَيُوبًا   فإلى خَيْبَةٍ يَصِير الهَيُوبُ

فَلْنَفْرِضْ أن إقليمًا مشتملًا على قوم يَعْمُرُونَه كبلاد الشلوك والدنكة من الأقطار السودانية التابعة لهذه الحكومة المصرية، به أرض زراعية؛ يعني: قابلة للزراعة لخصوبتها، وأن مقدار أهله مليون من الأَنْفُس، وأن أراضيه الواسعة المُخْصِبَة تكفي لتُعَيِّش عشرة ملايين من الأهالي، ففي هذه الحالة كل واحد من سُكَّانِه يَشْتَغِل بحراثة مِقْدَار من الأرض بِقَدْر غِذَائه لا غير، وليس له من الأشغال غير ذلك، فآحاد الأهالي بهذا الإقليم مُقْتَصرون على مَنَافِعِهِمْ الشخصية الغذائية، فلا يَتَفَكَّر بعضهم وهو القوة الحاكِمِيَّة أن يَطْلُب من البعض الآخر وهو القوة المحكومية شيئًا في مقابلة المحصولات الغذائية بوصف الخراج، ولا يرضى أحد منهم على فَرْض أن يَطْلُب منه ذلك أن يَدْفَعَ شيئًا بهذا الرسم ولا بِرَسْم آخر؛ كاستعاضات تجارية أو تبرعات ثوابية، وإذا دَفَعَ شيئًا لآخر فإنما يكون في مقابلة الأعمال فقط إذا كان الحارث يَشْتَغِل على ذمة آخر بأجرة عَمَلِه، فلم يكن الحارث مُكَلَّفًا إلا بالشغل على ذِمَّة الزارع الذي وَفَّرَ مِنْ زراعة عِدَّة سنوات ماضية شَيْئًا من المحصولات، يُعْطِيه للحارث بِقَدْر تَقَاوِي أَرْضِهِ وقَدْر ما يتعيش به إلى أَوَان المحصول الجديد.

فميسرة الزارع؛ أي: صاحب الزرع، واقتداره على البَزْر والأجرة ثَرْوة له، فهي مَنْبَع الإيراد بعد الشغل، والشغل وهو العمل مَنْبَع الإيراد قبل تحصيل البذر وأجرة الحارث، وهذا يُنْتِج أن مَنْبَع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة، ومع أن كَدَّ العمل مَصْدَر السعادة الأصلي فهو أيضًا يُعِين صاحب الميسرة على تَكْثِير مَيْسَرَتِه بقوة العمل، ومضاعفة الهمة حسب الطاقة أَزْيَد مما تساعد خصوبة الأرض عليه؛ يعني: لو زَرَعْنا أرضًا خصبة وميزْنَا ما يُمْكِن أن يُنْسَب من إيرادها للعمل، وما يُنْسَب للخصوبة منه، وفَرَزْنَا كلًّا على حِدَتِهِ؛ وَجَدْنَا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة.

ودليل ذلك أن الأمة المتقدمة في ممارسة الأعمال والحركات الكدية ذات الكمالات العملية، المستكملة للأدوات الكاملة والآلات الفاضلة والحركة الدائمة؛ قد ارْتَفَعَتْ إلى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضي الخصبة الواسعة الفاترة الحركة، فإن أهاليها لم يَخْرُجوا من دائرة الفاقة والاحتياج، فإذا قَابَلْتَ بين أغلب أقاليم أوروبا وأفريقيا ظَهَرَ لك حقيقة ذلك.

فمن هذا يَظْهَر أن أساس الغنى مَبْنِيٌّ على كثرة الأشغال والأعمال، فهي مصادر وموارد للأموال، ومنابع لأسعد الإقبال، ومع ذلك فليس تعويد النفس على النشاط سهلًا، فإن الإنسان من أَصْل الفطرة مَرْكُوز في طَبْعِه كراهة التكليف بالعمل، والتباعد منه حَسْب الإمكان مع احتياجه إليه؛ لِحِفْظ نفسه وبقاء جِنْسه بالتناسل الذي من لوازمه كثرة العمل، وذلك إنما يكون بالتشويق للزواج الذي به يَنْمُو النوع البشري في البلاد الخصبة، فتَبْعَث الوجدانيات صاحب العَيْلة على أن يَسْتَعْمِل حركة قُوَاه لحاجته وتحصيل لوازمه، فيَغْلُب التطبع على الطبع، ويُحْمَل الإنسان على الشغل رَغْمًا عن أَنْفِه، فهذا التَّطَبُّع الذي هو طَبْعٌ ثَانٍ للإنسان طارئٌ وعارِضٌ عليه، يَزُول بانتهاء قضاء الأوطار، فيعود للإنسان طَبْعُه الأول مِنْ حُبِّ الدعة والراحة والانهماك على البطالة، ولا يخرج من ذلك إلا إذا تَوَلَّدَ عنده احتياج جديد فيَعْمَل بِقَدْر قضاء الوطر، ثم يعود إلى الدعة والبطالة وَهَلُمَّ جرًّا، وهذه الحالة في البلاد الخشنية هي حالة طبيعية، قريبة من الحالة الفطرية التي هي حالة النوع البشري في أول أمره.

فالإنسان في هذه الحالة من حيث إنه فَرْد من أفراد الهيئة الاجتماعية لم يَكُن قَوِيَّ المَيْل لِتَمَدُّن الهيئة الاجتماعية؛ يعني: أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ من أفرادها يكون بهذه المثابة لا انتفاع للجمعية بِعَمَلِهِ، فجميع أَعْضَاء الجمعية الخشنية تَلْتَذُّ نُفُوسُهُم بالراحة والدعة، لا سيما أَهْل الأقاليم التي لا تَسْتَدْعِي احتياجاتهم بها كَبِيرَ عمل ولا عَظِيم شغل،

فبطالة أعضائها كأنها رأس مالهم، وراحتهم يَعُدُّونَها مِن أَعْظَم أحوالهم، وكذلك بعض أهالي المدن الغنية المُثْرِية ذات الإيراد، المُتَلَذِّذَة بحسن المطعم والمسكن والزينة والرفاهية، فإنهم يَصْرِفُون النظر عن التلذذ بالشغل، ويميلون للراحة والتلذذ بالبطالة والاستراحة، ويهربون بالسرعة من التمتع بالرفاهية إذا اضْطُرُّوا أن يَشْتَغِلوا بأنفسهم لا بِخَدَمِهِمْ، فلا يَعْمَلُون الأعمال الشاقة في أراضيهم التي لا تقوم بهم إلا بكثرة العمل، فيتركون مَلَاذَّهُم إذا اقتضى الحال أن يكدوا أنفسهم بعَمَل هَيِّن، ولو كان جزءًا من أَلْف جزء من المتاعب التي يَتْعَبُها العملة، فيفوتون هذه اللذات الجسيمة إيثارًا للدعة والراحة عليها؛ لما قُلْنَاه من أن مَحَبَّة الراحة فطرية، مألوفة للنفوس على الإطلاق، متمدنة أو غير متمدنة؛ يعني: أن أهل الممالك المتمدنة لو كُلِّفَ مُتْرَفُوهم وأهالي رفاهيتهم العمَلَ اليسير، وكان لَوْلَاه لفاتَهُم التمتع بها؛ فإنهم يؤثرون الراحة على الشغل، ولذلك تقول العامة: الراحة والكَسَل أَحْلَى مَذَاقًا من العَسَل، وقد نَظَمَ هذا المعنى بَعْضُ الشعراء، فقال:

إن البطالة والكَسَلْ أَحْلَى مَذَاقًا مِنْ عَسَلْ
إنْ لَمْ تُجَرِّبْهَا فَسَلْ مَنْ كان قَبْلِي في الكَسَلْ

فمن هنا يَنْتِجُ أن كل أمة مجموع شُغْلِها المُنْجَز يُسَاوي مَجْمُوع احتياجتها البشرية، فإذا فَرَضْنَا في القضية المتقدمة أن إقليم الشلوك والدنكة بالسودان إقليم فلاحة، وأن مقدار أهله مليون، ومساحة أرضه عَشَرَة ملايين من الفدادين، وأن الشخص الواحد يكفيه في غذائه فَدَّان واحد؛ فتكون أرض هذا الإقليم كافيه لغذاء عشرة ملايين من الأنفس، فهي زائدة تسعة ملايين عن حاجة أهلها الموجودين بها، فكل إنسان من الأهالي يشتغل بقدر ما يَلْزَم لحاجته، فالعمل الزراعي لا يكون من الجميع إلا بقدر المؤنة اللازمة للجميع دون الزيادة عليها، وفي هذه الحالة يكون عمل كل إنسان أَقَلَّ من طاقته وجُهْدِه ودون قواه الطبيعية، بحيث يكون له من البطالة نَصِيب عظيم، وأيضًا لا يَزْرَعون في هذه الحالة من إقليمهم إلا المزارع الخصبة التي تكون سَهْلة الحراثة قريبةَ السَّقْيِ، بدون أن يكون فيها كبيرُ مشقة على الحارث، فتلك الأمة التي فرضنا اتصافها بتلك الصفات تَقْنَع بالفلاحة اليسيرة، وتَكْتَفِي بقدر القوت الضروري؛ لملازمة الكسل وحُبِّ الراحة للطبع البشري، فكل فَرْد من أفراد هذا الإقليم مُسْتَعِد لأن يَصْرِف ثلاثة أرباع زَمَنِه في التمتع بلذة البطالة والراحة، بدون أن يَعُود عليه ضَرَر في احتياجاته الأولية وأقواته المعاشية، فلا يَضُرُّه ضياع الأوقات.

والغالب أيضًا أن الأهالي الذين هم بهذه المثابة لا يكادون يَخْرُجون عن هذه الحالة ما لم تَغْلِب على طباعهم وأحوالهم حالة أخرى، تُعَادِل قُوَّة الاحتياجات الأولية؛ كالتناسل والتوالد، أو تُشَوِّقُهُم الحكومة إلى ذلك، أو تُجْبِرُهم عليه، فإن الكثرة تَسْتَجْلِب الحاجة؛ فبهذا يَزِيد عَدَدُهم ويَنْمُو في قليل من السنين ويَصِير ضِعْفَيْن، فيتضاعف مِقْدَار زراعتهم بذلك، فيكون للمليونين من الأنفس مليونان من الفدادين، وفي مدة مُسَاوِية لِمَا ذُكِرَ يكون عدد الأهالي أربعة ملايين.

وهكذا إلى أن يَبْلُغ مقدار الأهالي عَشَرة ملايين بِقَدْر ما تَكْفِيه من الغذاء، فتحس الأمة إحساسات قوية بصعوبة تحصيل غذائها لكثرة أهاليها، فلا تَكَاد تَتَحَصَّل منه على الكفاية، فكل شخص من الأهالي نَقَصَ له شيء من غذائه اضْطُرَّ على أن يَصْرِفَ جميع زَمَنِهِ وجميعَ قُوَاه في تحصيل الغذاء والمؤنة، ففي هذه الحالة يتجدد لأهالي هذا الإقليم صفة نشاط أخرى، فيكون مقدار الشغل عندهم والعمل الكافي لهم صَرْف ما يستطيعونه من الكد والاجتهاد والقوة والنشاط، ولا تزال تتزايد عِنْدهم القوة النشاطية والانتفاع بالأراضي الزراعية أيًّا ما كانت خصوبتها.

تَرِقُّ إلى صغيرِ الأَمْرِ حتى يُرَقِّيَكَ الصغيرُ إلى الكبيرِ

وهذه الحالة حالة تقدم للهيئة الاجتماعية، مُحْتاج إليها جميع أعضاء الجمعية، ففي أثناء تقدم الأهالي بهذه المثابة يتجدد عندهم حَقٌّ من الحقوق المدنية وهو مبدأ حَقِّ التملك للأراضي وحَوْزِها بِوَضْع اليد عليها بإحياء مَوَاتها، فمن هذا الوقت يَصِير للأرض قِيمَة في حَدِّ ذاتها زائدة عن قيمة العمل، فالشاغل لأرض يختص بها بدون أن يَسْتَوْلِيَ عليها بالعمل بالتملك، وفي هذه الحالة تَضْطَر الأهالي إلى الاستيلاء على جميع الأراضي القليلة المحصول التي كانت قبل ذلك عَدِيمَةَ الرغبة فيها، فيصير صَرْف الهمة في إصلاحها بالحراثة، ثم لا تَكْتَفِي الأهالي بذلك، بل رُبَّما تَدْعو الضروراتُ إلى إصلاح الأراضي العقيمة المُجْدِبة، وتقويم أَودها بالحرث والخدمة وإحياء مواتها، بل كل مَن اسْتَوْلَى على أرض بهذه الحالة أَجْهَدَ نَفْسه في إصلاحها لاسْتِحْصَاله منها على البذر والتقاوي وأُجْرَة العمل والتسوية مُدَّة إحيائها، وجَبْر الخسارة التي خَسِرَها مُحْيِيها.

فحينئذ كُلُّ فَرْد من أفراد الجمعية مُحْتَرِف بحرفة الفلاحة والعمل فيها مُضْطَرٌّ لأن يؤجر نَفْسَه للحرث والغرس؛ ليَتَعَيَّش بِحِرْفَتِه، ويدخل عند مالِك الأرض بوَصْف أجيرٍ عامل، ويُكَلِّف نَفْسه أن يَصْرف جميع أوقاته في خدمة الأرض بدون راحة إلا بِقَدْر المسافات الضرورية لأكله وشُرْبه ونَوْمه وعبادته ونَحْو ذلك، فبهذا تَزْداد نتائج الزراعة وتَنْمو يومًا فيومًا بكثرة العمل، فالعامل الذي كان يَعْمَل في الزمن الأول مِقدارًا يسيرًا ويقضي أوقاته في البطالة يُضْطَرُّ إلى أن يَعْمَل في الزمن بِعَيْنِه مقادير جسيمة، ويستحصل على كثير من المحصولات بقدر زيادة القوة البشرية؛ وذلك أن كلًّا من العملة وأصحاب الأملاك يجتهد في البحث عن الوسائل والوسايط المُقَرِّبَة للعمل، المسهِّلَة له، المقلِّلَة لأوقاته.

فَكُنْ باحثًا عَمَّا عَنَاكَ فإنما   دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِالْعَقْلِ

ويصير الاجتهاد في ذلك بحيث ما يَعْمَلُه العامل في يوم يمكنه أن يَعْمَل أضعافه في اليوم الواحد ثَلَاث مَرَّات أو أربعًا؛ لأن العامل قد تَجَرَّد في هذه الحالة عن البطالة، وتَفَرَّغَ للعمل وتَمَرَّن عليه بالمداوَمة، فكُلَّمَا مَارَسَه تَجَدَّدَتْ عنده معرفة تامة يُجِيد بها عَمَلَه، وبتزايُد الدرجات في الكمال تَحْسُن الزراعة وتَتَكَامَل البراعة فيها، فيُحْسِنُ العامِلُ العَمَلَ ويَتَفَنَّنُ فيه، ويُقَسِّمُه إلى أقسام، ويَعْرِف الأوقات والفصول والساعات، وما يَخُصُّ أنواع الزراعة، وما يُقَوِّيها من المُصْلِحَات، فتعلو قِيمة العامل بالتجربة والجودة، وكذلك يَقِفُ على معرفة خصائص ما يَسْتَعِين به من الآلات العنصرية المسهلة لصنعته؛ كالهواء والماء والبخار، فتكون هذه الأشياء المُسَهِّلَة عنده أدوات عمل كأنها عوامل بدون أجرة، وإنما يُحْسِن استعمالَها أربابُ المهارة والصناعة، فإذا تَوَفَّرَتْ عند المزارعين هذه الوسائط المتكاملة النافعة حَسُنَتْ بها نتائج الأعمال اليومية، وعَظُمَتْ بها ثمرات الأشغال.

فبهذه الطرق والوسائل ينطبع في مرآة عقول الأمة المُتَعَيِّشة من الفلاحة صورةُ حركات الأشغال التقدمية، ويتَعَوَّدون على المبادَرة بنشاط الأعمال الفلاحية، فلا تزال تَتَجَدَّد المنافع العمومية بالتدريج، وتأخذ في الزيادة بدون نهاية، وبهذه المنافع الأهلية تَكْثُر أموال الرعية وسعادتها التَّعَيُّشِيَّة.

ثم إن المُقْتَطِف لثمار هذه التحسينات الزراعية، المجتني لفوائد هذه الإصلاحات الفِلاحية، الناتجة في الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية، والمُحْتَكِر لمحصولاتها الإيرادية؛ إنما هو طائفة المُلَّاك، فهم — مِنْ دون أَهْل الحِرْفة الزراعية — مُتَمَتِّعُون

بأعظم مَزِيَّة، فأرباب الأراضي والمزارع هم المُغْتَنِمُون لنتائجها العمومية، والمُتَحَصِّلون على فوائدها، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع، فلا يُعْطُون للأهالي إلا بِقَدْر الخدمة والعمل، وعلى حسب ما تَسْمَح به نفوسهم في مقابَلة المشقة؛ يعني: أن المُلَّاك في العادة تتمتع بالمتحصل من العمل، ولا تَدْفَع في نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذي لا يُكَافِئ العمل.

فما يَصِل إلى العمال في نظير عَمَلِهم في المزارع، أو إلى أصحاب الآلات في نظير اصطناعهم لها هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى المُلَّاك، فإن المالك يَسْتَوْفِي لنفسه أَكْثَر محصول الأرض، فإنه بَعْد تَصْفِية حساب مصاريف الزراعة وجميع كُلَفِها يأخذ محصولها بتمامه بوصف إيراد للأرض، وعلف للمواشي، وأجرة للآلات، ولا يعطي لأرباب الأعمال والأشغال منها إلا قَدْرًا يسيرًا، ولا يَنْظُر إلى كَوْن بعض هؤلاء العمال هو الذي حَسَّنَ الزراعة بشغله، واخْتَرَعَ لها طرائق مُنْتِجَة، واستكشافات عظيمة بتنمية الزراعة وتكثير أشغالها، فإن حَقَّ التمليك وَوَضْع اليد على المزارع سَوَّغ للمُلَّاك، ولواضعي الأيدي أن يتصرفوا في عمليات أملاكهم التصرف التام، وأن يُعْطُوا للعمال بقَدْر ما يظنون أنه من لياقتهم.

ويَعْتَقِد المالكون أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك، وأنهم هم الأَوْلَى بالسعادة والغِنَى مما يتحصل من عمليات الزراعة، وأن مَنْ عَدَاهُمْ من أهل المملكة لا يَسْتَحِقُّ من محصول الأرض شيئًا، إلا في مقابلة خِدْمَتِه ومَنْفَعَتِه المأمور بإجرائها في حَقِّ أرضهم، فيَتَرَتَّب على هذا أَنَّ كُلَّ مَنْ يريد من الأهالي أن يَتَعَيَّش من الخدمة — التي هي العمل — يصير مُضْطَرًّا لأن يخدم بالقدر الذي يَتَيَسَّر له أَخْذُه من الملاك بحسب رضائهم، ولو كان هذا القدر يسيرًا جدًّا لا يساوي العمل، لا سيما إذا وجد بالجهة كثير من الشغالين، فإنهم يتناقصون في الأجرة، ويتنافسون في ذلك لمصلحة صاحب الأرض، مع أن الأرض إنما تَتَحَسَّن محصولاتها بالعمل، فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب إلا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين تَنَاقَصَتْ أُجْرَتُهُمْ، وكما أن أرباب الأملاك يحتكرون جميع الأعمال الزراعية من طائفة الفلاحة، كذلك يحتكرون ثمرات الصنائع؛ لأن الصنائع كلها تسعى وتنهض في الأشغال والعمليات التي تستدعيها حاجة الفلاحة، كالحدادة والنجارة وجميع صنائع أهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة.

فيَنْتُج من هذا كله أن زيدًا من الناس إذا لَمْ تُسَاعِدْه المقادير على أن يصير مَالِكًا لقطعة أرض، لا يزال يُقَاسِم مالِك الأرض فيما يَتَحَصَّل من الثروة الزراعية، ولكن تَمَتُّعه ناقص جدًّا، فإنه لا يأخذ من المحصول الزراعي إلا القَدْر الذي يَسْمَح به المالك في مُقَابَلَة خِدْمَتِه وفَنِّه وصناعته وثَمَنِ الأدوات والآلات والدواليب المهندمة للزراعة، فإذا كان مالك الأرض سخيًّا كريمًا مبسوط اليد كافأ المكافأة التامة، وَوَسَّعَ على من يَنْتَفِع بفَنِّه، فقد جَرَت العادة أن الفلاح لا يُكَافَأُ على قَدْر خِدْمَته وحِرَاثَتِه لقاعدة مشهورة: أنَّ من يَزْرع يَحْصُد؛ يعني: أن المحصود للمالك، وقد قال ﷺ: «الزرع للزارع» مع أن المعنى فيه: أن الزرع لمن بَزَرَ والثمرة له، وعليه أُجْرَة مثل الأرض، لا أن العامل يأخذ أُجْرَةً قليلة على عَمَلِه، ففي خَبَر الصحيحين: أنه ﷺ عَامَلَ أَهْلَ خيبر بِشَطْر ما يخرج منها من ثَمَر أو زَرْع؛ أي: أعطاهم النصف في نظير عملهم، وفي رواية: دَفَعَ إلى يهود خيبر نَخْلَها وأرضها؛ والمراد بِعَمَلِهِمْ — مُسَاقَاتِهِمْ ومُزَارَعَتِهِمْ — فالواقع منه ﷺ مزارعة تابعة للمساقاة، والزرع المذكور في الحديث كان شعيرًا كما اسْتَظْهَرَهُ بعضهم.

ومِثْل الزرع المذكور غيره كملوخية وبامية وخوخ ومشمش، فتصح المزارعة على ذلك تَبَعًا للمساقاة والبذر فيها من المالك، بخلاف ما إذا كان البذر من العامل فهي مخابرة، وهي المسماة أيضًا بالمشاطرة التي تَقَعُ في مثل العنب والخوخ، فيَدْفَع المالك الأرض للعامل ويَزْرَعُها العامل بِبَذْرٍ مِنْ عِنْدِه وكذا القمح، بل وقوع المخابرة الآن مع أنها غير جائزة موجودة بمصر أكثر من المزارعة، فحديث: «الزرع للزارع» لا يدل على شيء من جواز استحواذ المالك على المحصولات، وعدم مكافأة العامل، ولا يُسْتَنَد في غبن الأجير إلى أن المالك دَفَعَ رأس ماله في مصرف الزراعة، والتزم الإنفاق عليها فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة، وأنه الأَوْلَى بربح أمواله العظيمة فهو الأصل في التربيح، وأن عملية الفَلَّاح إنما هي فرعية أَنْتَجَها وحَسَّنَها رأس المال، فإن هذه التعليلات مَحْض مغالَطة؛ إذ فَرْض الكلام في العامل جرٌّ لعمل مُنْتَجٍ لولاه لما رَبِحَت الأرض رِبْحًا عظيمًا.

فمواكسة المالك له في تقليل أُجْرَتِه مَحْضُ إِجْحَاف به، ووَصْف استملاك الأراضي والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضي كَوْنَه يستوعب جُلَّ المحصولات، ويُجْحِف بالأجير نظرًا إلى ازدحام أهل الفلاحة، وتنقيصهم للأجر، وسومهم على بَعْضهم بالمزايدات التنقيصية، وهذا لا يُثْمِر مَحَبَّة الأجير للمالك «من يَزْرَع الشوك لا يَحْصُد به عنبًا»، فإن هذا فيه إيذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعًا، كما يدل عليه ما رواه

أبو هريرة رضي الله عنه فقد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بعضكم على بَيْعِ بَعْضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْذُلُه ولا يَكْذِبُه ولا يَحْقِده، التقوى ها هنا، ويشير إلى صَدْره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه، المسلم، كُلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دَمُه ومالُه وعِرْضُه.» رواه مسلم، وفي رواية: «ولا يَسِم على سَوْمِه، ولا يَخْطُب على خِطْبَته.»

وحيث كان هذا الحديث كثيرَ الفوائد عظيم العوائد، مشيرًا إلى حَلِّ المبادي والمقاصد، حاويًا لكثير من الأحكام والآداب إشارة وصراحة، لا سيما أنه ينطبق انطباقًا كليًّا على أعمال الفلاحة بَيِّنًا معناه بطريق الاختصار، فقوله ﷺ: «لا تحاسدوا» أي: لا يَحْسُد بعضكم بعضًا؛ أي: لا يَتَمَنَّى زوال نعمة غيره؛ لأن الحسد حرام لِقُبْحِه عند المُشَرِّعين وغيرهم، قال الشاعر:

وأظْلَمُ أَهْلِ الأرض مَنْ كان حاسدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وليس من الحسد تمني الإنسان مِثْلَ ما للغير لِنَفْسِه، فإن هذا هو الغبطة الممدوحة، وقوله ﷺ: «ولا تناجشوا» أي: لا يَنْجش بعضكم على بعض؛ بأن يزيد في المبيع لِيَخْدَعَ غَيْرَه، وهو أيضًا مُحَرَّم إجماعًا؛ لأنه غِشٌّ وخداع وهما مُحَرَّمَان؛ لحديث: «مَنْ غَشَّنَا فليس مِنَّا»، وفي رواية: «مَنْ بَخَسَ فليس مِنَّا» ومعناه: لا يُعَامِل أحَدُكم صاحبه بالغش والمكر والخديعة، فيدخل في قوله: «ولا تناجشوا» جميعُ أنواع المعاملات بالغش ونحوه؛ كتدليس العيوب وكَتْمِها وخَلْط الجيد بالرديء، قال الشاعر:

لَيْسَ دُنْيَا إلا بِدِين وليس الدِّ ... ينُ إلا مَكَارِمَ الأخلاقِ
إنما المَكْرُ والخديعة في النَّا ... سِ هُمَا مِنْ خِصَال أَهْلِ النِّفَاقِ

ومن المعلوم أن الحَسَدَ والغِشَّ يَتَوَلَّد عنهما التباغض؛ إذ يكونان من أسبابه؛ فلذلك قال ﷺ: «ولا تباغضوا» أي: لا يبغض بعضكم بعضًا؛ أي: لا يتعاطى أسبابَ البُغْض أيًّا ما كانت كالمواكسة السابقة المذكورة، بَلْ يَنْبَغِي للناس أن يَسْعَوْا بما فيه ائتلاف القلوب بتعاطي أسبابه، فقد امْتَنَّ الله سبحانه وتعالى على عباده إذ أَلَّفَ بين قلوبهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

فالإنسان مُكَلَّف بتعاطي أسباب الأُلْفة والمحبة واجتناب أسباب العداوة والبغضة، ثم قال ﷺ: «ولا تدابروا» أي: لا يُدْبِر بعضكم عن بعض؛ أي: لا يُعْرِض بعضكم عما يَجِب للبعض الآخر عليه من الحقوق؛ كالإعانة والنصر والتخاطب والتآلف وعَدَم الهجر في الكلام إلا لِعُذْر شرعي كنحو تُهْمة وقصد تأديب، ثم قال ﷺ: «ولا يَبِع بعضكم على بيع بعض» بأن يقول بائع لمشتري سِلْعَةٍ في زَمَن الخيار: افْسَخْ هذا البيع وأنا أبيعك مِثْلَها بأرخص مِنْ ثَمَنِها، أو يقول: أنا أبيعك أَجْوَد منها بِثَمَنِها، ومثله الشراء على الشراء بأن يقول مريد الشراء للبائع في زمن الخيار: افْسَخْه وأنا أشتريه منك بأغلى، فإن هذا كُلَّه من باب الضرر، ومثله السَّوْم على السَّوْم، والخِطبة في الزواج على خِطبة الغير، ومثل ذلك كل ما كان في معناه مما يُنَفِّر القلوب ويورث البغضاء.

وأَغْلَب أهل الفلاحة والصناعة والتجارة لا يَتَحَرَّزُون عن ذلك، لا سيما بعد استقرار البيع والإيجار والتراضي عليه، ويتعللون في جواز القدوم على ذلك بالغبن، وبعض العلماء لا يُجَوِّز القدوم عليه ولو كان مغبونًا، وبالجملة لا تجوز الزيادة في ثَمَن البيع والسوم، ولا على الإيجار بعد الاستقرار، بل تَحْرُم، وتجوز الزيادة قبل الاستقرار.

ثم حَثَّ صلى الله عليه على حُسْن المعاشرة والملاطفة والتعاون في الخير بقوله: «وكونوا عباد الله إخوانًا» يعني: يا عباد الله، كُلُّكُم خَلْق الله، قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالَم وتكثير مَنَافِعِه، فاكتَسِبوا ما تصيرون به إخوانًا في المودة، وقد أَمَرَكُمْ بما تقدم ذِكْرُه وأنتم عبيده، فحَقُّكُم أن تطيعوه وتتعاطَوْا أسباب ما تصيرون به إخوانًا؛ للتعاضد على إقامة دينه وإظهار شعائره وانتظام مُلْكه، وهذا إنما يكون بائتلاف القلوب وتواطئ الكلمة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية.

ثم إن أُخُوَّة العبودية التي هي التساوي في الإنسانية عامَّة في حقوق أهل المَمْلكة بعضهم على بعض، التي هي حقوق العباد، وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هي الأخوة الإسلامية، وهي اكتساب ما يصير به المسلمون إخوانًا على الإطلاق؛ من أداء حقوق بعضهم على بعض كَرَدِّ السلام وابتدائه وتعليم الأحكام الشرعية ونحو ذلك من شُعَبِ الإيمان، فهذه هي التي أشار لها ﷺ بقوله: «المسلم أخو المسلم» يعني: أُخُوَّة دينية؛ لأنهما يجمعهما دين واحد، وهي أعظم من الأخوة الحقيقية، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وفي الصحيحين: «مثل المؤمنين في تَوَادِّهم وتَعَاطُفِهم وتَرَاحُمِهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.»

وروى أبو داود: «المؤمن أخو المؤمن، يَكُفُّ عنه ضيقَتَه، ويحوطه من ورائه»، ورواية الترمذي: «إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذًى فَلْيُمِطْه عنه» أي: يُبْعِده عنه، ولا مانع أن يُعَمَّم في مكارم الأخلاق، فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يَجِب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض؛ لما بينهم من الأخوة الوطنية، فضلًا عن الأخوة الدينية، فيجب أدبًا لمن يَجْمَعُهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن، وتكميل نظامه فيما يَخُصُّ شَرَفَ الوطن وإعظامَه وغناءَه وثروتَه؛ لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية، وهي تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعًا بمزية النخوة الوطنية.

فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكَذِبُ بعضهم على بعض والاحتقار؛ ثَبَتَتْ لهم المكارم والمآثر، ودَخَلَتْ فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها ومآثرها؛ فلذلك بَيَّنَ عليه الصلاة والسلام قوله: «المسلم أخو المسلم» بقوله: «لا يظلمه» أي: لا يُدْخِل عليه ضررًا في نحو نَفْسه أو دينه أو عِرْضه أو ماله؛ لأن ذلك قطيعة مُحَرَّمة تُنَافِي الأُخُوَّة.

قال الإمام ابن حجر في شرحه على الأربعين النووية: «بل الظلم حرام حتى للذِّمِّيِّ، فللمسلم أَوْلَى» انتهى، وهذا يُؤَيِّد ما قُلْنَاه من أن أُخُوَّة الوطن لها حقوق، لا سيما وأنها يمكن أن تُؤْخَذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره خصوصًا من يقول بأن أهل الحلة الواحدة كلهم جيران، وقوله ﷺ: «ولا يخذله» أي: لا يَتْرُك نُصْرَتَه المشروعة، لا سيما مع الاحتياج والاضطرار إليها، وقوله: «ولا يَكْذِبه» أي: لا يُخْبِره بأمر على خلاف الواقع؛ لأنه غِشٌّ وخيانة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وقد أَجْمَع جميع الملل على قُبْحِه وتحريمه إلا لمصلحة قوية ضرورية، «ولا يحقره» أي: لا يَسْتَصْغر شأنه، ويَضَع قَدْره، ولا يَغْدِر عَهْده، ولا يَتَنَقَّص أمانته باستخانته.

وبالجملة فيعامِل أخاه بمضمون حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»، فالاحتقار ناشئ عن الكبر وهو مذموم؛ لأن المتكبر يَنْظُر لنفسه بعين الكمال، ولغيره بعين النقص فيَحْتَقِره، ولا يراه أهلًا لأن يقوم بحقوقه، قال ابن حجر: «وتخصيص ذلك بالمسلم لمزيد حرمته لا للاختصاص به من كل وجه؛ لأن الذمِّيَّ يشاركه في حُرْمة ظُلْمِه وخذلانه بدفع نحو عَدُوِّه عنه، والكذب عليه، واحتقاره إلا من حيث مغايرة الدين.» ثم قال ﷺ: «التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات؛ يعني: أن التقوى هي اجتناب عذاب الله تعالى بفعل المأمورات وترك المحظورات في القلب الذي في الصدر، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، وفي هذا

إشارة إلى أن العبرة بالقلوب كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسد كله، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب» فهو العارف بالشرائع والطرائق والحقائق.

وإذا استقام القلب استقامت الجوارح، لا سيما اللسان فإنه يَنْكَفُّ أذاه عن كل إنسان، وهنالك يستقيم الإيمان، فعلى الإنسان أن يتمسك بالتقوى التي هي السبب الأقوى، ويقف عند حد كلام النبوة ليتصف بالمروءة والفتوة، فلا يظلم أحدًا ولا يَحْقِرُه ولا يَكْذِبه ولا يَخْذُله، فقد قال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»، وقال: «ليس منا مَنْ لم يَرْحَم صغيرنا، ويَعْرِف شَرَف كبيرنا»، ثم قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم» يعني: يكفي الإنسان في أن تكون أخلاقه موصوفة بالشر، وأن يكون سيئ المعاش والمعاد احتقار أخيه المسلم، واحتقار من له حرمة من الناس؛ لأن الله عز وجل لم يَحْقِر الإنسان؛ إذ أَحْسَن تقويم خَلْقِه، وسَخَّرَ ما في السموات والأرض كله لأجله، فاحتقاره احتقار لِمَا عَظَّمَه الله عز وجل وكَرَّمَه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فازدراؤه من أعظم الذنوب والجرائم.

ثم قال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه» وأدلة تحريم هذه الثلاثة شهيرة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهي أصول قوام صورة الإنسان؛ لأن الدم به حياة الإنسان، ومادة الحياة هي المال، وبالعرض الذي هو الحسب قوام الصورة المعنوية، وما سوى هذه الأصول الثلاثة مُتَفَرِّع عنها وراجع إليها، فهذا الحديث يَحُثُّ جميع الناس على مكارم الأخلاق وعلى التعاون في التعيش والمعاملة، وأكثر الناس معاملة هم أهل الزراعة، فإن أرباب الأملاك والأراضي يحتاجون إلى التعاون في زراعة أَرْضِهم بأكثر الصنائع، وقد قال ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بصالحي أهلها» وكذلك أهالي الصناعات محتاجون لأرباب الأملاك الأرضية؛ للتعيش من محصول أراضيهم، فيجب عليهم جميعًا المناصحة لبعضهم وتقوى الله في صنعتهم، ثم إن العمل الذي عليه مدار الفلاحة — كما أن الفلاحة عليها مدار غيرها من الصنائع — ينقسم إلى قسمين: مُنْتِج وغير مُنْتِج، وهذا هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب.

الفصل الثالث

في تقسيم الأعمال إلى مُنْتِجَة للأموال وغير مُنْتِجَة لها؛ أي استقلالية وغير استقلالية.

* * *

من المعلوم أن العمل والشغل مترادفان على معنًى واحد عند أهل الصناعة، والعامل والشغال كذلك، فما يقال في العمل والشغل يَتَّصِف به العامل والشغال، ومن المحقَّق أن الأفعال كلها لله سبحانه وتعالى، وإنما أَحْوَج عِبَاده إلى تحصيل أسباب الحاجة المتكاثرة؛ لِيُظْهِرَ للخلق أنه أراد استجلابها بِوَجْه حلال، وجَعَلَ الإنسان أَكْثَر أصناف الحيوانات احتياجًا، وجعل دُونَه في الاحتياج سائر أصناف الحيوانات؛ حيث اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون غَنِية بأصوافها وأوبارها وأشعارها عن اللباس والدثار، وغَنِية بالأرض والأوكار عن أن تَتَّخِذ بنيانًا، وأشرك الجميع في مادة الاحتياج إلى الغذاء؛ لئلا يشتركوا مع الألوهية.

فإذا ادعى بعضهم الربوبية لنفسه كفرعون أو لغيره؛ كان احتياجه إلى تكرار الغذاء شاهدًا على كَذِبِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: مَضَوْا، فهو يَمْضِي مثلهم وليس بإله كما زعموا ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي: كغيرهما من الحيوانات المشتركة معهما في ذلك، ومن كان كذلك لا يكون إلهًا؛ لاحتياجه إلى الطعام، وإلى خروج ما نشأ عنه من الفضلات.

فالفعل والتدبير إنما هو لله سبحانه وتعالى في تحصيل ما يحتاج إليه الآدمي وغيره من الغذاء والأدم والفواكه والأشربة، كما قال الله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: بالنبات ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: كالحنطة والشعير ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أي: تِبْنًا للعلف ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ﴾ أي: بساتين ﴿غُلْبًا﴾ أي: عظامًا

لكثرة أشجارها ﴿وَفَاكِهَةً﴾ أي: ثمارًا طيبة غَيْر ما تَقَدَّمَ ﴿وَأَبًّا﴾ أي: مرعًى للدواب أو يابس الفواكه ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم، فإن الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف.

وابتدأ تعالى بالمَنِّ بإنبات الحَبِّ؛ لأنه أَنْفَع المَنْبَت، ولأن الإنسان إذا تَأَمَّلَ في إنبات الحبة الصغيرة استدل بذلك على عظيم قدرة الله تعالى؛ لأن الحبة ولو صغيرة جدًّا إذا دُفِنَتْ في الأرض وحَصَلَ لها نداوة انتفخت، ثم لا تنشق مع عموم الانتفاخ لها إلا من أعلاها وأسفلها، فيخرج من الأعلى الجزء الصاعد الممتد وهو الساق، ثم يتشعب منها أغصان كثيرة إلى الجانبين، ثم يطلع الزهر غالبًا، ثم منه تَصْلُح الثمرة وهي مشتملة على أجزاء غليظة كالقشر، ولطيفة كاللب وفيه الدهن، وأما الجزء الغائص من أسفل الحبة فيتفرع منه عروق تغوص في الأرض الشديدة الصلابة مع غاية لطفها، ويوصل الله بها الأغذية من الطين إلى الجزء الصاعد والأغصان، ويوزعها الله في كل جزء من أجزاء الأغصان، فإذا تفكر الإنسان في هذا وأمثاله ذَهَبَتْ غَفْلَتُهُ، وحَدَثَ للقلب خَشْيَة كما يُحْدِث الله عند الماء النماء للزرع، وعَلِمَ أن الفعل لله حقيقة ولغيره مجازًا.

وقد قَسَّمَ أربابُ الإدارات والتدابير العمل إلى قسمين لا ثالث لهما: مُنْتِج للمال، وغير مُنْتِج له؛ لأن العمل لا يخلو إما أن تزيد قيمة مَوْرِدِه بالربح فهو المُنْتِج، وإما أن لا تنشأ عنه ثَمَرَة تَرْبِيح مَالِيٍّ تُنْسَب إليه فهو غير المُنْتِج، وهذا يرجع إلى الاستغلال وعَدَمِهِ بالعمل، وكما يقال للعمل مُنْتِج أو غير مُنْتِج يُقال للعامل كذلك، فالعُمَّال صنفان: مُكْتَسِبَة، ومُرْتَزِقَة، ويقال للعمل أيضًا خدمة، سواء كان جليلًا أو حقيرًا، فبهذا المعنى يُقال لمطلق العمل خدمة.

وإنما العرف يخص الخادم بالمعنى المشهور المتعارف، والقرينة بحسب المحال تدل على المعنى المراد، ثم إن العامل في أُوسِيَّة أو دائرة العامل صناعية أو زراعية تَزِيد بِعَمَلِه قيمة البضائع المصنوعة التي هي مَوْرِد عمله، فله مَدْخَل عظيم في تربيح صاحب المِلْك، فهذا العامل مُنْتِج للكسب والاستغلال بخلاف عمل الخادم عند السيد، فإنه ليس فيه في حد ذاته للسيد ربح ولا مكسب مالي.

ومن المعلوم أن كلا من العامل والخادم يَتَعَيَّش من مَحَلِّ العمل أو مَحَلِّ الخدمة؛ لأنا إذا نظرنا للحقيقة ونفس الأمر نجد أن العامل المستأجَر يأخذ من صاحب المصنع أجرة مُقَدَّمة على العمل، ومع ذلك لا يَتَكَلَّف على صاحب المصنع شيئًا، فإن أُجْرَتَه في الغالب تَنُضُّ من الربح الزائد المتسبب عن عَمَلِهِ، فهو يَأْخُذ مِنْ ثَمَرَة كَدِّه وعَرَق جَبِينِه،

بخلاف ما يأخذه الخادم من سيده من الجامكية في مُقَابَلَة خِدْمَتِه، فليس مأخوذًا من مَوْرِد ماليٍّ صادِر عن عَمَل الخادم، والدليل على ذلك أن آحاد الناس من أرباب الفلاحة أو الصناعة قد يَرْبَح من عَمَلِ عُمَّاله وآثار مهارتهم شيئًا يَصِير به رئيسَ جماعة فِلَاحية أو عريف فِرْقَة صناعية، فبِتَشْغِيلِه كثيرًا من العملة والشغالين في دائرة شغله يَنْمُو مالُه ويَزِيد غِنَاه وتَكْمُل سعادته، وكلما كَثُرَتْ أتباعه في هذا الخصوص كَثُرَتْ ثَرْوَتُهُ، وأن السيد قد يُكْثِر من الخدم والحشم فيكون ذلك سببًا لِتَنَاقُصِ ماله وانحطاط قَدْرِه.

وما ذاك إلا أن الأول جميع من عنده من العمال يعملون عملًا مُنْتِجًا مُرْبِحًا، بخلاف الثاني؛ فإن عَمَلَ خَدَمِه وحَشَمِه غير مُنْتِج للمال، ومع ذلك فسيد الخُدَّام يَحْكُمُهُم بِقَدْر استحقاقهم ونشاط خدمتهم وتأدية ما هو مطلوب منهم، فهم آخذون لا مُعْطُون، بخلاف عمال الأشغال الصناعية، فأجْرَتُهم تُقَدَّر على قَدْر مَوْرِد العمل والمتحصِّل منه من الأرباح والفوائد، هذا إذا كان بالمُيَاوَمَة.

وإذا كان بالمقاوَلة والالتزام والتعهد، فإن رئيس الصناعة يُعْطِي المهمات الجسيمة المتراكمة الأجزاء والمواد بقَدْرٍ معلوم للعمال في نظير الأجرة، فإذا تَخَصَّصَتْ على الزمن ربما تَفَرَّق عن المياومة بكثير، فيربح المالك رِبْحًا عظيمًا ويَخْسَر العامل؛ لأنه مُعْطٍ نوعًا للكثير وآخذ للقليل، وجميع هذه المصنوعات والمشغولات تُوضَعُ في مخازنها إلى وَقْت رَوَاجِها، فتُباع ويُتَحَصَّل منها مقادير جسيمة بحيث تكفي لتشغيل مشغولات قَدْر التشغيلات الأولية التي بِيعَت مشغولاتها عند رواجها؛ يعني: أن صاحب المال رَبِحَ جودةَ وسائل التشغيل وأدواته، فقد تَوَفَّرَ رأس مَالِهِ وما اكْتَسَبَهُ مِنْ عَمَل العمال، وهَلُمَّ جرًّا إلى غير نهاية بخلاف خدمة الخادم لسيده فلا تُثْمِر له ثمرة باقية، وليس لها مَوْرِد ولا مَحْصُول ولا بِضَاعة تُبَاع ولا تُشْرَى، بل خِدَامَات الخادم أَعْرَاض تَنْقَضِي بالفراغ من عَمَلِها بدون بقاء أثر ولا قيمة، فلا تعطي بعد انقضائها رِبْحًا يكفي صَرْفُه لمدة أخرى بِقَدْرِها عند العَوْد لمثلها ولو كانت لزومية، وعليها مدار العمل في الجمعية؛ يعني: في المملكة المتمدنة.

فخدمة المقلدين للمناصب العالية والوظائف السامية في أي دولة من الدول، وكذلك خدمة الخدم المعتادين لسادتهم في أي بلد كان؛ لا تُنْتِج ربحًا ماليًّا ولا قيمة مُثْرِية للمخدوم محسوسة؛ يعني: لا تُنْتِج بنفسها استغلال الأموال لِمَنْ هي منسوبة له، وهذا لا يَقْدَح في حقها شيئًا؛ لأن خدمة أرباب المناصب في المَمَالك عليها مَدَار العمل والإرشاد بالتدبير والسعي في الإصلاح، فإنتاجها الحقيقي إنتاج بالواسطة فهو إنتاج الإنتاج،

لا إنتاج بالفعل والمباشَرة، وكلامنا في إنتاج رءوس الأموالِ والسِّرْمَايَات دون الإنتاج الإرشادي، وإلا إذا نظرنا إلى إنتاج الإدارة ومعونة الحكومات وَجَدْنَا ما سَلَفَ نَقْلُه عن الخليفة المأمون من قوله: «إن أسباب المكاسب أربعة.» وعَدَّ منها الإمارة، وقال: «إن ما عدا ذلك فهو كَلٌّ علينا.» والكَلُّ بفتح الكاف: الحِمْل.

وقد قُلْنَا: إن مَرْجع استحصال الأموال لا يكون إلا من الزراعة والصناعة والتجارة، فهي محل الأرباح والإيراد، وأما غَيْرها فهو مَحِلٌّ للمصارف؛ لأننا بَيَّنَّا أن غَيْر المُنْتِج من الأعمال هو ما لا يَبْقَى بعد انقضائه شيء من ثمرات العمل يُرَوِّج ويَكْفِي لعمل آخر، فوظائف جميع الحكام المَلَكِيَّة وضباط العسكرية البرية والبحرية وجميع الجنود كذلك، وإن كان عليها مدار حركة الإنتاج، بل هي القوة الباعثة له في الوقائع ونفس الأمر، إلا أنها لا تُسَمَّى في عُرْف المنافع العمومية بالمُنْتِجة للأموال بنفسها وبعملها، وإن كانت لهم مرتبات سنوية جسيمة في نظير مأمورياتهم، فهذه المرتبات عائدة إليهم من أموال غيرهم، ولو أن خدمتهم للحكومات في غاية الشرف والمنفعة، ومن أشد اللزوم للأهالي فلا تُنْتِج ربحًا يُرَوَّج منه مقدار للمستقبل، يساوي الصرف على خِدمَتِهم سَنَة؛ يعني: لا تُرْبِح خِدْمَتُهُم للحكومة مالًا ناضًّا يُعْطَى لهم في السنة المقبلة، فبهذا المعنى يقال إنهم غير مُنْتِجِين؛ يعني: هم جهة مَصْرِف لا جهة إيراد؛ أي: ليسوا جهة أرباح.

ويلحق بالمناصب الميرية المناصب القضائية والدينية والعمومية؛ كعمال الأوقاف ونَحْوها، فإن الموظفين بهذه المناصب المفخمة غير مُنْتِجِين بالمعنى السابق؛ يعني: مناصبهم لا تَجْلِب أرباحًا ولا مَكَاسِب، ومثل هؤلاء أهل الآداب؛ كالشعراء والمنشئين، ومن ذلك أرباب فنون الطرب والملاهي والمصارعين؛ كأهل الموسيقى والمُغَنِّينَ والمنشِدِينَ وما أشبه ذلك، فجميع هذه الأعمال ليس لها قيمة مالية وكَسْب وتربيح كالأشغال المنتجة لذلك، إذ لا تُنْتِج شيئًا يُباع ويُتَحَصَّل منه لسنة أخرى مصاريف العمل الذي يُعْطِي ربحًا وَهَلُمَّ جرًّا، فإن أشغالهم جميعًا وأعمالهم تَنْتَهِي عقب فراغها لراغبها، فلَعِب اللاعب، وإنشاد المنشد، وأنغام المُغَنِّي، وتوقيع الموسيقي ضُرُوبه على حسب المقامات كلها أعراض تَنْتَهِي بانتهاء عَمَلِها لِطُلَّابها وليست مُرْبِحَة، وأما عَمَلُ آلاتها وكُتُبِها وتأليفها فهو مُنْتِج أموالًا، وأما هي في حد ذاتها فمُلْحَقة بغير المُنْتِج.

فجميع أرباب الأعمال غير المنتجة وأرباب البطالة الذين لا عَمَلَ لهم كُلُّهُم على حد سُوَى في كَوْن مصارفهم صادرة عن محصولات الأرض السنوية، وعن عمليات الأهالي الصناعية، فنَفَقَتُهم على غيرهم مع شرف البعض؛ كشرف الولاة والقضاه وأمناء الأديان،

والانتفاع بخدمة البعض الآخر؛ كأرباب الطرب والملاهي وما أشبههم، ثم إن المحصول الزراعي أو الصناعي ولو بَلَغَ ما بَلَغَ في العظم والكثرة فهو محدود ومتناهٍ ومُقَدَّر بالحساب، فإذا أَخَذْنا حساب السَّنَة الماضية، وعَرَفْنَا منه مقدار المنصَرِف في استحقاقاتِ ومُرَتَّباتِ غَيْر المنْتِجِين من الأشخاص، قَلَّ عَدَدُهُم أو كَثُرَ، وكذلك مرتبهم، وجعلنا الباقي على ذمة مصارف الأشخاص المُنْتِجِين، فهذا القَدْر الباقي قليلًا كان أو كثيرًا يكون هو محصول السنة المقبلة؛ لأنه هو الذي يُباع ويَصِير دخوله في التشغيل للتربيح.

ومن هذا يتبين أن المُتَحَصِّل من المَزارع في السنة هو نتيجة العمل المُنْتَج، يعني إيراد المَزارع في السنة بعد استنزال أُجْرة الأرض؛ أي: ما عليها من المال، وما يَتْبَع ذلك من التقاوي وعَلَف المواشي وأُجْرة المهمات الآلية وغير ذلك، فالصافي بعد هذا هو الربح، وهو الذي يَحْصُل منه تشغيل السنة المقبلة، ومنه تُدْفَع أجرة الأجير المُنْتِج، ويقاس على ذلك دائرة الصناعة كالفبريقة، فإن أغلب مَحْصُولها في العادة هو في مقابلة رأس المال، والباقي يُعَدُّ أرباحًا بعد تنزيل المصارف، فمن هذه الأرباح التي هي ثمرة العمل المنْتَج تُدْفَع أجرة ذلك العمل.

وهذه الأرباح أيضًا مُعَدَّة لتكوين الإيراد الذي يَخْرُج منه أرزاق الأشخاص المُنْتِجِين؛ يعني: جميع أهالي البلدة مُكْتَسِبَة ومُرْتَزِقَة، فمدار مؤنة الأهالي جميعهم على الأعمال المُنْتِجَة؛ يعني: موارد الأموال، فكل إنسان أَخْرَج من ماله شيئًا، وَجَعَلَهُ رَأْسَ مَالٍ في زراعة أو تجارة فلا يكون غَرَضُه منه إلا تربيح هذا المال، فلا يَصْرِف منه إلا للعمال المُنْتِجِين، الذين يَنُضُّ هذا المال بِعَمَلِهِمْ، فإذا صَرَفَ رأس المال على العمل أَنْتَجَ مما صَرَفَه جُزْءًا بوصف الربح يَعُود على العمال في نظير أُجْرَتهم، فربح الشغالة إنما هو ناتج من عَيْن عَمَلِهم، لا مِنْ رَأْس مَال المَالِك، فإذا أراد المالك أن يَسْتَخْدِم خدمًا لِعَمَلٍ غَيْر مُنْتِج، وجعل لهم مُرَتَّبًا؛ فصَرْف هذا المرتب خَارِج مِن أَصْل ماله، فيدخل في الحساب ضِمْن المال المتبقي لِنَفَقَتِهِ، فليس ما يُنْفَق على الخدم من رِبْح عملهم كأرباب العمل المُنْتِجِين، فأرباب الأعمال غير المُنْتِجة وأرباب البطالة يَتَعَيَّشُون جميعًا من إيراد واحد، له موردان؛ الأول: محصول الربح السنوي الوارد لصاحبه في مُقَابَلَة مال أرضه أو ربح ماله، والثاني: المال الذي يَخُصُّ العامل في نظير عَمَلِهِ بقصد التعيش به، الذي هو عبارة عن رأس مال العمل.

فإذا وصل هذا القدر من رئيس الدائرة الصناعية أو الزراعية إلى العامل فإنه يتعيش منه لنفسه، فإذا زاد عن مؤنته فلا مانع أن يتعيش منه ناس أُخَر مُنْتِجُون أو

غير مُنْتِجِين، كما إذا كان العمال أرباب أهمية في العمل ولهم أهمية وشَرف ورياسة في صنائعهم؛ فإن مرتباتهم من دوائر العمل تكون جسيمة، فبمقتضى الأحوال المُسْعِدة لهم يَسْتَخْدِمُون من الخدم والحشم مَن يَلِيق بهم؛ تقليدًا لكبار أرباب الأملاك وأغنياء التجار، فيَتَعَيَّش في جانبهم أناس كما تَعَيَّشوا في جانب غيرهم، فقد عادت منهم المنفعة على غيرهم كما عَادَت عليهم من مَنْفَعة أعمالهم في خدمة غيرهم.

وهؤلاء الأشخاص أصحاب النعمة الجديدة قد تَعُود المنافع منهم على أناس أُخَرَ كأرباب حِرَف الأفراح والأتراح والمستحقين للإعانات، فيتعيش منهم طوائف كثيرة من أرباب الأعمال غير المنتجة، وكذلك هؤلاء العملة المنتجون تَنْتَفِع منهم الحكومة بدفع العوائد التي هي في الغالب يُتَحَصَّل منها جزء عظيم، يساعِد على احتياجات الحكومة لصيانة البلاد والعباد، ومع أن أرباب الدولة مُتَقَلِّدُون بأشرف الأعمال المَلَكِيَّة، وهم أصحاب الأمر والنهي والنفوذ؛ فعمليتهم — كما قلنا — ولو أنها مُهِمَّة وأولية غير مالية لا يُباع منفوعها ولا يُشرى، وإنما هو قُطْب رحَى عموم الإنتاج.

وقد أسلفنا أن العمال المنتجين يأخذون عملهم من جزء الأرباح المعتَبَرِ رأسَ مالٍ لِتَعَيُّشِهِمْ، وأن العمال غير المنتجين يأخذون مرتباتهم من الأرباح الزائدة عن العمليات التشغيلية، ونقول هنا: إن هذه الأرباح التي يَتَعَيَّش منها صاحب المال والعمال غير المنتجين لا يَمَسُّها أحد منهم إلا بعد جعلها في حركة التدبيرات التامة لإنتاجها وتربيحها؛ يعني: أنها لا بد من ترويجها وتشغيلها على الطريقة السابقة في السنين السابقة لتكون مضمونة، فبهذا ينبغي أن تكون أجرة العامل مستحصلًا عليها بالتمام في مقابلة عَمَلِهِ، وأن يكون استحقاقها بجميعها بعد العمل، ولا يَتَصَرَّف في أدنى شيء منها بعمل غير مُنْتِج حتى لا تضيع هباء منثورًا، فإذا صَرَفَ حينئذ منها شيئًا لا يكون إلا يسيرًا لمقتضيات الأحوال الضرورية، بل ينبغي أن لا يَصْرِف إلا مما دَبَّرَه وَوَفَّرَه من أزمنة سابقة، لا سيما إن كان ما دَبَّرَه له إيراد وتربيح، فإنه يكفيه لمصارفه، وطريقة الوفر عند أرباب الأعمال والصناعات المنتجة سهلة جدًّا؛ لمواظبتهم غالبًا على ذلك، ولذلك تَجِدُ في تعاديل فِرْدة الرءوس والعوائد أن عوائد كل واحد منهم بِقَدْر مَيْسَرَتِه، وعلى حسب كَمِّيَّات وَفْرِهِ واقتصاده.

ومن هذا كله يُفْهَم أن محصولات الأراضي وأرباح رءوس الأموال مَوْرِدان أصليان، يَتَعَيَّش منهما أرباب الأعمال غير المنتجة، وأن الوَفْر والتدبير يَلِيق ويَتَأَتَّى كل منهما لأهل الفلاحة والتجارة، وأن طائفة الزارعين والتجار يُمْكِنهم على حد سواء تَعْيِيش العمال

المنْتِجين وغير المُنْتِجين، بل تَعْيِيش غير المُنْتِجين مِنْ رِبْح أهل الزراعة والصناعة أكثر؛ لجسامة ما يَعُود على الحكومة منهم، وهو أيضًا أحق وأَوْلَى لعموم منفعته، وتَنَقُّلِه من أيادي أهل الحكومة إلى حاجة أناس كثيرين، فإن مرتبات الأمير مثلًا يتعيش منها غالبًا أناس كثيرون من العلماء والصلحاء والفقراء والخدم والحشم؛ وفاقًا لقوله ﷺ: «ما عَظُمَتْ نعمة الله على عبد إلا عَظُمَت مؤنة الناس عليه، فمن لم يَتَحَمَّل تلك المؤنة فقد عَرَّضَ تلك النعمة للزوال»، وقال ﷺ: «إن لله أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يُقِرُّهم فيها ما بذلوها، فإذا مَنَعُوها نَزَعَها منهم، وحَوَّلَها إلى غَيْرِهم.»

ومن الأمراء جَمٌّ غفير يتعلق الناس بأذيالهم، ويتعيش من فضول أموالهم كثير من أرباب البطالة والفراغ أكثر ممن يَتَعَيَّش من أرباب الفلاحة؛ لأن أرباب الفلاحة لا يَتَعَيَّش منهم غالبًا إلا العمال أرباب الصناعة المنتجة، ومع أن العادة تقضي بأن أغنياء التجار يستعملون رءوس أموالهم ليَعِيش منها أناس كثيرون من أرباب الأعمال الشاقة كالأسفار ونحوها؛ فهم في ذلك كأرباب الزراعة يبحثون عن الربح والفائدة، إلا أن أرباحهم يتعيش منها عادة كثير من الخدم والحشم وأرباب الحرف غير المُنْتِجة، فهم من هذا الوجه كالأمراء يعيش في جانبهم خَلْق كثير بدون تربيح للمُنْصَرِف من أرباحهم، فقد حازوا فَضِيلَتَي الفلاحين والأمراء.

وهذا كله إذا اعتبرنا أن الأمراء وأصحاب المناصب المَلَكِيَّة وغيرها لا يتشبثون بالزراعة والتجارة، وإلا فأكثرهم في البلاد الزراعية أو التجارية بأسوة كبار الأهالي، فلهم الدوائر العظيمة الرابحة والأملاك الاستغلالية، فهم بهذا المعنى داخلون في عصابة أهل الفلاحة والتجارة، ومُتَعَيِّش في دوائرهم كثير من الناس؛ يعني: من العمال المنتِجين وغير المُنْتِجين، وأيضًا ما يَرِد لهؤلاء من المرتبات المنصرفة من طَرَف الأعمال المنْتِجة يصرفون أكثر منه على الوظائف غير المُنْتِجة في نظير عوائد أملاكهم، فيرد إليهم من الخزائن الملوكية مقادير مالية على قَدْر استعدادهم وأهمية مناصبهم، ويصدر منهم أيضًا إلى تلك الخزائن مبالغ كثيرة أو قليلة على قَدْر أراضيهم وما عليها من العوائد.

وبالجملة: فالكلام على الإنتاج وعدمه ومصادر الأموال ومواردها إنما هو بالنظر للحيثيات، فقد يجتمع في الأمير مثلًا أن يكون أيضًا له زيادة عن مزية إمارته مزية الزراعة والتجارة لرأس مال إيراده، فيكون جامعًا للمنافع العمومية، ويكون مُنْتِجًا من جهة وغير مُنْتِج من أخرى ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ثم إن الأعمال بنوعيها مُنْتِجة وغير مُنْتِجة ممدوحة مطلقًا؛ لما فيها من السعي، كما أن البطالة مذمومة عند جميع الأمم شرعًا وعقلًا، فلنذكر ما قيل في مَدْح العمل وذَمِّ البطالة في الفصل الرابع من هذا الباب.

الفصل الرابع

في مَدْح السعي والعمل وذم البطالة والكسل

قد أَسْلَفْنا أن الأعمال هي أسباب السعادة والثروة ومَنْبَع الأموال والغنى، فالأرض الزراعية إنما هي مَوْرِد للأعمال مُسَاعِد، وأن الأرض المخصبة بدون العمل لا تُنْتِج شيئًا، والأرض المجدبة بكثرة العمل تُخْصِب وتُنْتِج النتائج الجمة؛ ولذلك قال ﷺ: «أفضل العمل أدومه وإن قَلَّ» وفي التوراة: «حَرِّك يدك أَفْتَحْ لك باب الرزق»، وقد كان الأنبياء والسلف الصالح يعيشون مِن كَسْب أيديهم ويحترفون، فقد قال الله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: عمل الدروع من الحديد، فقد عَلَّمَه الله تعالى صَنْعَة الحديد، فصار يُحْكِم منها الدروع، فاستعان بها على أمره، واشتغل ﷺ قبل النبوة بالتجارة بالشام للسيدة خديجة رضي الله عنها، وبعد النبوة كانت حِرْفَتُه ﷺ الجهاد، فقد قال ﷺ: «جُعِلَ رِزْقي تَحْت ظِلِّ رُمْحي»، وقال: «إن الله يُحِبُّ العبد المحترف، ويبغض الصحيح الفارغ»، وقال ﷺ: «من بات كالًّا في طَلَب الحلال أَصْبَح مغفورًا له»، والكالُّ في طلب الحلال: الذي يُتْعِب نَفْسه في العمل لِكَسْبِه، وقال عُمَرُ رضي الله عنه: «لا يَقْعُدَنَّ أحدكم عن طَلَب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، فَقَدْ عَلِمْتُم أن السماء لا تُمْطِر ذهبًا ولا فضة»، وقال رضي الله عنه: «إني لأرى الرجل فيُعْجِبُني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سَقَطَ من عيني.»

وكان إبراهيم بن أدهم على وَرَعِه يسعى ويَرْعَى ويَعْمل بالكِرَاء، ويَحْفظ البساتين والمزارع، ويَحْصُد بالنهار، ويؤدي الفرائض بالنهار، ويصلي النوافل بالليل، وكان أغلب الملوك والسلاطين على قِدَم الأنبياء والأصفياء يَتَّخِذون لهم صنائع، يكتسبون بها وينفقون منها؛ تَوَخِّيًا للإنفاق من الحلال، وتَنَزُّهًا عن الأخذ من بيت المال، وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: «لا خير فيمن لا يَجْمَع المال مِنْ حِلِّه، يُخْرِج منه حَقَّه، ويَصُون به عِرْضَه» قال الشاعر:

ولا تُجْمَع الأموالُ إلا لِبَذْلِها　　　كما لا يُسَاقُ الدر إلا إلى النَّحْرِ

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في قوله عز وجل: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ أي: مالًا إلى مالكم، فلا مجد إلا بالمال، والآمال متعلقة بالأموال، قال الشاعر:

كل النداء إذا نَادَيْتُ يخذلني　　　إلا ندائي إذا نَادَيْتُ يا مالي

والمال أصل السؤدد والرياسة إذ به تُسْتَجْمَع أسبابُهُما، وقد انقاد الناس قديمًا وحديثًا للغَنِيِّ؛ لأن القلوب لا تُسْتَمَال إلا بالمال، قال ابن المعتز:

إذا كنت ذا ثروة مِنْ غِنًى　　　فأنت المُسَوَّدُ في العالَمِ
وحَسْبُك مِنْ نَسَبٍ صورة　　　تُخَبِّر أنك مِنْ آدَمِ

ولما وَصَلَ المعز بن تميم بن سعد بن منصور العبيدي إلى الديار المصرية بعد ما وَصَلَ غلامه القائد جوهر ومَلَكَ مصر واخْتَطَّ القاهرة، وكان العبيديون يَنْتَسِبون إلى فاطمة رضي الله تعالى عنها؛ خرج الناس إلى لقائه واجتمع به الأشراف، فقال له مِنْ بينهم محمد بن عبد الله بن طباطبا العلوي: إلى من يَنْتَسِب مولانا؟ فقال لهم: سَنَعْقِد لكم مجلسًا ونَسْرُد لكم نَسَبَنَا، فلما اسْتَقَرَّ في قصره جَمَعَ الناس في مجلس عَامٍّ، ونَثَرَ عليهم الدنانير والدراهم حتى عَمَّهُمْ، وقال: هذا حَسَبِي، ثم سَلَّ نِصْفَ سَيْفِه، وقال: وهذا نَسَبِي، فقالوا جميعًا: سَمِعْنَا وأطعنا:

إذا كُنْتَ في حاجة مُرْسَلًا　　　وأنت بها هائم مُغْرَمُ

فأَرْسِلْ حكيمًا ولا تُوصِهِ   وذاك الحكيم هو الدِّرْهَمُ

وقال آخر:

ذَاكَرْتُه عَهْدَ الوِصَال فَقَالَ لي   كم ذا تُطِيل من الكلام المُؤْلِمِ؟
لما رأى الدينار أَنْشَدَ قائلًا   أين المَفَرُّ من القضاء المُبْرَمِ؟

وقيل: درهمك وسيفك؛ فازْرَعْ بهذا فيمَنْ شَكَرَكَ، واحْصُد بهذا فيمَنْ كَفَرَكَ، قال الشاعر:

لَمْ أَرَ شيئًا صادقًا نَفْعُهُ   للمرء كالدرهم والسَّيْفِ
يقضي له الدرهم حَاجَاتِهِ   والسيف يَحْمِيه من الحَيْفِ

وقال آخر:

ذَرِيني للغنى أَسْعَى فإني   رأيْتُ الناس شَرُّهُمُ الفقيرُ
وأهونهم وأَحْقَرُهُم عليهم   وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ
يُبَاعِدُه الخليل وتَزْدَرِيه   حَلِيلَتُهُ ويَنْهَرُهُ الصغيرُ
ومَنْ بَلَغَ الغنى وله جَلَالٌ   يكاد فُؤَاد صَاحِبه يَطِيرُ
قَلِيل ذَنْبُه والذنْبُ جم   ولكن الغِنَى رَبٌّ غَفِيرُ

قيل لميمون بن مهران: إنَّ فينا أقوامًا يقولون: نَجْلِس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء حمقى، إن كان لهم يقينٌ مثل يَقِينِ إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا.

لَقَد هَاجَ الفَرَاغ عَلَيْك شغلًا   وأسبابُ البلاء مِن الفَرَاغِ

وسُئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما تقول في رجل قَعَدَ في بَيْتِه أو مَسْجِده، وقال: لا أعمل شيئًا حتى يَأْتِيَنِي رِزْقِي؟ قال: هذا رَجُل جَهِلَ العلم، أما سَمِعْتَ قَوْلَه ﷺ: «جُعِلَ رزقي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي» يعني: الغنائم.

نَـرُوحُ ونَـغْـدُو لِـحَـاجَـاتِـنَـا وحَاجَة مَنْ عَاشَ لا تَنْقَضِي

وقيل: غُبَار العمل خَيْر مِنْ زَعْفَران البِطَالة، قال الشاعر:

قَصَّرَ الناس بي ولو كُنْتُ ذا مَا لِ جَلَبْتُ الجميع بالمال حَوْلِي
ولَقَـالـوا أَنْتَ الـكريـم علـيـنـا وتَـخَـطَّـوْا إلـى هَـوَايَ وَمَـيْـلِ
ولَكِلْتُ المَعْرُوف كيلًا مَلِيئًا يُعْجِزُ الناس أن يَكِيلُوا كَكَيْلِي

وقال غيره:

خَاطِرْ بِنَفْسِكَ كَيْ تُصِيبَ غنيمة إن الجلوس مع العيال قَبِيحُ
فـالـمـال فـيـه مَـجَـلَّـة ومَـهَـابَـة والـفـقـر فـيـه مَـذَلَّـة وفُـضُـوحُ

«غَيْرُه»:

فَلَمْ أَرَ بَعْد الدِّين خيرًا مِن الغِنَى وَلَمْ أَرَ بَعْدَ الكفر شرًّا مِن الفَقْرِ
ولَـمْ أَرَ زَيْـنَ الـمـال إلا امْـتِـهَـانَـهُ ومَنْفَدَه في أَوْجُهِ الحمد والأجرِ

وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه إذا خرج في تجارته أَخَذَ بضائع لضعفاء قريش، فَيَبِيعها لهم ويشتري ولا يُكَلِّفهم شيئًا:

لـيـس الـتَّـقِـيُّ بِـمُـتَّـقٍ لِإِلَـهِـهِ حتي يَطِيبَ شَرَابُهُ وطَعَامُهُ
ويَطِيب ما يَجْنِي ويُكْسِب أَهْلَه ويَطِيب من لَغَطِ الحديث كَلَامُه

وحَسْب تَرْك العمل ذمًّا أن النبي ﷺ استعاذ من الكسل، وقال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «خُلِقَ التواني والكسل، فَزَوَّجُوهُمَا فَنَتَجَ من بينهما الفاقة»، وقال رضي الله عنه: «الحركة وَلُودٌ والسكون عَاقِر، ولا يَنْشَأ عن البطالة إلا المفسدة، فعلى المرء أن يشغل النفس التي هي عَيْن فارغة بما يُصْلِحه، وإلا شَغَلَتْه بما يُفْسِده؛ ولذلك قيل: الحركة بَرَكَة والتواني هَلَكَة، وكَلْب طائف خَيْر مِنْ أَسَد رابض، ومَنْ لَمْ يَحْتَرِف لَم يَعْتَلِف، ومَن شَمَّرَ طالبًا

جاء إلى بيته جالبًا» قال الشاعر:

إذا هَبَّتْ رياحك فَاغْتَنِمْهَا ‏ ‏ ‏ ‏ فإن لكل خافقة سُكُونُ
إذا دَرَّت نِيَاقُكَ فَاحْتَلِبْهَا ‏ ‏ ‏ ‏ فما تَدْرِي الفصيل لِمَنْ يَكُونُ
إِذَا مَلَكَتْ يَدَاك فَلا تُقَصِّرْ ‏ ‏ ‏ ‏ فإن الدَّهْرَ عَادَتُهُ يَخُونُ

وبالجملة: فالأمل مغناطيس العمل، وخير الأمل انتظار الحمد والشكر، وحُبُّ الفخار ودوام الذكر، ولولا ذلك لما كان اجتهاد ولا استنباط، ولا كَسْب ارتفاع وَلَا غَبٍّ انحطاط، ولا اختراع مُخْتَرِع ولا ابتداع مُبْتَدِع، فهل يَحْسُن بالعاقل أن يُعْمِل فِكْرَه إلا فيما يُخَلِّدُ ذِكْرَه:

نَافِسْ على الخيرات أَهْلَ العُلَا ‏ ‏ ‏ ‏ فإنما الدنيا أحاديث

فقد تَوَلَّعَ العقلاء على اختلافهم بإمعان الأنظار وإعمال الأفكار في أمور يَظْهَر للعامة أنها حقيرة، وهي عند أذكياء الخاصة خَطِيرة.

إذا لَمْ يَكُن إلا الأَسِنَّة مَرْكَبًا ‏ ‏ ‏ ‏ فلا رَأْيَ للمُضْطَرِّ إلا رُكُوبُهَا

فمن اخترع حِكْمَة بذكائه وفِكْرِه كانت سببًا لِبَقَاءِ ذِكْرِه، ومن هذا القبيل أزدشير بن بابك وهو أول ملوك الفرس الأخيرة، فإنه أول من وضع النرْدَ وضَرَبَهَا مثلًا للقضاء والقدر، وأن الإنسان ليس له تَصَرُّف في نَفْسه، لا يملك لها ضرًّا ولا نَفْعًا، بل هو مُصَرَّف على حُكْم القضاء والقدر، مُعَرَّض للنفع والضرر، ووَضَعَهَا على مثال الدنيا وأهلها، ورَتَّبَ الرقعة اثني عشر بيتًا بعدد شهور السنة، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر، والدرج التي تكون لِكُلِّ بُرْج وَجَعَلَهَا مثلًا للحظ الذي يَنَالُه العاجز بما يجري له الفَلَك، والحرمان الذي يُبْتَلَى به الحازم بما جَرَى به عليه الفَلَك، وتَوَصَّل إلى إيصال تلك العقول بفصين أَنْزَلَهُمَا منزلة الليل والنهار، وجَعَلَ لكل فَصٍّ سِتَّة أوجه كجهات الإنسان فوق وأسفل ووراء وأمام ويمين وشمال، يشير إلى أن الإنسان لا يَعْلَمُ مِنْ أين يأتيه الخير ولا الشر، وأشار في تَقَلُّبِها إلى تَقَلُّب القَدَرِ بالإنسان، فيكون مشروفًا ثم يَصِير

شريفًا، ويكون فقيرًا ثم يصير غنيًّا، وبالعكس إلى ما لا نهاية له من التقلبات:

الناس مِثْلُ زمانهم حَذْو المثال على مِثَالِهْ
وَرِجَالُ دَهْرِكَ مِثْل دَهـ ـرِكَ في تَقَلُّبِه وَحَالِهْ

وَلَمَّا افْتَخَرَ الفُرْس بوضع النرد وكان ملك الهند يومئذ بلهيث؛ وَضَعَ له الحكيم المسمى صصة الشطرنج، وَجَعَلَهَا مَثَلًا على أن لا قَدَرَ، وأن الإنسان قادر بسعيه واجتهاده أن يَبْلُغَ المراتب العلية، فإنْ هو أهملها أَصَارَهُ الخمول إلى الحضيض، ومما جعله دليلًا على ذلك أن البيدق يَنَال بِحَرَكَتِه وسعيه مَنْزِلَة الفرزان في الرياسة، وجعلها مصورة تماثيل على صورة الناطق والصامت، وجَعَلَها درجاتٍ ومَرَاتِبَ، ومثل الشَّاه بالمُدَبِّر الرئيس، وكذلك ما يَلِيها من القطع، وبيَّن لأهل فارس ما خَفِيَ عنهم من مكايد الحروب وكيفية ظفر الغالب وخِذْلان المغلوب، فظَهَرَ للملك مَكْنُون سِرِّهَا، فقال له: اقْتَرِح ما تشتهي، فقال: أشتهي أن تَضَع حَبَّة بُرٍّ في البيت الأول، واثنتين في البيت الثاني، ولا تَزَال تُضَعِّفُها إلى آخر البيوت، وما بَلَغ تعطيني إياه، فاستخف المَلِك عَقْلَه واسْتَقَلَّ طَلَبَه، وقال: كُنْتُ أظن رَجَاحَة عَقْلِكَ وأَنَّكَ تَطْلُب شيئًا نفيسًا، فقال: أيها الملك، إنَّكَ لَمَّا صَرَفْتَنِي إلى التمني لَمْ يَخْطُر ببالي غير ذلك، ولا سبيل إلى الرجوع عنه، فَأَنْعَمَ له المَلِكُ بما سأل، وَأَمَرَ الحُسَّاب أنْ يَحْسِبُوا ذلك فَلَمْ يَجِدُوا ما يَفِي للحكيم بمراده، وقد أُحْصِيَ ما طَلَبَهُ فوجدوه ألوفًا مكررًا تكريرًا جسيمًا، لا تَفِي به أشوان المَلِك، فاختراع الشطرنج حكمة جليلة تَخَلَّدَتْ في جميع البلدان، وقامت على شِدَّة ذكاء مُبْتَدِعها البرهان.

وأَجَلُّ من هذا المُسْتَخْرِج للشطرنج مَن اسْتَخْرَج فَنَّ الطب ودَوَّنَه، وهو الحكيم إسقلبينوس بباء موحدة تحتية بعد اللام خلافًا لمن جعله بالنون، وهو مِنْ أهل اليونان، وبعضهم يقول: إن المُسْتَخْرِج للطب أَهْلُ مِصْر، وإن المُسْتَخْرِج له هرمس المُسْتَخْرِج لسائر الصنائع، وقيل: المُسْتَخْرِج له المصريون غير هرمس بإلهام من الله تعالى لجماعة، ثم ازداد الأمر في ذلك بكثرة التجاريب، وقَوِيَ وصار عِلْمًا واسعًا، واحْتَجَّ القائلون بذلك بأن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مُبْتَلاة بالغيظ والنكد، ومع ذلك كانت ضعيفة المَعِدَة وصَدْرُها مملوء أخلاطًا رديئة، وكان حَيْضُها مُحْتَبِسًا، فَاتُّفِقَ أنها أَكَلَتْ عُشْبًا مرارًا كثيرة بشهوة منهالة، فَذَهَبَ عنها جميع ما كان بها، ورَجَعَتْ إلى صِحَّتِهَا، وجميع من كان به شيءٌ مثل ما كان بها واسْتَعْمَلَه بَرِئَ به، فاستعمل الناس التجربة

على سائر الأشياء، فالذي جَمَعَ هذه التجربات ودَوَّنَهَا بمصر هو الواضع له سواء كان هرمس أو غيره، ولا مانع أن يكون هذا العلم مما تَعَدَّدَ وَاضِعُه ببلاد الدنيا، حيث إن التجربة قد تَعَدَّدَتْ فيه، وإن أقوى التجاريب وأكثرها تجاريب إسقلبينوس، وتَلَقَّاهَا عن الحكماء الذين جاءوا بعده في الزمن، فَعُدُّوا أيضًا من الواضعين له.

وقال بعضهم: إن الله سبحانه وتعالى خَلَقَ صناعة الطب وأَلْهَمَهَا الناس، واحْتَجَّ أَهْلُ هذا القول بأنه لا يُمْكِن في مثل هذا العلم الجليل أن يُدْرِكَه عَقْل الإنسان، فالواضع الله الذي خَلَق الداء والدواء، وهذا القول أيضًا يَرْجِعُ إلى الوحي والإلهام، وينبغي أن يكون الطب النبوي من ذلك باتفاق؛ لمصداق آية ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، وبالجملة: فوَضْع الطب عظيم، وتدوينه جسيم، وفَضْل التأليف فيه عميم، ولا يَسْتَكْشِفُ شيئًا من منافعه إلا ذُو لُبٍّ سليم.

ومن فروعه الفرع الذي حَفِظَ أطفال النوع البشري من الآفات والمهالك، وهو فن تلقيح الجدري بالمادة البقرية، حيث انتشر في المسالك والممالك، وفَضْل استكشافه لحكماء الإفرنجة المتأخرين، وإن كان مَعْلُومًا قبل ذلك لِبَعْض قُرَى مِصْر وقرى السودان وعند الهنديين، ولهم فيه طريقة يَعْمَلُونها بالخيط والإبرة بتلويث الخيط في بثرات أثداء البقرة، ويَفْرِزُونَها بين الجلد واللحم من كَتِفَي الطفل، ويَبْقى الخيط في الأكتاف، وهي من أعظم الألطاف.

فالوضع الأولى في سائر العلوم هو تَصَوُّر قواعد أولية ابتكارية، لا تَزَال تَأْخُذ في الزيادة والاستكمال، ويَتَفَرَّع منها فُرُوع تَتَّسِع على مدى الأيام والليال، فيكون لِلْعِلْم بهذا المعنى عدة من الواضعين، وجملة من الأفاضل الموسعين؛ كالإمام علي رضي الله تعالى عنه، فإنه قَيَّدَ الألسنة بِعِلْم النحو، حيث أَمْلَى على أبي الأسود الدؤلي أقسام الكلام، وقال له: «تَتَّبِعه وزِدْ فيه ما وَقَعَ لك مما يلائم المقام؛ لِتَمْحُوَ بذلك من اللحن ما خَالَطَ اللسان العربي مما كَادَ يُفْسِدُه من رطانة الإعجام»، فوَضَعَ أبو الأسود الدؤلي قواعد النحو التي فَهَّمَهَا له، ثم جاء بعد أبي الأسود سيبويه فوضع كتابه الذي كل من جاء بعده منه يَغْتَرِف، وبتقدمه عليه يَعْتَرِف، وإذا أطلق في عُرْفِ النحاة لَفْظ الكتاب فإليه يَنْصَرِف، وَوَضَع الخليل بن أحمد عِلْم العروض، وجَعَل له ميزانًا للشعر، وصاغ له من التفاعيل أجزاء ثمانية صَيَّرَها لوزنه كالمثاقيل، وها هي أنوار تلك العلوم النافعة، على جميع آفاق الدنيا ساطعة، وهي ثمرات الأعمال الصادرة عن الأبدال.

ومِنَ الحِكَم: مَنْ طَلَبَ جَلَبَ، ومَنْ جَالَ نَالَ، ومَنْ جسر أَيْسَرَ، ومن هَابَ خَابَ، فَقَدْ فاز بالدر غائصه، وحَازَ للصيد قَانِصُهُ، والجراءة من أسباب الظفر وغلبة الأقران، والشجاع يُعْرَف بالإقدام ولو على الضرغام، وبِضِدِّه الجبان والمتواني الكسلان، لا سيما الشاب القليل الحيلة، والملازم للحليلة، والمُقْتَنع بالرذيلة، والراضي بالحشف وسوء الكيلة، فمن دام كَسَلُه خَابَ أَمَلُه، ويقال: الخيبة نتيجةُ مُقَدِّمَتَيْن الكسل والفشل، وثمرة شَجَرَتَيْن الضجر والملل، ويقال: إن الحرمان شِعَارُه الكسل، ودِثَاره التسويف والعلل، قال بَعْضُهم:

لا تَصْحَب الكسلان في حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَاد آخَرَ يَفْسَدُ
عَدْوَى البليد إلى الجليد سَرِيعَة ... والجَمْرُ يوضع في الرماد فَيَخْمَدُ

وقال بَعْضُهم — في الرد على مَنْ قال الكسل أَحْلَى من العسل:

ليس البطالة والكسلْ ... بالجالبَيْنِ لَكَ العسلْ
فاعْمَلْ فإن الله قَدْ ... حَثَّ المطيع على العَمَلْ

وفي كُتُب الإدارة آخر طبقات الرعية طَبَقة البطلة الغوغاء، وهم مما ينبغي أن لا يَرْحَمَهُم المَلِك؛ لأنهم يغلون الطعام، ويُضَيِّقُون الطرق لا سيما إن كانوا من الفسقة، فهم أظلم الناس يأكلون رِزْق الله ولا يعملون لله، فلا يَصْلُحون للدنيا ولا للآخرة، وكل أَحَدٍ سواهم يَعْمَل لنفسه، وهم لا يَنْظُرون لأنفسهم، ولا يَعْمَلون لدنياهم ولا عُقْبَاهم، فمثل هؤلاء يَسُوغ للملك أن يُخْرِجَهُم من البلد إن رأى المصلحة في ذلك، أو يَجْعَلهم مُسْتَعِدِّين لنائبة أو حادثة يعملون فيها بخلاف طبقة العمال المحترفين، فعلى الملك أن يُشَوِّقَهُم بالعطايا وشُمول النظر والمسامَحة حتى يتسابقوا إلى الحِرَف البلدية، كما أنه ينبغي للمَلِك أن يَتَلَطَّف بأصحاب العاهات كالعميان والمجذومين، فإن منادي الشرع يقول: إذا رأيتم أهل البلايا فاسألوا الله العافية، فيُجْرِي عليهم قَدْرَ كفايتهم، ويُعَيِّن لهم مَوْضعًا على طرف البلدة لمصلحة الجميع.

وقدماء المصريين من الأزمان الخالية والقرون البالية يعانون الأعمال العجيبة، ويجتهدون في إنجاز الأشغال الغريبة كالأهرام والمسلات العظيمة والتصاوير والتماثيل العجيبة، فبهذا كانوا يَنْفِرُون من الفتور والكسل كَمَالَ النفور، ويُشَخِّصُون الكسل ويجعلونه على صورة بشعة تُوضَعُ في الميادين العامة؛ لتكون عِبْرَة لأهل المرور والعبور، فيُصَوِّرُون الكسلان بهيئة شخص مُقْعٍ إقعاء الكلاب، عليه هيئة الحزن والاكتئاب، مُطَأْطِئًا الرأس إلى الأرض مُجْمَع اليدين بعضها مع بعض، وبجانبه قضبان مكسورة تفيد هَجْرَه للأشغال ونُفُورَه، وتارة يُصَوِّرُونَه على صورة امرأة مطلوقة الساعدين، شَعْثَاء غبراء، ذات أَطْمَار رَثَّة، مسطوحة على الأرض، مُتَوَسِّدَة أحد ذراعيها، وبِيَد الذراع الآخر منكاب مملوء من الرمل ومقلوب، تَسْتَدِلُّ به على ما مضى من النهار من الساعات والدقائق، ولها عند المصريين رسم آخر فيما غبر من الزمان، وهي رَسْم الكسل على هيئة امرأة عليها علامة البطء والتوان، كأنها تَرُوم أن تَتَبَخْتَرَ في سيرها الممقوت، وتَجُرُّ ثوبًا من نسج العنكبوت، مُتَّكِئَة على أريكة المجاعة والمخمصة، تُمْضِي جميع أوقاتها في الدعة والاستراحة المُقْتَنَصة، ففي عنفوان شبابها واخضرار وغَضِّ عُودِ إهابها لا تميل إلى حركة، ولا تَعْطِف على بركة، وفي زمن الكهولة والهرم تَرْقُد على فراش العدم والندم، يشيرون بذلك إلى أن الكسلان لِعَجْزه دائمًا حزين إذا لَمْ يفعل شيئًا لمعاشه، ويَزِيد حُزْنُه وأَسَفُه إذا احتاج إلى تحصيل شيء لَمْ يَقْدِر على تحصيله، ويقال: مزرعة الكسلان كثيرة الشوك، والسعدان تزدحم عليها الحشائش الطفيلية والأعشاب الفضولية، فلا يَتَحَصَّلُ له منها ما يفي بالقوت، فيسطو على جيرانه ليكون كَلًّا عليهم، أو يَتَّصِف بوصف لِصٍّ ممقوت، قال بعضهم:

يـا نَـفْـسُ ذوقـي لَـذَّةَ الـعَـمَـلِ   وَوَاظِبِي العدل والإحسان في مَهَلِ
فَكُلُّ ذي عَمَلٍ بالـخير مُغْتَبِطٌ   وفـي بـلاء وشُؤْم كُلُّ ذي كَسَلِ

وقال آخر:

دعي نَفْسِي التكاسلَ والتواني   وإلَّا فَـالْبَسِـي ثَوْبَ الـهَـوَانِ
فَلَمْ أَرَ للكسالى الحظ يَجْنِي   ثمـارًا غَيْرَ حِرْمَـان الأمـانـي

وقيل:

وكَمْ حَيَاءٍ وكَمْ عَجْزٍ وكَمْ نَدَمٍ جَمٍّ تَوَلَّدَ للإنسان مِنْ كَسَلِ

وما ألطف ما قيل في الإثارة لمن يؤثر الغَنَاء الممدود على الغنى المقصور:

قال لي اللاحي: أما حَانَ أَنْ تَتْرُكَ لَوْمًا مُتْعِبًا؟ قُلْتُ: حَانْ
قال: فَهَلْ قَلْبُكَ حَانٍ على مَنْ بِتَّ مشغوفًا به؟ قُلْتُ: حَانْ
قال: فمحبوبك في قَتْلِ مَنْ يَهْوَاه حَانٍ قَوْسَه؟ قُلْتُ: حَانْ
قال: فَقُلْ لي ما الذي تَشْتَهِي حَانَ غِنَاء أو غِنًى؟ قُلْتُ: حَانْ

مع ما فيه من مُحَسِّنَات الجناس التامِّ والمراجعة، فصفة الكسل مَثْلَبَة خبيثة، بل هي أُمُّ الخبائث، فهي تَحْمِل صاحبها على عَدَمِ إعمال الفِكْر والبدن، وبعض الفضلاء يزدري أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التي يَشْتَرِيها أَهْلُها ليصلوا بها إلى درجات العظمة والكبرياء، لِيَسْتُروا بها كَسَلَهُم حتى لا يَتَبَيَّنَ للناس أنهم أرباب بطالة، والأفاضل يَعُدُّون ذلك من النذالة والسفالة، فإن فَضْلَ الكسلان يُدْفَن معه بدون أن تَعُودَ منه على نَفْسِه أو غيره أدنى مَنْفَعَة.

وقد أشار إلى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه الفرنساوي في حكاية على لسان العجماوات، جعلها مكالمة بين الصرار والنملة، وترجمها بعض الأفندية فقال:

حكايةٌ مَوْضُوعُها صَرَّارُ أَوْدَى به الجوع والاضطرارُ
وكان قَضَّى الصَّيْفَ في الغِنَاءِ وما سَعَى في ذُخْرَة الشِّتَاءِ
وحين جاءَ زَمَنُ الثلوجِ ومُنِعَ القَوْمُ من الخروجِ
شَاهَدَ بَيْتَه بلا مَئُونَهْ فَرَاح يَوْمًا يَطْلُب المَعُونَهْ
وقال للنملة أَنْتِ جَارَتِي ما لي سِوَاكِ في قَضَاءِ حَاجَتِي
هل تَصْنَعِينَ مَعِي الْمَعْرُوفَا لا ذُقْتِ مِنْ دَهْرِ الرَّدَى صُرُوفَا
وتُقْرِضِينَنِي صُوَاعًا غَلَّهْ وطَبَقًا ومِثْرَدًا وَحَلَّهْ
فإن أتى الصيف فَقَبْلَ الصُّبْحِ أَرُدُّهَا عَلَيْك غَيْرَ الرِّبْحِ

قَالَتْ له النملة وهْيَ تَجْرِي	عُذْرُك يا مسكينُ مِثْلُ عُذْرِي
ماذا فَعَلْتَ في حصيدٍ قَدْ مَضَى	قالَ لها كان زَمَانٌ وانقضى
قَالَتْ وما ادَّخَرْتَ فيه للشِّتَا؟	قال لها مُسْتَهْزِئًا مُنَكِّتَا
كُنْتُ أُغَنِّي للحمير القُمَّصِ	قالت له: يا صاحبي الآن ارْقُصِ
واعلم بِأَنَّ السَّعْيَ في الذخيرَهْ	يُسْعِدُ كُلَّ خلة وَجِيرَهْ
والدرهم الأبيض وهْو في يَدِي	يَنْفَعُنِي لدى النهار الأسود

ومع مَيْلِ طباع عامة الناس إلى التكاسل والفتور فَقَدْ تُجْبِرُ الأحوال والأوقات العصرية على حَرَكَة العمل حتى تَصِيرَ طبيعية، ويَنْتِج عنها تَقَدُّم الجمعيات، فمن هذا لا تيأس ملة من الملل، ولا دولة من الدول مِنْ أن تَأْخُذَ حَظَّها من براعة العمل، لا سيما إذا كان لها فيه سابقة نصيب وافر؛ كديار مصر التي سَبَقَتْ جميع الأمم بالمآثر الغريبة، وكباقي الدول الإسلامية التي جَدَّدَتْ فيما سَلَفَ أنواع المعارف البشرية والمنافع العمومية والتقدمات المدنية، ومن آثارها استنارت أرجاء جميع ممالك الدنيا، ثم تَنَقَّلَتْ مزاياها إلى غيرها، وتَكَامَلَت المزايا في ذلك الغير حتى أراد الله سبحانه وتعالى أَنَّ أنوار المعارف الفرعية انْتَشَرَتْ في هذا العصر على آفاق أصولها، باجتهاد المجتهدين واهتداء المهتدين واقتداء المقتدين، والحصول على ما عَجَزَ عنه سائر السلف المتقدمين، كما يُفْصِح عن ذلك ما سَطَرَهُ بعض أهل الإنشا؛ حيث بَيَّنَ أسباب ذلك فيما طَرَّزَ وَوَشَّى، إذ قال:

إن عصرنا هذا نُشَاهِد فيه للناس بالتدريج آثارًا عجيبة، وهذا دليل على أن التأثيرات الطبيعية في قبضة التصرفات الإنسانية؛ لأن الطبيعة هي الحاكمة للإنسان بل المُذَلَّلَة إليه، ومن هذا يَظْهَر أن هذا العصر مَبْدَأ للتقدُّمات التي تَكُون في المستقبل، فاستعمال القوة البخارية برًّا وبَحْرًا سَهَّلَت الأسفار والسياحات، وفوائد سرعة المخابرات التلغرافية غَنِيَّة عن البيان، إذ بِتِلْك القوة كان الإنسان قادرًا على تَنْجِيز أشغاله الخاصة به، والاستحصال على اجتماع الأفكار ومبادلة المحصولات، وذلك كَرَأْس مَالٍ يَتَرَقَّى شيئًا فشيئًا ويَعُمُّ أطراف الدنيا حتى أنه في مدة يسيرة تَلْتَئِم الجمعيات البشرية، وتزول الاختلافات الكلية، ويَسْلُك بَعْض الناس مع بعض بكمال الوفاق على وفْق ما يقتضيه الأخوة الموافق للعقل، والحكمة المرضي لرب العزة، وتأخذ في العمران الأراضي الخالية، وتَصِير معادن للخَيْرات ومنابع للثروات.

وقد بَلَغَنَا أن السياح الإنكليزي «سيرساموبل بيكر» الشهير بالسياحة في القطعة الإفريقية عَيَّن مأمورًا للكشف على أقطارها المجهولة، والوقوف على حالها، وبِمَعِيَّتِه

من يلزم ليتوجهوا من طريق النيل، ويرشدوا مَنْ فيها بالإرشادات اللازمة، ثم المقرب للمسافات في هذا الأوان ثلاث:

الأول: قنال السويس، المُشْرِف على التمام الفاصل بين قِطْعَتَيْ آسيا وأفريقيا، فإنهما بذلك تَتَّصِلَان وتَسْهُل تجارَتُهُما وتجارة أوروبا بعد ما كان يُتَجَشَّم في ذلك الطواف من رأس الشم، فبفتح القنال تَنْقُص مسافة البحر الأبيض نحو الثلثين، ولقرب قطعة آسيا منه عن غيرها من الممالك الأوروباوية تزيد حِصَّتُها في الفوائد عما سواها، لا رَيْب إذ إنها أَحْدَثَتْ طريقًا جديدًا إلى أوروبا كان بابًا عظيمًا للتجارة وثروة الخزينة، وَوَقَعَ ذلك عِنْد العالَمِ المَوْقِع، فيلزم المبادرة إلى إنشاء ذلك على الوجه المساعِد لنا، فإن مَنْفَعَةَ هذا تزيد عن العادة، ويَجْتَمِع منها رأس مال، وتَتَسارَعُ الناس في الاستحصال على الرخصة من الحكومة، فحينئذ لا ينبغي التأخُّر عن هذا، وإنما اللازم التأمينات الكافية لأجل منافع سُكَّان المملكة، والإسراع بمباشرة العمل.

الثاني: قنال «هوندوراس، وهو فتح برزَخْ بَنَامَا»، المتوسط بين قطعتي أمريكا الجنوبية والشمالية، الذي أصله شِقٌّ صغير، شُكِّلَتْ لِفَتْحِهِ قومبانية كبيرة، فإنه بواسطته تصير قِطْعَتَا أمريكا الجنوبية والشمالية جزيرتين عظيمتين، وتزول المشقة عن أصحاب السُّفُن من بَعْد ما كانوا يسافرون من البحر المحيط الغربي المُسَمَّى بالأطلسي إلى الصين وليابونيا والجزائر الإقيانوسية، مع مكابدة أخطار الرياح العاصفة وطُول المسافة، مارِّين من رأس هورن المشحون جميعه بالشعاب وذلك لاضطرارهم؛ فإذَنْ لا تَلْحَقُهُم الآن تلك المشاقُّ بواسطة ذَلك القنال، وتكون مسافَتُهُمْ على النصف في بَحْر مُعْتَدِل ساكن الهواء على خط الاستواء.

الثالث: سكة الحديد الجسيمة، التي حان منها التَّمَام بشمال قطعة أمريكا البالغة الآن مسافة امتدادها ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وعشرين ميلًا، وهي في أرض سهلة تامة المنفعة، مبتدأة من نِيُورْق أَكْبَر مُدُن أَمْرِيكَا إلى مدينة «سان نسيسقو» بولاية قاليفورينة الشهيرة بمعادن الذهب، وكان قد رُخِّصَ لقومبانيتين في إنشائها «لنقولن» رئيس جمهورية أمريكا المتوفَّى حين محاربتها الداخلية سنة ١٨٦٢ ميلادية، وضرب لها ميعاد أربع عشرة سنة، فَجَدَّتَا كل الجد فيها حتى أَكْمَلَتَاهَا قَبْلَ تَمَام نِصْف المُدَّة، ومن بعد ذلك تَقْطَع مسافة صحاري جهة أمريكا الشمالية في ستة أيام، ولا يجهل محل فيها، ولا تعطل جهة من الزراعة وسائر الفوائد.

وقد أَنْشَأَتْ هاتان القومبانيتان نحو ألفي عربية كالدور، مُشْتَمِلَة على بيوت وأَسِرَّة من الحديد ولوقندات وكُتُبْخَانات، وهي في حال مُرُورِها السريع يُتَدَارك فيها من الطريق ظروف أوراق الحوادث التلغرفية المُعَلَّقَة على الأعمدة الخشب، وتُطْبَع في المطابع اللاتي فيها، وتُنْشَر على الركاب، وبهذا يكونون كأنهم في مدن الممالك العظيمة في الدنيا القديمة، وبما ذُكِرَ هانت أمور الأسفار، وتَقَارَبَت المسافات بين جميع الجهات، وتوَاصَلَت الجمعيات، وزالت الوحشات، واطَّلَعَ الناس على ما لَمْ يَطَّلِعُوا عليه، وَوَصَلُوا إلى ما لم يَصِلُوا مِنْ قَبْل إليه، فكان لا مانع من تَوَاصُل أمم البرية، ومن تسمية هذا العصر عصر المدنية، انتهى ما قاله، فكل هذا أعان ويُعين على تَقَدُّم وسائل المنافع العمومية، الآتي تقسيمها في الباب الثاني مع غاية البيان، وعلى ذكر الوابورات قُلْتُ هذه الأبيات:

العَقْل في الوابور حَارْ	نَبْغِي الجَوَابَ فَلَا يَجِيرْ
فـإذا أَرَدْتَ الإِخْـتِـبَـارْ	عِلْمًا به فَاسْأَلْ خَبِيرْ
فُـلْـكٌ بِـأَوْجِ الـلُّـجِ دَارْ	ومن الحضيض لَهُ مُدِيرْ
يجري على عَجَلٍ كِبَارْ	في رَسْمِ شَكْلٍ مُسْتَدِيرْ
هُوَ مِنْ عُطَارِدَ لا يَغَارْ	فـكـأنـه الـفَـلَـك الأسـيـرْ
قد أَوْرَثَ الشَّمْسَ اصْفِرَارْ	لَمَّا عَلَا مِنْه الصَّفِيرْ
قَمَر مَنَازِلُه البِحَارْ	نَجْم السِّمَاك له سَمِيرْ
فـي كَفِّـه الـجَوْزَا سِوَارْ	بَـهَـرَ الـثُّـرَيَّا إِذْ تُـشِـيـرْ
والْمُشْتَرِي حَازَ الْيَسَارْ	فَـغَـدَا بِـزَهْـرَتِـهِ أَسِـيـرْ
مَلِكٌ له الوحي ائْتِمَارْ	أبـدًا بـأجـنـحـة يَـطِـيـرْ
وبُرَاقُ أَسْرَى في القِفَارْ	يَطْوِي الفيافي إِذْ يَسِيرْ
مَلِكٌ عَلَى الْأَنْهَار سَارْ	وَعَلى البِحَار له سَرِيرْ
بِالْعِزِّ أَكْسَبَهَا الصَّغَارْ	مـع أنـه جِـرْم صَـغِـيـرْ
قَدْ نَالَ مِنْ كِسْرَى اعْتِبَارْ	لِـبُـخَـارِ عَـنْـبَـرِهِ عَـبِـيـرْ
خَاقَانُ هِنْدٍ خَوْفَ عَارْ	ما هَالَهُ لَهَبُ السَّعِيرْ
بُـرْكَـانُ نَـارٍ حَـيْـثُ ثَـارْ	فـورًا وَصَـارَ لَـهُ هَـدِيـرْ
أو سَائِح يَهْوَى السِّفَار	لِمَصَالِح الدنيا سَفِيرْ
أو عَاشِقٌ سُلِبَ القَرَارْ	أو يَحْسُدُ الطَّرْفَ القَرِيرْ

في الحب قَدْ خَلَعَ العذارْ ودُمُوعُ مُقْلَتِهِ غَدِيرْ
صَبٌّ وفي الأحشاء نَارْ شَوْقًا إلى القمر المُنِيرْ
أو شَاطِر طَلَبَ الفِرَارْ للأمن مِنْ أَمْرٍ خَطِيرْ
أو بَازُ صَيْدٍ قَدْ أَغَارْ مُغْرًى على الظَّبْيِ الغَرِيرْ
أو ظَبْيُ قَاعٍ ذُو نِفَارْ يَعْدُو إذا عَمَّ النَّفِيرْ
البَرْقُ سُرْعَتَه اسْتَعَارْ والوُرْقُ منه تَسْتَعِيرْ
ويرى الرياح بالاحتقارْ فهُبُوبُهَا مَعَه حَقِيرْ
طَرْفٌ تُسَايِرُه الدِّرَارْ لَيْلًا فَتَخْجَلُ في المَسِيرْ
لِلَّيْلِ يَطْوِي والنَّهارْ وبه ازْدَهَى الزَّمَنُ الأَخِيرْ
ما الفِعْلُ يُنْسَبُ لِلْبُخَارْ بَلْ صُنْعُ خَلَّاقٍ قَدِيرْ
بِقَنَالِ مِصْرَ لَهُ مَنَارْ يَسْمُو بِأَنْفَاسِ الْأَمِيرْ
وبِصِيتِ إِسْمَاعِيلَ طَارْ في الكَوْنِ بِالْجُودِ المطِيرْ
وبِعَدْلِهِ لَمَّا أَنَارْ في الأُفْقِ كَالْعَلَمِ الشَّهِيرْ
هَذَا عزيز ذُو وَقَارْ ولِمَظْهَرِ العُلْيَا ظَهِيرْ
وطَوِيلُ بَاعٍ في العَمَارْ يَمْتَازُ بالعمل الكثيرْ
للعَدْل قَدْ شَدَّ الإزارْ تَوْفِيقُه نِعْم الوزيرْ
عِشْ يا عَزِيزُ أَخَا انْتِصَارْ ولمصر دُمْ أَقْوَى نَصِيرْ
بالمجد كَمْ شُدْتَ الجِدَارْ ولأنت بالعليا جَدِيرْ
كَاثِرْ فَكَأْسُ الأُنْسِ دَارْ رب الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرْ

الباب الثاني

في تقسيم المنافع العمومية إلى ثلاث مراتب أصلية وهي حركات الزراعة والتجارة والصناعة؛ وفيه فصول.

الفصل الأول

في تعريف المنافع العمومية بالمعنى العرفي الصناعي ومنه يُفْهَم الانقسام إلى ما ذُكِرَ.

* * *

اعْلَمْ أن ما عَبَّرْنَا عنه هنا بالمنافع العمومية، يُقَال له في اللغة الفرنساوية: أندوستريا؛ يعني: التقدم في البراعة والمهارة، ويُعْرَف بأنه فَنٌّ به يستولي الإنسان على المادة الأولية التي خَلَقَهَا الله تعالى لِأَجْلِه، مما لا يمكن أن يَنْتَفِعَ بها على صورتها الأولية، فيُجَهِّزُها بهيئات جديدة، يستدعيها الانتفاع، وتدعو إليها الحاجة؛ كتشغيل الصوف والقطن للباس الإنسان وكبيعهما، فبهذا المعنى يقابل الأوندستريا، وتكون عبارة عن تقديم التجارة والصناعة، فيقال: الملك الفلاني يَشُوق الزراعة والأوندستريا؛ أي: التجارة والصناعة؛ يعني: يسعى في تقديم المنافع العمومية، وتُطْلَق بمعنى آخر أَعَمَّ مِن الأول، فتُعْرَف بأنها فَنُّ الأعمال والحركات المساعِدة على تكثير الغنى والثروة وتحصيل السعادة البشرية، فتَعُمُّ التشغيلات الثلاثة: الزراعية، والتجارية، والصناعية وتقديمها، فتكون مَجْمَع فضائل المنافع العمومية، وكثرة التصرف والتوسيع في دائرتها، ثم إن براعة المنافع العمومية بالمعنى العام متولدة مِنْ كَوْن الإنسان له اخْتِيَار وَمَيْل إلى ما فيه نَفْعُه، وإلى قضاء وَطَره، وإلى تحصيل حوائجه المعاشية، وأنه محلٌّ لهذه الفضائل.

وَقَدْ سَبَقَ في الفصل الأول من الباب الأول بعض ما يَتَعَلَّق بالفضيلة، ونقول هنا: إن الفضيلة صفة نفسية متمكنة في نفس الإنسان، ينشأ عنها العمل الصالح، ويُدِيمُها ارتياح النفس إليها، فبها تصل النفس إلى أعلى درجات الكمال، وتستعد إلى الحصول على

نَيْل المحْمَدة، فبهذا تكون أيضًا مُسْتَعِدَّة لِفِعْل الخَيْر العَامِّ للجميع، فحركة الفضيلة بهذا المعنى ليست حركة اختيار، فليس صاحب الفضيلة مَنْ يَنْهَمِك بجميع حواسِّه على بَذْل كُلِّ هِمَّتِه في المنفعة الأهلية؛ لأن وجود مِثْل هذا الإنسان في الدنيا مستحيل، وإنما الفاضل هو من يكون هَوَاهُ مائلًا بِحَسَب الإمكان إلى المنافع العمومية واستحسانه؛ لذلك فبهذا يكون أَقْرَبَ من درجة الكمال بِقَدْر ما يَلْزَم أن يَتَجَنَّب بالفضيلة عن المثالب وارتكاب الدنايا.

ومن أركان الفضيلة الشجاعة وقوة الجسم والعقل، وهذه الصفات مهمة جدًّا في الفضيلة، فهي الوسائل التي تَلْزَم لِحِفْظ الإنسان وتحسين حَالِه؛ لأن الشجاع يَدْفَع الضيم عن نَفْسه، ويَذُبُّ عن دَمِهِ وعِرْضِه وحُرِّيَتِهِ ومُلْكِه بِقَدْر استطاعته، وبِعَمَلِهِ وشُغله يَكْتَسِبُ عِيشَتَهُ الهنية، ويتمتع باللذات المباحة بالهدوء والطمأنينة، وتكون نفسه دائمًا متمتعة بالسلم والراحة، بعيدة عن الغضب والانتقام، فإذا أُصِيبَ بنكبة ولم يَكُن تَدَارَكَهَا بحزمه وتَبَصُّرِه تَجَلَّدَ عليها غاية التَّجَلُّد والصَّبْر؛ ولهذا عَدَّ أرباب الآداب القوة والشجاعة من أعظم الأركان.

ثم الفضيلة ثلاثة أقسام: شخصية، ومنزلية، وأهلية؛ فالفضائل الشخصية ما ينبغي أن يتصف بها كل إنسان؛ لتكون وسيلة لِحِفْظه ومادةً لِصَوْنِه، ومنها يَنْتِج حِفْظ العائلة، والجمعية المركبة من أفراد الناس والفضائل المنزلية هي سلوك الطريقة النافعة في العمل لجمعية العائلة، المعتبر إقامتها في منزل واحد؛ كالاقتصاد في المصارف، وبر الوالدين، وحُسْنِ العِشْرة مع الأزواج، وحُسْن تربية الأولاد، ومَحَبَّة الإخوة بعضهم لبعض، وأداء حقوق السيد لخادمه، والخادم لسيده، فجميع الفضائل الشخصية والمنزلية متلازمة ومتصادقة على حِفْظ النوع البَشَرِيِّ وتحسين حَالِه، وهي مخلوقة مع الإنسان من أَصْل الفطرة، والفضائل الأهلية متكاثرة بتكاثر منافع الجمعية المدنية، وراجعة إلى أَصْل واحد وهو العدل العمومي، والإنصاف المشترك بين أعضاء الجمعية، المُسْتَلْزِم جميع فضائل الجمعية.

ومن هذا يُفْهَم أن الفضائل من حيث هي مقولة بالتواطؤ محدودة لا تَقْبَل تغييرًا ولا تبديلًا، فالاقتصاد فضيلة مُحَقَّقَة، إن حَصَلَ فيها الشطط قَرُبَتْ من البخل، والشجاعة إن تَجَاوَزَتْ حَدَّهَا استحالت إلى المجازَفة، والكرم إن تَجَاوَزَ حَدَّه عاد إسرافًا، والصبر إن زاد عن قانونه أَضْعَفَ الشهامة، والحِلْم إذا اشْتَدَّ صار جُبْنًا، وإنما قد يَعْتَرِي هذه الفضائل بعض تَكَيُّف على حسب مُقْتَضَيَات الأحوال، فإن قَوْل الصدق في بعض الأوقات

قد يكون مُضِرًّا، وتكون المُدَارَاة واجبةً، وكذلك ينبغي مع فلان أن لا يَصْنَع إلا العدل، ومع إنسان آخر قد يكون العدل مَحْض ضَرَرٍ، وقد يكون الحِلْم في هذا اليوم فضيلة، ويكون في غدٍ مُضِرًّا، فمراعاة الأوقات والأحوال واجبة في الجمعية التأنسية، ولله دَرُّ القائل في هذه المعاني:

العز ما خَضَعَتْ لهيبته العدَى	وأقام بالفكر المُلُوكَ وأَقْعَدَا
والمال ما وَقَّاكَ ذمًّا أو بَنَى	عُلْيَاك أو أبقى لقومك سُؤْدَدَا
والجود ما وُصِلَتْ به رَحِمٌ وما	أَوْلَيْتَ ذا أَمَلٍ أَعَدَّكَ مَقْصِدَا
واللؤم إكرام اللئيم لأنَّهُ	كالذئب لم يَرَ عَدْوَةً إلا عَدَا
فإذا ظَفِرْتَ من العدو بِفُرْصَةٍ	فافْتِكْ فَفَتْكُ اليوم مَنْجَاةٌ غَدَا
والحِلْم في بعض المواطن ذلَّةٌ	فاصْفَحْ وغَالِبْ واعْجَلَنْ وَتَأَيَّدَا
ما كُلُّ حِلْمٍ مُصْلِحٌ بل طَالَمَا	غَرَّ السفيهَ الحِلْمُ عَنْهُ فأَفْسَدَا
كُلُّ السيادة في السخاء ولَنْ تَرَى	ذا البخل يُدْعَى في العشيرة سَيِّدَا
لا تَحْسَبَنَّ المجد رَنَّةَ مُطْرِبٍ	وعِنَاقَ غانية وَبُرْدًا يُرْتَدَى

فالفضائل عليها مَدار سلوك الجمعية التأنسية ونجاح أعمالها وتنعيم أحوالها، وضِدُّها يَضُرُّ بتقدم الجمعية، فلا أَضَرَّ على الجمعية من فساد الأخلاق، فإنه ينشأ عنه الكبر والدعوى وعدم الاستقامة؛ لأن الغني المتكبر مَثَلًا يَذْهَل في نشوء لَذَّتِه عن أن المال خَيَال زائل، فيَجْسُر ويَجْرَأُ بالتكبر على غيره، ويَظُنُّ أنه بَعِيد عن صروف الدهر فيقع فيها، فالعاقل يُقَيِّد نِعْمَتَه بقيد التواضع والانكسار، ويُدَبِّرُها بقانون الفضيلة لِتَدُومَ، فبهذا يكون مُسْتَقِيمَ الحال، حيث الاستقامة قَوَام الفضائل وعليها مَدَارُها، وهي مُعَدِّل حركة النفْس وخلوص النية التي يَحْسُن بها الأعمال، فهي روابط جميع الفضائل المدنية، وعبارة عن حُسْن السلوك في التعامل وأداء الحقوق للعباد بعضهم على بعض، فلا يَشِينها إلا هَوَى النفس، فالعقل يَقْمَع الهوى ويَصُدُّه والخُلُق الحَسَن يُنَفِّر منه، والإنسان المتهاون بحقوق الجمعية المدنية لا يُعْتَبَر إلا عَدِيمَ الاستقامة، وأنه لا يَعْرِف ما يَجِب له وما يَجِب عليه في حق الجمعية، فليست استقامة الإنسان إلا احترام حقوقه باحترام حقوق غَيْره، والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع غيره، فإذا عَرَفَ هذا الحساب سَهُلَ عليه حُسْن المعاملة، فالاستقامة في الإنسان علامة اتساع عَقْله واعتدال مِزَاجه؛ لأن

المستقيم في الغالب قد يُفَوِّتُ مَنْفَعَة عاجلة بقصد أن لا يَهْدِم مَنْفَعة آجلة، وأما غير المستقيم فإنه قد تَفُوتُه المنفعة العظمى الآجلة بِحِرْصِه على منفعة هينة عاجلة.

فقد اتفقت الأخلاق والعوائد والشرائع والأحكام على أن مكارم الأخلاق مُنْحَصِرَة في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»، وأن هذا الحديث قاعدة عظيمة في الدين؛ لأن الرجل الصالح المستقيمَ الحال لا يَقْتَصِر على الكف عن فِعْل الشر، بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فِعْل الخير والمعروف، فمَنْ لَمْ يَصْنَع المعروف في موضعه مع التمكن منه لا يُعَدُّ صالحًا، فالاستقامة تَنْهَى عن الشر، والصلاح يأمر بالخير، والاستقامة تُمْدَح، والمعروف يُعَظِّم، والاستقامة عبارة عن عَدَم التعرض لِفِعْل الشر، والمعروف العمد إلى فِعْل الخير، والمعروف يُسْتَحَق الشكر عليه، وأما الاستقامة فقد لا يَجِب الشكر عليها؛ لكونها فضيلة قاصرة، والمعروف فضيلة متعدية، فهو من الأعمال التي عليها مدار الجمعية المدنية.

وكُلَّمَا تَقَدَّمَتْ براعة المنافع العمومية تَقَدَّمَتْ الجمعية، واقتضى الحال مَيْل النفوس إلى التمتع بثمار المنافع الكاملة ودقائق المصنوعات الفاضلة، فالميل إلى التَّجَمُّل والتزين ومواد الطنطنة والأُبَّهة يَتَوَلَّد منه غِنَى جميع الأقاليم التشغيلية؛ لاتساع دوائر الأخذ والإعطاء وكمال الحُرِّية في ذلك، فبهذا تَتَّسِع دوائر الزراعة والتجارة والصناعة، باتساع الرخصة في الأقاليم بالمعاوَنات والمساعَدات من أرباب الحكومات المختلفة.

ولما كانت الدولة الإنكليزية قد أَحَسَّتْ أن مَنْبَع ثروة أهاليها لا تَنْتِج إلا من التجارة والصناعة، وأن كلا منهما يحتاج إلى الحرية التامة، وإلى الاستجلاب والتوزيع للبضائع المختلفة، واستحصال الأثمان، وتكثير أموال المملكة بتوزيعها بين الأهالي براحة جميعهم ليكونوا مشتركين في السعادة المالية، فَتَحَتْ هذه الدولة بلادًا واسعة في أقطار شاسعة في الهند وبلاد أمريكا وجزائر البحر المحيط الأكبر؛ لتقديم صناعتهم وتجارتهم بالأخذ والإعطاء؛ لِيَعُودَ ذلك كله بالفوائد الجمة على أهالي مملكتهم بالأصالة وعلى غيرها بالتبعية، وكذلك غَيْرهم من ممالك أوروبا كالإسبانيين والبرتغال والفرنساوية والفلمنك وغيرهم، ويُقَالُ لهذه الحركة التقدمية: أندوستريا قولنية؛ يعني: تجارة خارجية.

ومن المعلوم أن فروع التجارة والصناعة كثيرة، مُتَنَوِّعَة بِقَدْر ما في الأقاليم والممالك من طبيعة أرضها وأهلها، فكل إقليم يُوَافِقُه بعض الفروع دون بعض، ويُرَوَّج فيه ما لا يُرَوَّج في غيره، فالمنافع العمومية على اختلافها مبنية على المعاوضات والمبادلات بما تقتضيه أصول حرية البلدان، ومدار حركتها على ثلاثة أشياء ضرورية.

الأول: هو المواد والأجزاء الواقع عليها التشغيل؛ كالقطن والصوف والحديد ونحوه من كل ما يُصْطَنَع، والثاني: الآلات والأدوات التي يُسْتَعَان بها على الصناعة، وهذان الشيئان تحصيلهما أصعب من الثالث؛ الذي هو عبارة عن أُجْرة الأعمال ومكافأة العمال؛ لأنه — وإن كان في العادة يُدْفَع نقدًا ويُعْطَى عدًّا — إلا أن المشغولات إذا كانت رائجة ناضة فأجرة العمل تُعْتَبَر صِنْفًا، فلا مانع أن يُعْطَى الأجير من عَمَلِه وشغله؛ لِما قَدَّمْنَا أن قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات، لا سيما في هذه الأوقات الأخيرة التي صارت فيها الزراعة والتجارة والصناعة مبنيةً على أصول ومحاسبات دقيقة، فشتان بينها وبين ما كان يُعْمَل في قديم الزمان من إجراء المنافع العمومية، فإنها كانت ساذجة بسيطة لا تَسْتَدْعِي رأس مالٍ كما في أيامنا هذه، فلم يَتَفَكَّر المتقدمون فيما تَفَكَّر فيه المتأخرون من الدقائق اللطيفة، وتنعيم حال التجارة، وتطبيقها على أصول حسابية تكاد أن تكون منطقية، ولا تزال آخذةً في الدقة والرواج إلى غير نهاية بِحُسْن ترتيب الحكومات العادلة، وإعطاء الحرية الفاضلة، وعَمَل الميزانيات اللازمة، وإبعادِ الاحتكار.

الفصل الثاني

في حالةِ المنافع العمومية في الأزمان القديمة وأنها كانت بسيطة سهلة لا تحتاج إلى كبير شيء.

* * *

الذي يُسْتَبَان من كلام المؤرخين والمخططين للبلاد أن الأرض الخصبة في مادة الزراعة كانت رأس مال الزارع، يَسْتَثْمِرها ويستولي على فائدتها، فإن الحَرَّاثِينَ والعَمَلة في القرى والبلاد كانوا مِلْكًا لمالك الأرض بالتبعية لها، أو أَرِقَّاء بالشراء، وكذلك المواشي والسباخ وآلات الحراثة كانت أيضًا مِلْكًا لِرَب الأرض، فكان العبيد والفلاحون المستعبدون يَحْرِثون الأرض ويُسَوُّونَها ويَبْذُرونها إلى أن يَحْصِدوها ويَنْقلوا مَحصُولها إلى بَيْت سَيِّدِهم، وكانت نظارة الفلاحة ومباشَرة الزراعة منوطة بأكبر عبيد السيد، أو عتقاء ممن يستنجبه منهم، وليس لهذا المباشِر — ولو معتوقًا — مُرَتَّبٌ خاص في نظير عَمَله، بل معيشته في بيت سيده كالعبد وعَلَيْه مَطْعمه ومَلْبسه في نظير الانتفاع بخدمته، فإذا جَسَرَ المعتوق وخَرَجَ من بيت سَيِّدِه المتربي فيه لا يجد من يقوم بشئونه، فكانت الحرية في تلك الأوقات مَشْئُومة على العَتْقَى وأمثالهم، هذا ما يَخُصُّ الزراعة من المنافع العمومية في تلك الأزمان.

وأما الصناعات فكانت أيضًا قاصرة على الأمور اللزومية، وموكولة لتشغيل الأَرِقَّاء، فكانوا يصطنعون ما تَدْعُو الحاجة إليه للمَلْبس والمَطْعم وما أشبه ذلك مما تَسْتَدْعِيه الحاجة فقط، وأما لوازم الزينة والتجمل فكانت تُجْلَب من بعض ممالك أجنبية أَكْثَر تَمَدُّنًا من الممالك المجلوب إليها، فكانوا يشترون المنسوجات الصناعية الساذجة من مصانع ليست كثيرة الآلات المُتَفَنِّنة الأدوات، وكانت تشغيلات الأقدمين قليلة وعملياتهم

هَيِّنة، فكانوا يَسْتَخْرِجون المعادن ويصطنعون الأسلحة وآلات الحرب المعروفة في تلك الأزمان.

وكانت هذه الأشغال أيضًا وإدارتها من وظائف العبيد والمماليك، وكان التعامل بين الأهالي في تلك الأزمان بالرقيق، فإذا اقتضى الحال للاقتراض لم يكن القَدْر المقترض دراهم ولا دنانير؛ إذ لم تكن النقود رُءُوسَ أموالهم، بل يَقْتَرِض بَعْضُهم من بعض قَدْرًا مُعَيَّنًا من الأعيان والأصناف ويستعيرونها، ويدفعون لصاحبها في نظير قَرْضِه أو عاريته قَدْرًا مُعَيَّنًا، ولم يكن عندهم أَخْذٌ وإعطاء جسيم ولا تجارة مهمة إلا مع الأجانب، فإذا تَوَفَّرَتْ عند إنسان منهم بضاعة أو فَرْع من الفروع اللازمة لجهة من الجهات البرانية وأراد الربح؛ شارك عليها تاجرًا أجنبيًّا، واشترط عليه شروطًا ملائمة لعادة البلاد، وجَعَل الربح بينه وبين شريكه العامل بأن يعطيه جزءًا من الربح قليلًا أو كثيرًا بحَسَب خَطَر السفر ومَشَاقِّه، فكانت التجارة أيضًا عندهم بسيطة كالزراعة والصناعة، فإذا كانت منافعهم العمومية على هذه الكيفية فلا يُتَصَوَّر أن يَعُود على الحكومة منهم كبير إيراد.

وفي الحقيقة كانت حكوماتهم أيضًا بسيطة، لا تحتاج إلى كثرة المصارف لا سيما في أوقات الصلح، فكانت مناصب الحكام القضائية والمَلَكِيَّة والعسكرية ليس لها مُرَتَّب ولا ماهية لا سيما عند الرومانيين، فكانت دولتهم لا تحتاج إلا إلى قليل من الخراج، نَعَمْ في أوقات الحروب والأخطار إذا احتاجت الحكومة إلى أمور ضرورية لتجهيز جيوش لحرب الأعداء؛ استعانوا بأهل الوطن، فكان يُعِينُهُم من الأهالي كل من يَحْتَرِم أوطانه ويَصْدُق في مَعَزَّتِه لبلاده ومَحِلِّ ميلاده، فيُهْدُون إلى الحكومة برسم تشريف الوطن ما يَكْفِي للحاجة، بدون إلحاح من أهل الحكومة ولا لجاجة.

ومن المعلوم من التاريخ أن الدولة الرومانية كانت في تلك الأزمان مُقَارِنة ومعاصِرَة للدولة القرطاجنية؛ أي: التونسية، التي كانت إذ ذاك لها السلطنة العظمى في الأقطار المغربية، فكان كل من الدولتين منافسًا للآخر، وكانت العداوة الفاشيَة بينهما شديدة، ولا تكاد الحروب تَنْقَطِع بينهما للمجاورة والمنافرة والمنافسة، كما هو جارٍ الآن بين بعض الدول المتأخرة، وتسمى الحروب التي كانت بينهم بالحروب البونيقية؛ أي: المغربية، المشهور منها ثلاثة: فالحرب البونيقي الأول كان قبل الميلاد بأربع وستين سنة ومائتين، ومكث اثنتين وعشرين سنة، أخذ فيه الرومان من القرطاجنيين جزيرتي صقلية وسردينية، وصارت قرطاجنة تَدْفَع لرومية خراجًا مُقَرَّرًا، وقد تَعَلَّم الرومانيون من القرطاجنيين في هذه الحرب صناعة السفن البحرية الحربية ذات المجاذيف.

وفي هذه الأوقات صَدَرَ أَمْر من مجلس رومية بأن يُرَتَّب للعساكر المشاة جامكية، وكانوا قبل ذلك غير مجمكين، فبادر أعيان الأهالي ووجوه الناس بإهدائهم لخزينة الجمهورية مقدارًا جسيمًا من متاعهم؛ للإعانة على مرتبات العساكر الوقتية، فجمعوا ما عندهم من النحاس غير المشغول ووسقوا العربات من ذلك وبعثوا به إلى الخزينة بوصف الإعانة الوطنية، فكان يومُ إرساله من أفخر الأيام الموسمية، واحتفل أناس كثيرون للتفرج على مَوْكِب هذه الهدية الوطنية العجيبة، فمن هذا يُفْهَم أن احتياجات تلك الأيام كانت سَهْلة بسيطة كما أَسْلَفْناه، ولم تَكُن كاللوازم في أيامنا هذه، وكذلك في الحرب الثاني البونيقي الذي ابتدأه الرومانيون مع القرطاجنيين سنة ٢١٩ قبل الميلاد ومكث ثمان عشرة سنة.

وكان سِرُّ عسكر قرطاجنة أنيبال، وكان شجاعًا باسلًا هَجَمَ على رومة أشد هجوم، وهَزَمَ جيوش الرومانيين في الوقائع العظيمة، وكاد يأخذ رومية، ولكن دخل وقْتُ الشتاء، فانزوى أنيبال في مدينة يُقَالُ لها: قبوة؛ ليقضي فيها فَصْل الشتاء مع جُنْدِه فَتَعَوَّد جُنْدُه على اللذات والشهوات وفَتَرَتْ هِمَّتُهُم بالانهماك على ذلك، وكان في أثناء هذه المدة قد اغْتَنَمَ الرومانيون الفرصة بتجميع عساكرهم المشتَّتة، فهجموا على جند القرطاجنيين ومع ذلك انْهَزَمَ جُنْدُهُمْ وَفَرَّ أميرهم.

ففي أثناء هذه الحرب والاحتياج للإمدادات العسكرية والذخائر تضايق الرومانيون، واضطرت الحكومة أن تَجْمَع عساكر جديدة، وأن تُجَهِّز سُفُنًا حربية؛ لتقاوِم قوة القرطاجنيين، وتتمكن من مُنَازَلَتِهِمْ، فاحتاجت رومة إلى الإعانات الضرورية، وتَحَيَّرَتْ في طريقة تحصيلها، وكانت حكومتهم إذ ذاك منوطة برؤساء، يقال لهم القناصل، منقادين لمجلس الحكومة الذي بيده الحل والعقد والأمر والنهي، فالتمس هؤلاء الرؤساء من مجلس رومية أن يَفْعَلَ كما جَرَتْ به العادة بأن يَحْمِل الأهالي على أن يدفعوا بحسب اقتدارهم ما يكفي في دَفْع مرتبات شَهْر للسفن البحرية من ماهيات وتعيينات، ومع أن هذا طَلَبٌ هَيِّن ومقدار يسير في حَدِّ ذَاتِهِ لَمَّا عَلِمَ به الأهالي اغْبَرَّتْ خواطرهم وتَكَدَّرُوا وتوقفوا فيه، وقالوا: نَحْنُ نعين الوطن باللائق والمناسب، ونَبْذُل ما عندنا من الأموال والرجال، ولكن قد أَخَذَت الدولة عبيدنا وفَلَّاحينا الذين يباشرون الزراعات، ومن وَقْتِ دخولهم في العساكر البرية والبحرية تَعَطَّلَت الزراعة والفلاحة، ولم يَبْقَ لنا إلا أنفسنا وأراضينا، فنحن قد تَعَطَّلْنَا بالكلية وتَضَعْضَعَ حالُنا وضاعت أموالنا، ولو كان عندنا شيء ما بَخِلْنَا به على أوطاننا، فلما اسْتَشْعَرَ رؤساء الدولة وأمراؤها بأعذار أهل الفلاحة

الْتَمَسَ أَحَد الرؤساء من مجلس رومية أن جميع أعضاء هذا المجلس يتَطَوَّعون لخزينة الحكومة بجميع ما عندهم من الذهب والفضة والنحاس، ولا يُبْقُوا منه شيئًا إلا ما في أصابعهم من خواتم الذهب وما في أصابع نسائهم وأولادهم من ذلك، وأنه لا مانع من أن لا يَدَعُوا عندهم إلا النقود اليسيرة للمصارف الضرورية؛ ليقتدي بهم جميع الأهالي، ولتكون هذه المكارم الوطنية معدودة في مَآثِرِهِمْ ومأثورةً في مَنَاقِبِهِمْ، فأجاب جميع الأعضاء إلى هذا الالتماس الممدوح عن طِيبِ نَفْس وانشراح خاطر، ولم يَتَأَخَّرْ منهم أحد عن ذلك، وتَفَرَّقَ المجلس بالتواطؤ على التنجيز.

فكل عضو من أعضاء المجلس شَرَعَ في المسارعة والمسابقة؛ ليَفْتَخِر بِتَقَيُّدِ اسمه وعَطِيَّتِه بالدفاتر قَبْلَ غَيْرِه، فتزاحموا على كُتَّاب الخزينة أن يَكْتُبوا ما تَعَهَّدَ كل منهم بِدَفْعه على سبيل الإعانة، واقتدى بأرباب المجلس من عَدَاهم من أهالي المملكة الرومية، فبهذه الإعانات تَمَكَّن الرومانيون من قَهْر أعدائهم وحماية مُدُنِهم من جهة قرطاجنة، فبواسطة إعانات الرومانيين ومكارم أخلاق أهاليهم ومفاداتهم أوطانَهُم بِبَذْل الأموال والأرواح؛ شَنُّوا الإغارة عليها بالجأش القوي والجيش الجرار في الحرب الثالث، الذي صار الشروع فيه من سنة مائة وتسع وأربعين قبل الميلاد، فحاصر الرومانيون قرطاجنة وهَجَمُوا عليها برًّا وبحرًا مدة ثلاث سنين، فأخذوها عنوة وسَلَبُوا أموالها وقَتَلُوا من فيها من السكان وحرقوا المدينة، فمن ذلك الوقت زالت دولة القرطاجنيين بزوال قرطاجنة التي كانت دائمًا قرينة رومية ومعاصرة لها في الفخر.

ولم يكن في ذلك العهد ممالك قوية تُعَادِل قوتي هاتين المملكتين حتى تُعْتَبَر الموازنة، فما أَحْسَنَ إدارةَ الممالك في هذه الأعصر الجديدة وما بين ملوكها من المعاهدات والمشارطات واعتبار الميزان السياسي واعتماده؛ لمحافظة الحقوق المِلْكِيَّة وحقوق الدول والملل بعضها على بعض، فإن هذا حِصْن حصين لحفظ ذات الممالك بقطع النظر عن حفظ تيجان الملوك، فالمملكة الضعيفة في هذا العهد مأمونة الدوام ما لم يُلِمَّ بها أحوال بوليتيقية أهلية؛ بها تَخْرُج عن حدود المشارطات، فمَحْض القوة في إحدى ممالك هذا العصر لا يسوغ لها تَغَلُّبًا على غيرها بدون وَجْه لِمَنْع الآخرين ذلك بعقد المشارطات القوية، وهذا أيضًا مما يُعَدُّ من التقدمات العصرية في النظامات المَلَكِيَّة، ولو تَمَدَّنَت الممالك الإسلامية المنافرة سياستها لسياسة الدول المتمدنة، كممالك التتار ودَخَلَتْ في النظام العمومي؛ لصانت أوطانها من إغارة مَنْ جَاوَرَهَا بالتعلل بخشونتها، والاستيلاء

عليها لِقَصْد تمدينها وتحسين حالها، ففي الأزمان السابقة كانت الشهرة في الدنيا لمدينة رومية ومدينة قرطاجنة؛ لقوة الدولتين، ولم يُسَاو هاتين المدينتين مدينة أخرى.

ويقال: لو لم تكن رومية موجودة لكانت قرطاجنة أول مدن الدنيا، ولولا وجود الإسكندرية بموقعها العجيب لكانت قرطاجنة ثاني مدينة من مدن الدنيا، فإنها كانت حَسَنَة الوضع جيدة الموقع لوجودها بين بوغاز جبل طارق بالأندلس وبوغاز القسطنطينية، وبهذا كانت إذ ذاك مَرْكَز التجارة، وكان أهلها سبعمائة ألف نفس أرباب زراعة وصناعة وفنون كثيرة، وكان يَغْلُب عليهم التقدم في الزراعة والملاحة؛ لأن هذه الأمة القرطاجنية كانت محتاجة إلى الأسفار ونقل البضائع من بلادها، وجَلْب ما ليس عِنْدَها من الخارج إلى الداخل، وكانت مُولَعَة بالفتوحات وتوسيع دائرة مُلْكِها، فقد اسْتَوْلَت على سائر مُدُن أفريقيا، وسَخَّرَتْ من أوروبا جزيرة سردينية وجزيرتَيْ مايورقة ومينورقة وغيرهما من بلاد الأندلس ومن فرنسا، وكان لها المحالفات والمعاهدات مع ملوك البلاد التي بينها وبينهم معاملات، فَخَرَّبَها الرومانيون لَمَّا أعيتهم وأتعبتهم، فكان تدميرها وخرابها مِمَّا يُعَابُ به عليهم.

ثم بنى الرومانيون مدينة في آثارها بعد مدة من تدميرها، وسَمَّوْها قرطاجنة بِاسْم الأُولَى، ولم تَشْتَهِر المدينة الثانية إلا في زمن القيصر أغسطوس حتى صارت ثاني مدينة في العظم بعد رومية، وَبَقِيَتْ إلى صدر الإسلام، ثم هُدِمَتْ حتى لم يَبْقَ لها الآن أَثَرٌ، وإنما بُنِيَتْ بالقرب من محلها مدينة تونس، فانظر إلى حال الأمم القديمة، فإن دولة الرومانيين مع تقدمها في الفتوحات العظيمة لم يكن عندها تَقَدُّم في المنافع العمومية، وإنما إدارتها بسيطة، وكان عندها نَوْع من الرفق بالملة الرومانية وأهل الوطن الحقيقي؛ يعني: مَنْ له مزية عنوان الروماني، وكانت أقرب إلى الصدق في تأدية الحقوق لرعاياها لا سيما عَقِبَ الحروب.

فقد ذَكَرَ المؤرخون أنه كان لرومية حَرْب مع مملكة مَقْدُونيا في بلاد روم إيلي، فبعثت بولص أميلوس أَحَدَ قُوَّادِهَا إلى مقدونيا لقتال برشاوس ملك هذه البلاد، فهزمه القائد الروماني واغْتَنَمَ أمواله وعاد إلى رومية بالغنائم العظيمة، فلما تبين لحكومة رومية أن هذه الغنائم تقوم بمصارف الدولة وتكفي في مصالحها؛ رَفَعَتْ جميع المطالب المقررة على الأهالي إلى وقت الحاجة.

وبالجملة: فقد كان القدماء من الممالك والدول لا يعرفون اقتراض الحكومة من الأهالي أو غيرهم بالفوائض والأرباح كالجاري الآن اعتمادًا على ما يَتَحَصَّل من الأموال

والعوائد، بل هذه الطريقة الاختراعية من مُسْتَحْدَثَات الدول المتأخرة الأروباوية، وإنما كانت طُرُق المتقدمين أنهم إذا اقْتَضَت الضرورة للمال فإن رؤساء الحكومة كعمال الأقاليم يعقدون مع أغنياء الأهالي عَقْد القرض والسلفة، في حالة ما إذا خَلَتْ خزينة الدولة عن الدراهم بالكلية، ولم يكن عقْد القرض باسم الحكومة بل هو اتفاق شخصي بين الحكام والمُقْرِضين؛ لاعتماد الحكام وأمانتهم، وكانوا يُعَيِّنُون للدفع ميعادًا، ويُحَدِّدُون له أجلًا مُسَمًّى، فكانت أمانة الحكام المقترضين ومكارم أخلاق الأغنياء المقرضين هي المسهلة لقضاء حوائج الدولة، بحيث لم تَكُن في أوقات الأخطار عُرْضة لأن تَقَع في الحيرة والمضايقة.

فقد احتاجت دولة الرومانيين بعد مُضِيٍّ سنوات من الإعانة التطوعية إلى الدراهم؛ لتتميم فتوحهم لقرطاجنة، وكانوا في خطب شديد يَخْشَوْن من عساكر أنيبال أمير القرطاجنيين، فإنه طالما أَزْعَجَهُم وهَدَّدَهُم حتى كاد يَفْتَح مُدُنَهم ويسترعيهم، ففي تلك الأوقات الخطرة اضْطُرَّ جميع حكامهم أن يَقْتَرِضُوا من بعض أغنياء الأهالي مقادير جسيمة من الأموال، فعاقدوهم على أن يدفعوها لهم على ثلاثة أقساط متساوية في ست سنين، فجعلوا لكل سنتين قسطًا، والتزم الحكام بالأقساط فَوَفَّوْا منها قِسْطَيْن في أثناء الحرب، وتصادف أن القسط الثالث حَلَّ أَجَلُه ولم يكن في الخزينة الرومانية ولا عِنْد الحكام ما يَفِي به، فحضر المقرضون وطلبوه من الحكام فعجزوا عن دَفْعِه، فحضروا معهم مجلس رومية وطلبوا دَيْنَهم، فاعترف المجلس بجميع الديون مع عَجْز الخزينة عن دَفْعِها إذ ذاك، فحصل التراضي بين المجلس والدائنين على أن يأخذ أرباب الديون من أملاك الحكومة وأراضيها التي يمكن بَيْعُها بِقَدْر ما يفي بديونهم، ينتفعون بِغَلَّتِها ومحصولها، وقَوَّمُوها لهم بقيمة المِثْل، واشترطت لهم الحكومة أنه عند يسار الخزينة كُلُّ مَنْ أراد أن يتنازل عن الأرض التي أُعْطِيَتْ له يُرَخَّص له أن يَطْلُبَ دَيْنَه نقدًا بِقَدْر الثمن الذي أَخَذَهُ كبيع الوفاء، فاستلم أرباب الديون الأراضي وفَرِحُوا بها وبادروا باستغلالها، وهذه معدلة من الحكومة ومَكْرَمَة من أرباب الديوان من الأهالي الرومانية، ومع عدِّها في المآثر الجميلة لا تُسَاوِي مكارم الأخلاق العربية التي كان يَفْعَلُها من أصحاب رسول الله ﷺ كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف.

ولنَذْكُر هنا غزوة تبوك التي يقال لها غزوة العسرة؛ ليَظْهَر بها كيفية الإعانات الإسلامية، وسبب غزوة تبوك التي هي أرض بين الشام والمدينة المنورة، أن مُتَنَصِّرة العرب كَتَبَتْ إلى هرقل مَلِك الروم بأن النبي ﷺ هَلَكَ وأصابت أصحابه سنون أَهْلَكَتْ

أموالهم، فبعث رجلًا من عظمائهم وجَهَّزَ معه أربعين ألفًا ليحارب أصحاب رسول الله ﷺ، فبلغه ﷺ أن الروم قد جَمَعَتْ جموعًا كثيرة بالشام وأنهم قَدِمُوا مقدماتهم إلى البلقاء، وكان ﷺ قَلَّمَا يَخْرُج في غزوة إلا كَنَّى عنها ووَرَّى بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك؛ لبُعْد المشقة، وشدة الزمان بالحر، وكثرة العدو، وليأخذ الناس أُهْبَتَهُم، فأمر الناس بالجهاز وبَعَثَ إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم، وحَضَّ أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله، وأَكَّدَ عليهم في طلب ذلك.

وكانت آخر غزواته ﷺ، فأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه نفقة عظيمة لم يُنْفِقْ أَحَدٌ مثلها؛ حيث جهز عشرة آلاف مجاهد أنفق عليها عشرة آلاف دينار، غير الإبل وهي تسعمائة بعير، وغير الخيل وهي مائة فرس، وجهز الزاد وما يَتعَلَّق به، حتى ما تربط به الأسقية، وجاء أيضًا رضي الله عنه بألف دينار فصَبَّهَا في حجر النبي ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقلبها بيديه الشريفتين، ويقول: «ما ضَرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم»، ويقول: «غفر لك يا عثمان ما أَسْرَرْتَ وما أَعْلَنْتَ»، وكان أَوَّلَ مَنْ جاء بالنفقة قبل عثمان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء بجميع ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله ﷺ: «هل أَبْقَيْتَ لأهلك شيئًا؟ قال: أَبْقَيْتُ لهم الله ورسوله» وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «هل أَبْقَيْتَ لأهلك شيئًا؟ فقال: النصف الثاني» وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائة أوقية من الفضة؛ ولهذا قيل: إن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما كانا خزانتين من خزائن الله في الأرض، يُنْفَقَان في طاعة الله تعالى.

فَقَدْ كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تاجرًا كثير الأموال بعد أن كان فقيرًا، باع مَرَّة أرضًا له بأربعين ألف دينار وتَصَدَّق بها كلها، وتَصَدَّق مرة أخرى بتسعمائة جمل بأحمالها قَدِمَتْ من الشام، وأعان في سبيل الله بخمسمائة فرس عربية، وأوصى لكل رجل بَقِيَ من أهل بدر بأربعمائة دينار وكانوا يومئذ مائة رجل، وقُسِمَتْ تَرِكَتُهُ بعد موته على سِتَّةَ عشر سَهْمًا وكان كل سهم ثمانمائة ألف دينار، وعَيَّنَه عُمَرُ رضي الله عنه في جملة سِتَّة يصلحون للخلافة من بعده، فقام هو بأمر البيعة لعثمان وروى الأمر عن نفسه.

ومن هنا يُعْلَم أن تجارة العرب في الزمن القديم كانت رابحة عظيمة، ثم جاء العباس رضي الله عنه بمال كثير، وكذا طلحة رضي الله عنه، وبعثت النساء رضي الله

عنهن بِكُلِّ ما يَقْدِرْنَ عليه من حُلِيِّهِنَّ، وتصدق عاصم بن عدي رضي الله عنه بسبعين وسقًا من تمر.

ولما ارتحل ﷺ عن ثنية الوداع التي بها المعسكر وهم ثلاثون ألفًا، متوجهًا إلى تبوك؛ عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورايته ﷺ العظمى للزبير رضي الله عنه، وساروا حتى نزلوا إلى تبوك فوجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف رسول الله ﷺ غرفة من مائها فمضمض بها فاه، ثم بصقه ففارت عينها حتى امتلأت، وأقام ﷺ أيامًا، وأتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطى الجزية، وأتاه أهل جربا وأذرح بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة بلدتان بالشام، فأعطوا الجزية أيضًا، ولم يقع في هذه الغزوة قتال، ولكن فَتَحُوا في هذا السفر دومة الجندل، حيث بَعَثَ ﷺ خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى مَلِكِهَا أُكَيْدِر وكان نصرانيًّا، فخرج خالد من تبوك وانصرف ﷺ منها إلى المدينة، فصالحه أُكَيْدِر على أَلْفَيْ بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة دِرْع، فرَضِي خالد بالصلح ففُتِحَ له باب الحصن الذي كان على هذه القرية، وانطلق بأكيدر وأخيه إلى رسول الله ﷺ وكان ﷺ بالمدينة، فَلَمَّا قَدِمَ بهما صالحه ﷺ على إعطاء الجزية وخَلَّى سبيله وسبيل أخيه، فمن هذا يُفْهَمُ أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جَهَّزَ ثُلُثَ الجيش في هذه الغزوة.

وبالجملة: فمآثر الصحابة رضي الله عنهم في مكارم الأخلاق لا تُحْصَى ولا تُحْصَرُ، فالنسبة إليهم رضي الله عنهم لا يقال: إن سبب ذلك البساطة في الأخلاق وعدم كثرة المعاملات والأخذ والعطاء، فإنا نقول: إن أهل آسيا في تلك الأزمان كانت التجارة عندهم رابحة أيًّا ما كان نَوْعُها، فكان للعرب كُلَّ سَنَةٍ رحلتان رحلة الشتاء والصيف، ومن المعلوم أن الأسفار من وسائل التقدم ودليل عليه.

الفصل الثالث

في أن الأسفار والسياحات مما يُعِينُ على تَقَدُّم المنافع العمومية.

* * *

قد أسلفنا في الفصل الأول من الباب الثاني أن دوائر الزراعة والتجارة والصناعة تتسع باتساع الرخصة في الأقاليم، بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات، وأن دولة الإنكليز فَتَحَتْ بلاد الهند وغيرها؛ للتحيل على اتساع تجارتها، وكذلك تَحَيَّلَ غيرهم من الدول على ذلك؛ كما قيل:

ومن طَلَبَ النجوم أَطَالَ صَبْرًا على بُعْد المسافة والمَنَالِ
وتُثْمِر حاجةُ المحتاج نَجْعًا إذا ما كان فيها ذا احْتِيَالِ

فهِمَّةُ هؤلاء الأمم تميل إلى الجد والكد والكدح والانتصاب لسائر الأهوال في تحصيل المعالي والأموال، والترقي إلى منازل العز، وكَسْب المجد والإقبال، وتتوصل إلى ذلك بالحركة والنقلة، والسياحة والرحلة، والإقدام على ركوب الأخطار؛ لِنَيْل الأماني وبلوغ الأوطار، ومن الكلم النوابغ والحكم السوابغ: صعود الآكام وهبوط الغيطان خَيْر من القعود بين الحيطان، ولبعضهم:

أما تَرَيْنِي على بَغْي العَلَاء لِأَعـ ـباء الأمور حَمُولًا دائم النَّصَبِ
فما اسْتَوَى شَرَفٌ إلا على كلفٍ ولا صَفَا ذَهَبٌ إلا على لَهَبِ

فتَجَشُّم المشاق عند خَاطِب المعالي حُلْو المذاق.

فالطريقة الموسعة لدوائر المعيشة قديمة عمومية، قَضَتْ بسلوك طريقها في الأزل الحكمةُ الإلهية، فقد سَخَّرَ الله سبحانه وتعالى لقريش بالحجاز من وسائط الكم والكيف ما يَحْمِلُهُم على إيلاف رحلة الشتاء والصيف، فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ وتفسير هذه الآية والله أعلم بمراده: أن قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ اعْجَبُوا لإيلاف قريش؛ لأنهم يَتَمَادَوْن في غَيِّهِمْ وجَهْلِهِمْ، والله يُؤَلِّفُ شَمْلَهُمْ، ويدفع الآفات عنهم، ويُنَظِّم أسباب معايشهم؛ أي: اعْجَبُوا من حِلْم الله وَكَرَمِهِ عليهم، ونظيره في اللغة قولهم: لزيد وما صنعنا به؛ أي: اعْجَبْ لزيد وما صنعنا به من الإكرام، والإيلاف: الإلزام؛ يعني: اعْجَبُوا لإلزام قريش، ومعموله عَامٌّ؛ يعني: إيلاف قريش كل مؤانَسة وموافَقة بينهم من مَقَامِهِم وسَيْرِهم وجميع أحوالهم، ولَفْظ قريش مأخوذ من القرش، وهو الكسب؛ لأنهم كانوا كاسبين بتجارتهم وضَرْبِهِم في البلاد، ومن التقرش وهو التجمع؛ لجمعهم المال بالتجارة، أو للاجتماع بعد التفرق في البلاد، ثم بَعْدَ أن عَمَّمَ تعالى الإيلاف الأول الذي هو نعمة عامة، خَصَّ إيلاف الرحلتين بالذِّكْر بسبب أنه قِوَام معاشهم.

فقد امْتَنَّ سبحانه وتعالى عليهم بنعمتين؛ وهما الإيلاف العامُّ، والإيلاف الخاصُّ الذي هو تعويدهم على رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، قال المفسرون: «كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن؛ لأن اليمن أدفأ، وبالصيف إلى الشام»، وذَكَرَ عطاء، عن ابن عباس: أن السبب في ذلك هو أن قريشًا كانوا إذا أصاب واحدًا منهم مَخْمَصَةٌ خَرَجَ هو وعياله إلى مَوْضِع، وضربوا على أنفسهم خباء حتى يَمُوتوا، إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سَيِّدَ قومه، وكان له ابنٌ يُقَالُ له: أسد، وكان له ترب من بني مخزوم يُحِبُّه ويلعب معه، فشكى إليه الضر والمجاعة فَدَخَل أَسَدٌ على أمه يبكي، فأَرْسَلَتْ إلى أولئك العيال بدقيق وشحم، فعاشوا فيه أيامًا ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكى إليه من الجوع، فقام هاشم خطيبًا في قريش فقال: إنكم أَجْدَبْتُم جَدْبًا تَقِلُّون فيه وتذلون، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم، والناس لكم تَبَع، قالوا: نحن تَبَع لك فليس عليك مِنَّا خلاف، فجمع كل بَنِي أبٍ على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما رَبِحَ الغَنِيُّ قَسَّمَهُ بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك فلم يَكُن في العرب بنو أب أكثر مالًا ولا أَعَزَّ من

قريش، قال الشاعر فيهم:

الخالطين فقِيرَهم بِغَنِيِّهِمْ   حتى يكون فَقِيرُهُمْ كالكافِي

فنعمة الله عليهم بإيلافهم وتأنيسهم بجمعهم قبيلة واحدة في مكان واحد أَمْكَن في النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى، ونَبَّهَ تعالى بقوله: «إيلاف» على أن من شَرْطِ السفر المؤانسة والألفة؛ لأن السفر أَحْوَج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة.

ثم لما كان هذا الإيلاف إنعامًا من الله تعالى عليهم، وأنه يَسْتَحِقُّ أن يُقَابَلَ بالشكر والعبودية؛ أَتْبَعَه سبحانه وتعالى بطلب العبودية، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ومعنى ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أي: فلْيَتَذَلَّلُوا ويخضعوا للمعبود على غاية ما يكون؛ ليشمل التوحيد والعبادات المتعلقة بالجوارح، والمعنى: لِيَتْرُكُوا ما هم عليه من عبادة الأوثان، ويَعْبُدوا رَبَّ هذا البيت؛ أي: الحرم، وهو الله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: رَزَقَهُم بالطعام في السفر والمُقام، وقوله: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: حَمَاهم؛ حيث جَعَلَهُم أهل حرم آمن، فكانوا يسافرون آمنين، لا يَتَعَرَّض لهم أحد، ولا يُغِير عليهم أحد لا في سَفَرِهم ولا في حَضَرِهم؛ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ وقد أَطْعَمَ الله تعالى قريشًا وآمنهم؛ إنعامًا منه تعالى، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، فكانت رحلة الشتاء والصيف بها مِيرَتُهم ومعيشتُهم وثَرْوَتُهم، هذا ما يَتَعَلَّق بقريش.

وأما العرب على الإطلاق فكانوا من الأزمان القديمة يسيحون في الأرض سوقة وملوكًا، حتى بلغوا أقصى المغرب، وبلغوا من حدود المشرق سمرقند، وبلغوا باب الأبواب ودخلوا بلاد الهند، ولكن كانوا يُغِيرُون على غير بلادهم ولم يَسْتَقِرُّوا فيها حتى يَصِيرُوا مُلُوكَها، بل في الغالب كان يقتصر على مُلْكِ أَبِيهِ، وإذا غَلَبَهُ عليه غَيْرُه رحل إلى البلاد البعيدة؛ ليَسْتَنْجِد على خَصْمِه بمَلِك أجنبي ذي قوة وبأس؛ كما وَقَعَ لامرئ القيس الكِنْدِي حيث ذَهَبَ إلى قيصر الروم لِيَسْتَنْجِدَ به وَمَرَّ في مسيره إليه على حماة وشيزر، كما يشير إلى ذلك في قصيدة مطلعها:

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ ما كان أَقْصَرَا

يقول فيها:

تَقَطَّعَ أسباب اللبانة والهوى   عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حُمَاةَ وشَيْزَرَا
بكى صاحبي لما رَأَى الدرب دُونَهُ   وأيْقَنَ أنَّا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فقُلْتُ له لا تَبْكِ عيناك إنما   نحاول مُلْكًا أو نَمُوتُ فنُعْذَرَا

فكان كلامه فألًا على نفسه حيث مات بقُرْب أنقرة، ودُفِنَ في سَفْح جَبَل، يقال له عسيب، وقد أَنْشَدَ فيه حال مَرَضِهِ يُخَاطِب حمامة، فقال:

أَجَارَتَنَا إن الهموم تَنُوبُ   وإني مُقِيمٌ ما أقام عَسِيبُ
أَجَارَتَنَا إنا مُقِيمَانِ هَا هُنَا   وكُلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ

وقَدْ ثَبَتَ بالعقل والنقل تواترًا أن العرب أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة، ولسانهم أَتَمُّ الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني جَمْعًا وفَرْقًا، يَجْمَع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل إذا شاء المتكلم الجمع، والتمييز بين كل لفظتين مشتبهتين بلفظ آخر مُخْتَصَر، إلى غير ذلك، وهذا من خصائص اللسان العربي، فالعقل قاضٍ بفضل العرب، ولو أنهم كانوا قَبْلَ الإسلام لا يَشْتَغِلُون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب والمنطق ونحو ذلك، وإنما كان عِلْمُهُم ما سَمَحَتْ به قرائحهم من الشعر والخطب، وما حَفِظُوه من أنسابهم وأيامهم من التواريخ، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم ومعاشهم من الأنواء أو النجوم أو الحروب، فلما جاء الإسلام ونَقَلَهُم من حالة الجاهلية التي أحاطت بهم؛ زالت الريون عن قلوبهم، واستنار باطنهم بفطرة جديدة وفطنة نيرة سعيدة، فاجتمع لهم الكمال التامُّ والخير العامُّ بالقوة المتجددة فيهم، ودرجة الفضل العظيم؛ فلذلك كان بقاؤهم نورًا في الإسلام، وفناؤهم فَسادًا فيه.

«وقد رُوِيَ» عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا زَلَّت العرب زَلَّ الإسلام» فكيف وهم الذين فَتَحُوا بلاد الدنيا وأَعَزُّوها بالإسلام، ومَدَّنُوها بالعلوم وإن اتَّسَع فيها غيرهم؟ فلا بأس من كَوْنِهم بواسطة النظامات الملوكية العامة يَقْتَبِسون معارف الأعصر الجديدة ويزيدون عليها، فصيت تنعمات العرب قديمًا قد بَقِيَتْ مُخَلَّدَة الذِّكْر في جميع تواريخ أهل الدنيا، لا سيما أهل اليمن.

وقد أَطْنَبَ المؤرخون في عظم مدينة سبأ التي تُسَمَّى: مَأْرِبَ، وبينها وبَيْن صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، فهي بين مملكة اليمن ومملكة المسكت، وبسطوا الكلام على ما كانت عليه من الثروة والغنى وكثرة الخيرات المعدنية والنباتية، وأَنَّ مُلْكَهَا آلَ إلى بِلْقِيس التي قال الله تعالى في حقها: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، قال تعالى في حَقِّ أَهْل سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال المفسرون: المراد بالجنتين: جماعتان من الجنان، ولاتصال بعضها ببعض جَعَلَهَا جَنَّة، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى تكميل النعم عليهم، وقولُهُ: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بيان أيضًا لِكَمَال النعمة، فإن الشكر لا يُطْلَب إلا على النعمة المُعْتَبَرَة.

ثم لما بَيَّنَ تعالى حَالَهُم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم؛ أَتَمَّ بيان النعمة حيث بين أنه لا غائلة عليهم، ولا تَبِعَةَ في الدنيا فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: طاهرة عن المؤذيات، ثم قال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يعني: أن نِعْمَتَهُمْ كاملة حيث كانت لذة حالية خالية عن العقوبات الأخروية، فلا يَتَرَتَّبُ على تعاطيها عقاب من جانبه تعالى.

وأما ما كان من جانبهم فقد بَيَّنَه تعالى بقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الآية، فبَيَّنَ سبحانه وتعالى أنه انْتَقَمَ منهم بظلمهم بالإعراض؛ تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فَأَرْسَلَ عليهم للانتقام منهم سَيْلًا غَرَّقَ أموالهم، وخَرَّبَ دُورَهُم، فهذا كله ظاهر الدلالة على غِنَى اليمن وثروة أهاليها ورفاهيتهم، وتَنَعُّمِهِم في زَمَن سيدنا سليمان عليه السلام، وتَقَدُّمِهِم في الزراعة والتجارة والعمارة.

وفي سنة ستين ومائتين وألف من الهجرة اسْتَكْشَفَ مَنْ أُرْسِلَ من طرف الحكومة المصرية مَحِلَّ مدينة سبأ المسماة مَأْرِب، وَوَجَدَ رسومها وأطلالها بالحفر، فوجد ما يَدُلُّ على عِظَمِهَا، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ إلى أَنْ قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ المراد بالقرى المبارك فيها: قرى الشام، فإنها هي البقعة المباركة، ومعنى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: فَعَلْنَا بهم ما جَعَلْنَاهُم به مثلًا يقال: تَفَرَّقُوا أَيْدِي سبا، وعلى ذِكْرِ قُرَى الشام نَاسَبَ أن نَذْكُر هنا أَهْلَ سورية وهم أهل الشام في قديم الزمان، حيث سبقوا كثيرًا من الأمم في المنافع العمومية وفي الأسفار البحرية، والأمة التي اشتهرت منهم بذلك هي أهل صور وصِيدَا وبيروت،

فكانوا يُسَمَّوْن بالفنيكيين، وسيأتي بيانهم في الفصل الرابع، ومِمَّن اشتهر أيضًا بالأسفار البحرية الهنود.

وأما العرب فإنما كانوا يشتغلون بالتجارة في البر بالأخذ والعطاء مع أهل الشام، أو مع أهل اليمن فيما كَانَتْ تأتي به أهل سواحل الشام أو الهنود من بلادهم، فكانوا يَنْقِلُونه من البَرِّ إلى جميع مواطنهم، أو ينقلون بضائع مواطنهم إلى تلك البلاد للمعاوضات، إلى أن ظَهَرَ الإسلام واستولى على البحور والبرور، فَتَغَيَّرَتْ أحوال الترقيات في العلوم والمعارف.

وقد سَافَر النبي ﷺ إلى الشام في تجارته لخديجة رضي الله عنها بتجارة إلى مدينة بُصْرى بإقليم حوران، وسَبَب ذلك أن النبي ﷺ لما بَلَغَ خمسًا وعشرين سنة؛ قال له عَمُّه أبو طالب — لِيُرْشِدْه إلى التجارة والكسب: أنا رجل كثير العيال، قليل المال، اشْتَدَّ الزمان، وهذه عِيرُ قَوْمِك تخرج إلى الشام للتجارة وقد حَضَرَ، وإنها وخديجة بنت خويلد تَبْعَثُ رجالًا من قَوْمِك في تجارتها، فلو ذَهَبْتَ إليها وقُلْتَ لها في ذلك لَعَلَّهَا تَقْبَل، فبَلَغَ خديجةَ ذلك فأَرْسَلَتْ إليه ﷺ في هذا الشأن وقالت له: أُعْطِيكَ ضِعْف ما أُعْطِي رَجُلًا من قَوْمِك؛ لأنك الحبيب القريب، فقال له أبو طالب: هذا رِزْق سَاقَه الله إليك، فخَرَجَ رسول الله ﷺ بتجارة خديجة رضي الله تعالى عنها، وأَرْفَقَتْ معه غلامها مَيْسَرَة لِيُعِينَه، فساروا حتى دَخَلُوا الشام فنزلوا ببُصْرَة عند صَوْمَعَة بَحِيرا الراهب التي بجانب المدينة.

وكان النبي ﷺ قد نَزَلَ تحت شجرة رَعْرَعَتْ بنزوله تحتها، فخرج من الصومعة نَسْطُورَا الراهب وبِيَدِه صحيفة يَنْظُر فيها مَرَّة، وينظر في وجه النبي ﷺ مرة أخرى، فاجتمع عليه القوم فقال لهم: يا قوم، فوالذي رَفَعَ السماء بغير عَمَد ما نَزَل بي رَكْب هو أحب إليَّ مِنْكُم، وإني لأجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول الله رب العالمين وخاتم النبيين، من أَطَاعَه نَجَا، ومن عَصَاه غَوى، ثم أَقْبَلَ على النبي ﷺ وقال: إني لأرى فيك شيئًا ما رأيتُهُ في أحد من الناس، إني لأَحْسَبُكَ النبي الذي يَخْرُج من تهامة، ثم باع النبي ﷺ تجارته ورَبِحَ ضِعْفَ ما كانوا يربحون.

ثم رَجَعَ ﷺ إلى مكة وخَبَّرَ خديجة بِرِبْحِ التجارة فَسُرَّتْ بذلك، وكان ﷺ قد ظَهَرَتْ منه خوارق عَادَاتٍ إرهاصًا للنبوة؛ كتظليل الغمامة، فَأَخْبَرَهَا مَيْسَرَة بهذه العجائب وبما قال نَسْطُورَا الراهب، فأَضْعَفَتْ له ﷺ ضِعْفَ ما سَمَّتْ له، وكانت رضي الله عنها امرأة عاقلة شريفة في قَوْمِها مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وكانت كثيرة المال فكان رجال قَوْمِها يحرصون على زواجها، ولكن شَرَّفَهَا الله تعالى بزواج أشرف العالمين عَقِبَ التجارة الرابحة.

فما أحسن الأسفار التي أفادت المال، وعادَتْ على العامل وصاحب رأس المال بتحسين الأحوال، ونَتَجَ عنها نتائج جليلة أَعْقَبَتْ أهل البيت الطاهرين أبناء فاطمة الزهراء بنت خديجة الكبرى سيدة نساء العالمين، وهي أول من آمن به على الإطلاق، ويقال: إنه ﷺ سَافَرَ لخديجة قبل هذه السفرة سفرتين إلى اليمن، وثَبَتَ أيضًا أنه أَجَّرَ نَفْسَه قَبْل النبوة لِرَعْي الغنم، وكذا ثَبَتَ في حَقِّ غَيْره من الأنبياء كموسى، قيل: إن حِكْمَة ذلك أن رَاعِيَ الغنم التي هي أضعف البهائم يَسْكُن في قَلْبِه الرقة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قَدْ هُذِّبَ قبل ذلك، وأما رَعْي موسى عليه السلام لشعيب فإنه حَصَلَ أيضًا عَقِبَ السفر من مدينة عين شمس بمصر إلى مَدْيَن حين قَتَلَ القِبْطِيَّ ونَصَرَ الإسرائيلي وهَمَّ أهل مصر بِقَتْلِه، فقال له مؤمن آل فرعون: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فخرج يَطْلُب بلاد مَدْيَن بدون زاد ولا راحلة، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له في طريقه طَعَام إلا وَرَق الشجر حتى ورد ماء مدين، فكان ما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تَحْبِسَان أغنامهما؛ لأن على الماء من كان أَقْوَى منهما، فلا تَتَمَكَّنَان من السقي مع كراهة المزاحمة على الماء وخَوْف اختلاط أغنامهما بأغنام غيرهما، ومع التحفظ أيضًا بالاختلاط بالرجال، فقال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: نَنْتَظِر ما يَبْقَى من القوم من الماء بعد صُدُورهم عنه وانصرافهم، وقوله: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كناية عن الضعف، ودلالة على أنه لو كان قويًّا لَحَضَرَ، ولو حَضَرَ لم يَتَأَخَّر السقي، فعند ذلك سَقَى لهما موسى قَبْل صُدُور الرعاء، وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المُعْتَاد، وكان قد سَأَلَ عليه السلام القوم أن يَسْمَحُوا فسمحوا.

وقيل: إن القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تَعَمَّدُوا إلقاء حجر عظيم لا يقله ولا يَرْفَعُه إلا جماعة كثيرون على رأس البئر، فَرَفَعَه بالقوة على ضَعْفِه من الجوع وَسَقَى غنمهما، قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ لأنه سقى لهما في الشمس والحر، وفيه دلالة على كمال قوة موسى عليه السلام، وعلى أن أحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر؛ يعني: أن ما يُعَدُّ عَيْبًا في الحضر قد لا يُعَدُّ عَيْبًا في البادية؛ فلهذا ساغ لنبي الله شعيب أن يَرْضَى لابنتيه بسقي الماشية بدون أن يَقْدَح ذلك في حَقِّه بشيء حيث لا مَفْسَدَة في ذلك؛ لأن الدين لا يأباه في البدو ولا في الحضر ومروءة أهل البدو

لا تأباه، لا سيما إذا كانت الحالة حالة ضرورة؛ لأن الظاهر أنه لم يكن لشعيب عليه السلام مُعِين سواهما.

ولما كان موسى عليه السلام قد مَكَثَ مدة الطريق لم يَذُقْ طعامًا إلا بَقْل الأرض ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لأي شيء أَنْزَلْتَ إليَّ من خير قليل أو كثير غَثٍّ أو سمين ﴿فَقِيرٌ﴾ أي: سائل وطالب ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مُسْتَحْيِية قد اسْتَتَرَتْ بكم قميصها، ماشية على بُعْد، مائلة عن الرجال ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وذلك أن البنتين لَمَّا رَجَعَتَا إلى أبيهما قَبْل الناس قال: ما أَعْجَلَكُمَا؟ قالا: وَجَدْنا رجلًا صالحًا رَحِمَنَا فسقى لنا، فقد فَهِمَتَا من حاله أنه سقى أغنامهما؛ تَقَرُّبًا إلى الله تعالى، فَوَصَفَتَاه بالصلاح، فقال شعيب لإحداهما: اذهبي فادعيه لي، فأرسلها شعيب إلى موسى مع أنها شابة وهو شاب؛ لأنه عليه السلام كان قد عَلِمَ بالوحي، أو مِنْ حُسْن التربية طهارتها وبراءتها، فكان يَعْتَمِد عليها فَذَهَبَتْ إلى موسى عليه السلام مع الاحتياط والتورع، وامْتَثَلَ دعوة أبيها للتبرك برؤية ذلك الشيخ، لا طَلَبًا للأجرة، ورُوِيَ أنها لما قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ كَرِهَ ذلك.

وَلَمَّا قُدِّمَ إليه الطعام امْتَنَعَ وقال: إنا أَهْل بَيْت لا نَبِيع ديننا بدنيانا، ولا نَأْخُذ على المعروف ثمنًا، حتى قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل مَنْ يَنْزِل بِنَا، فَجَلَسَ موسى عليه السلام فَأَكَلَ بَعْدَ أَنْ قَصَّ عليه قِصَّتَه، فَذَكَرَ نَسَبَه إلى يَعْقُوبَ، وحكى جَمِيعَ أَمْرِهِ مِنْ لَدُنْ ولادته وأَمْر القبائل والمراضع والقَذْف في اليم وقَتْل القبطي وأنهم يَطْلُبُونَه لِيَقْتُلُوه؛ فلذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا سلطان لفرعون بِأَرْضِنَا، فَلَسْنَا في مَمْلَكَتِهِ، فَقَدْ أَسْكَنَ رَوْع موسى عليه السلام، وإن كان فرعون لِقُوَّتِه وبطشه وكثرة جنوده يُمْكِنُهُ أن يَتَسَلَّطَ على أَرْضِ مدين إذا قَصَدَ ذلك، إلا أن شعيبًا يَعْلَم أنه لا سبيل لفرعون على هذه الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى عَمَاه عنها وحَمَاها منه، فقالت ابنته الصغيرة — وكانت آنَسَتْ منه القوة بِرَفْع الحجر عن رَأْس البئر، واستسقائه بالدلو العظيم، وعَهِدَتْ فيه الأمانة حَيْثُ أَخَّرَها إلى خَلْفِه في السير معها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فَرَغِبَ فيه شعيب، فكانت ابنته من أَفْرَس الناس حين تَفَرَّسَت الأمانة في سيدنا موسى عليه السلام، قال شعيب: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي

ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ يعني: أن تكون لي أَجِيرًا تَرْعَى لي ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

فَتَزَوَّج موسى صفرا وهي الصغرى منهما، وطَلَبَ عَصًا فقال له: ادْخُل بَيْتِي؛ أي الذي يأوي فيه فَخُذْ عصاك، وكان فيها عِصِيٌّ كثيرة، فدخل موسى البيت وأَخَذَ من العِصِيِّ عَصًا حمراء، فقال له شعيب: هذه عَصَا الأنبياء انتقلت من آدَمَ إلى شيثَ ومنه إلى إدريس وإلى نوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، وكُلُّهُم تَوَكَّأَ عليها فلا تُخْرِجْهَا من يَدِكَ، ثم أوصاه وحَذَّرَه من أهل مَدْيَن وقال: إنهم قوم حسدة، وإذا رأوك قد كَفَيْتَنِي أَمْرَ غنمي حسدوني عليك، فَدَلُّوكَ على وادي كذا وكذا وهو كثير المرعى وإنما فيه حية عظيمة تَبْتَلِعُ الغنم، فإن دلوك عليه فلا تَمُرَّ به، فإني أخاف عليك وعلى غنمي، فخَرَج موسى بالغنم — وكانت يومئذ أربعين رأسًا — وقال في نَفْسِه: إن من أعظم الجهاد قَتْل هذه الحية وتَوَجَّه بالغنم إلى ذلك الوادي، فَلَمَّا قَارَبَهُ أَقْبَلَت الحية إلى الغنم فَقَتَلَهَا موسى، ورَعَى غَنَمَه إلى آخر النهار، وعَادَ إلى شعيب وأَعْلَمَهُ الخَبَرَ فَفَرِحَ بِقَتْلِها وفَرِحَ أَهْلُ مَدْيَن، وعَظَّمُوا موسى وأَجَلُّوه، وقام موسى بِغَنَمِ شعيب يَرْعَاهَا ويَسْقِيهَا حتى انْقَضَت المُدَّة التي بينهما، وبَلَغَت الغنم أربعمائة رَأْس، وَعَزَم موسى على المسير.

وقد وَرَدَ أنه لما رعى الغنم لم يَضْرِب واحدة منهن بعصاه، إنما كان يَهُش بها فقط، وكان لا يُجِيعُها ولا يُؤْذِيها بعطش، وجاء مرة إلى نَهْر لِيَسْقِيَها فَوَجَدَ فيها شَاةً عرجاء لا تَقْدِر على الوصول إلى الماء، فَحَمَلَها وَنَزَلَ بها فسقاها، فَلَمَّا رأى الحقُّ منه قُوَّةَ شَفَقَتِه على غَنَمِهِ بَعَثَهُ نبيًّا وكليمًا راعيًا لبني إسرائيل، وناجاه بالتوراة وغيرها كما يأتي، فَمَنْ رَحِمَ رَعِيَّتَه وشَفِقَ عليهم اصطفاه مِنْ بَيْن الخَلْق، ومَنْ لَمْ يَكُنْ عنده شَفَقَة ورحمة على خَلْق الله لا يَرْقَى المراقي العلية المسعدة.

ولما أراد موسى الانصراف بَكَى شعيب وقال: يا موسى، إني قَدْ كَبُرْتُ وضَعُفْتُ فلا تُضَيِّعْنِي مع كِبَرِ سِنِّي وكثرة حسادي، أَتَتْرُك غنمي شاردة لا راعيَ لها؟ قال موسى: إنها لا تَحْتَاج إلى راعٍ وقد طَالَتْ غيبتي عن أهلي، فقال شعيب: إني أَكْرَه أن أَمْنَعَكَ، وأوصاه على ابْنَتِهِ، وأوصاها أن لا تُخَالِفَهُ، وسار موسى عليه السلام بِأَهْلِهِ يريد مصر حتى بَلَغَ جانب وادي طُوًى في عَشِيَّة شديدة البرد، فأنزل موسى أَهْلَه وضَرَبَ خَيْمَتَه على حافة الوادي وأَدْخَلَ أَهْلَه فيها، وَهَطَلَت السماء بالمطر وكانت امرأته حاملًا فجاءها

الطلق، فَجَمَعَ حَطَبًا وقَدَحَ الزناد فَلَمْ يُورِ فَرَمَاهُ وخَرَجَ من الخيمة فرأى نارًا فقَال لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَأَمَرَهُ بِخَلْع نَعْلَيْه بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ الآية، فاكْتَسَبَ موسى عليه السلام النبوة في العود إلى مصر كما اكْتَسَبَ الزوجة الصالحة في الورود منها إلى مَدْيَن، فمَنَّ الله سبحانه وتعالى عليه في الأسفار بمراتب الأخيار والأبرار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فيا لها أسفارًا إلهامية أَسْفَرَتْ عن أسفار التوراة التي بَيَّنَتْ للناس جميع التواريخ من أيام الخليقة إلى زَمَن موسى، كما بَيَّنَتْ لِأُمَّتِهِ الأحكام والشرائع، وبَشَّرَتْ برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا شَكَّ أنه قد تَرَتَّبَ عليها ما لا يُحْصَى ولا يُحْصَر من المنافع مما كانت البلاد الشامية له من أعظم المنابع.

الفصل الرابع

في أن الصوريين وهم أهل سواحل بَرِّ الشام قَدَّمُوا في سالف الأزمان التجارة والعلوم البحرية على وجه نافع.

* * *

أهل سواحل الشام في القديم والحديث هُم أغنى أهل بلاد سورية، وكانوا يُسَمَّوْن في قديم الزمان الفنيكيين، وكانوا في سواحل البحر الأبيض الشامي، وكانت أَعْظَم مُدُنِهم مدينة صور، التي كانت تُسَمَّى في سالف الأزمان ملكة البحار، ويليها مدينة صيدا في شمالِيِّها، ثم مدينة بيروت، ولكون أرض السواحل كانت عقيمة لا يَخْرُج منها ما يكفي لمعيشة سُكَّانها؛ اضْطُرُّوا إلى تعليم الصنائع النافعة؛ لأن الضرورة هي الأصل الأصيل لاستفادة المعارف، فقد استفادوا بإمعان أفكارهم وتكرار تجاريبهم ووقوع أمور اتفاقية بالمصادفة معرفةَ كَثِيرٍ من المنافع، انضمت إلى الصنائع.

وقد عَرَفُوا من الأزمنة الخالية أن رُكُوب البحر يُوصِلُهم إلى التجارات، وأَعَانَهُم على ذلك كَوْنُهُم ساحلية وبمجاورة جَبَل لبنان الكثير الغابات والأخشاب، فاسْتَسْهَلُوا ركوب البحر المالح مع ما يَعْهَدُون فيه من الأخطار ببلوغ الأوطار، مع أن السفر كما في الحديث النبوي: قطعة من العذاب، إلا أن البركات مع الحركات.

وفي التوراة مكتوب: ابن آدم، أَحْدِثْ سَفَرًا أُحْدِثْ لَكَ رِزْقًا، قال الشاعر:

بلاد الله واسعة الفضاءِ ... ورِزْقُ الله في الدنيا فَسِيحُ
فَقُلْ للقاعدين على هَوَانٍ ... إذا ضاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيحُوا

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

تَغَرَّبْ عن الأوطان في طَلَبِ العُلَا وسافِرْ ففي الأَسْفَار خَمْس فَوَائِدِ
تَفَرُّج هَمٍّ واكتسابُ مَعِيشَةٍ وعِلْمٌ وآدابٌ وصُحْبَةُ مَاجِدِ

ولم يكن لهم دليلٌ في البحر إلا نجمة القطب؛ لأن البُصْلة التي هي بَيْت الإبرة لم تَكُن تُعْرَف عند الأقدمين، وإنما صار اسْتِكْشَافُهَا في الأعصر الجديدة؛ يعني: في آخِرِ القرن السابع من الهجرة اسْتَكْشَفَ صناعتها وخاصِّيَّتَها العرب، فهي من اختراعاتهم المفيدة لعموم الناس، وليست من اختراعات الإفرنج، ولا اطَّلَعَ عليها العرب عِنْد أهل الصين إذ كانت عندهم معلومة من أزمان قديمة، وهي حَقٌّ مشتمل على إبرة مسقية بالمغناطيس، تَتَّجِه دائمًا صوب الشمال، يَهْتَدي بها الملاحون صَوْب مَقْصُودِهِم، كما يهتدون بالنجم الذي أَنْعَمَ الله به على عباده، قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ إلى آخره، والاهتداء بالنجم الذي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش عامٌّ في البر والبحر، ولو أنه ذُكِرَ بمَعْرِض البحر، وكما يهتدي المسافر بالنجم في البحر والبر في الأسفار يهتدي به أيضًا في تَحَرِّي القبلة إذا عُمِّيَتْ عليه، وكذلك بيت الإبرة مما تُحَرَّر به القبلة.

فاختراع العرب للبُصْلة من المنافع العمومية المتأخرة التي كان لا يعرفها المتقدمون، ومع ذلك فاهتدوا كغيرهم بالنجم، وَوَصَلُوا إلى الأقطار القاصية كالصوريين الذي نحن بصددهم، وذلك أنه لما ظَهَرَ الإسلام واستولى العرب بالفتوحات على ممالك الدنيا برًّا وبحرًا؛ تأهلوا لقبول التمدن الذي كانت آثاره لم تَزَلْ موجودة في الدنيا عقب انقراض دولة الروم، فتَصَدَّوْا للأسفار البحرية، وأظهروا الحروب وفازوا بظفر الفتوح، وكانوا كالرومانيين في مبدأ أَمْرِهم، فركبوا السفن، وجَنَّدُوا الجنود، وشَنُّوا الغارات، واستداموا في الأزمان والأماكن على تَجَشُّم الأخطار واقتحام البحار؛ للتمتع بالتجارة، واخترعوا بيت الإبرة التي أعانت على الأسفار، فكانت تجارتهم في القرن الثالث في الأقطار المشرقية تنمو وتزيد في البحر المتوسط، وقد لاحت أعلام الخلفاء على بحر الهند، فتَصَدَّى تجار العرب للتجارة في جميع البلاد، فامْتَدَّتْ تجارتهم إلى جبل طارق ومِثْلُهم تجار الفرس، وجسمت معاملتهم التجارية في الهند والصين، وصار لهم مراكز تجارية في تلك الأقاليم، حتى إن من العرب من أقام في جزيرة سيلان وفي المدن الهندية والصينية، وانتشروا في

أماكن عديدة، وفي عهد الدولة العباسية تَهَذَّبَتْ العلوم وحَسُن التمدن وأُسِّسَت القصبات الجديدة على نَهْر الدجلة، وانتظم أمر التجارة وصارت المراكب الغربية الخفيفة تَجُول في البلدان وتسير إلى جزائر الهند وبوغاز ملقة، فكانت تجارتهم في كل جهة وكل مكان، وكانت المراكب الكبيرة تتوجه إلى جهة سيراف في بحر العجم، وكَثُرَت السياحات العربية في سائر البلاد البرية، فارْتَفَعَ شأن التجارة عند العرب حتى كانت أَعْظَم شيء يُشْتَغَل به في إصلاح المعاش، وتأسس في أمور التجارة أصول في أيام الخلافة المشرقية والمغربية، وعقدت المعاهدات مع الدول الأجنبية الأوروباوية في شأن الملاحة ببلادهم؛ لحسن استقامة أهل الإسلام في المدن الأجنبية لا سيما مع الممالك التي على البحر، واستمر الأمر على ذلك حتى حَصَلَ حَرْب أهل الصليب فَأَضْعَفَ ذلك، فلما انْتَهَت الحروب الجسيمة بين الإسلام والإفرنج عَادَت التجارة بين الطرفين على حالها، ومن المعلوم أن التجارة في أيام الخلفاء أَعْلَتْ أحوال الصنائع كلها عند العرب، وصار جلب المصنوعات العربية من مصانعها إلى أطراف الدنيا جميعها.

ومن المصنوعات النفيسة التي سَبَقَ بها العرب غَيْرَهم صناعات الساعات؛ كالساعة التي أهداها الرشيد إلى كَرْلُوس الأكبر ملك الإفرنج، فكانت إذ ذاك من نوادر العصر، وأما المصنوعات النفيسة المكملة الصنعة المخترعة للعرب فقد بَقِيَتْ شهرتها إلى الآن؛ كالأقمشة الموصلية والسيوف الدمشقية، وهذا غير اختراع ما لا يُحْصَى من العلوم والفنون، ثم كَبَا بهم جواد الاختراعات، وخَبَا منهم زِناد الابتداعات، وصاروا كما قيل:

رُبَّ قوم رَتَعُوا في نعمة زمنًا والعيش رَيَّان غَدِقْ
سَكَتَ الدهر زَمَانًا عَنْهُمُ ثم أَبْكَاهم دَمًا حِينَ نَطَقْ

ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظَهَرَ له أنها لا تَخْلُو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بَوَّبُوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة والمضارَبة والقرض والمخابَرة والعارية والصلح وغير ذلك، ولا شك أن قوانين المعاملات الأوروباوية اسْتُنْبِطَتْ منها؛ كالسفتجة التي عليها مبنى معاملات أوروبا، ولَمْ تَزَلْ كُتُب الأحكام الشرعية إلى الآن تُتْلَى وتُطَبَّق على الحوادث والنوازل عِلْمًا لا عَمَلًا كما ينبغي، وإنما مخالطات تُجَّار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أَنْعَشَتْ نَوْعًا هِمَمَ هؤلاء المشارقة، وجَدَّدَتْ فيهم وَازِعَ الحركة التجارية، وتَرَتَّبَ على ذلك نَوْعُ انتظام، حيث تُرَتَّب الآن في المدن الإسلامية مجالسُ تجارية مختلطة لفصل الدعاوى

والمرافعات بين الأهالي والأجانب بقوانين في الغالب أوروبية، مع أن المعاملات الفقهية لو انْتَظَمَتْ وجرى عليها العمل لما أَخَلَّتْ بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل العمل على من وَفَّقَه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين، ولكل مجتهد نصيب، لا سيما في هذه الأزمان التي تَكَامَلَتْ فيها الأسباب، وتَطَبَّقَتْ على المسببات، فشتان بين هذا العهد وعهد الصوريين الذين زاولوا في التجارة الأخطار وركوب البحار، فاقتحموا المشاقَّ في تلك الأزمان، فاتَّسَعَتْ تجارتهم على وجه عجيب حتى عُمِّرَت بلادهم بالمنافع العمومية، بل خرج منها قبائل عَمَّرَتْ جزيرتي قبرس ورودس وجزيرتي صقلية وسردانيا، ووصلوا أيضًا إلى بلاد الأندلس، بل دخلوا البحر المحيط الغربي، فصارت مدينة قادس مركز تجارتهم، وكانوا يستخرجون من مملكة إسبانيا المكاسب العظيمة والمغانم الجسيمة لكثرة معادنها، فنالوا أغراضهم بمنافع بَحْرَي العرب والعجم حتى انفردوا في تلك الأعصر بفوائد التجارات، وكانوا مختصين بمنافع البحرَيْن المذكورَيْن، يَمْنَعُون مَنْ سواهم من إجراء التجارة فيهما، كما انْفَرَدَ أهل الهند زمنًا طويلًا بالانتفاع بهما، وبجلب منافع الهند النفيسة إلى سواحل بلاد العرب، ولما كَثُرَت عند الصوريين الفضة واستثقلوا حَمْلَها في بعض الأسفار اتخذوا منها هلوبًا لِسُفُنِهم بدلًا عن الرصاص؛ ليكون حَمْلُها في السفن لمنفعتين.

وبالجملة: فبكثرة الأسفار والتجارات انتفعوا بمنافع غَيْرِهم ونفائسهم، وكانوا يبالغون في كتم أسفارهم البحرية وعَدَم تعريف الطرق والمسالك؛ مخافة أن يُزَاحِمَهُم غيرهم في اكتساب هذه المنافع، فكانوا دائمًا يَجْتَهِدُون في أن وَطَنَهم يُخْتَصُّ بالتجارة والملاحة، ويجعلون ذلك من الحقوق الخصوصية والمزايا الاحتكارية التي لا رخصة فيها للأغراب، وليس هذا التحكير كان خاصًّا بدولة الصوريين، بل كان أصلًا لجميع الدول السالفة كلٌّ فيما يَخُصُّه، ويَظُنُّ أن له الحق في أولوية الانتفاع به، وإنما دولة الصوريين كانت في تلك الأزمان ملكة البحار خبيرة بالمسالك والممالك، فكانت مستحوِذة بالفعل على التجارات، وكان غَيْرُها من الأمم إذ ذاك مَعْرِفَتُهُمْ بمسالك البحر قليلة جدًّا، فكانوا يحرصون على أن لا يُدِلُّوا أحدًا عليها.

فقد حكى بعض المؤرخين: أن الصوريين كانوا يسافرون إلى جزائر بَحْر الإنكليز المسماة جزائر القزدير؛ لاستخراج معادن القزدير والرصاص منها، وأن أحد الصوريين ذَهَبَ في سفرة إلى تلك الجزائر القزديرية التي لم تَكُنْ معلومة إلا للصوريين دون غَيْرِهم، فَلَمَحَ أن وراء سَفِينَتِهِ سفينة أخرى رومانية ترود هذه السكة وتَتَعَرَّفُها، فاختار

الصوري أن يَقْذِف سَفِينَتَه على رصيف هناك لتغرق ويهلك أهلها وتغرق السفينة الأخرى بجانبها، فَفَعَلَ ذلك حتى لا تَقْفُو السفينة الأجنبية أَثَرَهُ، فأَتْلَفَ سفينة نَفْسِه وغيره، واجتهد في أن يَنْجُو بنفسه فَنَجَا وذَهَبَ إلى أهل صور في نحو قطيرة، فكافئوه على ذلك مكافأة عظيمة، وجَبَرُوا خَسَارَتَهُ، وأَغْدَقُوا عليه بالأنعام، وأَكْرَمُوه غاية الإكرام جزاءً لما صَنَعَهُ لمصلحة الوطن الصوري، فَبَعْدَ أن كان لِسَان حاله يُنْشِدُ بحسرة:

إذا نحن أُبْنَا سَالِمِينَ بِأَنْفُسٍ كِرَامٍ رَجَتْ أمرًا فَخَابَ رَجَاؤُهَا
فأنفسنا خَيْرُ الغنائم أَنَّهَا تَئُوب وفيها ماؤها وحياؤها

عاد يُنْشِدُ بِمَسَرَّة:

كم فُرْجةٍ مَطْوِيَّةٍ لَكَ بَيْنَ أبناء النوائبْ
ومَسَرَّةٍ قد أَقْبَلَتْ مِنْ حَيْثُ تُنْتَظَرُ الْمَصَائِبْ

فكان أهالي السواحل الشامية لهم في الوطن مَحَبَّة مستولية على الطباع، مستدعية لشدة الحرص على ثروته وشفاء الأطماع.

ومن أخبار حُبِّ الوطن وأنبائه من أهل الشام لا سيما للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أن يوسف عليه السلام وصَّى بأن يُحْمَل تابوته إلى مقابر آبائه، ومما يُؤْثَر عن الصوريين ما ذَكَرَه المؤرخون: أن الملك نخوس بن أبسميتكوس أَمَر جماعة من الصوريين البحريين أن يكشفوا له حدود أفريقيا بأسرها، فساروا من بحر القلزم ثلاث سنين حتى طافوا حول أفريقيا واستكشفوا أطرافها وعادوا في آخر السنة الثالثة من البحر الأبيض الشامي، ودخلوا مصر من مَصَبِّ النيل، وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بنحو ثمانية قرون، وهو من أعجب ما وقع من الصوريين حيث استكشفوا سواحل أفريقيا، ولا بد أنهم مَرُّوا برأس عشم الخير خصوصًا في زمان كان سير السفن فيه في وسط تلك البحار يكاد أن يكون مستحيلًا، مع أنه لم يَسْتَكْشِفْه البورتغاليون إلا في آخر القرن التاسع من الهجرة، وسَمَّوْه رأس عشم الخير تفاؤلًا، وإلا فهو رأس التلاقيح، ومع استكشافهم له فلم يَمُرُّوا عليه في سياحاتهم البحرية إلا بعد خمس عشرة سنة.

ولما أَرْسَل البرتغاليون أناسًا من أهاليهم في هذا الإقليم للإقامة به، ولإدخاله في أملاكهم الخارجية؛ أَخَذَهُ منهم الإنكليز واسْتَوْلَوْا عليه، فمن ذلك الوقت صار هذا الإقليم

نافعًا للإنكليز في سلوك طريق الهند ذهابًا وإيابًا، وأَهْلُه ما بَيْن سُود وبِيض على التناصف في قَبْضَة الإنكليز، فقد أَسَّسُوا على هذا الرأس مدينة إنكليزية تُسَمَّى مدينة الكاب، وهي أبعد مدينة إفريقية جهة الجنوب، ترسي عليها جميع السفن الذاهبة إلى الهند والحاضرة منه.

ومن سياحة الصوريين في أفريقيا بِأَمْر ملك مصر يُسْتَنْتَج نتيجتان عظيمتان، يُسْتَدَلُّ منهما على تَقَدُّم دولتين عظيمتين، وهما دولة مصر الآمِرة بهذه السياحة العظيمة، وهي مشروع جسيم في الإعانة على المنافع العمومية، لا يَخْطر إلا بخاطر دولة متمدنة محبة للتقدم العجيب، ودولة مأمورة ذات ملاحة وسياحة بحرية، ذات سفن عظيمة، تقتحم أخطار البحار، وتبحث عن المنافع العامة في شاسع الأقطار، وكلٌّ يدل على أن هاتين الدولتين كان عندهما في تقديم المنافع إعمال الأفكار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

ثم إن الصوريين هم أَوَّل من اسْتَكْشَف الصباغة باللون الأحمر الأرجواني، الذي كانت تَتَّخِذُ الأمراء من مصنوعاته الحُلَل والثياب والمضارب والقباب، وكان استخراجهم لهذا اللون المجهول عندهم من الصدفة والاتفاق، وذلك أن بعض رُعَاتهم رأى كلبًا جائعًا كَسَرَ محارة من صدف البحر فَأَكَلَها فَتَلَوَّن حنكه باللون الأحمر الأرجواني، فأعجبهم ذلك اللون البهيج، فاستخرجوا من المحار هذه الصبغة وصبغوا بها الأقمشة حتى أَتْقَنُوا صبغتها، فصار هذا اللون بعد مدةٍ زينةً للملوك في ذلك العهد لا سيما لملوك مصر، وكثيرًا ما تكون الاتفاقيات سببًا في اختراع الصنائع وتكثير المنافع، ومن جملة ما اخترعه الصوريون مما أَوْرَثَهُم الشهرة فَنَّ الكتابة؛ حيث اخترعوا حروف الهجاء المستخرَج منها الحروف الإفرنكية.

وأول مَنْ نَقَلَ حروف الهجاء من الصوريين اليونانُ، ومن كتابة اليونان القديمة اسْتَخْرَج اللاطينيون حروفهم الهجائية، ومنهم استخرج جميع أهالي أوروبا حروفهم، فهذه الحروف القليلة وَصَّلَتْ الأمم إلى معرفة العلوم، فكانت آلات لجميعها، فهي في الحقيقة تُعَدُّ من مآثر الصوريين، وهذا إما إلهام رَبَّانِيٌّ لبعض أنبيائهم على أن الواضع هو الله سبحانه وتعالى، فإن كانت هذه الحروف الصورية من وضع البشر فالأفعال كلها لله، ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وعلى كل حال فهي آثار نافعة:

تِلْكَ آثارنا تَدُلُّ عَلَيْنَا فانْظُروا بَعْدَنَا إلى الآثارِ

وقال آخر:

ليس الفتى بفتًى لا يُسْتَضَاء بِهِ ولا يكون له في الأرض آثَارُ

وهذا القول ينبغي أن يكون بالنسبة لحروف الهجاء التي تَأَسَّسَ عليها خط أمم أوروبا، وإلا فالكتابة قديمة بدليل صُحُف شيث ونَحْوِها، بل هي داخلة في تعليم آدم الأسماء، ومما يَدُلُّ على ذلك الحروف الأبجدية التي لها خواصُّ وأسرارٌ إلهية، فلا شك في قِدَمِهَا وأنها ليست من مَحْض وَضْع البشر، فإن هذا لا يُسَلِّمُه العقل السليم، وعلى كل حال فإن كانت الكتابة المخصوصة من اختراع الصوريين، وأنهم أول مَنْ كَتَبَ بالقلم في بلادهم وبين أممهم، وانتقل منهم إلى اليونان فَلَهُمْ فَضْل لا يُنْكَر، فإن الكتابة في حَدِّ ذاتها من الفضائل الأولية، وفَضْل الكُتَّاب دائمًا متداول على ألسنة ذوي الألباب، قالوا: الكُتَّاب سياسة الملك وعِمَاده، وأركان السلطان وأطواده، بأقلامهم تُبْسَط الأرزاق، وتُبَيَّض الآمال، وبها تُصَان المَعَاقل إذا عَجَزَتْ عن صَوْنِها الرجال، وقالوا: الكاتب مَالِك المُلْك، يَصْرِفُه بِقَلَمِ الإنشاء كيف يشاء، وقالوا: لو أن في الصناعات صنعة مربوبة لكانت الكتابة رَبًّا لكل صناعة، وقالوا: الكُتَّاب قُطْب الأدب، وفَلَك الحكمة، ولسان ناطق بالفضل، وميزان يَدُلُّ على رجاحة العقل، وبالكتابة والكُتَّاب قامت الرياسة والسياسة، وإليهم ألقي تدبير الأعنة والأزمة، وعليهم يعتمدون في حصر الأموال، وانتظام شتات الأحوال، وما مُدِحُوا بأَحْسَنَ مِن قَوْل القائل.

قومٌ إذا أخذوا الأقلام مِن قصبٍ ثم استمدُّوا بها ماء المنيَّاتِ
نالوا بها مِنْ أَعَادِيهم وإنْ بَعُدُوا ما لا يُنَالُ بِحَدِّ المشرفيَّاتِ

ومن قول الآخر:

قومٌ إذا خافوا عداوةَ بينهم سَفَكُوا الدِّمَا بأسنَّة الأقلامِ
ولَضَرْبَة من كاتبٍ بِلِسَانه أَمْضَى وأَنْفَذ من رقيق حُسامِ

(مفرد في المعنى)

له يَرَاعٌ سعيدٌ في تقلُّبه　　　إن خطَّ خطًّا أطاعَتْهُ المقاديرُ

وقال ابن المقفع: «الملوك أحوج إلى الكُتَّاب من الكُتَّاب إلى الملوك، ومن فَضْل الكتابة أن صاحب السيف يُزَاحم الكاتب في قَلَمِه، ولا يزاحِمُه الكاتب في سَيْفه.» ورسالة المفاخرة بين السيف والقلم مشهورة، منها لابن الرومي في تَفْضِيل القلم على السيف:

إن يَخْدِم القلمُ السَّيف الذي خَضَعَتْ　　　له الرِّقابُ ودانت خَوْفَه الأُمَمُ
فالموت، والموتُ لا شيءَ يُعَادِلُه　　　ما زال يَتْبَع ما يَجْري به القَلَمُ

ومن مُوجَز البلاغات في المكاتَبات، ما كتبه يزيد بن عبد الملك إلى مروان بن محمد، وقد بَلَغَه تَلَكُّؤُه عليه في بيعته: «أما بعد، فإني أراك تُقَدِّم رِجلًا وتؤخِّر أخرى، فما تدري أيهما أحرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شِئْتَ.»

ويَقْرُب منه ما كَتَبَهُ بعض الملوك إلى قرا أرسلان — وقد بغى عليه: «الذي تعلم به قرا أرسلان أنَّا نحن نزلنا بغداد صباحًا فساء صباح المنذرين، فأَمَرْنَا أَهْلَها بالدخول تَحْت طاعتنا والخروج عن معصيتنا فأَبَوْا، فحَقَّ عليها القول فدمَّرْناها تدميرًا، فإن كُنْتَ ممن يَدْخُل تحت طاعتِنا ويخرج عن معصيتنا، فروح وريحان وجنة نعيم، وإن كُنْتَ إلا كالحافر لقتله بظلفه، والجادع لمارن أنفه بِكَفِّه، فسوف نُلْحِقُكَ بالأخسرين أعمالًا، الذين ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»، فرجع لوقته.

ومع كثرة معارف الصوريين، واتساع تجارتهم برًّا وبحرًا، فكانوا عَبَدَة أوثان، وأهل بدع وأوهام، فمن بِدَعِهم الفاسدة أنهم كانوا يُقَرِّبون الآدميين قربانًا لآلهتهم، وهذه العادة، وإن كانت بَشِعَة في حد ذاتها، وواقعة في كثير من أقاليم الأرض عند الأمم المتبربرة، إلا أنها أَقْبَح عند الصوريين لتمدنهم.

ويقال: إن مملكة صيدا كانت ملك الفنيكيين، يعني أهل السواحل الشامية، ثم نَشَأَت مدينة صور المذكورة، وصارت عامرة جدًّا، وهي التي كانت مَنْبَعًا للمنافع العمومية، وقد ذَهَبَ منها جماعة إلى بلاد المغرب، فأسَّسوا مدينة قرطاجنة، وعَمَرُوها، وجَعَلُوها مملكة عظيمة، قبل الميلاد بثمانمائة وتسعين سنة.

وسبب مهاجرة الصوريين إلى بلاد المغرب، أنه كان في سواحل الشام على بلاد الصوريين مَلِك ظَلُوم غَشُوم، يُسَمَّى «بغماليون»، كان من الجبارين، وكان له أخت

تُسَمَّى «ديدون»، متزوجة بأمير يُقَال له «سيشة»، فقَتَلَه ذلك الملك لقَصْد سَلْب أمواله، فجمعت «ديدون» ما عند زوجها من الأموال، وجميع ما في خزائنه، وفَرَّت إلى أفريقية بالمغرب، وأَسَّسَتْ هناك مدينة قرطاجنة، فعَمَرَتْ هذه المدينة حتى فاقت في الغنى والثروة والبطش والقوة مملكة الصوريين، وصارت فيما بعد مُقَارِنَة لرومية دار سلطنة الرومانيين، وفيما بعد اشتدت العداوة بين المملكتين، كما تَقَدَّم ذِكْره في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.

ثم انتهى أَمْر الصوريين بعد العز والطنطنة، أن صاروا رعايا للعجم واليونان والرومانيين، إلى أن صار فتح العرب بلادهم بالإسلام بفتوح الشام، وقد أسلفنا في أثناء الكلام على الصوريين بعض شيء في حق تَقَدُّم العرب بما ناسب المقام.

الباب الثالث

في تطبيق أقسام المنافع العمومية في الأزمان الأولية على مصر المحمية، وأنها كانت من التمدن والتقدم بمكانة علية؛ وفيه فصول.

الفصل الأول

في تَقَدُّم مصر وغناها في عدة أزمان سابقة وأدوار متناسقة وحيازتها للمنافع العمومية بوجه إجمالي.

* * *

المتبادر لآراء أرباب العقول الذكية أن أعظم البلاد الساحلية قابلية للتقدم في المنافع العمومية هو الديار المصرية، وأنه لم يَتَقَدَّم على سواحل البحر الأبيض مثل بلاد مصر فيما يَخُص الزراعة والصناعة، وأنها كانت أشغالها وعملياتها مُتَقَدِّمة تَقَدُّمًا عظيمًا، وأن حركة المنافع العمومية فيها كانت على غاية ما يمكن من النشاط والإتقان، فإن صعيدها الأعلى الذي هو الوجه القبلي مع اتساع أراضيه لا يَبْعُد من النيل إلا مسافة أميال أقاليمها بالوجه البحري، يقسمها النيل إلى عدة فروع؛ ففي كلا الوجهين يمكن بمساعدة اليد الصناعية والعملية توصيل متاعها ومحصولها من بعض المدن الكبيرة إلى بعض، كما يمكن نَقْلُها إلى القرى والكفور من قرية إلى أخرى، ومن ضيعة إلى أخرى، أو إلى مدينة وهكذا، وهذا بأقل المصارف، ويسير الكُلْفة برًّا وبحرًا.

ومن المعلوم أن نِيلَ مصر واسع جدًّا، يَسْهل فيه سَيْر السفن في داخل البلاد بعضها مع بعض، فالظاهر أنه أَقْوَى سبب في كون الديار المصرية اكْتَسَبَتْ قبل غيرها من الممالك في الأزمان الخالية صفة الثروة والغنى، وتَقَدَّمَتْ في المنافع العمومية، وتَمَكَّنَتْ في منقبة التمدنية كما دَلَّتْ عليه التواريخ، فكان تَمَدُّنها تمدنًا رفيعًا مُتَّسِع الدوائر فيما يَخُص الصنائع، مستوفيًا للغنى، مُسْتَوْعِبًا للمتانة وعُلُوِّ المكانة، كما يَشْهَد لذلك ما يُوجَد في صعيد مصر من المباني التي لم تَزَلْ قائمة على ساقها إلى الآن، فَلَيْسَ أَعْدَل من شهادة مدينة طيوة ذات المائة باب، فَإِنَّ في رسومها القديمة وآثارها الجسيمة ما يَعْجَبُ منه

أولو الألباب، وقد تَوَصَّل السواحون إلى الوقوف على ما فيها تَحْتَ الأرض من المدافن والقبور، وقرءوا تاريخ بنائها الأزلي، فوجدوها قد مَرَّ عليها خمسة وعشرون قَرْنًا قَبْل الميلاد ولم تُغَيِّرْها العصور والدهور، وقد اسْتُخْرِج في هذه الأيام بالنبش في مَعْبَد قديم بمملكة نابولي — إحدى ممالك إيطاليا — سِتَّةُ أعمدة من المصنوعات المصرية المنحوتة من الصوان الأحمر، منها أربعة كبار، طُول العمود أربعة أمتار وثُلُث مِتْر، وقُطْر محيطه اثنا عشر سنتيمترًا، ويُعْلَم من ارتفاعها وتَنَاسُب سَمْكِها وبَرِيق لَوْنِها أن صُنْعَها بهذه المثابة كان في عَصْر موجود به فَنُّ نَحْت الأحجار بمصر، وأن مصر إذ ذاك كان لها التقدم في هذه الصناعة من أحقاب خالية، وأما العمودان الآخران فصغيران، ولكل منهما قاعدة من نَوْع الطبخ المُذَهَّب وإكليل غريب الشكل، وَقَدْ بِيعَتْ هذه الأعمدة في باريس بأربعين ألف فرنك في المزاد، ولا شَكَّ أن استخراج هذه الأعمدة كان من مَحَاجِر مِصْر، ونَقْلُها إلى بلاد الرومان، وَوَضْعُها في معابدها القديمة، ثم استخراجها الآن بعد مرور نحو الألف سنة وهي على حالة حسنة، ومَبيعها بهذا المبلغ؛ يَدُلُّ على كمال صناعتها وقوة مادتها، فمثل هذه الأعمدة الغريبة، والمباني العجيبة الحسنة النقش، المختلفة الألوان البهجة، المكتوبة بالأقلام القديمة المصرية تَنْطِقُ بلسان حالها بِتَقَدُّم مملكة مصر في درجة التمدن، ولكن لا يُفْصِح لسان مقالها عن حقيقة الحوادث الداخلية التي أَوْجَبَتْ هذه الرموز التصويرية، ونهاية الحال أن ما هو منقوش عليها من التاريخ لبنائها يفيد قوة مَلِك مصر، الذي حَصَلَتْ هذه المباني في أيام سَلْطَنَتِهِ، وأن في أيامه كانت المعارف بالآلات والأدوات عجيبة، وهذا كله يَدُلُّ على شوكة هذه الدولة، وتَقَدُّمها في الصناعة والمهارة، ويستفاد أيضًا من هذه الكتابات القديمة أن هذا المَلْك العظيم سَارَ بِجَيْش جَرَّار عِدَّة مرات إلى أقاصي الممالك، وانتصر فيها النصرات العظيمة، وفَتَحَ الفتوحات الجسيمة، وبَلَغَ مُنَاه وشفى غليله مِنْ عِدَاه، وزاد فَخارًا على فَخَارِه، واتسعت دائرة عُلُوِّ قَدْره واعتباره.

وهذه الحروب كانت كما يُفْهَم من النقوش والرسوم مع سلطان عظيم، صاحب شوكة قوية، وارتفاع شأن معلوم، وهو سلطان بابل العراق، الذي لا يوازيه في القوة والشوكة من ملوك ذلك العصر إلا ملك مصر، الذي كان بينه وبين ذلك المَلِك الشقاق والوفاق، فإن في ذلك الزمن المعهود كان أشهر مدن الدنيا مدينتين متسابقتين في ميدان الفَخار، ومتنافستين في كَسْب الاعتبار، وهما مصر وبابل.

وقد دَلَّ أَقْدَم التواريخ على أنهما كانتا دون غيرهما سلطنتين عظيمتين، ودولتين بالحدود متجاورتين، تميزهما الحدود الطبيعية؛ كالبحر المالح والنيل، وأن غيرهما من الممالك ليس من هذا القبيل، فكان لمصر مَمْلَكة الغرب مُخَلَّدة، ولبابل مَمْلَكة الشرق مُؤَبَّدة، وبين مملكتي الشرق والغرب تارة الصلح وتارة الحرب، وجميع من كان من الأمراء والملوك له عنوان الملوكية والحكومة، فإنما كان بالنيابة والفرعية عن هذه الجرثومة، وكانتا من أَجَلِّ الممالك المعتبَرة بما اشتهرتا به من عجائب السحر وغرائب السحرة، وناهيك بمن تَعَلَّم السحر من هاروت وماروت، وحسبك ما جَمَعَهُ فرعون لموسى من المدائن من كل سحار عليم؛ لِنُصْرة الطاغوت، وبهذا كان لهم الولاء التام على مَنْ جَاوَرَهُمَا من الملوك والحُكَّام، وكان بين المملكتين كمال الالتئام ووثوق العَهْد الذي لا يَعْتَرِيه نقض ولا إبرام، وبَقِيَ هذا الوصف الجليل إلى أيام حَرْب تروادة كما ذَكَرَهُ أميروس الشاعر، فقد نَصَّ على أنه كان في أيامه بينهما الصلح الكامل، ثم استبان مما ذَكَرَهُ المؤرخون أنه عَرَضَ لهما في آخر القرن الثامن قَبْل الميلاد ما يَطْرَأُ على الممالك من التمزيق، فَضَعُفَتْ مَمْلَكَة مصر وتَمَزَّقَتْ مَمْلَكة العراق، فسبحان مُقَسِّم الأرزاق ومالك الآفاق!

ومن المعلوم أن الذي أَسَّسَ بابل هو النمروذ الذي هو ابن حفيد سيدنا نوح عليه السلام كما هو نَصُّ التوراة، وأما مؤرخو اليونان والرومان فقد نَسَبُوا تأسيس مدينة بابل إلى سميراميس زوجة مِينُون أحد عساكر مَلِك بابل المسماة هذه الملكة سمير في التواريخ المشرقية، وبيان ذلك أن مملكة بابل كان يجاورها في قديم الزمان مملكة أثور؛ يعني: بلاد الكردستان، مدينة نينوى؛ يعني: مدينة سيدنا يونس عليه السلام، بناها المَلِك أثور ثم حَسَّنَها الملك نينوس، فكانت مدينة عظيمة في طول ثمانية فراسخ ونصف، لا يطوف السائر حولها بمحيطها إلا في نحو ثلاثين ساعة، وكان ارتفاع سُورِها الخارج عنها مائة قدم، واتساع جدار الأسوار عريض بحيث يسير فَوْقَه ثلاث عجلات بعضها في جانب بعض ولو مع غاية السرعة، وكانت مدينةً حصينةً وفي داخلها خمسة عشر بُرْجًا، ارتفاع البُرْج مائتا قدم، ولما تَزَوَّجَتْ سميراميس نينوس ملك مدينة نينوى التي كانت إذ ذاك تَحْت كل من مملكة العراق ومملكة الكردستان اللتين صارتا كالمملكة الواحدة؛ أَلْبَسَهَا التاج وسَلَّمَهَا البلاد، حيث كانت وهي في عصمة زوجها الأول قد اشْتَهَرَتْ بأفعال الشجعان في واقعة من الوقعات العظيمة، وكانت قُوَّتُها العسكرية نحو مليون من النفوس، فصاروا في تَصَرُّفِها، فلما مات نينوس أَعْقَب منها ولدًا قاصرًا، يقال

له نيناس، فَتَقَلَّدَ المَمْلكة وكانت أمه سميراميس وَصِيَّة عليه فصار بِيَدِهَا زمام المُلْك، وأرادت إحراز الشهرة والصيت وكَسْب الفخار المُخَلَّد فَبَنَتْ مدينة بابل، وزَيَّنَتْهَا بأنواع الزينة على مثال مدينة نينوى وبِقَدْرِ اتِّسَاعِهَا، وبَنَتْ أسوارها بالآجر والقراميد، وجَعَلَتْ مؤنة البناء بمادة قارية صلبة قفرية، وجَعَلَتْهَا عريضة الأسوار بحيث يَمُرُّ بها ست عجلات متلاصقة تسير متوازية مع بعضها على حزاء واحد مع غاية السرعة، ويقال: إنها حَفَرَتْ حَوْلَها خنادق عميقة، وجَعَلَتْ فَوْقَ الخنادق مائة قنطرة من النحاس، كل قنطرة تُوصِل إلى بابل، وعَمِلَت فوق بيوت المدينة بساتين معلقة جميلة الشكل، تجري بها المياه في الغدران والجداول، وتَصِل إليها من برابخ عجيبة بتدبير عجيب، وجَعَلَتْ في المدينة الميادين الوسيعة والرحبات الفسيحة المغروسة بالأشجار من جميع الأقطار والجهات، بحيث يُمْكِن المسير في المدينة من باب إلى آخر من أبواب القناطر بدون أن يكون للشمس سَلْطَنَة على أحد، ولا عظيم سَلَاطَة للمطر لالتفاف الأشجار بعضها ببعض وتعريشها، وكانت بابل على نَهْر الفرات على قَوْل أغلب المؤرخين ونينوى على نهر الدجلة.

فيفهم من هذا أن باني بابل هي الملكة سميراميس، وهو مخالف لكلام التوراة من أن الباني لها هو النمروذ مع ما بين زمانَيْهما من القرون العديدة والدهور المديدة، ولعل هذه الملكة بَنَتْ مدينة على أطلال بابل، وكانت قد خَرِبَتْ بِمَرِّ الدهور وَكَرِّ العصور، أو بَنَتْ أخرى في غير مَحِلِّها وسَمَّتْهَا بهذا الاسم محاكاة للنمروذ، وكانت تَحْت يد هذه الملكة في مَمْلَكة العراق من سواحل الشام وفلسطين إلى نهر السند ببلاد الهند، حتى إن عساكرها طَرَدَتْ عساكر مصر من تلك الجهات المشرقية التي كانت مُتَغَلِّبَة عليها إذ ذاك، وكانت كلما انْتَصَرَتْ بقوة شجاعتها زادت مطامعها في الفتوحات، ولشجاعتها وخِفَّة حَرَكَتِهَا سُمِّيَت سميراميس؛ يعني: الحمامة؛ لأنها تتردد لفتوح البلاد، بل صار اسمها كأسماء الأجناس على كل ملكة اشْتَهَرَتْ بالشجاعة واقتحام الأخطار في البلاد البعيدة لقصد الفتوح؛ ولذلك يقال لكاترينة الثانية ملكة الموسقو: سميراميس الشمال؛ يعني: الجهات الشمالية، ويقال أيضًا لمرجريطة ملكة الدانيمرقة: سميراميس الشمال أيضًا؛ لأنها جَمَعَت الممالك الثلاثة، وهي مملكة أسوج وممكلة نروج ومملكة دنيمرقة، وقد قُلْنَا فيما سَبَقَ: إن تلك الملكة كانت تَحْكُم العراق والكردستان وما يتبعهما من الممالك الواسعة، بالوصاية على وَلَدِها نيناس لكونه قاصرًا.

وفي مدة وصايتها بَنَتْ أيضًا في بابل هَيْكَل الشمس، الذي دَاخِلُهُ متخذ من الذهب، وبَنَتْ أيضًا عِدَّة مدائن أُخَرَ، وأرادت أن تتوغل في بلاد الهند، فسارت بجيش كبير فانتصر

عليها مَلِكُ الهند وَفَرَّتْ مُدْبرة إلى بلادها، وكان وَلَدُهَا قد بَلَغَ رُشْدَهُ وتَأَهَّلَ لأن يَحْكُمَ مَمَالِكَهُ بِنَفْسه، فتَقَلَّد زمام المملكة واسْتَبَدَّ برأيه، فأَحَبَّتْ أن تَجْذِبَه إليها وتَدْنُو منه باستمالته إليها لجمالها وتشويقه إلى وِصَالِهَا، فرَاوَدَتْه عن نَفْسه حتى يَصِيرَ الحكم في يدها إذا اسْتَوْلَتْ على قَلْبه، فاستعاذ من الفجور وأبى إلا النفور، لا سيما وأنه اسْتَشْعَرَ بأنها قَتَلَتْ والده بالسم، فَسَلَكَ سبيل الانتقام وأذاق حَمَامَتَهُ كَأْسَ الحِمَام، وكان ذلك قَبْل ميلاد عيسى بثلاثة عَشَر وألف ومائتين.

وكان الملك ننياس قَلِيلَ الطمع في الفتوح، فقنع بما تحت يده عن الطريف بالتلاد، وانزوى في قصره مُتَنَعِّمًا بأهل بيته بعيدًا عن العباد، وَلَمْ تُعْلَمْ وقائع غريبة حَصَلَتْ في مملكة العراق وكردستان في خلال ثمانمائة سنة حتى تَسَلْطَنَ عليها الملك سردينال سنة سبعمائة وسبعة وستين قبل الميلاد، فانْهَمَكَ هذا الملك على اللذات والشهوات وأغار عليه أهل أذربيجان وحاصروه أشد المحاصرة، فمن شدة المضايقة أَحْرَقَ نَفْسَه ونساءه، فاسْتَبَدَّ أهل أذربيجان بالحكم وخَلَعُوا طاعة بابل، ثم دَخَلَ أهل أذربيجان وبابل تَحْت مَمْلَكة العجم، وكان حكماء البابليين يُتْقِنُون رَصْد الكواكب لِكَثْرَة الصحو وقلة الغيوم بهذه البلاد، فصار لهم كمال الوقوف على العلوم الفَلَكِيَّة، وهم الذين اخْتَرَعُوا المزاول، وتَشَبَّثُوا بعلم التنجيم، وزعموا معرفة حوادث الأزمنة المستقبلة من أنواء النجوم، وتَوَلَّعَ الناس بتقليدهم وتصديق أوهامهم الفاسدة التي يُبْطِلُهَا الشرع، ويُكَذِّبُها العقل، فهل هذه الأشياء تُعَدُّ من كبوات الأجياد، وهفوات الأمجاد، أو مِنْ بِدَع الجاهلية الأولى الظاهرة الفساد، وضلالات أهل الكساد؟ والظاهر أن هذه الأمة أَضَلَّتْهَا الكواكب ضلالًا مبينًا حتى عَبَدُوا الشمس، وكانوا يَعْرِفُون الإله الحَقَّ يقينًا، فالتنجيم فَنٌّ مذموم، ولكن لا بأس بعلم النجوم، فقد كانت العرب أَشَدَّ عناية بمعرفة النجوم، وقد قيل لأعرابي: ما عِلْمُك بالنجوم؟ قال: مَنْ ذا الذي لا يعلم أخداع بيته، وقيل لأعرابية: أتعرفين النجوم؟ فقالت: سبحان الله! أما نَعْرِف أشباحًا وقوفًا علينا كُلَّ ليلة.

وبالجملة: فكانت الفنون والعلوم والصنائع ببلاد العراق في غاية التقدم، وكان فيهم سُوقُ التمدن نافقًا، فكانوا يَتَنَافَسُونَ ويَتَفَاخَرُون في المطاعم والمشارب والزينة والزخرفة، واشتد انهماكهم على اللذات والشهوات، خصوصًا لما تَوَلَّى عليهم كيروش مَلِك العجم، فَفَسَدَتْ أخلاقهم، وانْحَلَّ نظامهم، وأما مصر المقارنة لبابل فقد تَنَزَّهَتْ ملوكها عن مثل هذه الرذائل.

فقد أَجْمَعَ المؤرخون على أن مصر دُونَ غيرها من الممالك عَظُمَ تَمَدُّنها، وبَلَغَ أَهْلُهَا درجة عُلْيَا في الفنون والمنافع العمومية، فكيف لا وأن آثار التمدن وأماراته وعلاماته

مَكَثَتْ بمصر نحو ثلاثة وأربعين قَرْنًا، يُشَاهِدُهَا الوارد والمتردد، ويَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهَا الوافد والمتفرج مع تَنَوُّعِهَا كل التنوع، فجميع المباني التي تَدُلُّ على عِظَمِ ملوكها وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها، فانظر إلى آثار مَنْف وأَبْنِيَتِها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يَحْكِيه المؤرخون عنها، وأنها كانت ثلاثين ميلًا بيوتًا متصلة، وفيها بَيْت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسَقْفُه وفَرْشه وحيطانه من الحجر الأخضر، وكان لها سبعون بابًا، وهي مدينة المملكة المصرية، وكانت مَنْزِل الملوك من القبط الأولى والعماليق ومَسْكَن الفراعنة، وما زال المُلْك بها إلى أنْ مَلَكَ الرُّومُ اليونانُ دِيارَ مصر، فانتقل كُرْسِيُّ المَمْلَكَة منها إلى الإسكندرية، ومع ذلك لَمْ تَزَلْ عامرة إلى أن جاء الإسلام ثُمَّ خَرِبَتْ، وفيها كانت الأنهار تجري مِنْ تَحْت سرير الملك، وكانت أربعة أنهار.

ويقال: إن ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مِثْلَهَا لَمَا أَمْكَنَهُم ذلك، وكان فرعون إذا أراد الركوب من مَنْف إلى عَيْن شَمْس صَنَعَ صاحب المركب علامة، فإذا رأى صاحب عَيْن شمس تلك الإشارة تَأَهَّبَ لاستقباله، وكذا يَصْنَع إذا أراد الركوب من عَيْن شمس إلى مَنْف؛ لأن كُلًّا من المدينتين كان تَخْت المَمْلَكة، ويقال: إنه كان بِمَنْف قُبَّة فيها صُوَر مُلُوك الدنيا.

ولما دَخَلَ المأمون مِصْرَ في سنة سبع عشرة ومائتين وقد رأى مدينة مَنْف أنشد الأبيات الآتية:

سَأَلْتُ أطلال مِصْرَ عن عَيْنِ شَمْسٍ ومَنْفِ
فما أَحَارَتْ جوابًا ولا أَجَابَتْ بِحَرْفِ
وفي السكوتِ جَوَابٌ لِذِي الفطانة يَكْفِي

وهل علامات التمدن ودلائل العِظَم إلا ثلاثة أشياء: وهي حُسْن الإدارة المَلَكِيَّة، والسياسة العسكرية، ومعرفة الألوهية، فهذه الثلاثة أساس تَمَدُّن الممالك العدلية على العموم، والمصريون من قديم الزمان كانوا مُنْقَادِين لِلْحُكْم الملوكي، فكانوا مطيعين لِمَلِكِهِمْ، وكان المَلِكُ مُنْقَادًا أيضًا لقوانين المَمْلَكة وأصولها، فكانت حركاته وسكناته على طبق القوانين، وكانت حكماء مصر تُذَكِّر الملوك دائمًا بالحقوق والواجبات، وتَحُثُّهُم على التمسك بالفضائل الملوكية، وتَلْعَن من يَصْرِفُهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق، وكانت الملوك في تلك الأوقات يشتغلون بمطالَعة الحِكَم والآداب والمواعظ والتواريخ، وكل

ما يُرْشِد إلى العدل والاستقامة، وكانت مصر مُنْقَسِمَة إلى عمالات، على كل عِمَالَة حاكم، وأراضيها مملوكة لثلاث طوائف مُنْقَسِمة بينهم؛ قِسْم للملك، وقِسْم لأمناء الدِّين، وقِسْم للعساكر المحاربين، وأما بواقي الطوائف فكانت معايشهم من أعمالهم وصنائعهم، فهذا التقسيم قَوَّى شوكة أُمَنَاء الدين، وجَعَلَهُمْ مُخْتَصِّينَ بممارسة العلوم، وبِتَقْنِين القوانين المَلَكِية، وبنفوذ الكلمة في الحكومة.

وكانت مصر كثيرة الجنود والعساكر، ولهم أصول تَحْمِلُهُم على الشجاعة، فكان العسكري الذي يُظْهِر الجلادة في الحرب يُعْطَى علامة الشرف والافتخار، والذي يَجْبُن عن الحرب، أو يَفِرُّ من الزحف يُعَاقَبُ بِوَسْمِه بعلامة العيب والعار والافتضاح، بحيث تَكُون السمة ظاهرة على بَدَنِه تُلَوِّثُه وتُذِلُّه بَيْن أَهْلِ وَطَنِهِ، والظاهر أن إقطاع الأراضي للمحاربين كانت سببًا في كثرة أموالهم ورفاهيتهم، فَتَرَتَّبَ عليها فيما بَعْد فُتُورَ هَمَّتِهِمْ في الحروب، وتَرَتَّبَ على ذلك أيضًا بتداول الأزمان عَدَم القدرة على مقاومة كل مَنْ كان يَهْجم على مصر من الأمم، إلا أن هذا لا يَمْنَع من أن الإدارة العسكرية كانت متقدمة عندهم؛ بدليل أن الملك سيزوستريس جَيَّشَ جيشًا عظيمًا لِقَصْد سَلْب بلاد العراق والعجم والهند وفتوحها، فسار إليها من طريق الشام فاستولى على بلاد فلسطين، وفتح العراق والعجم والهند، وبنى ببلاد العجم مدينة شلمينار، التي سُمِّيَتْ فيما بعد مدينة اصطخر، وما ذاك إلا بقوة عساكره وضَبْطِهِمْ ورَبْطِهِمْ، وأما الديانة عند المصريين فكانت أيضًا مُرَتَّبَة؛ إذ كان أمناء دِينِهِمْ يَعْتَقِدون ألوهية الذات العلية، وكان لهم أسرارًا عجيبة، فكانوا لا يُظْهِرُونَها إلا لقليل من الناس، وكانت العامة يعبدون الأوثان، ومنشأ عبادتِها عندهم أنهم كانوا يُؤَلِّهُون كُلَّ مَن اخْتَرَعَ أمرًا غريبًا من قانون أو عِلْم أو فَنٍّ، فكانوا مُتَقَدِّمِين في الهندسة والمساحة والآلات الهندسية؛ كعِلْم الجغرافيا والنجوم، وكانت كِتَابَتُهُم بالقلم القديم البربائي الذي كان يَعْرِفُه حُكَمَاؤُهم وأمناء أديانهم، فكان كالرموز بينهم، فكانت عُلُومُهُم سِرِّيَّة مَخْفِيَّة عن العوام حَتَّى لَمَّا ظَهَرَتْ الحروف الهجائية، وانْتَشَرَتْ عندهم — كما انْتَشَرَتْ في الممالك — لَمْ تَزَلْ صُحُف العلوم المصرية تُرْسَم بالقلم القديم البربائي.

ومن اختراعاتهم العجيبة آلة الحراثة التي انْتَفَعَ بها جِنْس البشر عمومًا حيث تَقَدَّمَتْ الفلاحة، وبه تَوَلَّدَ التمدن بين جميع الناس، مع اختراع السواقي والنواعير، إلهامًا لهم من اللطيف الخبير، فإنها أساس لآلات السقي بأحسن تدبير، وكانت الدولة المصرية تَعْرِف قيمة العدل والإنصاف وأنه الأصل في سعادة الممالك، فانْتَخَبَتْ من مدنها الثلاثة التي هي عَيْن شمس ومَنْف وطيوة قضاة؛ لتدبير أحوال المَمْلَكة، وجَعَلَتْهُمْ أرباب

المشورة القضائية، وكانوا ثلاثين قاضيًا، فكانت محكمتهم نافذة الحكم على غاية من الاحترام، وكانت مصارفها على طرف الحكومة الملوكية، وكان الملك يَأْخُذُ عليهم العَهْد أن لا يُطَاوِعُوه إذا أَمَرَهُمْ بشيء خارج عن الحد، وكانت مُذَاكَرَة المجلس في المصالح والقضايا والآراء تُكْتَب بالقلم والمناقشات والمحاورات والمرافعات كذلك؛ لئلا يَخْفَى الحَقُّ بالفصاحة واللسن؛ لما في البيان من السحر، وكان للحق صُورة مجسَّمة، فإذا ظَهَرَ الحق لأحد الخصمين رَفَعَ الرئيس الصورة بِيَدِهِ، وأَذِنَ للمُحِقِّ أن يَضَعَ يَدَهُ عليها؛ إشارة إلى أن القاضي في الحقيقة ونَفْس الأمر إنما هو الحق فهو الحاكم الحقيقي.

وكان في أحكام المصريين عقاب الزنا شديدًا جدًّا لكونه من الكبائر المُضِرَّة للأمة، فكانوا يَجْلِدون الرجل أَلْفَ جَلْدَة ويَجْدَعون أنْف المرأة، وأَنَّ مَنْ قَدَرَ على تخليص المقتول مِنْ القاتل بِدُون حَقٍّ ولَمْ يُخَلِّصْه فجزاؤه القتل، وأنه لا تَسَلُّط للدائن على ذات المدين، بل وفاء الدين محلُّه أَمْوَال المدين لا شَخْصُه، وكانت قوانينهم تَمِيل إلى الحث على العمل وقَطْع عِرْق البطالة والغش والتدليس، وغير ذلك من الموبقات، وذلك أنه يَجِبُ في آخر كل سَنَة التفحص عن أحوال الأهالي فردًا فردًا، فيُسْأَل كُلُّ إنسان عن مَوَادِّ تَعَيُّشِهِ، ومِنْ أين اكْتَسَبَهَا، وكُلُّ مَنْ ظَهَرَ أَنَّهُ تَعَيَّشَ من وَجْهٍ حرام فجزاؤه القَتْل، وهذا القانون من وَضْع الملك أمسيس، فمِنْ هَذَا يُفْهَم تَقَدُّمهم في التمدن، وأن مَمْلَكَتَهم في الأزمان السالفة كانت عادلة محترسة، مستنيرة بالمعارف.

وقد دَلَّتْ التواريخ أن ديوان حكومتها كان في غاية اللطف والتهذيب، واستقامة الأخلاق والآداب، وحِفْظ ناموس العرض، والأدب والحياء، وكان على غاية من حِفْظ الرسوم الملوكية المعتَبَرة، والعوائد السلطانية المقررة، وقد قامت البراهين والدلائل على استمرار أُبَّهَة التَّمَدن على تعاقب القرون الكثيرة في أيام الملوك الأوائل، ومما يُعَضِّدُ ما قاله المؤرخون، واسْتَكْشَفَهُ الحكماء الراسخون قِصَّةُ يوسف عليه السلام، فإن مَضْمُونَها لِفَصْل القول أَحَدُّ من الحسام، كما سَنُبَيِّنُه في الفصل الثاني من الباب الثالث من ذِكْرِ هذه القصة الصِّدِّيقِيَّة، التي يُسْتَنْتَج منها في هذا المعنى معارفُ تصورية وتصديقية.

الفصل الثاني

في تأييد تقدم مصر وامتيازها بالمعارف في الزمن القديم أَخْذًا من قصة القائل: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

* * *

كان يعقوب عليه السلام قَدْ وُلِدَ في زَمَنِ جَدِّهِ إبراهيم، ونُبِّئَ في زَمَانِهِ أَيْضًا، وتزوج زوجتين أختَيْن أحدهما بعد الأخرى، فوَلَدَتْ له الثانية يُوسُف عليه السلام وبنيامين، وماتَتْ في نفاس بنيامين، وكانت الأولى وَلَدَتْ منه سِتَّةَ أَوْلَاد، ثم تَزَوَّجَ بعد الثانية التي ماتت زوجة أخرى ورُزِقَ منها أربعة، فكان أولاد يعقوب اثني عَشَر وهم الأسباط، وكان أَحَبُّ أولاده إليه يوسف فحَسَدَه إخوته، فاحتالوا عليه فقالوا: يا يوسف، أما تَشْتَاق أن تَخْرُج معنا فنَلْعَب ونَتَصَيَّد؟ فقال: بلى، قالوا: فَسَلْ أباك أَنْ يُرْسِلَكَ مَعَنَا، فاستأْذَنَه فَأَذِنَ له.

فَلَمَّا خرجوا إلى الصحراء أَظْهَرُوا له ما في أنفسهم من العداوة، ففَطَنَ لما عَزَمُوا عليه، فأَخَذَهُ أَخُوه رُوبِيل الذي هو ابن خَالَتِه أَيْضًا فَضَرَبَ به الأرض، وجَلَسَ على صَدْرِه ليقتله، وقال ليوسف: قُلْ لرؤياك تُخَلِّصْكَ، وكان قد رَأَى وهو ابن سَبْع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له، فصاح على أخيه الآخر يهوذا، وقال: خَلِّ بيني وبَيْن مَنْ يريد قتلي، فقال يهوذا: أَلْقُوه في غيابة الجب، فنزعوا قميصه لإلقائه فقال: رُدُّوه عليَّ أَسْتُرْ به عورتي، ويكون كَفَنًا لي في مماتي، فلما أَلْقَوْه اسْتَقَرَّتْ قَدَمَاه على حَجَر مُرْتَفِع من الماء، وذَبَح إخوته جديًا فلطخوا به القميص، وقالوا: أَكَلَهُ الذئب، ومَكَثَ في الجب ثلاثة أيام وإِخْوَتُه يرعون حَوْله، ويهوذا يأتيه بالقوت.

فلما جاءت السيارة الذين حضروا مِنْ مَدْيَن إلى مصر بالتجارة، وكانت بضائعهم من الصمغ لتصبير الأموات، فَجَعَلَتْ تسقي من الجب بدون التفاتٍ، تَعَلَّق يوسف بالحبل فأخرجوه فجاء إخوة يوسف، فقالوا: هذا عَبْد أَبَقَ منا فباعوه منهم بعشرين درهم وحُلَّة ونَعْلَيْن، فحَمَلُوه إلى مصر وجاءوا به إلى مدينة مَنْف فوقفوه للبيع، فتزايد الناس في ثمنه فاشتراه قطفير وكان أميرَ مَلِكِهِمْ وخازِنَه، وقال لامرأته زليخا: أكرمي مثواه.

وكان يوسف عليه السلام حَسَن الخَلْق والخُلُق، كامل الفطنة، عظيم القيافة، يُتَوَسَّم فيه الخير، من رآه أَحَبَّه، حتى ظَهَرَتْ منه أمارات الأمانة والصدق، فامتاز في بيت العزيز بكمال التمييز، فراودَتْه امرأة العزيز عن نَفْسه فَعُصِمَ منها، فتَرَتَّب على ذلك سَجْنه، وَأَحَبَّه أيضًا مَنْ كان معه في السجن؛ كصاحب طعام المَلِك، وصاحب شَرَابِهِ، وعَبَرَ لهما رؤياهما، وبَقِيَ مسجونًا إلى حين مَنَام المَلِكِ، فعَفَا عنه بعد سَجْنِه بِضْع سنين، فلما أَخْرَجَه من السجن فَوَّضَ إليه أَمْرَ مصر، وجعَله أمينًا حفيظًا على خزائن مُلْكِه.

ولما تَقَلَّد يوسف عليه السلام مَنْصِبَه، وأراد أن يَذْهَب إلى ديوانه؛ حَلَقَ رأسه وتَجَمَّلَ بالثياب النفيسة، وأَخَذَ طراز الرتبة وعنوانها، وعُقِدَ له موكب جليل، وحين تَمَكُّنِه من منصبه مَرَّ على إقليم المملكة المعلقة بإمارته، وزَوَّجَه فرعون مصر بِزَوْج من أعظم العائلات، وهي ابنة ملك عَيْن شمس، فامتلأت الخزائن من الأقوات في زَمَن الرخاء؛ لِتَنْفَع في زَمَن القحط، وصار تَدْبِيرها وإدارتها على أَحْسَن حال وأَتَمِّ منوال.

ومن أعجب ما صَنَعَهُ طريقة حِفْظ البُرِّ في سُنْبُلِه، فقد دامَ وبَقِيَ بهذه الوسيلة مَحْفُوظًا من آفات الانفساد، حتى إن بعض الفراعنة أَمَرَ بِحِفْظِ القمح بذلك بعد عَهْد يوسف بمائة سَنَة، ولَمَّا حَفِظَ يوسف الأقوات في أيامه وباعها في زَمَن القحط؛ كان بَيْعُها بأغلى ما يكون من القِيَم، فكان يَبِيع مِكْيَال البُرِّ بمكيال من الدُّرِّ، فاشترى أَهْل مصر بأموالهم وحُلِيِّهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ثُمَّ بأولادهم ثُمَّ برقابهم، وكان يوسف عليه السلام لا يَشْبَع في تلك الأيام، ويقول: أخاف أن أنسى الجائع، وبَلَغَ القحط إلى كنعان، فأرسل يعقوب وَلَدَهُ للميرة، قال: يا بَنِيَّ، قد بلغني أن بمصر مَلِكًا صالحًا فانطلقوا إليه، فأقرئوه مني السلام، فمضوا فدخلوا على يوسف فَعَرَفَهُم وأنكروه، فقال: مِنْ أين أنتم؟ فقالوا: من أرض كنعان ولنا شيخ، يقال له يعقوب، وهو يُقْرِئُك السلام، فبكى وعَصَرَ عينيه، وقال: لعلكم جواسيس، فقالوا: لا والله، قال: فكم أنتم؟ فقالوا: أحد عشر، وكُنَّا اثني عَشَرَ فأكل أَحَدَنَا الذئبُ، فقال: ائتوني بأخيكم من أبيكم، ثم دَرَجَ بضاعتهم في رحالهم، فعادوا إلى أبيهم، فقالوا: إنا ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا

أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ فقال يعقوب: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ ثم حَمَلَهُ احتياجُه إلى الطعام على أن أَرْسَلَهُ معهم، فلما دخلوا على يوسف أجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين شقيق يوسف وحيدًا يبكي، وقال: لو كان أخي حيًّا لأجلسني معه، فاعْتَنَقَه يوسف وقال: أنا أخوك، ثم احتال عليه فوضع الصاع في رحله، فلما لَمْ يَقْدِروا على خلاصه أقام ورجعوا إلى يعقوب يقولون: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ فتلقاهم بصبر جميل، ثم قال لبنيه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فلما عادوا إليه ببضاعة مزجاة وقفوا مَوْقِف الذل، وقالوا: تَصَدَّق علينا، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وكشف الحجاب عن نفسه، فَعَرَفُوه فقالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾ فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اخْتَارَكَ وفَضَّلَكَ، وكان قد فُضِّلَ عليهم بالحسن والعقل والحِلْم والصبر وغير ذلك ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: لمذنبين آثمين في أمرك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لا أُعَيِّرُكم بما صَنَعْتُم، ثم سألهم عن أبيه، فقالوا: ذَهَبَتْ عيناه، فأعطاهم قميصه وقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فلما خرجوا من مصر حَمَلَ القميص يهوذا، وقال: أنا حَمَلْتُ قميص الدم وها أنا أحْمِل قميص البشارة، فَخَرَجَ حافيًا حاسرًا يَغْدُو، فقال يعقوب لِمَنْ حَضَرَ من أهله وَوَلَدِ ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: لولا أن تُنْكِرُوا عليَّ لأخبرتكم أنه حي ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، ثم خرج يريد مصر في نحو سبعين من أهله، وخرج يوسف لِتَلَقِّيه، فلما الْتَقَيَا قال يعقوب: السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان، فقال يوسف: بَكَيْتَ يا أبتي حتى ذَهَبَ بصرك، أما عَلِمْتَ أن القيامة تجمعني وإياك، فقال: يا بُنَيَّ، خَشِيتُ أن يُسْلَب دينك فلا نَجْتَمِع، وأقام يعقوب عند يوسف أربعًا وعشرين سنة في أهنأ عيش، فلما حَضَرَتْه الوفاة أوصى إلى يوسف أن يَحْمِلَه إلى الشام حتى يَدْفِنَه عند أبيه إسحاق فَفَعَلَ، ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أَمْرَهُ قد تم، فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وأوصى إلى يهوذا، فهذا مآل القصة التي قَصَّهَا الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف بفصيح العبارات البالغة حَدَّ الإعجاز، وبليغ المعاني المفيدة لبديع النكات، مع مراعاة الحال لما يقتضيه مَقام البسط أو الإيجاز؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وذلك لما فيه من العبر والنكت والعجائب، فإن من الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قَدَره تعالى، وأنه إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة، فلو اجتمع عليه العالم لم يَقْدِروا على دَفْعه، «وقد رُوِيَ» أن سبب نزول

ذلك: أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سَلُوا محمدًا لِمَ انْتَقَلَ آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن كيفية قصة يوسف، فأنزل الله تعالى: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ❁ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآيات، وذَكَرَ فيها أنه تعالى عَبَّرَ عن هذه القصة بألفاظ عربية؛ ليتمكنوا مِنْ فَهْمِهَا، ويَقْدِروا على تحصيل المعرفة بها، والتقدير: إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كَوْنِه قرآنًا عربيًّا، فسَمَّى بعض القرآن قرآنًا؛ لأن القرآن يَقَعُ على البعض والكل، ومِنْ قِصَّتِهِ هذه يُفْهَمُ عُلُو دَرَجَة مصر التي قضى الله سبحانه وتعالى بانتقاله إليها؛ لِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ فيها، حتى إنه عليه السلام لما قَدِمَ أبوه وسأله عما صَنَعَ به إخوته؛ قال: سَلْنِي عما فَعَلَ بي ربي، وأَخَذَ بيده وطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحُلِيِّ وخزائن الثياب وخزائن السلاح وخزائن القراطيس، وكان يوسف يَرْكَبُ في كل شهر رَكْبة يَمُرُّ بها على عَمَلِه ويدُور فيها، فيَنْصف المظلوم من الظالم، ولا يَرْكب إلا في عَدَد كثير من الجند والألوية ومعه ألف سَيَّاف، ولم يكن معه حُكْم مصر كله بل بعضه؛ لأنه على ما يقال: إن طيوة بصعيد مصر كانت مملكة مُسْتَبِدَّة، عليها ملك آخر يدل على ذلك آية ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: بعض ملك مصر كما أشار له بعض المفسرين، فالبلدة التي خزائنها وعساكرها بهذه المثابة لا تكون إلا عظيمة الشوكة والثروة والتنظيم والتعظيم، وهو عين التمدن، وإن تَأَمَّلْتَ في مبدأ أمر يوسف عليه السلام من اقتصار العزيز على سَجْنه، وصَبْره عليه في السجن، وعَدَم المبادرة عليه بالانتقام مع أنه مملوك للعزيز خازن فرعون مصر؛ عَلِمْتَ أن الدولة المصرية لم تكن أُمَّة خشنية تَسْتَعْجِل بالقتل لغلام مستقيم فَطِن، بل كانت أمورها تجري على منهج الاستقامة.

ويُسْتَدَلُّ بهذا أيضًا على أن قوانين معاملة الخدم والرقيق كانت عادلة، لا يسوغ فيها للسيد الذي أساءه عَبْدُه كُلَّ الإساءة أن يَنْتَصِف منه لنفسه كما يُحِبُّ ويختار، فهذا يفيد أن الملة كانت متمدنة، وأما سَجْن يوسف عليه السلام مع صاحب طعام الملك وصاحب شرابه فيَدُلُّ على أن فرعون كان له كبراء أصحاب مناصب لقصره، كما في الدول المتمدنة، وأنهما اتُّهِمَا بالخيانة المَلَكِيَّة؛ يعني: بإرادة سَمِّ الملك، وأن فرعون غَضِبَ عليهما حِينَ اتَّهَمَهُمَا، وأَمَرَ بسَجْنِهِمَا لحين تحقيق دعواهما، فلما تَبَيَّنَ له أن أحدهما مُذْنِب بما يوجب القتل قَتَلَه، وأن الآخر بريء فَرَّجَ عنه، فعاد إلى منصبه، كما أن يوسف أيضًا لما عُلِمَتْ براءته ارتقى إلى ما ارتقى إليه من العزازة.

فمنه يُعْلَم أنه كان بمصر إذ ذاك أحكام عادلة، وقوانين مُرَتَّبَة، وحدود مشروعة خالية عن الأغراض والنفسانيات، وهي نتيجة التمدن التام، وقد دلت التواريخ الأثرية على أنه كان لفرعون يوسف كل سَنة عِيد عظيم لمولده، وأن هذا العيد كان يُعْمَل في ميعاده في القصر الملوكي بأكمل ما يكون من الاحتفال الكامل والرسوم الجليلة، فهذا يدل أيضًا على جودة التمدن، وطُول مُدَّتِه في مصر قديمًا حتى إن رسوم المملكة كان يُحَافَظ عليها، ويُتَمَسَّك بها بدون تَسَامُح ولا تَسَاهُل، فإن يوسف عليه السلام لما مات يعقوب وحَزِنَ عليه حَزَنَ بني إسرائيل؛ اجْتَنَب أن يتمثل بين يدي فرعون، واحْتَرَس كل الاحتراس أن يَدْخُل في ديوانه بِزِيِّ الحزن، ولم يَسْتَطِع أن يُخَالِف الرسوم المعهودة، فكانت رسوم ديوان فرعون وآدابه وأخلاقه معلومةً عِلْم يقين، دَلَّتْ عليه التوراة، فهي مبنية على النقل المتواتر والسماع المستفيض، فلا يُشَكُّ فيها.

ومن المعلوم أنه لا يتصف بهذه الآداب الرسمية إلا الجمعية المتقدمة في المعارف، فلا شَكَّ أن جميع ما كان في الدول المتأخرة المتمدنة من حُسْن الأخلاق والعوائد كان موجودًا نَظِيرُه عند دولة مصر القديمة في أيام زَهْوِها، فليس التمدن من خصوصيات الأزمان الأخيرة، وإنما ذوقيات التمدن مختلفة بما يُلَائم طباع الوقت، ويُطَابِق مقتضى الحال، فلا يَبْعُد على مصر في هذا العصر أن تَسْتَجْلِب السعادة، وتَكْتَسِب من القوة الملية الحسنى وزيادة، وتَتَحَصَّل من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة؛ لأن بنية أجسام أهل هذه الأزمان هي عين بنية أهل الزمان الذي مضى وفات، والقرائح واحدة ووسائل هذا العصر الأخير متسعة ومتنوعة، فلا شك أنها مساعِدة على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها، وأعظم وسائلها رخصة الأخذ والإعطاء داخلًا وخارجًا، وكمال الاتحاد مع الممالك الأجنبية في المعاهدات التجارية العائدة بالمنافع العامة على الوطنية، كما فَعَلَ ملك مصر أبسميتكوس الأول ابن نخوس ملك مصر؛ مِنْ جَلْب الأجانب في مملكته، كما سيأتي في الفصل الثالث من الباب الثالث.

الفصل الثالث

في أن أعظم وسائل تَقَدُّم الوطن في المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالي الممالك الأجنبية واعتبارهم في الوطن كالأهلية.

* * *

من المعلوم أن ممن أسس في مملكة مصر السعادة والسيادة والأمنية وحِفْظ حقوق الرعية هو الملك رمسيس، الذي اشْتُهِرَ باسم سيزستريس، وهو الذي شَيَّد في مصر القصور الشامخة والهياكل السامية المنافسة للأطواد الراسخة، واتَّخذ ما يلزم للوطن من الجسور والقناطر والخلجان، ورَفَع الأراضي المنخفضة المُعَرَّضَة للغرق عند زيادة النيل، واسْتَبْدَل المدن المنخفضة من محالها ببنائها على الربى العالية؛ لسلامة البلاد والعباد، ولم يفارِق الدنيا حتى ترك مصر على غاية من الثروة والغنى والسعادة والهنا، وكل إنسان شاكرٌ لفعاله، وعلى تداول الأزمان لا زال التاريخ يُثْنِي على شمائله وجميل خصاله، إلا أنه هو ومَنْ قَبْله وأكثر مَنْ بَعْده من الملوك لم يَحْصُل منهم كما حَصَل من الملك أبساميطيقوس الأول؛ من مساعدة التجارة داخلًا وخارجًا، فإن سعادة الأهالي إنما هي بالأخذ والإعطاء والتنقلات الملكية.

فكان هذا الملك في الحقيقة فَخْر الدولة المصرية في الأزمان الجاهلية ومصباح تاريخها، اعتنى بتاريخه مؤرخو اليونان؛ لأنه أول مَلِك مصري قَرَّبَهم إلى بلاده، واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده، وخالف عوائد أسلافه، وعامل يونان آسيا وأوروبا بأخص استعطافه، وأقطعهم الإقطاعات من الأراضي المصرية، وسَوَّى في الحقوق بينهم وبين الجنود الوطنية، وجَعَلَهُم من المقربين في المعية، وأعطاهم جملة من الغلمان المصريين لتعلم اللغة الإغريقية؛ ليكونوا مترجمين بينهم وبين المصريين، ففي أيامه

انْتَشَرَتْ معرفة اللغة اليونانية، وبواسطتها كَثُرَت التجارات والمعاملات والمخالطات، وتأسس بالقطر المصري العمائر التجارية، فكانت هذه أَوَّل مَرَّة تَكَلَّم فيها اليونان بلسانهم في غير بلادهم، ولما رأى ما رأى من صداقتهم ومساعدتهم وَسَّعَ لهم في المعاش، وأغدق عليهم غاية الإغداق، وسَوَّاهم بجنده فكانت منفعتهم جسيمة.

وممن فتح لليونان ثغور مصر وأبوابها من ملوكها الملك أمسوس، ويقال له أماسيس، فإنه كان قوي الفطنة، جيد القريحة، حَسَن التدبير، لم تَسْعَد مصر في أيام غَيْره كسعادتها في أيامه الهنية، ولم تُخْصِبْ بالنِّيل كخَصْبِها في أيام دولته العدلية؛ حتى قيل — ولو أنه من المبالغات التاريخية: إن مُدُن مصر وقراها بَلَغَتْ في عَهْده عشرين ألف مدينة وقرية، وكلها غنية مثرية، وجُل أسباب ثروتها التجارات العظيمة لا سيما مع اليونانيين، فإنهم إذ ذاك كانوا أرباب التجارة والصناعة، واتَّسَعَتْ دائرتهم في ذلك من مخالطة المصريين، فَقَد شَمِلَتْهُم أنظار هذا الملك الخصوصية حيث أحسن مثواهم، ورَخَّصَ لهم الاستيطان بالديار المصرية بمدينة نقراطيس، التي يقال: إن محلها الآن فوة، وقيل غيرها.

وكانت هذه المدينة دون غيرها مخصوصة بأن يَرْسِي عليها سُفُن الدول الأجنبية، وقد أباح هذا الملك للغرباء أن يَتَمَسَّكوا في مصر بأصول دياناتهم، وأَنْعَمَ عليهم بأراض مخصوصة؛ ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم ومحاريبهم على اختلاف مِلَلِهم وأديانهم ومذاهبهم، وعَقَدَ مع دولة أثينا؛ أي: مدينة حكماء اليونان معاهدات، وعَقَدَ أيضًا معاهدات أخرى مع دول أخرى كدولة القيروان بالمغرب، وكان له مخاطبات ومراسلات متواترة مع الملوك الأجانب؛ كمَلِك جزيرة صيصام إحدى جزائر الروم الكبيرة، فإن التاريخ قد حَفِظَ نصيحته لملك الجزيرة المذكورة، ومضمونُها: «لا تأمن صروف الزمان، وتَفَكَّر في نوائب الحدثان، واعْصِ النفس في اتباع هواها، وخَالِفْها ولا تُبْلِغْهَا مُناها»، فلما قرأ ملك صيصام البطاقة عزم أن يزهد في الدنيا حسب الطاقة، وكان بإصبعه خاتم جوهر نفيس عظيم القيمة، لا يُؤْثِر عليه من زينة الدنيا شيئًا، ولكن وَقَعَتْ بقلبه موعظة الملك أماسيس أَعْظَم مَوْقع، فنزعه من إصبعه وألقاه في اليم، وعزم على ترك الزينة وصَمَّمَ، ولكن لما كان جد هذا الملك قائمًا والسعد له خادمًا؛ رَدَّ الله عليه هذا الخاتم في بطن حوت سعى به إليه صياد من البحر قادم، فَفَهِمَ من ذلك أن الأشياء بخوت وسعود، وأن خاتم الملك وإن زَهِدَ فيه فهو إليه مردود، وتاج السعادة على مفرقه معقود.

قال الشاعر:

البخت أَفْضَل ما يأتي الفتى فَإِذَا ما فاته البختُ لا يَنْفَكُّ يَتَّضِعُ
يكفيك في البخت تَيسِيرُ الأمور وأَنْ يكونَ ما ليس تَرْضَى عَنْكَ يَنْدَفِعُ

والحظ أجدى لصاحبه من الحجى، وأهدى في طُرُق مأربه من نجوم الدجى، ومن لطائف المطبوع في هذا الباب قول محمد بن شرف القيرواني:

إذا صَحِبَ الفتى جِدٌّ وسَعْدٌ تحامَتْهُ المكارهُ والخطوبُ
ووافاه الحبيب بِغَيْرِ وَعْدٍ طُفَيْلِيًّا وقاد له الرقيبُ

ويقال: إذا أقبل سعد المرء فالأقدار تُسْعِدُه، والأوطان تُسَاعِدُه، وإذا أَدْبَرَ فالأيام تعاديه، والنحوس تراوحه وتغاديه، قال عبد العزيز بن نباتة:

أَلَا فَاخْشَ ما تَرْجو وجَدُّكَ هَابِطٌ ولا تَخْشَ ما تَخْشَى وَجَدُّكَ رَافِعُ
فلا نافعٌ إلا مع النحس ضَائِرُ ولا ضَائِرٌ إلا مع السعد نَافِعُ

واعْلَمْ أن كمال العقل وسوء الحظ كالعلة والمعلول، لا يَنْفَكُّ أحدهما عن الآخر، كما أن قِلَّةَ العقل وكمال الحظ متلازمان، ويَصْحَبُهُمَا الجهل والحمق، قال ابن المعتز:

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لِمَنْ عَقِلَا

وقال أبو الطيب:

ذو العقل يَشْقَى في النعيم بِعَقْلِهِ وأخو الجهالة في الشقاوة يَنْعَمُ

وقال القاضي الفاضل:

ما ضَرَّ جهل الجاهليـ ـن ولا انْتَفَعْتُ أنا بحِذْقِي
وزيادتي في الحِذْقِ فهـْ ـيَ زيادة في نَقْص رِزْقِي

وقال شمس الدين الحكيم بن دانيال:

قد عَقِلْنَا والعقل أَيُّ وِثَاقِ　　وَصَبَرْنَا والصبر مُرُّ المذاقِ
كل من كان فاضلًا كان مِثْلِي　　فاضلًا عِنْدَ قسمة الأرزاقِ

وقال أبو تمام:

ولم يَجْتَمِعْ شرْق وغرْب لقاصدٍ　　ولا المجد في كَفِّ امرئ والدراهمُ

ومن عدم تعليل الحظ قول أبي الطيب:

هو الحظ حتى تَفْضُلَ العينُ أُخْتَهَا　　وحتى يكونَ اليومُ لليومِ سَيِّدًا

وعلى هذا فيجب على العاقل التسليم في جميع الأمور وتَلَقِّي المقادير بالرضا والقبول، كما قال:

تَبَارَكَ مَنْ أجرى الأمور بحكمة　　كما شاء لا ظُلْمًا أراد ولا هَضْمَا
فما لك شيء غَيْرُ ما الله شاءَهُ　　فإن شِئْتَ طِبْ نفسًا وإنْ شِئْتَ مُتْ غَمَّا

فإذا عَلِمْتَ أنَّ قِسْمَة الحظوظ في سابق الأَزَل لحكمة يَعْلَمُهَا، لا تبديل ولا تغيير في ذلك، وَسَلَّمْتَ الأمر لمولاك الفاعل المختار، المتصرف في مُلْكِه كيف يشاء بالاختيار، فلا عِتَابَ ولا ملامة، قال:

مَنْ عَرَفَ الله أزال التهمة

وقال:

كُلُّ فِعْلِهِ لحكمة
وأن أرزاق العباد قسمة
تَحْصُل بالتقدير لا بِالهِمَّة

كما قيل:

مَثَلُ الرِّزْقِ الذي تَطْلُبُهُ   مَثَلُ الظِّلِّ الذي يمشي مَعَكْ
أنت لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعًا   فإذا وَلَّيْتَ عنه تَبِعَكْ

وقال آخر:

هَوِّنْ عليك وكُنْ بربك واثقًا   فأخو التوكل شَأْنُه التَّهْوِينُ
طَرَحَ الأذى عن نَفْسه في رِزْقِه   لما تَيَقَّنَ أنه مَضْمُونُ

ومما يُنَاسِب ذلك ما يُحْكَى عن عروة بن أذينة أنه وفد على هشام بن عبد الملك فشكى إليه حاجته، فقال له: ألسْتَ القائل:

لقد عَلِمْتُ وما الإسراف مِنْ خُلُقِي   أن الذي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أسعى إليه فيُعْيِينِي تَطَلُّبُهُ   ولو قَعَدْتُ أتاني ليس يُعْيِينِي

وقد جِئْتَ من الحجاز إلى الشام في طَلَبِ الرزق، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد وَعَظْتَ فأبْلَغْتَ، وخَرَجَ فركب ناقته وَكَرَّ إلى الحجاز راجعًا، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذَكَرَ عروة، فقال في نفسه: رجل من قريش قال حكمة، ووفد عليَّ فجبهْتُه وردَدْتُه خائبًا، فلما أَصْبَحَ وَجَّهَ إليه بألفي دينار، فقَرَعَ عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال، فقال: أَبْلِغ أمير المؤمنين مني السلام، وقُلْ له: كيف رأَيْت قولي؟! سَعَيْتُ فأكديْتُ، فرَجَعْتُ، فأتاني رزقي في منزلي.

ولا يُتَعَجَّب من بليغ نصيحة أماسيس ووَعْظِه، فإنه كان بيْنَه وبين سولون حكيم أثينا مراسلات؛ لاقتباس الحكمة اليونانية، والمعارف التي تُكْسِب الفضائل، فاقتبس من حِكَمِه وفضائله وقوانينه ما تَمَيَّزَ به عن غيره من الملوك السابقين.

وكان سولون المذكور في مملكة أثينا من ذوي البيوت، اكْتَسَبَ من السياحة في البلاد ما صَيَّرَه فريد زمانه في الحكمة والتدبير والسياسة، وكان ممن دَخَلَ مصر من الفلاسفة، فعاد إلى مملكة أثينا، فوجدها مُخْتَلَّة النظام، مُنْحَلَّة الأحكام، فالتمَسُوا أن يجعلوه مَلِكًا عليهم وكانوا جمهورية، فلم يَرْضَ أن يُلْبَسَ التاج الملوكي ويَتَسَلْطَنَ على بلاده، وإنما اقتصر على تنظيم الجمهورية، وأنشأ سولون قوانين داخلية، منها: أَنَّ مَنْ ثَبَتَ عليه من

الأهالي أنه لم يَشْتَغِل بحرفة ولا صنعة بعد المرافعة معه ثلاث مرات، وهو مُصِرٌّ على البطالة؛ فإنه يُفْضَح على رءوس الأشهاد، وكذلك كل ولد اشتغل بصنعة وسَلَكَ مسلك التبذير في أمواله؛ فإنه يُفْضَح على رءوس الأشهاد أيضًا، وأن الولد الذي لا يقوم بمؤنة أبويه العاجزين عن الكسب؛ فإنه يُعَاقَبُ بذلك العقاب، ولا يُعَاقَبُ بهذه العقوبة الوالد إذا بَخِلَ بالإنفاق على وَلَدِه.

ومن قوانينه: أنه لا يجب على المرأة عند الزواج أن تَتَجَهَّزَ لزوجها بأكثر من ثلاثة أثواب، وبمتاع قليل الثمن؛ لأن تكليفها أكثر من ذلك ربما عاد بالفاقة على أهل الزوجة، وأن من اجْتَمَعَ من الرجال بالنساء المتبرجات وعَاشَرَهُنَّ لا يسوغ أن يكون من أعضاء مشورة الجمهورية أبدًا؛ لأنه لا يُؤْتَمَنُ على مصلحة الأهالي، وأن من ثَبَتَ عليه من أرباب المشورة السُّكْرُ؛ فإنه يُعَاقَبُ بالقتل، وأن المَدين لا يجوز حَبْسُه، وأن من لم يكن له ذرية؛ فله أن يوصي بجميع أمواله قُبَيْل وفاته، وأن من مات في الحرب وله ذرية؛ فإن الوصي على ذريته الحكومة، فهي الكافلة والمسئولة عن أفعالهم، والمطالَبَة بتربيتهم وإصلاح أحوالهم وشئونهم، وأنه يجب الاقتصاد في المصارف التي تُنْفَق في الجنائز والاحتفالات الدينية بِقَدْر الإمكان، وأن تَدْخُل الغرباء البلاد اليونانية، ولكن لا يسوغ تَدَاخُلُهُم في مناصب الحكومة.

فلما كان سولون معدودًا من المشرعين والمُفَنِّنِين؛ اقتبس منه أماسيس بعض قوانين، وقد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب الثالث أن أماسيس أوجب التفحص عن معيشة الإنسان، وكَسْبه من الحلال، وأنه كان يَحْكُم بالقتل على من يَكْتَسِب من الحرام، فلا شك أنه الْتَمَسَ ذلك من مخالطة اليونان، فالمخالَطة مغناطيس المنافع، فهي تُسَاوِي حركة العمل في ذلك، وكلاهما لا يستغني عن الحرية، والرخصة، ومنبع الجميع، وكسب المعارف العمومية، والمحبة الوطنية التي يَتَرَتَّب عليها اجتماع القلوب، والتعاون في إبلاغ الوطن المطلوب، فمخالطة الأغراب لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب تَجْلِب للأوطان من المنافع العمومية العَجَب العجاب، ولو كانت مترتبة على ظواهر التغلب والاغتصاب، فربما صَحَّت الأجسام بالعلل، ولنَضْرِب لك المثل في فتوح إسكندر لمصر في الأيام الأُوَل، فقد ترتب على فتوحه في تلك الأيام إعادة قديم بهجة مصر بَعْدَ أن دَمَّرَهَا حُكْم الأعجام، حيث واسى أَهْلَهَا، وراعى عوائدهم، وأباح عقائدهم، وساسهم بأحسن ما يمكن من السياسة والعدل في الأحكام.

الفصل الرابع

فيما ترتب على فتوح إسكندر الرومي للديار المصرية من اتساع دائرة المنافع العمومية الناتجة عن مقدمات الحزم والكياسة وشرطيات أشكال العدل في التدبير والسياسة.

* * *

من المقرر عند أرباب العقول أن أقوى شيء في حِفْظ البلاد، وراحة العباد، وتوسيع دائرة المنافع العمومية، وتأسيس قواعد تَمَدُّن الوطنية؛ إنما هو مراعاة عوائد الأهالي، وإباحة تمسكهم بعقائدهم، وعدم مَنْعِهم حَسْب الإمكان بما لا يستطيعون مفارقته من مألوفاتهم المأذونة، والمحافظة على إرضاء خواطرهم ولو للفاتح المتغلب والمُغِير المُغْتَصِب.

فإن إسكندر الرومي بحُسْن سياسته وكمال كياسته تَغَلَّبَ على بلاد العجم التي أَسَّسَهَا كيروش وسَلَفُه بعد ثلاثة حروب عظيمة، ففتح هذه البلاد الواسعة الأطراف والأكناف باستقامة تدبيره، وحُسْن سلوكه مع أهاليها، وتطييب خواطرهم، وحِفْظ عوائدهم وشرائعهم حتى صار فتوحه للبلاد المشرقية زمنًا تُؤَرَّخ به الوقائع والحوادث، فلم يكن فُتُوحُه كفتوح سَلَفِه من اليونان ولا غيرهم من أهل العراق والكردستان، ولا كفتوح العجم؛ إذ كانوا جميعًا يُدَمِّرُون البلاد، ويهلكون الأمم، وأما إسكندر فكان كلما فَتَحَ مَمْلَكة أَسَّسَ فيها وجَدَّدَ وبنى وشَيَّدَ ووطأ، ومَهَّدَ ومَدَّنَ المدائن، وأكثر الأموال في الخزائن، وأوْجَد وسائل العمران، وأحيا قلوب أهالي البلدان.

وكان مَنْ تَقَدَّمَهُ من أصحاب الخروج والفتوحات إذا فَتَحَ مدينة أو مملكة عَرَّضَ أهلها المخالفين له في الأحكام والعقائد للمَهْلَكَة، فأغضب جميع الأهالي بسوء سلوكه، فسَلَكَ إسكندر مَسْلكًا غير ما سَلَكَه الفاتحون قَبْلَه من سلاطين ذلك العصر وملوكه،

فكان يُرَخِّص في كل إقليم فَتَحَه إبقاء الأهالي على عوائدهم القديمة، وربما وافقهم على التمسك باتباعها في عَمَل خَاصَّةِ نَفْسِه ولو لم تَكُن بحسب رأيه مستقيمة، وذلك لمجرد إيناس نفوسهم وتوطينهم على حُبِّ حكومته وتأنيسهم.

فكان مشايخ قُوَّادِه وأمرائه يشيرون عليه بنَسْخِ دين ما يَفْتَحه من البلاد وعدم إبقائه، فلا يَسْمَع مَقَالَهُم حتى إنَّ تَمَادِيه على ذلك أَغْضَبَ أَبْطَالَهُم، فلَمْ يُبْطِل شيئًا فيما فَتَحَه من البلدان من أحكام الشرائع والأديان، وقَصَدَ بذلك تنجيز أغراضه الصلحية، وإيجاد الوحدة لِسَلْطَنَتِهِ الفتوحية، فجعل أجناس الأمم في جميع الأقطار المفتوحة مُمْتَزِجَة كأمة واحدة أو كجسد واحد، وجعل حُرِّيَّة التمسك بالشرائع رُوحَهُ، وصمم على أن تكون أُمَمُ سلْطَنَتِه كعشيرة واحدة، ودائرة مُلْكِه وطنًا مركزيًّا، وجميع الأهالي خطوطًا شعاعية مُنْبَعِثَة من المركز إلى المحيط، ولم تُسَاعِدْه المقادير حيث الأمل طويل والعمر قصير.

ولنَذْكُر نبذة موجزة من تاريخه، فنقول: هو إسكندر بن فليبش المقدوني، تولى أبوه على مقدونيا جهة إقليم روح إيلي، فرَتَّبَ المملكة ونظَّمَهَا، ثم عَزَمَ على تحصيل مقاصد مهمة من أعظمها ترتيب العساكر والقوانين، واخترع كيفية في صف العساكر، يقال لها: الكردوس، على هيئة المثلث، فكانت مرهبة في ذلك الوقت كإرهاب شكل القلعة المربع الذي عليه العمل في الحروب في هذا العهد، وجعل الكردوس نحو سبعة آلاف نفر، وقسمها إلى ستة عشر صفًّا بعضها وراء بعض، وأسلحهم بحراب طوال جدًّا حتى إن حراب الصف الأخير كانت تصل إلى الصف الأول، فصاروا بهذه الهيئة مَهِيبِين لا يستطيع العدو أن يَظْفَرَ بهم.

وكان يُعَامِل العساكر بالرفق واللين، ويدعوهم بالأصحاب، ويُعَلِّمُهم قواعد الحرب والقتال، وكان حُسْن سياسته بقَدْر كمال شجاعته وقوة ذكائه وفطنته، فتوصل بذلك كله للاستيلاء على جميع اليونان، فأحبه الجميع وأطاعوه، فأَدَّاه طَمَعُه في الفخار وحُبِّ الاشتهار إلى أمر عظيم لا يمكن لغيره الإقدام عليه، وهو أنه قَصَدَ محاربة العجم؛ ظنًّا منه أنه يَظْفَرَ بمملكتهم، وطَلَبَ من جميع أمم اليونان أن يكونوا معه في ذلك، فَتَلَقَّوْا ذلك بالقبول وحَمِدُوه على هذا المَقْصِد الحسن، وقَلَّدَ نَفْسَه رياسة الجيوش الحربية، وكان قد استشار الكهنة في ذلك على حَسْب عادة اليونان، فأجابوه بكلام مُتَشَابِه وأقوال مبهمة مُحْتَمِلَة لِمَعَانٍ متعددة؛ حيث قالوا: لَبِسَ الثَّوْرُ التاج والإكليل، ودَنَا أَجَلُهُ فهو ذبيح عما قليل، فحَمَلَ ذلك على مَلِكِ العجم، فبينما هو يَصْنَع عرسًا لزواج بِنْتِه إذ قَتَلَه بعض

الأمراء فمات لِوَقْتِه، وكان قد رُزِقَ ابْنَه إسكندر الذي شَبَّ في حياته، وأَيْنَعَ نَضِيرُ غُصْنِه في حدائق العز وروضاته، فعَزَمَ على أن يُعَلِّمَه العلوم والمعارف، فرأى أنه لا يُنْجِب إلا إذا أعطاه لأعظم حكماء زمانه، فلم يَجِدْ أفضل من أرسطاطاليس، فكَتَبَ له جوابًا مَضْمُونه: «قد رَزَقَني الله بولد فحَمِدْتُه وأَثْنَيْتُ عليه، لا سيما أنه أعطاني إياه في زَمَنِكَ، فالمرجو أن تَجْتَهِدَ في تعليمه وحُسْن تربيته؛ ليكون أهلًا لأن يَخْلُفَنِي على مقدونيا» فامتثل الحكيم أَمْرَه فَهَذَّبَ أخلاق إسكندر، وجَعَلَهُ أهلًا للإمرة، فكان إسكندر في أيام شبوبيته تَلُوح على وجهه بشائر الخير العميم، مع ما تَعَلَّمَهُ من أبيه ومن أستاذه من أنواع التعليم، فقد أَخَذَ عن مُعَلِّمِه ما له دَخْل في رياضة ذِهْنِه، وتنوير عَقْله بأنوار معرفة الأخلاق والآداب ومآثر التواريخ، التي هي مرآة أفعال الملوك الماضين، يَنْظُر فيها المتأخر حَسَنَات أو سيئات السابقين.

قال بعض المؤرخين: لو فَرَضْنَا أن التاريخ غيرُ نافع للآحاد؛ فلا يستغني عنه أَحَدٌ من ملوك الدنيا الذين وَلَّاهُم الله رِقَاب العباد، فإنهم يطلعون فيه على ما تَنَاوَلَتْهُ الأنفس والشهوات، واقتضته المنافع بحسب الأحوال والأوقات، ويَنْظُرون فيه وقائع الأزمنة والأمكنة، والأحوال الظنية والمتيَقَّنة، والآراء الصائبة والأهواء الكاذبة، وهل التاريخ إلا أفعالهم السياسية وأشغالهم الرياسية، فمرجع أمورهم إليه ومدار عَمَلِهم عليه، فإنه مُشْتَمِل على التجاريب، وهي لازمة لهم في حَزْمِهم وإجراء أَحْكَامِهِمْ على وَجْه مُصِيب، فإذا رَأَوْا في التاريخ ما يُمْدَحُ تبعوه، أو ما يُذَمُّ هَجَرُوهُ واجْتَنَبُوهُ، فبذلك أضافوا إليه تجاريبهم المستفادة، وانتفعوا بالأصل والزيادة، فينبغي لهم أن يَتَشَبَّثُوا بذلك، ويَتْرُكُوا ما اعتادوا عليه من سُلُوك أَقْرَب المسالك من الاقتصاد على الأمور الوقتية التي تُسْتَنْتَجُ من أحوال الرعية، أو تَسْتَدْعِيها مفاخرهم الذاتية الهوائية، فيَقَعُون في الحيرة لعدم استنارة البصيرة، فإذا استعانوا بالتاريخ أَصْلَحُوا عقولهم بالتجاريب، ولم يَقَعُوا في مَضَارِّ الحوادث الماضية، ولم يأخذوا منها بنصيب، وإذا طلعوا في الوقائع التاريخية على ما وَقَعَ لغيرهم من العيوب الخفية، التي يُمْدَح الملوك في حال حياتهم من أهل النفاق، وتبقى ملوِّثة لصحفهم التاريخية، التي تَسِير بها الركبان في جميع الآفاق اتَّعَظوا بذلك واعتبروا كل الاعتبار، فإذا تَمَلَّق إليهم المتملقون، وتَذَكَّرُوا ما اغْتَرَّ به في مثل ذلك السابقون؛ خجلوا من فَرَحِهم بباطل المديح، ورجعوا في العمل للرأي الرجيح، وأيقنوا أن الفخر الحقيقي لا تَسْتَحِقُّه الملوك إلا بالفضائل المأثورة للخلف، وأن عاقبة الفعل السيئ الندم والأسف، فقد تَنَزَّهَتْ نفس إسكندر عن ذلك، وقد كان مولعًا بمطالعة تاريخ نُصْرة

تروادة اليونانية، التي جَمَعَ حربها جميع أمراء الممالك، فكان جل رغبته وميله للمفاخر العسكرية؛ لما شَاهَدَهُ من هذا التاريخ من الثناء على فحول الرجال من الأمة اليونانية، وطالما شُوهِدَ تَنَفُّسَه الصُّعَدَاء غير مرة حين أُخْبِرَ أن أباه فليبش انتصر في الوقائع، قائلًا لبعض أخصائه: ها هو أبي قد تَغَلَّبَ على جميع البلدان بسيفه، وما أبقى لسيفي شيئًا ما، وبينما كان يَتَحَدَّثُ ذات يوم مع سفراء مَلِك العجم، فما سألهم عن زينة بلادهم ولا زخارفها وتنعماتها، بل سألهم عن المسافات بين البلاد وقوة الدولة، وكيفية سياستها وتدبيرها، وسلوك مَلِكِها، فتعجبوا غاية العجب، وقال بعضهم لبعض: إن هذا الأمير لعظيم، وأما مَلِكُنَا فهو أمير غني فقط، وكان يُتَراءى في طبيعة إسكندر في حال صِغَرِه الشجاعة، وحُبُّ الرياسة والتدبير، وشدة الميل للتلذذ بذوق اقتحام العظائم، حتى إنه امْتَازَ واشتهر غير مرة في الحرب تَحْت لواء أبيه في حداثة سِنِّهِ.

ولما مات أبوه كان ابن عشرين سنة فخَلَفَه على المملكة، وكان جديرًا بإلقائه الرعب والهيبة في قلوب الأمم، وكان يَظُنُّ بَعْضَ ممالك اليونان الذين كانوا تَحْتَ طاعة أبيه أنهم يغتنمون الفرصة بالخروج على إسكندر، فأشهروا السلاح فانتصر عليهم جميعًا في غزواته التي كان رئيسها بِنَفْسِه، فلما رجع إلى مقدونيا اسْتَعَدَّ لفتح بلاد آسيا، وأبى أن يَتَزَوَّج خوفًا من ضياع الزمن في وليمة العرس ومن ضياع الأموال في الأفراح، بل أَغْدَقَ بما عنده من الأموال على كبار عَسْكَرِه برسم الأنعام، فقال له بعض الأمراء: ما أَعْدَدْتَ للإنفاق على نَفْسِك وعسكرك؟ قال: أَعْدَدْتُ لذلك كله قوة الرجاء، فأبقى في مملكته ثلاثة عشر ألف رجل للمحافظة، واستصحب معه خمسة وثلاثين أَلْف مقاتل، لكنهم أبطال تحت طاعة شيوخ مُجَرِّبِين، ثم تَوَجَّه إلى آسيا وليس معه من المال إلا نحو سبعين مثقالًا من الذهب، ومن الذخيرة أهبة شهر واحد؛ وثوقًا بقوته، وطَالِعِ سَعْدِه، وضَعْفِ أعدائه، وطَالِعِ نَحْسِهم، وكانت بلاد آسيا تَحْت طاعة العجم يَحْكُمون على جميع ممالكها، وكانت قد أَشْرَفَت على الخراب؛ لاتِّسَاع سلطنتها، وسوء تدبيرها، واستعبادها للأمم، وظُلْم ملوكها، حتى إن أولات أقاليمها كادوا يكونون مُلوكًا مستقلين لِبُعْدِهم عن مركز السلطنة، الذي كان إذ ذاك منبعًا للفتن والاختلال، وكان دارا هو مَلِك الملوك يحكم بلاد آسيا الشرقية، ويحكم من بلاد أفريقيا مملكة مصر، فَفَتَحَ إسكندر البلاد التي كانت تحت ملوك العجم جميعها حتى وَصَلَ إلى الشام وفَتَحَهَا، وعقب فتوح بلاد الشام انْطَلَقَ إلى مصر، وكانت دولة العجم مبغوضة للمصريين؛ لازدراء العجم بدين أهل مصر، وتشديدهم عليهم في تَرْكِه، فتلقى المصريون إسكندر بالترحيب ورغبوا في

حكومته؛ لينقذهم من أعداء دينهم، ثم قَصَدَ استمالة قلوبهم إليه، واستعطافهم لمحبته، وإقبالهم بالقلب والقالب عليه، فاغْتَفَرَ لهم أن يتمسكوا بشرائعهم وعوائدهم، وأَسَّسَ بمصر مدينة إسكندرية، التي صارت من أعمر مدائن الدنيا وأزهاها، وأَيْنَعِها بالعلوم النافعة والتجارات الساطعة؛ لأن الأبنية الجسيمة من المنافع العمومية العظيمة، التي تَمْنَح بانيها من العز والفخار بقَدْر ما تُكْسِبه الغزوات المخربة من الكراهة والنفار.

ثم كانت وفاة إسكندر بعد فعاله العجيبة بمدينة بابل قبل الميلاد بثلاثمائة وثلاث وعشرين سنة، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، ولم يَرْضَ أن يُعَيِّن وارثًا بعده، بل قال: قد أَبْقَيْتُ وراثة السلطنة للأحق بها، وأَخْبَرَ أنه سَيُسْفَك الدم في جنازته، فكانت الحروب الداخلية وانفصال الممالك عن اتصالها عاقبة فتوحاته بعد انقضاء حياته، فكل واحد من أمراء جيوشه أَخَذَ مملكة جسيمة، فلما تَقَاسَم أمراؤه سَلْطَنَتَهُ سُمُّوا بملوك الطوائف، ولم تُعَدَّ فتوحاته من النوافل، بل تَرَتَّبَ عليها مزايا جسيمة للتمدن والمنافع العمومية، حيث بَقِيَت الاجتماعات والعلاقات السياسية مُدَّة عشرة قرون بين أهالي المشرق والمغرب؛ وذلك لأن قطعة آسيا قَبْل فتوح إسكندر كانت مغلوقة الأبواب عن قطعة أوروبا لما بينهما من العداوة.

فمن عَهْد هذا الفاتح فُتِحَتْ أبوابها للتجارات، فبواسطة ذلك انْتَشَرَت العلوم والمعارف في المدن؛ لاستفادة بعضها من بعض، وكذلك تَرَتَّبَ على فتوحاته تَجَدُّد عائلات الملوكية في البلاد اليونانية، شُيِّدَت ممالكها في البلاد، فكانت من الدول القوية، وحسْب إسكندر أنه خَلَفَه على مصر الملوك البطالسة، فهم الذين أَعْلَوا درجتها وأعادوا بَهْجَتَها، حتى صارت مصر في عَهْدِهم على هيئة جليلة، وصورة استعداد جميلة، وعاد إليها فَخْرُها القديم في تلك الحال الراهنة، وكان قد أَنْعَم باستيلاء الأعجام وتغلبهم على ملك الفراعنة، فتحَقَّقَتْ ثمرة فتوح إسكندر، وبدا صلاحها في مصر ومضافاتها، وظَهَرَتْ نتائج عَقْل ذلك الفاتح المقدواني في عهد البطالسة بالأصالة وبعدهم بالتبعية، وكان أولهم بطليموس اللاغوسي، وكان يَعْرِف أهمية مصر ورفعة قَدْرها وامتيازها بين الممالك، فأول ما تَقَلَّد مُلْكَها أحسن التدبير والسياسة، واهتم بالمدافعة عنها ممن يريد الهجوم عليها، فكان لا يَغْلِبه غالب، وسبب ذلك مَنَعَة ميناتها التي يَصْعُبُ الدنو منها، وميل المصريين إليه لِعَدْله وتحبُّبِه إليهم؛ لأن مَيْل الرعايا لملوكهم هو الحرز الحريز، والحصن الحقيقي لحفظ الملوك والممالك.

وقد تَفَرَّغَ هذا الملك بعد النصرة على أعدائه في الخارج إلى تنظيم المملكة، فشَرَعَ في تتميم مباني إسكندرية؛ لتصير من أعظم مدائن الدنيا، فبنى ضريح إسكندر الأكبر، وكان قد أَحْضَر معه جُثَّتَه من بابل إلى الإسكندرية، فبنى له هيكلًا عظيمًا، ويَغْلِب على ظن أرباب المعارف أن قبر إسكندر بقُرْب المحل المسمى بنبي الله دانيال أو هو هو، وكذلك أنشأ منارة الإسكندرية الشهيرة بجوار المينا البحرية لمنافع التجارات، والأسفار البحرية، وفوائد المعاملات الأهلية والأجنبية، التي هي إحدى عجائب الدنيا، كما قال فيها بعض الشعراء:

وساميةِ الأرجاء تُهْدِي أخا السرى	ضياءً إذا ما حَنْدَسُ الليل أَظْلَمَا
لَبِسْتُ بها بُرْدًا من الأنس صافيًا	فكان بِتَذْكَار الأحبة مُعْلَمَا
وقد ظَلَّلَتْنِي من ذراها بَقِيَّةٌ	أُلَاحِظُ فيها من صِحَابي أَنْجُمَا
فخيل أنَّ البحر تَحْتِي غَمَامَةٌ	وأنيَ قَدْ خَيَّمْتُ في كَبِدِ السَّمَا

ومن أنفع ما أنشأه بطليموس في الإسكندرية المدرسة العظيمة المتصلة بقصره، فقد جَمَعَ فيها جميع العلوم المألوفة في ذلك الزمان؛ من فلسفة، ورياضيات، وطبيعيات، وإلهيات، وعلوم طبية، وجَلَبَ إليها علماء لليونان وغيرهم، فصارت إسكندرية في قليل من الزمان مَرْكَزًا للمعارف جميعها، وأنشأ في هذه المدرسة الوسعية كتبخانة ملوكية، جمع فيها نفائس الكتب القديمة، وجَلَبَ إليها النساخين والمصححين والمجلدين والمذهبين.

وكان يستعير الكتب الجليلة من محالها، فينسخها ويرسل المنسوخ لأربابه، ويبقى الأصل في خزائنه، فكَثُرَت الكتب النافعة من جميع الفنون والعلوم في هذه الكتبخانة، وكان له العناية الكاملة بالفنون البحرية وبناء السفن؛ لتكثير الأسفار والترغيب في ركوب البحار، فكأنه أراد محاكاة الصوريين، حيث صَارُوا أصحاب تجارة الدنيا بأجمعها بحُسْن مَوْقِع مدينتهم للتجارة، وبابتداع سُفُنِهم البحرية، حيث أطاعَتْهُم الأمواج، وخَضَع لسفنهم البحرية العجاج، ولم يكترثوا بالعواصف والقواصف، وجَرَّبوا البحار وأعماقها، وجَسَّسوا قرارها، وعَرَفوا مخاضها وأغراقها، ورصدوا النجوم بالبعد عن البر وفي بحبوحة البحر، وجمعوا الأمم الأجنبية التي فَصَلَتْ بينهم البرور والبحور، ونَظَمُوهم في سلك نضيد كأنهم عقود في نحور، فكانوا في الصنائع والفنون عطاردية، وأرباب صَبْر وتَجَلُّد على الحركات العملية، وحازوا النظافة في المَسْكَن والمَلْبَس والمَطْعَم، وكانوا مع ذلك أرباب قناعة واقتصاد فيما خَوَّلَهُم به المولى المُنْعِم، وكانت حكومتهم ذات

ضبط وربط وتدقيق وحُسْن الملاحظة وتفتيش وتحقيق، لا يُدْخِلون بين الأهالي الشحناء والشقاق، ولا يَحِيدون عن سبيل الوفاق، بل هم دائمًا إخوان صفاء ورفاق، وهم أشد الأمم تَمَسُّكًا بهذه الخصال، كما أنهم أهل صداقة وأمانة وكمال، عندهم الراحة للأمم الأجنبية، بل يعتبرونهم كأهالي الوطنية، فبهذا أَيْنَعَتْ عندهم أزهار التجارة النافعة، والمعاملة مع سائر أمم البرية، وقد تَنَزَّهُوا عن العداوة والحسد، وتَمَسَّكوا بالاقتصار والكد، وأكرموا أرباب الفنون، وحافظوا على الأمانة في سِرِّ التجارة المصون، ولم يَحْتَكِروا التجارة ولا الصناعة، ولا تَرَكُوا البشاشة والترحيب لأرباب البراعة؛ فلهذا كانت شوكتهم قوية، ومملكتهم مُثْرِية غنية، فيسير ملك مصر السالف الذكر على سُنَن الصوريين، عاد فن الملاحة على مصر بالثروة لكثرة المعاملات التجارية مع البلاد الذاتية والقاصية والأمم الأجنبية؛ كأهل بَلْخ وهمدان والهند والسودان والحبشة والقيروان، وبثروة الأهالي أَثْرَت الحكومة المصرية، وقَوِيَتْ شَوْكَتُها، وعَظُمَ سُلْطَانُها، وارتفع شأنها، وانْتَشَرَت الأعلام الملوكية على هذه السفن، فَكَانَتْ محترمة الناموس عند جميع المِلَل والدول، وعَظُمَتْ قوة مصر البرية والبحرية، فكانت في أيامه يمكنها الاستحضار على مائتي ألف من العساكر المشاة، وأربعين ألفًا من الفرسان، وعلى ثلاثمائة من الأفيال الحربية، وعلى ألفي عربة مُسَلَّحَة بالمناشير والمناجل، وكان في خزينة المهمات المصرية ثلاثمائة ألف طقم مجهز من الزرد، وكان بالترسانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة، وكان ما يبقى من الخزينة مُوَفَّرًا في كل سنة من الإيراد بعد الصرف الوافي نحو مائة ألف كيس، فكان الوفر يَتَرَاكَم على مر السنين وتداول الأيام، فكانت المملكة غنية، وعلى حالة في ثروة تلك الأزمان مرضية، وكانت التجارة الأهلية، والقادمة إلى الإسكندرية تحت حماية السفن الملوكية، فصارت الإسكندرية بذلك عامرة بالسكان المحبين لملكهم، بترخيصه لهم في التجارة والأرباح، وحُسْن معاملته مع الأجانب، فكانت التجارة تَكْتَسِب كل يوم النمو والزيادة.

وكان هذا الملك يَجْلِب دائمًا الأهالي من أوطانهم؛ للاستيطان في الإسكندرية حتى إنه رَغَّبَ طوائف اليهود بالدخول إليها حتى تكاثروا فيها، وعَمَرُوا فيها خطة كبيرة تُسَمَّى حارة اليهود، ومع ذلك لم يهجروا مدينة مَنْف، بل جعلها دار المملكة الرسمية، فلما تَوَلَّى بعده بطليموس الثاني محب أخيه قبل الهجرة بسبع وتسعمائة كانت مُدَّتُه أيضًا خيرًا من مدة أبيه فصرف هِمَّتَه في تقديم العلوم والمعارف والتجارات، فكانت مصر في أيامه أَعْمَر بلاد الدنيا؛ لأن أباه كان قد أضاف إلى مصر بلادًا كثيرة؛ كمملكة

القيروان، وسواحل الشام، وبلاد العرب المجاورة لمصر، وجزيرة قُبْرُص، وجزائر بَحْر الروم، وأغلب مينات أناطلي الجنوبية، ومينات سواحل رُوم إيلي، فقَنَعَ الملك بهذا الميراث العظيم، والْتَفَتَ إلى العمليات الجسيمة التي تعود على مصر وعلى ممالك الدنيا بالمنافع العظيمة، فاعتنى باستكشاف طرق البحار بالأسفار لمعرفة المسالك والممالك، فاستكشف بلاد أفريقيا وثغور بَحْر عُمَان وفارس، وأرسل من يستكشف مَنْبَع النيل، فوصل قبطانه إلى جزيرة مروة بقرب شِنْدِي، وهي جزيرة أتبرة، وأرسل قائدًا آخر إلى تلك الجهات، فَوَصَل فوق ما هنالك، وانعطف إلى جهة المغرب، فبِهَاتَيْن السياحتين اتَّسَعَتْ دائرة المعاملات التجارية، وكَثُرَت المخالطة بين الديار المصرية والسودانية، وتَقَدَّمَت المعارف الجغرافية، وعُلِمَتْ في مصر أحوال البلاد والعباد، واجتهد هذا الملك في تأييد المعاملات التجارية بين مصر والممالك الهندية والشرقية، وأرسل سُفُنَه أيضًا لاستكشاف سواحل الحبشة، وأَمَرَ رؤساءها أن تُبْقِي فيما تَسْتَكْشِفه محطات عسكرية ومراكز تجارية، وكان مَسِيرها من مينا القصير، فكان بَنْدَر القصير موردًا ومصدرًا للتجارات السودانية والعربية والعجمية والهندية، وكانت إسكندرية مَرْكَز العموم، ومَحَطَّ رحال التُّجَّار كما هو معلوم، ولم تَنْتَقِل عنها فضيلتها الأولية في أيام حكومة البطالسة، فكانت قُطْب دائرة الدنيا، بدون أن يسوغ لمدينة أخرى أن تكون لها منافسة.

ثم بتداول الأزمان ضاقت دائرة تجارتها ومحيط صناعتها في الأعصر الأخيرة، ومع ذلك فلم تزل منابعَ للمنافع النسبية غزيرة، لا سيما بعد فُتُوح الإسلام، فقد عَوَّضَ الله تعالى مصر دون غَيْرِها في صدر الإسلام وبَعْدَه تجارة لن تَبُور، واكْتَسَبَتْ تَمَدُّنًا آخر أعلى من الأول، وبقي القرون العديدة، وأَخَذَتْ منه مُدُن الدنيا بِحَظٍّ موفور، وناهيك بتقدم التمدن أيام خلفاء بغداد، ونَقْل الخلافة بمصر في أيام الفاطميين، فإنه انْسَحَبَ أَثَرُه على جميع البلاد، فإن يكن التمدن قد قَصُرَ في مصر، وانحط عن قَدْره الأصيل؛ فإنما كان ذلك في أيام المماليك الذين أساءوا في تدبيرها، وسَعَوْا في خرابها وتدميرها؛ بما جُبِلُوا عليه من العسف والتعدي، وعَدْلِهم عن الجادة بسلوك ما ليس يُجْدِي، حتى أَنْقَذَهُمْ منها شوكةُ آل عثمان، وغارَتْ دولة الغوري بمصر، واطمأنَّتْ قلوب أهلها بسلامة السلطان سليم خان، وقَتْلِه للسلطان طومان، ومع ذلك فصارت مصر مترددة متحيرة لتداول أيدي الولاة العثمانيين المختلفين في درجات العدل المعتبرة، مع بقاء نفوذ أو جافات الشراكسة أهل الحمية والعصبية، ولم يكن لأكثرهم أدنى حظ في قصد التمدنية، فاستبدلوا الربح بالخسران، وآثروا التدمير على العمران، وحل الخوف في أيامهم محل الأمان، فانْحَلَّ

نظامهم، واختلت أحكامهم، فطَمِعَتْ دولة الفرنساوية في أن تَجْعَل حكومة مصر مُلْحَقَةً مضافة إلى ملكتهم بالجر على وَجْه الإضافة، وتَغَلَّبَتْ عليها، وأرادت بها ما أرادت، وأراد الله خِلَافَه، فأُعِيدَتْ كما كانت إلى دار الخلافة، ولكن كان لحكم المماليك قُوَّة نفوذ غالبة، وأظفار أسود ناشبة تفتك بالرعية، ولا ترعى حقوق الدولة العلية، ولا واجب الإنسانية، حتى آن الأوان وسَخَّرَ الله سبحانه وتعالى لخلاصها من أيديهم بفتكهم أول أمير عجيب، خرج من قوله وثاني فحول أمراء مقدونيا محمد الاسم علي الشأن، كما أشار لذلك بعض شعراء الفرنساوية بما معناه:

فِعْلُك الخير بَعْدَه حُسْنُ ذِكْرِ ... مُسْتَمِرٌّ على مَدَى كُلِّ دَهْرِ
فاغْتَنِمْ حَوْزَ مُشْتَهَى نِيلِ مِصْرِ ... فَلَقَدْ شَابَهُ دَمًا سَيْفُ نَصْرِ
وَغَدَا في حِمَاكَ يُنْفِقُ رِفْدًا ... فائقًا عَمَّ نَفْعُهُ كُلَّ قُطْرِ

فإنه بقريحته العجيبة أَوْصَلَ مصر إلى درجة مهيبة، ثم لما آلت المملكة المصرية إلى الحكومة الإسماعيلية بَعْد فترة تَضَعْضَعَ فيها الأساس؛ اجْتَهَدَ في أن يَكْسُوَهَا من المجد والفخار أعظم لباس، وأن يَصُونَهَا داخلًا وخارجًا من الشدة والبأس، حتى تَكُونَ هي الْمِصْر وناسها هم الناس، ولا يَتِمُّ مثل هذا التقديم بدون انجذاب قلوب الأهالي صَوْب مَرْكز التمدن والتنظيم، وتَوَجُّه نفوسهم بالطوع والاختيار إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم؛ بمعنى: أنه إذا تَشَبَّثَت الحكومة المصرية بكليات المصالح الوطنية؛ ساعدها الأهالي كلٌّ على قَدْر حاله بإيجاد المصالح الخيرية الجزئية، بِحَسْب ما يَقْتَضِيه الوقت والحال، فبهذه الوسائل تُتَحَصَّل على المنافع العمومية في أطراف مصر وأكنافها بجميع المحالِّ، فالقوة الوطنية والنخوة الأهلية مما يُنْتِج إظهار شعائر الإسلام، ويَبْتَهِجُ به دين خير الأنام، والفضل في ذلك للمؤسِّس الأول الجليل، ولمن يَقْفُو أَثَرَهُ من كل وارِثٍ نبيل، وسيأتي أن ما فعله المؤسِّس الأول هو ما بُنِي عليه من بعده، لا سيما ما حصل من التجديدات في هذه الأيام، مما يكاد أن يعجز عنه البشر، فالأعمال الأخيرة شواهد، وها هي نُصْب عين كل مُنَاظِرٍ ومُشَاهِدٍ.

الباب الرابع

في التشبث بعَوْد المنافع العمومية إلى مصر حَسْب الإمكان في عهد محيي مصر جنتمكان؛ وفيه فصول.

الفصل الأول

في مناقب جنتمكان محمد الاسم علي الشان، وأنه نادرة عَصْره ومحيي مآثر مصر، والمقابَلة بَيْنه وبَيْن عدة من مشاهير ملوك الأعصر القريبة.

* * *

كان المرحوم محمد علي سليم القلب، صادق اللهجة، أمينًا في تَصَرُّفه، حكيمًا في أعماله، كريمًا إلى الغاية، حريصًا على عَمَار البلاد، وفيًّا في معاشرته، مُحْرِصًا على ود عشيرته وجنوده ورَعِيَّته متحببًا إليهم، وإن كان في بعض المواطن سريع الغضب، فقد كان قريب الرضا، حليف الحلم، صفوحًا عن الجاني، مقدامًا على اقتحام الأهوال، صبورًا على الشدائد وتنقل الأحوال، شديد الحرص على شَرَف نَفْسه وصون ناموسه، قوي الفطنة سريع الإدراك يجول فِكْرُه في الأمور البعيدة، بصيرًا في الحساب الهوائي العقلي، عجيب البداهة، غريب الروية، تَعَلَّم القراءة والكتابة في أقرب وقت وعُمْره خمس وأربعون سنة إذ ذاك جبرًا لما فاته في زمن الصغر، وتداركًا لما يزيد في مجده في زمن الكِبَر، فرَغِبَ في مطالعة التواريخ ولا سيما تواريخ الفاتحين؛ كتاريخ إسكندر الأكبر المقدوني، وتاريخ بطرس الأكبر إمبراطور الروس؛ أي: الموسكو، وتاريخ نابليون الأكبر، وغير ذلك من التواريخ المترجمة إلى التركية، مع المواظبة على الاطلاع على ما في الكازيتات الإفرنجية التي كانت تُتَرْجَم له، وكان صاحب فراسة.

إذا تَكَلَّمَ أمامه أحد بلغة أجنبية؛ فَهِمَ من النظر إلى حركاته وإشاراته مَقْصِدَهُ، يستشير العقلاء والعلماء في جُلِّ أموره، وكان نشيطًا يُحِبُّ الحركة ويَكْرَه الكسل والبطالة، قليل النوم سريع اليقظة، يستيقظ غالبًا عند الفجر، يَسْمَع بنفسه العرضحالات التي تُعْرَض له يوميًّا عند الصباح، ويُعْطِي عنها جوابًا، ثم يَذْهَب لمناظرة العمارات

الميرية التي كان مُغْرَمًا بها، وكان مُتَدَيِّنًا إلى حد الاعتدال بدون حمية عصبية ولا تشديد، فكان يغتفر لأهل الملل والدول في بلاده التمسك بعقائدهم وعوائدهم مما أباحته في حَقِّهِم الشريعة المطهرة، وهو أول مَنْ أعطى للعيسوية الداخلين في الخدامات الميرية لمنافعهم الاقتضائية مزايا المراتب المدنية، وكان يُؤْثِر الفعل على القول؛ بمعنى: أنه إذا أراد ترتيب لائحة مهمة فيها منفعة للأمة؛ شَرَعَ فيها بقصد التجريب، وأجراها شيئًا فشيئًا على طريق الإصلاح والتهذيب، فإذا سَلَكَتْ في الرعية وصارت قابلة لعوامل المفعولية؛ كساها ثوب الترتيب والانتظام، وأخرجها من القوة إلى الفعل في ضمن قانون الأصول والأحكام؛ لما أنه كما يقال: أحسن المقال ما صَدَقَ بحُسْن الفعال، وكان مُولَعًا ببناء العمائر، وإنشاء الأغراس، وتمهيد الطرق، وإصلاح المزارع، وإتقان الصنائع والأعمال، يَرْغَب في توسيع دائرة التجارة، ويستميل عقول الأهالي؛ ليجذبهم إلى ما فيه كسب البراعة والمهارة.

وبالجملة: فكان وحيد زمانه في جميع أوصافه، وفريد أوانه في عَدْلِه وإنصافه، لا سيما بعد أن صفا له الوقت عَقِبَ توليته على مصر، فإنه مَكَثَ قبل ذلك نحو خمس سنين وهو يقاسي ما يقاسي من الشدائد، ويعاني من أخصامه جميع أنواع المكائد، حتى عَزَمَ على رجوعه إلى وَطَنِه الأَوَّلِيِّ بدون صلة وعائد، لكن لوفور سَعْدِه، وتَعَبِه وكَدِّه، وسَبْق القدر بِوَصْله إلى تمام عِزِّه ومَجْده؛ صَرَفَ النظر عن العودة، ونال مِنْ وَاهب العطايا ما هَيَّأَهُ له من تَبَوُّئ بحبوحة الملك وأعده، ولا شك أنه عَرَفَ داء مصر وعلاجها في أثناء هذه المدة، ولا بد أيضًا أنه كان نَوَى لها تحسين الحال والمآل إنْ بَلَّغَهُ الله الآمال وأمده، ولا يَخْفَى أن مَنْ قصد الاستيلاء على مملكة لا يخلو عن أحد أمرين: إما أن يكون كالصياد يَقْتَنِص مَصِيدَه بكل مَكِيدَة، أو كالملتقط لليتيم المفارق أبويه؛ ليُنْقِذَه من التهلكة، ويجعله وليده، فالأمر الثاني هو الممدوح، وهو مَقْصِد حميد لأولي الفضائل من أصحاب الفتوح، فإنه مَقْصِد سَنِيٌّ ومَطْلَب هَنِيٌّ، فاستقامة الأمور لهذا الأمير الكبير وما حصل له في الاستيلاء على مصر من التسخير والتيسير يدل على حُسْن النية وصفاء الطوية، فكأنما أَرْشَدَه إلى بلوغ هذه المنزلة مصداق حديث: «اعملوا، فكل ميسر لما خُلِقَ له»، فكان دأبه في العناية بشئون تقديم مصر الإخلاص وحسن النية، فأعماله صارت على ذلك مبنية، وقد خَلُصَتْ نِيَّتُه فهَبَّت صَوْبَه نسمات القبول، وأصاب بشرف النفس وعُلُوِّ الهمة وإخلاص العمل إدراك المأمول، «قال» عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة

يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، ومرجع هذا الحديث: أن الأمور بمقاصدها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ فالمدار على الإخلاص في العمل. وعن أبي موسى الأشعري قال: «يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأيُّ ذلك في سبيل الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل» يعني: فالعمدة على النية؛ لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، وقوله ﷺ: «ليس للعامل من عمله إلا ما نواه» فتَحْت هاتين الكلمتين من كنوز العلم ما لا يُوقَف له على غاية؛ ولذا قال الشافعي رضي الله عنه: «حديث الأعمال بالنيات يدخل في نصف العلم، وذلك أن للدين ظاهرًا وباطنًا، والنية متعلقة بالباطن، والعمل هو الظاهر، وأيضًا فالنية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح.» وقال بعض الأئمة: «حديث الأعمال بالنيات ثلث الدين، ووجهه أن الدين قول وعمل ونية.» وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يَنْظُر إلى صُوَرِكم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وفي حديث آخر: «تَصْعَد الملائكة بالأعمال، فينادي الملك: أَلْقِ تلك الصحيفة، فتقول الملائكة: ربنا، قال خيرًا فحفظناه عليه، فيقول الله تبارك وتعالى: لم يُرِدْ به وجهي، وينادي الملك: اكْتُبْ لفلان كذا وكذا، فتقول الملائكة: يا رَبِّ، إنه لم يَعْمَل، فيقول الله عز وجل: إنه نواه»، وقال الثوري: «كانوا يتعلمون العمل، فكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملًا لله، فيقال له: انْوِ الخير، فإنك لا تزال عاملًا وإن لم تَعْمَل» فالنية تَعْمَل وإن عُدِم العمل، والناس في النيات على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: من ينوي بالعمل وجه الله عز وجل، والطبقة الثانية: من ينوي العمل لله تعالى ويشوبه بقصد الخلق تَبَعًا لا أصلًا، والطبقة الثالثة: ما يكون الباعث على العمل الرياء، فالإخلاص في الطبقة الأولى، والتجرد من الثواب في الثانية، والحرمة في الثالثة.

وقد كان السلف لا يعلمون شيئًا إلا أن تَتَقَدَّمَه النية الخالصة، ومع ذلك فقد نَصَّ العلماء أن مَنْ حَجَّ بنية التجارة كان له ثواب بِقَدْر قَصْدِه الحج، فكذلك الفاتح لملكة إذا نوى إصلاح حالها، وتربية أهلها، وتهذيب أخلاقهم، وإسعادهم، وتنعيم بَالِهم، وتحسين أحوالهم بِرَفْع الظلم عنهم، كما يقتضي به حُسْن الظن في حق المرحوم محمد علي كما هو الواقع؛ فهو مُثَابٌ قطعًا ولو دَاخَلَه قَصْد منفعة دنيوية مما لا يُفَارِق الملوك؛ من حُبِّ المَحْمَدة في غالب الأحيان.

ولو لم يكن من أفعاله الخيرية إلا تخليص الحرمين الشريفين والأقطار الحجازية من عبد الله بن سعود شيخ الوهابية لكفاه، فإن ابن سعود المذكور أَتْعَبَ الحُجَّاج بِقَطْع

الطرقات وأزعج عِبَاد الله، فغزاه جند محمد علي جنتمكان وهزمه بعد حروب طويلة، وأرسله إلى الأستانة، فأَمَرَت الدولة العلية بِضَرْب عُنُقِه ليكون عِبْرة للناظرين، وكذلك حروبه في مورة فإنها من أَجَلِّ الأفعال المبرورة، حيث إن أروام تلك الجهة هجموا على الإسلام في الجوامع والمساجد، فقتلوا منهم الجم الغفير ولم يرحموا الشيخ الكبير ولا الطفل الصغير، وفتكوا بالجميع فتكًا ذريعًا بطريقة فظيعة تأباها النفوس الأبية، وتَنْفِر منها الطبيعة، وطالما قبضوا على سُفُن الإسلام، وقَتَلُوا مَنْ فيها وأذاقوه كأس الحمام، وكثيرًا ما عَذَّبُوا المقتولين بالتمزيق والتحريق، وأضرموا نار الفتنة في جزائر البحر الأبيض بَيْنَ كل فريق، وحَرَّضُوا جزائر كريد ورودس وساقس وغيرها على العصيان، وما خلا من فِتْنَتِهِمْ في الأروام الرعايا بلد ولا مكان.

ولم يقتصروا في الجبروت والطغيان على مخالفة الشريعة العيسوية، بل هَتَكُوا حرمة النواميس الطبيعية، فأرسل إليهم محمد علي باشا عمارته البحرية لِقَمْعِهم وإدخالهم تحت الطاعة، فحاربهم نَجْله الأكبر جنتمكان فدَمَّرَهُم وشَتَّتَ شملهم، ثم استقلوا ببلادهم وفارقوا الجماعة، ولم يَنْتِج من هذه الحرب نتيجة تعود على مصر بالمنفعة، اللهم إلا أن اكْتَسَبَتْ عدة من أرباب الامتياز الوافر من أعيان الأعيان الأكابر من أهالي تلك البلاد الرومية ممن هاجر إلى الديار المصرية، وبها قام وأَدَّى بها الخدمة الصادقة، ونال عُلُوَّ الرتبة والمقام، ومن هذا الجنس الرومي من تَنَاسَلَ بالقُطْرِ وعُدَّ من أبناء الوطن العظام، وإن كان في غزوة البلاد اليونانية فائدة أخرى جليلة فما هي إلا تمرين لرجال العسكرية المصرية على الحروب، وممارستهم للغزو والجهاد، وتعودهم على اقتحام الخطوب تحت قيادة أحد رؤساء الجنود المعدودين، الذي لا يزال صِيتُ صَوْتِه الجهادي باقيًا إلى يوم الدين.

وكذلك فَتَحَ محمد الاسم علي الشأن لغير هذه البلاد من البلدان؛ كفَتْحه للأقطار السودانية مما وَسَّعَ دائرة المنافع الوطنية، وحروبه مع والى عَكَّا معلومة، وجَوَلان جنوده في الشام وغير الشام مفهومة، لم تكن تلك من مَحْض العبث، ولا من ذميم تعدي الحدود إذ كان جُلُّ مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة، تحسبهم أيقاظًا وهم رقود، والدليل على حُسْن النية أن هذه الحسنة التي على صورة الجنية أَنْتَجَتْ أصل وراثة مصر، التي تَرَتَّبَ عليها رَفْع الإصر، ولولا بقاؤه تَحْتَ ولاء الدولة العلية، ومراعات حِفْظ الحالة الراهنة على ما هي عليه من الراجحية والمرجوحية؛ لجال في الفتوحات الخارجة مجال إسكندر الأكبر، وحَسَّنَ حالة التمدن، وجَدَّ في جادة العمران، وفَعَلَ ما فَعَلَه إسكندر حيث اتَّحَدَا في البلد،

فكان لا مانع أن يَتَّحِدَا في المظهر، فمِنْ سَعْد مملكة مقدونيا وتَخْلِيد فخارها أنها مَوْطِن أَمِيرَيْن جليلين، بَقِيَ ذِكْرُهما في الخافقين، أحدهما من بيت الملك رأس اليونان، وقادَهُمْ وفَتَحَ معهم سائر البلدان، فانتصر بالتدبير والأعوان، وتَغَلَّبَ بذكاء العقل وتجاريب الشجعان، والثاني من بَيْت مُجَمَّل ونَسْل أَمْثَل، ساعفَتْه المقادير، واستعان بِحُسْن العقل والتدبير، ولم يكن له بَعْد مولاه غَيْرُ عَقْلِه نصير، فنعم المولى ونعم النصير، أَلْهَمَ جموع أبناء جنسه المجردين عن الانتظام اقتحام العقبات، وحسن الإقدام والإحجام، واستسهال الصعب لنيل المرام:

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصعب أو أُدْرِك المنى　　　فما انْقَادَت الآمال لا لِصَابِرِ

فلما هَزَمَ بهم جيوش المماليك بسائر الجهات، وأَذْهَبَ دولة سناجقهم، وتحققت الحقائق، وزالت الشبهات؛ خَلَعَ على حِزْبِه المراتب السَّنِيَّة، وجعلهم حُكَّامًا في أقطار مصر، وحَصَلَتْ بهم الأمنية، ورباهم كما يُرَبِّي الأستاذ الطلبة، ونال بهم قَصْدَه ومَأْربَه، فلو كان الإسكندر بهذه المثابة لم يُصِبْ من العز ما أصابه، ولا بَلَغَ نصيب محمد علي ولا نِصَابه، وعلى كل حال فقد حَلَّ الثاني مَحَلَّ الأول، فكأنما ذلك وَثِقَ بهذا، وعليه في تتميم المقاصد عَوَّل، كما قُلْتُ في تاريخ بداية القدماء وهداية الحكماء في هذا المعنى من ضمن قصيدة:

لِمِصْرَ بِهِ شأن شريف زَهَتْ بِهِ　　　وَعِزٌّ مَنِيف قد أَظَلَّتْ ظِلَالُهُ
أتاح لها المولى مَلِيكًا قد انتمى　　　إليها ومِنْ أقصى البلاد ارْتِحَالُهُ
مُحَمَّدُ أَفْعَالٍ عَلِيُّ مَكَارِمٍ　　　بديع صِفَاتٍ لا تُعَدُّ فِضَالُهُ
يقول أُنَاسٌ طَالِعُ السَّعْدِ حَظُّهُ　　　وما السعد إلا عَقْلُهُ وعِقَالُهُ
دَفَاتِر تاريخ السلاطين سَطَّرَتْ　　　مَنَاقِبَهُمْ فاسْتَجْمَعَتْهَا خِصَالُهُ
وما مِثْلُها مَقْدُونِيَا إذْ سَمَتْ به　　　وقد كان فيها حَمْلُه وفِصَالُهُ
مَنَازِلُ منها اسكندرٌ فَاتِحُ الوَرَى　　　إذا لم يكن عَمَّ الأمير فَخَالُهُ
يضاهيه في أَوْصَافِهِ الغُرِّ نَجْلُهُ　　　إذا ما تَصَدَّى نَحْو شَأْوٍ يَنَالُهُ

وفي هذا البيت الأخير إشارة إلى جنتمكان إبراهيم باشا كالإشارة إليه في قصيدة أخرى في الرحلة بقولي:

مَنْ كَانَ مِثْلَ أميرنا فَقَرِينُه ... إسكندر اوْ كِسْرَى أَنُو شِرْوَانِ
في كفه سيْفَانِ سَيْفُ عناية ... والشهم إبراهيم سَيْفٌ ثَانِي
بَطَلٌ مَكَارمه الجليلة قَلَّدَتْ ... هَامَ الزمانِ مُكَلَّلِ التيجانِ

ولما كان محمد علي يُحِسُّ مِنْ نَفْسِه بأن عَزَمَاته إسكندرية؛ كان مُتَوَلِّعًا بقراءة تاريخ إسكندر ومُنْكَبًّا عليه، وشبيه الشيء كما يقال مُنْجَذِب إليه، وفي الحقيقة فكان بينهما من جميل الصفات والشمائل ما شَهِدَتْ به الشواهد، ودَلَّتْ عليه الدلائل، فلو استولى أميرنا على مصر وفيها بقايا من حكماء الأعصر المصرية القديمة؛ لحكموا بما يَعْتَقِدُه قدماؤهم في أيام الجاهلية الذميمة؛ مِنْ تناسُخ الأرواح بعد الموت، وإنعاشها لأجسام أخرى، وأن رُوحَ إسكندر انْتَقَلَتْ بعده إلى شبيهه فهو بها أَحْرَى، وأما نحن معاشر أهل السنة فنقول: إن تشريك اثنين وتسويتهما في الصفات الفاضلة والمعاني الكاملة هو مَحْض فَضْل من الله ومِنَّة، وربك يخلق ما يشاء ويختار، وهذا القياس الفارق بينه وبين إسكندر يجري أيضًا في قياسه بأصحاب الخروج والفتوحات الملكين، فقد أعانتهم ممالكهم وجنودهم وقوادهم على كَسْب العز والتمكين.

وقد كان عصر السلطان سليمان الثاني أعظم الأعصار؛ إذ هو الذي قدم الدولة العثمانية إلى أوج الفخار، فافتتح الفتوحات العظيمة، وأعلى كلمة الله، ورفع المنار، وباشر الغزو بنفسه في ثلاث عشرة غزوة، وانتصر في جميعها بقوة التدبير، وتنظيم الجيوش وأي قوة، وبنى الأبنية العجيبة، وفعل كثيرًا من الأفعال الخيرية الغريبة، وأنشأ الدوننما العثمانية، وكان كَهْفًا وملاذًا لأكثر ملوك البلاد القاصية والدانية، وكان في أيامه بأوروبا اثنان من الملوك العظام الأول شرلكان الذي كان مُتَوَلِّيًا على النمسا بلقب إمبراطور، وكان يُسمى كرلوس الخامس؛ يعني: خامس كرلوس من الإيمبراطورة المسمَّيْن بهذا الاسم، وكان مُتَوَلِّيًا أيضًا على إسبانيا بلقب ملك إسبانيا، وكان يُسَمَّى بالنسبة لملكتها كرلوس الأول؛ يعني: أنه أول ملك تَوَلَّى عليها باسم كرلوس، والملك الثاني من الملوك العظام هو فرنسيس الأول مَلِك فرنسا، وكان يُلقب بأبي العلوم؛ لأنه كان يُحِبُّ العلوم والمعارف، كما كان مُولَعًا بالعمائر العظيمة، فقد أَسَّسَ بفرنسا مدرسة مَلَكِيَّة وكتبخانة، وبنى كثيرًا من السرايات والقصور، وأَدْخَلَ في ديوانه الرفاهية وآداب التمدن وتهذيب

الأخلاق، ومع كثرة مصارفه وما كان يُنْفِقه في المنافع والمنازه من خزينته الخصوصية؛ فقد تَرَكَ فيها نحو أربعمائة ألف دينار غير ما لم يَقْبِضْهُ من خزينة المملكة من مُرَتَّب التاج الملوكي السنوي وهو ربع مرتب السنة، وكان بينه وبين شرلكان إمبراطور النمسا السالف الذكر منافسات ومشاجرات أَدَّتْ إلى تواتر الحروب بينهما، ومع أن دائرة الهزيمة كانت دائمًا على شرلكان إلا أن فرنسيس انْهَزَم في واقعة، ووَقَعَ في قبضة خَصْمه وهو شرلكان، وأَخَذَهُ أسيرًا إلى إسبانيا، فاسْتَنْصَرَ الملك فرنسيس المذكور بمولانا السلطان سليمان، وكَتَبَ إليه كتابًا مؤرخًا في سنة تسعمائة واثنين وثلاثين يشكو مِنْ تَغَلُّب أعدائه على مملكته، ويَسْتَصْرِخُ به ويستغيث، فأجابه بعد صدر الكلام بقوله: إن الكتاب الذي أَعْرَضْتَه إلى الأستانة الملوكية مع رسولك المستَحِق لأمانتك أفاد أن العدو حاكِمٌ في مَمْلكتك، وأنك صِرْتَ الآن أسيرًا وتَلْتَمِس من طَرَفِي فَكَّ أَسْرِك، فجميع ذلك عُرِضَ على أقدام سرير سلطنتي العلية التي هي ملجأ العالم، وقد أحاط علمي الشريف بجميع شرح كلامك، ولا غرابة في أيامنا هذه إذا انْهَزَمَت الملوك ووَقَعَتْ في الأسر، فشَجِّعْ قَلْبَكَ، ولا تَتْرُك نَفْسَك تَجْبُن، ففي مثل هذه الأحوال لَمَّا رأينا سَلَفَنَا المُمَجَّدِين وأجدادنا الأكرمين لم يَتَأَخَّروا عن الدخول في قتال الأعداء وفتوح البلاد، فأنا مُقْتَفٍ لأثرهم، فطالما فَتَحْتُ في هذا العهد كثيرًا من الولايات والحصون القوية التي لا يدنو منها أحد، وقد حَرَّمْتُ على نفسي النوم وجعلت سيفي لا يفارق جانبي، والله يُسَهِّل علينا إتمام الخير وغير ذلك، فاسأل رسولك عن جميع ما جرى مما استقر عليه الحال، واقْنَع بما يُخْبِرك به من المقال، فإنه واقع لا محالة، ثم بَعْد رَدِّ الجواب أَرْسَلَ مولانا السلطان سليمان عمارة بحرية، وأَمَّرَ عليها خير الدين باشا يُنْجِدْ بها مَلِكَ فرنسا.

ولما وَصَلَتْ إلى مرسيليا انْضَمَّتْ إلى عمارة الملك فرنسيس، وساعدته على أَخْذ بعض البلاد ونَصَرَتْه على أعدائه، ثم عادت إلى القسطنطينية، وكان خير الدين باشا من أعظم قباطين الدنيا، وكان قد فَتَحَ أخوه بلاد الجزائر في أيام السلطان سليم، ونزعها من يد شيخ العرب سالم بن تيمي وكان حاكمًا عليها، ثم تَقَدَّمَ أخو خير الدين باشا المذكور في توسيع الفتوحات، فأرعب كرلوس الخامس حتى خاف بَطْشَه وخشي أن يَتَغَلَّبَ على أملاك إسبانيا التي بإفريقية، فبعث إليه جيشًا عظيمًا جرارًا، واسْتُشْهِدَ هذا الأمير الخطير عند هذه المدينة، فخَلَفَهُ أخوه خير الدين باشا المذكور على حكومة جزائر الغرب المذكورة، ودَخَلَ في حماية السلطان سليم، وقَرَّرَ على نفسه خراجًا للدولة العلية،

فلما تولى السلطان سليم جعله قبطان باشا على جميع الدوننما العثمانية، فحصن بلاد الجزائر بالاستحكامات اللازمة.

وفي شهر رجب سنة أحد وأربعين وتسعمائة أَرْسَل خير الدين باشا إلى غزوة الجزائر البحرية المُلْحَقة بإسبانيا وغيرها من الجهات البرية كإيطاليا، وتَوَجَّه السلطان بجيشه من جهات البر، وأَرْسَلَ بطريق البحر لطفي باشا وخير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر، وأَمَرَهَا أن تسير وتنزل في معسكره المنصور، فنَزَلَتْ في ثلاث وأربعين وتسعمائة، فقَتَلَتْ في البر والسواحل كثيرًا من الأعداء، واغْتَنَمَتْ غنائم عظيمة، وافْتَتَحَتْ في جزائر ذلك البحر اثنين وثلاثين حصنًا حصينًا من ممالك إيطاليا وغيرها، واقْتَلَعَتْهَا من أساسها، وغَنِمَتْ جيوش المسلمين من الأموال والسبايا ما لا يُحْصَى، وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برًّا وبحرًا.

وكان في سنة إحدى وأربعين تَقَدَّم خَيْر الدين باشا إلى أسوار مدينة تونس، وكان مَلَكَهَا مولاي حسن من بني حفص، وكان في مدة ولايته قد قَتَلَ أربعة وعشرين من إخوته مشتغلًا بلذاته وشهواته غَيْر مُلْتَفِت إلى تحصين بلاده، فافْتَتَحَهَا خير الدين باشا وَطَرَدَه من البلاد، غَيْر أن هذا الفتح لم يَمْكُث إلا مدة قليلة حيث إن مولاي حسن التجأ إلى كرلوس الخامس، فجَيَّشَ على تونس واسترجعها بالحرب لدولة بني حفص، ثم في أيام السلطان سليم ابن السلطان سليمان صار فَتْحُها بالدولة العثمانية، وبَقِيَتْ في أيديهم.

ففي تلك الأيام كانت الهيبة العثمانية عظيمة مُرْعِبَة ملوك أوروبا مع وجود فرنسيس الأول ملك فرنسا، وشرلكان إمبراطور النمسا وملك إسبانيا، وفي أيام هذين القرالين اتَّسَعَتْ دائرة بلاد أوروبا في الفنون والمعارف، وأَخَذَتْ في كمال التقدم، ومن ذلك العهد لا زالت أوروبا آخذة في تقدم الجمعيات التمدنية إلى أن أَبْلَغَهَا درجةَ الكمال عَصْرُ لويز الرابع عشر، وكان ذلك بهمة هذا القرال الذي تاريخه لا ينبغي أن يُهْمَل؛ لما بَيْنَه وبين جنتمكان محمد علي من الشبه الأكمل الأمثل عشر في المفصل والمجمل.

فَلْنَذْكُرْ منه نبذة وجيزة، فنقول: تَوَلَّى هذا الملك على تَخْت فرنسا من سنة ألف وثلاثمائة وخمسين إلى سنة ١٠٧٢ من الهجرة، وكان عمره إذ ذاك خَمْسَ سنوات، ومَكَثَ إلى بلوغ رُشْدِه تحت ولاية أمه فأَبَتْ بِنَفْسِها عنه في المملكة، وقَلَّدَت الوزارة للكردينال مازارين، فكانت مدة مملكته اثنتين وسبعين سنة، فلما تَمَّ عُمْر الملك اثنتين وعشرين سنة باشَرَ أحكام مَمْلَكَتِهِ بنفسه، وكان يَمِيلُ إلى المجد والشوكة، فلا زال مستوزرًا مازارين، فلما دَنَتْ وفاة هذا الوزير وأَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وكان معهودًا منه الصداقة لوطنه ومُلْكِه؛

أوصى الملك أن يُسْتَوْزَرَ بعده كولبرت، وكان من كبار الرجال الفرنساوية، فعَمِلَ المَلِك بِوَصِيَّتِه، وكان كولبرت حَسَنَ التدبير كامل الاستقامة، فبَذَلَ جُهْدَه في تنظيم المالية، وترتيب القوانين العدلية النافعة، وجعل من الأصول مكافأة أرباب المعارف، وتشويق أرباب الصنائع من الأهالي والأجانب، وجَدَّدَ في المملكة الفرنساوية عمارة سُفُن حربية، وأَسَّسَ مدارس العلوم والفنون، واعتنى بالعلوم المستظرفة كالرسم والنقش، وجَعَلَ لها مكاتب خصوصية، وجَدَّدَ من المنافع العمومية ما صَيَّرَ مُلْكَه مهابًا عند الدول الأجنبية، وأَبْطَلَ أسباب الظلم والجور في داخل البلاد، وأقام قسطاس العدل والإنصاف لراحة العباد، وتَحَوَّلَتْ أحوال الأقاليم في الداخل بالعمليات النافعة، وتَحَسَّنَتْ الأحكام والقوانين، وصارت رياض المنافع يانعة.

وفي أثناء ذلك استنار فِكْرُ الملك، وصار قابلًا لملاحظة السياسة بنفسه، ولانتخاب رؤساء مملكته من كل رئيس نافع لأبناء جنسه، وكما أن الوزير كولبرت مُتَقَلِّد بالوزارة المَلَكِيَّة كان المارشال تورين متقلدًا برئاسة العسكرية، وكان هذا الأمير من فُحُول رجال عصره، نافذ الكلمة في الجيوش الفرنساوية في نَهْيِه وأمره، حليف الصبر والحلم في حالَتَي الحرب والسلم، لم يُعْهَد عليه غَضَب مُخِلٌّ ولا حِقْدٌ ولا حَسَد، بل كان يَتَحَبَّب لكل أحد، مع ما كان عليه من الانفراد بالفضائل والمعارف والغرائب واللطائف، وكان إذا وَجَدَ من غَيْره عيبًا سَتَرَه وخللًا سَدَّه وجَبَرَه، وكان مِقْدامًا على الحروب، جَلْدًا عند الخطوب، يُحْسِن مكايد تدارك الأعداء، ولا يَحْمِل أحدًا من العسكرية على أن يخطو خطوة سُدًى، فقد قَضَى زمانه في خدمة الأوطان، وحاز من المجد العسكري أبهى عنوان.

ولما مات أَمَرَ المَلِكُ بدَفْنه في القبور الملوكية، وتَشَرَّف بعد انقضاء حياته بهذه المزية، وكُتِب على قَبْرِه من الشعر ما معناه: قد دُفِنَ تورين في مقابر الملوك، وامتاز بهذه الحظوة بسلوكه في الحروب أَقْوَم سلوك، وقد أَذِنَ لويز الرابع عشر بذلك ليُتَوَّجَ بعد الموت بتاج المجازاة؛ إذ كان هذا البطل قد أَحْسَنَ رئاسة الغزاة، وليفيد ما يأتي بعده من القرون الآتية، أنه لا فَرْقَ في الدرجة بَيْن من بِيَدِه قضيب المملكة، والقائد الذي يَصُون بِحُسن تدبيره الوطن من التهلكة.

فجميع ما كان من الغزوات الفرنساوية والانتصار فيها على الأخصام الأجنبية كان من حُسْن تدبير تورين، وأما كولبرت رئيس الوزراء فإنه قد جَدَّدَ المنافع العمومية، ووَسَّعَ دائرة التجارة الفرنساوية؛ بكثرة الأخذ والإعطاء في الهند وأفريقيا، وجَعَلَ في هذه الممالك الأجنبية قمبانيات فرنساوية، وسَهَّلَ التجارة الداخلية بفَتْح مسالك في الأنهر، بحيث

صارت مسلوكة للسفن، وكذلك فتح طريقًا بين البحرين؛ يعني: المحيط الغربي، والبحر الأبيض، وهو خليج لنفدوق، وقد كان تَصَوَّرَ فَتْحَه فرنسيس الأول مَلِك فرنسا ولم يَشْرَع فيه، ففَعَلَه كولبرت في أيام لويز الرابع عشر، وأنشأ المصانع والمعامل والورشات والكراخانات المتنوعة بتنوع المشغولات، حتى سَلَبَ من البنادقة الاختصاص بصنعة المرايا والتجارة فيها دُونَ غيرهم، ومن الفلمنك صنعة الملابس والمفروشات، ومن بلاد الدولة العلية الاختصاص بصنعة البُسُط والسجاجيد الجيدة، ورَتَّبَ المصالح البحرية من ترسانات ودواوين وعوائد، وحَسَّنَ الزراعة والفلاحة، واكْتَسَبَ المُلْك من أيام وزارته الصادقة في العمل فَلَاحَه، ونَقَّحَ الأحكام والقوانين، وهو المؤسس لمدارس العلوم الكبيرة الملوكية، ولمدارس الرسم لا سيما مدرسة رومية، التي هي بحسن الرسم معهودة، ولم تزل باقية إلى الآن على طَرَف الفرنساوية، ومَرْصُودًا لها دراهم معدودة، ورَتَّبَ مكاتب النحت والنقش والمباني، وحَسَّنَ مدينة باريس بتشييد الأرصفة على نَهْر الصين، وزَيَّنَها بالميادين العمومية الفسيحة، وقَوَّى عِلْم النجوم بالرصدخانة الملوكي، وجَدَّدَ فيها الحسبة والضبط والربط الداخلية، وأدخل حُسْن التربية في الجيوش العسكرية، وسَوَّى بالعمارات بالسواحل المينات المأمونة، وبنى عليها قلاع الثغور المصونة، وجَدَّدَ لِنَفْعِ الملة بتمامها قشلة العساكر السقط على أتم أسلوب وأكمل نَمَط، وعَقَد لمملكة فرنسا على غيرهم من الدول عقود المعاهدات والمحالفات النافعة، وجَعَل الروابط والعلاقات بينهم وبين خلفائهم متواثقة متمانعة، وأَكْثَرَ من الفتوحات الفاخرة التي وَسَّعَتْ لعموم الوطن مُحِيط الدائرة.

وقد رَثَى ولتير الفيلسوفي الشاعر لويز الرابع عشر بذكر بعض المآثر، فقال ما معناه: لم يَتَوَلَّ قَبْلَه مَلِك من تلك العصابة، ولا سَاوَاه غَيْره في تربية الرعية بهذه المثابة، فالفخار شعاره، والمجد دثاره، وكان أَحْظَى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد، كما كان أعظمهم في الهيبة عند الأخدان والأضداد، وربما كان دونهم في ميل الرعية إليه، ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه، فطالما رأيناه تَتَقَلَّب عليه صروف الزمان، وتتلاعب به حوادث الحدثان، وهو عند النصرة يُظْهِر الفخار، ويَتَجَلَّد عند الهزيمة، ولا يَظْهَر بمَظْهر الذل والانكسار، فقد أَرْهَبَ عنده عشرين أمة، عليه تَعَصَّبَتْ، وعلى قِتَاله تحالَفَتْ وتَحَزَّبَتْ، وبالجملة: فهو أعظم الملوك في حياته، كما كان عظيم العبرة عند مماته، انتهى.

وكان في عصر هذا الملك من مشاهير الرجال جماعات كثيرون في كل فن، فكان الملك في أعلى درجات الفخار بالجمعيات العظيمة، المُؤَلَّفَة من هؤلاء المشاهير أرباب القرائح

الكاملة والعقول الراجحة الفاضلة، وقد استعان بجميعهم، وعَرَفَ لكل منهم فَضْلَه، وقَلَّدَه من الوظائف بِقَدْر استحقاقه، فهو مع هذه الجمعيات العظيمة التي سَاعَدَتْ مَظَاهِر سَعْدِه مُخَلَّدُ الذِّكْر عند مَنْ جاء مِنْ بَعْده، وفي بحر مُدَّة حُكْمه تَوَلَّى على الدولة العثمانية سِتَّة من السلاطين، فقد تولى لويز الرابع عشر على دولة فرنسا، وكان إذ ذاك مُتَوَلِّيًا على الدولة العثمانية السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد خان الأول، فخَلَفَهُ ابْنُه السلطان محمد الرابع سنة ثمانية وخمسين وألف ومات في سنة تسعة وتسعين ومائة، وخَلَفَهُ ابنه في هذه السنة السلطان سليمان الثاني، ويقال له الثالث، ثم تُوُفِّيَ في أوائل شعبان سنة ألف ومائة واثنتين من الهجرة.

ثم تولى في هذه السنة السلطان أحمد الثاني ابن السلطان إبراهيم خان، وتوفي سنة ألف ومائة وواحد من الهجرة، خَلَفَه في هذه السنة السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد الرابع، وتُوُفِّيَ في أوائل سنة ألف ومائة وخمسة عشر، ثم تولى السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع سنة خمسة عشر ومائة وألف من الهجرة، وفي أيامه تُوُفِّيَ لويز الرابع عشر، فقد عَمَّرَ لويز المذكور عمرًا طويلًا بِقَدْر عُمْر خمسة من الملوك العثمانية، فكان طُولُ عمره مما أعانه على كثرة مشروعاته وإنجازه جميعها.

فقَدْ عُلِمَ من هذا مساعدة كبار الملوك على مقاصدهم برجال مجربين، يكاد أن تُنْسَب الأفعال العظيمة إليهم؛ كمساعدة خير الدين باشا وأمثاله لمولانا السلطان سليمان، وكمساعدة الوزير مازارين ورئيس الوزراء كولبرت وكالمرشان تورين وغيرهم من مشاهير الأبطال الذين لا يُحْصَوْنَ عددًا، فلو حَظِيَ المرحوم محمد علي في أوائل توليته بأمثال هؤلاء الفحول المُتَّصِفِين بالسياسة والرياسة وذكاء العقول؛ لكان أَعْظَم أبطال الدنيا، ومع ذلك فَلَهُ الفضل الذي كاد أن يختص في كَوْنِه أَعْمَلَ قريحته في تربية رجاله الذين جاءوا معه إلى الديار المصرية، أو الذين انتخبهم ورباهم فأحسن تربيتهم في هذه الديار، وببركة يُمْنِه وحُسْنِ نِيَّتِهِ الخيرية سَلَكُوا معه سبيل الفخار، ونالوا بتربيته كمال الشهرة والاعتبار، فهو بهذه الملاحظة بالنسبة لتلك الأزمان حاز قَصَبَ السبق في ميدان الملوك السابقين، فهو جدير بأن يُعَدَّ من عظماء ملوك الدنيا بيقين، وحَسْبُه أنه أحسن تربية نَجْله الأكبر إبراهيم باشا تربية عسكرية حتى شَهِدَ له بالفضل الحربي جميعُ أمراء جيوش الدولة الأوروباوية، وأيقنوا جميعًا أنه من كبار قواد الجنود الذين اشتهروا في القديم والحديث، وأنه أَوَّل أمير من أمراء الجنود في الدول الإسلامية من القرون الأخيرة، وأما في السياسة المَلَكِيَّة فكان من كبار المدبرين، وإدارته الخصوصية

أَعْدَل شاهد على أنه لو طال عُمرُه بعد توليته؛ لكان من أعظم المعمرين، وقد اقْتَضَتْ حكمة الحكيم أن وَضَعَ في إسماعيل سِرَّ إبراهيم، وأنه حين آل سرير الملك إليه أجرى الله تعالى كَمَالَ خَيْر التمدن على يديه، وما تجدد في عهده من المحاسن الجمة شَاهِد عَدْل على أن مولاه وَضَعَ فيه سِرَّ أبيه وجده، وهي نعمة عظيمة وأي نعمة.

الفصل الثاني

في أن منافع مصر العمومية قد تَمَكَّنَتْ كل التمكن من الذات المحمدية العلية، وتَسَلْطَنَتْ على قَلْبِه وأخذت بمجامع لبه.

* * *

لا شك أن المُومَى إليه أَدْرَكَ بقريحته الصحيحة وفِطْنَتِه الرجيحة أن المملكة المُثْرِية السعيدة، وسائل الثروة فيها، والسعادة هي عين وسائل الصيانة والمجادة، وأنه ينبغي أن يُعَضَّ عليها بالنواجذ، وأن لا يُفْتَح لشواردها سُبُل ولا منافذ، ومن المعلوم أن منبع سعادة مصر بالأصالة الزراعة، فلا يسوغ لها أن تُتَوَقَّع الثروة إلا من المحصولات الزراعية دون غيرها، فليس من بلاد الدنيا بلد يَسْهُل استخراج غزارة محصولاتها كالأراضي النيلية، كما أنه ليس من أقاليم الدنيا ما هو أقرب للتلف؛ إذ أراضيها أَشَدُّ عُرْضَة للفساد بفساد النيل، فهي تابعة له وجودًا وعَدَمًا.

فإذا أَغْمَضَ النيل عينه عنها سَنَة من السنين، وحَجَبَ عنها فيضانه الممزوج بالطينة المخصبة؛ كانت السنة عقيمة ومُجْدِبة، كما إذا أَغْرَقَهَا بمائه الزائد عن الحاجة واللزوم؛ فإن السنة الغرقية كسنة الشراقي تورث الهموم، وحَسْبك في الخصب وضِدِّه ما ذُكِرَ في سورة يوسف الصديق من ذِكْرِ ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ فالآية قد أجادت في وَصْفِ مصر على وجه التحقيق، وقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾، يُرْشِدُ إلى الاحتياط والاحتراس لجميع ملوك مصر وسائر مَنْ فيها من الناس.

فلهذا كان حكماء ملوك مصر يحتاطون في سِنِي الخصب، فلا يُخْرِجون الزائد لغيرها من البلاد، ويَعْتَنُون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل، وتَنْظِيم القناطر والجسور

والترع والخلجان لمصلحة الري في كل طريق وسبيل؛ فلذلك ترى من مباني الفراعنة ما عَظُمَ نَفْعُه من المصالح الخيرية لِحِفْظِ المزارع والمنافع النيلية، فبهذا أَبْدَوْا سعدهم وخَلَّدُوا ذِكْرَهُمْ لمن بَعْدَهُم، واقتدى بهم غيرهم من الملوك.

وعند فتوح الإسلام سَلَكَ الخلفاء والسلاطين والولاة بِقَدْر استطاعتهم في هذا السلوك، وإنما لما صارت مملكة مصر في قبضة الكوليمان، وصار لهم عليها الرياسة، واخْتَلَّتْ أحوالهم، وضَعُفَتْ عندهم السياسة، ولم يَبْقَ لهم من شهامة الحكام إلا مُجَرَّد إحسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة؛ أَهْمَلُوا عمليات النيل، فخسروا من نَيْل الثروة وكَسْب السعادة خسرانًا مبينًا، وهَجَمَ عليهم الفرنساوية، فلم يَجِدُوا لهم من النظام المعنوي ولا الحسي مُنْجِدًا ولا مُعِينًا، فتَبَدَّدَ شَمْلهم بالكلية، وصارت مصر في يد الفرنساوية تُعَدُّ إقليمًا من أقاليم الجمهورية، ولم تَعُدْ للدولة العلية إلا بَعْدَ التي واللتيا، فزَحَفَ عليها المماليك وبالهمة المحمدية العَلِيَّة لم يَلْبَثُوا بها مليًّا، ثم بِتَوَطُّن هذا الأمير وتوطيد هذا السرير أَدْرَكَ أنه لم يَسْتَوْلِ من الأراضي إلا على موات، ولم يَسْتَرْعِ إلا أحياء ضعاف الهمة، وهم في الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية في حَيِّزِ الأموات.

ولعل البطل الهُمَام المؤسس فَهِمَ بقوة فِطْنَتِهِ ما أجاب به عن سؤال عمر بن الخطاب بعد الفتوح مَلِكَ مِصْر المقوقس، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كتب إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس:

> عمارتها وخرابها من وجوه خمسة؛ الأول: أن يُسْتَخْرَج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، الثاني: أن يُرْفَع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصْر كرومهم، الثالث: أن يُحْفَر في كل سنة خلجانها، الرابع: أن تُسَد تُرَعُها وجسورها، الخامس: أن لا يُقْبِل مَطَلُ أَهْلِها، فإذا فُعِلَ هذا فيها عَمُرَتْ، وإن فُعِلَ فيها بخلافه خَرِبَتْ.

فكان المماليك المستوْلُون عليها لا ينظرون إلى عمارتها، وإنما يأخذون ما بدا لهم وراج في كل عامٍ حتى صارت يبابًا وازدادت خرابًا، فقد كان أَهْمَلَهَا المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية، فكانت الأراضي تَفْسُدُ في كل عام في كثير من الأقاليم حتى هَجَمَتْ جيوش رمال البراري على وادي النيل الصالح للزراعة، فتَكَوَّنَ من الرمال على شواطئ

النيل تلال وأكوام، ولو بقي حُكْم إبراهيم بك ومراد بك عشرين من الأعوام لفسدت جميع أراضي مصر الزراعية.

قال نابليون حين تأمله في أراضي مصر: لو حَكَمْتُ هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرنسا وإيطاليا وإنكلترا والنمسا؛ لزادت مزارِعُها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه في أيام المماليك، فإن المزارع تَجْلِب من سواحل أفريقيا ومن جزيرة العرب خلقًا كثيرين، يَنْتَجِعون إليها للميرة لما فيها من الخيرات، انتهى. فقَدْ سَخَّرَ الله تعالى لها محمد علي لإحياء مواتها، وقد قال ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له، وليس لِعِرْق ظالم حق.» يعني: مَنْ عَمَّرَ أرضًا فَقَدْ مَلَكَهَا بالإحياء والتعمير، وليس لمن غَرَسَ عِرْق شجرة ظُلْمًا حَقٌّ فيما غَرَسَهُ، وورد أيضًا: «من أحيا أرضًا ميتة فله فيها أجر، وما أكلته العافية منها فهو صدقة» والمراد بالعافية: كل طَالِب رِزْق من آدمي أو غيره، وصفة الإحياء التي يُمْلَك به الموات شَرْعًا ما يَعُدُّ مِثْلَه العُرْف عِمَارة لِلْمُحْيِي، فيختلف ذلك بحَسْبِ الغرض منه إلا أن إحياء الديار المصرية هي حياة عمومية ملوكية، فلَعَلَّهُ خَطَرَ في خاطر ولي النعم الملحوظات الآتية:

الأولى: أنه لم يكن للنيل في هذه الأيام إلا فرعان؛ فرع رشيد، وفرع دمياط، وأنه يجب عَمْل أقفال وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضي أن لا يَنْصَب ماء النيل في البحر الأبيض إلا ما لا يُمْكِن تركه، فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الفائض جسيمًا، ويَمْتَد على كثير من الأراضي زيادة عما هو عليه، فبهذا تَتَّسِع الأرض الصالحة للزراعة، أو للسكنى أزيد من الحالة الراهنة.

الثانية: إذا صار الاعتناء بتطهير التُّرَع والخلجان كما ينبغي، وصار الاجتهاد في تكثيرها بِقَدْر اللزوم تَمْكُث المياه على الأراضي جزءا عظيمًا من السنة، فيَتَّسِع وادي النيل ومَجْرَاه، ويَمْتَد فيروي الأراضي الصالحة للزراعة، فمن هذه الأراضي القابلة للغرس الواحات الخارجة وجُزْء عظيم مبْدؤُه من برية الفرما وسائر البحيرة ومريوط وما حوالي الإسكندرية، فإن جميع تلك الأراضي كانت في الأزمان القديمة عامرة بالزراعة، وليست من مآثر النيل محرومة.

الثالثة: قد صح بوجه الحدس والتخمين أن بواسطة الطريقة السابقة الْمُسْتَحْسَنَة جدًّا إذا أُجْرِيَتْ بالضبط والمواظبة وحُسْن الهندسة، الصادرة عن فِكْرَة سليمة، الناتجة عن حكومة منظومة، تَزِيدُ في مزارع مصر العامرة ما ينيف عن تسعمائة فرسخ مربع.

الرابعة: الظاهر أن النيل في الأعصر السابقة سَبَقَ مُرُورُه بالفيوم بالأرض، المسماة هناك: بحرًا بلا ماء، وجرى من الفيوم إلى بحيرات النطرون، وكان يخرج منها فينصب في المالح من المحل الذي خَلْفَ قلعة العرب، والظاهر أيضًا أن بركة قيرون، المسماة: بحيرة موريس التي هي كذلك بالفيوم سَدَّتْ هذا الفرع، وصارت بحيرة.

الخامسة: من المعلوم مما سَبَقَ أن خَصْب مصر ويمنها مُتَسَبِّب عن النيل، ويُمْن غيرها الزراعي متسبب عن اختلاف الفصول والأمطار، فبهذا كانت مصر مستعدة لكسب السعادة أكثر من غيرها، بشرط انتظام حكومتها، واجتهاد أهاليها؛ لأن اختلال حكومتها يُخِلُّ بمزارعها بخلاف اختلال غيرها من الحكومات، فلا يُؤَثِّر شيئًا في جريان الفصول والأمطار، فيَنْتِج من هذا أن مصر إذا تَوَفَّرَتْ فيها شروط انتظام الحكومة، وإصلاح النيل، وسهولة وسائل المنافع العمومية، ودَفْع المضار النيلية؛ كَثُرَ خَيْرُها وبِرُّهَا، وإذا اخْتَلَّتْ فَسَدَتْ مزارعها، فاختلال مصر من السنين الماضية أَضَرَّ بها كثيرًا، مع أنه يُمْكِنُ أن تكون أرض مصر ومزارعها مستوية الخصوبة في جميع أجزاء الأقاليم بخصوبة واحدة إذا صار تَعَهُّدُهَا على الوجه السالف الذكر، بخلاف ما إذا أُهْمِلَتْ جسورها على عَمَلِهَا المعتاد، وتُرِكَت الترع بدون تطهير، فإن ذلك يوجِب تَلَف الإقليم بتمامه، ويجعله صحراء لا يُنْتَفَع بها، فتأخير العمليات عن مواعيدها مُوجِب للتلف، فإن الزراعة والحصد مبنيان على أزمان فيضان النيل وكَمِّيات مياهه، وبقوات العمليات تفوت مواعيد الزراعة والحصادة.

السادسة: إذا صار الشروع في عملية قناطر عظيمة تَسُدُّ فرع دمياط ورشيد في المحل المسمى بَطْن البقرة، وعُمِلَ لها أبواب ورباحات ومصارف، فإن بواسطة ذلك يَحْصُل تحويل النيل للمحلات التي لا يَصِل إليها بدون ذلك، فمصلحة الري تصير كاملة، ويصير ماء النيل عند الفيضان ضِعْفَيْن بحجز مياهه، ومَنْع الإسراف فيها بانصبابها في البحر، هذا ما تَصَوَّرَتْه الفكرة الجليلة المحمدية العلية، لا سيما مما أرادت إجراءه فيما بَعْد ببناء القناطر الخيرية، وبالجملة: فكان ميل جنتمكان متوجهًا كلية إلى بَذْل مَجْهوده وقوة نشاطه؛ لإحياء عملية الري والزراعة، وعن ذلك نَتَجَ إحياء مصر وأهلها، واستنشقت في أيامه رائحة الراحة؛ لأنه لما كان الري مضمونًا بهذه العمليات صارت الأراضي المصرية التي هي عناصر أرزاق الأهالي ذات أثمان غالية؛ لِكَوْنِها تؤدي محصولاتها بغاية من السهولة، بِشَرْط ترتيب المياه والاقتصاد فيها، فكانت الحكومة المصرية دائمًا مُتَشَبِّثَة بتحسين مصلحة الري، والاحتراس من الغرق والتشريق، فقد

سَلَكَ جنتمكان في ذلك مسلكًا حسنًا؛ إذ في أقرب زَمَن اكْتَسَبَ من مالية الأراضي أضعاف إيرادها الأول بقدر ست مرات قبل أن يتفرغ لتكثير العمليات النافعة.

وإنما تأخرت أعمال الري الجسيمة التي هي أَهَمُّ مِنْ غَيْرِها في حَدِّ ذاتها وبالنسبة للأهالي، ولتكثير إيراد المملكة؛ لأن غيرها كان في ذلك الوقت أَهَمَّ منها، وهو إيجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج إليهم؛ لتصميم مُلْكِه، والأمن على نفسه، وحماية الوطن، فكانت بالنسبة إلى الباشا المرحوم جميع المنافع العمومية المَلَكِيَّة عرضية، وتابعة للعسكرية التي بها تصميم كرسي الديار المصرية، فلم يَلْتَفِتْ لرواج الزراعة البلدية إلا التفاتًا ثانويًّا، ولم يَصْرِف عليها في أوائل حُكْمه إلا مقادير غير جسيمة بالنسبة لما صَرَفَه على تأسيس العسكرية، ومع قِلَّة الإيرادات إذ ذاك فكان يُحْسِن تدبيره، ويُقَنِّن إيراده على قَدْر مصرفه؛ فلهذا لم تَكُن تحسينات الترع والجسور في مبادي أحكامه مُتَّسِعة، بل كان يَقْتَصِر فيها على الضروري منها.

ومن المعلوم أن النيل لا يُقَاس به غَيْرُه من أنهار الدنيا، فإنه يَسْتَدْعي للاقتصاد فيه تدقيقًا مستمرًّا وتأملًا متكررًا، فلا ينبغي أن يُقَاسَ بالأنهار الواسعة البوغازات، فإن لها عند مَصَبِّهَا ما يُسَمُّونَه حاجزًا، وهو السيف الذي يَرْسُب من الطين وغيره من الأشياء المتجمعة في البوغاز، وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها في البحر، فيَجْعَل مجرى المياه وانصبابها بطيئًا، وأما النيل فإن بوغازه عريض عرضًا ذريعًا مخصوصًا به في أيام فيضانه وفي مائه من الطين الذي يتحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم، فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جدًّا، يعوق السفن المارة من النيل إلى البحر عن الدخول فيه، أو يجعل دخولها خطرًا، وليس لمصر إلا طريق واحد من النيل إلى هذا البحر تُنْقَل منه محصولاتها، فلما كان في أوائل حكومة المرحوم محمد علي طريق رشيد هي دون غيرها الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر إلى البلاد الأجنبية؛ اضْطُرَّ في سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة أن يَفْتَحَ ترعة بين النيل والإسكندرية، وكان في قديم الزمان ترعة تسمى: بالخليج الأشرفي باقية الأثر، وكانت تُوصِل مياه النيل إلى صهريج إسكندرية وَقْت الزيادة، فكان يُمْكِن توسيعها والسفر فيها، إلا أن جنتمكان محمد علي عَمَدَ إلى إنشاء ترعة جديدة سماها: المحمودية، فكانت من أعظم الترع التي أنشأها على كثرتها، فقد فَتَحَ كثيرًا من الترع والخلجان، إلا أنها متفرقة في جهات عديدة ونافعة في موقعها، ولم يَعْمَل صورة ري واحدة عمومية بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة لمشغوليته بما هو أهم من

ذلك مدة طويلة في مبادي أَمْرِه، وفي أثناء ولايته، وإنما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه في العمليات، وعَرَفَ الأسباب والمُسَبِّبَات، واكتسب التجارب، وتفرغ للعمليات النافعة، وكان قد جاء أوانها وتَوَفَّرَتْ وسائلها ونفقاتها، وذلك أن النيل في الحقيقة منه تَكَوَّنَ قَلْبُ مصر وقالبها، وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر؛ إذ لا يَسْتَغْنِي القطر عنها، فالنيل نائب عن الأمطار المرطبة في البلاد الأخرى، وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمي الذي هو عُنْصُر الخصوبة وأَصْل النماء والبركة، حتى اسْتَظْهَر بعض الطبائعيين أن جميع وادي النيل مُتَوَلِّد من الطمي، ويؤيد هذا القول ما ذَكَرَهُ الأقدمون من أن الوجه البحري مُتَوَلِّد من تراكُم الطمي الطيني الراسب من فيضان النيل السنوي، وأن شكل ساحل البحر الذي على هيئة نِصْف دائرة علامة قوية على صحة هذه الدعوى.

وعلى كل حال فمن المُحَقَّق أن النيل كل سَنَة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يتَرَتَّب عليها ثلاث مَضَرَّات، ينبغي التأمل فيها لتداركها.

الأولى: أن تراكم الأرساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع أرض وادي النيل بِقَدْر لا يَصِلُه الري، فتضيق كميات الأراضي الزراعية التي يَصِل إليها الماء عند الزيادة.

الثانية: أن النيل حين يفيض يحفر الأرض وينحر الحصباء، فينفذ في خلال القيوف فيسقطها، فيَحْدُث من ذلك كُلَّ سَنَة انخفاضات جسيمة، فيَتَّسِع فرش النهر ومجراه، وبقدر ذلك تتناقص تسوية ميزانية النهر، ويَنْحَطُّ سَطْحُه، فيتولد عن هذا أن الأراضي التي كانت تَغْرِق سابقًا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة، بحيث لا يَصْعَد إليها الماء، فبهذا صارت يابسة، ولو في زمان الزيادة، وهذه الحالة ملازمة للحالة الأولى.

الثالثة: أن النيل من حيث إنه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه المصادم ماؤه ماء البحر عند مَدِّه، ويجور البحر المالح أيضًا على الأراضي المستجدة التي يَضِيق عنها نطاق الري فيُتْلِفها، وسيأتي فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادي النيل، وبيان مَضَرَّة البحر المالح للأراضي الزراعية أنه في شهري برمودة وبشنس يكون ماء النيل قليل المياه منخفضًا، فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد، فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة المنخفضة الزراعة، فيتكون من ذلك البرك المالحة، فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التي كانت مزارع وزالت، ثم يأخذ النيل في الزيادة في الصيف، ويحصل الوفاء في الخريف، فيبقى النيل مستمرًّا

على زيادته مدة أيام، ثم يأخذ في النقص شيئًا فشيئًا حتى إذا دَخَلَ فَصْل الشتاء كان ماؤه منخفضًا جدًّا، ولكن لا تزال المياه موجودة في الترع الكبيرة، ففي هذه الحالة يَدْخُل فَصْل الزراعة، فإذا انقضى فَصْل الخريف يَبِسَت جميع الترع، ونضب ماؤها ما عدا عدة ترع مستثناة يُسْقَى منها بالراحة أو بالآلات، ففي هذا الفصل تُسْقَى الزروع والغروس في أكثر محالِّ الديار المصرية بالتوابيت والسواقي، إلا أن طريقة السَّقْي على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف، ومع ذلك كله لا ينتفع منها إلا قليل من المزارع، لا سيما القريبة من النهر.

فبواسطة السقي الدائم يَتَحَصَّل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات أو أربع في كل سنة، ولكن أغلب أرضي مصر ملق غير رواتب، فلا تُسْقَى بتلك الطريقة، بل يَعُمُّهَا الماء وَقْتَ الري حَسْب العادة، فلا تُزْرَع إلا مرة واحدة ولا تُؤَدِّي إلا محصولًا واحد في السنة، فقد لوحظ بالقانون الهندسي أنه إذا صار تعميم النيل بترتيب مساقي مرتبة على فصول السنة، وتوفيق السقي على مزاج القطر، وما يناسب من أصناف الزراعة؛ فإنه يترتب على هذا إيجاد عدة محصولات للمزارع في السنة.

فإذا تأمل أهل الزراعة إلى أسباب تكثير المحصولات وتَعَدُّدها، وما تستدعيه من القوى غير المعتادة والأعمال المدبرة؛ فإن هذه القوى تساوي القوى الطبيعية في تنمية المحصولات، فقد لَاحَظَ جنتمكان محمد علي باشا أنه ينبغي قبل كل شيء إبطال الأسباب الطبيعية الموجِبَة في أكثر الأوقات لتنقيص أراضي الزراعة على التدريج، وأنه لا يُدْرِك مرامَه في الثروة والغِنَى إلا بالانتصار عليها، وهَزْمِها أَدْهَى وأعدى عدو للبلاد، كما انْتَصَرَ في وقائعه الحربية.

الأول: ارتفاع وادي النيل المانع لري عدة محلات، والحاجز لعمومها بالماء.

الثاني: تَلَف القيوف المسبب عنه توسيع فرش النيل، وانحطاط ميزانية مائه.

الثالث: جور مياه البحر المالح، وامتدادها على الأرض الزراعية، وسلبها منها على التدريج مقادير واسعة، فهذه ينبغي معالجتها وقتيًّا بما يَلِيقُ بها من الإصلاحات كتسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه إليها، ولو لم تُنْتِج بهذه المعالجات قَدْر عدة المحصولات السنوية، إلا أن فائدتها تنسيب الزراعة على أسلوب واحد، بحيث إن الماء يَصِلُها فلا تُهْمَل إلى حد حصول التداركات الموفية بالغرض، وأَسْهَل طريق في مَنْع تلك الأسباب المضرة، وإزالة ضررها دفعة واحدة في آنٍ واحد، مع الاقتصاد في المصاريف هو أن

يُحْصَر النيل بسدود لائقة؛ يعني: أن يُعْمَلَ له بالهندمة والهندسة فَرْش محصور محدود لا يُمْكِن معه إتلاف القيوف، فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذي يطفو على السدود زَمَنَ الفيضان يصير تصريفه بالتوزيع على الأراضي والحيضان، كما كان جاريًا قَبْلَ عَمَلِ السد، فيحصل الطمي كالعادة.

فهذه العملية تَجْعَل فَرْشَ النيل محصورًا، وتزيد في سرعة جريان ماء النهر عند مصبه، فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة؛ لأن ماء النيل يُزَاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له، ويَغْلُب عليها فيصدها، ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة، ويطردها طردًا عنيفًا كما فُعِلَ ذلك في بعض أَنْهُر أوروبا التي بهذه المثابة، وهذا المعنى هو الباعث للمرحوم على عَمَلِ الجسور العظيمة، وعلى عَمَلِ القناطر الخيرية التي هي مِنْ أَعْظَم المنافع العمومية المصرية، كما يُذْكَرُ في الفصل الثالث من الباب الرابع.

الفصل الثالث

فيما دَبَّرَه المرحوم محمد علي من أصول المنافع العمومية الجسيمة والوصول بها إلى الحصول على التقدمات العميمة في زمن يسير مما لو أَنْجَزَهُ من الملوك جَمٌّ غفير لَعُدَّ من العمل الكثير وحُسْن التدبير.

* * *

الغرض التكلم على ري الأراضي وسَقْيها بما يَخُصُّ العادة والأمور الهندسية، التي هي أيضًا من تدبير الحكمة الإلهية، وإلا فلو نَظَرْنَا لمحض الحكمة الإلهية لَقُلْنَا كما قال الغزالي رحمه الله تعالى في إحياء علوم الدين: «إن الرغيف لا يستدير ويوضع بين يدي الآكل حتى يَعْمَلَ فيه ثلاثمائة وستون صانعًا؛ أَوَّلُهُمْ: ميكائيل عليه السلام، وهو الذي يَكِيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التي تَزْجُر السحاب والشمس والقمر والأفلاك ودواب الأرض، وآخر ذلك الخباز.» انتهى، ويقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش، فالعمل هو الذي عليه المدار، وهو القوة الأولية في إبراز المنافع الأهلية كما سَبَقَ في الفصل الثاني من الباب الأول، فإن ما يأتي في العمليات النيلية لخصب أرض مصر يؤيد ما ذُكِرَ في ذلك الفصل، ومن المعلوم أن مصلحة الري التي هي عبارة عن عَمَل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة؛ لأن هذه المصلحة النيلية لها مَدْخَل عظيم في غِنَى الأهالي وسعادتهم، كما أنَّ لها تأثيرًا عظيمًا في تكثير إيراد المملكة المصرية؛ لأن النيل هو رأس مال البلاد والأقاليم، كما قال بعضهم:

لِمِصْرِنَا من نِيلِهَا ثَرْوَةٌ   فالرزق مِنْ أصبعه يَجْرِي

يـقـول مَـنْ أَبْـصَـرَهُ أَحْـمَـرَا   قُومُوا انْظُروا للذهب المِصْرِي

فإذَا كان النيل في يَدِ مُدَبِّر نَشِط أَحْسَن التصرف فيه، فإنه يَرْبَح ربحًا عظيمًا بخلاف ما إذا كان في يد إنسان مُهْمِل أو جبان أو فاتر هِمَّةٍ أو جاهل لا يُدْرِك العواقب، فإنه يُتْلِفُه بسوء تَصَرُّفه، فيَكْسَد رأس مَالِه الذي هو النيل، وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل؛ لأنها بدون الري ليست إلا بَلَاقع، فعماريتها بِقَدْر حُسْن التصرف في مياهها النيلية، فالنيل بالنسبة إليها كالدم لجسم الإنسان، فقوة البدن بِقَدْر ما فيه من الدماء، كما قال بعضهم:

إن الـدمـاءَ قَـوَامٌ   لكل جِسْمٍ صَحِيحِ
وحُمْرَة النيل فيها   قَوَام جِسْمٍ ورُوحِ

فمصلحة الري العمومي هي عملية الاقتصاد في النيل وتدبير مياهه، فقد كانت مصر في أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير، حتى إن الماء كان يجري تَحْت منازلها بمقدار منافعها، فيحبسونه حيث شاءوا ويرسلونه حيث شاءوا، وذلك معنى قوله تعالى فيما حكى عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ولم يَكُن يومئذ مُلْك أَعْظَم مِنْ مُلْك مصر.

فإذا انْتَظَمَت العمليات بأصول واسعة فإن أرض مصر الزراعية تزيد وتَمْتَدُّ، وتَكْثُر وسائل ثروتها وتَمَدُّنها، وتَعْظُم شوكتها وقُوَّتها الملكية، وأما إذا بَقِيَتْ قليلة الترع والجسور عديمة الانتظام والتطهر والإصلاح والترميم؛ فإنه يَنْحَطُّ قَدْرُها، ويَظْهر الفقر والمسكنة على أهلها، ويَضْعُف تَمَدُّنها، فلا بد من صورة تنظيمية وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية وقوة إجرائية، ومِثْل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والأفراد، ولا من مَحْض وظيفة القرى والبنادر والبلاد، سواء كان بالاجتماع أو الانفراد، بل هذه وظيفة لقوة الحاكمة العمومية، التي هي من المولى تبارك وتعالى كالوصي على مصر وعلى جميع الرعية، فنفوذ الحكومة هو الذي يَتَعَهَّد إصلاح هذه الدرة اليتيمة، وليس في ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقي على الزراعة والفلاحة إلا صاحب مصر، فإنه لا يجد في إهمالها فلاحة، وبِقَدْر نفوذه على إدارة الزراعة يكون له النفوذ على الأهالي، وأما غير مصر من البلاد التي رَيُّها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تَسَلُّط.

ولما كان رَيُّ مصر دائمًا صناعيًّا مُدَبَّرًا كان لا بد فيه من حُسْن الإدارة المائية، والضبط والربط في تطهير الترع، وبناء الجسور والقناطر، فإن كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير أو قليلة العدل أو ضعيفة القوة فإنها تقتصر على تدبير بعض الأقاليم دون بعض، أو بعض الأملاك الخصوصية على قَدْر منفعتها، وتَجْحف بالمصلحة العمومية، فلا تخلو الأقاليم في داخلها من المشاجرات بين الأهالي، وإذا فَتَحَت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية، أو أَهْمَلَتْ ترعة في الترع، وجَعَلَتْهَا عُرْضة للتلف؛ تَرَتَّبَ على ذلك أن الري لا يكون إلا في أماكن قليلة، فتتناقص كمية الأراضي الزراعية عن أصولها الاتساعية، وهذا الخلل إنما يترتب على عَدَم الحكومة المركزية، فإن حكومة المماليك الاختلالية لَمَّا تَجَرَّدَت عن القوة المركزية ووحدة الحكومة تَجَرَّدَت بالضرورة عن صورة الري العمومية المصرية.

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق، تَتَوَزَّع بينهم أقاليم مصر، وكل سنجق يقطع لكشافه القرى والنواحي، وكان كل سنجق منفصلًا عن غيره بإدارته وسياسته، لا يَتَّبِع إلا هوى نفسه، ولا يُطِيع إلا ما يُسَوِّله له عَقْله من وسائل التخريب وإن كان مستقيمًا للصدفة والاتفاق، فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط، فكان من أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية، لا يَنْتَفِع من السقي منها إلا أهاليها، ولم يكن بينهم روابط عمومية، فكان أصحاب الأراضي والمزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الري والسقي، ويختلسون من المياه ما هو قريب منهم، ويمنعون الأراضي البعيدة من ذلك، مع كونها لها حَقٌّ في مشاركتهم في المياه عند الفيضان، فكان ينشأ من هذا ما لا مَزِيد عليه من عداوة قرية لأخرى، وربما تَرَتَّب على ذلك القتال وسَفْك الدماء؛ فلهذه الحوادث الجارية في أيام حُكْمِهم تَقَهْقَرَتْ العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين، ومَنْ بَعْدَهم من الخلفاء والسلاطين ممن كانت دولة مصر في أيامهم منظومة كأيام أحمد بن طولون، فإنه لما تَوَلَّى الأمير أحمد على مصر تَسَلَّمَها من أحمد المدبر، وقد تلاشى أَمْرُها وانْحَطَّ خراجها، فاهتم ابن طولون في عمارة جسورها، وبناء قناطرها، وحَفْر خلجانها، وسَدِّ ترعها، فاستقامت أحوال الديار المصرية في أيامه، ووَصَلَ خراج مصر مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار؛ يعني: أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبًا، وهذا غير ما يُتَحَصَّل من المكوس، وكان مَلِكًا شجاعًا، صاحب جيوش وسخاء، كثير الأموال والخزائن، مستقلًّا بمملكة مصر، يَسْتَوفي خراجها، وكانت مصر في أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول؛ لِرِفْقِهِ برعيته، وتكثير ثروتهم

وقوتهم، وعَدَم ظُلْمِه وجوره عليهم، وما كان تحصيل الأموال الكثيرة جدًّا منها إلا بسبب عمارتها، فكانت كالروض البهي في زهرتها ونضارتها.

فقد بنى مدينةً شَرْقِيَّ مدينة الفسطاط، وسماها: القطائع، وكانت مدينة جليلة بُنِيَتْ قبل القاهرة، وكانت مِيلًا في مِيل، أَوَّلُها من كوم الجارح إلى الصليبة، وعَرْضُها من قناطر السباع إلى جبل المقطم، فَلَمَّا فَرَغَ من بنائها أَسْكَنَ بها جُنْدَه، وكان قريبًا من المائة ألف، ثم ابتدأ بناء جامعه الذي بَلَغَتْ النفقة عليه مبلغًا جسيمًا، ورأى أحمد بن طولون الصُّنَّاع يبنون في الجامع، ويتأخرون إلى دخول الليل وكان في شهر رمضان، فقال: متى يشتري هؤلاء الضعفاء إفطارًا لعيالهم وأولادهم؟ اصرفوهم بعد العصر، فصارت سُنَّة غالبة إلى اليوم بمصر، قيل: لم يكن بمصر بُقْعَة أعظم من البقعة التي بَنَى فيها هذا الجامع، وكانت تُسَمَّى: جبل يشكر، وهو مشهور بإجابة الدعاء فيه، وبنى أيضًا بجوار هذا الجامع مارستانًا وصَرَفَ عليه ستين ألف دينار، والظاهر أنه أول مارستان بمصر، وجَعَلَ به خزينة الشراب والأدوية، وكان يَجْلِس على بابه كل يوم جمعة طبيبان برسم مناظرة الضعفاء، وأرصد عليه الأوقاف الكثيرة الدارة، وقد أَصْلَح أيضًا مِقْيَاس مصر وصَرَف عليه أَلْف دينار، فأين حُسْن عَدْله وتدبيره مِنْ ظُلْم المماليك الكيلمان في الأعصر الأخيرة وتدميرهم للبلاد، فمدار العَمَار على العدل، وبضدها تَتَمَيَّز الأشياء كما قيل:

عليك بالعدل إن أُولِيتَ مَمْلَكَةً ... واحْذَرْ من الظلم فيها غَايَةَ الحَذَرِ
فالمُلْكُ يبقى مع الكفر الذميم ولا ... يبقى مع الجُورِ في بَدْوٍ ولا حَضَرِ

فلذلك في مدة أحكامهم صَارَتْ مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج بانحلال الانتظام، فكانت مصر محتاجة إلى نَظْمِها في وحدة حكومة مركزية، فأدركت مرامها بنادرة العصور، وهي الذات المحمدية العلية، ولولا أن رُزِقَتْ بالمرحوم محمد علي باشا لدَرَسَتْ رسومُها بالكلية، فقد أسعدهم الله سبحانه بسيادته، وكان إنقاذه لهم مِنْ قَبْضَة الظلمة سَبَبًا لسعادتهم وسعادته، فإنه اهتم بإصلاح الترع القديمة بالترميم، وجَدَّدَ ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر، ما عاد على الزراعة بالتحسين والتقديم.

وقد أَسْلَفْنا الكلام على ترعة المحمودية وعلى منفعتها العمومية، ولا يَسَعُنا هنا سَرْد جميع العمليات المائية التي صارت في أيام حكومته العدلية، وإنما نَذْكر بعضًا منها، فنقول: إن مِنْ جملة أعماله عَمَل الجسر الأعظم الممتد بطول النِّيل على الساحلَيْن، مَبْدَؤُه

من جَبَل السلسلة في الصعيد، وانتهاؤه إلى بَحْر إسكندرية، وهو محيط بالوجه البحري، فهذا الجسر سَدٌّ عظيم يَحْفَظ بقاء مياه النيل في فرشه ومجراه، فإذا ارتفع الماء عند الفيضان حَفِظَتْه الجسور من انتشاره وتغريقه للبلاد، كما أن هذه الجسور تَحْفَظ أيضًا مياه النيل في زمن الري مدة طويلة على الأرض حتى يَرْسب طينها النافع وتحصل فائدة الطمي، وقد صار عمل هذا الجسر الأعظم الحافظ للمياه في ظَرْف سنة واحدة بدون إتعاب للأهالي؛ إذ كُلُّ بَلَدٍ أعانت في عمله بِقَدْر ما يَخُصُّ بَلَدَهَا مِنْه، وهذا كله غير القناطر والجسور الخصوصية المنشأة في الأقاليم البحرية والقبلية، لا سيما بالجهات البحرية، فإنها أخصبت جدًّا، وتكاثرت فيها زراعة الأصناف وعلى الخصوص زراعة الأقطان؛ إذ صارت ضامنة الري أيًّا مَا كانت زيادة النيل بخلاف الصعيد، فإنه لم يَصِل إلى هذه الدرجة القصوى؛ إذ لَمْ تَغْفُل عنه عَيْن المرحوم طرفة عين، وإن لم يجتهد في إصلاح الصعيد بمثل ذلك الاجتهاد، مع أن أَغْلَب ملوك مصر في الأزمان القديمة كانت هِمَّتُهم في تحسين الصعيد وتمدينه، حتى قيل: إن الأقاليم القبلية كانت سابقة التمدن قبل الأقاليم البحرية، قيل: ولعل سبب تراخي اعتنائه به كمال الاعتناء أن الصعيد لا يصلح لزراعة الأصناف كالوجه البحري، لا سيما زراعة القطن، وإن كان الصعيد ينجح فيه زراعة الكتان والأفيون وغير ذلك، بل والقطن على قِلَّة، حتى إن زراعته في بلاد النوبة التابعة لمصر ناجحة، وإنما تحتاج لعزيمة الحكومة، فكمال الاهتمام في المصالح النيلية مبقية لعناية حكومة الذرية المتولية العزازة.

ومن أحوال الصعيد الآن أن السنين التي فيها زيادة النيل متوسطة، لا بد أن يبقي فيها منه جزء بدون ري، وإنما أكثر مزارع مديريتي أسيوط وجرجا ضامنة في هذه الحالة للري، والظاهر أن هذا الوصف في تلك الجهة حاصل من قديم الزمان.

فَقَدْ ذَكَرَ بعض المؤرخين أن الدنيا كلها لَمَّا صُوِّرَت للرشيد لم يَسْتَحْسِن منها إلا كرة أسيوط؛ لأن من مساحتها ثلاثين ألف فدان في استواء الأرض، لو وقع فيها قليل الماء لانتشر في جميعها لا يشرق منها شيء، يزرع بها الكتان والقمح والقرطم وسائر أنواع الغلال، فلا يكون على وجه الأرض بساط أعجب منه، وبها مناسج الأرمني والدبيقي والمثلث وسائر أنواع الملبوس الذي لا يخلو منه ملك إسلامي ولا جاهلي، وبها الخس والسفرجل الذي يزيد على كل بلد في كثرته وبهائه، والليمون الذي يُحْمَل إلى سائر الآفاق، وبمدينة أخميم من عمل الأسيوطية الطراز الصوف الشفاف والمطارف والمآزر والمعلم الأبيض والملوكي، ويُحْمَل منه إلى أقصى البلاد وإلى سائر الآفاق، يَبْلُغ الثوب منه عشرين دينارًا والمطرز مثله، فهذا يدل على حسن الزراعة والصناعة بتلك الجهات، انتهى.

فلننظر ما حكاه المؤرخون في شأن أسيوط وأخميم فإنه يتراءى استبعاده، مع أن الواقع أن قُطْرَهُما إلى الآن قابِلٌ لمثل ذلك، ولعله يعود الأمر كما كان وفي قريب من الزمان.

وقد كان تصميم جنتمكان على أن يعمله ترعة عظمى محاذية للنيل على استقامة الصحراء، وتكون فوهتهم من عند جبل السلسلة، فلم يَتِمَّ مرامه إلا أنه صار عمل بعض تُرَع فوق البلينة أصلحت كثيرًا من المحال بتلك الجهة، حتى صارت حيضان تلك الجهات تروي من بعضها في أيام أَخْذ النيل في النقص، ومع صَرْف المرحوم المشار إليه هِمَّته العالية في مصلحة الري في الأقاليم البحرية فلم يأخذ الرَّيُّ فيها حده الأكمل؛ بسبب تَعَذُّر تطهير الترع في مواعيدها كل سنة، مع اتساع الدوائر الزراعية اتساعًا وافرًا في الأقاليم البحرية، ولا تكمل مصلحة الري إلا بإيجاد القناطر الخيرية على فَرْعَي النيل، المفترقين من شلقان الذين أحدهما شرقي وهو فرع دمياط، والثاني غربي وهو فرع رشيد، وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مُثَلَّث، وهو الجزيرة المسماة أيضًا الدلتة، ومنهما تُرْوَى عدة مدريات وهي مديرية القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية، إلا أن انتفاع هذه المديريات منهما لا تكون تامة إلا في زمن فيضان النيل، وأما في أيام التحاريق فإن مياهَهُما تَنْصَبُّ في البحر المالح، ولا تعود منها على الزراعة أدنى مَنْفَعة، فانصبابها في البحر المالح مَحْض خسارة على الزراعة، فاستصْوَب المرحوم قنطرتهما من أمام شلقان إلى بر المناشي بقنطرتين؛ إحداهما على البحر الشرقي، والثانية على البحر الغربي بعيون كثيرة، وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البَرَّيْن؛ يعني: من بَرِّ شلقان إلى بر المناشي، وأن يُبْنَى على رَأْس الجزيرة رصيف، يكون ابتداؤه من الشط الغربي من فرع دمياط، وانتهاؤه إلى الشط الشرقي من فرع رشيد، وفائدة هذا الرصيف مَنْع المياه من أن تَقْطَع رأس الجزيرة فتغرق المنوفية والغربية، وأن يكون هذا الرصيف عاليًا جدًّا بحيث لا يَرْتَفِع إليه الماء عند الفيضان، وأن يعمل لعيون هذه القناطر الخيرية بوابات مُحْكَمة تُقْفَل وتُفْتَح بحسب الاقتضاء لحبس المياه وإرسالها، وأن يُعْمَل أيضًا لمساعدة القناطر الخيرية ثلاث تُرَع رياحات، تكون فُوَّهَاتُها من فوق القناطر الخيرية، إحدى هذه الترع يكون مُعَدًّا لِرَيِّ القليوبية والشرقية والدقهلية بالراحة، وفوهتها من الشط الشرقي قبل شلقان، والترعة الثانية تكون فُوَّهَتُها من وَسَط رأس الجزيرة؛ يعني: من منتصف الرصيف، وتكون مُعَدَّة لري المنوفية والغربية، والترعة الثالثة تكون فُوَّهَاتُها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشي، وتكون مُعَدَّة لري مديرية البحيرة، وأن يُعْمَل لهذه

الترع الثلاثة التي هي عبارة عن فروع خارجة من بحر دمياط ورشيد قناطر وعيون على حسب ميزانية الأرض، وأن يُعْمَلَ لها بوابات تُقْفَل وتُفْتَح على حسب الاقتضاء.

فإذا تَمَّتْ على هذا الوجه تَرَتَّبَ عليها أنه في وقت فيضان النيل تُفْتَح القناطر الخيرية وقناطر الثلاث ترع، المسماة: بالرياحات؛ لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الري في البحر المالح، وحَبْسه بقَدْر اللزوم بقَفْلِها بقصد السَّقْي، ويجعل سفر المراكب ممكنًا، وفي أيام التحاريق تُقْفَل بوابات القناطر الخيرية قفلًا محكمًا بحيث تَرْتَفع المياه أمام القناطر المذكورة بِقَدْر عدة أمتار، فتَنْصَبُّ بالضرورة في الرياحات الثلاثة المستمدة الماء منها في هذه المدة، وكذلك تُقْفَل أبواب قناطر الرياحات الثلاثة المستمدة الماء، بحيث تفيض مياهها على الأراضي التي أمامها، ولا يُتْرَك منها إلا القدر الزائد ليتوزع على الأراضي والحيضان من حَوْض إلى آخر.

وبهذا القفل في القناطر الخيرية وفي الرياحات يُمْكِن السفر في السفن في هذه الجهة في النيل وقت التحاريق، فالقناطر الخيرية والرصيف والرياحات هي المقصد الذي به تَتِمُّ مصلحة الري في المديريات الستة السالفة الذكر، وقد تَمَّ منها في أيام المرحوم جنتمكان القناطر والرصيف ولم يَتِمَّ عمل الرياحات، بل الذي صار إعماله جزء من رياح القليوبية، وجزء من رياح المنوفية، وجزء من رياح البحيرة، فجزء رياح القليوبية تَلِفَ الآن بالكلية، وجزء رياح المنوفية يُسْتَعْمَل الآن استعمالًا غير المقصود منه، فإن مصلحة ري المنوفية أَحْوَجَتْ إلى استعماله بتوصيله المياه إلى الترع القديمة، وأما جزء رياح البحيرة فلم يَزَلْ إلى الآن باقيًا لكن بدون ثمرة، بل بوابات القناطر الخيرية التي بها منفعة القناطر لم يَتِمَّ منها إلى الآن إلا بعضها لا جميعها، والبعض الذي صار عمله لم يكن مُحْكَم القفل والفتح بالسهولة، فلا يكون الانتفاع منه إلا بالصعوبة، فلو تَمَّ عَمَل البوابات كالغرض المطلوب منها في الفتح والقفل بغاية السهولة، وتَمَّت الرياحات الثلاثة المذكورة وقناطرها الثلاثة حكم المرغوب؛ لحصلت الثمرات العظيمة للمديريات المذكورة، وتوفرت المياه التي تَسْقِي بالراحة، وتوفرت أيضًا جميع السواقي والتوابيت، واكتسبت الأهالي المكاسب العظيمة من الزراعات مع قلة المصاريف، حيث إنها لا تَخْسَر مياه النيل التي لا يَنْصَبُّ منها في المالح إلا القدر الزائد عن اللزوم، فلا شك أنها إذا تَمَّتْ القناطر الخيرية على الوجه الأكمل بموجب تصميمات الحكومة في الحالة الراهنة، فإنها تكون من أعظم ما يُوجِبُ كمال الافتخار للجد والحفيد، والموجود منها الآن فهو من آثار

جوهري العقل الفريد؛ إذ أنوار عقله السواطع هي أشعة المنافع:

قَدْ بَلَغَ النيل كُلَّ نَفْع   من فَيْض تلك اليَدِ الكَرِيمَهْ
وصار ذا غَلَّة ورِزْقٍ   فهَذِهِ نِعْمَة جَسِيمَه

وقد ذَكَرْنَا عناية جنتمكان بعلاج مَصَبِّ النيل، وقد اعتنى أيضًا رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه؛ اقتداء بمشاهير قدماء ملوك مصر وملوك العجم وإسكندر والبطالسة وقياصرة الروم وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح، فأرسل في ظَرْف أربع سنوات ثلاث إرساليات متوالية وكانت في سنة ١٢٥٧، الإرسالية الثانية تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنو بك مهندس، وهي أنفع الإرساليات، فسارت هذه الإرسالية من الخرطوم في النيل المُسَمَّى هناك بالبحر الأبيض، مسافة خمسمائة فرسخ حتى وَصَلَتْ إلى جزيرة جانكير بمشرع كندكرو، وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تَمْنَع السير على النيل مَنْعًا كليًّا، فاقتصر القبودان المذكور على أَخْذ الاستعلامات اللازمة مما يُعْلم من أهالي تلك الجهة.

فاستبان من ذلك أن منبع النيل بقرب دائرة الاستواء على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة جانكير المذكورة، فتكون المسافة بين جانكير ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخًا تقريبًا، وبهذا الاستكشاف سَهُل لِسُيَّاحي الإنكليز تَمَام استكشافهم بيُمْن إرسالية جنتمكان، الذي كان ولم يزل طَرْفُه للبحث عن إحراز المكارم يَقْظَان:

مَلِكٌ أَسْهَرَ عَيْنًا لَمْ تَزَلْ   هَمُّهَا تشريد هم الرَّاقِدِينْ
ما رَوَى الرَّاوُونَ بَلْ ما سَطَّرُوا   مِثْلَ ما خَطَّتْ له أيدي السنينْ

«غيره»:

أَصْبَحْتَ دونَ ملوك الأرض مُنْفَرِدًا   بلا شَبِيهٍ إذ الأملاك أَشْبَاهُ
مُشَمِّرًا وبَنُو الإسلام في شُغُلٍ   عن بَدْءِ غَرْسٍ لهم أثمار عُقْبَاهُ

فقدْ أَنْفَقَ على مصلحة النيل النفقات الخارجة عن حد العادة، كما قيل:

لو أن فَيْضَ النيل فَائِضُ نِيلِهِ لم تَفْتَقِر مصر إلى مِقْيَاسِ

فقد اشترى وسائل التمدن ومقاصد المآثر العالية ومقدمات التقدم بالأثمان الغالية.

ومَنْ يَصْطَبِر للعلم يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ ومَنْ يَخْطُبِ الحسناء يَصْبِر على البَذْلِ
ومَنْ لَمْ يُذِلَّ النفْس في طَلَبِ العُلَا يسيرًا يَعِشْ دهرًا طويلًا أَخَا ذُلِّ

فلله اليد الطولى التي نَقَلَتْ صورة الأهالي من صورة إلى أخرى، ومن هيولي إلى هيولي، فقد أَوْجَدَ عزم محمد علي بالتوفيقات الصمدانية من الأمة المصرية أطباء أَلِبَّاء، وأرباب هندسة عالية، وترجمة سامية، وأرباب إدارة مَلَكِيَّة، وضباط عسكرية، وأرباب صنائع وتجارات، وكان هذا للمدارس والمكاتب من أفضل النتائج وأجمل الثمرات.

فقد أنشأ من أول الأمر مدرستي قصر العيني والدرسخانة، فكانت أولاهما كالتجهيزية والمبتديان، وكانت الثانية كالخصوصية يُخَرَّجُ منها المستَخْدَمون بأي ديوان، ثم جَدَّدَ مدرسة الطب والمهندسخانة بعد تجديد عساكر النظام، فكان يُخَرَّج منهما الأطباء والمهندسون للمصالح المَلَكِيَّة والعسكرية من المهرة العظام، ثم جَدَّدَ مدارس الجهادية من بيادة وسواري وطوبجية؛ ليُخَرَّج منها الضُّبَّاط الفخام، وكذلك جَدَّدَ مدرسة العمليات؛ لتعود بالنفع على الفنون والصنائع من سائر أنواع المنافع، ومدرسة الألسن الأهلية والأجنبية؛ لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الأجنبية، ونَتَجَ عنها تكثير المعلومات، وأَحْرَزَتْ ديار مصر منها الفوائد الجمة والمعارف المهمة، وجَدَّدَ مدارس ومكاتب عديدة للمبتديان والتجهيزية على صورة جديدة، واجتنى ثمرات الجميع على وَجْه مُنْتَظِم رفيع.

فقد أرشد الملة القاصرة إلى المنافع المفيد حتى صارت الملة المصرية رشيدة، فتَعَلَّمَتْ المبادئ والمقاصد، وتَمَكَّنَتْ من مَعْرِفَة فوائد الأنحاء المراصد، ولم يَكْتَفِ بتوسيع دائرة التعليم في بلاده، بل أرسل إلى فرنسا عدة إرساليات لتعليم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من معادنها لتفي بمراده، فتكفل باسخراج المنافع من معادنها، وباستنباط عيون المعارف من مواطنها، ومع ذلك فقد أنشأ — كما سَبَقَ — مدرسة للألسن في الأكثر؛ لقصد ترجمة الكتب الغريبة، فكانت للوفاء بِجُلِّ مقصده مجيبة، وترجم فيها

كثيرًا من العلوم المتنوعة، ودَخَلَ رجالها في الخدامات الميرية، وعادت منهم على البلاد المنفعة، وقد نَتَجَ عن إنشاء مدرسة الطب مشورة صحية، تدير عموم الصحة الأهلية، كما نَتَجَ عنها عدة إسبتاليات نَفْعُها عميم، حيث تَرَتَّبَتْ في جميع الأقاليم، ومدرسة الولادة تُعَدُّ مِنْ أعظم المآثر، كما أن مصلحة تلقيح الجدري وَقَت النفوس من الأخطار، وتَرَتَّبَ عليها الصون من التشويه وتنمية الأهالي وتكثير العمار، وأما تجديده لترتيب العساكر الجهادية برية وبحرية على صورة جميلة وهيئة جليلة، فقد عَجَزَ عنها على هذا الوجه قَبْلَه ملوك الإسلام، وانصاغَتْ هذه التنظيمات لهذا الهُمَام المقدام، واقتدى به بعد ذلك سواه، ولكن لم يصلوا في زمنه إلى درجة ما أَحْسَنَ ترتيبه وسَوَّاه، لا سيما سفنه البحرية، فكانت بحسن النظام حَرِيَّة، فقد رَتَّبَهَا قبل حرب مورة، حيث استدعَتْها الضرورة، وذلك لأنه لَمَّا طلب منه ديوان القسطنطينية الإعانة بالقوة في غزوة مورة التي هي أعجب غزوة مشهورة؛ لم يَبْعَثْ هذا الديوان سُفُنَه الحربية ولا عمارته العثمانية لنقل العساكر المصرية والذخيرة إلى جزيرة مورة، ولم يكن إذ ذاك عند المرحوم محمد علي بمصر إلا سفينتان كل سفينة منهما ذات ثلاثين مدفعًا لم يَكْمُل شغلهما، فجَهَّزَ ثلاثة وثلاثين سفينة حربية كاملة الآلة والعدة في أقرب مدة، ومائة سفينة من سفن العادة لنقل المهمات.

وقد تَكَامَلَ هذا العدد في واقعة أناوارين، وتَلِفَ أكثره بإحراق المتعصبين، فشرع في عمارة سفن أخرى أعظم منها بشرائها من البلاد الأجنبية الأوروباوية، ثم شَرَعَ في عمل ترسانة الإسكندرية سنة ألف ومائتين وسبعة وثلاثين التي لم تَكُنْ دون ترسانة طولون ببلاد الفرنساوية.

فقد رَتَّبَ بهذه الترسانة مصانع ومعامل متنوعة ومخازن مهمات ومفاتل أحبال، وأنشأ بهذه الترسانة أيضًا كثيرًا من السفن الحربية التي كل سفينة منها من ذوات المائة مدفع، وغير ذلك من السفن حتى صارت دوننما عظيمة، واستخدم فيها الأهالي، وكذلك كان الشغالون وأرباب الصنائع فيها من الأهالي المصرية، وكان جميع المستخدمين بالدوننما والترسانة على الطراز العسكري، فكان أهلها يُرَقَّوْن إلى الرتب العسكرية على حسب معارفهم.

فتَعَلَّمَ أبناء الأوطان جودة صناعة السفن، فبهذه الطريقة صارت أثمان هينة جدًّا على الحكومة، وبطل شراؤها من الأجانب، وكانت هِمَّة جنتمكان في هذه المادة السفينة الحربية كهمة سلطان الموسقو بطرس الأكبر في الاجتهاد والاعتناء بهذه المادة؛ إذ كان دائمًا مواظبًا على مناظرة الأشغال بالترسانة، والإقامة فيها الساعات العديدة من النهار، ولو أن ملك الموسقو كان قد تَعَلَّمَ عمارة السفن بِنَفْسِه إلا أن محمد علي رَخَّصَ لمهندس السفن سيريزي بك الرخصة التامة في حُسْنِ إدارتها، فكان مهندسها يُنَفِّذُ أغراض سيده كما يُحِبُّ ويختار كأنه هو، فلا يعيب الأصيل ما رآه الوكيل حسنًا، ولا يَنْقُض عليه ما أَبْرَمه، فكان تَنَازُل المرحوم لهذا الحد في التفويض يوازي تَنَازُل بطرس الأكبر في كَوْنه تَعَلَّم صنعة السفن بنفسه، وعَلَّمَهَا لأهل وطنه، ولم يَتَكَبَّر في ذلك، وكان ابنه جنتمكان إبراهيم باشا يبادر بتشهيل التشغيل مبادرة زائدة، ويُقَوِّي عزيمة المهندس والشغالين، ويترقب إتمام السفن الحربية في أقرب وقت، ويُكْرِم المهندس الإكرام الكلي، ويمضي النهار بتمامه في الترسانة بجانب الأشغال، وكان جنتمكان محمد علي يديم النظر في السفن عند صناعتها، ويتصور الغرض منها، وكلما شارَفَت الإتمام ازداد فرحًا وسرورًا، وإذا نَزَلَتْ سفينة في البحر لم يَتَمَالَكْ نَفْسَه، مع ما كان عليه من كمال الهيبة، وحِفْظ ناموس الوقار أن يُظْهِرَ أَمَارَة السرور؛ فلهذا كَمُلَتْ عنده دوننما ملوكية على طِبْق مرامه، وطَقَّمَها بالمدافع والعساكر، ونَظَمَها على نسق نظام العساكر البرية، وأنشأ مدرسة بَحْرية بثغر إسكندرية؛ ليخرج منها من الضباط ما تَحْتَاج إليه هذه الدوننما، وترجم العلوم البحرية، وصار لها كُتُب كافية كسائر العلوم الأخرى، كما قيل:

إذا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّك راغمًا ... وتَقْتُلَهُ همًّا وتَحْرِقَهُ غَمًّا
فَسَامِ العلى وازدد من الفَضْلِ إنه ... من ازداد علمًا زاد حاسِدَه هَمًّا

وأيضًا كان من جملة الإرسالية الأولى عَدَّة من الأفندية المبعوثين إلى باريس، تعلموا العلوم البحرية، وسافروا إلى أفريقيا والهند وغير ذلك من البلاد، وتمكنوا من العلوم البحرية، فلما حَضَرُوا قَلَّدَهُم بوظيفة قبودانية السفن، وكان لهذه الدننما قبودان من الباشاوات، وكان معه بوسون بك الفرنساوي بوظيفة رياسة رجال البحرية، فكان بمنزلة رئيس الرجال سليمان باشا في الجهادية البرية.

ثم إن المرحوم إبراهيم باشا لما غزا مورة وحَضَرَ منها جَدَّدَ آليات السواري، وبيان ذلك أن جنتكمان محمد علي كان قبل غزوة مورة يعتقد أن فرسان المماليك أعظم

فرسان الدنيا، حيث شاهد ذلك منهم في الحروب المتكررة معه، وأن تعليم فروسيتهم على أجود ما يكون، وكان يظن أن حركات الخيالة الأوروباوية كَلَا شيء بالنسبة لحركة المماليك، فكانت فرسانه جارين على طريقة الكوليمان، وكذلك المرحوم إبراهيم باشا كان يَعْتَقِد ذلك، فقد ظَهَرَ للمرحوم إبراهيم باشا في حرب مورة أن تعليم السواري على طرز أوروبا أَكْمَل وأَلْزَم؛ لِمَا شَاهَدَهُ من سواري الفرنساوية هناك، فَرَتَّبَ آليات السواري بجميع أنواعها على طراز فرنسا من شرخجية ودراغون وغير ذلك، فبهذا صار أنشأ مدرسة السواري في الجيزة؛ ليُتَعَلَّم بها الفروسية النظامية والمُسَايَفة والرسم وغير ذلك؛ ليُخَرَّج منها الضباط العظام، وكان عدد تلامذتها ثلاثمائة وستين نفرًا، وكان عَدَد تلامذة مدرسة الطوبجية بطرة أربعمائة تلميذ، وعدد تلامذة مكتب الرجال في الخانقاه نحو مائتي تلميذ، وكان لا يُقْبَل في مَكْتَب الرجال أي أركان حربية إلا الترك والمماليك، ثم انْضَمَّ إليهم أبناء العرب، وكانوا لا يحرزون عند الامتحان رُتَب الضباط، فالمرحوم إبراهيم باشا أَبْطَل هذه الطريقة في حَقِّ أولاد العرب، وفي حق أبناء السودان وسواهم بغيرهم.

وبالجملة: فكان المرحوم محمد علي لا تَكِلُّ هِمَّتُه، ولا تَفْتُرُ عزيمته، ولا يرتاح بَدَنُه وعَقْلُه، بل دائمًا مشغول بما يَخُصُّ التَّمَدُّن والتفكر في التجديدات وحميد المشروعات، ولا يبالي بالمصارف والتكاليف؛ للحرص على تقديم وَطَنِه المنيف، وإخراج الرعايا من ورطة التخشن العنيف:

المال مِلْءُ يَدٍ والقوم مِلْكُ يَدٍ ... ولا أُطِيلُ وهذا جُمْلَة الخَبَرِ

إذ لولاه لما وَصَلَتْ مصر إلى هذه الدرجة من التقدم والرفاهية بعد أن مَكَثَتْ عدة قرون في الذل والمسكنة، وكانت حبال منافعها واهنة.

فقد تَجَدَّدَ في أيامه من الأمور المقربة للتمدن إشارة الأخبار، ووابورات البخار والدواليب البخارية، وقد عَمِلَ تجربة في كفر مجر لسكة الحديد، وكان صمم فيها على الإنشاء والتجديد، فنُجِزَ بَعْضُها على وَجْهٍ هَيِّن، ثم تَكَامَلَت الآن بالأصل والفرع على وَجْهٍ في درجة الكمال بَيِّن:

زيادة النِّيل نَقْص عند فَيْضِهما ... فما لنا نَتَقَاضَى مِنَّة الديمِ

فلو لم يكن للمرحوم محمد علي من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية بعْد أن ضَعُفَت الأمة المصرية، بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة؛ لكفاه ذلك، فقد أَذْهَبَ عنها داء الوحشة والانفراد، وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد؛ لِنَشْر المنافع العمومية، واكتساب السبق في ميدان التقدمية، فما أَحَسَّت بنتيجة الدواء الشافي والعلاج المعافي إلا في هذه الأيام الأخيرة التي ضاعفت الأدوية الحسية والمعنوية النظرية والعملية، بطرق من النجامة جلية، وأَضْعَفَتْ داء الجهالة المعدية، فكُلٌّ لصنيعها مُتَشَكِّر، ومُقِرٌّ بإحسانها غير مُنْكِر.

ولدينا تضاعَفَتْ نِعَمُ اللهِ وجَلَّتْ عن كُلِّ عَدٍّ وحَصْرِ
عَرَفَ الحَقَّ أَهْلُ مِصْرَ وكانوا قَبْلَهُ بَيْنَ مُنْكِرٍ ومُقِرِّ
وحَصَلْنَا بالحمدِ والأجرِ والنَّصـ ـرِ وطيبِ الثَّنَا وحُسْنِ الذِّكْرِ
قَدْ بَلَغْنَا بِالصَّبْرِ كُلَّ مُرَادٍ وبُلُوغُ المُرَاد عُقْبَى الصَّبْرِ
لَيْس مُثْرِي الرجال مَنْ مَلَكَ المَا لَ ولَكِنَّمَا أَخُو اللب مُثْرِي

وما أحسن هذا البيت الأخير الذي هو من الحِكَم اللطيفة، ومن جوامع الكلم المنيفة.

وقد كان المرحوم محمد علي مِنْ وَقْت حيازته واستيلائه على السودان التي استولى عليها بسيفه سنة ثمان وثلاثين ومائتين وأَلْف مَشْغُولَ البال باستكشاف مَعَادِنِها واستخراجها؛ فلذلك سَافَر إليها بِنَفْسِه ليمتحن معادنها، ويلطف أَهْلَهَا ويُشَوِّقْهم إلى اكتساب التمدن والتقدم، كما فَعَلَ بمصر، وتفصيل ذلك في الفصل الرابع من هذا الباب.

الفصل الرابع

في سفر جنتمكان محمد علي الجليل الشان إلى جبال فازغلو ببلاد السودان لاستكشاف المعادن الذهبية والكشف عنها بحضوره وإعمال الطرق التجريبية.

* * *

لما مَهَّدَ محمد علي في مصر الزراعة والتجارة والصناعة التي هي المنافع العمومية، وكَثُرَتْ ثروة مصر بالأخذ والعطاء، وحَظِيَ أهلها بطيب العيش والرفاهية، وذاقوا ثَمَرَة العدل والإحسان والفضل والامتنان، وكان أَوَاخِرُ عصر المرحوم محمد علي بالنسبة إليهم ما كان يُسَمَّى عصر الذهب عند أمة اليونان في أوائل تلك الأزمان، حيث عَوَّضَ الله سبحانه وتعالى أَهْلَ مصر في مُقَابَلَة ما ذاقوه من الشدائد في أول الأمر ذَوْقَهُم طَعْم الهناء والراحة التامة في آخرِهِ، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وكان المرحوم لا يزال يَصْرِف وقْتَه في تكميل المنافع العمومية للديار المصرية، وكانت الأقطار السودانية التي تَحْتَ حكومته تَتَّجِر قديمًا وحديثًا — لا سيما في الذهب — وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعة، صَرَفَ هِمَّتَه العلية إلى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهة، لما أَنَّ معدن الذهب من أشرف نِعَم الله على عباده؛ إذ به قوام الدنيا ونظام أحوال الخلق، فإن حاجات الناس إليه كثيرة، وكلها تُقْضَى بالنقدين ويُبَاع بهما ويُشْرَى كل شيء، بخلاف غيرهما من المعادن، فإنه يَرْغَب فيه كُلُّ أحد رَغْبَتَه في النقدين، حيث هُمَا كالقاضيين المصالح لكل من لَقِيَهُما؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن المقصود منهما

تداولهما بين الناس لقضاء الحوائج، فمن كَنَزَها فقد أَبْطَل الحكمة التي خُلِقَا لها، وكان كَمَنْ حَبَسَ قاضيَ البلد ومَنَعَه أن يَقْضِيَ بين الناس، فالذهب والفضة كما يَجْلِبان المنافع يَجْلِبان المضارَّ.

وأمهات معادن الذهب المستخرجة في هذا العهد هي معادن بلاد الأمريكة، تخرج من جوف الأرض أو من تنظيف الرمال الذهبية، وفي بلاد أفريقيا التبر فَرْع عظيم في تجارة السودان، وليس في بلاد أوروبا إلا معادن سبيرن ببلاد الموسقو، ومعادن بلاد المجر في مملكة النيمسا، وفي آسيا معادن الذهب ورماله، وأما معادن الفضة الشهيرة في بلاد أمريكة بإقليم بِرُو وغيره، وهي التي تعطي كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها في أيدي التجار، ففي بلاد مقسيقا أَزْيَد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج، وكذلك معادن بلاد بِرُو بأمريكة فإنها مُثْرِية جدًّا، ومعادن كاليفورنيا المشهورة بالذهب المشبع التي اسْكُتْشِفَت سنة خمسة وستين ومائتين وألف وهي في جمهورية مقسيقا، فبلاد أفريقيا لها شَبَهٌ بأمريكة؛ فلهذا أَرْسَل المرحوم محمد علي باشا عدة مرات مَنْ يَلْزَم من المعدنجية لتجريب معادنها، فلم يَقِفْ منهم على حقائق تامة في شأن ذلك فَشَكَّ في مهارتهم وفي اجتهادهم.

وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل إليه عِدَّة فلزات من الذهب على سبيل العينة، فكاد يطير بها فرحًا، فأرسل في نحو سنة مائتين وألف كلا من موسيو روسيجير وموسيو برياني الكيماوي، فالأول كان قد ذَهَبَ إلى المعادن قبل الثاني بكثير، فشرع في التجربة، ورجع إلى الخرطوم فوجد موسيو برياني قد أقام بها ينتظر الفصل المناسب، فكتب موسيو روسيجير من الخرطوم إلى المرحوم محمد علي ما مضمونه أن النفر الذي يشتغل في المعدن باليومية يستخرج ذهبًا بعشرة فرنكات كل يوم؛ يعني: بأربعين قرشًا ميريا، وكان ذلك في مدة ولاية خورشيد باشا لحكمدارية السودان، وأخبر المعدنجي الحكمدار بذلك فَلَمْ يُصَدِّق ذلك الحكمدار المذكور، وأما المعية السنية فأَخَذَتْ كلام المعدنجي المذكور قضية مُسَلَّمَة، واعتقد ذلك أيضًا المرحوم محمد علي، وتباشر بأنه إذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك، وانتقلت الرغبة في الزراعة التي بها غذاء أهل مصر، والتي هي كاللبن لرضاعهم إلى الرغبة في المعادن، فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة المسير فيه؛ لاستخراج الذهب وجلبه، وكأنما هذا الغرض هو المقصد منه بالأصالة.

ثم لما اعْتَدَلَ الوقت للياقة السفر إلى المعادن خرج موسيو روسيجير وموسيو بورياني من الخرطوم ومعهما من الخفر ألف من عساكر الجهادية تحت رياسة

مير اللوى مصطفى بك، وصاروا جميعًا حتى وَصَلُوا إلى فازغلو وشرعوا في استخراج المعدن والبحث عنه، فوجد حفائر حفَرَتْها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب، فكل واحد من المعدنجية أَخَذَ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة، فلم يَظْهَر لأحد منهم رِبْح، بل ما تَبَقَّى من بعد التصفية إنما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب.

ثم كَرَّرُوا التجربة فلم تُنْتِج أَزْيد من ذلك، فإن موسيو بورياني أَخَذَ قنطارين من الرمل وصفاهما، فَلَمْ يَخْرُج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك موسيو روسيجير، ثم توجهوا إلى جهة سنجة، وهي أَبْعَد محلٍّ فَتَحَه المرحوم إسماعيل باشا ومشهورة بكثرة الذهب، فمكثوا فيه ليلةً بوادٍ يُسَمَّى: خور البابا، كان العبيد قد حَفَرُوا فيه حفائر لاستخراج الذهب، ثم ذهبوا إلى مَحِلٍ، يقال له زنبو، حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة، ووصلوا إلى وادٍ يُسَمَّى: وادي توماتو جاري المياه، فوجدوا فيه حفائر وقِصاعًا مُعَدَّة لتنظيف الذهب وتنقيته، فكانت نتيجة التجربة كالسابقة، فاقتضى الحال أن يَمُرُّوا بغابات غير مسلوكة، فوصلوا إلى جبل أبو غولجي ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية، فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليَسْتَعْلِمُوا منه عن ذلك، فأبى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادي أبو غوجلي نَفْسه، فكان يبسًا لا ماء فيه بكثرة، وإنما كانوا يجدون في طريقهم في الحفر بعض مياه وبعض حفائر حَفَرَها العبيد.

وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التي بهذا الوادي كثيرة الذهب، ثم بعد ذلك بمسير مسافة ساعة صوْب العرب وَجَدُوا واديًا آخر عالي الحوافي الصخرية فلم يَقِفُوا عنده، وبينما هم سائرون في أباطحه قَبَضَ موسيو بورياني قبضة من الرمل فوجد بها أربع فلزات من الذهب كُلُّ فلز منها وَزْن حبة، فساروا من وادي إلى آخر حتى وصلوا تجاه جبلي سنجة وغويزة وبسفحهما بنو شنغول وسنجة، ولهم مساكن لطيفة مَقْبُوَّة، يقال لها: توكول، وَعِدَّتُهَا تُنَيِّف عن ألفي بيت، وعَرْض جبل سنجة في الدرجة العاشرة والعشرين دقيقة شماليًّا، ولا يزرع سودانها إلا قليلًا من الذرة والدخان حَوْل مساكنهم، فلما رأوا العسكر قَرُبُوا من مساكنهم وَلَّوْا هاربين، فدَخَلَ العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات والأدوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراجه منه، فبَعَثَ رؤساء العسكر لطَلَبِهم، فلم يحضروا ولا حَضَر المندوبون في طَلَبِهم، ولا ظَهَرَ عنهم خَبَر، ولا بَانَ لهم أَثَر، فاحترس العرضيُّ كل الاحتراس، وضُرِبَت الخيام في محالَّ عالية من الوادي خوفًا

من الهجوم، فظَهَر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عِدَّة من العبيد حتى دَنَوا من العرضيِّ، وصاروا يَرْمُون العساكر بسهامهم وحِرَابهم.

وكان العسكر قد سَكَنُوا بمساكنهم، فهَجَم عليهم العسكر فهَرَبُوا ثم عادوا وصاروا يُحَارِبون إلى الليل.

ولما اعْتَكَر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب، ولم يَتَشَتَّت شملهم إلا بضرب النيران، فلما أصبح الصباح صَعِدوا على ذُروة الجبل، وفَوَّقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالأمطار، ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نَفَر يَخْفِرُونَهُم، فاشتغلوا في وقت الحرب بتجربة النهر الخارج في هذا الجبل، فتحصل موسيو بورياني على فلزات ذهبية خَرَجَتْ بالتنظيف عدة مرات، ووضعها في زجاجة ليمتحنها فيما بعد، ولا زال العبيد ينغصون على العسكر حتى تركوا جبل سنجة بدون تتميم التجربة، فاقتفى السودان أَثَرَهُم إلى جهة وادي بولغيدية، فأخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادي وغسلوهما وحسبوا زمن شغلهما، فكُلُّ ما خرج منهما وُضِعَ في الزجاجة، ووجدوا أن الذخائر كادَت تَنْفَد منهم فرجعوا من طريق سنار وقد جربوا تجاريب كثيرة في طُرُقِهم، وكل ما تَحَصَّلُوا عليه من الفلزات وضعوه في الزجاج وسَدُّوا عليه، وكانوا يجدون في عودتهم كثيرًا من المعادن الحفرية التي حَفَرَها العبيد، ولم يَجِد العسكر في طريقهم بيوتًا ولا مساكن مسكونة بأحد؛ لأن العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها؛ فلذلك لم يَقِف المعدنجية على حقيقة الحال، ولم يُمْكِنْهم أن يذهبوا إلى المحلات المشهورة لحصول الذهب كجبل دوك لفقد الذخيرة، وقد وجدوا على شطوط نهر هادي عدة آبار مستديرة عميقة، يبلغ عددها نحو ستمائة بئر، عمق البئر الواحدة أربعة وعشرون قدمًا، وقُطْرها نحو أربعة أقدام، وفي قاع كل بئر مماشي يُتَوَصَّل إليها بواسطة سلالم صغيرة.

وهذا النهر كثير الذهب جدًّا، فقد عَثَرَ موسيو بورياني على الذهب في ثلاث صوانات أخذها من هذا النهر، وكذلك موسيو روسيجير وَجَدَ به قطعًا من الأحجار مشتملة على الذهب.

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب أَهْل العرضيِّ، وفرحوا به فرحًا شديدًا حتى نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر؛ اعتمادًا على حكاية أهل الجهة، وجمعوا ما عثروا عليه من الحجر، ثم عادوا إلى مدينة الخرطوم التي خرجوا منها من نحو ستة أشهر، فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد تَوَجَّه لقتال الحبشة المغيرين على الأطراف، فأخذوا في تحليل ما تحصلوا عليه، فوجدوا العينات مختلفة الربح، وذلك أن

موسيو بورياني عَمِل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق، فكانت النتيجة في إحدى التجريبات بالنسبة إلى إقليم كماميل لم يَحْتَوِ قنطار الرمل إلا على ثلاث حبات من الذهب، فالرجل الذي معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب إذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل إلى اثني عشر، فلا يجمع إلا سبعة قروش ميري من الذهب بالنسبة إلى رمال إقليم فاشنغار، ولا يُتَحَصَّل إلا على ثلاثة قروش ونصف من الذهب في اليوم الواحد، فكَتَبَ بهذه التجربة خِطَابًا وأرسله مع العينة إلى الحكمدار خورشد باشا، فأرسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بورياني إلى المعية السنية، وكان ذلك في سنة أربع وخمسين ومائتين وألف.

وأما تجربة موسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك، فإن الأحجار المعدنية الذهبية يُتَحَصَّلُ منها اثنان في المائة؛ يعني: أن صافي المائة درهم مثلًا درهمان، وأما الذهب الصفائحي الذي يوجد في المعادن كالعروق فإنه يُتَحَصَّل في كل ألف قنطار من مائة وستين إلى مائة وثمانين صفيحة من الذهب؛ يعني: من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهمًا إلى ألف ومائة وستة وثلاثين درهمًا من الذهب، وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشًا، وتَحَقَّقَ عند هذا المعدنجي أن الشخص الواحد يُنَظِّف كل يوم ثلاثمائة وخمسين أقة من الرمل، فيُتَحَصَّل منها ذَهَبٌ قيمته من ثمانين قرشًا إلى مائة قرش، فكان هذا المُعَدَّل يزيد عن مُعَدَّل موسيو بورياني عشرين مرة، فلما اطَّلَع المرحوم محمد علي على المُعَدَّلَين وَوَجَدَ الفرق بينهما جسيمًا لم يَتَمَالَكْ نفسه من الغضب على موسيو بورياني؛ لأنه كان يميل بالطبع لما فيه الأرجحية في الربح، فبهذا مال إلى تقرير موسيو روسيجير؛ ولأجل الوقوف على الحقيقة صَمَّمَ على السفر إلى بلاد السودان؛ لتصير التجربة أمامه، مع تَقَدُّمِه في السن وشيخوخته، وطبيعة إقليم الأقطار السودانية؛ وَتَعَب الأسفار الشاقة بها؛ إلا أنه كان ملحوظًا بالعناية الربانية، ومحفوظًا بالتوفيقيات الصمدانية، كما قيل:

إنْ حَلَّ فالشرف التَّلِيد أَنِيسُهُ   أو سار فالظَّفَر الطريف قَرِينُهُ
فالدهر خَاذِلُ مَنْ أَرَادَ عِنَادَهُ   أبدًا ورَزَّاقُ العِبَاد مُعِينُهُ

وأمر موسيو بورياني بالذهاب قَبْله بعدة أيام، فأراد أن يَتَخَلَّص من ذلك، وقال: إن طريقة التحليل بالزئبق التي ملكها موسيو روسيجير ربما يُمْكِن أن ينال بها أكثر من طريقة القصعة التي عليها العمل عند السودان، فكأنه سَلَّمَ أن طريقة صاحبه مُرْبِحة، وكان قَوْله ذلك لِمَحْض الاعتذار والخروج من الورطة، ثم قال أيضًا: إن الرمل لا مانع

مِنْ أن يُعْطِي كل يوم للشغال نحو أربعين قرشًا، ومع أنه قال ذلك لمجرد المسايرة إلا أن المرحوم محمد علي أَخَذَهُ بالقبول وفَرِحَ به.

وكان المرحوم محمد علي جَلَبَ من فرنسا معدنجيًّا شهيرًا بعلم المعادن، وهو موسيو ليفبره، كان سبق استخدامه في مدرسة المعادن المصرية، وكان موسيو بورياني قد سافر إلى السودان امتثالًا للأمر العالي، وبعده بثلاثة أيام رَكِبَ المرحوم محمد علي البحرَ وصُحْبَتُه خير الدين بك قبودان السفر وعدة أشخاص، منهم موسيو ليفبره المعدنجي، ودارنود بك المهندس، ولمبير بك المهندس، وأحمد أفندي يوسف الجشنجي، فسافر بالسلامة بالنيل حتى دَخَلَ السودان:

اركب النيل ما اسْتَطَعْتَ ففيه	راحة للفتى وغايَة بُغْيَهْ
كم تَفَرَّجْتَ حين سَافَرْتَ فِيهِ	في بلادٍ وكَمْ ظَفِرْتَ بمُنْيَهْ

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يومًا مشهودًا، فحضر جميع من هناك للتشريف، فلطفهم جميعًا ودَعَوْا له بخير، وفرحوا به غاية الفرح، وأثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم أخلاقه؛ كما قيل:

كل الأمور تبيدُ عنك وتَنْقَضِي	إلا الثناءُ فإنه لَكَ باقِ
لو أنني خُيِّرْتُ كُلَّ فضيلةٍ	ما اخترْتُ غيرَ مكارم الأخلاقِ

ثم أَمَرَ موسيو ليفبره المعدنجيَّ أن يَتَوَجَّه إلى جبال مويه وسكادي، وهي على ثمانِ فراسخ في الجنوب الغربي من سنار؛ ليجرب معادن الفضة ومعادن النحاس التي هي على ميمنة النيل بإقليم روسيري، وأَرْسَلَ خلفهم كلًّا من موسيو بورياني ودرنود بك، وأما حضرته العلية فقد بقي في الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على اختلافها، وكُلُّهم وعَدُوه بالمساعدة على مشروعه، وأن يعينوه بستين أَلْف نَفْس للشغل إذا اقتضى الحال هذا القَدْر، ثم سافر إلى جهة سنار، ونزل بإقليم روسيري وحضر إليه ملوك سنار وفازغلو، وصار يَسْتَعْلِم منهم عن المعادن ومحل وجودها، وعن أحوال زراعة البلاد وما يناسبها، وأرشد رؤساء السودان إلى طُرُق جديدة في الزراعة وفي الصنائع والفنون التي لا يَعْرِفُونَها، وأَمَرَهُمْ بالحصول عليها واستعمالها؛ لِتَصِل نَوْبَة التقدم للنوبة باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبة، وينوب الخيط

الأبيض من فجر الفنون عن الخيط الأسود من فجر الفنون، وليكونوا من أهل التبصرة، وتكون عندهم آية النهار مُبْصِرة، ثم حَضَر المعدنجي ليفبره من جبل مويه، وأَخْبَرَه أنه لَمْ يَجِد أَثَرَ المعدن الفضة ولا معدن النحاس في المحل الذي حكى عنه موسيو روسيجير، فنفر من الإقامة بهذه الجهة؛ لعدم الحصول على مَقْصِده، ولكن:

على المرء أن يسعى لما فيه نفْعه　　　وليس عليه أن يُسَاعِدَه الدَّهْرُ

فرفع مُعَسْكَره ونَهَض إلى إقليم فازغلو، وكان أحمد باشا قد تَوَلَّى حكمدارًا عوضًا عن خورشيد، وكان قد بَعَثَهُ محمد علي إلى محاربة جبال رجريج وكانوا عاصين، فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله، ففي ظرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد علي إلى قرية فاموكو تجاه فازغلو، وهي على ميمنة البحر الأزرق، فضَرَبَ خيامه بها، وأعجبه حُسْنُها وظرافتها، فأمر ببناء قصر فيها على اسمه؛ لِيُذْكَرَ سَفَرُه بها، وعَيَّنَ حالًا درنود بك لهذه المأمورية، فهندسه البِك المذكور، وبُنِيَتْ حَوْلَه الدور، حتى صار بلدة شهيرة هناك، سُمِّيَتْ بمحمد علي، وهي من الأثر الجليل الجلي، إلا أنها صارت محل التغريب، يُنْشِد فيها المنفي الغريب:

يا عَيْنُ إنْ بَعُدَ الحبيبُ ودَارُهُ　　　ونَأَتْ مَرَابِعُهُ وشَطَّ مَزَارُهُ
فَلَقَدْ ظَفِرْتُ من الزمان بِطَائِلٍ　　　إن لَمْ تَرَيْهِ فهذه آثَارُهُ

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا، والذخائر كادت تنفد، وكان المرحوم محمد علي تَوَجَّه إلى إقليم فاشنغارو، وكان قد بَعَثَ حين تَوَجُّهِهِ أحد مماليكه؛ ليأخذ الرمل من وادي قراده، فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاث فلزات من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة.

ولما نَزَلَ المرحوم محمد علي في فاشنغارو ضرب مُخَيَّمه تحت شجرة تين والمعسكر حوله، ولم يَبْقَ معه من المأكولات إلا البقسماط واليسير من الأرز، فسَئِمَتْ نفوس الجميع من قِلَّة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة، ولام كل الناس موسيو بورياني على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له في ربح المعادن الذهبية، فجمع الباشا المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رَأْيَهُم، فقرروا جميعًا على عَمَل تجربة جديدة بطريقة أخرى مفيدة، وهي أن يُجْمَع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة، ويُعْلَم كمية ما يخرج منها،

فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق في قلة الربح، ولكن قد استكشف موسيو بورياني في بئر من آبار وادي قرادة في عُمْق اثنين وعشرين قدمًا طبقة معدنية، يَتَرَاءى أنها كثيرة الذهب؛ ليمتحنها مع التأني، وقَبْلَ أن يرحل موسيو ليفبره المعدنجي من الخرطوم كان عَثَرَ أيضًا على رطلين من الزئبق في مخازن الحكمدارية، فأحب موسيو بورياني أن يَعْمَل امتحانه لِمَا أخذه بطريقة التحليل، فسكت عن ذلك وصار منهمكًا على اتباع هذه الطريقة في التجربة، فلم يَشْعُر إذ وَجَدَ في قرارة القزازة جرمًا معدنيًّا ذهبيًّا مخلوطًا بغيره، ولم يَعْرِف سبب هذا الغش، فأَخْبَرَ غيطاني بك وموسيو لمبير بك بذلك، وهم أخبروا المرحوم محمد علي، فموسيو بورياني اتَّهَمَ بعض أخصامه أنهم أرادوا أن يُفْسِدُوا عليه تجربته، وأراد بإخبار من ذَكَرَ البحث عن صاحب الفعلة، فادعى أحمد أفندي الجشنجي أن موسيو بورياني المذكور هو الذي خَلَطَ الذهب بالزئبق عمدًا؛ لعدم نتاج تجربته، وأخبر بذلك أمام الباشا وصَدَّقَ عليه الحاضرون، ففي اليوم الثاني استعمل موسيو بورياني طريقة الغسل بالقصاع، فغسل مائة قنطار من الرمل، مأخوذًا من فرش الوادي بجبال قرادة، فاستخرج منها تِسْعًا وأربعين حَبَّة من الذهب.

فهذه التجربة الكبيرة ظَهَرَ منها إشباع معدن وادي فاشنغار، والذي جَرَّبَ عينته موسيو روسيجير سابقًا، فوُجِدَ بين طريقة موسيو بورياني وموسيو روسيجير فرق جسيم، فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صَدْر الباشا المرحوم، وفَتَرَتْ هِمَّتُه، حتى كاد أن يَصْرِف النظر عن قضية استخراج المعادن، ولكن عاد إلى تَجَلُّدِه وصَبْره، وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الأشغال التي حصلت كلها، فبادرت الجمعية باستخراج ذلك، فنتج أنه لا يتحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب إلا بقيمة ثلاثة قروش كل يوم.

فمن هذا الوقت سَقَطَتْ قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع، وقَلَّ اعتبارها، فتَغَيَّرَ خاطر المرحوم محمد علي من ذلك، وداخَلَهُ اليأس من رواج معادن السودان، ولو كان موسيو روسيجير حاضرًا معه لسلاه وعَلَّلَه بالأماني الكاذبة.

وأما موسيو بورياني فقد كان حاضرًا، وأخبر بالصدق ولم يُدَلِّسْ، ولكن لكَوْنه كان يهاب سَيِّده كثيرًا فلم يَسْتَطِع أن يَذُبَّ عن نفسه، فضرب عنه المرحوم محمد علي صفحًا، وأنعم على جميع المهندسين والمعدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب، وما استثناه من هذا الإنعام، ولا غَضَّ عنه البصر، ويَئِس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان، ولكن لم يَظْهَر له الحقد، ولا صَرَفَ عنه النظر، بل أَمَرَ الجمعية أن

تَمْكُثَ وتَبْحَث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن، فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة العلمية يعتقدون أن سيدهم أبقى هؤلاء المهندسين رسمًا فقط، وأن أشغال هؤلاء المهندسين ليست إلا صورية، فكانوا لا يساعدونهم على أشغالهم، ولا يَصْرِفون هِمَّتَهُمْ في إعطاء ما يَلْزَم لتتميم التجربة، وكان قد تعين لإدارة المعدن خير الدين باشا، فكان يسيء السلوك؛ لأنه كان مُكْرَهًا على الإقامة بتلك الديار وتَرْك وَطَنِه، فبهذا كان يعتقد أن الإفرنج المعدنجية هم السبب في طول غربته، فكان يتجاهر بتقريعهم وتوبيخهم.

ثم إن موسيو ليفبره أصابته حُمَّى شديدة وكان قد وَعَدَه المرحوم محمد علي أن يعطيه بعد تمام الأشغال رتبة ميرالاي، فكان على غاية من الاجتهاد فمات بالحُمَّى، وقبل مَوْتِه صَرَّح بأن تقرير الجمعية بعدم تربيح المعادن في السودان ليس بقَطْعِيٍّ، ولا يَنْبَنِي عليه حُكْم، وأنه لا ينبغي أن يُقْطَع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن، لا سيما وأن موسيو بورياني قَرَّرَ تقريرًا شفاهيًّا يؤيد رأي ليفبره السابق، وعبارته ليس من أرباب الجمعية بتمامها من هو مُعْتَمَد في قوله فيما يخص قيمة ما يُتَحَصَّل من الرمال من الذهب، حيث جميعنا لا معرفة له تامة باستخراج المعادن، فلَسْنَا متبحرين في هذا الفن، بل الظاهر أنه لو صارت الإدارة على صورة حسنة مستقيمة، وصَدَقَ المتحِنون في تجاريبهم، وصار الاجتهاد في الاستخراج على وَجْه مَرْضِيٍّ؛ فلا بد أن تَظْهَر نتائج عظيمة خصوصًا إذا كان المأمور بذلك من المعدنجية المتبحرين في هذا العلم، وله سابقة عمليات صحيحة، وأما سَفَرُنا هذا فَلَمْ يكن إلا محض مناظرة واطلاع على نفس المحال المعدنية بالبلاد السودانية، مجردًا عن راحة الفكر والبدن، وقوله في محله؛ لأن العرضيَّ كان دائمًا عرضة لإغارة السودان الهمل، وكان بدون أهبة ولا ذخيرة، وكانت عساكر الأتراك المحافظين على المعدنجية أَشَدَّ عليهم عداوة من السودان.

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الأهالي، وكانت التجارب تُعْمَل بالخوف والعجلة، وكانت الأمراض أيضًا من جملة الموانع، ومع ذلك فقد صَحَّ بتجربة موسيو بورياني التي استمرت نحو ثلاث سنوات أن بعملية استخراج المعادن بالعبيد يُعْطِي قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب، مع قبول الزيادة عن ذلك لو وُجِدَت المعرفة والصداقة، ومع هذا كله فنقول: إنَّ ذَهَبَ السودان لا يُنْكَر، وإن الأقطار السودانية التابعة للحكومة المصرية، وإن كانت دون أقاليم أمريكة بكثير؛ فهي كمصر إن لم تُسْعِفْها المعادن المتطرفة، فمعادن الزراعة فيها مُحَقَّقة، ولولا التغافل والتكاسل من

بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام؛ لكانت إيراداتها ومحصولاتها على أَكْمل نظام، فإن خصوبة أَرْضها عجيبة، وحيواناتها نجيبة، وأخشابها جيدة، ومعادنها متعددة، فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال، ولا نَظَرَ إلى ما يَعْتَقِد عامة الناس من أن أَكْثَرها رمال، فقد يوجد من الأهالي من يَتَرَافَع مع أخصامه في مِلْكِيَّة ألوف من الفدادين لِنَفْسه، ويريد نزعها من يد أبناء جنسه، وفي أيام حكمدارية حضرة لطيف باشا أَعْطَى أَلْف فدان لأحد السناجق وهو دموزاغا من البور، فلم تَبْرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور، وصَحَّ فيها جميع البقول والغلال، لا سيما زَرْع الحنطة الذي في تلك البلاد له بالٌ، وهناك أراض بمديرية دنقلة لا يعلوها النيل، إلا في زمن الفيضان الغزير، وليست داخلة في دفتر مكلفات الإقليم، وقد الْتَمَس زراعتها في سَنَة من السنين بعضُ الأهالي بدفع العشور، فزَرَعَها من صنف الذرة، فأدت محصولًا فوق الأربعين أَلْف إردب، فدُفِعَ إلى شونة الميري عُشْرُها، فصار صنف الذرة رخيصًا في هذه السنة، فشكا الأهالي المزارعون كساد محصولاتهم، فأبى مدير تلك الجهة المُتَوَلِّي في ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لأحد، وأَحَبَّ أحد البكباشات المستخدم بتلك الجهة أن يتعاهدها في كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوي، فلم يُسَاعَدْ على ذلك، وأمثال هذه الأراضي كثيرة جدًّا والأراضي مُنْبِتَة للنباتات الناتجة بنفسها بدون عمل مع قبول أهلها للتمدن الحقيقي لدقة أذهانهم، فإن أكثرهم قبائل عربية لا سيما الجعليِّين والشاقية وغيرهم، فإن اشتغالهم بما أَلِفُوه من العلوم الشرعية شُغل رغبة واجتهاد، ولهم مآثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم، حتى إن البلدة إذا كان بها عالِم شهير يَرْحَل إليه من البلاد الأجنبية للمجاورة مِنْ طَلَبَة العِلْم العَدَدُ الكثير والجمُّ الغفير؛ فيُعِينُه أهل بَلْدَته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة، فكل إنسان من الأهالي يَخُصُّ الواحدَ أو الاثنين، فيقيمون بشئونهم مُدَّة التعلم والتعليم.

ولقد رَأَيْت في طريقي ببلاد الشاقية بمديرية دنقلة حرم سنجق يدعى الملك الأزيرق، تُسَمَّى السيدة أمونة، تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين: أحدهما للغلمان، والثاني للبنات، كلٌّ منهما لقراءة القرآن وحِفْظ المتون، تُنْفق على المكتبين مِن كَسْبها بزراعة القطن وحلْجِه وغَزْله وتشغيله، ولا تَرْضى أن يَشُوبَه شيء من مال زوجها، وبجانب المكتبين خلوات لِمَن يختلي مِن العُبَّاد والزُّهَّاد الحاضرين من أقصى البلاد؛ لأداء فريضة الحج الشريف، ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام، وأمثال ذلك كثير هناك في ظل الحكومة المصرية.

ومما يَدُلُّ على حُسْن مقاصد المرحوم محمد علي أنه في عودته من البلاد السودانية اسْتَصْحَبَ معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر، وأَدْخَلَهُمْ في المدارس المصرية؛ ليَتَعَلَّمُوا مبادئ العلوم، ثم نَقَلَهُم إلى مَكْتب الزراعة، ثم إلى مدرسة الألسن، وكان القصدُ من ذلك أن يَذُوقوا طَعْم المعارف التمدنية؛ ليَنْشُروها في بلادهم، وقد شَاهَدْتُ بَعْضَهم مُسْتَخْدَمًا بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب، ويَغْلُب على الظن أنه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الأخيرة المؤَسَّسة على حُبِّ تقديم الجمعية المدنية، وهِمَّة سعادة جعفر باشا صاحب الأنظار التمدنية؛ تَمَكَّنَ إيصالُ التقدمات العصرية بعناية الحكومة المصرية في أطراف وأكناف تلك البلاد التي هي الآن لم تَخْلُ قُرَاها عن نوع التقدم في الحضارة، مع مساعدة الوارد والمتردد إليها في هذه الأيام؛ لِقَصْد الزيارة أو التجارة، فإنها أقرب للتمدن من أقاليم أمريكة بكثير، وجميع أَهْلها — ما عدا بعض الجبال — لسانهم عربي فصيح، حيث إنَّ جُلَّهم من نَسْل العرب المنتجعة القبائل قديمًا، يَحْفَظون أحسابهم وأنسابهم، وفيهم كمال الاستعداد، وذكاء الفطنة، وإنما يحتاجون في حصول المطلوب إلى اطمئنان النفوس، وتأليف القلوب من حكام أرباب صداقة وعفاف وعدل وإنصاف، لا تَحْمِلهم المطامع الدنيوية على مَحْض الالتفات إلى الأمور الدنية، بل توجد القابلية أيضًا في الأهالي المتأصلين.

ويَدُلُّ على هذا ما حُكِيّ للخليفة أبي جعفر المنصور عَمَّا جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبة مما ذَكَرَه المؤرخون في حَقِّ المَلِك المذكور، مع أنه كان من ملوك السودان المتأصلين والجِنْس القَطِين؛ إذ لم تكن القبائل العربية انتجعت إلى السودان، ولا تَسَلَّطَ على هذا الإقليم مَلِك من أهل الإسلام ولا من العربان، وهو: أن أبا جعفر المنصور حَضَرَه ليلة عبد الله بن علي وصالح بن علي في نَفَر معهما، فقال عبد الله بن علي: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان بن محمد لَمَّا هَرَبَ إلى بلاد النوبة جرى بَيْنه وبَيْن مَلِكِها كلام فيه أعجوبة، سَقَطَ عَنِّي حِفْظُه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُرْسِل إليه بحضرتنا، ويسأله عما ذَهَبَ عنا — وكان في الحبس — فأرسل إليه أبو جعفر، فلما دَخَلَ قال له: يا عبد الله، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: أَخْبِرْني بحديثك وحديث ملك النوبة، قال: يا أمير المؤمنين، هربت ممن تبعني بأثاث سُلِّمَ لي إلى بلاد النوبة، فلما دَخَلْت بلادهم فَرَشْت ذلك الأثاث، فجاء أهل النوبة ينظرون إليَّ متعجبين مني إلى أن بلغ ملك النوبة حضوري، فجاء ومعه ثلاثة نفر، فإذا رجل طويل آدم أغبر مسنون الوجه؛ أي مملسه، فلما قَرُب مني قَعَدَ على الأرض وتَرَكَ البساط، قُلْتُ: ما يمنعك أن تجلس على أثاثنا هذا؟ قال: إني

مَلِك وحَقَّ لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رَفَعَه الله، قال: ثم نَظَرَ إليَّ، فقال: لِمَ تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟ فقلتُ: عبيدنا وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم، قال: فلِمَ تَلْبَسون الديباج والحرير وتُحَلَّوْن بالذهب وهو مُحَرَّم عليكم؟ فقلت: زال عنا المُلْك، وانقطعت المادة، واستَنْصَرْنا بقوم من الأعاجم كان هذا زِيَّهُم، فكرهنا الخلاف عليهم، فأطرق يقلب يده، ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا، يكرر الكلام على نفسه، ثم نَظَرَ إليَّ فقال: ليس ذاك كما تقول، ولكنكم قوم مَلَكْتُم فظَلَمْتُم، وتركتم ما به أُمِرْتُم، ورَكَنْتُم إلى ما عَنْه نُهِيتُم، فسَلَبَكُم الله العز، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نعمة لم تَبْلُغ غايتها بعد، وأنا أخاف أن تَنْزِل بكم النقمة وأنتم ببلدي فتصيبني معك، فارتحلوا عن جواري، انتهى، فقام أبو جعفر وَقِيذًا من كلامه فدَخَل حُجْرَتَه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ قال المفسرون: في الآية حَذْف، دَلَّ عليه باقيها؛ أي: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: مُنَعَّمِيها بالطاعة، فخالفوا ففسقوا فدمرناها تدميرًا، انتهى.

فيا لها موعظة بيضاء من ملك أسود، ولعل ملوكهم في الأزمان القديمة كانوا كصُلَحائهم الآن على قَدَم عظيم في الاستقامة وطريقة قويمة، وأما مَوْضع مَعْرض الذم في حق أهل السودان فهو مُتَوَجِّه على جمهور أهل البلاد وهم العبيد، والمولدون، ومن يَحْذو حَذْوهم من رعاع أهالي تلك البلاد أرباب الدنائة والخسة.

وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف كُنْت سافرت إلى السودان بسَعْي بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم، فلبِثْتُ نحو الأربع سنين بلا طائل، وتُوُفِّيَ نِصْف من بمعيتي من الخُوجات المصريين، فنظمْتُ هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر؛ رَجَاء نَشْلي مِنْ أَوْحَال تلك الأحوال، فلم يَتَيَسَّر إرسالها، ثم أَسْعَد الحال بتبديل مُرِّ الماضي بالحال الذي هو حال، وذلك عقب تخميسي لقصيدة نبوية بُرَعِيَّة مُتَوَسِّلًا فيه بشفاعة خير البرية، وها هي القصيدة الأولى:

أَلَا فَـادْعُ الـذي تَـرْجـو ونَـادِي	يُـجِبْك وإن تَـكُن فـي أي نَـادِي
فَمَنْ غَرَسَ الرَّجا في قَلْب حُرٍّ	أَصَابَ جَنَى النَّجا غِبِّ الحَصَادِ
ومِنْ حُسْن الخلائق سَلْهُ صُنْعًا	جـمـيـلًا فَـهْـو أَوْفَـى بـالـودادِ
وحَـدِّثْ عـن وَفَـا خِـلٍّ وَفِـيٍّ	بِمُرْسِل حُبِّه في القلب بَادِي

وربَّ أَخٍ تَـلَاهَـى عَـنْـكَ يَـوْمًـا ... فَــرُبَّ وِدَادُه أبــدًا وِدَادِي

بَـنُـو الآداب إِخْـوانٌ جـمـيـعًـا ... وأَخْـدَانٌ بِـمُـخْـتَـلِـفِ الـبـلادِ

خـلائـفُ عُـنْـصُـرٍ كُـلٌّ تَـغَـذَّى ... بـأثـداء الـعُـلَا دُونَ اقْـتِـصَـادِ

وآداب الـفـتـى تُـعْـلِـيـه يَـوْمًـا ... إلـى الأنـجـاد مِـنْ بَـعْـد الـوِهَـادِ

وآدابـي تُـسَـامِـي بـي الـدَّرَارِي ... علـى شَـعَـثِي وتُـبْـلِـغُـنِي مُرَادِي

ومـا لِـيَ لا أَتِـيـهُ بِـهَـا دلالًا ... وقَـدْ دَلَّـتْ علـى نَـهْـجِ الـرَّشَـادِ

إلى سُبُلِ الـفَـخَـار تَـقُـودُ حَزْمِي ... وفـي مـيـدانـه عَـزْمُ انـقـيـادِي

عِصَامِيٌّ طَـرِيـفُ الـمَـجْـد سَـعْـيًا ... عِـظَـامِـيٌّ شـريـفٌ بـالـتِّـلَادِ

سِوَى نَسَبِ العلوم لِيَ انتسابٌ ... إلـى خـيـر الـحـواضـر والـبـوادِي

حُـسَـيْـنِـيٌّ الـسُّـلَالـةِ قَـاسِـمِـيٌّ ... بِطَـهْـطَـا مَـعْـشَـرِي وبها مِـهَـادِي

لِسَانُ الـعُـرْب يَـنْـسِـبُ لي نِجَارًا ... ويُـدْنِـيـنِـي إلـى قُـسِّ الأيـادي

وحَـسْـبِـي أنـنـي أَبْـرَزْتُ كُـتْـبًـا ... تُـبِـيـدُ كـتـائـبًـا يـوم الـطِّـرَادِي

فـمـنـهـا مَـنْـبَـع الـعِـرْفَـان يَـجْـرِي ... وكـم طِـرْسٍ تَـحَـبَّـرَ بـالـمِـدَادِي

عـلـى عَـدَدِ الـتَّـوَاتُـرِ مُـعْـرَبَـاتِـي ... تَـفِـي بِـفُـنُـونِ سِـلْـمٍ أو جِـهَـادِ

ومَـلْـطَـبْـرُونَ يَـشْـهَـدُ وهْـو عَـدْلٌ ... ومُـنْـتَـسِـكُـو يُـقِـرُّ بـلا تَـمَـادِي

ومُـغْـتَـرِفُـو قَـرَاحِ فُـرَات دَرْسِـي ... قد اقْـتَـرَحُـوا سقاية كُلِّ صَادِي

ولاحَ لِـسَـانُ بـاريـس كَـشَـمْـسٍ ... بـقـاهـرة الـمُـعِـزِّ عـلـى عِـمَـادِي

ومُـحْـيِي مِـصْـرَ أَحْـيَـا كان قَـدْرِي ... وكـافـأنـي عـلـى قَـدْرِ اجْـتِـهَـادِي

سـأَشْـكُـر فَـضْـلَـه مـا دُمْـتُ حـيًّـا ... ومـا شُـكْـرِي لَدَى تِلْكَ الأيَادِي؟

رَعَـى الـحَـنَّـان عَـهْـدَ زَمـانِ مِـصْـرَ ... وأَمْـطَـرَ رَبْـعَـهَـا صَـوْبَ الـعِـهَـادِ

رَحَـلْـتُ بِـصَـفْـقَـةِ المغبون عَـنْـهَـا ... وفَـضْـلِـي في سواها في المَزَادِ

ومـا الـسـودان قَـطُّ مَـقَـام مِـثْـلِـي ... ولا سـلـمَـايَ فـيـه ولا سـعـادِي

بـهـا رِيـحُ الـسَّـمُـومِ يُـشَـمُّ مـنـه ... زَفِـيـرُ لَـظًـى فـلا يُـطْـفِـيـه وَادِي

عـواصـفـهـا صـبـاحًـا أو مـسـاء ... دوامًـا فـي اضـطـراب واطِّـرَادِ

ونِـصْـفُ الـقـوم أَكْـثَـره وُحُـوشٌ ... وبَـعْـض الـقـوم أَشْـبَـه بـالـجَـمَـادِ

فـلا تَـعْـجَـبْ إذا طَـبَـخُـوا خـلـيـطًـا ... بمُخِّ العظم مع صافِي الرَّمَادِ

ولـطْـخ الـدُّهْـنِ فـي بَـدَنٍ وشَـعْـرٍ ... كدهْـنِ الإبْـلِ من جَـرَبِ الـقَـرَادِ

ويُضْرَبُ بالسياط الزَّوْجُ حتى يقال أخو بَنَاتٍ في الجلاد
ويرتقُ ما بزوجته زمانًا ويَصْعُبُ فَتْقُ هذا الانسدادِ
وإكراهُ الفتاةِ على بناءٍ مع النهي ارْتَضَوْهُ باتِّحَادِ
نَتِيجَتُه المُوَلَّدُ وهو غَالٍ به الرَّغَبَات دَوْمًا باحْتِشَادِ
لَهُمْ شَغَفٌ بتعليم الجواري على شَبَقٍ مُجَاذَبَةَ السِّفَادِ
وشَرْحُ الحال منه يَضِيقُ صَدْرِي ولا يُحْصِيه طِرْسي أو مِدَادِي
وضَبْطُ القولِ فالأخيار نَزْرٌ وشرُّ الناسِ مُنْتَشِرُ الجَرَادِ
ولولا الْبِيضُ مِنْ عُرْبٍ لكانوا سوادًا في سوادٍ في سوادِ
وحَسْبِي فَتْكُها بِنَصِيفِ صَحْبِي كأَنَّ وَظِيفَتِي لُبْسُ الحِدَادِ
وقد فَارَقْتُ أطفالًا صِغارًا بِطَهْطَا دُونَ عَوْدِي واعْتِيَادِي
أُفَكِّرُ فِيهِمُ سِرًّا وجَهْرًا ولا سَمَرِي يَطِيبُ ولا رُقَادِي
وعَادَتْ بَهْجَتِي بالنأي عنهم بِلَوْعَة مُهْجَةٍ ذاتِ اتِّقَادِ
أريدُ وِصَالَهُمْ والدَّهر يأبى مُوَاصَلَتِي ويَطْمَعُ في عِنَادِي
وطَالَتْ مُدَّةُ التَّغْرِيب عَنْهُمْ ولا غُنْمٌ لدَيَّ سِوَى الكَسَادِ
وما خِلْتُ العَزِيزَ يُرِيدُ ذُلِّي ولا يُصْغِي لِأَخْصَامٍ لِدَادِ
لَدَيْهِ سَعَوْا بألسنةٍ حِدَادٍ فكيف صَغَى لألسنةٍ حِدَادِ؟
مَهَازِيل الفضائلِ خَادَعُونِي وهل في حَرْبِهِمْ يَكْبُو جَوَادِي؟
وزُخْرُف قَوْلِهِمْ إذْ مَوَّهُوهُ على تَزْيِيفه نادَى المُنَادِي
فَهَلْ من صَيْرفي المعني بَصِيرٍ صحيح الإِنْتِقَاءِ والِانْتِقَادِ؟
قياسُ مدارسي قالوا عقيمٌ بمصر فما النتيجةُ في بِعَادِي؟
وكان البحرُ مَنْهَجُ سُفْنِ عَزْمِي فَكِدْتُ الآن أَغْرَقُ في الثِّمَادِ
ثلاث سِنِينَ بالخُرْطُوم مَرَّتْ بِدُون مَدَارس طِبْق المُرَادِ
وكيف مَدَارِسُ الخُرْطُوم تُرْجَى هناك ودُونَها خَرْطُ القَتَادِ
نَعَمْ تُرْجَى المصانع وَهْيَ أَحْرَى لتأييد المقاصد بالمبادِي
عُلُومُ الشرع قائمة لَدَيْهِمْ لِمَرْغُوبِ المَعَاشِ أو المَعَادِ
خَدَمْتُ بِمَوْطِنِي زَمَنًا طَوِيلًا ولِي وَصْفُ الوفاء والاعتمادِ
فَكُنْتُ بِمِنْحَة الإكرامِ أَوْلَى بِقَدْرٍ للتَّعَيُّشِ مُسْتَفَادِ

وغَايَة مَطْلبِي عَوْدِي لأهلي ... ولو مِنْ دُونِ رَاحِلَةٍ وَزَادِ
وصبْرِي ضَاعَ مُنْذُ اشْتَدَّ خَطْبِي ... وهَوْنُ الخَطْبِ عِنْد الإشْتِدَادِ
وَكَمْ حسنًا دَعَوْتُ لِحُسْنِ حَالِي ... وكَمْ نادَى فُؤَادِي يا فُؤَادِي
وأرجو صَدْرَ مصر لِشَرْح صَدْري ... وجُهْدُ الطَّوْلِ في طُولِ النِّجَادِ
وكم بُشِّرْتُ أن عَزِيزَ مِصْرَ ... تَفَوَّهَ بالفكاك ولم يُفَادِ
وحاشا أنْ أَقُولَ مَقَالَ غَيْرِي ... وذلك ضِدُّ سِرِّي واعْتِقَادِي
لقد أَسْمَعْتَ لو نَادَيْتَ حيًّا ... ولكنْ لا حياةَ لِمَنْ تُنَادِي
وفي دارِ العَزَازَة لي عِيَاذٌ ... يقيني نَشْبَ أَظْفَار العَوَادِي
أَمِير كِبَار أَرْبَاب المَعَالي ... فَتًى في شِرْعَة العِرْفَان هَادِي
عَرُوفٌ أَلْمَعِي لا يُبَارَى ... بِمِضْمَار العلا طَلْقَ الجِيَادِ
بِوَافِرِ فَضْلِه الرُّكْبَانُ سَارَتْ ... وغَنَّى بِاسْمِه حَادٍ وشَادِ
وقالوا: في مَعَارِفِهِ فَرِيدٌ ... فقُلْتُ: وفي الرياسَةِ ذُو انْفِرَادِ
وفي الأحكام قالوا: لا يُضَاهَى ... فقُلْتُ: وذو تَحَرٍّ واجْتِهَادِ
وقالوا: في الذكاء ذَكَا فَقُلْنَا ... وثَاقِبُ ذِهْنِه وَارِي الزِّنَادِ
وقالوا: وَافَقَ الحَسَنَ المُثَنَّى ... فَقُلْتُ: وَكَمْ حَدَا بالوَصْفِ حَادِ
وَبَحْر حِجَاهُ يَبْدُو منه دُرٌّ ... لِغَوَّاصِ العلوم بلا نَفَادِ
فيا حَسَنَ الفِعَال أَغِثْ أسيرًا ... بسِجْنِ الزِّنْجِ يَحْكِي ذا القِيَادِ
عليه دوائرُ الأسواء دَارَتْ ... وَطَالَتْ وَفْقَ أهواءِ الأعادي
وقد فَوَّضْتُ للمولى أُمُورِي ... وذا عَيْنُ الإصابة والسدادِ
عسى المولى يَقُولُ امْضُوا بعبدي ... فيقضي لي بتقريب ابْتِعَادِي
وما نَظْمُ القريض برأْسِ مَالِي ... ولا سَنَدِي أَرَاهُ ولا سِنَادِي
وَوَافِرُ بَحْرِه إنْ جَادَ يَوْمًا ... فمَمْدُوحِي له وَصْفُ الجَوَادِ
وليس لبِكْرِ فِكْرِي مِنْ صداقٍ ... سوى تلطيف عَوْدِي في بِلَادِي
فما أَسْمَى ذَرَاهَا من بيوت ... رَزَانٍ في حَمَاسَتِهَا شِدَادِ
ومِسْكُ ختامها صَلَوَاتُ رَبِّي ... على طَهَ المُشَفَّعِ في المَعَادِ
وآلٍ والصحابةِ كُلَّ وَقْتٍ ... مُوَاصَلَةً إلى يَوْمِ التَّنَادِ

وأما تخميس القصيدة البُرَعِيَّة التي عَبَقَ مِسْكَ خِتَامِه أَرَجُ الفرج فهو هذا:

تُبْدِي الغَرَامَ وأَهْلُ العِشْقِ تَكْتُمُهُ   وتَدَّعِيه جِدَالًا مَنْ يُسَلِّمُهُ
ما هكذا الحب يا مَنْ لَيْسَ يَفْهَمُهُ   خَلِّ الغرام لِصَبٍّ دَمْعُهُ دَمُهُ
حَيْرَانُ تُوجِدُهُ الذِّكْرَى وتُعْدِمُهُ

دَعْ قَلْبَهُ في اشتغال مِنْ تَقَلُّبِهِ   ولُبَّهُ في اشتعالٍ مِنْ تَلَهُّبِهِ
واصْنَعْ جَمِيلَ فِعَالٍ في تَجَنُّبِهِ   واقْنَعْ له بِعَلَاقَاتٍ عَلَقْنَ بِهِ
لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ كُنْتَ تَرْحَمُهُ

فؤاده في الحِمَى مَسْعَى جَآذِرِهِ   وفي نُجُوم السَّما مَرْعَى نَوَاظِرِهِ
فيا عَذُولًا سَعَى في لَوْم عَاذِرِهِ   عَذَلْتَهُ حين لَمْ تَنْظُرْ بِنَاظِرِهِ
ولا عَلِمْتَ الذي في الحُبِّ يَعْلَمُهُ

أَمَا تَرَى نَفْسَه مَرْعَى الْهَوَى انْتَجَعَتْ   وسَاقَهَا الحُبُّ فَانْسَاقَتْ ولا رَجَعَتْ
فاعْذُرْ أَوِ اعْذِلْهُ ما وُرْقُ الحِمَى سَجَعَتْ   لو ذُقْتَ كأسَ الهوى العُذْرِيَّ ما هَجَعَتْ
عيناك في جُنْحِ لَيْلٍ جَنَّ مَظْلَمُهُ

ولا صَبَوْتَ لِسُلْوَانٍ ولا مَلَلِ   ولا جَنَحْتَ إلى لَوْمٍ ولا عَذَلِ
ولا انْثَنَيْتَ لِخَطْبٍ في الهوى جَلَلِ   ولا ثَنَيْتَ عَنَانَ الشَّوْقِ عَنْ طَلَلِ
بالٍ عَفَتْ بِيَدِ الأنواءِ أَرْسُمُهُ

فكيف نَاقَشْتَهُ في أَصْلِ مَذْهَبِهِ   وما تَحَرَّيْتَ تحقيقًا لِمَطْلَبِهِ
فوالذي صَانَهُ عن وَصْمَةِ الشَّبَهِ   ما الحب إلا لقوم يَعْرِفُونَ بِهِ
قد مارسوا الحب حتى هَانَ مُعْظَمُهُ

تُجِيبُهُ إن دعا للوجد أُمَّتُهُ   وعَزْمُهُ بينهم سَامٍ وهِمَّتُهُ
قومٌ لديهم بَيَانُ الحب عُجْمَتُهُ   عَذَابُهُ عِنْدَهُمْ عَذْبٌ وظُلْمَتُهُ
نُورٌ ومَغْرَمُهُ بالراء مَغْنَمُهُ

يا مَنْ دعاه هَوَاهُ أن يُعَاشِرَهُمْ   اسْلُكْ مَشَاعِرَهُمْ والْزَمْ شَعَائِرَهُمْ
وإن تَكَلَّفْتَ أَنْ تَدْرِي أَشَايِرَهُمْ   كَلَّفْتَ نَفْسَكَ أَنْ تَقْفُو مآثِرَهُمْ
والشيء صَعْبٌ على مَنْ لَيْسَ يَحْكُمُهُ

في حُبِّ ليلى خَلِيُّ البال يَعْذِلُنِي   إن لم أُغَالِطْ فما يَنْفَكُّ يَخْذُلُنِي
فوالذي مَنْزِلَ العُشَّاقِ يُنْزِلُنِي   إني أُوَرِّي عَذُولِي حين يَسْأَلُنِي

بِـزَيْـنَـبٍ عـن هَـوَى لـيـلـى فَـأُوهِـمُـهُ

كم في الهوى والنوى قَاسَيْتُ مِنْ أَلَمِ ... وكم مَلأْتُ طُرُوسَ العشق مِنْ كَلِمِ

وكم سَهِرْتُ سَمِيرَ النَّجْمِ في الظُّلَمِ ... وطـالـمـا سَجَعَتْ وَهْنًا بِذِي سَلَمِ

ورقـاءُ تُـعْـجِـمُ شَـكْـوَاهَـا فَـأَفْـهَـمُـهُ

مـا السُّحْبُ إلا دُمُوعُ العَيْنِ بَاكِيَةً ... ولا لَظَى غَيْرُ أحشـائي مُحَاكِيَةً

لا شَكَّ أنـي أُنَاغِـي الـوُرْقَ شَاكِيَةً ... وتَـنْـثَـنِـي عَـذَبَـاتُ الْـبَـانِ حَـاكِـيَـةً

عَلِمَ الـفَـرِيـقُ فـأدري مـا تُـتَـرْجِـمُـهُ

إِمَـامَ عِـشْـقٍ تَـوَلَّـى نَـصْـرَ مِـلَّـتِـهِ ... عـلـى الـوشـاة وفَـادَاهَـا بِـمُـهْـجَـتِـهِ

نـادى وقَـدْ ذاب وَجْـدًا مـعْ ثَـنِـيَّـتِـهِ ... يـا مَـنْ أَذَابَ فـؤادي فـي مَـحَـبَّـتِـهِ

لـو شِـئْـتَ دَاوَيْـتَ قَـلْـبًـا أَنْـتَ مُـسْـقِـمُـهُ

مـتـى بِـرَبْـعِ صِـحَـابِـي أَبْـلُـغُ الأَمَـلَا ... فكم سَقَى مَاءُ دَمْعِي السَّهْلَ والجَبَلَا

ومـا شفـى مَعْهَدًا مِنْ ساكِنِيهِ خَلَا ... سَقْيُ الجِبَالِ فَرَعْنَ الطَّوْدَ منه إلَى

شِعْبِ المُرِيحَاتِ هَامِي المُزْنِ مَرْهَمُهُ

مـلـث غَـيْـثٍ يَـسِـحُّ الـوابـل الـهَـطَـلَا ... وصَـيِّـبٍ طَـيِّـبٍ يَـسْـتَـخْـصِـبُ الـطَّـلَـلَا

أَضْـحَـى بِمُـنْـهَـمِـر الأنـواء مُـنْـهَـمِـلَا ... وبات يَرْفَضُّ من وادي الـخـزامِ عَلَى

وادي أَرَامٍ ومـا والـى يُـلَـمْـلِـمُـهُ

حـبـا مَـنَـازِلَـهَـا فَـيْـضُ الـحَـيَـا وَمَـلَا ... أَرْجَـاءَهَـا مِـنْ بُـرُوقٍ يَـبْـتَـسِـمْـنَ جَـلَا

ولا عَـدَا عَـنْ رُبَـاهَـا الـجُـودُ إذْ نَـزَلَا ... يَسُوقُهُ الرعد مِنْ خَيْرِ البِطَاحِ إلى

أُمِّ الـقُـرَى ورِيَـاحُ الـبِـشْـرِ تَـقْـدُمُـهُ

وسْـمِـيُّ جُـودٍ سـريـعـاتٍ نَـجَـائِـبُـهُ ... ولـيُّ عَـهْـدٍ مُـرِيـعَـاتٌ رَغَـائِـبُـهُ

وواكِـفٌ بـالـنَّـدَى تَـكْـفِـي سَـوَاكِـبُـهُ ... وكُـلَّـمَـا كَـفَّ أَوْ كَـلَّـتْ رَكَـائِـبُـهُ

بَـادَاهُ بِـالـرَّحْـبِ مَـسْـعَـاهُ وَزَمْـزَمُـهُ

مـا دَرَّ مِـنْ قَـبْـلِـهِ غَـيْـثٌ يُـعَـارِضُـهُ ... ولا أَضَـرَّتْ بِـمَـسْـرَاهُ عَـوَارِضُـهُ

تَـخَـالُـهُ وَهْـوَ لا رِيـحٌ يُـنَـاقِـضُـهُ ... لَـمَّـا أَلَـثَّ عـلـى الـبَـطْـحَـاءِ عَـارِضُـهُ

عَـلَا الـمـديـنـةَ بَـرْقٌ رَاقَ مَـبْـسَـمُـهُ

بَرْقٌ بَوَاسِمُهُ في الجَوِّ قَدْ سَطَعَتْ ... فَقَهْقَهَ الرَّعْدُ بِالْغَبْرَا وَقَدْ خَشَعَتْ

والرَّجْعُ سَحَّ مِن الخَضْرَا ومَا جَمَعَتْ ... سَقَى الرِّيَاضَ التي مِنْ رَوْضِهَا طَلَعَتْ

طَـلَائِـعُ الـدِّيـنِ حـتـى قَـامَ قَـيِّـمُـهُ
مَـغَـارِبُ الأرض طُـرًّا أو مَـشَـارِقُـهَـا تَـسْـعَـى إلـى طِـيبَـةٍ مِـنْـهَـا خَـلَائِـقُـهَـا
مدينة العِلْمِ هَلْ تَخْفَى حَقَائِقُهَا حَـيْثُ الـنُّبُوَّةُ مـضـروبٌ سُـرَادِقُـهَـا
والـنُّورُ لَا يَسْتَطِيعُ اللَّيْلُ يَكْتُمُهُ
يَلُـوحُ فـي رَوْضَـةٍ مَـأْثُورَةِ الـشَّـرَفِ دُرِّيُّ كَوْكَبِـهَـا يَجْلُـو دُجَـى الـسُّـدَفِ
والـبـدر يَـطْـلُـعُ فـي أُفُـقٍ بـلا كَـلَـفِ والشمس تَسْطَعُ في خُلْفِ الحِجَابِ وَفِي
ذاك الـحِـجَـابِ أَعَـزُّ الـكَـوْنِ أَكْـرَمُـهُ
يـا زائـرًا قَـبْـرَ خَـيْـرِ الْـبَـدْوِ والـحَـضَـرِ الْـثِمْ ثَرَى تُرْبِـهِ الـمُـعْـشَـوْشِـبِ الـنَّـضِـرِ
يَلْقَاكَ حيًّا بأهنى عِيشَةِ الـخَـضِـرِ مُـحَـمَّـدٌ سَـيِّـدُ الـسَّـادَاتِ مِـنْ مُـضَـرِ
خَيْرُ الـنَّبِيِّين مُـحْيِي الدِّينِ مُكْرِمُهُ
عَـرِّجْ بِـسَـاحَـتِـهِ يَـمْـنَـحْـكَ تَـكْـرِمَـةً فـلا تَـخَـفْ بَـعْـدَهَـا بَـغـيًا ومَـظْـلَـمَـةً
هـذا الـمُـشَـفَّـعُ يـومَ الـعَـرْض مَـرْحَـمَـةً فَـرْدُ الـجـلالـة فَـرْدُ الـجُـودِ مَـكْـرُمَـةً
فَـرْدُ الـوُجُـودِ أَبَـرُّ الـكَـوْنِ أَرْحَـمُـهُ
مَنْ في صَبَاحَتِهِ يَحْكِيه مُبْتَسِمَا مَنْ في مَلَاحَتِهِ حَازَ الْبَهَا وَسَمَا
كم أَقْسَمَ الْحَقُّ بِاسْمِ المُصْطَفَى قَسَمَا نُورُ الهُدَى جَوْهَرُ التوحيد بَدْرُ سَمَا
الـمَـجْـدُ وَاصِـفُـه بـالـبـدر يَـظْـلِـمُـهُ
بِـطِـيبِ عُـنْـصُـرِهِ طَـابَـتْ سَـرِيـرَتُـهُ شـمـائل الـمَـجْـدِ دُونَ الـحَـدِّ سِـيـرَتُـهُ
وسُورَةُ الفَتْحِ مِثْلُ الحَمْدِ سُورَتُهُ مِنْ نُورِ ذي العرش مَنْشَاهُ وصُورَتُهُ
ومَـنْـشَـأُ الـنُّـورِ مِـنْ نُـورٍ يُـجَـسِّـمُـهُ
مَنْ لَاذَ مِنْ فَزَعٍ بِـالـهَـاشِـمِـيِّ أَمِـنْ أو حَادَ عَنْهُ فَعَنْ سُبْلِ الرَّشَادِ عَمِ
بـالفضل قَدْ خَصَّهُ مَوْلَاهُ وَهْوَ قَمِنْ ومُـودِعِ الـسِّـرِّ فـي ذات الـنـبـوة مِـنْ
عِـلْـمٍ وحِـلْـمٍ وإحـسـان يُـقَـسِّـمُـهُ
مـا حِـكْـمَـةُ الـلـه أَلَّا تَـعْـجَـزَ الـحُـكَـمَـا قَدْ أَبْرَزَتْ للْوَرَى أَسْمَى الْوَرَى عِظَمَا
لُـبُّ الـلُّـبَـابِ تَـسَـامَـى أَصْـلُـهُ وَنَـمَـا فَـذَاكَ مِـنْ ثَـمَـرَاتِ الْـكَـوْنِ أَطْـيَـبُ مـا
جَــادَ الــوُجُــود بِــأَعْــلَاهُ وأَعْــلَــمُــهُ
سُـيُـوفُـهُ بـالـردى نَـحْـو الْـعِـدَا لَـمَـعَـتْ وَكَـفُّـهُ بـالـنـدى قَـبْـلَ الـنَّـدَا هَـمَـعَـتْ
صُفُوفُه في المَدَا رَوْمَ الهُدَى اجْتَمَعَتْ فـمـا رَأَتْ مِـثْـلَـهُ عَـيْـنٌ ولَا سَـمِـعَـتْ

أُذْنٌ كَـأَحْـمَـدَ أَيْـنَ الْأَيْـنُ نَـعْـلَـمُـهُ

لا تَـعْـزُ رُومَـا وتُـرْكًـا أو جَـرَاكِـسَـةً　　لِـحُـسْـنِـهِ إن فـي هـذا مُـوَاكَـسَـةً

تَـقُـولُ آمِـنَـةٌ فـيـه مُـنَـافِـسَـةً　　أَضْـحَـتْ لِـمَـوْلِـدِهِ الأَصْـنَـامُ نَـاكِـسَـةً

على الرءُوسِ وذَاقَ الـخِـزْيَ مُـجْـرِمُـهُ

فـلا تَـرَى الـفُـرْسَ لـلـنِّـيرَانِ جَـانِـحَـةً　　بَـعْـدَ الـخُـمُـودِ ولا الأَنْـوَارَ لَائِـحَـةً

والـمـانـويـةُ لا تَـنْـفَـكُّ نَـائِـحَـةً　　وأَصْـبَـحَـتْ سُـبُـلُ الـتَّـوْحِـيدِ وَاضِـحَـةً

والـكُـفْـرُ يَـنْـدِبُـهُ بـالـوَيْـلِ مَـأْتـمُـهُ

كم ظُلْمَـةٍ عِنْدَ أَهْلِ الزَّيْغِ كَامِنَـةٍ　　قَـدِ انْـجَلَتْ بِيَـدٍ لِـلـنَّـفْـعِ ضَـامِـنَـةٍ

وعُـصْـبَـةٍ مِـنْ هُـجُـومِ الـرَّوْعِ آمِـنَـةٍ　　والأرضُ تَـبْـهَـجُ مِـنْ نُـورِ ابْـنِ آمِـنَـةٍ

والـعَـدْلُ تَـرْمِـي ثُـغُـورَ الـجَـوْرِ أَسْـهُـمُـهُ

فـلا تَـرَى كاهـنًـا لِـلْـغَـيْـبِ يَـسْـتَـرِقُ　　كَـلَّا ولا مَـارِدًا إلَّا ويَـخْـتَـرِقُ

والـجِـنُّ خَـابُـوا الـرَّجَـا بَـلْ مَـسَّـهُـمْ فَـرَقُ　　وإِنْ يَـقُـمْ لاسـتراقِ الـسَّـمْـعِ مُـسْـتَـرِقُ

رَصَـدْنَـهُ أَنْـجُـمُ الْأَرْجَـاءِ تَـرْجُـمُـهُ

فـكـم تَـحَـدَّى وأَبْـدَى فـي دَلَالَـتِـهِ　　مِـنْ مُـعْـجِـزَاتٍ تَـوَالَـتْ فـي رِسَـالَـتِـهِ

فَـقُـلْ لِـطَـاغٍ تَـمَـادَى فـي ضَـلَالَـتِـهِ　　إِنَّ ابْـنَ عَـبْـدِ مَـنَـافٍ مِـن جَـلَالَـتِـهِ

شَـمْـسٌ لِأُفْـقِ الـهُـدَى والـرُّسْـلُ أَنْـجُـمُـهُ

ما جَـاءَ مِـنْ سَـلَـبِ الْأَعْـدَا غَـنِـيـمَـتُـهُ　　بـه قـتـادة قَـدْ رُدَّتْ كَـرِيـمَـتُـهُ

فـي كُـلِّ آوِنَـةٍ تَـزْدَادُ قِـيـمَـتُـهُ　　الْـعَـدْلُ سِـيـرَتُـهُ والـفَـضْـلُ شِـيـمَـتُـهُ

والـرُّعْـبُ يَـقْـدُمُـهُ والـنَّـصْـرُ يَـخْـدُمُـهُ

في حَـوْمَـةِ الـدِّينِ أَصْـمَى الـغَـيَّ والْـجَـدَلَا　　وجَـنْـدَلَ الـكُـفْـرَ حـتـى صَـارَ مُـبْـتَـذَلَا

يَـمِّـمْ طَـوِيـلَ نِـجَـادٍ حُـكْـمُـهُ عَـدَلَا　　أَقَـامَ بـالـسـيف نَـهْـجَ الـحَـقِّ مُـعْـتَـدِلَا

سَـهْـل الـمَـقَـاصِـدِ يَـهْـدِي مَـنْ يُـيَـمِّـمُـهُ

يا صَـاحِ كُـنْ بِـرَسُـولِ الله مُـقْـتَـدِيَـا　　فـي فِـعْـلِـهِ وبِـنُـورِ الـحَـقِّ مُـهْـتَـدِيَـا

فَـكَـمْ أَبَـادَ مِـن الـبـاغـيـن مُـعْـتَـدِيَـا　　وكُـلَّـمَـا طَـالَ رُكْـنُ الـشِّـرْك مُـنْـتَـهِـيَـا

فـي الـزيـغ قَـامَ رَسُـولُ الـله يَـهْـدِمُـهُ

بِـسَـعْـدِ طَـالِـعِـهِ تَـسْـمُـو كَـوَاكِـبُـهُ　　وطَـالَـمَـا ابْـتَـهَـجَـتْ زَهْـوًا مَـوَاكِـبُـهُ

سَـلِ الـبُـرَاقَ بِـمَـاذا فَـازَ رَاكِـبُـهُ　　سـارَتْ إلى المسجد الأقصى رَكَـائِـبُـهُ

يَـزُفُّـهُ مُـسْـرِجُ الإسـرا ومُـلْـجِـمُـهُ

سَرَى بِهِ وهْوَ في أَقْصَى تَعَجُّبِهِ وفَازَ طَهَ بأعلى المَجْدِ أَعْجَبِهِ

له انْجَلَا ما تَوَارَى في تَحَجُّبِهِ والشوق يَهْتِفُ يا جبريلُ زُجَّ بِهِ

فـي النورِ والنُّورُ مَرْقَاهُ وسُلَّمُهُ

في رُؤْيَةِ الرُّسْلِ ليلًا كم قَضَى أَرَبَا وكم دَنَا وتَدَلَّى ثَمَّ واقْتَرَبَا

لَقَدْ رَأَى الآيَة الكبرى ومَا اضْطَرَبَا والعرش يَهْتَزُّ مِنْ تَعْظِيمِه طَرَبَا

إِذْ شَرَّفَ العَرْشَ والكُرْسِيَّ مِقْدِمُهُ

اعْتَزَّ بالله حبًّا في مَعَزَّتِهِ وحَلَّ في الملأ الأعلى بِحَوْزَتِهِ

فكيف فَازَ نَبِيٌّ شَطْرَ فَوْزَتِهِ والْحَقُّ سُبْحَانَهُ في عِزٍّ عِزَّتِهِ

مِنْ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى يُكَلِّمُهُ

في السَّبْعِ فَازَ بِخَمْسٍ فَوْزَ مُنْصَرِفِ بِأَجْرِ خَمْسِينَ يُسْدِي شُكْرَ مُعْتَرِفِ

وَنَالَ ما نال مِنْ مَجْدٍ ومِنْ تَرَفِ فكَمْ هنالك مِنْ عِزٍّ ومِنْ شَرَفِ

لَمِنْ شَدِيدِ القُوَى وَحْيًا يُعَلِّمُهُ

كُفَّارُ مكة ما كانت مُجَوِّزَةً لا زال يُمْنَحُ آياتٍ مُعَزَّزَةً

حتى إذا جاء بالتنزيل مُعْجِزَةً بل أَصْبَحَتْ بالأَحَاجِي فيه مُلْغِزَةً

يمحو الشرائعَ والأحكامَ مُحْكَمُهُ

أَجَابَ كُلُّ مُصِيحٍ بالسجود كَمَا آياتُهُ أَخْرَسَتْهُمْ مَنْطِقًا وَفَمَا

وحيث كُلٌّ لَدَيْهَا أَلْقَوُا السَّلَمَا هَانَتْ صِفَاتُ عظيم القَرْيَتَيْنِ وَمَا

يأتيه جَهْلًا أبو جَهْلٍ ويَزْعُمُهُ

فطالما بَالَغُوا في السَّبِّ أو ثَلَمُوا عَرْضًا وأَنْفُسَهُمْ والله قَدْ ظَلَمُوا

لو مَيَّزُوا قَدْرَهُمْ مِنْ قَدْرِهِ سَلِمُوا حَال السُّهَى غَيْر حَالِ الشمس لَوْ عَلِمُوا

بل أَهْلُ مكة في طُغْيَانِهِمْ عَمِهُوا

عُمْيُ البصائر عَنْ قَدْرٍ وعَنْ قَدَرِ صُمُّ المَسَامِعِ عَنْ تقدير مُقْتَدِرِ

فمَنْ تَخَلَّفَ في وِرْدٍ وفي صَدَرِ فاصْدَعْ بِأَمْرِكَ يا ابْنَ الشُّمِّ مِنْ مُضَرِ

فَقَدْ بُعِثْتَ لِأَنْفِ الشِّرْكِ تُرْغِمُهُ

مَنْ يَبْغِ شَأْوَكَ في قَابِ الكَمَالِ يَمِنْ بِحَظِّ مُنْهَزِمٍ يَكْبُو وعَجْزِ زَمِنْ

لك الشفاعةُ مولاك الكريم ضَمِنْ لك الجميل من الذِّكْر الجميل وَمِنْ

كُلِّ اسْمِ جُودٍ عَظِيمِ الْجُودِ أَعْظَمُهُ

ففي البداية كُنْتَ السَّيِّدَ الحَكَمَا وفي النهاية حُزْتَ الْحُكْمَ والحِكَمَا
فَرَجِّهِ ودَعِ الكُهَّانَ والحُكَمَا يا أَيُّهَا الآمِلُ الرَّاجِي لِيَهْنِكَ مَا
ترجوه ذا كَعْبَة الراجي ومَوْسِمُهُ

يَمِّمْ ضَرِيحًا إذا ما قَامَ يَحْضُرُهُ عادٍ ملائكةُ الرحمنِ تَنْصُرُهُ
رَوْضًا تَبَاهَتْ به في الدهر أَعْصُرُهُ قبرًا أُشَاهِدُ نورًا حِينَ تُبْصِرُهُ
عَيْنِي وأَنْشُقُ مِسْكًا حِينَ أَلْثُمُهُ

خِضَمُّ جُودٍ تَنَاهَى في عَزَازَتِهِ فيه الأميرُ بَرِيءٌ من إمارَتِهِ
مَنْ لِي وَلَوْ بِنَصِيبٍ مِنْ خَفَارَتِهِ كَم اسْتَنَبْتُ رِفَاقِي في زِيَارَتِهِ
عَنِّي ومَا كُلُّ صَبِّ القَلْبِ مُغْرَمُهُ

قَلْبِي طَلِيقُ اللِّقَا جِسْمِي مُقَيَّدُهُ فَلَيْتَ شِعْرِي متى يُفْدِيهِ سَيِّدُهُ
كم أَمَّهُ زائِرٌ مِثْلِي يُؤَيِّدُهُ وكم تُصَافِحُهُ من لا يدي يَدُهُ
ولا فَمِي عند تقبيل الثَّرَى فَمُهُ

أراه كالبدر في العَلْيَاءِ أَرْصُدُهُ قَرِينَ بُعْدٍ وبالآمال أَقْصِدُهُ
مَنْ للمُرِيدِ وقَدْ أَقْصَاهُ مُرْشِدُهُ مِنِّي أُنَادِيهِ مِنْ قُرْبٍ وأُنْشِدُهُ
قصيدةً فيه أَمْلَاهَا خُوَيْدِمُهُ

حَدِيثَةُ السِّنِّ ما نِيطَتْ تَمَائِمُهَا نَضِيرة الغُصْنِ قد غَنَّتْ حَمَائِمُهَا
رَاجَتْ حَوَاسِدُهَا جَارَتْ لَوَائِمُهَا مُهَاجِرِيَّةٌ افْتَرَّتْ كَمَائِمُهَا
عن ثَغْرِ دُرٍّ لِسَانِ الحال يَنْظِمُهُ

عذراء مَنْذُورَةٌ في خِدْمَةِ الحَرَمِ عسى يكون بها صَفْحٌ لِمُجْتَرِمِ
ويَبْلُغُ القَصْدَ قَبْلَ الفَوْتِ بالهَرَمِ كم يَأْمُلُ الرَّوْضَةَ الغَرَّاءَ ذُو كَرَمِ
يرجو الزيارة والأقدارُ تَحْرِمُهُ

لَمَّا تَجَنَّى زَمَانِي الذَّنْبَ وافْتَعَلَا وابْيَضَّ مُسْوَدُّ شَعْرِ الرأس واشْتَعَلَا
قَصَدْتُ مَنْ جَلَّ في سُلْطَانِهِ وعَلَا مُسْتَعْدِيًا بحبيب الزائرين عَلَى
دَهْرٍ تَنَكَّرَ بالإهمال مُعْجَمُهُ

هَلْ سَامَ فَخْرَكَ إنسانٌ ولا مَلَكُ أو رام قَدْرَكَ سُلْطَانٌ ولا مَلِكُ
فإِنْ أَلَمَّ زَمَانٌ خَطْبُهُ حَلَكُ فقُمْ بِعَبْدِكَ يا شَمْسَ الوُجُودِ وَكُ

حِمَاهُ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ مَرَّ مَطْعَمُهُ

فَكَمْ سَقَاهُ الرَّدَى أَقْذَى مَشَارِبِهِ   مِنْ حَيْثُ سَاقَ لَهُ أَدْهَى نَوَائِبِهِ
فاجْعَلْ زيارته أَبْهَى مَنَاقِبِهِ   وادعُ الإلَهَ إذا ضَاقَ الخِنَاقُ بِهِ
ما خاب مَنْ أَنْتَ في الدَّارَيْنِ مُكْرِمُهُ

أَرْجُوكَ نُصْرَةَ إِعْزَازٍ مُؤَزَّرَةً   على هَوَى النفس إذْ كانَتْ مُعَذَّرَةً
وَقَدْ تَوَالَتْ جُيُوشُ الْهَمِّ مُنْذِرَةً   يا سَيِّدَ العَرَبِ العَرْبَاءِ مَعْذِرَةً
لِنَادِمِ القَلْبِ لا يُغْنِي تَنَدُّمُهُ

إلى حِمَاكَ ضَعِيفٌ أَمْرُهُ وَكَلَا   وكَمْ مَلِيكٍ حَمَى بالْجَاهِ رَعْيَ كَلَا
أَصْبَحْتُ كَلًّا على نَعْمَاكَ بل ثَكِلَا   أَثْقَلْتُ ظَهْرِي بأوزاري وَجِئْتُكَ لَا
قَلْبٌ سَلِيمٌ ولا شَيءٌ أُقَدِّمُهُ

سَلَكْتُ في هذه الدنيا سُلُوكَ غَبِي   وما غَدَوْتُ مِن الأخْرَى على رَهَبِ
لَكِنْ تَعَلَّقْتُ في أذيال خَيْرِ نَبِي   يا صَاحِبَ الوَحْيِ والتنزيل لُطْفَكَ بِي
لا زِلْتَ تَعْفُو عن الجاني وتُكْرِمُهُ

رِفَاعَةٌ يَشْتَكِي مِنْ عُصْبَةٍ سَخِرَتْ   لَمَّا رَأَتْ أَبْحُرَ العرفان قَدْ زَخَرَتْ
فَارْفَعْ ظُلَامَةَ نَفْسٍ عَذْلَكَ ادَّخَرَتْ   وهَاكَ جَوْهَرُ أَبْيَاتٍ بِكَ افْتَخَرَتْ
جاءت إليك بِخَطِّ الذنْبِ تَرْقُمُهُ

قبول تَخْمِيسِهَا فَضْلٌ عَلَيْهِ وَمَنْ   لأَنَّهُ زَمِنٌ قَاسَى صُرُوفَ زَمَنْ
تَلَا مُؤَلِّفُهَا يَرْجُو الخَلَاصَ ثَمَنْ   فانْهَضْ بِقَائِلِهَا عَبْدِ الرَّحِيمِ وَمَنْ
يَلِيهِ إِنْ هَمَّ صَرْفُ الدَّهْرِ يَهْزِمُهُ

فاكْشِفْ بِحَقِّكَ عِنْدَ اليَوْمِ مَظْلَمَةً   من الهموم غَدَتْ كالليل مُظْلِمَةً
وانْظُرْ إليه بِعَيْنِ الفضل مَكْرُمَةً   واجْعَلْهُ مِنْكَ بمَرْأَى العَيْنِ مَرْحَمَةً
إذا أَلَمَّ بِهِ مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُهُ

ارحم غريبًا بَعِيدَ الدار غائِبَهُ   حَبْلَ النوى حَمَّلَ الأثقال غَارِبَهُ
فَصِلْ رَغَائِبَهُ وافْصِلْ غَرَائِبَهُ   وإن دعا فَأَجِبْهُ واحْمِ جَانِبَهُ
يا خَيْرَ من دُفِنَتْ في الترب أَعْظُمُهُ

أَسِيرُ بين قليل الصَّبْرِ قَاصِرُهُ   وعَصْرُهُ بفراق الأهل عَاصِرُهُ
وأنت ذو كَرَمٍ لا شيء حَاصِرُهُ   فكل مَنْ أنت في الدارين نَاصِرُهُ

لم تَسْتَطِع مِحَنُ الدارين تَهْضِمُهُ

وهذه حَاجَةُ الملهوف مُجْمَلُهَا وأَنْتَ أَعْلَم والمولى يُجَمِّلُهَا

وتَنْتَهِي وقريب العفو يَشْمَلُهَا عليك مني صَلَاة الله أَكْمَلُهَا

يا ماجدًا عَمَّت الدارَيْن أَنْعُمُهُ

يسقي البرايا جميعًا ري عَارِضِهَا إِنْسًا وجِنًّا ووحْشًا في مَرَابِضِهَا

تشفي الخلائق طُرًّا مِن تَمَارُضِهَا يُبْدِي عبيرًا ومِسْكًا مِسْكُ عَارِضِهَا

ويَبْدَأُ الذِّكْرُ ذِكْرَاهَا ويَخْتِمُهُ

وها تحية رَبِّي أَكْرَمُ الكرما تنحو ضريحك يا خَيْرَ الورى كَرَمَا

سواطع النور منها تَمْلَأُ الحَرَمَا ما رَنَّحَ الريح أَغْصَانَ الأراك وما

حامت على أَبْرُق الحَنَّانِ حُوَّمُهُ

تحية بِصِلَاتِ البِرِّ عَائِدَةً بالخير مُوصَلَةً للرُّشْدِ قَائِدَةً

تُثْنِي عليك ولَيْسَتْ عنك حَائِدَةً وتَنْثَنِي فتَعُمُّ الآلَ جَائِدَةً

بكل عارض فَضْل جَادَ مَسْجَمُهُ

رِفَاعَةٌ خَمَّسَ المنظوم مُرْتَجِلَا قَرِيضَهُ وَهْوَ بالخُرْطُومِ قَدْ وَجِلَا

قَالَتْ هَوَاتِفُهُ: بالله كُنْ رَجُلَا فَإِنَّ جَدَّكَ طَهَ للخطوب جَلَا

فَأَمْرُ خَطْبِكَ هذا الجدُّ يَحْسِمُهُ

ماذا العناء وأَهْلُ البيت قَدْ كَفَلُوا عَوْدًا جميلًا وما عَنْ وَعْدِهِمْ غَفَلُوا

لا تعْن بالغير جَدُّوا السير أو قَفَلُوا هم أجمعوا أَمْرَهُمْ للكَيْد واحْتَفَلُوا

والأمر لله ما يَرْضَاهُ يَحْكُمُهُ

ومع أن مدة الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع الوطني، فقد اقْتَضَت الحكمة الإلهية أن سفري لَمْ يَضِعْ هباء منثورًا، فقد اعْتَنَيْتُ في مُدَّتي هناك بترجمة وقائع تليماك، وهو بِكُلِّ مَنْ في حماك، وهو الذي صار طَبْعُه فيما بعد في مدينة بيروت، ولا شك أنه مِنْ أَنْفَع كتب الآداب والحكم، حيث اعْتُنِي بترجمته في سائر لغات الأمم، وكذلك قد تَعَلَّم فقهاء الخرطوم ممن معي من المشايخ القراءِ تجويدَ القرآن الشريف وعِلْم القراءات، حتى صاروا ماهرين في ذلك، وفي آخر الأمر تَنَظَّمَت المدرسة نحو تسعة شهور، وتَعَلَّمَ فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفًا من النحو والحساب والهندسة وحُسْن الخط، وظَهَرَتْ نتيجة ذلك في الامتحان العام، والآن حين جَدَّدَت الحكومة الإسماعيلية عدة مدارس بالأقاليم السودانية تَوَظَّفَ بها البعض

من هؤلاء المتعلمين، ولا بد أنه يُرْجَى نجاح تلك المدارس بداعي أن تأسيسها مَبْنِيٌّ على الإخلاص في النية، وحسن الطوية الخديوية.

وبالجملة: فمتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة، ودخلت أهاليها بحسن الإدارة في دائرة الاستقامة؛ صارت هي وديار مصر في العمار كالتوءمين، وفي إيناع الأثمار صنوين، حتى ينشد لسان حالهما:

نحن غصنان ضَمَّنَا عاطف الوَجـ ـد جميعًا في الحب ضَمَّ النِّطَاقِ
في جبين الزمان مِنْك ومِنِّي غُـرَّةٌ كَـوْكَـبِـيَّـةُ الإنْـفِـلَاقِ

وَقَدْ لاح على قُرْبِ عَمَارِيَّتِهَا علامة ظاهرة، وهي فَتْح المدارس الخمسة من ابتداء الحكومة الإسماعيلية الباهرة، وكذلك إرسالية إسماعيل بك الفلكي ناظر المهندسخانة والرصدخانة إلى سواكن في رمضان سنة ألف ومائتين وثلاثة وثمانين مع بعض المهندسين والرسامين؛ لتعيين الطرق الحديدية المُجْمَع على إنشائها بالأقاليم السودانية، وإرسالية بعض أرباب المعارف الإنكليزية في سنة ١٢٨٦؛ لاستكشاف منابع النيل، وإعطاء ملحوظات خيرية، كل هذا وأمثاله دلائل قاطعة على أن السودان سيحظى عن قريب بالوسائل النافعة، فلا شك أن سياحة المرحوم جنتمكان في بلاد السودان وإن لم تَتَفَتَّح بها كنوز الذهب؛ فقد أَدَّى في حَقِّهَا من البحث عنها ما وَجَبَ، فإذا كانت الغايات لا تُدْرَكُ فالميسور منها لا يُتْرَكُ، فكأن لسان حاله يقول:

سأَضْرِبُ في بطونِ الأرض ضَرْبًا وأَرْكَبُ في العلا غُرَرَ الليالي
فإما والثَّرَى وأُصِيبُ عُذْرًا وإما والثُّرَيَّا والمعالي

وفي الحديث: «اعملوا، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»، وفي رواية: «فكل مُهَيَّأٌ لما خُلِقَ له»، وبالجملة: فكان تَهَيُّؤُهُ للمعالي عجيب.

الحمد لله أَنَّنِي رجل مُذْ كُنْتُ لا تنقضي أَعَاجِيبِي

وحسبه من الأفعال العجيبة وقاية مصر من الأوبئة بحُسْن النظافة، وبالاحتراسات الحكمية، وتجديد المطبعة لنشر المؤلفات العلمية، وإنشاء مسجد القلعة العامرة؛ لتعضيد المعالم الإسلامية، وقَطْع دابر المفسدين للحصول على التأمينات العمومية، ومع ذلك فكَمْ

تَرَكَ الأول للآخر، وكم أَبْقَى لِمَن بَعْدَه من تكميل المفاخر؛ فلهذا وَجَبَ على الخَلَفِ تَتْمِيم ما لم يَتَيَسَّرْ فِعْلُه للسلف، وإعمال فِكْرِه في استنتاج نفائس المنافع، كما يُعْلَم ذلك من فصول الباب التابع.

الباب الخامس

في الآمال الحسنة والأعمال المُسْتَحْسَنة من الإصلاحات المصرية بمقتضى اصطلاحات الحال العصرية؛ وفيه فصول.

الفصل الأول

في ذكر تَقَدُّم مصر في هذا الوقت الحالي

من المعلوم أن مصر في هذا العهد مِنْ أَحْسَنِ البلاد المشرقية حكومة وأَفْضَلِها إدارة؛ إذ فيها مِنْ كمال حُسْن الإدارة والضبط والربط ما يُفِيدُ الأَمْنَ على الأرواح والأموال والأعراض، كما في أعظم الممالك المشرقية والمغربية، وفيها الصنائع أَخَذَتْ في النمو والازدياد، وما أنشئ فيها من سكك الحديد الكثيرة الفروع، ومن الترع والجسور والقناطر زاد كثيرًا في تجارتها وزراعتها، ولو لم يكن للحكومة الحالية إلا حوض السويس العجيب، والترعة الإبراهيمية التي صار إنشاؤها بالصعيد على وَجْهٍ من السعة غريب؛ لكفاها ذلك على رَغْم حاسدها المريب، فناهيك بترعة كادَتْ أن تكون بَحْرًا، وحَفْرها في أَقْرب مدة يكاد أن يُعَدَّ سِحْرًا، وكم للحكومة الحالية غير ذلك من التجديدات والمآثر الخالدات، فلو نَظَرْتَ إلى تحسين المحروسة بتوسيع المشارع والمسالك، وأنها في أقرب مدة صارت كأعظم مدن الدول الكبيرة والممالك؛ لازْدَرَيْتَ مَنْ تَوَلَّى حكومة مصر من الملوك والخلفاء، ولَصَغُرَ في عَيْنِكَ مَجْدُهُم الأثيل الذي ذَهَبَ جُفَاءً واختفى.

فشأن مصر اليوم مما يُغْبَطُ عليه، فهي حَرِية أن تكون قُدْوَة لجميع البلاد المجاورة لها، وبالجملة: فأرض مصر الأريضة الطويلة العريضة طيبة التربة كريمة المنبت، ومضافاتها من بلاد السودان جسيمة المقدار خصبة أيضًا على الأكثر، وتربتها أيضًا مُعْشَوْشِبَة فيها تعظم سعة الخديوية الجليلة المصرية بحيث لا تَنْقُص في المقدار عن ثُلُثِ الممالك العثمانية، فمساحتها مساحة الممالك العظيمة، وجميع أهاليها وأهالي البلاد

الملحقة بها نحو ستة ملايين، كل ذلك يجعلها مضاهية حسًّا ومَعْنًى لبعض الممالك المعتَبَرة في ميزان البوليتيقية.

فلا غَرْوَ أن كانت بمزاياها وخصائصها مُنْتَظِمَةً في سُلُوك أحاسن الممالك، بل هي واسطة سلوك العقود الجوهرية، ومالِكُها خَيْر مالك، ومِنْ وَقْتِ ما حَسُنَ فيها مذهب الإدارة والترتيب جاد مَصْدَر إيرادها بالمحصول العجيب، فمَنْ قَدْره بزهاء مليون من الأكياس؛ فقد أصاب حدسه، وما حاد عن القياس.

وأقوى الدلائل في الحالة الراهنة على طيب حال مصر ما يُرْجى لها في المستقبل من نُمُوِّ الخير وانتهاء مَحْو الإصر، ما هو جارٍ الآن من ازدياد تجارتها، وامتداد معاملتها، فإن ما خرج منها إلى البلاد الأجنبية سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية قد زاد الآن خمسة أضعاف على السابق، والذي دَخَلَ إليها زاد ضعفين، فاليوم صارت قيمة تجارتها الداخلة والخارجة جسيمة جدًّا من رءوس أموال وأرباح حتى أَبْلَغَهَا بعضهم نحو مائة وخمسين مليونًا من الليرات، وإن كان هذا لا يخلو عن المبالغة.

ولا تزال مصر بالتقدمات التحسينية المتشبثة بها الحكومة الحالية تتمادى في الازدياد، وتتهادى بِحُسْنِ سلوك سبيل الرشد والسداد، فلا غَرْوَ أن اسْتَحَالَتْ حالةُ الحكومة في أحوال متعددة إلى أطوار حَسَنَة متجددة، ونَهَضَ بها حُسْن الجد والطالع إلى أسمى الطوالع وأسنى المطالع، فما أَحْسَنَ الحكومة التي أَنْعَمَ الله عليها بمن يُسَارع في إعْزَاز الوطن وتَبْلِيغِهِ مناه، وإعلاء الحِمَى وتكثير غِنَاه، ولو باتفاق المال لتحسين الحال:

أَصُونُ عِرْضِي بمالي لا أُدَنِّسُهُ   لا بارك الله دُونَ العِرْضِ في المَالِ
أَحْتَالُ للمال إِنْ أَوْدَى أُحَصِّلُهُ   ولَسْتُ للعِرْضِ إنْ أَوْدَى بمُحْتَالِ

فالملك العاقل من يستطيب المتاعب في استحصال المعونة، ويستجلب المكاسب؛ ليُقَوِّمَ أَوْدَ وَطَنِهِ، ويتَعَهَّد شُئُونَهُ، ويجتهد في تنمية الإيراد والمصرف إلى حد التعديل، بسلوك أَرْشَد طريق وأَعْدَل سبيل، حتى يبلغ السعي في التنمية درجة الموازنة والتسوية، فإذا امتلأ الحَوْضُ وسُقِيَ الروض لَطُفَ السَّعْيُ، وذاقت الرعية حلاوة الرعي، وظَهَرَتْ ضخامة مصر التجارية وفخامتها السياسية بِغَرْس أصول المنافع الأسياسة، فإِنَّ حُسْنَ الإدارة والاقتصاد والتدبير باب عظيم لِفُتُوح الخير الكثير، وطريق لتأسيس الثروة

وتمهيد الغنى، ولتجديد النعمة وازدياد الهنا، وكل ما يُوجِبُ حُسْنَ الثنا، مما يَحْسُنُ فيه قَوْلُ الشاعر:

بدائع مِنْ صُنْعِ القديم ومُحْدَثٌ   تَأَنَّقَ فيه الْمُحْدِثُ الْمُتَأَنِّقُ
إذا أَنْتَ مِنْ أعلاه أَشْرَفْتَ نَاظِرًا   تُجِيلُ عَنَانَ الطَّرْفِ فيه وتُطْلِقُ
وتَجْمَعُ فيه كُلَّ حُسْنٍ مُفَرَّق   وشَمْل الأسى عن حَاضِرِيهِ تُفَرِّقُ
فكم مِنْ غِيَاضٍ في رياضٍ وجَنَّةٍ   بها كَوْثَرٌ من مائها يَتَدَفَّقُ

ولقد حصل في هذا الزمن الأخير في الحكومة توسيعات وتسخيرات عجيبة لم يَتَمَكَّنْ منها المرحوم محمد علي، وكان يتمنى حُصُولَهَا بعضُ المؤرخين حيث أبدى فيه ملحوظة لطيفة، تفيدُ أنه لو ظَفِرَتْ ديار مصر بهذا التكميل لَتَمَّ لها الدست، وفازت بالحظ الجزيل، فما تَمَنَّاه المؤرخ المذكور ثَمَّ في هذه الحكومة الحالية كما سَنَذْكُرُ ملحوظ ذلك في الفصل الثاني، المتكفل لبيان مباني تلك المعاني.

الفصل الثاني

في ملحوظات عمومية تتعلق بالديار المصرية أَبْدَاهَا بعضُ مَنْ أَرَّخَ مصر من أرباب السياحة وحرض فيها على ما يَلْزَم من تقديم التمدن بتحسين أحوال المنافع العمومية تجارة كانَتْ أو زراعة أو فلاحة، وهذا باعتبار ما كان كما لا يَخْفَى على ذوي العرفان.

* * *

ومضمون كلام هذا المؤرخ أن خصوبة أَرْض مصر، واعتدال قُطْرِها، وصَحْو زَمَنِهَا، كل ذلك يؤذن باستعدادها إلى الوصول لدرجة السعادة وأَوْجِ الثروة، ومع ذلك فقد تَوَالَى عليها منذ قرون عديدة عدة من الدول، ولم يتشبث أحد من ملوكهم إلى إبلاغها درجة كمال ولا مرتبة اعتدال؛ وذلك لأنها في عهد الخلفاء كان يتولى عليها من العمال والنواب مَنْ لا يَسْلُك أكثَرُهُم في حُسْن الإدارة والتدبير سَبِيلَ الصواب، وإنما كان النائب فاعلًا مختارًا يسيء معاملة الرعية بما عِنْدَه من المرخصية، وربما حَدَثَ في أيام نيابته اختلالٌ جسيم يَتَسَبَّبُ عنه الدمار وانحلال العمار، فقد رأى نِيلَ مصر بعينيه أن رمال الصحراء والبراري انهالت عليه وامْتَدَّتْ على جزء عظيم من الأرض التي كان يَرْوِيهَا، حتى أَعْقَمَتْ سواحله ببوار نواحيها، وأَفْسَدَتْ رسادقها وضواحيها.

وقد ازداد هذا الضرر وتَجَسَّمَ الخطب والخطر في أيام حكومة سلاطين الشراكسة، وبَقِيَتْ أيضًا في أيام الدولة العلية؛ للاختلاف الواقع بين ولاتهم والمماليك الوجاقلية، ففسدت مملكة مصر بين الفريقين، وضاعت كضياع السفينة ذات الرئيسين، ولم يَصِفْهَا أرباب السياحة من المتقدمين والمتأخرين حق وَصْفِها الصحيح، بل تَكَلَّمُوا عليها بكلام

ناقص فيما يتعلق بالتعديل والتجريح، ولا وَفَوْا لها بما يَجِبُ من الطب والعلاج، ولا بَيَّنُوا طُرُقَ التقدم والرواج.

ولما حَلَّ بها جيش الفرنساوية أَمْعَنَ النظر فيها وعَرَفَ قيمة الطرق المعاشية، وأنَّ مِصْرَ لو حُكِمَتْ بحكومة مماثلة لدول أوروبا المنتظمة لأمكن تكثير أهلها وبلوغهم إلى ثمانية ملايين مُتَمَّمَة، وأنها قَابِلَة لنمو الزراعة والصناعة والتجارة، وأن أهلها فيهم القابلية لاجتناء ثمرات العقول وفوائد المهارة، وقُطْرها مُسْتَعِدٌّ لتحسين الصحة العمومية بطرد الأمراض الوبائية، وماء النيل إذا تَوَزَّع على الأراضي بالوجه اللائق يَرْوِي من الفدادين فوق أربعة ملايين، وتكون كثيرة المحصول، فإن فِلَاحَتَهَا المختلفة تَمْكُث ثمانية أشهر من السنة يَتَقَلَّب عليها الحرث والزرع المختلف باختلاف الفصول، فإن أراضي أقاليم البحرية متساوية الأطيان تقريبًا في طبيعة المزارع، مستوية الأجزاء، فجميع أراضيها صالحة للزراعة والفلاحة بالسهولة؛ لأن الرطوبة تَبْقَى بها مدة فصل الشتاء وبعده، فَيَسْهُل إنباتها بواسطة ما يَنْزِل فيها من الأمطار بدون الاستعانة بالسواقي، فتخرج منها الحنطة الجيدة، فما يوجد فيها من البُور بدون زَرْع فهو ناشئ مِنْ مُجَرَّد إهمال الأهالي وسوء إدارة الحُكَّام؛ مثلًا جميع الأراضي الواقعة على شطوط ترعة الإسكندرية هي أشبه بالصحراء والبرية؛ لخلوها عن الحرث والغرس، ولو زُرِعَتْ جميعها لَخَرَجَ من المحصول الجسيم مقادير وافرة، فالأراضي التي لا تُزْرَعُ بمديرية البحيرة نحو مائة وثمانين أَلْف فدان تقريبًا، منها أرض بحيرة مريوط، تَشْتَمِل على ستين ألف فدان، مع أنه يُمْكِن تجفيف جزء منها وزَرْعُه.

وأما روضة البحرين فإنها خصبة جدًّا إلا أنها لم يُعْطِهَا الفلاحون في الفلاحة ما يَجِبُ لها، فهي في الجملة تُعْطِي محصولات جيدة، ولو أُعْطِيَ لها حَقُّهَا من الفلاحة لَكَثُرَ مَحْصُولُها كثرة بالغة، ففي أقسامها تخرج الحنطة والذرة والفول والشعير والكتان والنيلة والدخان، إلا أنه لا بد من تَقَدُّم الزراعة بها تقدمًا أَجْسَم من ذلك؛ لازدياد المحصول وكَثْرَتِهِ، فإن روضة البحرين التي هي عبارة عن الغربية والمنوفية فيها نحو مائة وعشرين ألف فدان من البور، منها بالغربية نحو ثمانين ألف فدان، والباقي وهو مقدار النصف من ذلك بالمنوفية.

ومن تحسين الزراعة بمصر أن يُخَصَّصَ جزء من أراضي الشرقية والدقهلية لزراعة القطن والكتان والنيلة، وما يتبقى بعد هذا التخصيص يكون لزراعة الحنطة والذرة والفول والشعير والعدس ونحو ذلك، ويُخَصَّصُ في مديرية الشرقية جملة أفدنة لِزَرْعِهَا

على هيئة المروج الصناعية والمراعي المدبرة، ويَصِحُّ في هذه المديرية زِرَاعة الكرم والتوت، كما صَحَّتْ زراعة التوت في بعض الجهات الأخرى من الأقاليم الجنوبية الإفرنجية الشبيهة بالأراضي المصرية، فإن تربية دود القز بمصر تعطي مع السهولة محصولًا عظيمًا لمساعدة الحكومة له، واستثنائه من دفع العوائد؛ تمييزًا له في المحال المُقْتَضَى لها ذلك، فإن في مملكة فرنسا أشياء تُسْتَثْنَى من دفع العوائد والضرائب؛ لِقَصْد ترغيب الزراعة، وتكون مُعَافَاةً من ذلك وَقْتِيًّا؛ يعني: لا تدفع العوائد إلا بعد مدة، فمن ذلك التزام رَدْم قدر مخصوص من البرك والمستنقعات لمن يريد غَرْسَها، فإنه يجوز في فرنسا الترخيص له في ذلك القَدْر، ومعافاته مِنْ دَفْع المال مدة لا تَزِيدُ عن خمس وعشرين سنة، تمضي بعد التنشيف وصيرورته صالحًا لغيره، هذا في الأراضي البور، وأما الأراضي المعمورة فيجوز بموجب اللوائح الصادرة في ذلك معافاتها من المال لمنفعة الأراضي نفسها إذا زُرِعَتْ بزراعات مخصوصة أَنْفَع مِنْ غَيْرِها للمملكة كزراعة الكرم، أو الأشجار، أو التوت كتنمية دود القز، أو الأثمار فتكون لها امتيازات خصوصية في فرنسا، وقد سَلَكَ هذا المَسْلَك المرحوم محمد علي في مبدأ الأمر برفع الأموال عن أراضي الضواحي التي يُزْرَع فيها قَدْر مَخْصُوص من شجر الزيتون، وكما صَدَرَ في هذا العهد الأخير من قرارات مجلس النواب فيما يخص الأراضي المستبحرة والموات من تمييزها برفع الأموال عنها مُدَّة محدودة للمنفعة العمومية، ولا بأس أن يُعْمَل في مصر مِثْلُ ما يُعْمَل في فرنسا في ربط الأموال على العقارات المُجَدَّدَة من بيوت الأبحار والورش والمعامل، وهو أن لا يُرْبَط عليها عوائد إلا في آخر السنة الثالثة التي تَمْضِي من تمام عمارتها؛ ترغيبًا للمجددين حيث إنهم في أثناء هذه السنين الثلاثة يَجْنُون جميع ثَمَرَة مبانيهم، ويُوفُونَ غالبًا ما عليهم من الديون للصناع وأرباب مُهِمَّات البناء، فبمثل هذه الترغيبات يَكْثُر التجديد للأمور النافعة النادرة، فالتشويق لغرس شجر التوت لتنمية دود القز يَكُون مِن هذا القبيل.

فبحسن إدارة تربيته يكون عُدَّة وعُمْدَة لإمداد الفبريقات الأروباوية، كما سيأتي توضيح ذلك فيما بعد الفصل الثالث من هذا الباب.

وفي إقليم الشرقية نحو أربعين ألف فَدَّان من البور، إذا صار تَعَهُّدها بالزراعة يَتَبَدَّلُ البوار بالعمار، وقِلَّة المحصول بالاستكثار، وكذلك بالدقهلية نَحْو ستين ألف فدان بدون زراعة، إذا انْصَلَحَتْ رَاجَتْ، وكانت كنزًا للبراعة، وإذا تَقَدَّمَتْ زراعة الأُرْز بجوار رشيد ودمياط عما هو جارٍ الآن، وتَحَسَّن تبييض الأرز بتكثير الطواحين التي تدور بالآلات المائية؛ فإن أرباب الزراعة بتلك الجهات يكتسبون الأموال الجمة من هذا الفرع، الذي

هو أجود من أرز إيطاليا وأمريكة والأقطار الهندية، لا سيما وأن بتلك النواحي يوجد من الأراضي البور الصالحة لزراعة الأرز نحو أربعين ألف فدان.

وأما مديرية الجيزة ومديرية القليوبية فإنهما تعطيان محصولات مماثلة لمحصولات المنوفية والغربية إذا صار تَعَهُّدُهُما بالحرث والغرس كما ينبغي، بل يزيدان على ذلك بصلاحيتهما لزراعة القرطم، وإذا صار إصلاح ما فيهما من البور الذي يُنَاهِز ثمانين ألف فدان يَكْثُر محصولهما كَثْرَة بالغة، وكذلك إقليم الفيوم إذا اسْتَمَرَّ على زراعة الزيتون والورد وأَخَذَ في الكثرة؛ فإن محصول هذين الفرعين يزيد في قيمته زيادة ذريعة، فإنه إقليم ظريف، مُخَصَّب بكثرة الاجتهاد، وتقديم فَنِّ الزراعة فيه، وإنما يَتَخَصَّصُ منه جزء عظيم من الأراضي لزراعة الغلال بقدر الحاجة، والباقي تَصِحُّ فيه زراعة النيلة والكتان والبرسيم بترتيب زراعة كل صِنْفٍ بما يلائمه من فصول السنة؛ لصلاحية أرضه للزراعات الراتبة، وما فيه من الأخراس يُقَارِب ستين ألف فدان قابلة للإصلاح، فحالة أراضيه التي فَسَدَتْ بالحروب وإغارة العرب قابلة للاستحسان، وأن يَعُودَ خِصْبُها كما كان.

وأما مديرية بني سويف فهي مُنْبِتَة للحنطة والذرة والفول والكتان والنيلة والدخان، ومع ذلك ففيها من الأخراس نحو أربعين ألف فدان، إذا انْصَلَحَتْ تصير جسيمة المحصول.

وفي إقليم الأطفيحية يَصِحُّ القمح والفول والذرة والدخان، وفيه من الأراضي غير المفلحة نحو ثلاثين ألف فدان إصلاحها من الواجبات، وأما أراضي المنية فأكثرها صالح لزراعة قَصَب السكر، لا سيما نواحي مَلَّوِي، قال الحكيم جالينوس: لولا قصب السكر بمصر ما بَرِئَتْ أهاليها من العلل سريعًا، وقيل: يُعْمَل من قَصَب السكر نَحْو ألف نَوْع من الحلواء، قال بَعْضُهم وأَحْسَنَ في الجناس:

سبحان من أَنْبَتَ في أَرْضِنَا ما بَيْنَ شوك وحَلَا فِيهَا
أُنْبُوبَةً في حَشْوِهَا سُكَّرٌ قد كان ماءً وحَلَا فيها

وأَلْطَفُ منه بكثير قوْلُ بعضهم فيه مُلْغِزًا:

جُعِلْتُ فِدَاكَ هَلْ لَكَ مِنْ حَبِيبٍ مُجِيبٍ في الوصال بِلَا مِحَالِ
نَقِيِّ الثَّغْرِ مَعْسُولِ الثنايا لَـهُ رِيـقٌ أَلَـذُّ مِـن الـزُّلَالِ

لـه قَدُّ القَضِيبِ إذا تَثَنَّى وَهَزَّتْ عِطْفَهُ رِيحُ الشَّمَالِ
يُقَامُ عَلَيْهِ حَدُّ القَطْعِ ظُلْمًا ولم يَسْرِقْ ولَمْ يُتْهَمْ بِمَالِ
وَيُعْصَرُ كَعْبُهُ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فَيُبْدِي الشُّكْرَ مِنْ كَرَمِ الخِلَالِ

وهو كثير في الديار المصرية لا يكاد يَنْقَطِعُ عنها إلا في خمسة أشهر في السنة.

«وقد نُقِلَ» عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: لولا قصب السكر بمصر ما سَكَنْتُهَا، وكان يُكْثِرُ مِنْ مَصِّهِ لِلَذَّتِهِ التي لا يَمَلُّهَا أَحَدٌ، وقد تَجَدَّدَ صِنْفٌ آخَر من قَصَب السكر مُشْبِع في المائية والحلاوة، لكنه لا يُسَاوي في اللذة القصب البلدي، وقد كَثُرَ هذا الصنف بأقاليم مصر، ولكن اسْتَفْحَلَتْ أعواده في مديرية المنية لشدة صلاحيتها لزرعه، وفيها ثلاثون ألف فدان من البور، فإذا زُرِعَتْ يَتَحَصَّلُ منها محصولات عظيمة.

وأما مديرية أسيوط وجرجا فإنها مشتملة أيضًا على نحو ستين ألف فدان بدون فلاحة لكنها صالحة؛ لذلك يُنْتَج في أرضها الحنطة والفول والذرة والعدس والنيلة والدخان والسلجم والقرطم والخشخاش وقصب السكر وغير ذلك، ومن أسيوط إلى إسنا سائر الأراضي صالحة للقطن والكتان والقرطم والسلجم وقصب السكر والقمح والفول والذرة والعدس واللوبيات وغير ذلك، وجميع أراضيها صالحة لزراعة شجرة البن، وإنما تَسْتَدْعِي بها أعمالًا خصوصية؛ يعني: إذا خُدِمَت الأرض خدمة مخصوصة وزُرِعَتْ فيها شجرة البن؛ فإنها تُثْمِر إثمارًا عظيمًا، فبهذا تَسْتَغْنِي مصر عن بن بلاد اليمن، فالأرض الصالحة لهذه الشجرة بتلك الجهات الصعيدية تَبْلُغ تقريبًا نحو نصف مليون فدان من الأطيان التي تَخَرَّسَت بالحَلْفاء وبغيرها من الحشائش الطُّفَيْلية كالشوك والسعدان، ويَصِحُّ في هذه الأراضي الصعيدية شَجَر التوت الذي يَتَغَذَّى به دود القز؛ لأن الصعيد يُنْبِت الجميز في كل ناحية من نواحيه، فيُفْلِح فيه التوت ولا يُخْشَى على دود القَزِّ فيه من التلف؛ لقلة الأمطار والعواصف المُتْلِفَة لدود القز في بلاد أمريكة، ويمكن في مِصْرَ وقايتها والتَّحَفُّظ عليها من هبوب الرياح الجنوبية المريسية بغرس الأشجار المُلَطِّفَة لتلك الرياح.

وفي أودية الفيوم تُنْتَج أغنام المارينوس ذوات الصوف الموصوف وتَحْسُن للغاية لجودة مرعاها، فبذلك يَتَحَصَّل في مصر الأصواف الجيدة، وتُتَّخَذُ منها المنسوجات الظريفة والمشغولات اللطيفة، ولا مانع من تخصيص إصطبلات عظيمة في جزء من إقليم الفيوم وفي جانب من مديرية الشرقية؛ لتحسين جنس الخيول، فإن توليد الكحائل

العربية، وحياد الخيول الدنقلاوية للتجنيس على الخيول المصرية يَنْشَأ عنها أصناف جيدة متجنسة، تُعْتَبَرُ من الأصائل.

وكذلك إذا بَلَغَتْ ترعة السويس المرام بوصلة النيل المبارك بالبحر الأحمر فإن مزاياه لا تُحْصَى ولا تُحْصَر، وإذا سَهُلَتْ المواصلة بين قنا والقصير للأخذ والإعطاء، بتجديد منازل خانات للمأكل، وببناء صهاريج تَمْتَلِئُ من الأمطار الشتائية بِقَدْرِ لوازم المسافرين واحتياجاتهم؛ فإن فوائد هذه التجديدات مما لا مزيد عليه لرواج المخالطات والمعاملات.

وكذلك إذا صار العريش الذي بين مصر والشام مركزًا للتجارات والبضائع، وتَأَكَّدَتْ المعاوضات والمبادلات، والأخذ والعطاء بين الأقاليم المصرية والشامية؛ فإن القوافل تَنْقل محصولات القُطْرَين من أحدهما إلى الآخر مدة الفصل الذي يُخْشَى فيه على السفن في السير في البحر، ولا يُؤْمَن عليها فيه أن يرْسِيَ بلا خطر في مينا دمياط، فيكون سفر التجارة في البر آمن؛ ولهذا يَلْزَم إنشاء ترعة ما بين مِينَتَي الإسكندرية لمن لا يريد التجارة في البر، فبإنشائها يَسْهُل عبور السفن وخروجها من الأقطار الشامية.

وإذا غُرِسَت الأشجار في صعيد مصر فإنها تَحْفَظ القطر المصري من رِيح السَّمُوم وتقيه من وخامة الهواء المَسْمُوم؛ لأن الأشجار العالية الجافَّة متى غُرِسَتْ في الجهات المجاروة للبراري والصحاري؛ وَقَت المزارع من التلف، وحَفِظَت الأهالي من الأمراض الناشئة في الغالب عن هبوب هذه الرياح المسمومة المُضِرَّة، فإذا حَصَلَ ذلك كُلُّه تَوَفَّر في قُطْرِ مصر الخير والبركة في محصولاتها، وتواجد فيها من المؤنة والمعونة قُوتُ أهلها، فيفيض فيها ما يكفي لقوت أهالي جنوب أوروبا.

ويمكنها أيضًا أن يَغْتَذِي بها من مراعيها ما ينيف عن خمسمائة ألف من الإبل ومائتي ألف من الخيل وأربعمائة ألف من الحمير والبغال وأربعة ملايين من الأبقار والجواميس وعشرة ملايين من الضأن والمعز، وإذا اتُّخِذَ فيها نحو ثمانمائة مَعْمَل لترقيد البيض وإخراج الدجاج نَتَجَ من ذلك خمسة وعشرون مليونًا من الدجاج، وهذا كله يُنْتِجُ الغنى والثروة، مع ما يَتَجَدَّد بها من العلاقات التجارية والتواصل بالمعاملات الاستمرارية بينها وبين جميع المدن التي على البحر المالح من بلاد الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب وبلاد الحبشة.

ويكثر تردد السفن منها بطريق السويس والقصير على المينات العربية والحبشية، كما تصير موردًا لذلك، وكذلك إذا زالت موانع الأوبئة والمضارِّ من الجهات الجنوبية؛ فإن قوافل داخل بلاد أفريقيا تَتَرَدَّدُ إلى ديار مصر بمتاجرهم ليستعيضوها بمحصولات

فبريقات أوروبا الواردة إلى مصر، وبواسطة ما في مصر من الأمنية والمساعدة للأجانب والأغراب تُرْسِل جميع البلاد إليها الرسائل التجارية؛ لاطمئنانهم على نجاح مقاصدهم، وفلاح مواصدهم، فإذا اتَّصَفَتْ مصر بهذه الصفات وصَفَتْ أَحْوَالُها هَرَع إليها كل فريق، وحج إليها الناس من كل فج عميق، فبهذا يَعْمُر المكان وتَكْثُر السكان، وبتجدد البركة يَكْثُر العمل وتنبسط الحركة، فيستدعي حال المدن الأصلية تكثير المدارس العمومية والكتبخانات الأهلية المشتملة على جميع العلوم والفنون؛ لتنوير عقول ذوي المعارف، ويَكْثُر العلماء والمتفننون، وتَنْتَشِر على آفاق مصر أَنْوَار المعارف الخارجية وأَسْرَار اللطائف الإنسانية، لا سيما وأن أبناء مصر أرباب قرائح ذكية، وحافظتهم قوية متى قصدوا شيئًا تَعَلَّمُوه في أَقْرَب وقت وزمان، وكَمْ قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الأمور أَعْظَم برهان.

ثم إن تَغَيُّر حالة مصر إلى حالة مُسْتَحْسَنة لا يَسْتَدْعِي من الزمن عشرين سنة؛ لأن تُرْبَتَها طيبة، ومزارعها مُخْصِبة، وواديها سعيد، وبها ينمو الحيوان والنبات في أَقْرَب وَقْت ويزيد، تَنْبُت الأطفال فيها نباتًا حسنًا، ويترعرعون في أقرب وقت، وتنمو أبدانهم نماء مُسْتَحْسَنًا، والنوع الإنساني في مصر يَتَعَوَّدُ على لطافة الأخلاق، وانتظام المعيشة، والاقتصاد فيها، وعَدَم التكليف بما لا يُطَاقُ.

والغالب على أهلها أن تَبْقَى قُوَاهُم العقلية إلى آخر أعمارهم بدون أن يَحْصُل فيها خسافة، وإذا بلغ الإنسان منهم سِنَّ الهَرَم فلا يتكلم بكلام خرافة.

قال صاحب هذه الملحوظات: لا شك أن ما ذَكَرْتُهُ من التحسينات في شأن المملكة المصرية يَقَعُ مُعْظَمُهُ مَوْقِع التحقيق لو دامت هذه المملكة في قبضة الفرنساوية، انتهى.

ونحن نقول من القواعد الأساسية أن عِلَّة الضم الجنسية:

نعم بَيْنَنَا جنسية الود والصفا ولكنَّنِي لَمْ أُلْفِهَا عِلَّةَ الضَّمِ

فكَلَامُه مبني على شبهة واهية، وهي أن مصر يَسُوغ أن تُصْلِحَهَا فرنسا، وأي مملكة تكون لها مضاهية، فاعتقاد ذلك من الإيغال المُذْهِي، أو من باب التشبيهات الفاسدة، وإنما يَقْتُل النفوسَ التشهي، تشطير البيت الشهير:

جاء شقيق عارضًا رُمْحَهُ صَوْبَ بني عَمٍّ يَرُومُ الكفاحْ

قيل أَمَا تَخْشَى انْكِسَارَ القَنَا　　　إن بَنِي عَمِّك فيهم رِمَاحْ

وفي الحقيقة فأغلب ما ذَكَرَهُ صاحب الملحوظات، وعليه عَوَّلَ، فقد قام بأغلبية جنتمكان الذي كان هو المُجَدِّد الأول، وقام بالتتميم والتكميل خَلْفَهُ النبيل:

فلم تك تَصْلُحُ إلا لَهُ　　　ولم يَكُ يَصْلُحُ إلا لَهَا
ولو سَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ　　　لَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا

ونقول هنا أيضًا: إن علة الضم الجنسية، فإن بني إسماعيل مُسْتَعْربة، ولا يَتَعَجَّبُ من هذا ولا يَجْهَلُه غير غَبِيٍّ. اللهُ أَكْبَر كل الحسن في العرب. وسنذكر في الفصل الثالث ما يُفيد أن هذه الملحوظات لم يَعْزُب منها مثقال ذرة على المرحوم محمد علي.

فإنْ تَكُ أَفْنَتْهُ الليالي فَأَوْشَكَتْ　　　فإن له ذِكْرًا سَيُفْنِي اللياليَا

بل ولا على خلفائه من بعده لا سيما الحفيد المفيد، الذي لا زال القُطْرُ المصري يَكْتَسِبُ في أيامه من معالي الأمور ويستفيد، فالمجددان الأمجدان أَخْرَجَا المنافع العمومية في مصر من حَيِّزِ العَدَمِ إلى حَيِّز الوجدان:

ولـلـمـكـارم أَعْـلَامٌ تُـعَـلِّـمُـنَـا　　　مدح الجزيلين مِنْ بأس ومِنْ كَرَمِ
وللعلا أَلْسُنٌ تُثْنِي مَحَامِدُهَا　　　على الحميدين مِنْ فِعْلٍ ومِنْ شِيَمِ
وراية الشَّرَف البزاخ تَرْفَعُهَا　　　يد الرفيعين مِنْ مَجْدٍ ومِنْ هِمَمِ

الفصل الثالث

في بيان بلوغ المنافع العمومية بالديار المصرية درجة ارتقاء جلية في عهد الحكومة الحالية مع بعض ملحوظات بهية.

* * *

يُفْهَم من الملحوظات المذكورة في الفصل الثاني أن بمصر من البُور الصالح ما ينيف عن مليون فدان، وأنه ينبغي إصلاحها والانتفاع بها، وأنه ينبغي في القطر المصري تجديد المروج المدبرة؛ يعني: المراعي كالبرسيم الحجازي ونحوه، وأنه ينبغي لا سيما بالصعيد غرس أشجار التوت وتربية دود القز، وتعميم ذلك في البلاد الصالحة له بالأقاليم البحرية، وتحسين أحوال الأرز وعمل طواحين الهواء لتبييضه وتنظيفه، والإكثار من غرس القطن، وإصلاح أراضي الفيوم بزرع الأصناف كالكتان والنيلة والقطن، والإكثار من قصب السكر في الأقاليم التي ينمو فيها كأراضي المنية ومَلَّوِي، وغرس شجرة البن في مساحة عظيمة من أرض الصعيد، وتربية أغنام المارينوس الأندلسية في الفيوم، وتحسين أجناس الخيل بتوليد الخيول المصرية من الخيول العربية الأصائل، وعمل إصطبلات لذلك بالفيوم والشرقية، وتوصيل البحرين الأحمر والأبيض لتسهيل الأسفار، واتخاذ العريش مركزًا لتجارة مصر والشام، وغرس الأشجار العالية بالصعيد لمنع مضار الريح السموم، ولتسهيل ورود القوافل من داخل أفريقيا إلى مصر لاتساع التجارة.

فهذا مضمون ما أشار إليه صاحب الملحوظات كما يُعْلَم ذلك من مطالعة الفصل السابق، ولا يخفى على الخبير بأحوال مصر الآن أن كثيرًا من ذلك قد كان بحسب الإمكان في أيام المرحوم محمد علي جنتمكان، لا سيما في أيام من اعتنى من بعده وَوَفَى لعُمَّار المملكة المصرية بالشروط والأركان، فأما ما يتعلق بالبور المذكور فقد انتظم من أيام

المرحوم محمد علي إلى وقتنا هذا في سلك المعمور؛ إما بالإقطاع والتمليك لقصد الإصلاح، وإما بالضريبة أو التأجير للفلاح وغير الفلاح، ومن وقت الحكومة الإسماعيلية صار إحياء ثلاثمائة ألف فدان من الموات حتى قَلَّ أن توجد من غير المنزرع إلا أطيان جزئية في محال عالية، أو كالحواجز التي انْحَسَرَ عنها النيل ولم يَبْقَ من البور إلا القليل.

وأما تجديد المراعي المدبرة فقد تجدد شيء من البرسيم الحجازي في الدوائر والأواسي المعتبرة إلا أن مصر تزرع البرسيم المعتاد في فصله بكثرة للتشمية، ثم عقب الصيف يكثر فيها المراعي بعد الحصيد مجانًا، ولكثرة علفها اليابس لها عن المروج المدبرة مندوحة.

وأما زراعة القطن فتحتاج إلى زيادة بسط الكلام والتوفية بالمرام؛ لأنها من أنفع المواد للديار المصرية لدخولها قديمًا وحديثًا في المصانع البلدية، ومع أن أرباب زراعتها بمصر بأرياف مصر لهم خبرة تامة بغرسها ومباشرتها؛ فلا بأس بِذِكْر بعض مسائل تَتَعَلَّق بذلك مما هو جارٍ في شأن زراعة القطن في البلاد الأجنبية؛ ليكون به كمال المعلومية، فنقول: إن شجرة القطن تَنْتِج بالقرب من سواحل البحار والأنهار وفي داخل البلاد بالبعد عن السواحل أيضًا، ولا يضرها الهواء الرطب متى كانت درجة الحرارة كافية، بخلاف ما إذا كان الهواء رطبًا والزمن باردًا، ولا يَصْلُح لشجرة القطن البلاد الكثيرة الأمطار المتعاقبة، لا سيما في ابتداء غرسها وفي زمن تزهيرها وفي زمن جنيها، فإن المطر في زمن غَرْسِها يوجب العفونة للبذر، وفي زمن تزهيرها يُسقط الأزهار، وفي زَمَن جَنْيِها يقتضي تأخير المحصول ووساخة القطن والإضرار بما يُجْنَى، وأما إذا كانت الأمطار غير متعاقبة بل متباعدة المسافات فإنها تَنْفَع لنمو أغصان هذه الشجرة، وكبر حجمها، وجودة جنس القطن.

ويجب أن تُغْرس أشجار القطن في جهات متباعدة عن الأورمان والغابات، وأن تكون بحيث لا يَمْنَع ظِلُّ الجبال والتلول تَمَكُّنَها من أشعة الشمس؛ لأن الظل يؤذي شجر القطن ولو في الأقطار الشديدة الحرارة، ويُسْقط أزهارها، وكذا الرياح العاصفة والباردة تضر به، فينبغي أن يُزْرَع القطن في الجهات التي ليست عرضة لهبوب الرياح.

ومن المجرب أن نَفْع الهواء مثل نَفْع النور للزروعات، فينجح زرع القطن في التلول المتوسطة الارتفاع التي تَمُرُّ بها الأهوية النافعة، وأن لا يُظِلَّها ظِلٌّ، وأن يكون عُمْق الأرض الدرجة اللازمة لها، وأن لا تكون الأرض صلبة ولا حجرية ولا يابسة، فإذا كانت الأرض يابسة ينبغي سقيها، وتنجح شجرة القطن في الأراضي المتخلخلة المشوبة بالرمل أكثر من نجاحها في الأراضي القوية الإبليزية، وتنجح في الأراضي الخفيفة الليونة أكثر

من نجاحها في الأراضي اليابسة؛ لأن ذلك نافع لِتَشَعُّب سيقانها وتعريشها، ومن المُجَرَّب أنها في الأرض القوية الخصبة، ولو أنها تنمو نماء بليغًا وتكثر أزهارها، غير أن الأزهار تَسْقُط بالسرعة فلا تُنْتِج المحصول الكثير، ومثل ذلك ما إذا كانت الأرض شديدة الرطوبة فإن أزهارها تسقط سريعًا، وربما حَدَثَ من ذلك عفونة سيقانها وبذرتها معًا.

ولا تنمو شجرة القطن — كما لا ينمو غيرها من النباتات — إذا غُرِسَت بالأراضي الصخرية والحجرية؛ لأن سيقانها لا تَجِد شيئًا تخترقه وتنمو فيه، ويَصْلُح لغرس شجرة القطن الأراضي الرملية الدقيقة الرمل المشوبة بالطُّفل أو بالجير، فنُمُوُّها في هذه الأراضي، وإن لم يكن شديد القوة، لكن كثير المحصول الجيد الصنف وسريع الاستواء، وقد يَنْجَحُ غَرْس القطن في الأراضي المتوسطة الخصوبة التي يَتَعَسَّر فيها نجاح غيره من الزروع، والحاصل أن تمام نجاح غَرْس القطن ونُمُوِّه يكون في الأراضي المحتوية على الرمال الدقيقة السهلة الحرث القليلة الرطوبة، وإنما ينبغي الاعتناء بإصلاح الأرض قبل البذر فيها، وينبغي التفطن إلى أن ساق شجرة القطن لا بد أن يَدْخُل في الأرض ثمان عشرة بوسة؛ يعني: أصبعًا لا أَقَلَّ من ذلك، وأنها لا بد لسيقانها من التعريش والامتداد، فالأرض الصلبة الكثيفة الصعبة المَنَافِذِ لا تَلِيق لها، ولا يُدْرِك الزارع التعمق والتجنب إلا بمعرفة درجة العمق المطلوب لوصول الساق في الأرض ومقدار مسافة البعد المطلوب بين سَاقِ كُلِّ عود مع العود المجاور له، أما معرفة العمق فيسهل الوصول إليها بِحَرْث الأرض والتعمق فيها بقيمة ثمان عشرة بوسة إلى عشرين بوسة، وأما مَعْرِفَة قَدْر مد الساق من الفراغ لتعريشه فهي تابعة لطبيعة الأراضي، والمعتاد فوات الفراغ بين الخطوط بقَدْر سبعة أشبار ونصف في الأراضي الضعيفة، وثلاثة عشر وأربعة عشر شبرًا في الأراضي الخصبة القوية، فينبغي للزارع أن يَنْتَخِبَ محلًّا مخصوصًا، ويَغْرس به جملة أشجار بعضها متقارب وبعضها متباعد، فالأنجح منه يتبعه.

وينبغي الابتداء بحرث الأرض وإزالة ما بها من آثار النباتات الطُّفَيْلِيَّة والحشائش، وأن يَشُقَّ جوفها بالمحراث أو بالعزق، إلا أن العزق يَنْفَع في الأراضي المنفصلة الأجزاء دون السمينة القوية، وبعد الحرث والعزق يُرَتِّبُها حفرًا أو شقوقًا ونقرًا، ويَتْرُكُها عُرْضة للشمس والهواء مدة من الزمن، مع تنقية ما فيها من الأحجار، ثم يَرُدُّها بالثاني بإعادة كمية الطين الذي أُخِذَ من جوفها بعد أن يَخْلِطَه بالسبخ، ولا يَتْرُك مكشوفًا فيها بوسة واحدة، ويضع في الجزء المكشوف تقاوي القطن بالوجه اللائق، وفي كل نقرة يَضَع من البذر ثلاثة أو أربعة أو خمسة، ثم يُتَمِّم رَدْم النقرة بباقي الطين الذي خَرَجَ منها،

وبِجَعْل ارتفاع النقرة مساويًا لارتفاع مُسَطَّح سَطْح الأرض المجاورة لها؛ لئلا تكون مخزنًا للمياه التي تُعَفِّنُ البذر.

ويلزم أن تُرْدَم جميع النقر التي وُضِعَ فيها البذر في يوم حفرها؛ خوفًا من إتلافها بنزول المطر أو نحوه، وينبغي أن تكون أشجار القطن متباعِدَة عن بعضها؛ لتمكن الهواء والضوء منها، وينبغي بعد حرث الأرض لزراعة القطن أن تَمُرَّ فوقها الآلة الهراسة؛ لتكثير قطع الطين الكبيرة وفَكِّها، ومن أهم الأمور انتخاب التقاوي بأن تكون كاملة النضج، سليمة خالية عن العيوب، مأخوذة من أثمار الأشجار القوية النمو، وإلا كان محصولها ضعيفًا وخسيسًا وخليًّا عن الجَوْدة؛ ولذلك ينبغي للزارع البارع أن يَنْتَخِب قطعة أرض في جهة من الجهات المعتدلة الهواء، ويَزْرَعها من الأشجار الشديدة القوية، ويُعِدَّها للتقاوي فيَنْتَخِب منها ما يكون متكاملًا في الحب، ثقيلًا في الجرم، ولا يَخْلِطُه بغيره من الحبوب، ثم يَبْذُر منه في الأرض، ومن محصوله بالخصوص، إلى أن يَظْهَر له انتقاص المحصول في الكمية والجودة، فيُتَدَارَك غيره أو أعظم منه من التقاوي، فقد صح بتكرار التجارب أن تكرار زراعة الصنف الواحد في الأرض نَفْسِها يَعْتَريه على مدى السنين تَنَاقُص في الجرم والجودة، فالأرجح لمصلحة أرباب الزراعة القطنية استبدال تقاوي أراضيهم بتقاوي الجهات المجاورة لهم، أو جلب تقاوي أجنبية من الخارج، وعلامة الخسية في تقاوي القطن أن يكون مفتوح اللون، عظيم الجرم، وأن يكون غلافه محتويًا على نقط بيضاء، وأن يعوم على وجه الماء، وعلامة الجيد أن يكون صلبًا، ثقيل الوزن، والغالب عند أرباب الزراعة أن التقاوي تكون قديمة من محصول السنة الماضية، وهناك عادة مطروقة في بعض البلاد وهي خدمة التقاوي؛ لانفصال الحبوب من بعضها وتفريقها، وتنظيفها من الألياف القطنية المشتبكة بها.

وطريقة ذلك وَضْع التقاوي في الماء عدة ساعات، ومَزْجها بعدُ بالرمل أو الرماد أو الطين المُسَوَّس، ثم دَعْكها فيما بَعْد بعضها فوق بعض بالأيدي أو بالأرجل، وبعض الناس يَغْمِسها في الماء اثنتي عشرة ساعة؛ لِقَصْد تعجيل إنباتها، ويَحْسُن استعمال هذه الطريقة في الأراضي اليابسة القليلة الرطوبة، وأَنْفَع من ذلك لتكثير المحصول غَمْس التقاوي في الماء الممزوج بهباب المداخن أو برجيع معاصر الزيوت، فإنه يقيها أذى الحشرات الأرضية كالدود.

ومن المعلوم عند أرباب الزراعة أن الأرض المتكونة من طرح البحار والأنهر الغزيرة الطمْي غنية عن التسبيخ، ومثلها في ذلك الأراضي البور التي صار إصلاحها قريبًا، وأما

ما عدا ذلك من الأراضي فلا يَسْتَغْنِي عن التسبيخ، وبيان ذلك أن القطعة من الأرض يمكن للزارع خِدْمَتُها وغرسها قطنًا، والاستحصال منها على ما يشاء من المحصول بشرط أن يكون تسبيخها حسب اللزوم، وأن يكون سَبْخها موافقًا لطبعها، وأن يُوضع فيها من السبخ القدر اللازم على قَدْر الحاجة، فوَضْع السبخ بالقدر اللازم والجودة المطلوبة متعلق بمعرفة الزارع وبطبيعة الأرض، وأهل الصين هم الذين يُحْسِنون زراعة القطن، ويجيدون تسبيخ أراضيهم، إلا أن استعمال التسبيخ برَوَث المواشي والخيول قليل جدًّا عندهم؛ لعدم اعتنائهم بتربية الحيوانات؛ فلهذا يُقَوُّون الأرض بطين الأنهر والخلجان والوديان والبرك وبأنواع الرماد ورجيع عصر الزيوت وبالفضلات الإنسانية، إلا أنهم يفضلون الرماد على غيره خصوصًا رماد القصب والخيزران والحشائش الطبيعية وأوراق الأشجار، ويحترسون على تجميع الأجزاء الصغيرة من أجزاء قُطْنِهم ومن جزورها وأوراقها ولوزها وعيدانها، فيحرقونها وينشرونها في الأرض المُعَدَّة لزراعة القطن قُبَيْل غَرْسه، وقد صار الآن رجيع عصر الزيوت مستعملًا في أوربا لتسبيخ المزروعات، ولا يُفَرِّط أهل الصين في شيء أصلًا من الفضلات الإنسانية، فيدخلونها في إنبات البقول على الإطلاق لتقوية الإنبات، وفي جميع البلدان يُستعان بها مائعة أو يابسة على تقوية المزروعات، بخلاف أهل الصين فإنهم ينتفعون بها في زراعة القطن من وجهين؛ الأول: طرحها في النقر مختلطة بكمية كافية من الماء لِسَقْي الأرض منها، الثاني: أنهم يَخْلِطُونها خلطًا جيدًا بجانب من الطُّفل أو من طين المزارع، ويصنعون من ذلك أكرًا صغيرة، ويُنَشِّفُونها في الشمس، ثم يَسْحَقُونها في وقت الطلب، وينثرونها على سطح الأرض المُقْتَضَى زِرَاعَتُهَا، وقد يُسْتَعْمَل في بلاد الصين التسبيخ بالجير لإصلاح أراضي القطن، كما يُسْتَعْمَل ذلك في بلاد أوروبا، وهذه الطريقة نافعة لزرع القطن إذا كانت أرض القطن خالية من المادة الجيرية.

وزمن بذر القطن يكون تارة مُقَدَّمًا وتارة مُؤَخَّرًا بحسب ما يُوافق مزاج القطر وطبيعة الأرض، ومع ذلك فهو دائمًا قَبْل دخول الشتاء بشهرين أو بثلاثة في البلاد الباردة الثلجية والبلاد الحارة القليلة الرطوبة، وينبغي بذر التقاوي في الأراضي حين وجود درجة الحرارة المطلوبة، فإن بُذِرَتْ قبل ذلك لا تَنْبُت ويصير تعفين البذر، وينبغي أن يكون رَمْي البذر في يوم الصحو، ولا يجوز أن يكون في زمن نُزُول الأمطار الكثيرة، فإنه يترتب على ذلك تَعَفُّن البذر أيضًا.

ومن الواجب أن يحافظ المزارعون في كل عام على أكثر مما يَلْزَم لهم من التقاوي؛ لكي يُمْكِنُهُم إعادة الغرس مرة أخرى، فالمزارع المُتَبَصِّر بالعواقب يَحْرِص دائمًا على قَدْر التقاوي مرتين فأكثر.

ينبغي تَعَهُّد مَزْرَعة القطن للتنظيف وإزالة ما يَنْبُتُ فيها من الحشائش الطفيلية والنباتات الأجنبية، وخلعها إما بالأيدي وإما بالآلات، وكذلك يجب الاعتناء بعملية تقليمها تقليمًا جزئيًّا أو كليًّا، وينبغي الاعتناء بها في زَمَنِ بُدُوِّ إزهارها وإثمارها، والاعتناء بكيفية سَقْيها.

وبيان ذلك أنه متى شُوهِدَ أن الحشائش الأجنبية زاحَمَتْ عيدان شجرة القطن النابتة؛ يجب عَزْق الأرض وتنظيفها من الحشائش، وقد جَرَت العادة أن أَبْذَار شجرة القطن تَخْرُج من الأرض بَعْد مُضِيِّ أسبوع مِنْ بَذْرِها إذا كانت الأرض مُحْتَوِيَة على درجة الليونة اللازمة، وكان الحر شديدًا، ومع ذلك فقد يَتَقَدَّم الإنبات أو يتأخر عدة أيام بحسب ما يَقْتَضِيه مزاج القطر وطبيعة الأرض، وتكون تنقية الحشائش في المرة الأولى متى بَلَغَتْ عيدان القطن أربع إيهامات أو خمسة أو ستة؛ يعني: متى مضى شهر كامل تقريبًا بعد البذر، وإنما يَلْزَم الاحتراس من إتلاف العيدان الصغيرة المستورة بالحشائش، والأحسن استعمال اليد في قَلْعها أو بالمنجل المقَوَّر، وكذلك ينبغي في عزق الأرض الاهتمام بقلع عيدان القطن الضعيفة وإبقاء القوية للتخفيف، مع الاحتراس من أن لا تتزحزح العيدان الباقية عن مكانها، ولا تُتْلَف جُذُوره، ومن الواجب لتثبيت الجزور وتمكينها بعد خلع العيدان الضعيفة أن يَصِير دَكُّ الأرض بالرجل في جميع أجزاء الغيط، وهذه العملية تكون في التنقية الثانية؛ يعني: متى بَلَغَت العيدان في الارتفاع ثمانية عشر إصبعًا، ويقال لهذه العملية: عملية الدور الثاني.

وأما الدور الثالث فيكون في وقت دخول زمن التزهير، ولا يجب عمليات إذا نَبَتَت الأزهار وظَهَرَتْ؛ لأنه يُخْشَى في ذلك الوقت من سقوط شيء من الأزهار بعملية العزق والتنقية، فإن المزرعة إذا حَسُنَتْ تَنْقِيَتُها قبل دخول التزهير فإن العيدان تكون في هذه الأوان مُظِلَّة على ما تحتها من الأرض، فلا تَضُرُّها النباتات الأجنبية، ومع ذلك فمن اللازم أن تكون الأرض دائمًا بالتلطيف نظيفة نقية خلية من الحشائش الأجنبية، بحيث لا يصير إبقاء الحشائش الأجنبية حتى تَنْمُو وتظهر ويلزم أنه لا يمس قشر جذوع أشجار القطن جِرْم أجنبي، فيلزم لهذا عَزْق الأرض وتنظيفها ثلاث مرات فأَزْيد في العام الواحد خصوصًا في مزارع القطن التي تُزْرَع بالسقي؛ لأنها في العادة تَكْثُر بها الحشائش الأجنبية، فيجب تَعَهُّد هذه الحشائش بالقلع، وإبعادها خارج المزرعة.

ويكون تزهير شجرة القطن بعد إنباتها على سطح الأرض بنحو خمسة أشهر، بل بما دون ذلك في الأقطار الحارة، وبأزيد من ذلك في الأقطار الباردة، وكذلك بُدُوُّ ثمرتها قد يَتَقَدَّم أو يَتَأَخَّر حسب مزاج طبيعة القطر وسِنِّ الأشجار، ولا مانع من ابتداء جَنْي القطن في آخر الشهر الخامس أو السادس، وتقل العمليات المقتضى إجراؤها في أثناء زَمَن التزهير إلى استواء الأثمار، وربما انْحَصَرَتْ جميع العمليات في تقليم الفروع الميتة، ويجب على الزارع الماهر أن يَسْتَيْقِظَ بين مسافة التزهير والإنبات لحِفْظ الشجرة ووقايتها مما يَعْتَرِيها من الآفات.

وأما سَقْي شجرة القطن بالبلاد الحارة اليابسة فهي أعظم ما تُعِينُ على إنبات النباتات، فإن الماء أقوى الأسباب الموجبة لإحياء الأرض وخصوبتها، وبدون إعطاء الأرض حَقِّها في السَّقْي لا تُجْدِي ولا تُثْمِر ولو تَوَفَّرَت الشروط الأخرى، فسقي الأرض في الأوقات اللازمة عليه نجاح زَرْع القطن، فلا تَسْتَغْنِي أشجار القطن عن أَخْذ حَقِّها من الماء خصوصًا في الأقاليم الحارة المتمكنة منها أشعة الشمس المُحْرِقة، وينبغي أن يُحْتَرَس في السقي أن لا يكون زيادةً عن المُقَنَّن.

فقد ظهر بالتجاريب الصحيحة أن سَقْي القطن إذا زاد عن المُقَنَّن يُنْقِص جودة جِنْس القطن، وسواء كان ذلك في زمن حَرْث الأرض أو بذر التقاوي فينبغي أن يكون تقسيم المياه وتوزيعها بحسب الحاجة.

ثم إن السقي للأراضي القطنية وريها قد يكون لازمًا قَبْل دخول زَمَن البذر، وتارة يكون عقب إتمامه، والأرجح أن لا يصير سقي الأراضي المبذورة إلا بعد البذار بخمسة عشر يومًا، أو بعد تخفيف الأرض من أعواد القطن الضعيفة ما لم تكن المزرعة كثيرة اليبوسة، فإنه ينبغي الاهتمام بسقيها عند مجرد الإنبات، وقد يُعْتَنَى في بعض البلاد بري الحُفَر المُعَدَّة لبذر القطن، وتَرْكها مُدَّة من الزمن حتى تنشف قبل وَضْع التقاوي فيها.

ولا يمكن تحديد زَمَن لسقي الأرض ولا تقدير كمية الماء الذي يُسْقَى به، بل هذا موكول لمهارة الزارع، حيث يُرَاعِي ما يوافق مِزَاج قُطْر بَلَدِه وطبيعة أرضه، حيث إن الأرض المُرْمِلَة تُسْقَى أكثر من الأرض الطينية المتكاثفة التي من طبيعتها الرطوبة، وكذا إذا كان القُطْر حارًّا يابسًا قليلَ الأمطار يلزم تَوَاتُرُ السقي ما لم يَكُن معتادًا بكثرة الندى؛ لأن نَفْع الندى في كثير من البلاد مِثْل نَفْع الأمطار؛ ولذلك كثيرًا ما تَنْجَح شجرة القطن وغيرها من النباتات الشديدة الحرارة المعدومة الأمطار.

وأما إذا صار تسبيخ أرض القطن فلا بد من سَقْيِها وفيض الماء فَوْقَها، ولا مانع من استمرار السقي كل خمسة عشر يومًا مَرَّة إن كان من كل الأرض ومزاج القطر صالحًا لذلك، وهذا في غير زمن الإثمار، وبعضهم يقول: إن السقي غير لازم من ابتداء التزهير، ويُرَجَّح ذلك لأن الشجرة في زمن تزهيرها موجود بها ما يكفيها من الفواعل المُعِينة على تَغْذِيَتِها، لا سيما وأَنَّ سَاقَهَا مُغَطًّى بما يُظَلِّله من الفروع والأوراق التي من عادتها تجديد الرطوبة المساعدة على تنضيج الأثمار وبلوغها حَدَّ الكمال.

وأما غرس شجرة التوت وتربية دود القز بالديار المصرية فيحتاج أيضًا إلى بعض إطناب، فنقول: إن من المعلوم أن التوت مألوف الغرس عند العرب، ويُسَمَّى الفرصاد، قال ابن وحشية صاحب الزراعة: «التوت أنواع يُخَالف بَعْضها بعضًا في الطعم والطبع، وفيه ألوان فمنه الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأغبر، وكذلك طعمه فيه الحلو والمر والتفه، وأكثر ما يُتَّخَذ غَرْسًا وتحويلًا، وأجود ما يُنْبَت منه ما أكله بعض الطيور الموجودة في البساتين وزَرَقَه؛ لأن بزر التوت لا ينهضم في معد الحيوانات كلها، فالطير يأكله ويزرقه على شطوط الأنهار وتحت سقوط مجاري الأمطار، فينبت نباتًا جيدا، إلا أنه إذا وقع إلى الأرض من جوف الطائر وقع وزبله معه فيُنْبِت بسرعة، والطيور التي تُحِبُّ لَقْطَ ثَمَر التوت كثيرًا هي الفواخت والوراشين والعصافير والغربان، وهذا النبات يوافقه الماء موافقة كثيرة، وليس له زبل يَخْتَصُّ به، بل جميع الأزبال على اختلافها مُوَافِقَة له، ويحتاج إلى التسبيخ مرتين في السنة، وقد يَنْبُت في البراري بنفسه ويَعْظُم فيها، إلا أنه إذا نَبَتَ بقرب المياه وعلى أطراف الأنهار كان أجود، ويوافقه ريح الجنوب، وتُلَقِّحُه لقاحًا حسنًا، وهو يَمُدُّ عِرْقَه إلى أسفل الأرض كالكمثرى، وغَرْسُه في أول شباط وإلى آخر آذار، وتُغْرَس أصوله بعروقها وقضبانها.» انتهى كلام ابن وحشية.

وقال ابن بصال: وَجْه العمل في غَرْسه أن تُحْفَر له حُفَر رقيقة، ثم يُغْرَس كما يُغْرَس التين، ومن الناس من يَغْرِسه كما يَغْرِس الرمان أوتارًا، وإذا نَبَتَتْ عروقه حول، «قال» أحمد بن وحشية: «التوت أعز الأشجار؛ لأن دُود القز لا يَأْكُل إلا منه، ومنافعه كثيرة جدًّا.» وقد قال المعتصم العباسي لعمال البلاد: «اسْتَكْثِرُوا من شجر التوت، فإن شعبها حَطَب، وثَمَرَها رَطب، ووَرَقُهَا ذَهَب.» انتهى، قال الشاعر في ثمر التوت:

وَمُخْتضِبَاتٍ مِنْ نَجِيعِ دِمَائِها إذا حُبِسَتْ مِنْ بُكْرَةِ الغَدَوَاتِ
تَكَادُ بأَنْ تَطْفَي إذا ما لَمَسْتُهَا فأَرْحَمُهَا مِنْ سائِرِ الثَّمَرَاتِ

ولما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على المملكة المصرية بِتَقَدُّمِها في طريق التمدنات العصرية؛ وَفَدَ على مصر كُلُّ وَافِد، وقَصَدَهَا كُلُّ قَاصِد ممن له نصيب في المعلومات الصناعية والمنافع التجارية والزراعية؛ رَجَاءَ أن يَجِدَ في مصر نصيبه في الغنيمة، وأن يُرَوِّج صناعته بِأَنْفَس قيمة، فكان ممن حضر من بلاد فرنسا شخْص يُسَمَّى: الفونس غوطيه، من أرباب الزراعة، يَتَشَبَّثُ بفلاحة غرس التوت، وتربية دود القز، واستخراج أبزاره المسماة بالشنارق، وطرق حلجه، وتصفيته وتنظيفه، وكيفية غزله، وهذا الوافد كغيره من الوفود الأغراب إنما حَضَرَ إلى مصر؛ رجاء أن يَجِدَ فيها نصيبه من الربح بجولان النظر فيما يُبْدِيه من التعريفات لتنمية هذه المنفعة، فهو مُتَشَبِّث بالتجريبات والعمليات من منذ ستة أشهر، يجتهد كل الاجتهاد في تجاريبه العديدة، وهو الآن مشغول بتجربة ذلك في الجزيرة بأمر عزيز مصر الجالب لها الفوائد الغزيرة، ويقال: إنه كان قد نَجَحَ أيضًا في تربية دود القز بالأقاليم البحرية، وظَهَرَ له أن استخراج الحرير من غَرْس شجر التوت وتربية دود القز واستخراج الحرير منه يزيد في عمارية مصر وفي مصانعها وثروتها.

ونَصُّ عبارته فيما كتبه في هذا المعنى: قد كان محصول القطن في العهد القريب؛ بُغْيَة تجار مصر وزُرَّاعها، وكان الاشتغال به مُسْتَوْلِيًا على عقولهم وجُلِّ مرامهم وأقوى غرامهم، وأَغْلَبُهُم يَحْبِس رَأْس ماله عليه، ولا تَمِيل نَفْسه إلا إليه، ولم يَخْطِر ببال أحد منهم أن يَمِيل إلى غَرْس التوت، ولا تَنَبَّه للاستحصال على الحرير، ولا اسْتَيْقَظَ لما يَتَرَتَّب عليه من المنافع العمومية المهمة، مع أنه أيضًا مَنْبَع الغِنَى والثروة، والظاهر أنه لم يَعْزُب ذلك من عقول المتقدمين منهم، وإنما لم تُسَاعِدْهُم الأوقات والأحوال، ولا أَعَانَهُمْ على ذلك ولاة الأمور في الأزمان السابقة، والآن قد حَانَ أوان الوعظ باتخاذه، ولعل الوعظ فيه يقرع الأسماع، ويُؤَثِّر في النفوس الزكية المُحْرِصَة على جميع أنواع الانتفاع، ولا أَنْفَع لمصر من غَرْس التوت لتحصيل الحرير، فإنه ينشأ عن ذلك الخير الجزيل والغنى الغزير، فإن غنى مصر يكون في المستقبل بدون الاستحصال على الحرير ضيق الدائرة، كما يكون كذلك بدون القطن، فإن زراعة شجرة التوت القزي لم يَأْخذ من أراضي مصر إلا الأماكن الخالية الآن عن الغرس، فإن انْضَمَّتْ من الآن فصاعدًا زراعة هذا الصنف إلى زراعة القطن على طريقة حسنة فلا يَنْقُص ذلك من أراضي مصر شيئًا، ولا يَنْقُص كمية زراعة القطن.

فبهذه الطريقة الجامعة بين الزراعتين يزيد غنى أهالي مصر عما كانوا عليه قبل كساد القطن عقب صلح أمريكة، ولا شك أن كل عاقل يتمنى شدة الاعتناء بغرس التوت بقدر اعتناء الحكومة بتنمية القطن؛ لإدراكه احتياج الصناعات إلى الأقطان، فكذلك المنافع العظمى تستدعي نُمُوَّ الحرير لرواجه، فإن مصانع فرنسا الآن في أشد الاحتياج إلى الحرير، وهو مطلوب أيضًا لمصانع إيطاليا وإسبانيا، نعم إن بلاد يابونيا والصين والهند والدولة العثمانية مجلوب منها هذا القرع التجاري الصناعي، إلا أنه لا يفي بحاجة الصناعة لعموم الجهات، وحيث إن الأقاليم المصرية مملكة مُسْتَجِدَّة بالنسبة للصنائع الحالية ومتشبثة بالحصول على درجة الكمال، فاستخراج الحرير فيها يكون من صالح المصالح، فإذا غُرِسَتْ فيها أعواد التوت الصغيرة فلا تَمْكُثُ مُدَّةً إلا وتَجْمُد وتعلو؛ إذ ليس من الشجر ما يَقْوى على الشموخ مِثْل شَجَر التوت، ولا من البلاد التي في دائرة البحر الأبيض الرومي مَنْ له هذه المنقبة مثل مصر، ففيها يَكْثُر ويُسْعف جميع الجهات، فإن الحرير الآن في سائر البلدان متجاوز الحد في الأثمان، فلا يُقْدِم على شرائه إلا أصحاب الأموال الجسيمة وهم الأغنياء المُفْرِطون في جمع الأموال، فهم يغتنمون فرصة احتكار زراعته أو الاستيلاء عليه، فلا يكادون يُخْرِجُونه إلا بالأثمان الغالية لِقِلَّتِه، فتكثيره في بلاد الدنيا لا يكون إلا بواسطة الحكومة المصرية حيث مَوَاقِعُها الطبيعية أَصْلح المواقع لزراعته؛ إذ ما فيها من التوت العجوز يُتَحَصَّل منه حالًا بواسطة التربية والخدمة أجود ما يكون من الحرير، فإذا صار تقليمه بمعرفة أهل الصناعة بالطريقة اللازمة زاد محصوله وسَهُل اجتناء ثَمَرِه، ثم تُغْرَس عيدان التوت الشابَّة بترتيب لطيف، فيُتَحَصَّل منها أوراق ظريفة مع حسن الاقتصاد في مصاريف الصناع المستخدمين لذلك.

فإذا صار في الأقاليم المصرية الابتداء بخدمة الحرير الكثير المحصول على هذا الوجه في الأقاليم البحرية؛ فإنه يصير كثير الأرباح جدًّا، ولا يَضُرُّ في الزراعات الأخرى، فإن غَرْس أشجار التوت يكون علاوة على غيره من الزراعات حيث يُغْرَس على حافات الترع والخلجان العديدة، وعلى الطرق الكبيرة والصغيرة العمومية والخصوصية، وعلى حدود الشفالك والأواسي، والأراضي المملوكة والأترية، وعلى الجسور وأسوار المدن والقرى والكفور؛ لتكون أشجارهم مُظِلَّة حول القرى والغيطان والكروم والبساتين، وهي أعظم ما يكون في الوقاية من حر الشمس.

فإذا تم غَرْس هذا الصنف على هذا الوجه فإنه يكون في آنٍ واحد ابتداء مغروسات سريعة الإنبات بديعة المحصول، ولا يَخْفَى أن مديرية البحيرة واسعة الأراضي المسطوحة،

فإذا غُرِسَتْ شطوط تُرَعِها بأشجار التوت كان لها مَنْظَر الظرافة والثروة، وتُعَدُّ من المنتزهات الخلائية يَسْتَظِلُّ الفلاح تحتها وقت الاستراحة، ويستريح المسافر عندها وأرباب السياحة، وتَحْجُب الرياح الشديدة الهبوب وتُلَطِّفُها، وتَمْنَع شِدَّة مَضَرَّتِها وحِدَّة أذاها، لا سيما في أيام القيظ وحرارة الخمسين، وتنفع أيضًا هندسة الطرق المدبرة لتحسين حصيد جوز الحرير، فإنه ينمو فيها الغرس فتكون تربية الدود تربية متوالية وأجود من تربيته في أوروبا؛ إذ ثَمَر دود القز يَخْرُج أربع مرات في السنة كما يُحْصَد في بلاد الصين والهند ويابونيا وفي مملكة برمان، وكما أن مصر صالحة لدود القز استخراجًا بزراعة التوت فهي صالحة لِحَلْجِه وتنظيفه وغَزْله وصناعته أَكْثَر من غيرها، فينجح فيها كُلَّ النجاح؛ إذ يَتَحَصَّل منه أَصْنَاف جيدة منتظمة بهيجة النعومة واللون والقوة والتمدد واللين، مستكملة لجميع ما تستدعيه جودة هذا الصنف، بخلاف الحرير في أوروبا فلا يعطي إلا محصولًا واحدًا، فإن شهور فصل الشتاء طويلة الليالي كثيرة الرطوبة، موجبة لاستخراج الحرير من جوزته، فتحتاج إلى كثرة المصاريف للاحتراس والتدارك.

وكذلك فصل تربية الدود غير موافق في تلك البلاد، فإن الدود يضعف بواسطة ندى الربيع، ويَضُر بالأوراق الشابة المتجددة في أوان توليدها للحرير وفَقْسِها له، فبهذا تكون التربية بطيئة فيقاسي الدود مدة ما يقاسي من التعب، ثم يتغير الربيع بالصيف فيَنْضج الدود بغتة وفجأة، فتَنْشِف الأوراق وتحترق، فتخيب التربية ولا يَحْصُل المقصود منها، بل يَعْتَري الدود أسباب الأمراض، فلا تصادف التربية محلًّا في الغالب ببلاد أوروبا، وأما في بلاد الهند والصيد ويابونيا فلا يمنع الحر من تربية دود القز، بل له فيها منفعة، فإذا احتاج الحال إلى ترطيبه وتعديله فإن ذلك يَحْصُل برش المعامل بحسن التدبير، وأما زمن البرد ولو في الربيع والخريف فلا يمكن مداواة نُزُول الصقيع فيها من أسباب مرض الدود، فليس له علاج أبدًا على أوراق الشجر النقرة المتجددة فيكون الصقيع.

فمن هذا يُفْهَمُ أن مصر صالحة جدًّا لتربية دود القز، ولا يساويها في الصلاحية لذلك غيرها من البلدان، فيها يحصل الغنى والثروة زراعة وشغلًا، فإن زراعة التوت متى نَتَجَتْ ونَتَجَت التربية والاستحواذ على جوز الحرير تَرَتَّبَ على ذلك نتاج المصانع والمشغولات الحريرية؛ إذ ليس في إقليم مصر مانع يَمْنَع من ذلك كُلِّه؛ لاعتدال إقليمها، ووجود الحرارة الملائمة للتربية بها، واستواء الحرارة في فصل الربيع الذي هو عبارة عن برمهات وبرمودة وبشنس، فهذه الشهور الثلاثة تكفي لتربية دود القز، فهي صالحة له من جهة مزاج القطر، وموافقة أيضًا لدود القز من جهة أخرى، وهي مُوَاظَبة أهلها

على أشغال الزراعة والفلاحة وعلى أشغال التربية والجني والحصد، فإن لين أعضاء الأولاد والبنات يوافق شغل الحرير؛ إذ شغل الحرير يحتاج إلى شيئين: وهما خفة الأيدي، والتعود على الحر، وأبناء مصر مُتَوَفِّر فيهم ذلك كله بخلاف أوروبا، فوجب أن تكون مصر مُثْرِية في المواد الحريرية الأولية غَرْسًا وتربية، وأن لا تَجْلِب حريرها من الخارج، وأن تَشْتَغِل المشغولات الحريرية الدقيقة والغليظة بِنَفْسها في مصانعها، وأن تَتَخَلَّص من ربقة شراء الحرير من البلاد الأجنبية بالأثمان الغالية، فإنها إلى الآن تَصْرِف الأموال الجسيمة على الاستحصال على الحرير، فيجب عليها أن تُوَسِّع دائرة محصولاتها وتجارتها، فإذا وَصَلَتْ إلى أقصى درجات جُهْدِها في تربية دودة القز اتَّسَعَتْ دائرتها في غَزْله وفَتْله سريعًا، وفي صناعة نسج الحرير ومشغولاته، فتأخذ من حرير بلادها مِقْدَار ما يكفي لحاجتها، وما زاد على الحاجة من الخام والمشغول تُنْفِذُه إلى البلاد الأجنبية؛ لِيُبَاع فيها بالملايين من الأموال، وهذا خير من أن تبقى على حالتها الأصلية، فاقدة لهذه المزية، مقتصرة على اشتراء الحرير المصنوع أو غيره من البلاد الأجنبية.

فمَنْ أَمْعَنَ النظر وأَنْعَمَ الفكر في تربية دود القز بالديار المصرية؛ ظَهَرَ له بالحساب الصحيح مقادير الأرباح الجسيمة التي تَكْتَسِبُهَا مصر من هذا الصنف، فإن صناعة الحرير لم تَزَلْ إلى الآن في ديار مصر قليلةَ التقدم بالنسبة لغيرها من الممالك، فبالطريقة السابقة تَتَقَدَّم تقدمًا عظيمًا بحيث تَعُمُّ سائر الجهات المصرية وتَمْتَدُّ بأطرافها وأكنافها؛ لأن العمدة في مشغولات الحرير وأقمشته على صبغته ولونه.

ومياه النيل المبارك تُسَاعِد كل المُسَاعَدَة على حُسْن الصبغة واللون مما به تتزين المشغولات الداخل فيها الحرير كالمناديل والمحارم والملابس، فجميع مشغولات الحرير تَبْلُغ الدرجة العالية في عدة من السنين، بِشَرْط أن يَحْصُل التشويق من الحكومة المصرية للحرير؛ كالتشويق الحاصل الآن لزراعة القطن؛ حيث اتَّسَعَتْ دائرة مزارعه بعناية الحكومة كما هو ظاهر للعيان، وغَنِيٌّ عن الدليل والبرهان، هذا ما أبداه موسيو فونس غوطيه المُومَى إليه في هذا الفصل بصريح قَوْلِهِ.

ومن المعلوم أن ملحوظه في مَحَلِّه، وإنما فيما سلف كان قد شَرَعَ في تربية دود القز جنتمكان المرحوم محمد علي، وحَصَلَ من ذلك النفع الجلي، ولا زالت إلى الآن تربية دود القز في حَيِّز الموجودات، وإنما هي مقصورة على بعض جهات في المديريات، فإذا حصل التعميم كان بالنسبة لِتَقَدُّم صنائع الوطن معدودًا من النفع العميم، وأما ما أشار إليه صاحب الملحوظات المذكورة من تحسين زراعة الأرز؛ فلا يَجْهَل إنسان أن

زراعة الأرز في الأقاليم البحرية مُلْتَفَت إليها كل الالتفات، ولها خصائص ومزايا بمعافاة زُرَّاعها من كثير من العمليات، وأنه قد تَجَدَّد في أكثر دوائرها للتنظيف والتبييض كثير من الوابورات، وقد صَحَّ بالإجماع والاتفاق على أن أرز مصر أجود من غيره على الإطلاق، فأرز عين البنت أجود من أرز أمريكة وأرز إيطاليا الخارج من أرض البنادقة، وهذا الرأي لا ينافي ما قَضَى به قضاة المَعْرِض الباريسي من الحكم بالأولوية والامتيازية لصنف أرز إيطاليا؛ لأن مَطْمَح نظرهم فيه إنما كان للون، فإنه أشد أنواع الأرز بياضًا، فهو بهذا المعنى يُعْجِب الناظر أكثر من أرز مصر.

وأما أرز أرض مصر فهو وإن كان دون ما ذُكِرَ في اللون إلا أنه شتان ما بينهما في الطعم، فلا يَفُوقه في طعمه صنف من أصناف أرز الدنيا، لا سيما نُمُوه بالنضج نموًّا وافرًا، فهو أَخَصُّ أوصافه، وأما ما أشار إليه المؤلف المذكور من غَرْس قصب السكر في مديرية المنية لصلاحيتها له؛ فهذا أمر مُعْتَنًى به من أيام المرحوم محمد علي كمال الاعتناء، وأَعْظَم مَن اعتنى بغرسه والإكثار منه واستخراج أنواع العسل والسكر مما يكفي القُطْر المصري هو المرحوم إبراهيم باشا، فإنه عَمَّمَ زراعته في شفالكه التي بغير الصعيد وبالصعيد بمديرية المنية أو غيرها، حتى نافست مَصَانِعُه السكرية مصانع الإفرنج، وهو أول مَنْ جَدَّدَ الوابورات لِسَقْي ذلك وصناعته وجَلْب القصب الجمايكي حتى انْحَطَّت بمصر أثمان السكر، وقد كان الأورباويون يَتَغَالَوْن في أثمانه كل المغالاة، وتَبِعَهُ في ذلك كثير من دوائر الذوات وأوسيات الأهالي حتى كاد لا يخلو منه قسم من الأقسام المصرية لكثرة أرباحه، ثم لما آلت الدوائر الإبراهيمية؛ أي: أَغْلَبُها، لنجله الخديو الأعظم اتَّسَعَتْ مصانعها، وكَثُرَتْ وابوراتها، وعَظُمَ محصولها حتى كادت تجارة أوروبا في السُّكَّر أن تكون كاسدة في القُطْر المصري — خصوصًا وسُكَّر مصر لا يفوقه في الجودة والحلاوة غَيْرُه — وأما ما أشار إليه من غَرْس شجر البن في الصعيد، وأنه يمكن أن يُخَصَّص لِغَرْسه مقدار جسيم من الأراضي؛ فالظاهر أن الحكومة لم تَعْتَنِ بذلك لأنه سَبَقَ تجربته، وأنه لا يَبْلُغُ في الجودة درجة البن اليمني، بل يكون دونه بكثير، ونهاية الحال أنه يصير كالبن الخارج من جزيرة فرنسا وغيرها المسمى بالبن الإفرنجي، وهو قليل الرواج بالديار المصرية وغيرها من البلاد، حتى إنه — على كثرته في بلاد السودان المصرية ورُخْص ثمنه — لا يَعْتَنِي أحد بجلبه إلى الديار المصرية؛ لأن شرب القهوة بديار مصر وغيرها بالبلاد الإسلامية إنما هو من قبيل الكيف والتلذذ بالنكهة كشرب الدخان، وقَلَّ مَنْ يستعمل القهوة ممزوجة باللبن وحده أو مع البيض للأكل بالخبز كما يَسْتَعْمِلُه

أهل أوروبا بكثرة، فيقنعون بأيِّ بُنٍّ كان، على أن أكثر تجار مصر يَتَّجِرُون في البن اليمني، ولهم فيه عملاء وشركاء، فهو مِنْ أهم التجارات اليمنية، فالمقصود الأعظم الذي هو الربح حاصل بذلك، فعلى فرض غَرْس شجرة البن بمصر وفلاحها تكون عديمة النكهة كالدخان البلدي بالنسبة للجبلي والصوري، وكالتُّنباك البلدي بالنسبة للعجمي والحجازي.

وعلى كل حال فليست الحاجة ماسَّة لغرس شجر البن في مصر، بل ربما عُدَّ من الأمور النافلة؛ لأن ما ينبغي تجديده هنا من المحسنات إن لم يكن عظيم الجودة، أو تدعو إليه الحاجة؛ فالتشبث به ليس تحته عظيم طائل.

وأما ما ذَكَرَهُ صاحب الملحوظات من تربية أغنام المارينوس في الفيوم فرأيه فيه أَدَقُّ من رأيه في غرس شجرة القهوة، فتربية المارينوس مَحْض منفعة لا مَحْض شهوة؛ إذ القهوة مَحْض كَيْفٍ؛ ولهذا أَنْكَرَ على متعاطيها بعضهم، وهو الخطيب غير القزويني والشربيني، ورَدَّ عليه بعضهم بقوله:

قهوة البُنِّ حُرِّمَتْ	فاحتَسُوا قهوة الزَّبِيبْ
ثم طِيبُوا وعَرْبِدُوا	واصفعوا لي قَفَا الخَطِيبْ

وقال آخر:

قهوة البُنِّ حُرِّمَتْ	فاشربوا قهوة العنب
ثم قوموا وعَرْبِدُوا	واصفعوا مَنْ هو السَّبَبْ

وقال بعضهم في مدحها:

قم واسْقِنِي قَهْوَةً بُنِّيَّة فَضَحَتْ	بِنْتَ الدِّنَان وشَنِّفْ لي الفَنَاجِينَا
مِنْ كَفِّ ظبي رَشِيقِ القَدِّ ذي حَوَرٍ	نَادَتْهُ عُشَّاقُهُ يا إِلْفَ نَاجِينَا
تدعو إلى نَحْو ما فيه البَقَاءُ وَلَوْ	دَعَتْ إلى نَحْو ما فيه الفَنَا جِينَا
لو أن أَلْف امرئ طافوا بساحَتِهَا	رامُوا النجاة وَجَدْتَ الْأَلْفَ نَاجِينَا

ثم إن أغنام المارينوس المقصودة بالتربية هي الأغنام الأندلسية ذوات الصوف الناعم، والصوف — من حيث هو في جميع بلاد الدنيا قديمًا وحديثًا — مرغوب، حتى

إنه يُعْتَبَرُ مِنْ أَوَّل عمر الدنيا ومن تاريخ الخليقة كأنه يُتَّخَذُ للصناعة والنسج، فلا شك أنه معلوم الصنعة في الأزمان الأولية، فهو قرين الفلاحة التي هي معلومة قَبْل الطوفان، ولم تُعَطِّلْها حادثة الطوفان ولا أَبْطَلَتْهَا، فقد دَلَّت التوراة على أن نوحًا عليه السلام لما نَجَا من الطوفان بسفينته؛ اشتغل بحراثة الأرض، وعَلَّم أولاده الناجين معه ما كان يَعْرِفه في أصول الزراعة.

وقد ذَكَرَ قدماء المؤرخين أن العراقيين والكنعانيين والمصريين اشتغلوا بالفلاحة من الأزمان القديمة والأعصر الخالية، حتى إن المصريين كانوا يَعْتَقِدُون أن أول مخترع للزراعة أسلافهم، وزَعَمَ أهل الصين أن لهم الأسبقية في ذلك قبل غيرهم، وأن أول رؤساء مِلَّتِهم هو الذي اخترع عِلْم الفلاحة، والمحقق بالأخذ من التواريخ الصحيحة الجامعة بين الأقوال المختلفة أن قدماء الأمم — لاضطرارهم إلى القوت والمؤنة — كل منهم اخْتَرَعَ عِلْم الفلاحة وبَرَعَ فيه، ومن أقاليمهم التي لها الأسبقية في مزية الاختراع انْتَقَلَت الزراعة إلى غيرهم بالتدريج، وأن جميع الأمم أجمعوا على أن الزراعة أمر مهم، وأدركوا أنه عِلْم نفيس، ولا يَقْتَدِرُ على ابتداعه من حيث كَوْنه علمًا إلا أَرْباب العقول الذكية، فنَسَبُوا اختراع علم الفلاحة لأكابر عقلائهم، وفي كتب اليونان ما يفيد أنهم تَعَلَّمُوا الزراعة من مصر، وقال الرومانيون: إن هذا العلم وَصَلَ إلى بلادهم — يعني إلى إيطاليا — من اليونان ومن مصر، نعم المحَقَّق أن أهل الصين يَعْتَنُون بزراعة الأرض، ويجتهدون في تكميل عِلْم الفلاحة، ومما يَدُلُّ على ذلك أن لهم عيدًا مشهورًا في كل سنة بمدينة تونكين، وهو يوم مشهود يَحْضَر محفله ملك الصين بموكب عظيم مع أعيان دولته، فيأخذ الملك المحراث ويحرث قطعة من الأرض بنفسه، وينتهي هذا الموسم بوليمة عظيمة على طرف الملك، وهذا اليوم معدود عند أهل الصين من أيام المواسم والأفراح الأهلية، وفي مَحْفِل هذا اليوم لا يدور على ألسنة الجم الغفير والجموع المتكاثرة من المحادثة والمذاكرة غير المسامرات المتعلقة بخصوص الزراعة، وأنها أم النعم وزينة الأمم وجميع أهل الزراعة من مبادي أمرهم يعتنون بتربية المواشي — لا سيما الغنم — وبطرائق تحسين حالها ونتاجها، فكانت الغنم في الأزمان السالفة أصل ثروة سكان المعمورة، حتى إن الرومانيين كانوا يَعُدُّونَهَا فَرْعًا من الفلاحة؛ لكونها ألزم الأشياء لطريق التعيش، وكانوا يَتَّخِذُون المعاملة من جلود الغنم، يطبعونها بطابع السكة.

وقد مكثت الغنم البيض مدة نحو ستمائة سنة في بلاد الرومانيين يُحْسِنون تربيتها وتنميتها ولا يُهْمِلون فيها، حتى إنهم رتبوا مأمورين للتفتيش عليها، فكانوا لا يُعِدُّونَهَا

للذبح، بل أصوافها البيضاء مُعَدَّة للصناعة، ومَنْ أَهْمَل في تربية الماشية على العموم وتنمية الغنم على الخصوص؛ عاقَبُوه بدفع المغارم الجسيمة، ومَنْ أَحْسَنَ تربية ذلك وتنميته؛ كافئوه بالجوائز السنية، وشوقوه بالتحف البهية والإنعامات، لا سيما مَنْ جَلَبَ من الخارج من ذوات الأصواف الجيدة إلى موطنه حيوانات للتوليد.

وكان الرومانيون ينسجون من هذه الأصواف جميع الملابس المختلفة والأمتعة المتنوعة كالجاري الآن عند المتأخرين من الأمم، فكانوا يبحثون مع غاية الاعتناء عن الأصواف النفيسة الجامعة بين الطول والنعومة واللين كالصوف الأنجوري، وكصوف نابلي وأثينا وملطية وسيواس، وكلها أصواف ممدوحة، ولم يكن في ذلك الوقت يُتَّخَذُ من الأصواف اليونانية في التجارة إلا أصواف خشنة، لا تَصْلح للمصانع إلا بالتنظيف ما عدا أصواف أثينا، فإن أصواف أغنامها تُضَاهِي أصواف أغنام إسبانيا المسماة بالمارينوس مع النعومة التي تَجَدَّدَتْ في الأزمان الأخيرة، فهذه الأغنام الأندلسيةمن جلود الغنم، يطبعونها بطابع انْتَقَلَتْ فيما بعد إلى بلاد الإنكليز والفلمنك، فأتقنت هذه الدول تربية هذا الصنف، وزادت كمية محصوله بتربيته، حتى إن ولاية إسبانيا كانت في ابتداء أَمْرِها يُتَحَصَّل في خزينة مملكتها من مغنم الأصواف الجيدة ما ينيف عن ثلاثين مليونًا من الريالات، ثم إن ملك الإنكليز المسمى إدوارد الرابع جَلَبَ من بلاد إسبانيا بإذن ملكها ثلاثة آلاف رأس من الغنم البيضاء إلى مملكة الإنكليز، فمن هذا الوقت انْفَتَحَ منبع جديد للثروة والغنى والسعادة المالية لخزينة المملكة والتجارات الملية.

وفي القرن السابق الهجري ورد من بلاد الهند الشرقي إلى بلاد الفلمنك صنف من الغنم من ذكور وإناث عالي القامة، مستطيل البدن، غزير الصوف، فاجتهد أهل الفلمنك بتربيته وتعويده على مزاج إقليمهم، فنجح فيها كل النجاح حتى إن أناثي هذه الأغنام كانت تَلِد في السنة الواحدة أربع أغنام، وصوف الرأس الواحد يزن من عشرة أرطال إلى ستة عشر رطلًا، فمثل هذه الأغنام تَنْجَح ولو في البلاد الباردة مثل مملكة أسوج، فإنها اعتنت بتربية أغنام المارينوس أمثالها، وغلبت على الموانع القطرية كبرودة الأقاليم، بحيث إن هذه المملكة كانت تجلب قبل ذلك أصوافها من إسبانيا والفلمنك، والآن استغنت عن ذلك، فما ظنك بالخديوية الجليلة المصرية التي أقاليمها معتدلة ملائمة لتربية الأغنام في الفيوم وغير الفيوم، فإن النجاح فيها محقق لا محالة فمن جَدَّ وَجَد، فإن مملكة فرنسا كان أهاليها في الأزمان القريبة يشترون غزل الأصواف بالأموال الجسيمة جدًّا، فكأنهم كانوا يدفعون للبلاد الأجنبية في الثمن هذه المبالغ الثقيلة كالجزية والخراج، فلما تَقَدَّمَتْ

حركة الصناعة من منذ نحو السبعين سنة؛ اسْتَشْعَرَتْ بما يلحقها من العار في ذلك، لا سيما وأنها بهذه الحالة لا تستطيع مصانعها أن تُسَاوِيَ مصانع غيرها من الإنكليز والفلمنك ونحوهم، فتَعَلَّقَتْ آمالها أن تجتهد في تقديم صناعتها؛ لتفوق على غيرها، فانتهى الأمر بنجاحها في تجهيز الأصواف، حيث شَرَعَتْ أن تُدْخِل في بلادها الدواليب والآلات اللازمة لحَلْج الصوف وغَزْله، فشوقت من يَسْتَجْلِب من الأهالي هذه الدواليب لتنظيف الصوف وغَزْله، فكثر في فرنسا أرباب الصناعات والبراعات ممن يُحْسِن عَمَلَ هذه الدواليب.

فبهذه الوسيلة تقدمت الصنائع الآلية في بلادهم، وكَثُرَت المكافآت من جمعية التشويقات الأهلية، حيث إن هذه الجمعية الأهلية خَصَّصَتْ ثلاثة آلاف فرنك لكل من يَخْتَرِع دولابًا لغَزْل الصوف، فاخترع بعضهم دولابًا لذلك، وأخذ المكافأة، وكَثُر الاختراع للدواليب التنظيفية بهذا التشويق، فوجود أغنام المارينوس وحدها في البلاد لا يكفي ولا يَتِمُّ الانتفاع بأصوافها إلا بالدواليب المذكورة، فإن صوف المارينوس كان موجودًا في فرنسا من عدة أجيال، وكان يساوي في النعومة والجودة مارينوس إسبانيا، ولم يَتِمَّ الانتفاع به إلا باختراع الدواليب.

ومن المجرب عند الفرنساوية أن غَنَمَ المارينوس كلما طالت مُدَّتها في البلاد، وتَرَبَّتْ أغنامها، وتَطَبَّعَتْ بالتوليد؛ لا يزال يَأْخُذُ صوفها في النعومة، ويَنْجَحُ النجاح التام في مصانع الجوخ العال، والمدار على حُسْن تَعَهُّدِه بالتنظيف والتصفية، فإن ذلك يَزِيد في قيمته، ولم يكن بفرنسا من حِيضان تَنْظِيف الصوف إلا حَوْض واحد، فالآن كَثُرَتْ حِيضان التنظيف حول باريس، فلعل يومًا من الأيام تدرك الديار المصرية مُناها في اغتنام فرصة الاقتناء والاعتناء بتحصيل مزايا هذه الأغنام، ثم إن مزية أصواف هذه الأغنام المارينوسية ليست منحصرة في النعومة والامتداد، بل من جملة جودتها طُول قرون أصولها، فكلما طالَتْ كَثُرَت فيها الرغبات، وكان الناس يعتقدون أن الأغنام تَتَنَاقَص جودةُ أصوافها للجز كل سنة، وأن كل جزة مِنْ سَنَة سابقة أجود من اللاحقة، وأن الأصواف إذا بَقِيَتْ على الضأن عدة سنوات لا ينمو صوفها نماء يكون كُفْؤًا لِجَزِّها عدة مرات، فَجَرَّبَ ذلك بالامتحان عِدَّةٌ من أعضاء الجمعية الزراعية الفرنساوية بأن أبقوا قطيعًا من الغنم ثلاث سنوات بدون جَزٍّ لتظهر النتيجة، فلم يَجِدُوا تَنَاقُصًا في الكم والكيف، بل رأوا أن أصوافها قد اكْتَسَبَتْ طولًا متساويًا ودقة متساوية ووَجَدُوهَا ناعمة المَلْمَس كما لو كانوا جزوها على مرار عديدة، وظَهَرَ من هذه التجربة تجديد

فرع للصناعة وهو تطويل الصوف بعدم جزه، وتفويت أوانه مدة ليدخل في مصانع أخرى تحتاج إليه، ومن هذا اخترعوا صنفًا من الجوخ الشهير المسمى بالكزمير، فأكثروا من اصطناعه وتحسينه، وقدموه في أحد المعارض العمومية بفرنسا، فاستحسن الجميع جودة صناعته لِعُلُوِّ مرتبته وحُسْن أصوافه، بحيث صار يُضَاهِي بالكلية مشغولات الكزمير الإنكليزية.

وقد تبين أيضًا بالملاحظة أن الغنم التي لم تُجَزَّ مدة طويلة، وتبقى هذه المدة بقصد طول أصوافها؛ لا يُؤَثِّر فيها تأثيرًا ظاهرًا ثِقَلُ الصوف على أبدانها، وهذا بخلاف ما تعتقده العامة، وقد أَطَلْنا الكلام في الأصواف، وحسْبك فيها الآية الشريفة وهي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ومن المعلوم أن البيوت التي يسكن الإنسان فيها على قسمين أحدهما: البيوت المُتَّخَذَة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ وهو ما يَسْكُن إليه الإنسان أو يَسْكُن فيه، وهذا القسم من البيوت لا يُمْكن نَقْله، بل الإنسان يَنْتَقل إليه، والقسم الثاني: القباب والخيام والفساطيط، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وهذا القسم من البيوت يُمْكِن نَقْلُه وتحويله، والمراد بها: الأنطاع؛ يعني: البسط المتخذة من الجلد، وما يَعُمُّ البيوت منه مما تَسْتَعْمِله العرب وغيرهم من أهل البوادي، والمعنى: يَخِفُّ عليكم حَمْلُها في أسفاركم وفي إقامتكم؛ أي: لا يَثْقُل عليكم في الحالين، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ قال المفسرون: الأصواف للضأن، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز، وقوله تعالى: ﴿أَثَاثًا﴾ الأثاث: أنواع متاع البيت من الفرش والأكسية، وقد يَعُمُّ الثياب والكسوة، وقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ما تَتَمَتَّعون به إلى يوم القيامة، واسْتَقْرَب بعض المفسرين أن المراد بالأثاث: ما يَكْتَسِي به المرء، ويستعمله في الغطاء والوطاء، وبالمتاع ما يُفْرَش في المنازل ويُزَيَّنُ به، وقد ذَكَرَ الله تعالى الأصواف وما بَعْدَها في مَعْرِض النِّعَم العظيمة التي يَجِبُ شُكْرُها، فيجب الاعتناء بتكثيرها على اختلافها في جميع أطراف وأكناف الممالك المصرية، بعناية الحكومة الخديوية، وهِمَم عُمَد أهل الأراضي الزراعية لتعميم المنافع الأهلية، فإن مصر المتشبثة الآن بأن يكون لها في الصنائع والفنون قَدَم رَسُوخ لا ينبغي أن تَيْأَس من تجديد مصانع

الجوخ، فَكَمْ من أشياء لا يَخْطِر إنشاؤها بالبال، ويُظَنُّ أن تحصيلها مِنْ قَبِيل المُحَال، وعند اقتضاء الأوقات وتَعَلُّقِ الآمال يَتِمُّ الحصول عليها بأسهل طريق وأَتَمِّ منوال.

وأما تنبيه صاحب الملحوظات على وفود قوافل داخل أفريقيا إلى الديار المصرية، واستعاضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوروبا، وخلاصة صنائعها؛ فهو في مَحَلِّه، وقد جرى مفعول هذه الملحوظة على أصول مصونة محفوظة، فتُجَّار دارفور وبرنو ونحوهما تحضر في ميعادها، وتأتي بسائر بضائعها على حسب مُعْتَادها، ومن جهة سنار والبحر الأبيض تحضر التجار بسن الفيل والصموغ وريش النعام وغيرها، وإنما أهل أقاليم تنبكتو — وهي بلاد التكرور — لا يَحْضُرون إلا لقضاء الحج، وكذلك الفلاتة السودانية يمرون بمصر لسفر الحجاز، وما ذاك إلا لِبُعْد المسافة لا لقلة أمن الطريق، أو وجود مخافة، فالتجارات في داخل أفريقيا الحقيقية تتيسر بعد تخطيط المسالك الطرقية، وهي لا تتيسر إلا بحركة عجيبة من الحكومة المصرية، واستكشافات جليلة عصرية، وانتجاعات من قبائل إسلامية متمدنة، وتوقيفات لأهالي تلك البلاد على وسائل التمدن المُسْتَحْسَنَة، وإن شِئْتَ فَقُلْ: إنَّ حُسْنَ تمامها إنما يكون بِنَوْع من الفتوحات، والتشبث بعِمَارِيَّتِهَا، وإدخال ما يلزم لها من الإصلاحات، حتى يصير جنوب أفريقيا كالأقاليم الجنوبية بقسم أمريكة، فإن كان من السابق في عِلْم الله تعالى أن يكون لِمِصْر فيه قوة التنجيز «فما ذلك على الله بعزيز»:

فكَمْ من صغير أَسْعَفَتْه عناية ... من الله فاحْتَاجَتْ إليه الأكابرُ
وكم خَامِلٍ جاءت إليه إشارةٌ ... مِن الله فانْحَازَتْ إليه الأشائرُ

فمن هذا نَجِدُ أن ملحوظات الفصل الثاني التي سَبَقَتْ إليها الإشارة قد أُجْرِيَتْ بتداول الأيام، «وما الدهر إلا تَارَةٌ بَعْد تارةٍ.»

فكلما خَطَرَ بالبال أَمْر خطير من الأعمال الصالحة، يحتاج إلى حُسْن التدبير؛ كان الوطن مُعَانًا عليه من المولى القدير، فالمقاصد الخيرية مُيَسَّرة الوسائل، قريبة المَشَارِع، عَذْبة المناهل، وحَقَّ على الأمير الطالب للمعالي أن يَتَغَالى في المطلوب، ويتعالى في مَدَارج العُلَى بأجمل أسلوب، ويُبْرِز في مَظْهر البلاغة نظام بَيْت ملكه المَشِيد، حتى يَظْهَر في نَظْم سلوك الملوك بَيْتُ القَصِيد، ومَنْ أَحْسَنَ مِنْ ولاة الأمور سُلُوكَ أَقْوَم سَنَنٍ، تَأَيَّد بحُسْن نِيَّتِه في ميدان الانتصار على مشروعه الحسن ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

مَلِكُ الملوك إذا وَهَبْ لا تَسْأَلَنَّ عن السَّبَبْ
الله يُعْطي مَنْ يَشَا ءُ فَقِفْ على حَدِّ الأَدَبْ

يُحْكَى: أن إسكندر الأكبر تَشَكَّلَتْ له ثلاث معادن في جلباب الجمال وثياب المهابة والإجلال، فَأَوَّل شَكْلٍ دَخَلَ عليه في حُلَل الحُسْن والبهاء، والشمائل التي يَزْهُو بها، فأَخَذَ بقلبه ولُبِّه، فأَحَلَّهُ مِنْه بقُرْبه، ثم سأله: مَنْ أنت؟ فقال: أنا المال، فقال الإسكندر: لولا أَنَّكَ ميال، ثم دخل عليه الشكل الثاني يَرْفُلُ في حُلَل الوقار والمعاني، فأدناه منه ثم سأله: مَنْ أنت؟ فقال: أنا العقل، فقال: لولا أنك في بعض الأحوال عَقَّال، ثم دَخَل عليه الشكل الثالث تَزُفُّه الغانيات بالمثالث، وقد أَشْرَقَتْ بجَمَاله وُجُوهُ المَطالب، وانْجَلَتْ بإقباله ظُلَمُ الغَيَاهِب، فقام له على قَدَمَيْه، وقَبَّل ما بَيْن عينيه، ثم قال: مَن الزائر أيها البهي الزاهر؟ فقال: أنا السعد، فقال: أَشْهَدُ أنك عناية الحق، وميزان اختبار الخلق، فالويل لمن جَهِلَ حقوق إقبالك عليه، ويا سعادة مَنْ وَفَى حق الخلافة إذا سُلِّمَتْ إليه، ثم عاهَدَه على أن يكون من أعوانه، وعلى وَفْق ما يقتضيه حُكْم ميزانه، والحمد لله الذي جَعَلَ نِعْمَة مصر في المزيد؛ ليزداد الشكر والمحبة لوليها الذي أُجْرِيَت النعمة على يديه؛ إذ هو السبب الأصلي الحامل على ذلك، والدال عليه والمائل بالطبع إليه، وستأتي الإشارة إلى ما يُجَدَّد من المحاسن الحالية في الفصل الرابع من هذا الباب.

الفصل الرابع

في إسعاد الحاكم للبلاد والعباد

ليس من ملوك مصر مَنْ تَفْتَخِر به الأهالي مِثْل افتخارهم بالخديو الأكرم، حيث إنه تَأَسَّسَ في أيامه قواعد عدلية لا تُحْصى، ومآثر منافعها جلية لا تُسْتَقْصَى، ولو لم يكن له من المآثر إلا كَوْنُه حَمَلَ الأهالي على أن يَسْتَنِيبُوا عنهم نوابًا ذوي فِكْرَة ألمعية ليتذاكروا في شأن مصالحهم المرعية؛ لَكَفَاه ذلك شَرَفًا ومَجْدًا وعِزًّا وسَعْدًا، حيث صار مُسْتَوْلِيًا على أُمَّة حُرَّة الرأي باستشارتها في حقائق التراتيب والتنظيمات التي يُرَاد تجديدها لأجلهم، كما أن له الفخار في أنه لا يُضِيع حُقُوقَهم، حيث جَعَلَه الله أمينًا عليها، فبهذه الوسيلة القوية يَتَمَكَّن من أداء ما وَجَبَ عليه في حق الرعايا، مع كونه يُتَمَدَّح بالحكم على رعايا أحرار، يتمتعون بحقوقهم، ويَحْظَوْن بمزاياهم، وبهذا أيضًا يكون على يقين من التسلطن المعنوي على النفوس والأرواح، وأن يُدْرِك بمساعدتهم إياه في إسعاده لوطنهم تمام النجاح، حيث القلوب جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، فَقَلَّ أَنْ تَخْلَع الرعايا خِلْعة مَحَبَّتِها القلبية ومَوَدَّتِها الإخلاصية على حَاكِمِها مَجَّانًا، فالعاقل مَنْ لا يُحِبُّ أو يَبْغَضُ إلا بسبب من الأسباب.

وقد تَقَدَّمَ غير مرة أن غِنَى مصر ورَأْسَ مالها الحقيقي إنما هو مُتَكَوِّن بالأصالة من زراعتها، وبالتبعية من تجارتها في محصولات الزراعة، مع ما يَتْبَعُ الزراعة من تنمية المواشي وتكثيرها، لا سيما ما يُعِين على الحرث وتنمية النبات كالبقر الذي هو لخاصة

مصر قديمًا وحديثًا أَنْفَع بهيمة الأنعام، وأَجَلُّ غنيمة الإنعام، بدليل أن البلاد تَذُوق مرارة المَضَرَّة في السنة التي يذوق فيها هذا النوع كأس الحمام.

ولولا إلهام أَهْلِها التبصر والتصبر عند حلول مثل هذه المصيبة الفظيعة؛ لحزنوا جميعًا في سنة نَفْق المواشي بالوباء، ولا حزن أبي بكر بن قريعة حيث نَفَقَ له ثور أبيض، وجلس على العزاء عليه تراقُعًا وتحامُقًا، حتى إن أبا إسحاق الصائبي كتب إليه يُعَزِّيه على هذا المفقود عن لسان ابن لعبة في أيام وزارته، فقال: «التعزية على المفقود إنما تكون بحسب مَحَلِّه من فاقده، من غير أن تُرَاعَى قيمته ولا قَدْره ولا ذاته ولا عَيْنه، إذا كان الغرض منها تبريد الغلة، وإخماد اللوعة، وتسكين الزفرة، وتنفيس الكربة، فَرُبَّ وَلَدٍ عاقٍّ، وأخ ذي شِقَاقٍ، وذي رَحِم أصبح لها قاطعًا، وقريب قوم قَلَّدَهُم عارًا، وناطَ بهم شنارًا، فلا لَوْم في ترك التعزية عنه، وأَحْرى بها أن تكون تهنئة بالراحة منه، ورُبَّ مال صامت غير ناطق، قد كان به مُسْتَظْهَرًا وله مُسْتَثْمَرًا، فالفجيعة به إذا فُقِدَ موضوعة مَوْضِعَهَا، والتعزية عنه واقعة منه مَوْقِعها، وبَلَغَنِي أن القاضي أُصيب بِثَوْر كان له، فجلس للعزاء عنه شاكيًا، وأَجْهَش عليه باكيًا، وللندم مواليًا، وحُكِيَتْ عنه حكايات في التأبين له، وإقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تَفَرَّقَتْ في غيره، واجْتَمَعَتْ فيه وَحْدَه، فصار كما قال أبو نواس في مِثْلِه من الناس:

لَيْسَ على الله بِمُسْتَنْكَرٍ　　　أَنْ يَجْمَعَ العالَم في وَاحِدٍ

لأنه يُكْرِب الأرض معمورة، ويُثِيرُها مَزْروعة، ويدور في الدواليب ساقيًا، وفي الأرجاء طاحنًا، ويَحْمِل الغلات مستقلًّا، والأثقال مُسْتَخِفًّا، فلا يَئُوده عظيم، ولا يُعْجِزُه جسيم، ولا يجري في الحائط مع شقيقه، ولا في الطريق مع رفيقه، إلا كان جَلْدًا لا يُسْبَق، ومُبْرِزًا لا يُلْحَق، وفائتًا لا يُنَالُ شأْوُهُ وغَايَتُه، ولا يُبْلَغُ مداه ونهايتُه، ويَشْهَد الله أن ما ساءه ساءني، وما آلَمَهُ آلَمَنِي، ولم يَجُزْ عندي في حَقِّ المودة استصغار خَطْبٍ جَلَّ عِنْدَه، فأَرْمَضَه وأَرَّقَه وأَمْرَضَه وأَقْلَقَه، فكتب هذه الرقعة فأصابها من أَلْحَق في مصابه هذا بِقَدْر ما أَظْهَرَ مِنْ إكثاره إياه، وأَبَانَ من إعظامه له، وأسأَلُ الله تعالى أن يَخُصَّه من المُعَوِّضَة بأفضل ما خَصَّ به البشر عن البقر، وأن يُفْرِدَ هذه البهيمة العجماء بأَثَرَة من الثواب، تُضِيفها إلى المكلفين من الألباب، فإنها وإن لم تَكُن منهم فقد اسْتَحَقَّت أن لا تُفْرَدَ عنهم، بأن مَسَّ القاضيَ سَبَبُهَا، وصار إليه مُنْتَسَبُهَا، حتى إذا أَنْجَزَ الله ما وَعَدَ به

من تمحيص سيئاتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم إلى الجنة التي رَضِيَها لهم دارًا، وجَعَلَها لجماعتهم قرارًا، وأُورِدَ القاضي — أَيَّدَه الله تعالى — مَوَارِد أهل النعيم مع أهل الصراط المستقيم؛ جاء وثَوْرُه هذا مَجْنُوب معه مسموح له به، وكما أن الجنة لا يَدْخُلها الخبث، ولا يكون مِنْ أَهْلها الحدث، ولكنه عَرَق يجري من أعراضهم، كذلك يَجْعَل الله ثَوْرَ القاضي مُرَكَّبًا من العنبر الشحري، وماء الورد الجوري، فيكون له ثورًا، وجونة عطر له طورًا، وليس ذلك بمُسْتَبْعَد ولا مُسْتَنْكَر، ولا مُسْتَصْعَب ولا مُتَعَذَّر، إذا كانت قُدْرة الله بذلك مُحِيطَة، ومواعيده لأمثاله ضامنة بما أَعَدَّهُ الله في الجنة لعباده الصادقين وأوليائه الصالحين من شهوات أنفسهم، وملاذِّ أعينهم، وليس ما منحه من غَامِرِ فَضْلِه، وفائض كَرَمه، بمانع له من صَالِح مَسَاعيه، ومحمود شِيَمه، وقلبي متعلق بمعرفة خبره — أدام الله عزه — فيما ادَّرَعَه من شعار الصبر، واحتفظ به من إيثار الأجر، ورُفِع إليه من السكون لأمر الله تعالى في الذي طَوَّقَه، والشكر له فيما أَزْعَجَه وأَقْلَقَه، فليعرفني القاضي من ذلك ما أكون ضاربًا معه بسهم المساعدة عليه، وآخذًا بقسط المشاركة فيه.»

فأجاب القاضي أبو بكر بقوله: «وَصَلَ توقيع سيدنا الوزير — أطال الله بقاءه وأدام تأييده ونعماءه وأَكْمَلَ رِفْعَتَه وعُلَاه وحَرَسَ بهجته ومرقاه — بالتعزية عن الثور الأبيض الذي كان للحرث مثيرًا، وللدواليب مديرًا، وبالسبق إلى سائر المنافع شهيرًا، وعلى شدائد الزمان مساعدًا وظهيرًا، لعمرك لقد كان بعمله ناهضًا، ولحماقات البَقَر رافضًا، أنَّى لنا بمثله وشراوه ولا شروى، فإنه من أعيان البقر وأَنْفَع أجناسه للبشر، مُضَاف ذلك إلى أخلاقٍ لَوْلا خَوْفي من تَجَدُّد الحزن عليه وتهييج الجَزَع وانصرافه إليه لعَدَدْتُها؛ لِيَعْلَم — أدام الله عِزَّه — أن الحزين عليه غير مَلُوم، وكيف يُلَام امرؤ فَقَدَ مِنْ مَالِه قِطْعَة يَجِب في مثلها الزكاة، ومِنْ خَدَمِ معيشته بهيمة تُعِين على الصوم والصلاة؟ وقد احْتَذَيْتُ ما مَثَّلَه الوزير من شمل الاحتساب والصبر على المصاب، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قَوْلُ مَنْ عَلِمَ أنه أَمْلَك لنفسه وماله وأهله، وأنه لا يَمْلِك شيئًا دونه؛ إذ كان — جَلَّ ثناؤه وتَقَدَّسَتْ أسماؤه — هو الملك الوَهَّاب المُرْتَجِع ما ارتجع مما يُعَوِّض عليه نفيس الثواب، وقَدْ وَجَدْتُ — أَيَّدَ الله الوزير — للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الأنعام، تَشْهَد بها العقول والأفهام.» ثم ذَكَر جُمْلَةً من فضائله لا يُحْتَاج إليها هنا، انتهى.

وإنما نقول: إنه لا يَتَوَجَّه على مِثْل هذا القاضي في مُصِيبَتِهِ مَلَامَةُ لائم، فكيف والسعد في طالع البهائم؟ ولهذا تقول العامة: إن الدنيا على قَرْن ثَوْر، وقال الشاعر:

والدَّهْر كالدولاب لَيـ　　ـسَ يَدُورُ إلا بِالْبَقَرْ

وأما التعزية فلا بأس بها:

فَلَعَمْرِي يَحِقُّ لو كَتَبُوهَا　　بسواد العيون فَوْقَ الْمَجَرَّه

قال بعضهم: ومن مُوجِبَات الثروة الهمة والصنعة، فإن الهِمَمَ الموجبة لها في المملكة، يقال لها: القوة المحصلة، وهي مختلفة في الممالك، فبعض الممالك ما تَكُون ثَرْوَتُه أَزْيَد من الأخرى، وذلك بنسبة تزايد القوة الْمُحَصِّلَة لها ونَقْصِها، والقوة المحصلة للثروة عبارة عن شيئين: سعي الإنسان، وموضوعه الأرض، فإذا نُظِرَ في الهيئة الاجتماعية وُجِدَ أن الأرض في جميع الأزمان على طبيعتها، وإنما اخْتَلَفَتْ باختلاف الأطوار الحاصلة؛ كاختراع السُّفُن البخارية، والطرق الحديدية، واستعمال السلوك البرقية المسماة بالتلغراف في المخابرات، مما يَخْتَرِعُه الإنسان بواسطة توسيع دائرة العلوم والفنون، فيَجْعَل الإنسان ما لا يُمْكِن تحويله بطبيعته في طُرُز آخَر، وبالتأمل في أحوال الأمم المختلفة والممالك الداخلة في حوزة حكوماتها يُعْلَم اختلاف الأمزجة والطباع من وجهين:

الأول: أن أهالي الممالك التي تحت المنطقة الحارة ليست مثل الممالك التي تَحْتَ المنطقة المتجمدة — كالبلاد التي بأطراف القطب — في اللوازم الضرورية، فإن أهل المنطقة القطبية المتجمدة تفتقر إلى زيادة الْمَلْبَس؛ للتَّحَفظ من تأثير البرد بخلاف أهل المنطقة الحارة، فهي بعكسها مُفْتَقِرة إلى ما يقيها من تأثير الحرارة والرطوبة، وبخلاف أهل المنطقتين المذكورتين أهالي المنطقة المعتدلة.

الثاني: أن طبيعة الأراضي والأقاليم تُرْشِد الإنسان إلى وسائط متنوعة في الصناعة، ونماء النبات والحيوان، إنما يكون بالنسبة لأهوية المملكة الموجودة هي فيها، وبعض الممالك مشهور بكثرة الطيور والمراعي النضرة والمعادن، وبعضها ليس فيها شيء من أسباب الثروة الطبيعية بالكلية، ومن الممالك ما تسهل المخابرات فيه بكثرة الأنهار، ومنها ما تَشُقُّ فيه لعدم ذلك، فالإنسان لا يمكنه مَحْوُها، وإنما بالقوة الصناعية العلمية يُمْكِنُهُ تحويل الحال إلى حالة أخرى، وحصول هذه الحالة، واختراعها وبلوغها درجة كاملة

كالتلغراف مثلًا؛ إنما يكون بصرف المساعي والهمم، وكذا سائر الوسائل كالسفن البخارية والطرق الحديدية وسائر المخترعات النافعة، فكلها من أعظم أركان القوة المحصلة، وتزايدها موقوف على تَرَقِّي الفنون والصنائع، وبعظم هذه القوة يَرْتَقِي بعض الأمم إلى درجة الثروة، وبضعفها تَتَرَاجع الأخرى، فعَمَار المملكة موقوف على وُصُولها إلى الدرجة الكمالية، وذلك موقوف على اتساع الدائرة الصناعية، وهو موقوف على تتميم الصناعات الموروثة سلفًا عن خلف، ونقل ما اخترع منها في الممالك إلى البلاد التي ليست فيها هذه الاختراعات موقوف على صَرْف الهمة إليها والسعي، فالمدار في استكمال أسباب الثروة على السعي.

وحيث كانت التجارة من منابع الثروة العظيمة فلا شك أن صاحب الاشتغال بها، الباذل هِمَّتَه وسَعْيَه فيها؛ ذِهْنُه مصروف إليها بالكلية، فَفِكْرُه عادة مَلْهِيٌّ عن الأفكار الباطلة التي يتسبب عنها هَدْم بنيان الأمة بالفتن والشرور، ومتى كانت التجارة مُتَّسِعَة في مملكة تَنْصرف الهمم إلى التشبث بالأرواح الحقيقة، وتَشْتَدُّ الرغبات في الأسباب والمُسَبِّبات المُكَوِّنة لاتساع رءوس الأموال، وفي تمكين القوة الصناعية بالقوى العلمية من كل ما يُسَهِّل طُرُق المكاسب، ويُحَوِّلها إلى درجات كمالية مما يَهْتَم به الآن، بالنظر لتقديم المنافع العمومية أصالة وللمنافع السياسية تَبَعًا.

وقد اختلفت هذه الأزمان الحديثة عما كان يجري في الأزمان القديمة مِنْ صَرْف المساعي والهمم في تسهيل وسائل الدولة بالأصالة، مما يكون لمنافع الرعية حاصلًا غير مقصود، فقد دَلَّت التواريخ على أن المخترعات الجديدة في الدول المتأخرة لم تَخْلُ عن مُقَابِل لها مِنْ بَعْض الوجوه في الدول القديمة؛ كالطرق الحديدية والتلغراف ونحوها، فكان البريد وحَمَام الرسائل قائمًا مَقَامها في مصالح الدولة، وكذلك هَجْن الثلج والمراكب المُسَفَّرة بالثلج في البحر لشرابخانة السلطنة المصرية، وكذلك المناور لاستطلاع أخبار العدو والاحتراس منه، والمُحْرَقات للزروع والمراعي لقطع رجاء العدو المريد الإغارة على بلاد السلطنة، فجميع هذه إنما كانت مَنَافِعَ سلطانية كما سَيُعْلَم.

فقد كان البريد في عهد الأكاسرة والقياصرة موجودًا، وإنما أحواله مجهولة، وأَوَّل مَنْ وَضَعَ البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما حين اسْتَقَرَّت له الخلافة ومات أمير المؤمنين علي — كرم الله وجهه — وسَلَّم إليه ابْنُه الحسن وخَلَا من المنازع، فوَضَع البريد ليسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأَمَرَ بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعَرَّفَهم ما يريد، فوضعوا له البريد واتَّخَذ لها

بغالًا بأكف كان عليها سفر البريد، ثم اتَّسَعَ الأمر في زَمَن عبد الملك بن مروان حين خلا وَجْهُه من الخارجين عليه كعمر بن سعيد الأشدق وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمختار بن أبي عبيد، واستعمل البريد الوليد بن عبد الملك بعد أبيه، فكان يَحْمِل عليه الفسفيسا — وهي الفصوص المُذَهَّبَة من القسطنطينية إلى دمشق — حتى صَفَحَ بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدنية والقدس الشريف، ثم لم يزل البريد قائمًا، والعمل عليه دائمًا، حتى آنَ لبناء الدولة المروانية أن يُنْتَقَض، ولِحَبْلِهَا أن يُنْتَكَبَ، فانقطع ما بين خراسان والعراق لانصراف الوجوه إلى الدعوة القائمة للدولة العباسية، ودام الأمر على هذا حتى انْقَرَضَتْ أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ومَلَكَ السفاح ثم المنصور ثم المهدي والبريد لا يُشْتَدُّ له سُرُج، ولا يُلْجَم له دابة، ثم إن المهدي أغزى ابنَه هارون الرشيد بلاد الروم، وأحبَّ أن لا يزال على عِلْم قريب مِنْ خَبَرِه، فرَتَّبَ ما بينه وبين معسكر ابنه بُرُدًا، كانت تأتيه بأخباره وتُريه مُتَجَدِّدَات أيامه، فلما قَفَلَ الرشيد قَطَعَ المهدي تلك البُرُد، ودام الأمر على هذا باقيَ مُدَّتِه ومدة خلافة موسى الهادي بعده.

فلما كانت خلافة هارون الرشيد ذَكَرَ يومًا حُسْن صنيع أبيه في البُرُد التي جَعَلَها بينهما، فقال له يحيى بن خالد: «لو أَمَرَ أمير المؤمنين بإجراء البريد على ما كان عليه كان صلاحًا لِمُلْكِه.» فأَمَرَ به فقَرَّرَه يحيى بن خالد ورَتَّبَه على ما كان عليه أيام بني أمية، وجَعَلَ البغال في المراكز، وكان لا يُجَهِّز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر، ثم اسْتَمَرَّ على هذا في خلافة المأمون، واتَّسَع أمر البريد فيها حتى رُتِّبَ لصاحب البريد أربعة آلاف من الهجن مع مؤنتها وآلاتها؛ ليَسْتَخْبِر بها عن أمور المملكة، فكان يَعْلَم أمور العالم في يوم واحد.

ولما دَخَلَ هذا الخليفة بلاد الروم نَزَلَ على نهر البردون، وكان الزمان حارًّا، فقَعَدَ على هذا النهر ودَلَّى رجليه فيه وشرب من مائه، فاسْتَعْذَبَه واسْتَبْرَدَه واستطابه، وقال لمن كان معه مُسْتَفْهِمًا: ما أَطْيَبُ ما يُشْرَب عليه هذا الماء؟ فقال كُلٌّ برأيه، فقال هو: أَطْيَبُ ما يُشْرَب عليه هذا الماء رطب أزاد، فقالوا له: يعيش أمير المؤمنين حتى يأتي العراق، ويأكل من رطبها الأزاديِّ، فما استتموا كلامهم حتى أَقْبَلَتْ بغال البريد تَحْمِل أشياء منها رطب أزاد، فأُتِيَ للمأمون منها فَأَكَلَ وشَرِبَ من ذلك الماء فأكثر، فعجب الحاضرون لسعادته حيث لم يَقُمْ من مقامه حتى بَلَغَ أُمْنِيَتَه مع ما كان يُظَنُّ مِنْ تَعَذُّرِهَا، فلم يَقُم المأمون حتى حُمَّ حُمَّى حارة كانت فيها مَنِيَّتُهُ.

ولما جاءت دولة بني بُوَيْهِ، وعَلَوْا على الخلافة، وغَلَبُوا عليها الخلفاء العباسيين؛ قَطَعُوا البريد لِيُخْفُوا على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قَصْدِهم بغداد، وكان الخليفة يأخذهم على بغتة، وجاءت الملوك السلاجقة على هذا وكان بين ملوك الإسلام إذ ذاك اختلافُ ذاتِ بَيْنِهِم وتَنَازُعُهُمْ، فلم يكن بينهم إلا الرسل على الخيل والإبل، كل أرض بحسبها.

فلما أَتَتْ الدولة الزنكية أقام السلطان نور الدين الشهيد للبُرُد النَّجَابة، وأَعَدَّ لها النُّجُبَ الجيدة، ودام هذا في جميع أزمان الدولة وفي أيام بني أيوب رحمهم الله إلى آخر أيامهم وسقوط أقدامهم، وتَبِعَها على ذلك أوائل الدولة التركية المصرية، فبَطَلَ في أثنائها البريد حتى صار الملك إلى الظاهر بيبرس رحمه الله، واجْتَمَعَ له مُلْك مصر والشام وحَلَب إلى نَهْر الفرات، وأراد تجهيز دولة إلى دمشق فعَيَّن لها نائبًا ووزيرًا وقاضيًا وكاتبًا للإنشاء.

وكان الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الإنشاء، فلما مَثَلَ بين يديه لِيُوَدِّعَه أوصاه بوصايا كثيرة، آكَدُها مواصلته بالأخبار — لا سيما ما يتجدد من أخبار التتار والفرنج — وقال له: إن قَدَرْتَ أن لا تُبِيتَنِي ليلة إلا على خبر، ولا تُصَبِّحَنِي إلا على خبر فافعل، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الأول وأيام الخلفاء وحرضه عليه، فحَسُنَ مَوْقِعه منه، وأَمَرَ به ورتب عليه جمال الدين عبد الله الدوداري البريدي المعروف بابن السديد، فكان جمال الدين في ذلك الوقت جناح الإسلام الذي لا يُقَصُّ، وتَرَتَّبَتْ في أيام نِظَارَتِهِ مراكز البريد في الممالك الإسلامية، ومنها في محروسة مصر، ومركز قلعة الجبل إلى نواحيها الخاصة بها، وهي ثلاث جهات: أَوَّلُها: إلى جهة قُوص ثم إلى أسوان، ثانيها: من القلعة إلى جهة الإسكندرية، ثالثها: إلى جهة دمياط، فالأولى من مركز القلعة إلى الجيزة، ثم منها إلى زاوية حسين وإلى منية القائد، ثم منها إلى ونا، ثم منها إلى بِبَا، ثم منها إلى دهروط، ثم منها إلى أقلوصنا، ثم منها إلى منية ابن خصيب، التي يقال: إن الخصيب أيام ولايته عَمَرَهَا لابنه وسَمَّاها باسمه، ثم من منية ابن خصيب إلى الأشمونين التي كانت إحدى مدن الصعيد العظيمة، وكان بها إذ ذاك مقر الولاية، ثم منها إلى ذروة الشريف نسبة إلى الشريف حِصْن الدين بن ثعلب، فإنها كانت دار مُقَامه وبها دُورُه وقُصُوره.

وكان قد خَرَجَ ملك الصعيد وعَجَزَ منه ملوك مصر، وأمن أيام المعز أيبك ومَنْ بَعْده، فلم يُظْفَر به، ثم خَدَعَه الظاهر بيبرس ومَنَّاه العوض بالإسكندرية، فلما أناب أَعْلَقَ به

الظفر والناب، وجَهَّز إلى الإسكندرية ليَتَمَلَّكَها فشُنِق على بابها، ثم من ذروة الشريف إلى منفلوط وهي أَجَلُّ خَالِص السلطان، ثم منها إلى أسيوط ثم منها إلى طما، ثم منها إلى المراغة، ثم منها إلى بلسبورة، ثم منها إلى جرجا، ثم منها إلى البلينة، ثم منها إلى هو، ويليها الكوم الأحمر، وهما مِنْ خَالِص السلطان، وعندهما يَنْقَطِع الريف في البر الغربي، ويكون الرمل المتصل بدَنْدَرَة، ويُسَمَّى: خانق درندرة، ثم مِنْ هُو المذكورة إلى قُوص، ثم مِنْ قوص يَرْكَب البريد الهجن إلى أسوان، وإلى عيداب، ثم إلى النوبة، أو إلى سواكن على ما يكون.

وأما جهة إسكندرية فالمراكز من القلعة إليها في طريقين، فالوسطى تَشُقُّ العامر الآهل، وهي من مركز القلعة المحروسة إلى قليوب، ثم منها إلى منوف، ثم منها إلى محلة المرحوم مدينة الغربية، ثم منها إلى التحريرية، ثم منها إلى الإسكندرية والطريق الأخرى، وهي الآخذة من طريق البر، وتُسَمَّى: طريق الحاجز، وهي من مركز القلعة إلى الجيزة، ثم منها إلى جزيرة القط، ثم منها إلى وردان، ثم منها إلى الطرانة، ثم منها إلى زاوية مبارك، ثم منها إلى دمنهور ومدينة أعمال البحيرة، ثم منها إلى لوقين، ثم منها إلى الإسكندرية.

وأما طريق دمياط فمن القلعة إلى سرياقوس، ثم منها إلى بلبيس، وهي آخر المراكز التي لِخَيْل السلطان؛ أي: الخيل التي تُشْتَرَى بمال السلطان، ويُقَام لها السواسُّ والعُلُوفات على طرف السلطان، ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوي إقطاعات عليها خيول موظفة، تحضر في هلال كل شهر في مراكز أصحاب النوبة بالمخيل، فإذا انْسَلَخ الشهر جاء غَيْرُهم؛ ولهذا تُسَمَّى خَيْلَ الشهارة، وعلى بريد الشهارة والٍ من قِبَل السلطان، يَسْتَقْبِل في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه، ويدوغها بالداغ السلطاني، ثم من بلبيس إلى السعيدية، وهي أول بريد الشهارة، ثم منها إلى أشموم الرمان، ثم منها إلى دمياط، فهذه المراكز الخاصة بالديار المصرية، وكان ثَمَّ مراكز آخذة من قلعة الجبل المحروسة إلى الفرات، تبتدئ من سرياقوس، وتجتمع ببريد دمياط، وتفترق من السعيدية السالفة الذكر، وتتشعب في البلاد الشامية إلى جهات مختلفة.

وأما حَمَام الرسائل فإن مَنْشَأه من بلاد الموصل، وحَافَظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر، وبالَغُوا حتى أفردوا لمراكزه ديوانًا وجرائد بأنساب الحمام، وأول مَن اعْتَنَى به من الملوك ونَقَلَه من الموصل هو الشهيد نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — سنة خمس وستين وخمسمائة، حيث بَنَى الأبراج على الطريق بين المسلمين والفرنج،

وجَعَلَ فيها مَنْ يَحْفَظُها وفوقهم الحمام الهوادي، فإذا رأوا من العدو أحدًا أرسلوا الطيور، فأَخَذَ الناس خَبَرَهُم وتَجَهَّزُوا لهم، فلم يَبْلُغ العدو منهم الغرض، وكان هذا من أَلْطَف الفكر وأَكْثَره نَفْعًا، وهذا معنى قول الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه: «اتَّخَذ السلطان نور الدين الشهيد الحَمَام الهوادي في سنة سبع وستين وخمسمائة؛ وذلك لامتداد مَمْلَكَته واتساعها، فإنها من حد النوبة إلى همدان؛ فلذلك اتخذ في كل قلعة وحِصْنٍ الحَمَام التي تَحْمِل الرسائل إلى الآفاق في أَسْرَع مُدَّة وأَيْسَر عدة.» انتهى، وتُسَمَى حَمَام الرسائل حَمَام البطاقة أيضًا، ولعل تربية حمام البطاقة في بلاد الموصل التي بها جَبَل الجودي، مُسْتَنْبَطة مِنْ بَعْث نوح الغراب ثم الحَمَامة؛ لاستعلام خَبَر الطوفان، فقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: «استقرت السفينة على الجودي، فبعث نوح الغراب ليأتيه بالخبر، فذَهَبَ فوقع على الجِيَف فأَبْطَأَ عليه، فبَعَثَ الحمامة فأَتَتْه بورق الزيتون، ولَطَّخَتْ رِجْلَيْها بالطين، فعَرَفَ نوح أن الماء نَضَبَ؛ أي: نَشِفَ.»

وقد كان بالديار المصرية تدريج الحَمام بالوجه القبلي بالرسائل، فكان مُتَّصِلًا من القاهرة إلى قوص وأسوان وعيداب، ومن القاهرة إلى الإسكندرية، ومن القاهرة إلى دمياط، ومن القاهرة إلى السويس من طريق الحاج، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلًا بالشام، وبالجملة: فكانت مراكز الحَمام في سائر البلاد الإسلامية حتى قيل: إن الحمام ملائكة الملوك.

وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحمام البطاقة اعتناء زائدًا حتى صار يَكْتُب بأنساب الطير المَحَاضِر أنه مِنْ وَلَد الطير الفلاني، وقيل: إنه بِيعَ بألف دينار، وقد جَرَت العادة في مصر أن الحمامة لا تَحْمل البطاقة إلا في جَنَاحِها؛ لأمور منها: حِفْظُها من المطر، ولقوة الجناح، والواجب أنه إذا بطقت الحمامة من مصر لا تُطْلَق إلا من أمكنة معلومة، فإذا سَرَحَت إلى الإسكندرية لا تُشْرح إلا من منية عُقْبة بالجيزة، وإلى الشرقية فمن مسجد التبين ظاهر القرافة وإلى دمياط، والذي استقر عليه قواعد المُلْك أن طائر البِطَاقة لا يَلْهُو عنه الملك ولا يَغْفُل ولا يُمْهِل لحظة واحدة، فتَفُوته مُهِمَّات لا تُسْتَدْرَك، إما مِنْ واصِل، وإما مِنْ هَارِب، وإما مِنْ مُتَجَدِّد في الثغور، ولا يَقْلَع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطةِ أَحَد، فإن كان يأكُل لا يُمْهَل حتى يَفْرُغ، أو نائمًا لا يُمْهَل حتى يَسْتَيْقِظ بل يُنَبَّه، وينبغي أن يَكْتُب

البَطَّاق البطاقة في وَرَق الطير المعروف بذلك، وتُؤَرَّخ بالساعة واليوم لا بالسنة، ومما قيل في حمامة البطاقة من الأدب:

خُضْرٌ تَفُوتُ الريح في طَيَرَانِهَا ... لا بُعْدَ بَيْنَ غُدُوِّهَا ورَوَاحِهَا
تأتي بأخبار العَدُوِّ عَشِيَّةً ... كمسير شَهْر تَحْتَ رِيشِ جَنَاحِهَا
وكأنما الروح الأمين بِوَحْيِهِ ... نَفَثَ الهداية منه في أَرْوَاحِهَا

ومن إنشاء القاضي الفاضل في وَصْفها: «سَرَحَتْ لا تزال أَجْنِحَتُها تَحْمل من البطائق أجنحة، وتُجَهِّز جيوش القاصد والأقلام أَسْلِحة، وتَحْمِل من الأخبار ما تَحْمِله الضمائر، وتطوي الأرض إذا نَشَرَت الجناح للطائر، وتَزْوِي لها الأرضُ حتى يَرَى ما سَيُبَلِّغُه مَلِك هذه الأمة، وتَقْرُب منها السماء حتى تَرَى ما لا يَبْلُغُه وهْم ولا همة، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعًا، ويركب البحر بحرًا يصفق فيه هبوب الرياح مَوْجًا مرفوعًا، وتُعَلَّق الحاجات على أَعْجَازها، ولا تَعُوق الإرادات عن إنجازها.» وقد أشار ابن الوردي في إشارة الحَمامة إلى ما يُفِيد مزية حمام الرسائل، مستوفيًا لكل خاصة فيه وعلامة، حيث قال: «فبينما الباز سكران بما بانَ له من البان، وإذا حمامة قد وَقَفَتْ أمامه، وقالَتْ له: كم تَفْتَخِر وأنت عظْم نخر؟ أنت من آلة اللعب والصيد، وأنا من آلة الجد والكيد، أنا مع الطوق والخضاب من حَمَلَة الكتاب، ومع حذري من شَرَك الشِّرْك، وخوفي مِنْ فَخِّ الإفك، حَمَلْتُ الأمانة التي أَبَت الجبال عن حَمْلِها، وامْتَثَلْتُ مرسوم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فلما أَوْصَلْتُ الحقوق أَمِنْتُ العقوق، وقُوبِلْتُ بالبشائر والخلوق، ومما أَعْجَبَ العالمين أني مخضوب البنان، ولي يمين أقول للملك: دع الاهتمام، لا تَلْعَب بي فأنا الحمام، فمهما حَدَثَ على البعد من أخصامك، فأنا آتيك به قَبْلَ أن تَقُوم من مَقَامك، كَتَمْتُ على الناس سِرِّي، وأَبْهَمْتُ بَيْن الغناء والنوح أَمْرِي.»

رَأَوْا خِضَابِي وطَوْقِي ... فاستنكفوا مِنْ بُكَائِي
ثم ادَّعَوْا أنَّ زِيِّي ... مُنَاسِبٌ لِلْغِنَاءِ
فقُلْتُ كُفُّوا فَعُذْرِي ... بَادٍ بغير خَفَاءِ
فالخَضْبُ مِنْ فَيْضِ دَمْعِي ... والطَّوْقُ عِقْدُ وَلَائِي

وقال بعضهم:

فَحَبَّذَا الطائرُ الميمونُ يطْرُقُنَا	في الأمر بالطائر الميمون تَنْبِيهَا
فاقَتْ على الهدهد المذكور إذْ حَمَلَتْ	كُتْبَ المُلُوك وصَانَتْهَا أَعَادِيهَا
تأتي بِكُلِّ كتاب نَحْوَ صاحِبِهِ	تَصُونُ نَظْرَتَهُ صَوْنًا وتُخْفِيهَا
فما تُمَكِّنُ غَيْرَ الشمس تَنْظُرُهُ	ولا تَجَوَّزُ أن تُلْقِيهِ مِنْ فِيهَا
منسوبة لِرسَالَاتِ الملوك فبالـْ	ـمَنْسوب تَسْمُو ويَدْعُوها مُسَمِّيهَا
أَكْرِم بِجَيْشٍ سعيدِيٍّ سعادَتُهُ	مما يشكك فيها ذِكْر حَاكِيهَا
حمامتا الغار يَوْمَ الغار تَحْرُسُهُ	فيا لها وَقْفَة عَزَّتْ مَسَاعِيهَا
وُقُوفُه عِنْدَ ذاك الباب شَرَّفَهُ	وللسعادة أَوْقَاتٌ تُوَاتِيهَا
ويَوْمَ فَتْحِ رسول الله مَكَّةَ عِنْـ	ـدَ الدخول إليها مِنْ بَوَادِيهَا
صَفَّتْ تُظَلِّلُ مِنْ شَمْس كَتِيبَتَهُ الـْ	ـخَضْراء مُظْهِرَةً فيه تَوَالِيهَا
فعندما حَظِيَتْ بالقرب أَمَّنَهَا	فَشُرِّفَتْ بعطايا جَلَّ مُهْدِيهَا
فما يَحِلُّ لذي صَيْدٍ تَنَاوُلُهَا	ولا يَنَالُ المُنَى بالنار مُصْلِيهَا
سَمَتْ بمُلْكِ المَعَالي غَيْر ذي دَنَسٍ	لا تَرْتَضِيهِ ولو جُزَّتْ نَوَاصِيهَا
وانْظُرْ لها كَيْف تأتي للخلائق مِنْ	آلِ الرسول لِحُبٍّ كامِلٍ فِيهَا
من المقام إلى دار السلام وَلَمْ	يَمْضِ النهارُ لِعَزْمٍ في دَوَاعِيهَا
وربما ضَلَّ نَحْو الهند مُلْتَقِطٌ	حَبَّات فلفلة وارْتَدَّ مُبْطِيهَا
فجاء في يومه في إِثْرِ سابِقَةٍ	حِفْظًا لِحَقِّ يَدٍ طابت أَيَادِيهَا
مَنَاقِبٌ لرسول الله أَيْسَرُهَا	لدى نُبُوَّتِهِ الغراء يَكْفِيهَا

وأما مراكز هَجْن الثلج فكانت تُعْمَر فقط في أَوَان نقل الثلج من دمشق إلى قلعة الجبل، وهذه المصلحة متأخرة الإنشاء عن مصلحة سفن الثلج، فإن الثلج كان يُحْمَل في البحر خاصة إلى مصر من الثغور الشامية إلى دمياط في البحر، ثم يُخْرَج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق، فيُنْقَل منه على البغال السلطانية، ويُحْمَل إلى الشرابخانة الشريفة، ويُخَزَّن في صهريج أُعِدَّ له، ثم صار يُحْمَل في البر والبحر، وكانت مدة ترتيب حَمْلِه من حزيران إلى آخر تشرين الثاني، وعِدَّة نَقَلَاته في البر إحدى وسبعون نَقْلة متفاوتة مُدَةُ ما بينها، بل ربما زاد على ذلك، وكان يُجَهَّزُ لكل نقْلة بريديٌّ يَتَدَرَّكُه ويجهز معه بالسلاح،

وكان المرتب لكل مركز ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان، وكانت المراكز البريدية مُرَتَّبَة في المسافات من مملكة الشام إلى مصر، والكلفة على مال مصر.

وأما عدة المراكب المسفرة به في البحر فكانت في أيام الملك الظاهر ثلاثة مراكب في السنة، ثم أَخَذَتْ بعد ذلك في الزيادة إلى أن بلغت أحد عشر مركبًا من مملكتي الشام وطرابلس، ثم صارت من السبعة إلى الثمانية، وإذا سُفِّرَت المراكب من البلاد الشامية سُفِّر معها مَنْ يَتَدَرَّكُها مع الملاحين، ولا يَصِل الثلج مُتَوَفِّرًا إلا إذا أُخِذَ من الثلج المجلد، واحْتُرِزَ عليه من الهواء، فإنه أَسْرَع إذابة له من الماء، ومنذ تَرَتَّبَ من الثلج ما يُحْمَل بَرًّا على ظهور الهجن اسْتَقَرَّ منه خاص المشروب؛ لأنه يصل أَنْظَف وآمن عاقبة، لا سيما وأن المُسَفَّرين به يأخذون الجشني منه بحضور أمير مجلس وناظر الشرابخانة السلطانية وخزانها، وكان المنقول في البحر لسوى ذلك، وكان للحاضرين بالثلج من الخلع والإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة.

وأما المناور فكانت مواضع مُعَدَّة لرفع النار في الليل والدخان في النهار؛ للإعلام بحركات التتار إذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لإغارة، وقد أُرْصِدَ في كل منور ما يَلْزَم من المراقبين والنظارة؛ لرؤية ما وراءهم وإراءة ما أمامهم، وكان لهم على ذلك جوامك مُقَرَّرَة كانت لا تزال دارة، وكانت المناور المذكورة على رءوس الجبال وفي الأبنية العالية ومواضعها معروفة، وكانت من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة إلى ديوان السلطان بقلعة الجبل، حتى إن المُتَجَدِّد بُكْرَة بالعراق كان يُعْلَم به عشاء بمصر، والمُتَجَدِّد به عشاء كان يُعْلَم به بُكْرَة، وكانت تأتي أخبار لسان التتار على الجناح والبريد، وهذه المناور في الدولة السلطانية الأخيرة لها شَبَه بما صنعته في الأحقاب الخالية دلوكة العجوز ملكة مصر، التي تَوَلَّتْ على مصر بعد إغراق فرعون وإشراف أهل مصر، فبَنَتْ جدارًا أحاطَتْ به على جميع أرض مصر كلها من مزارع ومدائن وقُرًى، وجَعَلَتْ دونه خليجًا يجري فيه الماء، وأقامت القناطر والخلجان، وجَعَلَتْ في ذلك الجدار محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال مَحْرَس ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجَعَلَتْ على كل مَحْرَس رجالًا، وأَجْرَتْ عليهم الأرزاق، وأَمَرَتْهُم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم آتٍ يخافونه ضَرَبَ بعضهم إلى بعض الأجراس، فيأتيهم الخبر مِنْ أي وجْهٍ كان في ساعة واحدة فينظروا في ذلك، فمُنِعَتْ بذلك مِصْر ممن يَطْمَعُ فيها ويَمُدُّ عَيْنَه إليها، وفَرَغَتْ من بناء ذلك الجدار في ستة أشهر، فكانت فِكْرَتُها في ذلك لا بأس بها في ذلك الوقت.

وأما المُحْرَقات فكان الاهتمام بها أَوَّل كل شيء، وهي مواضع مما يلي بلاد سلطنة مصر والشام من حد الشرق، داخلة في تلك المملكة، فكان يُخْشَى من مجاوريها من الأعداء

مباغَتَة الأطراف ومهاجَمة الثغور كجهة بلاد الموصل وبلاد الأكراد، فكان يُجَهِّز رجال لتحرق زَرْعها ونباتها، حيث هي أرض مُخْصِبَة كانت تقوم بكفاية خَيْل المغيرين مَرْعًى إذا قصدوا البلاد، فكان في حَرْقها إضعافهم وإقعاد حركاتهم؛ إذ كان من عاداتهم أن لا يتكلفوا علوفة لخيلهم، بل يَكِلُوها إلى ما يَنْبُت من الأرض، فإذا كانت مُخْصِبَة سَلَكُوها، أو مُجْدِبَة تَجَنَّبُوها، وكان يُنْفَق في هذه المُحْرَقات في كل سنة من خزينة دمشق جُمْلَة من الأموال، ويُجَهِّز منها لذلك شجعان الرجال، وكان شأنهم في الإحراق اسْتِصْحَاب الثعالب الوحشية والكلاب المستنفرة، ثم يَكْمُن المجَهَّزون لذلك عند أمناء النصاح وفي كهوف الجبال وبطون الأودية، وتمضي الأيام حتى يكون يوم ريح عاصف وهَوَاؤُه زعزع فتُعَلَّق النار مُوثَقَة في أَذْنَاب الثعالب والكلاب، ثم تُطْلَق الثعالب والكلاب في أثرها وقد جُوِّعَتْ، فتَجِدُّ الثعالب في الهرب والكلاب في الطلب، فتَحْرِق ما مَرَّتْ به وتعلق الريح النار منه فيما جَاوَرَه، ويضاف هذا إلى ما كانَتْ تُلْقِيه الرجال بأيديها في الليالي المُظْلِمة وعشايا الأيام المُعْتِمَة، وكان يُسْتَثْنَى من ذلك أرض الجبال التي هي بَلَد البقية القادرية من ولد شيخ الإسلام عبد القادر الجيلي، فكانت ذُرِّيَّته مُعَظَّمة عند الأكابر والملوك؛ لِقَدِيم سَلَفِهم وصميم شَرَفِهم، ولما كان الإسلام وأهله من أسعافهم بما تصل إليه القدرة ويبلغه الإمكان.

فمن هذا كله يُفْهَم أن مَنْ تَوَلَّى مصر من الملوك والسلاطين كان يُجَدِّد فيها بِقَدْر استطاعته من المنافع ما يَظُنُّه لازمًا لسعادتها، فأول مُسْعِد لمصر مَنْ دَبَّرَ أَمْرَ النيل بالمقياس، وصَعِد إلى مَنْبَعِه ومَسِيلِه، ودَبَّر وزْن الماء والأرض بمصر، ورَسَمَ التعاليم، وبنى القناطر، وأَصْلَحَ مَجْرَى النيل من جبال الحبشة إلى مصر، ولا زالت المنافع تتزايد ثم تتناقص على حسب صروف الدهر والعصور إلى أن توازنت الأحوال في جميع الممالك والمسالك بحركة عمومية، وأسباب بلغت درجة الأهمية، ودواعٍ دَعَتْ إلى أنه يَجِبَ على كل مملكة أن تَضْرِب في الاجتهاد بسهم ونصيب، وإلا أصابها سَهْم غيرها إذا قَصَّرَتْ في أن تَجْتَهِد وتُصِيب، فعلى الملة العاقلة أن تَتَشَبَّثَ بأسباب الغنى لِتَحْظَى في أيام مُلْكِها العادل بِبُلُوغ المنى.

(راجع الفصل الأول والفصل الثاني من الباب الأول من هذا الكتاب).

فلا شَكَّ أن الغنى حِلْيَة تَحَلَّى بها أغنياء الأنبياء؛ كداود وسليمان ويوسف وإبراهيم وموسى وشعيب، على نَبِيِّنَا وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وكثير من الصحابة والتابعين كانوا من الغنى في روضة غَنَّاء، وكان النبي ﷺ يُوصَف بالغنى بدليل قوله جَلَّ من

قائل: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، فقد امْتَنَّ الله سبحانه وتعالى على نبيه بإغنائه عن فَقْر، كما هو صريح الآية، فهو غني وإن كان في كيفية الإغناء وجوه عند المفسرين؛ فمنهم من قال: إن الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب، ولما اخْتَلَّتْ أحوال أبي طالب أغناه بمال خديجة، ولما اخْتَلَّ ذلك أغناه بمال أبي بكر، ولما اخْتَلَّ ذلك أَمَرَهُ بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أَمَرَهُ بالجهاد وأغناه بالغنائم.

ورُوِيَ: «أنه عليه السلام دَخَلَ على خديجة وهو مغموم، فقالت له: ما لَكَ؟ فقال: الزمان زمان قَحْط، فإن أنا بَذَلْت المال يَنْفَد مَالُكِ، فأستحي منك، وإن أنا لم أَبْذُل أخاف الله، فَدَعَتْ خديجة قُرَيْشًا وفيهم الصِّدِّيق رضي الله عنه، قال الصِّدِّيق: فأَخْرَجَتْ دنانير وصَبَّتْهَا حتى بَلَغَتْ مَبْلَغًا لم يَقَع بصري على من كان جالسًا قدامي لكثرة المال، ثم قالت: اشهدوا أن هذا المال مَالُه إن شاء فَرَّقَه وإن شاء أَمْسَكَه»، ومن المفسرين مَنْ قال: «أغناه بأصحابه؛ كانوا يعبدون الله سرًّا حتى قال عُمَر حين أسلم: أَنَعْبُد اللات جهرًا ونَعْبُد الله سِرًّا؟! فقال عليه الصلاة والسلام: حتى تَكْثُر الأصحاب، فقال: حَسْبُك الله وأنا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأغناه الله بمال أبي بكر، وبهيبة عمر.» ومنهم من قال في التفسير: «أغناك بالقناعة، فَصِرْتَ بحالٍ يستوي عندك الحَجَر والذَّهَب، لا تَجِدُ في قلبك سِوَى رَبِّكَ، فربك غني عن الأشياء لا بها، وأنت بقناعتك اسْتَغْنَيْتَ عن الأشياء، وإن الغني الأعلى الغني عن الشيء لا بِهِ.» وهذا المعنى الأخير ما أشار إليه البوصيري في قوله:

ورَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ ... عَنْ نَفْسِهِ فأراها أَيَّمَا شَمَمِ

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها ضَرُورَتُهُ ... إن الضرورة لا تَعْدُو على العُصُمِ

أي: طلبت الجبال العالية أن تصير ذهبًا له ﷺ فارتفع عنها ارتفاعًا معنويًّا أعلى وأرفع من ارتفاعها الحسي، وذلك بالإعراض عنها الإعراض الكلي، وعدم الالتفات إلى جهتها، كما أَمَرَهُ ربه سبحانه وتعالى في قوله جَلَّ مِنْ قَائِل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تَنْظُر نظرًا طويلًا إلى ما مَتَّعْنَا به المذكورين؛ استحسانًا للمنظور إليه، وإعجابًا به، كما فَعَلَ نَظَّارَة قارون حيث قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع؛ نهى الله سبحانه وتعالى رسوله، ومن المعلوم أن النَّهْيَ له نَهْي لِأُمَّتِهِ، وقيل: إن الذي نُهِيَ عنه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ليس هو النظر، بل هو الأسف؛ أي: لا تَأْسَف على ما فَاتَكَ مما نالوه من حَظِّ الدنيا؛ لأنك غَنِيٌّ عنها بربك حيث هي غير ممدوحة، والدنيا إذا كانت ممدوحة فإنما يكون مَدْحُها باعتبار أنها وَصْلَة لدار القرار؛ ولذلك قال بعضهم وأجاد:

لا تُتْبِعِ الدنيا وأَيَّامَهَا ذمًّا وإنْ دَارَتْ بِكَ الدائِرَهْ
مِنْ شَرَفِ الدنيا ومِنْ فَضْلِهَا أَنَّ بِهَا تُسْتَدْرَكُ الآخِرَهْ

فكيف يُذَمُّ مُطْلَق الغنى وهو وَصْف الله سبحانه وتعالى وَلِنَبِيِّه عليه الصلاة والسلام؟! فهو ممدوح شَرْعًا، فلا بأس أن يتشبث بالوصف به المُلوك والرعايا.

وأقل مزايا غنى الحكومة المصرية أنه لما قَصُرَتْ بلادها عَقِب آفات قسرية كموت المواشي وقلة المحصول، وعَزَّ على الأهالي تحصيلها إلا بالأثمان الغالية من البلاد الأجنبية، ولا يتيسر لكل إنسان جَلْبُها؛ استجلبها الخديو الأكرم بنفوذ يسار الحكومة بالأثمان اللائقة، وصار التوسيع بذلك على الأهالي، فكان كما قيل:

فتًى كَسَمَاء الغيث والناس حَوْلَه إذا أَجْدَبُوا جادَتْ عليهم سَحَائِبُه

ولَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قال:

فلا مَجْدَ في الدنيا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ولا مال في الدنيا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فكم له من جدوى على الأوطان في قضاء أوطار، وكم اسْتُمِدَّت الرعايا في هذه الأعصار، استمداد الجداول من البحار، مما تَعْجَز العقول عن فَهْم كُنْهِه، وعن حَقِّ أداء الشكر على الإنعام به، فقد أَنْجَزَ الله لمصر ما قَدَّرَه لها من السعادة، وأَبْرَزَ في حيز الوجود ما كَتَبَهُ لها من الحسنى وزيادة:

وإذا السعادة لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا نَمْ فالمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ
واصْطَدْ بِهَا العنقاء فهْيَ حَبَائِلٌ واقْتَد بها الجوزاء فَهْيَ عَنَانُ

ومع أن كل قسم من أقسام الدنيا له كوكب من الممالك في أُفُقِهِ مُشْرِقٌ؛ فمِصْرُنَا بأعلى منارها كوكب قسم أفريقيا وشَمْسُ أُفُقِ المشرق، فقد كُسِيَتْ في هذا العهد حُلَّة المهابة والنباهة، وخَرَجَ أهلها بصقال البراعة واليراعة عن لُكْنَة القصور والفهاهة، واكْتَسَبَت الفنون والمنافع حتى صارت تَرْنُو إليها الأبصار، وتُومِي إليها الأصابع، وبتوفيق الله تعالى تَمَسَّكَ أهلها بالآية الشريفة التي العمل بها من الفرض وهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: من التجارة والزراعة، فسياسة الحكومة الحالية الالتفات إلى جذب النفوس إلى هذه المنافع العمومية من أعجب التأثيرات المصرية، وفي الحقيقة:

لولا السياسة ما قَامَتْ لَنَا سُبُلٌ وكان أَضْعَفُنَا نَهْبًا لأَقْوَانَا

فمدار انتظام العالم على السياسة، وهي خمسة أقسام:

الأول: السياسة النبوية، والله يختص بها من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وهو الذي يَهْدِي لاتباعهم مَنْ يَشَاء مِنْ فَضْله بسابق السعادة، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، قال سيدي محمد وفا:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أن وَصْلَكَ يُشْتَرَى بكرائم الأموال والأشباحِ
وظَنَنْتُ جَهْلًا أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ تُفْنَى عليه نفائسُ الأرواحِ
حتى وَجَدْتُكَ تَجْتَبِي وتَخُصَّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ بلطائف الأمناحِ
فجَعَلْتُ في عشقِ الغرامِ إقامتي وَلَوَيْتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَاحِي

الثاني: السياسة الملوكية، وهي حفظ الشريعة على الأمة، وإحياء السُّنَّة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

الثالث: السياسة العامة، وهي الرياسة على الجماعات؛ كرياسة الأمراء على البلدان، أو على الجيوش، وترتيب أحوالهم على ما يجب من إصلاح الأمور وإتقان التدبير، والنظر في الضبط والربط والحسبة.

الرابع: السياسة المنزلية، وهي معرفة كل إنسان حَالَ نَفْسِه، وتدبير أَمْر بَيْتِه وما يتعلق به، وقضاء حقوق إخوانه شَرْعًا وفتوة وعُرْفًا، كما قال من يَمِيلُ بِطَبْعِه إلى حُبِّ المعروف:

إني لَأَهْوَى أن أَكُونَ لِصَاحِبِي غَيْثًا وغَوْثًا في النَّدَا والبَاسِ
وإذا اكْتَسَى ثَوْبًا جميلًا لَمْ أَقُلْ يا لَيْتَ هذا الثوبَ كان لِبَاسِي

وهذه السياسة في الغالب لا يُحْسِنُهَا إلا أَشْرَاف الناس، كما قيل:

لَعَمْرُكَ ما الأشراف في كل بلدة وإن عَظُمُوا إلا لِفَضْل صَنَائِعِ

الخامس: السياسة الذاتية، وهي تَفَقُّد الإنسان أَفْعَالَه وأحوالَه وأقوالَه وأخلاقَه وشَهْوَتَه، وزَمُّها بزمام عَقْلِه، فإن المرء حكيمُ نَفْسه، وبعضُهُم يُسَمِّيها بالسياسة البدنية، قال الشاعر:

تَعَلَّمْتُ فِعْلَ الخير مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ وهَذَّبَ نَفْسي فِعْلُهُم باختلافِهِ
أرى ما يَسُوءُ النفسَ مِنْ فِعْلِ جَاهِلٍ فآخُذُ في تأديبها بِخِلافِهِ

وما أَحْرَى من الملوك من يتمسك بهذه السياسات الخمسة؛ لينزه بها وَطَنَه عن النقائص، ويُحَلِّي بها نفسه؛ لأن تفاضل الأنفس إنما هو بقدر تحصيلها من الفضائل التي يَظْهَر بها التفاوت في القيم، وذلك بمقدار تَرَافُع الهمم، والكَيِّس من يُنَافِس في تحصيل النفيس والأنفس؛ ليتوصل إلى درجة الكمال فيما هو أَصْون لِحِفْظ الناموس وأَحْرص.

مَنْ يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ أعلى رُتْبَةٍ ما بَالُه يَرْضَى بأَدْنَى مَنْزِلِ؟

ومن العار على كامل التمييز أن يَطْلُبَ رُتْبَة دون الرتبة القصوى، وأن يُقَصِّرَ عن الوصول إلى وصال سُعْدَى وعُلْوَى، وأما قول الشاعر:

والنفْسُ رَاغِبَةٌ إذَا رَغَّبْتَهَا وإذا تُرَدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فهو قَوْل من يقنع بالدُّونِ، ويرضى بصفقة المغبون، وما أَحْسَنَ ما قالَه بَعْضُهم:

إن الغِنَى كَشِهَابٍ كلما اعْتَكَرَتْ دُجَى الكُرُوبِ جَلَا عَنْهَا حَنَادِسَهَا
لا تَنْفَعُ الخمسة الأسماء مُحْدِقَةً لَدَيْكَ إلا إذا مَا كُنْتَ سَادِسَهَا

والمراد من الأسماء الخمسة: أبوك، وأخوك، وحموك المُرْتَجَى نَفْعُهُم ونَجْدَتُهُم عند الشدائد، وهنوك وهو كناية عن الشيء، وفوك وهو الفم، والمراد: الفصاحة والبلاغة، وسادس الأسماء ذو مال وهو سيدها، فذو المال أَقْرَب لاكتساب المعالي لذويه ولوطنه، وأن يُقَلِّدَه قَوْمه ويَتْبَعُوه في ذلك:

تَنَاهَضَ القوم لِلْمَعَالِي لَمَّا رَأَوْا نَحْوَهَا نُهُوضِي

فكل ما يتمناه المتمني بلسان الاستعداد، وشهادة الاستحسان والرشاد من المراتب الباهية، والمناصب الزاهية، والمقاصد السَّنِية، والموارد الهنية، والعدة والجاه بَلَغَ فيه رجاه، فمطمح نظر مصر الآن التبصر في تكميل وسائل التمدن والتمصر من باب إحسان العمل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وقال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» فمباشرة الأسباب مَظَنَّة الإنجاب؛ ولذلك أوصى بعض الصلحاء بعض أرباب الفلاحة بقوله: لا تَدَعْ غَرْسَ أَرْضِكَ وإن سَمِعْتَ بخروج الدجال، فالأسباب لا تُنْكَر، وقال داود البصير — بمناسبة ذِكْر الأسباب: إن قيل: إذا كان الطب حافظًا للصحة دافعًا للمرض؛ فالواجب البقاء وعَدَم اختلال البنية خصوصًا مِنْ نَفْس الطبيب، ونحن نرى الحكماء فَضْلًا عن غيرهم يَمْرَضُون ويموتون، فلا فائدة حينئذ في الطب؟ قلنا: ليس على الطبيب مَنْعُ الموت والهرم، ولا تبليغ الأجل المُطَوَّل، ولا حِفْظ الشباب؛ لِعَدَم قُدْرَتِهِ على ضبط ما ليس إليه أَمْرُهُ؛ كتغيير الهواء وَوُرُودِه في الأغذية من حيوان وغيره، ومشقة الاحتراز في تعديل أمور المأكل والمشرب وغَيْرها، وعَدَم إمكان جَلْب الفصول على طبائعها الأصلية، فقد يَنْقَلِب كل منها إلى الآخر، وإنما عليه إصلاح ما أَمْكَنَ مِنْ دَفْع طَارِئ مُنَافٍ، وحِفْظ صحة إلى الأجل المعلوم، «فإن قيل»: موجبات الموت والحياة ولوازمها إما أن تكون بتقدير الصانع إيجابًا وسلبًا، كما هو الحق، أو باقتضاء طَالِع الوقت، وعلى التقديرين ليس للطبيب قُدْرَة على أحدهما، فانْتَفَت الحاجة إليه؟ «قلنا»: لو كان الأمر كذلك لكان الأكل والشرب وسائر ما به القوام مِنْ هذا القبيل فكان يجب

تَرْكُه؛ لأن المُقَدَّر مِنْ بقاء الأجل إن كان بدونها فلا فائدة في تعاطيها، أو بها لَزِمَ ذلك، والكل باطل، بل تقادير عُلِّقَ الأمر عليها كما في محله، فكذا الطب وبه جاءت السُّنَّة عن أرباب النواميس، فقد قال ﷺ: «تداوُوا، فإن الذي أَنْزَلَ الداء أَنْزَلَ الدواء، وما من داءٍ إلا له دواء» إلى غير ذلك، فقيل له: أَيَدْفَع الدواءُ القَدَرَ؟ فقال ﷺ: «الدواء من القدر.»

ونتيجة هذه المسألة أن مباشرة الأسباب من هذا القبيل، والتشبث بتصحيح الأعمال، تطييب للنفس وتعليل، والملوك في الظاهر حكام، وفي الباطن حكماء، يقال: إنه كان بَيْنَ يدي الإسكندر كُرَة مُثَمَّنَة من الذهب، وَضَعَهَا له الحكيم أرسطاطاليس، على كل جهة منها كلمة سياسية، تَتَعَلَّق كل واحدة بالأخرى؛ لتكون بَيْن يديه يُقَلِّبُها في حركاته ويَعْمَل بما فيها، وهي: هذه العالَم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان يَحْفَظُهَا السُّنَّة، السُّنَّة شريعة يَحُوطُها الملك، الملك راعٍ يُعَضِّدُه الجند، الجند أعوان يكلفهم المال، المال رِزْق تَجْمَعُه الرعية، الرعية خدام يَتَعَبَّدُهم العدل، العدل مألوف وبه صلاح العالم، فحقيق لمن قَلَّدَهُ الله أَمْر عباده وبلاده أن يَعْطِف عليهم، ويَعْدِل فيهم، ويُنْصِف ضعيفهم مِنْ قَوِيِّهم، ويساوي في الحق بين شريفهم ومشروفهم، ويبتدي أولًا بالإنصاف من نَفْسِه ووَلَدِه وأَهْلِه وخاصته، فالناس على دين الملك كما قيل؛ بمعنى: أنهم يَتْبَعُونَهُ في أحواله وأفعاله؛ ولذلك لما قَدِمَ بُرَيْد من الشام على عمر بن عبد العزيز، فقال له: كيف تَرَكْتَ الشام؟ قال: تَرَكْتُ ظالمهم مقهورًا، ومظلومهم منصورًا، وغنيهم موفورًا، وفقيرهم محبورًا؛ «أي: مسرورًا»، قال عمر: الله أكبر، لو كانت لا تَتِمُّ خصلة من هذه إلا بفقد عُضْوٍ من أعضائي لكان ذلك يسيرًا.

وبالجملة: فالسعي في أداء الحقوق الوطنية مِنْحَة إلهية، يَمْنَحُها الله سبحانه وتعالى من يصطفيه مِنْ خَلْقِه، فإنها مَرْتَبة جسيمة ونعمة وفية عظيمة، فيجب علينا أن نُقَيِّدَها بشكر المولى سبحانه وتعالى على إنعامه بها علينا، ولقد كان السلف الصالح كالفضيل بن عياض، والإمام أحمد بن حنبل، وغيرهما، يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لولي الأمر؛ لأن في صلاحه صلاح المسلمين، أَصْلَحَ الله حال مَلِكِنَا وسلطاننا وسائر الملوك والسلاطين آمين:

وهـذا دعـاء لا يُـرَدُّ لأنـه ... يُزَانُ به كُلُّ الورى والممالِكُ
تَـرَاهُ بـلا شـك أُجِيبَ لِأَنَّـهُ ... إذا ما دَعَوْنَا أَمَّنَتْهُ المَلَائِكُ

وسيأتي بسط الكلام على سياسة ولاة الأمور في الخاتمة.

خاتمة

وهي إن شاء الله تعالى حَسَنَة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة؛ وفيها أربعة فصول

وذلك لأن أهل الوطن أربع طبقات: فالطبقة الأولى: ولاة الأمور، والطبقة الثانية: طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدِّين، والطبقة الثالثة: الغزاة، والطبقة الرابعة: أهل الزراعة والتجارة والصناعة؛ فلهذا كانت الخاتمة مُرَتَّبَةً على أربعة فصول.

الفصل الأول

في ولاة الأمور

وظيفة وُلَاة الأمور من أعظم واجبات الدين، وأهم أمور المتوطنين، فهم قوام الدين والدنيا، وعليهم في حركة الأعمال مدار البركة العليا، وبدونهم يَخْتَلُّ نظام العالم لوجود المفسدين من بني آدم، فلولا وَلِيُّ الأمر لَمَا قَدَرَ العالِم على نَشْرِ عِلْمِه، ولا الحاكم الشرعي والسياسي على تنفيذ حُكْمِه، ولا العابد على عبادته، ولا الصانع على صناعته، ولا التاجر على تجارته، ولولاهم لانقطَعَت السبل، وتمَطَّلَت الثغور، وكَثُرَت الفتن والشرور، ولولا رَدْع الملوك لتغالبَت الناس وتهَارَجَتْ، وطَمِعَ بعضهم في بعض، واستولى الأقوياء على الضعفاء، وتَمَكَّنَ الأشرار من الأخيار، فيُضْطَرُّونَ إلى التشرد والتفرد، وفي ذلك خراب البلاد وفناء العباد، فالمَلِك كالرو ح والرعية كالجَسَد، ولا قوام للجسد إلا بِرُوحه، ولكن مِنْ لُطْف الله تعالى بعباده أنه أجرى عادته في كل زمان أن يُنَصَّب في الأرض من يَنْصِف المظلوم من الظالم، ويَرْدَع أهل الفساد عن المظالم، ويَصْنَع للرعية جميع المصالح، ويُقَابِل كل أحد بما يَسْتَحِقُّه من صالح وطالح.

فقد اسْتَبَان من هذا احتياج الانتظام العمراني إلى قوتين عظيمتين: إحداهما: القوة الحاكمة، الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد، وثانيهما: القوة المحكومة، وهي القوة الأهلية المُحْرِزَة لكمال الحرية، المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ووجود كَسْبِه وتحصيل سعادته دنيا وأُخْرَى، فالقوة الحاكمة العمومية وما يَتَفَرَّع عليها تُسَمَّى أيضًا: بالحكومة وبالمَلَكِيَّة، هي أَمْر مركزي تَنْبَعِث منه ثلاثة أشعة قوية،

تُسَمَّى: أركان الحكومة وقُوَاها، فالقوة الأولى قوة تقنين القوانين وتنظيمها، وترجيح ما يجري عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية، الثانية قوة القضاء وفَصْل الحُكْم، الثالثة قوة التنفيذ للأحكام بعد حُكْم القضاة بها، فهذه القوى الثلاثة ترجع إلى قوة واحدة، وهي القوة الملوكية المشروطة بالقوانين؛ لأن القوة القضائية إنما هي في نفس الأمر راجعة للمَلِك؛ لأن القضاة نُوَّاب وَلِيِّ الأمر على المحاكم ومأذونون منه، فهو الذي يُقَلِّد القضاة بالولايات القضائية وحُكَّام المجالس؛ أي: قضاتهم بالأحكام الشرعية أو السياسية الشرعية، ويَنْتَخِب لكل ولاية قضائية أو مجلس مَنْ يَرَى فيه الأهلية لذلك على مُوجِب أصول المملكة المرعية.

فالقضاء في الحقيقة من حقوق ولاة الأمور، والقضاة خلفاؤهم في مباشرته؛ ولذلك كانت أحكام القضاة التي على طِبْق الشرع لا تُنْقَض؛ لاعتبار إِذْن ولي الأمر بها ضِمْنًا من حيث فَصْل الحكم، فرَجَعَتْ هذه القوة إلى الملك، وكذلك قوة تنفيذ الأحكام بعد قَطْع الحكم فيها، فإنها حَقٌّ خاص بولي الأمر من أَوَّل وهلة، لا يُشارِكُه فيه غَيْره، كما أنه هو الذي يُنْسَب إليه تقنين القوانين حيث يَتَوَقَّفُ على أوامره تَنْظِيمُها وترتيبها وإجراءُ العمل بموجبها، فقد انْحَصَرَتْ فيه القوى الثلاثة التي هي أركان القوة الحاكمة.

ثم إن الأصول والأحكام التي بها إدارة المملكة تُسَمَّى: فن السياسة المَلَكِيَّة، وتُسَمَّى: فن الإدارة، وتُسَمَّى أيضًا: عِلْم تدبير المملكة ونحو ذلك، والبحث في هذا العلم، ودوران الألسن فيه والتحدث به، والمنادَمة عليه في المَجَالِس والمَحَافِل والخوض فيه في الغازيتات، كل ذلك يُسَمَّى: بوليتيقة؛ أي: سياسة، ويُنْسَب إليه فيُقال: بوليتيقي؛ أي: سياسي، فالبوليتيقة هي كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها، فَقَد جَرَت العَادة في البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف في البلاد الإسلامية، وكتب الأديان في غيرها قَبْل تعليم الصنائع، وهذا لا بأس به في حَدِّ ذاته، ومع ذلك فمبادئ العلوم المَلَكِيَّة السياسية التي هي قوة حاكمة عمومية وفروعها مُهْمَلَة في الممالك والقرى بالنسبة لأبناء الأهالي، مع أن تعليمها أيضًا لهم مما يُنَاسِب المَصلحة العمومية، فما المانع من أن يكون في كل دائرة بلدية مُعَلِّم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادئ العربية مبادئ الأمور السياسية والإدارية، ويوقفهم على نتائجها، وهو فَهْم أسرار المنافع العمومية التي تعود على الجمعية، وعلى سائر الرعية؛ من حسن الإدارة والسياسة والرعاية في مقابلة ما تعطيه الرعية من الأموال والرجال للحكومة، ويفيدهم أسباب إيجاب الحكومة على الأهالي أن تَخْدُم وَطَنَها بنفسها خدمة شخصية في العسكرية،

وأسباب إلزام الأهالي بدفع حصة مُخَصَّصة من أموالهم بوصف خراج أو ويركو أو عوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة في الدول الإسلامية مقام الزكاة المُعَطَّلة، وكذلك لِيَعْرِف الأهالي أسباب إيجاب الحكومة عليهم أن يتنازلوا عن شيء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة لذلك للمَصْلَحة العمومية؛ كتوسيع الطرق، وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية، فإذا ارْتَكَزَ في أذهان الصبيان مِنْ زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها، وفَهِمُوا الأسباب والمُسَبِّبَات؛ سَهُلَ عليهم عند بلوغ الرشد والوصول إلى كمال الرجولية إجراء مفعولها، وهل هذا التعليم إلا إيقاف أهل الوطن على مَعْرِفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لأملاكهم وأموالهم ومنافعهم، وما لهم وما عليهم؛ محافَظةً على حقوقهم، ودَفْعًا للتعدي عليها، فاللائق أن يكون بكل ناحية مُعَلِّم لمبادئ الإدارة ومَنَافِع الجمعية العمومية في مقابلة ما تَدْفَعُه الجمعية للحكومة، فإن هذا التعليم — مع تقديمه للشخص المتعلم — له تأثير مَعْنَوِيٌّ في تهذيب الأخلاق، ومنه تَفْهَمُ الأهالي أنَّ مَصَالِحَهُم الخصوصية الشخصية لا تَتِمُّ ولا تَتَنَجَّزُ إلا بتحقيق المصلحة العمومية التي هي مصلحة الحكومة، وهي مصلحة الوطن، فتُذْعِنُ نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست في حد ذاتها مضمونةَ الحصول إلا في ضِمْن الفوائد العمومية المذكورة، وأيضًا مما يَقْتَضِي لياقة تعليم مبادي الإدارة بالنواحي: كَوْن قانون الحكومة لا يَمْنَع من جواز استخدام أَحَد من الأهالي، فاستخدامه في المَلَكِيَّة لا سيما مَنْصِب المشيخة البلدية كما سيأتي ذِكْرُه يَسْتَدْعِي سَبْق مَعْرِفة بأصولها، وإلا تَرَتَّب على استخدام الجاهل بها من السقامة ما لا يَخْفى، وإنما العلم بالتعلم لا سيما أيضًا مع تجديد جمعيات الانتخاب ومجالس النواب.

وكان المانع لتَعَلُّم البوليتيقة والسياسة في الأزمان السابقة ما تَشَبَّثَ به رؤساء الحكومات مِنْ قولهم: إن السياسة من أسرار الحكومة المَلَكِيَّة، لا ينبغي عِلْمُها إلا لرؤساء الدولة ونُظَّار الدواوين، مع كَوْن لَفْظ البوليتيقة كان معروفًا أَيْضًا بمعنًى آخَرَ، وهو الحيلة والخداع والتدبير، مما لا يليق إلا بالمملكة الجائرة، وفي هذه الأيام جميع الأحكام المَلَكِيَّة مُؤَسَّسَة على العدل والأمانة وخلوص النية المُتَقَوِّم منها الحق — وهو أَبْيض أَبْلج — لا يَنْبَنِي إلا على الإخلاص في القول والعمل وحُسْن العلاقات بين الراعي والرعية، مما يَغْرِس المحبة والمودة في قَلْب المَلِك ورعاياه؛ بسبب اتباعه الأصول المربوطة، وسَيْره على السَّنَن القويم حسب أحكام المملكة المشروطة، وهي غير مكتومة، ومن المعلوم أن المَلِك الذي يُحِبُّ رعاياه يُحِبُّ تَقَدُّمَهم في المناصب المَلَكِيَّة؛ للاستعانة بآرائهم التي هي في حَقِّه

ضرورية، فهو أَحَقُّ باصطفاء رجاله منه باصطفاء أمواله؛ لأنه مع استبداده بالنهي والأمر وسُمُوِّ المقام وجلالة القدر لا يكتفي بالوحدة، ولا يَسْتَغْنِي عن الكثرة، فمَثَلُه كمَثَل المسافر في الطريق البعيد يجب أن تكون عنايته بِفَرَسِه المجنوب كعنايته بفَرَسِه المركوب، ومَنْ أَحَبَّ المقاصد والنتائج سَهَّل الوسائل والمقدمات.

وأيضًا من البديهي أن للإنسان حقوقًا وعليه واجبات، فطَلَبُه لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الأكمل يقتضيان مَعْرِفَة الحقوق والواجبات، ومَعْرِفَتُهما متوقفة على فَهْمِهما، وفَهْمُهما عبارة عن معرفة قوانين الحكومة التي هي السياسة، فالذي لا يريد خدامة الحكومة هو أيضًا مثل المستخدم فيها لمعرفة قوانينها.

وقد تَجَدَّدَ في مديريات مصر في هذا العهد الأخير مبادئ ما أشرنا إليه، وهو صدور الأوامر الخديوية بِجَلْب مَنْ يَرْغَب من أبناء العمد ووجوه الناس إلى دواوين المديريات؛ ليتَمَرَّنوا على تعليم الأحكام والإدارة؛ لتوظيفهم فيما بَعْد في الوظائف الإدارية، ونَفْعِهم كمال النفع للحكومة، قال الشاعر:

وكاذب الصبح يَبْدُو قَبْلَ صادِقِه وَأَوَّل الغيث قَطْر ثم يَنْهَمِلُ

وقال آخر:

رُبَّ قَلِيلٍ غَدَا كَثِيرًا كَمْ مَطَرٍ بَدْؤُه مَطِيرُ

ثم إن الحكومة التي عَبَّرْنا عنها فيما سَبَق بالقوة الحاكمة هي من مقولة النسب، والإضافات تقتضي حاكمًا ومحكومًا؛ يعني: مَلِكًا ورعية، فلا يُفْهَم المَلِك إلا بالرعية، ولا تُفْهَم الرعية إلا بالمَلِك، كالأبُوَّة والبُنُوَّة؛ فلهذا وَجَبَ أن نُبَيِّن كُلًّا مِنْهُما مع ما يَتَعَلَّق به، ونبتدئ بولاة الأمور، فنقول: وَلِيُّ الأمر هو رئيس أُمَّتِه، وصاحب النفوذ الأول في دَوْلَتِه، وحاكِم مُتَصَرِّف بالأصول المرعية في مَمْلَكته، ولا توجد رَعِيَّة في مَمْلكة مُنْتَظِمة بدون راعٍ وإلا ضَعُفَتْ واخْتَلَّتْ، وشَقِيَ أَهْلُها لِعَدَم مَنْ يَسْعَى في إسعادهم بتحسين شئونهم.

وقد تَأَسَّسَت الممالك لِحِفْظ حقوق الرعايا بالتسوية في الأحكام والحرية، وصيانة النفس والمال والعِرض على مُوجَب أحكام شرعية، وأصول مَضْبُوطة مَرْعِيَّة، فالمَلِك يَتَقَلَّد الحكومة لسياسة رعاياه على مُوجَب القوانين.

ولَمَّا كانت السياسة جسيمة لا يَقُوم بها واحد اخْتُصَّ الملك بمعالي الأحكام وكُلِّيَّاتِها، وخَلَعَ بَعْض نفوذه في جزئيات الأحكام على المَحاكم والمَجالس، وجَعَلَ لهم لوائح وقوانين خصوصية، تُرَشِّد أَفْعَالَهُم ولا يَتَعَدَّوْنَها، قال بَعْضُهم: ليست في الدنيا جمعية مُنْتَظِمة، ولا مَمْلَكة معتدلة الأحكام إلا وتكون القوة فيها بالأصول العدلية، فالأصول العادلة تَصُون ناموس الدولة عن الملامة؛ ولهذا كان جميع ما أمضاه المَلِك السالف من الأحكام، وأجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز؛ لا يسوغ لمن جاء بَعْده أن يَخْدِشه ويُبْطِل أحكامه التي جَرَى مُقْتَضاها.

وهذه القاعدة جارية في سائر الممالك، فحُرْمة الأصول المَلَكِيَّة بصونها عن نَقْص مُجْرَيَاتِهَا راجعة في الحقيقة لِحِفْظ حُرْمَة المَلِك، فإنَّ بَتَّ الحُكْم في عَهْد المَلِك أَثَر نتائج أَفْكَاره أو ثَمَرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه؛ فهو منسوب إلى المنصب الملوكي، فلا يسوغ نَقْضُه، وقد كان المنصب الملوكي في أَوَّلِ الأمر في أكثر الممالك انتخابيًّا بالسواد الأعظم وإجماع الأمة، ولكن لَمَّا تَرَتَّبَ على أَصْل الانتخاب ما لا يُحْصَى من المَفَاسِد والفِتَن والحروب والاختلافات؛ اقْتَضَتْ قاعدةُ كَوْن دَرْء المَفاسد مُقَدَّمًا على جَلْب المصالح اختيارَ التوارُث في الأبناء وولاية العهد على حسب أصول كل مَمْلَكَة بما تَقَرَّر عندها، فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنًا لِحُسْن انتظام المَمَالِك.

ثم إن للملوك في ممالكهم حقوقًا تُسَمَّى بالمزايا، وعليهم واجبات في حَقِّ الرعايا، فمِنْ مزايا المَلِك أنه خليفة الله في أَرْضه، وأن حِسَابَه على رَبِّه، فليس عليه في فِعْلِه مسئولية لِأَحَدٍ من رعاياه، وإنما يُذَكَّرُ — للحُكْم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسات — برِفْق ولين؛ لإخطاره بما عسى أن يكون قد غَفَلَ عنه، مع حُسْن الظن به؛ لقوله ﷺ: «الدين النصيحة، فقلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»، وأيضًا للإنسان في نَفْسه مَحْكمة تُجْري الأحكام على صاحبها، وهي الذمة التي هي النفس اللوامة أو المطمئنة، فهي قاضٍ لا يَقْبَل الرشوة، فإذا فَعَلَ المَلِك كغيره ما لا يُوافَق لِأُمَّتِه عاقَبَتْه نَفْسه؛ لأن نُور الحق يَسْطع في القلب، وإذا فَعَلَ المَلِك ما لا ينبغي فِعْلُه لا تَطْمَئِن نَفْسُه إلى ذلك، ولا يَرْكَن قَلْبُه إليه، ولا يَفْرَح به، وأما فِعْل الخير فتَطْمَئِن إليه النفس، ويَرْكَن إليه القلب، ويَنْشَرِحُ له الصدر.

وبيان ذلك أن القلب مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية، فإن صَدَرَتْ عنه إرادة صالحة تَحَرَّك البدن حركة صالحة، وإن صَدَرَتْ عنه إرادة فاسدة تَحَرَّك البدن حركة فاسدة، فالقلب كالمَلِك والأعضاء كالرعية؛ ولذلك قال أهل السنة والجماعة: إن

العقل في القلب، وله شعاع مُتَّصِل بالدماغ، فالقلب يَطْمَئِن للعمل الصالح طمأنينة تُبَشِّرُه بأمن العاقبة، فصاحِب هذا العمل قَضَى له قاضي الذمة بأنه مُحِقٌّ في عَمَلِه، بخلاف العمل السيئ فإنه يُورِثُ القلب تَنَدُّمًا وحسرة، ويُكْسِبُه ملامة تُنْذِرُه بسوء العاقبة، فصاحب هذا العمل السيئ قَضَى عليه قاضي الذمة بأنه آثِم مُبْطِل في عَمَلِه؛ ولذلك قال ﷺ لوابصة بن مَعْبَد — لما أتاه في وَفْد: «جِئْتَ تَسْأَل عن البِرِّ، البِرُّ ما اطْمَأَنَّتْ إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاكَ في النفس، وتَرَدَّدَ في الصدر، فاسْتَفْتِ نَفْسَك، وإن أفتوك الناس وأفتوك.»

وسَبَبُ ذلك أيضًا أن الله سبحانه وتعالى فَطَرَ عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقَبُولِه، ورَكَزَ في الطباع مَحَبَّته، ومن ثَمَّ وَرَدَ حديث: «كل مولود يُولَد على أَصْل الفطرة»، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهذا يؤيد قَوْلَ بَعْضِهم: إن عَمَلَ القلب إن كان خَيْرًا أو شرًّا كصدى الصوت في الجبل، يَعُودُ على القلب بِرَنَّة الخَيْر أو الشر، وهو معنى قولهم: كاد المرتاب أن يقول: خُذْنِي.

فذمة الملوك كذمة غيرهم، تتأثر بالانبساط من الخير، والانقباض من الشر، فالذمة حَكَم عَدْل، تنفر غالبًا من الظُّلْم والجور، فهي عنوان الخوف من الله تعالى في كَوْنِها تَحْمِل الملوك على العدل، ومما يَحْمِلُهم على العدل أيضًا ويحاسِبُهُم محَاسَبَة معنوية الرأيُ العمومي؛ أي: رأي عُمُوم أهل مَمَالِكِهِمْ أو مَمَالِك غيرهم ممن جَاوَرَهُمْ من الممالك، فإن الملوك يَسْتَحْيُون من اللوم العمومي، فالرأي العمومي سلطان قَاهِر على قلوب الملوك والأكابر، لا يُتَسَاهَل في حُكْمِه، ولا يُهْزَل في قضائه، فويل لِمَنْ نَفَرَتْ منه القلوب، واشْتَهَرَ بين العموم بما يَفْضَحُه من العيوب.

ومما يُحَاسِب الملوك أيضًا على العدل والإحسان التاريخ؛ أي: حكاية وقائعهم لِمَنْ بَعْدَهم مِنْ ذراريهم وخَلَفِهِم من الأجيال الآتية، فإن المؤرخ يَذْكُر للأمة أخبار مُلُوكِها، فيَنْتَقِل مِن العين إلى الأثر، ومن البيان إلى الخبر، فيَبُثُّ مَحَاسِن الملوك ومَثالبهم لأعقابهم لِيَعْتَبِرُوا، فدَأْب الملك العاقل أن يَتَبَصَّر في العواقب، وأن يَسْتَحْضِر في دائم أوقاته وفي حركاته وسكناته أن الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية، وجَعَلَه مَلِكًا عليهم لا مَالِكًا لهم، وراعيًا لهم؛ يعني: ضامنًا لِحُسْن غِذَائِهِم حِسًّا ومَعْنًى لا آكلًا لهم، وأنه تعالى خَصَّه بمزايا جليلة؛ أَوَّلها أنه خليفة الله في أَرْضِه على عباده، وقد أَمَرَ الجميع بالعدل والإحسان وما بَعْدَه، حيث قال جَلَّ مِنْ قائل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، فمأمورية العدل أَوَّلُ واجبات ولاة الأمور، وهو وَضْع الأشياء في مواضعها، وإعطاء كُلِّ

ذي حَقٍّ حَقَّه، والمساواة في الإنصاف بميزان القوانين، وأفضل الأزمنة أزمنة أئمة العدل، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وقال ﷺ: «إن الله يحب العدل»، وقال بَعْض الحُكَماء: إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة فهو بُشْرَى لها بالعز، وعلى السعادة أمارة، فتدبير الملوك أَمْرَ العباد والبلاد بالعدل أَرْفَعُ لِذِكْرِهِم، وأَعْلَى لِقَدْرِهِم، «وسأل» الإسكندر حكماءَ أَهْل بابل: هل الشجاعة عِنْدَكُم أَبْلَغُ أو العدل؟ فقالوا: إذا اسْتَعْمَلْنَا العدل اسْتَغْنَيْنَا عن الشجاعة، فإلى العدل انْتَهَت الرياسة الكاملة والمملكة الفاضلة، ومن مزايا ولاة الأمور أيضًا أن النفوذ الملوكي بِيَدِهِم خاصة لا يشاركهم فيه مشارك، وهذه المزية العظمى تَعُود على الرعية بالفوائد الجسيمة، حيث إن إجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهي بالسرعة؛ لكونه مَنُوطًا بإرادة واحدة بخلاف ما إذا نِيطَ بإرادات مُتَعَدِّدة بِيَد كثيرين، فإنه يكون بطيئًا، وهذا النفوذ الملوكي القضائي غير النفوذ الإجرائي الذي هو مُبَاشَرَة العَمَل، وهو مِنْ خصائص الوزراء ونُظَّار الدواوين وغيرهم، فالنفوذ المُلُوكي هو الترتيب والأمر بالنفوذ الإجرائي لمن يُجْرِيه، فهو حُقٌّ مُحْتَرَم لا مسئولية فيه على المَلِك ولا يكون لغيره، فكيف وهو رئيس المملكة، وأمير الجيوش البرية والبحرية، وقائدهم الأول، وعليه مَدَار الأمور المَلَكِيَّة والعسكرية الداخلية والخارجية، وهو الذي يُقَلِّد المناصب العمومية لمن يَسْتَحِقُّ بإصدار أوامره فيها، ويُرَتِّب الوظائف، ويُنَظِّم اللوائح المُبَيِّنة لطُرُق إجراء الأصول والقوانين، ويأمر بتنفيذ الأحكام الصادرة من ديوانه ومَحَاكِمِه ومَجَالِسه، وله الرياسة على أُمَنَاء دين مملكته، وله الْحَقُّ في أن يَمْنَحَ المناصب والألقاب العالية، وأن يُعْطِيَ عُنْوَان الشرف ونِيشَانَه؟

وإذا أَمَرَ المَجَالِس بتنظيم لوائح فإنها لا يَجْرِي مفعولها ولا يُعْتَدُّ بها، إلا إذا صَدَّقَ على نَفْس اللوائح وعلى ترتيب الجزاء على مَنْ خَالَفَهَا، وترتيب الجزاء على مُخَالَفَة القوانين هو ما يُسَمَّى تقرير القوانين وترسيخها، فإنها بدون ترتيب الجزاء لَيْسَ على مُخَالِفِهَا لَوْم.

وأما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصهما إلا المذاكرات، والمداولات، وعمل القرارات على ما تَسْتَقِرُّ عليه الآراء الأغلبية، وتقديم ذلك لِوَلِيِّ الأمر، وكذلك من خصوصيات وَلِيِّ الأمر نَشْر القوانين، وإجراء مفعولها من يوم نَشْرها، ومن المزايا الملوكية ما يُسَمَّى حَقَّ الصَّفْح عن الجَانِينَ، وهو أَجَلُّ المزايا اللائقة بالمنصب الملوكي، وهو أن له الْحَقُّ في الصفح عن العقوبة المترتبة على الجاني الذي جنايته من قبيل: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أو تخفيف جزاء هذه الجناية، فإن العظيم يَعْفُو عن

الذنب العظيم، وكذلك له أن يُسَامِح من جزاء المذنب بالصغائر، وأن يَقْبَل توبة من يَتُوب.

وهذه المزية الجليلة لائقة بما ينبغي أن يكون عليه الملك من الرأفة والرحمة والحِلْم، فإن الحِلْم يجب أن يكون من الأوصاف الذاتية للملوك، وليس لهذا الحِلْم المطلوب حَدٌّ محدود ولا قَيْد مخصوص، بل على إطلاقه وعمومه في حَقِّهِ، ومُفَوَّض فيه أَمْرُه إليه، وإنما ضابطه أن يكون لرعيته بمنزلة الوالد في الشفقة على أولاده، وإن حَدَثَ في الرعية حادث فليتداركه بِلُطْفِه وتدبيره؛ لئلا يَتَّسِعَ الخرق على الراقع، فإن أصابَهُمْ خَلَل في أَمْر المعيشة من الطعام والشراب والكسوة والدواب، أو في الذهب والفضة؛ فإنه يُوَسِّعُ عليهم، ويَلُمُّ الشعث الحادث بهم؛ كما فَعَلَ السلطان الغازي محمود بن سبكتكين سلطان غزنة، فإنه لَمَّا أَجْدَبَتْ رَعِيَّتُه وكان له طَعَامٌ، فقال بعض وزرائه: ينبغي أن يُعْطَى لهم بِثَمَنٍ عَدْل، فقال: لا، بل نُوَسِّعُ لهم ونَتَصَدَّق به عليهم، فإنهم رَعِيَّتُنا لا ينبغي أنْ نَأْخُذَ منهم شيئًا، ولا يُسْتَحْسَنُ منا أن نكون في الرخاء ورَعِيَّتُنَا في الشدة والغلاء، ثم أَمَرَ حتى أُفِيضَ عليهم، فإن ضَاقَت البلدة بالرعية وشَقَّ عليهم المُقام في ازدحامهم فلْيُزِدْ في البلد، فإن لم يَكُنْ فلينْقُل من البلد جانبًا من الأهالي إلى بَلَدٍ آخر، فهذا هو الملك الحليم العادل.

ويجوز له أن يَبْذُل حِلْمَه إلى ما لا نهاية، فلا يَلِيق الاستفسار منه عن الأسباب الحاملة له على الصفح عن الجاني في حالة ما إذا صَفَحَ عنه، ولا عن عَدَم الصفح في حالة ما إذا لَمْ يَصْفَح، وإنما اللائق في حَقِّه في حالَتَي العفو والعقاب أن لا يُتَجَاوَزَ في ذلك الحد؛ حِفْظًا لناموس الشريعة، وَصَوْنًا لحدود الله من التعطيل، ومُحَافَظَةً على إبقاء قُوَّة السياسة الشرعية الضامنة للأمن العام، ومَنْعًا للتَّجَرِّي وتَعَدِّي الناس بعضهم على بعض؛ ولهذا لما صَدَرَ مِنْ بعض الملوك الصفح عن بعض الجانين، وحَضَرَ الجاني أمام القاضي لِيُصْدِرَ له الأمر بالصفح عنه حَكَّمَ أَمْرَ المَلِك؛ قال له القاضي: لقد صَدَرَ أَمْر المَلِك بالعفو عن ذَنْبِك، فاذهب سريعًا فقد ارْتَفَع عنك العقاب، وبقي عليك الوزر، «وقال» قاضٍ آخَرَ لإنسان آخَرَ قَتَلَ شَخْصًا بالسم، وحَكَمَتْ عليه المَحْكَمة بعُقُوبَة القتل، فخَفَّفَهَا المَلِك باستبدال القتل بالليمان: اذْهَبْ إلى الليمان لتُزْعِجَ أَهْلَه، فقد قَدِمَ عليهم مُعْتَدٍ أثيم قبيح الفعال لِيُصَاحِبَهُم، فلا شَكَّ أنهم يَنْفُرُونَ مِنْكَ كُلَّ النفور.

وفي الممالك المُدَقِّقَة في الأحكام العدلية لا يَصْفَحُ المَلِكُ عن الجاني في الغالب إلا في ذَنْب الخوض في الناموس الملوكي، أو في الصغائر الخاصة بالسياسة الملوكية، ولا يَتَجَاوَزُ المَلِك عن المُتَعَدِّي في شيء بالنسبة لحقوق العباد المبنية على المشاحة، فلا يَمْنَع حدود

الله، ولا يَصْفَح عن القاتل لشخص له ورثة أبدًا؛ لأن الدية أو القَوَد حَقُّهُم، ومع صَفْحِ المَلِك عن الجاني فلا يَبْطُل تحقيق الدعوى المقامة في شأن الجناية، فإن حقوق المَلِك إنما هي تخفيف عقاب المذنب نظرًا للنفوذ الملوكي والناموس السلطاني المبني على الشفقة والرحمة، فليس من المَصْلَحة عَفْوُه عن الذنب قَبْل ظُهُورِه، ولا إظهار ذلك للمَحَاكِم قَبْل التحقيق؛ لأن ذلك يُفْضِي إلى سَتْر الحق، وله في حقوق الحكومة — إذا حَصَلَتْ فتنة عمومية، وخَمَدَتْ نارها، وظَهَرَ رؤساء الفتنة وبانَ المفسدون — أَنْ يُخْبِر المَجالس المَحْكَمِيَّة المُقامة فيها قضاياهم بأنه قد عَفَا عن الجنح السياسية، وكذلك إذا حَصَلَ اتهام للمُسْتَخْدَمِينَ في الأموال الميرية باختلاس أو إهمال، وكان عليهم تحقيق أو مُحَاسَبة؛ أن يُسَامِحَهُم مما اتُّهِمُوا به، ويُخْلِي سبيلهم.

وبالجملة: فَحَقُّ العَفْو من الملوك الذين هم خلفاء الله في أَرْضِه على عباده مَبْنِيٌّ على وجوب التخلق بأخلاق الرحمن؛ أي: الاتصاف بصفاته؛ كالرأفة والرحمة والحِلْم، وفي الحديث الشريف: «الراحمون يَرْحَمُهُم الرحمن، ارحموا من في الأرض يَرْحَمْكم من في السماء»، وفي بعض الكتب المنزلة: يقول الله تعالى: «إن كنتم تريدون رَحْمَتي فارحموا عبادي» وقيل في هذا المعنى:

إن كُنْتَ لا تَرْحَمُ المسكين إِنْ عَدِمَا ... ولا الفقيرَ إذا يَشْكُو لَكَ الْعَدَمَا
فكيف تَرْجُو مِنَ الرحمن رَحْمَتَهُ؟ ... وإنما يَرْحَمُ الرحمن مَنْ رَحِمَا

وقال آخر:

ابْغِ للناسِ مِنَ الْخَيـ ... ـر كما تَبْغِي لِنَفْسِكْ
وارحَم الناسَ جَمِيعًا ... إِنَّهُمْ أَبْنَاءُ جِنْسِكْ

وأما الرعية فهم طبقات متكاثرة، فينبغي للمَلِك أن يُحْسِنَ تربية رَعِيَّتِهِ على اختلافهم، ويُهَذِّب أَخْلَاقَهُمْ بالآداب الحسنة، وأَنْ يَحْمِل أرباب الزراعة والتجارة والعمارة على تأدية حِرَفِهِم جميعَ حقوقها، وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة فيما لا يَحِلُّ؛ كالأواني، والأطواق، واللجم، والمناطق؛ لئلا يَضِيق عليهم أَمْرُ المعاش؛ بمعنى: أنهم لا يَسْتَعْمِلُون النقدين في الأشياء المستغنية عنهما، فإن الملوك المتقدمين كانوا لا يفعلون ذلك هُمْ ولا رعاياهم، فكَثُرَتْ في أيامهم النقود والخيرات، وينبغي أن يُشَوِّق المحترفة

بالعطايا والمكافآت، وشمول النظر والمسامحات، حتى يتسابقون إلى تكثير مصنوعاتهم، وهكذا كل طبقة.

وبَسْطُ الكلام على عموم الرعية أن يُقَال: إن لهم حقوقًا في المملكة، تُسَمَّى: بالحقوق المدنية؛ يعني: حقوق أهالي المملكة الواحدة بعضهم على بعض، وتُسَمَّى: بالحقوق الخصوصية الشخصية في مُقَابَلة الحقوق العمومية، وهي عبارة عن الأحكام التي تَدُور عليها المعاملات في الحكومة، وهذه الحقوق في كُتُب الفقه عبارة عن المعاملات، والأنكحة، والفرائض، والوصايا، والحدود، والجنايات، والدعاوى، والبينات، والأقضية، فالحقوق المدنية المذكورة هي حقوق أَهْل العمران بعضهم على بعض؛ لِحِفْظ أملاكهم وأموالهم ومَنَافِعِهِمْ ونفوسهم وأعراضهم وما لهم وما عليهم مُحَافَظَةً ومُدَافَعَةً.

ويَتَفَرَّع من حقوق المملكة العمومية؛ أي: السياسة والإدارة الملكية، ومن الحقوق المدنية الشخصية فَرْع آخَرُ من الحقوق، يُسَمَّى: بحقوق الدوائر البلدية؛ يعني: حقوق النواحي والمشيخة البلدية، فهذه الحقوق تتعلق بالامتيازات الخصوصية لكل ناحية.

ثم إن الدائرة البلدية والناحية والمشيخة ألفاظ مُتَرَادِفة في عُرْف الإدارة على مَعْنًى واحد، فحقوق الدوائر البلدية الامتيازية هي استقلال النواحي بالتصرفات الرشدية؛ يعني: استقلال كل ناحية بتحسين نظامها من حيث خصائصها البلدية وحال أهاليها، واستبدادها بحفظ مصلحتها الخاصة بها تحت ظِلِّ الحكومة، وهي مجموع قرية أو حَارَة أو أَكْثَر، صارت ناحية لما فيها من الروابط والعلاقات الخصوصية التي اسْتَدْعَتْهَا المنافع العمومية، فهي جزء من المملكة الكلية، امتازت من أجزاء مَمْلكتها بالمزايات الخصوصية البلدية؛ كاختصاصها بأسواق دورية ومواسم سنوية وعوائد محلية وعمائر خيرية.

ثم إنَّ تَكَوُّن النواحي سابِقُ الوجود على تَكَوُّنِ الحكومات، وأَقْدَم منها في التجمعات التأنسية؛ فالنواحي أَصْل الممالك، فقد كَانَت النواحي مشيخات صغيرة مُسْتَقِلَّة مُنْفَرِد بعضها عن بعض على قرية أو أكثر أو على بندر أو مدينة بوصف دائرة بلدية، وكان الحامل لأهلها على الاجتماع والاتحاد اقتضاء الحاجة الإنسانية للتأنُّس والتعيش والتحفظ، حيث أَحَسُّوا باحتياجاتهم إلى إدارة داخلية لدائرتهم، فاحتاجت تلك الإدارة إلى عَمَل ومحافَظة وحُسْن تدبير ومُلَاحَظة، فاستدعى الحال إلى أن يَقُوم بإدارة تلك الدائرة، ويَسُوس أَمْرَها، ويُقَوِّم أَوَدَها، فاختار أَهْل هذه الدائرة لهذه الوظيفة أَعْقَل العشيرة وأَنْوَرهم بصيرة، وكانوا في مبدأ الأمر يَخْتَارُون بالرغبة والطوع لمثل ذلك شَيْخًا من

شيوخ الأهالي الطاعِنِينَ في السن، ممن أَفَادَتْهُم كَثْرَة التجاريب المعلومات القوية والهيبة والوقار، ويجعلونه كَبِيرَ الناحية، ومن المعلوم أن مَنْ طَعَنَ في السن يُطْلَق عليه اسْم الشَّيْخ؛ فلذلك قيل لهذا الشيخ: «شَيْخ البلد، أو شيخ الناحية، أو شيخ الحارة»، وقيل للبلد وللناحية وللحارة: «مَشْيَخَة»، فاسْتَمَرَّ الحال على هذه التسمية حتى انْتَظَمَت النواحي في الحكومات، وانْخَرَطَتْ في سِلْك الممالك، وصَارَتْ أجزاء لكل أو جزئيات لكليات، وبَقِيَ اسم الشيخ دالًّا على كَبِير القوم أيًّا ما كان عُمْرُهُ.

ثم بِتَدَاوُل الأزمان وترتيب البلدان وانضمام عدة أقاليم أو مدن تحت رياسة واحدة، تَنَظَّمَتْ النواحي تنظيمًا رسميًّا تابعًا لانقسام البلاد إلى ممالك والممالك إلى إيالات، والإيالات إلى كور أو مديريات، والمديريات إلى أقسام، والأقسام إلى أخطاط، والأخطاط إلى نواحي ودوائر بلدية أو إلى مدن، والمدن إلى أجزاء، وسُمِّيَ شيخ المملكة سلطانًا أو مَلِكًا أو رئيس جمهورية، وسُمِّيَ حاكِم الإيالة واليًا أو أميرًا، وحاكِم المدينة مُحَافِظًا أو مأمورًا، وحاكِم المديرية مديرًا، وهكذا، وحاكِم البلد شيخ البلد أو عُمْدَة، وهكذا على حسب عُرْف كل بلاد، واختلفت الأسماء باختلاف عُرْف الأقاليم والنواحي والْمُسَمَّيَات مُتَّحِدَة.

فقد تَأَسَّسَتْ كلية الحكومة على عُمَد نواحيها ومعاونيهم، فهم أعضاء لجسد الحكومة، وجميع الخدامات المحلية مُحَالة على عُهْدَتِهم واعتماديتهم، حتى إن القوانين قد تَرَتَّبَتْ في الحكومة بحسب دوائرها البلدية، واقتضاء مواقعها المحلية من المزايا الخصوصية.

وفي الأزمان السالفة قَبلَ تَقَدُّم الجمعية في البلاد الأروبية، وقَبْلَ أَخْذِهَا من التمدن بالحظ الأوفر؛ كان أَكْثَر أهالي حكوماتها — مُلْتَزِمِين وأمراء كبار — مُسْتَقِلِّينَ بتَمَلُّك الدوائر البلدية والأراضي الزراعية، يَمْلِك الواحد منهم القسم بتمامه، ويَسْتَبِدُّ فيه برأيه وتنفيذ أحكامه، ويَدْفَع خراجًا مُقَرَّرًا لرئيس الحكومة الكبيرة، فكان هؤلاء الملتزمون والأمراء مُسْتَبِدِّينَ بما تَحْتَ أيديهم من المدن والقرى والبلاد، ومسْتَعْبِدِينَ لما فيها من الفلاحين والأهالي والعباد، وفي مقابَلة ذلك يَدْفَعُون الخراج المقَرَّر المعلوم لولاة الأمور بشرط اتباع القوانين المعلومة والأصول والرسوم، فكانت النواحي تابعة لهؤلاء الأساتيذ الملتزمين التابعين تَبَعِيَّة ضعيفة لِمُلُوكِهِم، مع مُبَارَزَتِهِمْ لهم بالمشاحنات في كل وَقْت مثل ما كان جاريًا بالديار المصرية في عَهْد المماليك.

فلما دَعَت الحروب الصليبية والغزوات الإفرنجية في البلاد المشرقية الإسلامية إلى سَفَر رؤساء الجيوش بأنفسهم إلى هذه الحروب، وكانوا هم أرباب الالتزام، واقتضى

الحال أن يأخذوا من التزاماتهم ما قَدَرُوا عليه من الأموال والنفوس لحرب الإسلام، وكانوا أرباب حَمِيَّة قوية وغيرة دينية، وطَالَتْ أزمنة الغزو والقتال للتغلب على القُدْس الشريف العزيز المَنال، مع كَثْرة الإنفاق لطول الشقاق، وتَبَصُّرِهِم في إدخال محاسن التمدن المشرقية في بلادهم المغربية، وتَعَلُّمِهِمْ من الإسلام ما حَسَّن بلادهم، وإنفاقهم النفقات الجسيمة في الحصول على ذلك كله مُدَدًا مديدة، فتَضَعْضَعَ بهذا من جهة المعايش حَالُهُمْ، وضاعت في الأزمان المختلفة أموالهم ورجالهم، وعَمَّتْهُمْ لضرورة الحروب الفاقةُ، وعجزوا عن الإطاقة، واضْطُرُّوا إلى بَيْع الأراضي والرجال، فاشترى منهم أهل النواحي أَمْلَاكَهُمْ وأنفسهم بالأموال، ومنهم مَن اشترى الامتياز بِحَقِّ تَنْصِيب شيخ من الناحية للمحاماة عن الحقوق الأهلية، فَتَمَتَّعُوا من ذلك الوقت بالمزايا الأهلية والحقوق المدنية، وتَمَلَّكُوا الأملاك، وخرجوا من ربقة التبعية، وصاروا على تداول الأيام يزدادون في القوة بِقَدْر ضعف الملتزمين وفَقْدِهم للنخوة، فتواجدت عند الجميع الحرية، وصارت ممالك أوروبا بالتمدن حقيقة وحَرِيَّة.

وقد تَرَتَّبَ على إعتاق الدوائر البلدية، وتحرير رقاب النواحي في البلاد الأروباوية، كما في غيرها من البلاد المتمدنة، فائدتان مهمتان؛ «إحداهما»: تَمَتُّع أهالي النواحي بثمرات الاكتساب، وتحصيل المنافع، وتحسين أحوال أهاليها بالثروة والغنى، والأخذ في التمدن، والتقدم في العمران، «وثانيتهما»: قوة الحكومة، وتمكين الدولة حيث صارت جميع النواحي بالمملكة تابعة لها مباشرة بدون تَوَسُّط الملتزمين والأمراء والأساتيذ والكبراء؛ لأن النظام العمومي في الدولة إنما يَتِمُّ بوحدة الحكومة، واستبدادها بالتصرفات المَلَكِيَّة، ورَفْض مَذْهب السيادة الأرضية، وطَرْح مشعب الالتزامات البلدية ظِهْرِيًّا، ونَبْذ طُرُق تَعَدُّد الأحكام المختلفة مكانًا قَصِيًّا، فالمملكة المتوحدة يَضُرُّها كَثْرة الحكام المتعددة.

ثم لم تَزَل النواحي تَأْخُذ في التمكن من التصرفات الرَّشَدِيَّة، والتقدم في محافظات حقوق الدوائر البلدية بعناية الحكومة الكلية، حتى صارت قوية مَتِينَة مُحَرَّرَة مَصُونَة؛ لأن قوة الأجزاء مُسْتَلْزِمَة لقوة الكل، فتَمَتَّعَ جميع الأهالي إذ ذاك بثمرات مهارتهم الصناعية وآثار براعتهم الزراعية.

ومن المعلوم أن الشريعة الشريفة مِنْ صَدْر الإسلام ناطقة بما هو أقوى من ذلك وأَقْوَم، والسيرة العمرية صادقة فيما هو أَتَمُّ من ذلك كُلِّه وأَنْظَم، والإسلام سَوَّى بين الجميع في العدل والإنصاف، وقد عَمَّ به التمدن في سائر الأقطار والأطراف، واعْتَرَفَ له بذلك جميع أمم الدنيا كمال الاعتراف، فلا يُضِيرُه ولا يَضُرُّه سَفَاهَة بَعْض حُكَّام سَلَفُوا،

حيث خَالَفُوا أحكامه المَرْضية في أيامهم، فلا يُقَاسُ على تِلْكَ الأيام؛ وذلك لحكومة المماليك في مصر وتَحْمِيلهم لأهلها ثِقَيل الإصر، فهذه قضية شخصية لا تَنْقُضُ العموم بدليل زَوَالِها في أَجَلٍ مُسَمًّى ووَقْت معلوم.

فَقَدْ وَفَّقَ المولى تبارك وتعالى المرحوم محمد علي صَاحِب المساعي المشكورة، وكذلك مَنْ بَعْدَهُ من وُرَثَائِه على قَدْرِ حَالِه وإمكانه، لا سيما حفيده خديو مصر العادل، فقد شَرَعَ في تأسيس الدوائر البلدية المحررة، وبنى ذلك على قواعد ثابتة مُقَرَّرَة، فالآن بعناية هذا العزيز الجليل وحُسْن رعايته الظاهرة كالشمس فلا يُقَام عليها دليل؛ تفوز مصر بِنُجْح الآمال، وتَرْقَى إلى درجة الكمال.

ثم إن ترتيب عُمَد الدوائر البلدية التي هي النواحي وترتيب معاونيهم ومأمورِيهم ومُعَاوِني الضبطية، إنما هو بحسب جَسَامة كل ناحية واتساع دائرتها وثَرْوَة أهلها، حتى إن الناحية الجسيمة يَتَرَتَّب فيها أيضًا مشورات بلدية رَشَدِيَّة؛ للاتحاد مع العمدة، ومساعدته في الأمور المهمة، فالمدار في إدارة الناحية وضبطتها على العمدة، وهو كثير الوظائف ومَنُوط بأمور جَمَّة؛ منها تنظيم جرائد الأنساب، وهو تسجيل المولودين والمتزوجين والمفقودين على الرسوم المربوطة، وهو مِنْ أَهَمِّ أمور المملكة في حِفْظ الأموال والنفوس والقرابات، يَنْبَنِي عليه أبواب كثيرة من الفقه والسياسة، فالعمدة من ذوي الإدارة البلدية والضبطية الحاكمية، إلا أن الإدارة البلدية التي هي أَصْل وظيفته الأصلية تحت رياسة المديرية، ولَمَّا تَفَرَّعَتْ وظائفه وتشعبت خصائصه؛ كان شيخ الناحية بالنسبة لها كمدير صغير، ووَلِيَ على دائرتها، فهي كاليتيم وهو كالكفيل النصير، فمن خصائصه مُبَاشَرَة أملاك دائرة الناحية، وعقاراتها، وإيراداتها، وتَقْنِين مصاريفها بما تَقْتَضِيه المَصْلَحة والغبطة، وتسديد ما عليها مِنْ أموال الميري، ومِن الديون.

ومن خصائصه أيضًا ترتيب الأشغال العمومية، وإجراء العملية اللزومية على طرف الدائرة البلدية إذا كانت هي الملزومة بالمصاريف، ومن خصائصه أيضًا مباشرة إدارة عمائر المحال الخيرية التابعة للناحية إذا كان مصاريفها على دائرة الناحية، أو كانت المصاريف على الحكومة، وكانت المحال الخيرية مُعَدَّة لمنافع الدائرة البلدية؛ كالاسبتاليات والمكاتب، ومن خصائصه أيضًا التشبث بكافة الوسائل التي تَجْلِب الراحة والأَمْنِيَّة وحُسْن الانتظام لأهالي البلدة، وكذلك الاعتناء بتهذيب الأخلاق والتأديب والتربية للأهالي، وتعويلهم على الاستقامة، وعَدَم ارتكاب ما فيه سقامة، ومن مأمورياته أيضًا توزيع ما يَخُصُّ دائرة الناحية في ضِمْن عموم المديرية من الأموال والعوائد، وتوزيعها على أشخاص

الناحية بِحَسْب مَيْسَرَة كُلٍّ منهم بالاتحاد مع شورى الناحية لعدم المغدورية، وكذلك يَجِبُ تحصيل الأموال والعوائد بحسب التوزيع، وتوريدها إلى خزينة القسم أو إلى خزينة المديرية حسب الأصول المُقَرَّرَة، وعليه أيضًا الملاحظة للأشغال العمومية والعمليات، والمحافظة على أملاك الحكومة، والبحث عن إصلاح المساجد والمَعابد والمَشاهد والقرافات والأضرحة والمَكَاتِب والمدارس والآثار القديمة، وكل ما هو في الناحية من أمثال ذلك.

وبالجملة: فعمدة البلد أو الناحية مُرَخَّص له بدون استئذان من ديوان القسم أو المديرية، أن يُجْرِي من بَادِئِ رَأْيِه جَمِيعَ ما هو من خصائصه ووظائفه وحدوده، ما عدا بعض أشياء جسيمة يحتاج فيها للاستئذان من الرئيس الذي هو أعلى منه، وهو المدير بالنسبة للإدارة البلدية، ونائب الملك في المحاكم بالنسبة للضبطية الحاكمية، فمما يَحْتَاج فيه العمدة للاستئذان شراء عقارات أو أراضي للناحية، أو بَيْع مِثْل ذلك من الناحية، أو ضَرْب عوائد على الأهالي غير المُقَنَّن فوق العادة لمصروف الناحية لاحتياجاتها، وكاقتراض أموال على طرف الناحية للوازمها، وكتجديد أشغال ومنافع وعمارات وسكك، وكالتجارة في أموال الناحية المتوفرة في صندوقها بعد المصرف، وكالتداعي في قضايا تَخُصُّ الناحية بشيء، فكل هذا على العمدة أَنْ يَسْتَأْذِنَ فيه من محل الاقتضاء، وما عدا ذلك من حقوق الناحية هو من دائرة تَصَرُّفه وحدوده، فيجب على العمدة بحسب الإمكان أن يُبَاشِرَهَا بنفسه، فهو المحامي عن الناحية محاماة الولي لليتيم والكفيل للمكفول، وللحكومة العليا تَوْلِية مَنْ يُفَتِّش أحوال الدائرة البلدية كالناظر الحسبي.

فيجب على كل عمدة أن يكون له إلمام بالأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، وممارسته للأحكام الملكية، فإن جَهْلَه لهذه الأحكام يَحُطُّ بمقامه، ويُزْرِي به بَيْن أقرانه وأقوامه؛ ولهذا اعْتَنَى المؤلفون في سائر الدول والملل في تأليف كُتُب السياسة على سائر الفنون، وجَعَلُوها في طاقة الحكام، وإذا كان هذا وَصْف شيخ البلد، وأنه يُزْرَى به جَهْل شريعة البلد وأحكامها السياسية والشرعية، فما بَالُك بمن هو أَعْلَى منه من الموظفين؛ كوكلاء المملكة ووزرائها ونُوَّابِها وحُجَّابِها؟ فالمِلِك العاقل المُدَبِّر لا يَنْتَخِب للوظائف المهمة إلا من يكون جامعًا لخصال الخير؛ حَسَن الخَلق والخُلق، يَجْمَع بين البشاشة، والوقار، والحِلم، والهيبة، والعفة، والنزاهة، وعزة النفس، وسداد الرأي، وحُسْن التدبير، وسرعة الفهم، والعلم بالأمور السياسية والقوانين المَلَكِيَّة والأحوال الديوانية، والوقوف على أحوال المسالك والممالك وما بينهما من العلاقات والروابط والعهود والضوابط، وأن يكون معروفًا بالصدق والوفاء، مُتَبَحِّرًا في أنواع العلوم السياسية، له خبرة بكتابة الإنشاء

والمحاسبات، ذكي الفطنة، سريع الجواب، كثير الصواب، متيقظًا في تدبير الدولة العادلة، مُعْمِرًا للجهات والنواحي والأعمال، مُثْمِرًا لأصناف الأموال وتحصيل الغلال، مُقْتَصِدًا في وجوه صَرْفها ونفقاتها، «قالت» الحكماء: «يجب أن يكون الوزير مِثْل المرآة التي لها وجهان، يَنْظُر بِوَجْهٍ منها إلى الله تعالى، وبالآخر إلى الرعية.» انتهى.

ومِثْل الوزير في ذلك سائر رؤساء المملكة، فإنهم جميعًا كالراعي الذي اسْتُؤْجِرَ لِحِفْظ الأغنام، فإذا حَفِظُوها اسْتَحَقُّوا الأجرة، وإن ضَيَّعُوها أُخِذُوا بالغرامة، وحُبِسُوا في سجن الملامة، وخَسِرُوا الدنيا والآخرة، ويُقَال لهم: يا رعاة السوء، أَكَلْتُم السمين، وضَيَّعْتُم الهزيل، فحَقَّ مِنْكُم الانتقام، بخلاف الوزراء الذين يَعْلَمُون أن الشريعة معيار المملكة، والسياسة ميزان السلطنة، فيزنون الرعايا كأنفسهم بميزان الشريعة والسياسة، فهؤلاء يفوزون بسلامة الدنيا والآخرة لِمَا حَفِظُوه من الوزن بقسطاس العدل في صيانة النفس والمال والعرض، فبالعدل قامت السموات والأرض.

وبالجملة: فعلى وَلِيِّ الأمر أن يَجْتَهِدَ حتى يَرْضَى عنه جميع رَعِيَّتِه، وأن يُنْزِل نَفْسَه مَنْزِلَتَهُم، وكل ما يُحِبُّه لنفسه يُحِبُّه لهم، وعليهم الطاعة الكاملة له؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فقد قَرَنَ تعالى طاعة ولاة الأمر بطاعة نَفْسه ورسوله، فهذه عَظَمَة جميلة لولاة الأمر، ومَنْزِلة جليلة تَبْلُغ النهاية في رِفْعَة القَدْر، فإذا ظَهَر لوَلِيِّ الأمر عَدُوٌّ لَزِمَهُمْ مُعَاوَنَة المَلِكِ عليه، فإذا اسْتَقْرَضَهُمْ أَقْرَضُوهُ، وإذا اسْتَعَانَ بِهِمْ أعانوه، وإنْ عَدَلَ فيهم مَدَحُوه، وإنْ ثَقُلَ عليهم شيء من أحكامه صَبَرُوا إلى أن يَفْتَحَ الله لهم باب هدايته للخير وإرشاد دولته للعدل وزوال الضير، ويسألون الله تعالى أن يَرْزُقَه بِطَانَةً أَهْلَ حِكْمة وشجاعة وعِفَّة وعدالة.

فالمَلِك المرزوق بموظفين مُتَّصِفِين بهذه الخصال المحمودة هو مسعود الرعية، فهو الذي يَتَجَمَّل به الزمان، ويرضى عنه الرحمن، واهتمام الملك وموظفيه بمصالح الرعية لا يمنع من سعيهم أيضًا في إصلاح أنفسهم بِقَدْر الإمكان؛ لأن مَنْ لَمْ يُصْلِح نَفْسَه عَسُرَ عليه إصلاح غَيْرِه، وكيف يَعْرِف رُشْدَ غَيْره من لا يَعْرِف رُشْد نَفْسه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني

في طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدِّين

والمراد بهم هنا: ما يَشْمَل علماء الحقيقة، وعلماء الشريعة، وعلماء الحكمة والأمور النافعة التي عليها نظام الدنيا والدِّين، فأما علماء الحقيقة أَهْل الزهد والورع — وقليل ما هُمْ — فهم أصحاب الإخلاص في الدين، وعن محبة الدنيا تراهم متباعدين، وأما العلماء وهم ورثة الأنبياء وَحَمَلَة الشريعة فدرجتهم من أمة النبي ﷺ مِثْل درجة أنبياء بني إسرائيل، وكرامتهم عظيمة، ولحومهم مسمومة، مَنْ شَمَّها مَرِضَ، ومَنْ أَكَلَهَا سَقِمَ، فَمَنْ عَظَّمَهُم فَقَدْ عَظَّمَ الله ورسوله، وأعطى دَرَجَة العِلْم حَقَّهَا، وهو فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء، قال ﷺ: «لولا العلماء لَهَلَكَتْ أمتي، اللهم احْفَظ العلماء، واعْف عن الجهال، وارْحَم الناس.»

فيجب على الدولة أن تَحْتَرِم علماء الشريعة وتُكَرِّمهم، وتُثِيبهم على تعليمها والمحافظة عليها، بل عليها أيضًا أن تتحرى إدخال السرور عليهم، واستمالة قلوبهم، والتعطف عليهم، وأن تَتَقَرَّب إليهم بالصلات، وأن تُتْحِفَ أولادهم بالتحائف رِفْقًا بهم وتلطيفًا لهم، وأن تَحْمِلَهم على الاشتغال بالعلم، والمراد بعلماء الشريعة العارفون بالأحكام الشرعية والعقائد الدينية أصولًا وفروعًا؛ يعني: الأحكام المتعلقة بالعمل عبادات ومعاملات، ويَلْحَق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التي يَتَوَقَّف عليها فَهْم العلوم الشرعية؛ لأن الوسائل تَشْرُف بشَرَف المقاصد، وينبغي زيادة الإجلال والتبجيل لأهل التفسير والحديث، وهم العلماء المُنْتَدَبون لعلوم القرآن أو تفاسيره، ورواية الحديث بأسانيده،

وبعلوم الترغيب والترهيب، وتَبْجِيل علماء الحقيقة الذي انجلى عن قلوبهم الخَبَث وقاذورات الدنيا، وارتفع عنها الغطاء والرين، حتى اتَّضَحَتْ لهم حلية الحق عيانًا، وانتظمت شمائلهم في سمات الصالحين الذين بذكرهم تنزل الرحمات من رب العالمين، فمثل هؤلاء ينبغي الاتحاد بهم لاستفادة الخير منهم، فمن كان جليسُه صاحِبَ عِلْم أو صلاحٍ استفاد منه خيرًا؛ لأنه قَلَّمَا يخلو مَجْلِسه عن مسألة وَعْظ أو نُصْح.

أُحِبُّ الصالحين وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ
وَأَكْرَهُ مَنْ بِضَاعَتُهُ الْمَعَاصِي ... وإِنْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَهْ

وقيل:

لي سَادَةٌ مِنْ عِزِّهِمْ ... أَقْدَامُهُمْ فَوْقَ الْجِبَاهْ
إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ فَلِي ... مِنْ حُبِّهِمْ عِزٌّ وَجَاهْ

فمُجَالَسة الصالحين فائدة عائدة بالخير العميم على مُجَالِسِيهِمْ، وفي الحديث: «يُحْشَرُ المرء مع مَنْ أَحَبَّ»، وقال ﷺ: «العالم والمُعَلَّم شريكان في الخير كذلك»، ويُحْتَرَمُ ويُكْرَم العلماء المُشْتَغِلُون بجملة علوم شريفة يُنْتَفَع بها، ويُحْتَاج إليها في الدولة والوطن؛ كعِلْم الطب، والهندسة، والرياضات، والفلكيات، والطبيعيات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة، والاقتصاد في المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ما كان له مَدْخَل في فن أو صناعة، فإن أَهْلَه يَجِب إكرامهم من أهل الدولة والوطن، وكذلك يجب إسداء المعروف واصطناعه لأرباب المعارف الأدبية والفصاحة العربية، فقد ذَكَرَ ابن رشيق في العمدة: أَنَّ أعرابيًّا وَقَفَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه، فقال: إن لي إليك حاجة، رَفَعْتُهَا إلى الله قَبْل أن أَرْفَعَها إليك، فإن أنت قَضَيْتَهَا حَمَدْتُ الله وشَكَرْتُك، وإن أَنْتَ لم تَقْضِها حَمَدْتُ الله وعَزَرْتُك، فقال: خُطَّها في الأرض، فَخَطَّ إني فقير، فَدَفَعَ إليه حُلَّة، فلما تَسَلَّمَها أنشد:

كَسَوْتَنِي حُلَّة تَبْلَى مَحَاسِنُهَا ... فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلَا
إن الثناء لَيُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ ... كالغيث يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ والْجَبَلَا
لا تَزْهَد الدَّهْرَ في عُرْفٍ بَدَأْتَ بِهِ ... فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَا

فَأَمَرَ لَه بخمسين دينارًا، وقال: الحُلَّة لِفَاقَتِكَ، والخمسون لِأَدَبِكَ، سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «أَنْزِلُوا الناس مَنَازِلَهُمْ.»

وقد نَصَّ المؤرخون على أنه لَمْ يَكُ في الدنيا في قديم الزمان أَعْظَم دولة، ولا أَشْمَخ مملكة، ولا أَدْوَم أيامًا وذِكْرًا من دولة مصر والفرس واليونان، وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكمة، وتمكين مَنْ يَشْتَغِل بذلك ورعاية جانبه، حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء، فمن تمام رونق المملكة اشْتِمَالُها على أئمة في هذه العلوم بأَسْرها، فما أَضْيَع دولة قَلَّ علماؤها وحكماؤها، وفَسَدَتْ مزارعها، وكَسَدَتْ مَنَافِعُهَا، ولم تَجِدْ مَنْ يُحْيِيها، ولا مَنْ يُحْيِي بتحيات العلوم مَعَالِمَهَا ونواحيها، ولكن الحمد لله الذي مَنَّ على مصر بخلافة الخلفاء على الإطلاق، حيث جَعَلُوا فيها شموس العلوم ساطعة الإشراق، ثم مَنَّ عليها بدولة آل عثمان فحَفِظَتْ بالنسبة إليها ما بَقِيَ فيها من مكارم الأخلاق مع المحافظة على القوانين الشرعية، لا سيما وأن مِنْ نتيجة تَسَلُّطِهِمْ عليها تشريف ذي النفس الزكية والمناقب السنية جنتمكان المرحوم محمد علي، الذي أبقى — بحُسْن صنيعه — ذِكْرَهُ مدى الأيام، وآلَ أَمْرُ المملكة لحفيده الرفيع المَقام.

إنما المَجْد ما بَنَى والدُ الصِّدْ　　　قِ وأحيا فِعَالَهُ الْمَوْلُودُ

فقد جَدَّدَ دُروس العلوم بَعْد اندراسها، وأَوْجَدَتْ بَعْد العَدَم الرؤساءُ العلماءَ والفضلاءَ نتيجةَ قياسها لِقَصْد انتشار العلم والزيادة في الفضائل، فأتى من ذلك بما لم تَسْتَطِعْه الأوائل، غير أنه — حَفِظَه الله وأبقاه — ولو أنه أعلى منار الوطن وَرَقَّاهُ، لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور، ولم يَجْذِبْ طُلَّابَهُ إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحِكَمِية التي كبير نَفْعها في الوطن ليس يُنْكَر، نعم إن لهم اليد البيضاء في إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية، وما يجب من العلوم الآلية؛ كعلوم العربية الاثني عشر، وكالمنطق والوضع، وآدب البحث، والمقولات، وعِلْم الأصول المُعْتَبَر، ولمثل هذا فلْيَعْمَل العاملون، وفي ذلك فليَتَنَافَس المتنافسون، غير أن هذا وَحْدَه لا يَفِي للوطن بقضاء الوطر، والكامل يَقْبَل الكمال كما هو مُتَعَارَف عند أَهْل النظر.

ومدار سلوك جادَّة الرشاد والإصابة مَنُوط بَعْد ولي الأمر بهذه العصابة التي ينبغي أن تُضِيف إلى ما يجب عليها مِنْ نَشْر السُّنَّة الشريفة، ورَفْع أعلام الشريعة المنيفة؛ مَعْرِفَةَ

سائر المعارف البَشَرية المدنية التي لها مَدْخَل في تقديم الوطنية، مِنْ كُلِّ ما يُحْمَد على تَعَلُّمِه وتعليمه عُلَمَاءُ الأمة المحمدية، فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام يكون من الأعمار الباقية على الدوام، ويقتدي بهم في اتِّبَاعه الخاصُّ والعَامُّ، حتى إذا دَخَلُوا في أمور الدولة يُحْسِن كل منهم في إبداء المحاسن المدنية قَوْلَهُ.

فإن سلوك طريق العِلْم النافع من حيث هو مستقيم، ومَنْهَجه الأبهج هو القويم، يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أَقْوَم، وتَلَقِّيه من أفواههم أَتَمَّ وأَنْظَم، لا سيما وأن هذه العلوم الحِكَمِيَّة العملية التي يَظْهَر الآن أنها أجنبية هي علوم إسلامية، نَقَلَهَا الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تَزَلْ كُتُبُهَا إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة، بل لا زال يَتَشَبَّث بقراءتها ودراستها من أهل أوروبا حكماء الأزمنة الأخيرة، فإن مَن اطَّلَعَ على سَنَد شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهوري الذي كانت مَشْيَخَتُه قبل شيخ الإسلام الشيخ أحمد العروسي الكبير جَدُّ شيخ شيوخ الجامع الأزهر، الآن السيد المصطفوي العَلَم الشهير رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير، وأن له فيها المؤلفات الجمة، وأن تَلَقِّيها إلى أيامه كان عند أَهْل الجامع الأزهر من الأمور المهمة، فإنه يقول فيه — بَعْدَ سَرْد ما تَلَقَّاه من العلوم الشرعية وآلاتها معقولًا ومنقولًا: أَخَذْتُ عن أستاذنا الشيخ المُعَمَّر الشيخ علي الزعتري خاتمة العارفين بعِلْم الحساب، واستخراج المجهولات، وبما توقف عليها كالفرائض والميقات وسيلة ابن الهائم ومعونته، كلاهما في الحساب، والمقنع لابن الهائم، ومنظومة الياسميني في الجبر والمُقَابَلَة، ودقائق الحقائق في حساب الدرج، والدقائق لسبط المارديني في علم حساب الأزياج، ورسالتين أحدهما على ربع المقنطرات، والأخرى على ربع المجيب، كلاهما للشيخ عبد الله المارديني جد السبط، ونتيجة الشيخ اللادقي المحسوبة لعرض مصر، والمنحرفات لسبط المارديني في عِلْم وَضْع المزاول، وبعض اللمعة في التقويم، وأَخَذْتُ عن سيدي أحمد القرافي الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز، واللمحة العفيفية في أسباب الأمراض وعلاماتها بشرح الأمشاطي، وبَعْضًا من قانون ابن سينا، وبعضًا من كامل الصناعة، وبعضًا من منظومة ابن سينا الكبرى، والجميع في الطب.

وقَرَأْتُ على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطي كتاب لقط الجواهر في معرفة الحدود والدوائر لسبط المارديني في الهيئة السماوية، ورسالة ابن الشاط في علم الاسطرلاب، ورسالة قسطاس لوقا في العمل بالكرة، وكيفية أَخْذ الوقت منها، والدر لابن المجدي في عِلْم الزيج، وقَرَأْت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومي أشكال التأسيس في

الهندسة، وبعضًا من الجغميني في عِلْم الهيئة، وبعضًا مِنْ رَفْع الأشكال عن مساحة الأشكال في عِلْم المساحة، وقَرَأْت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومي جُمْلَة كُتُب منها رسالة في علم الارتماطيقي للشيخ سلطان المزاحي.

وقَرَأْت على الشيخ محمد الشهير بالسحيمي منظومة الحكيم درمقاش، المشتملة على عِلْم التكسير، وعِلْم الأوفاق، وعِلْم الاستنطاقات، وعِلْم التكعيب، ورسالة أخرى في رسم ربع المقنطرات والمنحرفات لسبط المارديني، وعِلْم المزاول، ومنظومة في عِلْم الأعمال الرصدية، وروضة العلوم، وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الأنصاري، وهي كتاب يشتمل على سبعة وسبعين عِلْمًا؛ أولها عِلْم الحرف، وآخرها عِلْم الطلاسم، ورسالة للإسرائيلي، ورسالة للسيد الطحان، كلاهما في عِلْم الطالع، ورسالة للخازن في عِلْم المواليد؛ أعني: الممالك الطبيعية، وهي الحيوانات والنباتات والمعادن، وَأَخَذْتُ عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندي شَرْح الهداية في عِلْم الحكمة، ومَتْن الجغميني في عِلْم الهيئة بمراجعة قاضي زادة، ومطالعة السيد عليه، وأَخَذْتُ عن سيدي أحمد الشرفي شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب اللمعة في تقويم الكواكب السبعة.

وَلَمَّا ذَكَرَ ما تَلَقَّاه من هذه العلوم أَعْقَبَه بما طالَعَه بنفسه بدون الأخذ عن شيخ، فقال: طَالَعْتُ كتاب إحياء القواد بمعرفة خواص الأعداد في عِلْم الارتماطيقي في نحو كراسين، وكتاب عين الحياة في عِلْم استنباط المياه في نحو كراسين، ورسالة في الكلام اليسير في علاج البواسير في نحو كراسين، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح في عِلْم التشريح في نحو كراسين.

ومنها كتاب إتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية في عِلْم الطب في نحو خمسة كراريس، ومنها رسالة القول الأقرب في علاج لَسْع العقرب في نحو كراس، ومنها منهج السلوك في نصيحة الملوك في نحو عشرة كراريس، ومنها كتاب بلوغ الأرب في أسماء سلاطين العجم والعرب؛ مُعَنْوَنًا باسم: السلطان مصطفى خان ابن السلطان أحمد خان، المولود في رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف يوم الأربعاء أول النهار في الساعة الأولى بَعْد الشمس، الجالس على سرير الملك في سابع عشر شهر صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف يوم الأحد قَبْل الشمس، انتهى كلامه مُلَخَّصًا بِتَصَرُّف.

فانظر إلى هذا الإمام الذي كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر، وكان له في العلوم الطبية والرياضية وعِلْم الهيئة الحظ الأوفر مما تَلَقَّاه عن أشياخه الأعلام، فَضْلًا عن كَوْن أشياخه كانوا أزهرية، ولم يَفُتْهُم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة في الوطنية،

وفَضْل العلامة الجبرتي — المتوفى في أثناء القرن — في هذه العلوم وفي فَنِّ التاريخ أَمْر مَعْلُوم، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الورداني الفلكي، وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضًا مُشَارَكَة في كثير من هذه العلوم حتى في العلوم الجغرافية، فقد وَجَدْتُ بِخَطِّه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفداء سلطان حماه المشهور أيضًا بالملك المؤيد، وللشيخ المذكور هوامش أيضًا وَجَدْتُها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها، وكان يَطَّلِع دائمًا على الكتب المُعَرَّبة مِنْ تَوَارِيخَ وغَيْرِها، وكان له وُلُوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة.

وله بعض تآليف في الطب وغيره زيادَةً عن تآليفه المشهورة، فلو تَشَبَّثَ من الآن فصاعدًا نُجَبَاءُ أَهْل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية التي جَدَّدَها الخديو الأكرم بمصر بإنفاقه عليها أَوْفَرَ أموالِ مَمْلكته؛ لفازوا بدرجة الكمال، وانتظموا في سلك الأقدمين مِنْ فحول الرجال، وربما يَتَعَلَّلُون بالاحتياج إلى مساعدة الحكومة، والحال أن الحكومة إنما تُسَاعِدُ مَنْ يَلُوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد، فعَمَلُ كُلٍّ من الطرفين مُتَوَقِّف على عَمَل الآخر، فترجع المسألة دورية، والجواب عنها أن الحكومة قد سَاعَدَتْ بتسهيل الوسائط والوسائل؛ لِيَغْتَنِمَ فرصة ذلك كُلُّ طالب وسائل، وكلُّ مَنْ سار إلى الدرب وَصَلَ، وإنما تكون المكافأة على تمام العمل، فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء، وقد ذَكَرْنَا ما يَتَعَلَّق بالعلم في الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب مبسوطًا بما فيه الكفاية.

ومن أَجِلَّاء طبقة العلماء القضاةُ، فرُتْبَة القضاء قد جَعَلَ الله إليها مُنْتَهى القضايا، وإنهاء التظلمات والشَّكَايا، ولا يكون صاحِبُهَا إلا مِن العلماء الذين هُمْ ورثة الأنبياء، فالقاضي مُتَوَلِّي الأحكام الشرعية لهذه الرتبة، كما وَرِثَ عن النبي ﷺ عِلْمَهُ وَرِثَ عنه بهذه الوظيفة الشريفة حُكْمَهُ.

ومما ينبغي ذِكْرُه هنا بالمناسبة أنَّ مِنْ مِنَن الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجْتَمَعَ فيها مَعَ مَنْصِب نقابة الإشراف، التي هي لم تَزَلْ في بيتنا إلى الآن، مَنْصِب قضاء الولاية في كَثِيرِ مِنْ نَسْلِنَا.

إنَّ لـلـه عَـلَـيْـنَـا نِـعَـمًـا   يَعْجِز العبد عَن الْعَدِّ لَهَا
فَلَهُ الْحَمْدُ على نَعْمَائِهِ   وله الشُّكْرُ على الْحَمْدِ لَهَا

وكُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ أسلافنا أن مِنْ ذُرِّيَّة جَدِّنَا أبي القاسم الطهطائي من تَقَلَّدَ بمحروسة مصر بولايات شريفة، وحَظِيَ عند مُلُوكِها بالمراتب المنيفة، حتى وَقَفْتُ الآن

على كتاب يُسَمَّى: ذيل رَفْع الإصر في قضاة مصر للحافظ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي صاحب الضوء اللامع، تَرْجَم فيه لاثنين من أَقَارِبِنَا تَوَلَّيَا قضاء مصر بالتعاقب، ولما كان هذا الكتاب مُرَتَّبًا على حروف المعجم تَرْجَمَ للخَلَف منهما قَبْل السَّلَف، فقال هذا المؤلف ما نَصُّهُ: عُمَرُ بن أبي بكر بن محمد بن حُرَيْز — ويُدْعَى محرز — ابن أبي القاسم بن عبد العزيز بن يوسف بن رافع بن جندي بن سلطان بن محمد أحمد بن حجون بن أحمد بن محمد بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر الزكي بن محمد المأمون بن علي الحارض بن الحسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القاضي سراج الدين ابن الشيخ مجد الدين الحسيني المغربي الأصل الطهطائي المنفلوطي المصري المالكي الشهير بابن حُرَيْز بضم المهمَلة وآخره زاي، وهو أخو القاضي حسام الدين محمد الآتي، والحسام هو الذي أَمْلَى عليَّ هذا النسب بعد أن أَثْبَتُّه، ثم أَوْقَفَنِي عليه صاحب الترجمة في جزء فيه ترجمة جَدِّه الأعلى الشيخ أبي القاسم المذكور بالكرامات والأحوال السنية، وكون الشيخ عبد الرحيم القنائي ابن عم جَدِّه وتَقَدُّمه في الزمان، وأن مِنْ جُمْلَة مَنْ لَقِيَه السراج البلقيني، وأنه مات في مُسْتَهَل سنة اثنتين وستين وسبعمائة عن نحو تسعين سنة، ودُفِنَ بزاويته التي أَنْشَأَهَا بطهطا، وقَبْره هناك ظاهر يُزَارُ، انتهى. أَنْجَبَ أبو القاسم هذا عِدَّة أولاد كانت لهم جلالة وهَيْبَة وكلمة نافذة؛ منهم نور الدين أبو الحسن علي الضرير المُقْرِي، وَجَدُّ والد صاحب الترجمة الزين أبو المعالي حُرَيْز الموصوف من بَعْض مَنْ لَقِيَهُ في سنة ثمان وسبعين بالشيخ الإمام الْمُحَدِّث المُقْرِي، وكان مَوْلِد صاحب الترجمة في سنة تسع عشرة بمنفلوط ونشأ بها، فحَفِظَ القرآن والرسالة والملحة وجَوَّد القرآن على الشهاب الطهطائي، وقرأ الفقه على الزينين عبادة وطاهر والشهاب السخاوي، وعليه قَرَأَ في العربية والفرائض ولَازَمَه وانْتَفَعَ به، وأَخَذَ في عِلْم الكلام عن أبي عبد الله اليَشْكُرِيِّ المغربي، وسَمِعَ الحديث عن النجم بن عبد الوارث فمَنْ دُونَهُ، وممن سمع عليه الشيخ أحمد محمد بن يونس المغربي نزيل مكة حين إثبات هذه الترجمة، وأجاز له العلم البلقيني وناب عنه، وكذا عن غيره من الشافعية بَعْدَه، وعن الولي السنباطي المالكي وحَجَّ في سنة أربع وستين، وتَعَانَى إدارة الدواليب والمعاصر — أي: مَعَاصِر قَصَب السُّكَّر — ونَحْوِهَا كأخيه.

ولما اسْتَقَرَّ أخوه في قضاء المالكية صار يكتب على الفتوى، وعُرِفَ بالديانة، والأمانة، والتصلب في أَمْر دِينِه، ومزيد اليبس، وحسن المعاملة، وصِدْق اللهجة، والوفاء بالعهد،

وذُكِرَ باستحضار فروع الذهب، فصار إلى رياسة وجلالة، فلما مات أخوه اسْتَقَرَّ في قضاء المالكية بَعْدَه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وأَعْرَضَ عن بعض وظائف كانت مع أخيه؛ كتدريس الشيخونية، فاسْتَقَرَّ فيها المحيوي بن تقي، وتدريس جامع طولون أيضًا، فاستقر فيه النوري بن التنيسي، ثم رَجَعَ إليه بعد وفاته، وقام بالمنصب مَقَامًا حَسَنًا مُتَحَرِّيًا فيه جهده، وشُكِرَتْ سِيرَتُهُ فيه، وصَمَّمَ في قضايا، وبَرَزَ في مواطن جَبُنَ فيها غيره، كل ذلك مع اشتغال فِكْرِهِ بما الْتَزَمَهُ من ديون أخيه وكثرة التعرض له بسببها من الدوادار الكبير، وكذا الثاني مرة بعد أخرى، وآلَ الأمر في بعضها إلى أن أَمَرَ السلطان بالترسيم عليه، وأقام بطبقة الزمان بِضْعَةَ عَشَر يومًا، وعَدَّ ذلك في النوازل ثم أُطْلِقَ، وبعد ذلك أُنْهِيَ إلى السلطان في شيء من تتمات ما أُشِيرَ إليه يقتضي تَغَيُّر خاطِرِه منه، فبادر يوم الاثنين سادس صفر سنة سبع وسبعين إلى التصريح بِعَزْلِه، وتقرير الشيخ برهان الدين اللقاني، وجاءه الشرفي الأنصاري مُبَشِّرًا بذلك، وتَأَلَّمَ السراج لهذا الأمر كثيرًا، وظَنَّ أنه بسبق سعي من البرهان، والظاهر خلافه، وكذا تَأَلَّمَ له أحبابه، هذا بعد أن كان في أول هذا الشهر وقت التهنئة بَالَغَ في المشي فيما رأى أنه الْحَقُّ مما هو مُوافِق لِغَرَض السلطان في قَتْلِ شاه سوار، الذي شَرَحْتُ خَبَرَهُ في غير هذا المحل، وَجَهَرَ بذلك جَهْرًا زائدًا عن رفقته، وأنه لا تُقْبَل توبته، بل يُضَمُّ إليه في القتل كل جماعته، ولم يُعْجِب السلطان فيما قَبْلُ الجَهْرُ بذلك، بل كان يُحِبُّ إخفاء الأمر فيه، والله يُحْسِنُ العاقبة، ثم تَرْجَم لأخيه، فقال:

محمد بن أبي بكر بن محمد بن حُرَيْز، وباقي نَسَبِه مَضَى في أخيه عُمَر القاضي حسام الدين أبو عبد الله الحسيني المغربي الأصل الطهطائي المنفلوطي المصري المالكي، عُرِفَ بابن حُرَيْز، وُلِدَ في العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربع وثمانمائة بمنفلوط، وانْتَقَلَ منها وهو صغير مع أبيه إلى القاهرة، فقرأ القرآن بها على الشريف جمال الدين ابن الإمام الحسيني، وتلاه برواية أبي عمرو من طريق الدوري على الجَمَّال يوسف المنفلوطي أحد تلامذة جَدِّه الأعلى أبي القاسم المذكور بالإمامة في القراءات وغيرها، كما سَلَفَ في أخيه عُمَرَ، ثم على الشهاب ابن البابا والشهاب الهيثمي، وتلاه بعد ذلك وهو كبير في مجاورته بمكة بالسبع أفرادًا وجَمْعًا على الشيخ محمد الكيلاني أَحَد أصحاب الشمس ابن الجزري، ابْتَدَأَ عليه في عاشر المحرم سنة ثمان وأربعين، وختم في رابع ذي

الحجة منها، وحَفِظَ قبل ذلك العمدة، والشاطبية، والرسالة، والألفية، وعَرَضَهَا على الجَمَّال الأقفهسي والبدر الدماميني والشمس البساطي وابن عمه القاضي جمال الدين والشمس ابن عماد والولي العراقي والعز بن جماعة والجلال البلقيني والشمس والمجد البرماويين وشيخنا والتلواني وآخرين، وتَفَقَّهَ على الزين عبادة، قَرَأَ عليه الرسالة مرتين، وَصَلَ في الثانية إلى الوصايا ورُبْع العبادات فَقَطْ من ابن الحاجب، والرسالة فَقَطْ على الشمس الغماري المغربي، نزيل الصرغتمشية، وكذا أَخَذَ عن الشمس البساطي وغيرهم، وسَمِعَ على الولي العراقي بعض الصحيح، وعلى الزين بن عياش بمكة صحيح مسلم والسُّنَن لأبي داود، وعلى البدر حسين الأهدل بقراءته الشفاء، وبقراءة القاضي فتح الدين بن سويد الْمُوَطَّأ، وعلى الشرف أبي الفتح المراغي بقراءة ابن سويد أيضًا الشفاء، كل ذلك في مجاورته الماضية بعينها، وكان حَجَّ قَبْلَ ذلك في سنة اثنتين وعشرين، ووَلِيَ قضاء منفلوط عن شيخنا فمَنْ بَعْدَه، وأَوْرَدَ شَيْخُنَا في حوادث سنة اثنتين وأربعين أن القاضي بهاء الدين الإخنائي حَكَمَ بحضرة مُسْتَنِيبِيه بقتل بخشيباي الأربلي حَدًّا؛ لِكَوْنِه لَعَنَ أَجْدَاد صاحب الترجمة بَعْد أن قال له: أنا شريف وَجَدِّي الحسين ابن فاطمة بِنْت رسول الله ﷺ، واتَّصَلَ ذلك بقاضي الإسكندرية فأعذر، ثم ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

ولازم القاضي حسام الدين المُطَالَعَة في كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والأدب حتى صار يَسْتَحْضِرُ جُمْلَة مُسْتَكْثَرَة من ذلك كُلِّه، ويُذَاكِرُ بها مذاكرة جيدة، مع سرعة الإدراك، والفصاحة، والبشاشة، والحياء، والشهامة، والبذل لسائليه وغَيْرِهم، والقيام مع مَنْ يَقْصِدُهُ في مُهِمَّاتِه، واقتناء الكتب النفيسة، والتبسط في أنواع المَأْكَل ونَحْوِها، والقيام بما يُصْلِحُ مَعِيشَتَهُ مِنْ زَرْع الْغِلَال والْقَصَبِ وطَبْخِ السُّكَّرِ وغَيْرِ ذَلِكَ، وحَمِدَ الناس مُعَامَلَتَهُ في صِدْق اللهجة والسماح وحُسْن الوفاء، حتى رَغِبَ ذَوُو الأموال في مُعَامَلَاتِه، وممن كان يَتَرَدَّد إليه من مشايخنا؛ لمزيد إحسانه وإكرامه السيد النسابة، وربما سَمَّعَ الحسام عليه بَعْض النَّسَائِيِّ الكبير، بَل اسْتَكْتَبَهُ لِيَسْمَعَهُ بتمامه فما تَيَسَّرَ، والزين البوتيجي، وكان يَحْكِي من كرامات بَعْض سَلَف الحسام شيئًا كثيرًا، ولم يَزَلْ دَأْبُه ما حكيناه إلى أن مات القاضي وَلِيُّ الدين السنباطي في ليلة الجمعة تاسع شهر رجب سنة إحدى وستين، والْتُمِسَ مَنْ يَصْلُح لقضاء

المالكية ويُسْتَقَرُّ لمن بَعْدَهُ فِيهِ، وتَطَاوَلَ لذلك غَيْرُ واحد، فاقتضى رأي الجمالي ناظر الخاص استقراره به، ولِمَا عَلِمَه فيه من رِيَاسَتِهِ وشَهَامَتِهِ وراسل كلًّا من القاضي الشافعي ابن البلقيني، والقاضي الحنفي ابن الديري في الثناء عليه عند السلطان واستحقاقه له، فَفَعَلَا واسْتَقَرَّ في يوم الأحد ثاني عشر الشهر المذكور، ورَكِبَ في أُبَّهَة وخَفَر، وفَرِحَ الناس به لا سيما رُفْقَتُهُ من بَقِيَّة المَذاهب لِمَا وَقَرَ عندهم من حِشْمَتِهِ ومَحَاسِنِه الجَمَّة، وحينئذ بَاشَرَهُ بعفة ونزاهة وشهامة مُفْرِطَة وقيامٍ بأعباء جماعة مَذْهَبِهِ والإنعام عليهم بأنواع من الإكرام، فاجْتَمَعَ شَمْلُهُم بوجوده، وبَلَغَ كُلُّهُم فيما يُؤَمِّلُهُ غايةَ مقصوده، ومَنَعَهُمْ من تَعَاطِي الأخذ على الأحكام، وأَكَّدَ على مَنْ لَمْ يَثِقْ به منهم في ذلك التأكيد التام حتى بالأيمان ونحوها، ولَزِمَ الاختصاص به من أعيانهم البدر بن المخلطة، وقَرَأَ عِنْدَه في المدارك للقاضي عياض، وفي الجواهر لابن شاس وغيرهما، واستناب في بعض الأوقات في تدريسه أَعْيَان المذهب قَصْدَ البِرِّ بِهِمْ، ففي المنصورية الشيخ يحيى العلمي، وفي الناصرية الشيخ نور الدين السنهوري، وفي الصالحية الشيخ نور الدين الوراق، وتزاحم عليه الفضلاء من سائر أرباب المذاهب، وممن تَرَدَّدَ إليه الشهاب بن صالح أَحَد نوادر أئمة الأدب، وسَمِعْتُ حينئذ قاضي المذهب الحنبلي — وناهيك بذلك مِنْ مِثْلِه — يقول: إن الشهاب لا يَنْهَضُ أَنْ يُغْرَبَ عليه في فَنِّه؛ إشارة إلى ملاءته وتَقَدُّمه في جودة مُحَاضَرَتِهِ، وكذا كان الشهاب ابن أسدٍ شَيْخ القراء في زَمَنِهِ ممن يَتَرَدَّد إليه، وقد صَحِبْتُهُ قَبْل استقراره في المنصب، وساعدني في بعض القضايا، وكان يُجِلُّنِي وسَمِعَ من لَفْظِي بعض تصانيفي بحضرة الإمام الزين البوتيجي، وتَفَضَّلَ هو بسؤالي في الإذن له بالإجازة، وكتب القاضي خَطَّهُ بما يَشْهَدُ لهذا.

ولما اسْتَقَرَّ الْتَمَسَ مِنِّي إسنادي بالبخاري ونَحْوِه، فخَرَّجْتُ له جزءًا فيه أسانيد كثيرة من الكتب الحديثية والعلمية، فسُرَّ بذلك ورَغِبَ إليَّ في تبييض ما عَلِمَ أنني جَمَعْتُهُ من طبقات المالكية والمرور عليه عنده، فعَاقَ عنه بعض الشواغل، وكذا رَغِبَ في قراءتي الجامع للترمذي عنده في رمضان فَفَعَلْتُ، وحَرَصَ على المداومة على ذلك، فثَقُلَتْ عَلَيَّ الحركة بسبب ذلك خصوصًا في شهر الصوم، فبادَرَ صاحِبُنا الشمس ابن الفالاتي لذلك وانْتَهَزَ الفرصة، فلم يَزَلْ يقرأ عنده حتى مات، واقتصر في آخِرَةِ الأمر عليه بعد أن كان يَقْرَأُ

عنده الثلاثة فأكثر، ويُنْعِمُ على القُرَّاء بالخُلَع والجوائز وغَيْر ذلك في الضحايا وغيرها، بل ويَصْرِفُ على جميع مَنْ يَحْضُرُ عنده يوم الختم دراهم مُتَفَاوِتَة على قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ، ولما مات يحيى العجيسي استقر في تدريس الشيخونية، ثم لما مات وَلَدُهُ اسْتَقَرَّ في تدريس جامع طولون، وباشر التدريس فيهما، وكذا دَرَّسَ بالمؤيدية نيابة عن ولد صاحبه البدر بن المخلطة بَعْد وفاة والده، وفي سَلْخ المحرم سنة ثلاث وستين لبس خلعة الاستمرار.

ولم يَزَلْ على جلالته وعُلُوِّ مكانته في جميع ما أَشَرْتُ إليه حتى حَصَلَ بينه وبين العلاء بن الأهناسي الوزير ما يَقْتَضِي الاستيحاش، فقام في معاونة الشرف يحيى بن صنيعة أحد الكتاب حتى اسْتَقَرَّ عوضه في الوزارة في ربيع الآخر سنة ست وستين بعد أن رَسَمَ بالقبض على ابن الأهناسي، وهو بالوجه القبلي في الصعيد، ولَزِمَ من ذلك قِيَامُهُ مَعَهُ خوفًا من حصول خَلَلٍ يعود اللوم عليه بِسَبَبِهِ، حتى يقال: إنه تَكَلَّفَ في تلك الحادثة نحو ثلاثين ألف دينار، فتزايَدَتْ ديونه بسبب ذلك، وطَمِعَ فيه أرباب الدولة، وأَدَّى ذلك إلى انحطاط جانبه، وهو مع ذلك لا يَنْفَكُّ عن التجمل جهده، وإظهار الجلد والصبر لمن يجيء عنده، إلى أن كاد الأمر يَتَفَاقَمُ، فلَطَفَ الله به، ومات في ليلة الاثنين مستهل شعبان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة بمَنْزِلِهِ بمصر، وصُلِّيَ عليه من الغد بجامع عمرٍو، تَقَدَّم للصلاة عليه أخوه السراج عمر الماضي، ودُفِنَ بتربة جَدِّهِ مِنْ قِبَلِ أُمِّهِ الشيخ محمد الهلالي العريان بجوار تربة الشيخ أبي العباس الجرار من القرافة الكبرى عند أولاده، واسْتَقَرَّ أخوه في المنصب بَعْدَهُ، ولم يَتَعَرَّض لوظيفة الشيخونية وجامع طولون كما سَلَفَ، وقد قَتَلَ بسيف الشرع جماعة من المفسدين منهم حمزة بن غيث بن نصير أحد مشايخ العريان أبوه بالغربية، ومنصور بن صفي الاستادار، وما خلا عن عَتَبٍ في بعضهم جَرْيًا على عادة الناس في اختلاف أَغْرَاضِهِمْ، وكان مُنْفَجِمًا على قَتْل سعد الدين بن بكير القبطي، فَكَفَّهُ عنه بعض الحنابلة العز الكناني، كما سَلَفَ في ترجمته.

وفي تاج العروس شرح القاموس للسيد مرتضى في صحيفة ٢٥ من الجزء الرابع ما نصه:

والشريف أبو المعالي حُرَيْز كزُبَيْر، ويُدْعَى أيضًا مُحْرِز بن الشريف أبي القاسم الحسيني الطهطائي التلمساني، تَقَدَّمَ في القراءات كأبيه، ورَوَى وحَدَّثَ، وكذا وَلَدُهُ الإمام المُحَدِّث شمس الدين محمد، وحفيده القاضي مجد الدين أبو بكر بن محمد بن حُرَيْز، تَوَلَّى القضاء بمنفلوط، وحَسُنَتْ سِيرَتُهُ، ووَلَدُه قاضي القضاة أبو عبد الله حسام الدين محمد، حَدَّثَ عن أبي زرعة العراقي، وأخوه سراج الدين عمر تُوُفِّيَ سنة ٨٩٢ وهم أكبر بيت بالصعيد، يقال لهم: المحارزة والحريزيون.

وقول السخاوي في ترجمة الأول في حَقِّ جَدِّه: أَنْجَبَ أولادًا وذَكَرَ منهم اثنين، وأقول: إن الثالث منهما يُسَمَّى يَحْيَى، وعائلتنا بطهطا الموجودة الآن هم من ذرية يحيى الذكور، وينتهي نَسَبُنَا إليه، حيث إن المرحوم والدي السيد بدوي بن علي بن محمد بن علي بن حُرَيْز بن أبي القاسم الصغير بن جلال الدين، وليس عندي الآن بمصر السلسلة الموصلة إلى سيدي أبي القاسم:

أَحْبَبْتُ أَرْوِي صِحَاحَ دُرٍّ عن حَسَنٍ جَاءَ عَنْ مُسَدَّدْ
سِلْسِلَةً أَطْلَقَتْ بَيَانِي لَكِنَّ رِقًّى بِهَا مُقَيَّدْ

ومن جهة الأم فوالدتي فاطمة بنت المرحوم الشيخ أحمد الفرغلي الأنصاري ابن المرحوم الشيخ عبد العزيز الأنصاري ابن المرحوم القاضي أبي الحسن الأنصاري ابن المرحوم العلامة القاضي محمد الأنصاري، ينتهي نَسَبُهُمْ إلى الإمام العالِم القُطْب الرباني سيدي رفاعة بن عبد السلام الأنصاري المشهور بالخطيب المكتوب على ضريحه:

اقْصِدْ رِفَاعَة كُلَّمَا كَرْبٌ يَضِيقُ سَبِيلُهُ
وانْزِلْ بِسَاحَتِهِ وَقُلْ حاشا يُضَامُ نَزِيلُهُ

وعلى كل حالٍ فما أَحْسَنَ قَوْل مَنْ قال:

يزداد في مَسْمَعِي تِكْرَارُ ذِكْرِكُمُ طِيبًا ويَحْسُنُ في عَيْنِي مُكَرَّرُهُ

ويتفرع عن عائلتنا التي بطهطا عائلة شريف إبيار المشهورة، فإنها نزلت بإبيار في القرن الحادي عشر، وهم بَيْت مَجْد مُؤَثَّل كأصولهم، وأما أولاد سيدي حُرَيْز فهم أشراف أسيوط، وفيهم النقابة إلى الآن، ولعل هذا هو معنى قول النسابة عبد الواحد بن إبراهيم الحُسَيْنِي الهاشمي في نبذة الأنساب عند ذِكْر الأشراف بعد أن ذَكَرَ بني الحسن، وأنهم في جرجا؛ يعني: أشراف منشأة النيدة، قال: وفي أسيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي بن الحسين بن علي عليهما السلام، يُعْرَفُون بأولاد الشريف قاسم، انتهى.

ومن أولاد حُرَيْز أشراف منفلوط وفيهم النقابة والقضاء إلى الآن، ومنهم فَرْعُ العالِم الفاضل السيد حسنين حُرَيْز الغمراوي، أحد فضلاء الجامع الأزهر ومُدَرِّس الجامع العالي بالقلعة العامرة، ومنهم فَرْع مُنْتَشِر في بلاد أناطلي.

وأما أولاد سيدي علي نور الدين البصير المدفون بجزيرة شندويل بعمالة جرجا، وله مَشْهَد يُزَارُ، فهم أَشْرَافُ جَزِيرَة شَنْدَويل، ومنهم جماعة بقرية مطاي بالأقاليم الوسطى، ومنهم أشراف عربان بالوجه البحري، مشهورون بالقواسم، منهم العالِم الفاضل الشيخ إسماعيل رأس نقباء الطريقة المحمدية الدمرداشية حَالًا، ويُفْهَم من قول العلامة السخاوي أن القاضي حسام الدين جده لأمه الشيخ محمد الهلالي العريان، ومع ذلك فسيدي أبو القاسم أستاذه هذا الشيخ المذكور، حيث يوجد في مناقبه أن الشيخ محمد الهلالي العريان أَلْبَسَهُ طَاقِيَّتَهُ، كما أَشَرْتُ لذلك في قصيدة جامعة لِمَنَاقِبِهِ منها قَوْلِي:

طَاقِيَّة الْعُرْيَان قَدْ أُلْبِسْتَهَا رَمْزًا لِسِرِّ خِلَافَةٍ آنَسْتَهَا
كَمْ صُنْتَ طَهْطَا مِنْ أَذًى وحَرَسْتَهَا كم مِنْ يَدٍ بَيْضَاءَ مِنْكَ غَرَسْتَهَا
ثَمَرَاتُهَا لِبَنِيكَ أَضْحَتْ مَكْسَبَا

وقَدْ جَدَّدَ الأمير الكبير والمُفْرَد العِلْم الشهير لطيف باشا ناظر عموم البحرية سابقًا جامع سيد أبي القاسم بطهطا، وتَأَنَّق في بنائه بالبناء العجيب الذي صَرَفَ فيه جزيل الأموال مِنْ ضِمْنِ ما جَدَّدَهُ بطهطا من العمائر؛ كالحمام النفيس المَبْنِي على شَكْل حمام

المرحوم مطلوش باشا بالإسكندرية؛ مما به صارت طهطا بهية، جزاه الله خير الجزاء، وأحسن له الحال والمآل، وفي هذا القدر مَقْنَع، وإنْ كان مجال الكلام أَوْسَع.

وقد كان كُلٌّ من القاضي حسام الدين والقاضي سراج الدين ابني حُرَيْز بلفظ التصغير، بحاء مضمومة ثم راء مُهْمَلَة ثم زاي مُعْجَمَة، خلافًا لِمَا وُجِدَ مِن الرسم في طَبْع حُسْن المحاضرة في ذِكْر قضاء المالكية بأن حُسَام ابن جَرِير، وصِحَّتُهُ ابن حُرَيْز بالحاء والراء والزاي، وكان تَوْلِيَتُهُمَا القضاء في زمن ملوك الجراكسة، وكان مَنْصِب القضاء في ذلك العهد وما قَبْلَه يَتَعَدَّد بمصر بتعدد المذاهب الأربعة حتى مَنْصِب قضاء العسكرية، فكان تارة يُضَاف إلى القاضي الحنفي، وتارة يُضَاف إلى القاضي الشافعي، وتارة يَنْفَرِد به قاضٍ حنفيٌّ وما ذاك إلا أن قاضي العسكر إنما يُنْتَفَعُ به في الجهاد ووَقْت خروج العسكر، وتَقَع وصايا من الأمراء وشهادات بينهم، ولا يوجد في العسكر الجالسين في المراكز أحد، ويُحْتَاج إلى إثبات ذلك عند القاضي الشافعي، فلا يَسْمَع شهادة العسكر فيَتَعَطَّل إثبات ذلك فتَبْطُل وصاياهم وشهاداتهم؛ فلهذا السبب وَلَّى المَلِك الظاهر بيبرس القاضي الحنفي لِمَا اتَّفَقَ له في الجهاد مثل ذلك.

وامتنع القاضي الشافعي في ذلك الوقت من سماع شهاداتهم، ثم بتداول الأيام ودخول أكثر الممالك الإسلامية في قَبْضَة الدولة العثمانية المُقَلِّد جمهور حُكَّامِهِم لأبي حنيفة النعمان، انتهى الأمر أن صار حَصْر القضاء على مذهب إِمَامِهِم الذي هو أَوَّل مَنْ دَوَّنَ الفِقْه وجَمَعَهُ، وتَقَدَّمَ وسَبَقَ من العلماء مَنْ تَبِعَهُ، واخْتَصَّ بكثير من الفروع التي تُلَايِم ولاة الأمور، وأَعْظَمُهَا عَدَم اشتراط أمور كثيرة في المراسم السلطانية، والفسحة في اشتراط المعدلة، وإن كانت في الغالب لا يخلو منها مَنْ قَضَتْ له بالتولية الإرادةُ الصمدانية، فيجوز تقليد الإمام غير القرشي المناصب والأعمال، وأَصْلُهُ قصة معاوية، فإن الصحابة تَقَلَّدُوا منه الولايات، واستدل الشافعية بقوله ﷺ: «الأئمة من قريش» فبهذا كان مذهب أبي حنيفة أَوْفَقَ للملوك وأَصْلَح.

ومن الفروع أَنَّ من له أرض خراجية عَجَزَ عن زراعتها وأداء خراجها فللإمام على مذهب أبي حنيفة أن يُؤْجِرَها من غيره، ويَأْخُذ مِنْ أُجْرَتِها الخراج سواء رضي صاحبها بذلك أمْ لَمْ يَرْضَ، ومنها أَنَّ مَنْ عَزَّرَهُ ولي الأمر لاستحقاقه التعزير فمات في أثناء تعزيره فلا ضمان عند أبي حنيفة على ولي الأمر، وهذه المسألة موافقة لولاة الأمور، ولَوْلَاهَا لَفَسَدَ أَمْرُهُمْ، ومنها أَنَّ مَنْ أحيا أرضًا مواتًا بإذن وَلِيِّ الأمر مَلَكَهَا، وإن كان بغير إِذْنِهِ لم يَمْلِكْهَا عند أبي حنيفة، ومنها إذا احتاج وَلِيُّ الأمر إلى تقوية الجيش له أن يَأْخُذَ

من أرباب الأموال ما يَكْفِيه من غير رضاهم على مذهب أبي حنيفة، ففيه مساعدة لولاة الأمور على مشروعاتهم حتى لو اضْطُرَّت الحكومة إلى تولية قاضٍ غير حنفيٍّ وَجَبَ تَقْلِيده لمذهب أبي حنيفة؛ لأجل الولاية وإجراء الأحكام عليه.

ثم إن الحالة الراهنة اقْتَضَتْ أن تكون الأقضية والأحكام على وَفْق معاملات العصر بما حَدَثَ فيها من المتفرعات الكثيرة، المتنوعة بتنوع الأخذ والإعطاء من أمم الأنام، وقد تَقَدَّمَ بعض ما يَتَعَلَّق بذلك في الفصل الرابع من الباب الثاني، ومن المعلوم أن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يُغَادِر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأحياها بالسقي والري، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ فلا ريب في انقياد شمم كل عرنين إليها صاغرًا بدوام النفوذ، ولم تَخْرُج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لا على سبيل التهاون ولا على سبيل الشذوذ، بل سَارَتْ على مشاعب المذاهب لمجاراة مُجْرَيَات النوازل والنوائب، وما شُرِعَ مَذْهب السيف إلا لِنُصْرة مذاهب الشرع؛ لأنها أَصْلٌ وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع، فاختلاف مذاهب الأئمة رحمة، وجواز تقليد أي واحد منهم والرجوع إلى اجتهاد الآخرين للحاجة نِعْمة، ومما يُسْتَأنس به في الأقضية والأحكام بهذه الأزمان ما أَفْتَى به، وقد سُئِل عنه العلامة الشيخ محمد الشافعي الشهير بالصبان، وقد عَثَرْتُ بهذه الفتوى الجليلة، وهي جديرة بأن يَجْعَلَهَا مَنْ يريد التقليد للحاجة دَلِيلَهُ.

ونص السؤال: «ما قولكم — دام فَضْلُكُمْ — في الانتقال في بعض المسائل إلى غير المذهب الذي عليه الشخص، هل يجوز ولو كان متبوعه في هذا البعض مفضولًا، وهل يجوز العمل بالقول الضعيف في خاصة النفس، وهل يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة؟ أفيدوا الجواب.»

ونَصُّ الجواب بِخَطِّهِ مَشْمُولًا بِاسْمِهِ وختمه، محفوظًا عندي بِرَسْمِهِ ووَسْمِهِ:

الحمد لله وَحْدَهُ

قال الزركشي في البحر المحيط: في تقليد المفضول مذاهب أَحَدُهَا امتناعه، ونُقِلَ عن أحمد وابن سريج ثانيها — هو الأصح، واختاره ابن الحاجب وغيره — الجواز، ثالثها: يجوز لمن يَعْتَقِدُهُ فاضلًا أو مساويًا، وقال في موضع آخر: لو الْتَزَمَ العامي مَذْهَبًا معينًا واعْتَقَدَ رُجْحَانَه من حيث الإجماع، فهل يَجُوزُ أن يُخَالِفَ إمامه في بعض المسائل، ويأخذ بقول مُجْتَهد آخر؟ فيه خلاف، والأصح الجواز كما في الرافعي، ثم قال: وقَسَّمَ بَعْضُهُمْ الْمُلْتَزِمَ لمذهب إذا أَرَاد

تَقْلِيدَ غيره إلى أحوال، إلى أن قال: الثانية أن يُقْصَدَ بتقليده الرخصة فيما هو مُحْتَاج إليه لحاجة لَحِقَتْهُ، أو ضرورة أَرْهَقَتْهُ، فيجوز إلى أن قال: السادسة أن تُجْمَع من ذلك حقيقة مُرَكَّبَة ممتنعة بالإجماع فيَمْتَنِع، كما إذا افْتَصَدَ ومَسَّ الذَّكَرَ وصَلَّى «أي: لأن ذلك يُعَدُّ تلفيقًا في مسألة واحدة»، ثم ذَكَرَ الخلاف في جواز التقليد بعد العمل، والخلاف في جواز تَتَبُّع الرخص، ورَجَّحَ المنع، وحكى الجَوَازَ عن بعض مشايخ الشافعية، ثم قال: لا يَنْبَغي إطلاق القول بالجواز لكل أحد، بل يُرْجَعُ إلى حال المستفتي وقَصْدِهِ، كما وَقَعَ لابن القاسم مع وَلَدِهِ؛ إذ حَنِثَ في يمين بالمشي إلى الكعبة، فاستفتى أباه، فقال له أُفْتِيكَ: فيها بمذهب الليث كَفَّارَةُ يمين، وإن عُدْتَ أُفْتِيكَ بمذهب مالك؛ يعني: الوفاء.

ويجوز عَمَلُ الشخص بالقول الضعيف في حَقِّ نَفْسِهِ خاصة إذا دَعَتْ إليه حاجَة، ولم يَلْزَم تَتَبُّع الرخص ولا تركيب حقيقة أُجْمِع على بطلانها، وإنما الممنوع أن يُفْتِيَ به أو يَحْكُم، وفي البحر المحيط أيضًا مُجْتَهِد الصحابة إذا لَمْ يُجْعَل قَوْلُهُ حُجَّةً، ففي جواز تَقْلِيدِه في هذه الأعصار خلاف، ذَهَبَ إمام الحرمين وغَيْرُه؛ إلى أن العاميَّ لا يُقَلِّدُه، وبه جَزَمَ ابن الصلاح وزاد أنه لا يُقَلِّد التابعين أيضًا ولا غَيْر مَنْ لَمْ يُدَوِّن مَذْهَبَه؛ لعدم الوقوف على حقيقة مَذَاهِبِهِمْ، فإنهم إنما نُقِلَ عنهم فَتَاوَى مُجَرَّدَة، فلعل لها مُكَمِّلًا أو مُقَيِّدًا أو مُخَصِّصًا، لو انْضَبَطَ كلام قَائِلِهِ لَظَهَرَ، فمُقَلِّدُهم على غير ثقة، وعلى هذا فينحصر التقليد فيمن دون مذهبه كالأربعة والأوزاعي وسفيان وإسحاق وداود على خلاف في داود، وذَهَبَ غيرهم إلى أن الصحابة يُقَلَّدُون، وهذا هو الصحيح إنْ عُلِمَ دَلِيلُهُ، وقد قال الشيخ عز الدين في فتاويه: إذا صَحَّ عن بعض الصحابة مَذْهَبٌ في حُكْمٍ جَازَ تَقْلِيدُه، وإلا فلا، انتهى. وبالجملة: يَخْتَصُّ التقليد بالأربعة على كِلَا القولين والله أعلم، كَتَبَهُ الفقير محمد الصبان الشافعي.

موضع الختم

مرتجي الغفران محمد الصبان

وقوله: وسفيان، لعله أراد به أبا عبد الله سفيان بن سعد الثوري، نسبة إلى ثور بن عبد مناف، وقيل: إلى ثور همدان الكوفي مات بالبصرة في شعبان، ودُفِنَ بها لإحدى وستين ومائة، ولم يَزَل مُقَلِّدُوه إلى القرن السادس، ومن الناس مَنْ يَعُدُّ مِنْ أصحاب المذاهب سفيان بن عيينة، فيَدْخُل تَحْتَ كافِ التمثيل كما يَدْخُل أيضًا إسحاق بن راهوَيْه، ومحمد بن جرير الطبري، وقوله: وداود على خلافٍ فيه، لَعَلَّه نَظَرَ إلى قول إمام الحرمين: إن المحققين لا يقيمون للظاهرية وَزْنًا، وإن خلافهم لا يُعْتَبَرُ، ولكن قال العلامة اللقاني في شرح الجوهرة عند قوله: ومالِكٌ وسائر الأئمة إلى آخره: حَمَلَ ابن السُّبْكِي قول إمام الحرمين على ابن حَزْم وأمثاله، قال السبكي: وأما داود، فمَعَاذَ الله أن يَقُولَ إمام الحرمين أو غَيْرُه أن خلافه لا يُعْتَبَر، فلقد كان جَبَلًا من جبال العِلْم والدِّين، وله من سَدَاد النظر وسِعَة العلم ونُور البصيرة والإحاطة بقول الصحابة والتابعين، والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه، وقد دُوِّنَتْ كُتُبُه، وكَثُرَتْ أَتْبَاعُه، وذَكَرَهُ الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقاته من الأئمة المتبوعين في الفروع، وقد كان مشهورًا في زمن الشيخ وبَعْدَه بكثير، لا سيما في بلاد فارس شيراز وما والاها إلى ناحية العراق وفي بلاد المغرب، انتهى، على أنَّ ابن حَزْم المحمول عليه عَدَم اعتبار المَذْهَب نَسَبَ إليه بَعْضُهُم الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي وأنه مِنْ مُقَلِّدِيه، حكاه العلامة الأمير في حاشيته على شرح الملوي للسمرقندية عند التكلم على البسملة، ثم قال: وَجَدْتُ في ديوان محيي الدين ما يَدُلُّ على اجتهاده، وهو قوله:

نَسَبُونِي إلى ابنِ حَزْمٍ وإني ... لَسْتُ ممن يَقُولُ قال ابنُ حَزْمِ
لا ولا قال غَيْرُهُ فمَقَالِي ... قالَ نَصُّ الكتاب ذَلِكَ عِلْمِي
أو يَقُولُ الرسول أَوْ أَجْمَعَ الْخَلـ ... ـقُ على ما أَقُولُ ذلك حُكْمِي

وأما الأوزاعي وهو أبو عمر وعبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي إمام أهل الشام، روى عنه الثوري، وأَخَذَ عنه عبد الله بن المبارك وجماعة كثيرة، وُلِدَ ببعلبك، ثم نَقَلَتْهُ أُمُّه إلى بيروت، ودُفِنَ بقرية على باب بيروت، يُقَال لها: حنتوس في قبلة المسجد، ولا يَعْرِف قَبْرَه بها إلا الخَوَاصُّ من الناس، وأما أهل القرية فيقولون: ها هنا رجل صالح، يَنْزِل عليه النور، وأما ذِكْر العلامة الصبان، نَقْلًا عن الزركشي استفتاء وَلَد ابن القاسم، وإفتاء أبيه له على مَذْهَب الإمام الليث؛ فيَدُلُّ على جواز الإفتاء بغير المذاهب الأربعة؛ كجواز العمل في حِقِّ نَفْسِه، فحينئذ قول السبكي: «يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة في

العمل»، في حَقِّ نَفْسِه، لا في الإفتاء والحكم؛ كما قاله ابن الصلاح، فلعله ليس على إطلاقه، وأَمَّا ذِكْر العلامة الصبان أَصَحِّيَّة تقليد الصحابة فيما عُلِمَ دليله وَصَحَّ عنهم فظاهرٌ؛ لأن جميعهم رضي الله عنهم لا يَتَطَرَّق إلى آرائهم تجريح؛ إذ كُلُّهُم عدول؛ لأن الله عز وجل ورسوله زكَّيَاهم وعَدَّلاهم، فمذهب كل منهم صحيح رجيح، ومما يدل على أن التشديد والتخفيف في الأحكام قد يختلف باختلاف الأزمان والأيام ما قاله العلامة السيوطي في كتاب الإنصاف في تمييز الأوقاف: «إنك إذا تَأَمَّلْتَ فتاوى النووي وابن الصلاح وَجَدْتَهُمَا يُشَدِّدَان في الأوقاف غاية التشديد، وإذا تَأَمَّلْتَ فتاوى السبكي والبلقيني وسائر المتأخرين وَجَدْتَهُم يُرَخِّصُون ويسهلون، وليس ذلك منهم مُخَالَفة للنووي، بل كلٌّ تَكَلَّمَ بحسب الواقع في زمنه.» انتهى، وقد أتى بمثل ذلك نادرة عَصْره خير الدين باشا التونسي، وذَكَرَ في كتابه أَقْوَم المَسَالِك في معرفة أَحْوَال الممالك ما لَمْ يَسْبِق به غيره، ونَصَحَ أهالي الأوطان في سائر الممالك الإسلامية بِمَا لا يُنْكَر لدين الإسلام من النفع خَيْرُهُ، فإنه حَمَلَ هموم أوطانه وإخوانه المسلمين عملًا بحديث: «مَنْ لَمْ يَحْمِل هَمَّ المسلمين فليس منهم، ومن لَمْ يَهْتَمَّ بأمر المسلمين فليس منهم»، وكان عمر بن الخطاب إذا نَزَلَ بالمسلمين بلاء لا يَضْحَكُ قط حتى يرتفع ذلك البلاء، وكذلك عمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري وغيرهم، فتنظيم كتاب للأحكام الشرعية بمناسبة تفرع النوازل في هذه الأيام بأكمل نظام مما تنتظم به الأحكام القضائية في أوطاننا، ويكون عمدةً للقضاة والحُكَّام.

وعلى وَلِيِّ الأمر إذا أراد أن يُوَلِّيَ القضاء لأحد على مَذْهَبِهِ أن يَطْلُبَ أعيان ذلك المذهب، ويَسْأَل كل واحد بانفراده سِرًّا عن رَجُلٍ يصلح للقضاء، يكون كاملًا في العقل والدين، وإن اجْتَمَعَ مع هذين الوصفين الكمال في الفضيلة فهو أجود، وإلا فالمتوسط في الفضيلة مع كمال هَذَيْن الوصفين أَوْلَى، فإذا اتَّفَقُوا أو أَكْثَرُهُم على تعيين شَخْص صَرَفَهُمْ عن مَجْلِسِهِ، ثم سأل عن هذا الشخص الذي عَيَّنَ من غَيْر أَهْل مَذْهَبِه سِرًّا، فإن أُثْنِيَ عليه بأنه أَكْمَل أَهْل مَذْهَبه في العقل والدين اسْتَخَارَ الله تعالى وَوَلَّاه، وإن أَثْنَوْا على غَيْرِه أَكْثَرَ منه جَمَعَ أَعْيَان ذلك المذهب في مَجْلِسه وأَهْل المذهب الآخر، وذَكَرَ لهم ذلك الشخص الذي عَيَّنَ أَوَّلًا وهذا الشخص الآخر، وطَلَبَ منهم أن يَتَّفِقُوا على الأرجح منهما، فإن اتَّفَقُوا أو أَكْثَرُهُم على أَحَد الشخصين وَلَّاه، ولا يَعْتَمِد الترجيح إلا على الأدْين الأعْقل، ولا يَغْتَر بكثرة الفضيلة مع قلة الدين والعقل، فيكون الضابط لولي الأمر حينئذ في هذا الباب اعتبار الأدْيَن الأعقل وإن لم يكن له فضيلة تامة، فإن المتدين تَمْنَعُهُ ديانته عن أن يَقَعَ فيما لا يجوز، وأن يحكم في شيء لا يَعْرِفُه، ولا كذلك الأعلم إذا كان مُتَهَاوِنًا في الدين

فإنه يُخْشَى منه، وهكذا أصحاب أبي حنيفة نَصُّوا: أنه إذا اجْتَمَعَ الأدْيَن والأعلم قُدِّمَ الأدين، وإنما وَجَبَ الفحص عن أهلية القاضي وَقْت الولاية، وأنه يكون أَدْيَن أَهْل مَذْهَبه وأَعْقَلهم؛ لقوله عليه السلام: «مَنْ قَلَّد إنسانًا عملًا وفي رعيته مَنْ هو أَوْلى منه فَقَد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين»، فعلى ولاة المسلمين أن لا يَخْرُجوا عن هذا الأمر الذي قاله رسول الله ﷺ مع قوله تعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم إن القاضي مَتَى تَقَلَّدَ مَنْصِب القضاء، وحَصَلَ على توليته التوافق والرضا، فقد أَصْبَحَ بِيَدِهِ زِمَام الأحكام، وفَصْل القضاء الذي عَسَاه أن يُعْرَض على غيره من الحكام، وما منهم إلا من يَنْقُد نقد الصيرفي، ويَنْفُذ حُكْمه نَفَاذ المَشْرَفي، فليترو في أحكامه قَبْل إمضائها، وفي المُحَاكَمات إليه قَبْل فَصْل قضائها، وليراجِع الأمر مرة بعد مرة حتى يزول عنه الإلباس، ويعاود فيه بَعْد التأمل كتاب الله تعالى وسُنَّة رسول الله ﷺ والإجماع والقياس، وما أُشْكِلَ عليه بَعْدَ ذلك فَلْيَجْلُ مُظْلِمَهُ بالاستخارة، ولْيُحِلَّ مُشْكِلَهُ بالاستشارة، ولا يَرَ نَقْصًا عليه إذا استشار، فقد أَمَرَ الله رسوله ﷺ بالشورى، ومَرَّ مِنْ أَوَّل السلف مَنْ جَعَلَهَا بينه وبين خطأ الاجتهاد سُورًا، فقد يَسْنَح للمرء ما أعيا غَيْره وقد أَكْثر فيه الدأب، ويتفطن الصغير لِمَا لَمْ يَفْطِنْ إليه الكبير، كما فَطِنَ ابن عمر للنخلة ما مَنَعَهُ أن يَتَكَلَّمَ إلا صِغَرُ سِنِّهِ ولزومه مع مَنْ هو أَكْبر منه للأدب، ثم إذا وَضَحَ له الحق قَضَى به لِمُسْتَحِقِّهِ، وأَسْجَلَ له به، وأَشْهَدَ على نفسه بثبوت حَقِّهِ، وحَكَمَ له به حُكْمًا يَسُرُّه يوم القيامة أن يراه، وإذا كَتَبَ له به تَذَكَّرَ إذا بلي وأبقى الدهر ما كَتَبَتْ يداه، وليُسَوِّ بين الخصوم حتى في تقسيم النظر، وليَجْعَل كُلَّ عَمَلِهِ على الحق فيما أباح وما خَطَر، وليُجِدَّ النظر في أمر الشهود حتى لا يَدْخُلَ عليه زَيْف، وليَتَحَرَّ في استئداء الشهادات، فَرُبَّ قاضٍ ذَبَحَ بغير سِكِّين، وقاتِلٍ قَتَلَ بغير سيف، ولا يَقْبَل منهم إلا مَنْ عُرِفَ بالعدالة، وألف منه أن يرى، أو أمر النفس أَشَد العدى له وغير هؤلاء ممن لم تَجْر له بالشهادة عادة، ولا تَصَدَّى للارتزاق بسحبها، ومات وهو حي على الشهادة، فليَقْبَل منهم مَنْ لا يكون في قبول مِثْلِه مَلامة، فرُبَّ عَدْلٍ بين منطقة وسيْفٍ، وغيرِ عَدْل في فرجية وعمامة، ولينفث على ما يصدر من العقود التي يُؤَسَّس أكثرها على شفا جرف هار، ويوقع في مثل السفاح، إلا أن الحدود تدرأ بالشبهات، ويَبْقَى العار وشهود القيمة الذين يُقْطَع بقولهم في حَقِّ كل مُسْتَحِقٍّ، ومالِ كل يتيم، ويقلد شهاداتهم أمر كل عظيم، فلا يعول منهم إلا على كل رب مال عارف، ولا يخفى عليه القيم ولا يخاف معه خطأ الحدث، وقد

صقل التجريب مرآة فَهْمِهِ على طول القِدَم، ولْيَتَأَنَّ في ذلك كُلِّه أناة لا تقضي بإضاعة الحق، ولا إلى المطاولة التي تُفْضِي إلى حرمان مَن استحق، وليُمَهِّد لرمسه، ولا يتعلل بأن القاضي أسير الشهود وهو كذلك، وإنما يسعى لخلاص نَفْسِه، والوكلاء هم البلاء المُبْرَم، والشياطين والمسوِّلون لمن يوكلون له بالباطل ليقضي لهم به، إنما يَقْطَع لهم قطعة من جهنم، فليكف بمهابته وساوس أفكارهم ومَسَاوِئَ فجارهم، ولا يدع لَمَجْنِيٍّ أحدٍ منهم ثَمَرة ممنوعة، ولا يد اعتداء تَمْتَدُّ إلا مغلولة إلى عُنُقِهِ وإلا مقطوعة، وليُطَهِّر بابه مِنْ دَنَس الرُّسُل الذين يمشون على غير الطريق، وإذا رأى واحدٌ منهم دِرْهَمًا وَدَّ لو حَصَلَ في يده ووَقَعَ في نار الحريق، وغير هذا مما لا يَحْتَاج به مِثْلُه أن يُوصَى ولا أن تُحْصَى عليه منه أفراد عمله، وهو لا يُحْصَى، وعليه أن يَنْظُر في أمور أوقاف مَذْهَبه نَظَر العموم؛ ليَعْمُرَها بجميل نَظَرِه، فرُبَّ نظرة أَنْفَع من مواقع النجوم.

ومما يَشْمَله بالنظر ويُنْعِم فيه الفكر أَمْر دعاوى بيت المال المعمور، ومحاكماته التي فيها حق كل فرد فرد من الجمهور، فليحترز في قضاياها غاية الاحتراز، وليعمل بما يَقْتَضِيه لها الحق من الصيانة والاحتراز،[1] وليتثبت في قضايا أموال الأيتام الذين حَذَّرَ الله من أَكْل مالهم بالمعروف لا بالشبهات، وقد مات آباؤهم ومنهم صغار لا يهتدون إلى غير الثدي للرضاع، ومنهم حَمْل في بطون الأمهات، فليأمر المتحدثين لهم بالإحسان إليهم، وليُعَرِّفْهُمْ بأنهم سَيُجْزَوْن في بنيهم، بمثل ما يعملون معهم إذا ماتوا وتركوا ما في يديهم، وليُحَذِّر منهم مَنْ لا وَلَدَ له ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ وليَقُصَّ عليهم في مثل ذلك أنباء من سَلَفَ تذكيرًا، وليَتْلُ عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ فهذه وصية قاضي العمل المستقل.

فإذا كان قاضي العسكر مُنْفَرِدًا فليَكُن مُسْتَحْضِرًا لهذه المسائل، وليَعْلَم أن العسكر المنصور هم في موطن الحرب أهل الشهادة، وفيهم من يكون جَرْحه تعديلًا لهم وزيادة فليَقْبَل منهم من لا يخفى عليه سيما القبول، ولا يرد منهم من لا يضره إن رَدَّه هو وهو عند الله مقبول، وليجعل له مستقرًّا معروفًا في المعسكر، يقصد فيه إذا نُصِبَت الخيام، ومَوْضِعًا يمشي فيه ليَقْضِي فيه وهو سائر وأشهر ما كان على يمين الإعلام، وليلزم ذلك

---

[1] قوله: الاحتراز؛ أي: الوضع في الحرز. ا.هـ. (مؤلفه).

طول سفره وفي عدة المُقام، وليتخذ معه كُتَّابًا تَكْتُب للناس، وإلا فمن أين يوجد مركز شهود، ويسجل لذوي الحق بحقه، وإلا فما انْسَدَّ باب الجحود، وتقوى الله هي التي بها يُنْصَر الجنود، وما لم تكن أعلى ما يكون على أعلام الحرب وإلا فما الحاجة إلى نشر البنود، ثم إنه من حيث يَجِبُ على ولي الأمر الكشف عن أحوال الولاة والدواوين في كل وقت، ومحاسبتهم فيما يلزم بواسطة كشاف من أعقل الناس وأكثرهم أمانة وعفة، فالقضاة ونوابهم داخلون في هذه الزمرة، ولو أنه سَبَقَ اشتراط شروط في ولاية القاضي إذا تَوَفَّرَتْ يحصل الأمن من وقوع شيء منه مما يُخِلُّ بمنصب القضاء، إلا أنه غير معصوم من حب المال، الذي يكون الطمع فيه طَبْعًا؛ فلهذا وَجَبَ التثبت في ذلك بالتفتيش، فقد يحدث العَيْب، وتخالف الشهادة الغيب.

فكُلٌّ يُسَلِّي النفس عِنْدَ خُلُوِّهِ بزُهْد ولكن لا تَصِحُّ العزائِمُ

فينبغي لولي الأمر أن يتخذ عليهم باحثًا في السر، يكون ثقة، دَيِّنًا، عفيفًا، أمينًا، قليل الكلام، لا يُتَفَطَّن له من مِثْلِهم، ولا يُدْرَى به أنه مُطَّلِع عليهم بحيث يُطَالِع ولي الأمر بأحوالهم في السر ساعة بساعة، ويكون ولي الأمر في العلانية مُعَظِّمًا للقضاة لا يَظْهَر منه أنه يَتَكَشَّف عن أحوالهم أبدًا؛ لحِفْظ ناموسهم الرفيع، وشَرَف مَنْصِبهم المنيع، فإذا صَحَّ عنده أنه وَقَعَ من أحدهم جريمة، فإن كانت مِنْ أَخْذ رشوة أَرْسَل إلى القاضي وطَلَبَه إليه سرًّا وسَأَلَه عن الواقعة، فإن اعْتَرَفَ بذنبه أَخَذَ الرشوة التي الْتَمَسَهَا من الناس ورَدَّهَا على صاحبها، وأَدَّبَ الذي بَذَلَهَا في السر من غير أن يُظْهِر تأديبه عَمَّا ذا، وعَزَلَ القاضي، وكَشَفَ عليه، فإن وَجَدَه الْتَمَسَ من الناس مالًا أو اكْتَسَبَه بالقضاء أَخَذَه لبيت المال كالهدية ونحوها، وإن لم يَعْتَرِف القاضي وظَهَرَ لولي الأمر من قرائن الأحوال، أو من صِدْق الناقل إليه ذلك عن القاضي؛ عَزَلَ القاضي، ولا يُظْهِر بأي سَبَب عَزَلَهُ.

وإن كانت الجريمة من غير أَخْذ الرشا ولم يكن من هذا القبيل، وإنما كان بسبب قوة نَفْسه، وتَحَامُله في الحكومات وهوى النفس، يجب على ولي الأمر عَزْلُه، والاستبدال به، ولا يَغُرُّه كثرة عِلْمه، ولا ديانته في الظاهر، فإن التحامل من القاضي من أَصْعَب الأمور، ومما يُوجِب عَزْلُه، ولا يَلْتَفِت إلى انتصاره لِحُكْمِه بعد أن يَعْرف ولي الأمر منه الهوى والغرض والتحامل، وله أن يُعَزِّرَه بسبب ذلك إذا تَحَقَّقَ جوره؛ كي يَتَأَدَّبَ به غيره، وإن كانت الجريمة بسبب ارتكاب بعض المعاصي من شراب وغَيْره؛ سَأَلَ ولي الأمر

عن هذا الأمر من الثقات، فإن صَحَّ عنده ذلك عَزَّرَه سرًّا ورَفَعَه، ولا يُشَهِّر ذَنْبه بين الناس، وإن جَمَعَ القاضي مالًا من الحكومات أَخَذَه وَلِيُّ الأمر ووَضَعَه في بيت المال.

وإن كان هذا القاضي نائبًا، وقد قيل عنه شيء مما ذَكَرْنَا؛ كَشَفَ عن حال مُسْتَخْلِفه، فإن تَبَيَّن عند ولي الأمر أنه كان يَعْلَم به ويَسْتُر عليه عَزَلَه أيضًا، وإن كان لا يعلم واشْتَبَهَ فيه فهو بالخيار إن شاء عَزَلَه وإن شاء تَرَكَه.

وإذا صَحَّ عند ولي الأمر أن القاضي جَمَعَ مالًا بعد تَوَلِّيه القضاء، وقد كان فقيرًا قبل التولية؛ ينبغي أن يفحص عن ذلك الجمع، فإن كان من متعلقات المنصب كما يأخذه بعض القضاة بدون حق من قضاة النيابات أو من ديوان الأيتام أو الصدقات أو الأوقاف؛ فإن ولي الأمر يَأْخُذُهُ منه، ولا يترك في يده منه شيئًا، ويَضَعُه في بيت المال، وإن عَرَفَ أنه من مال الأيتام أو الأوقاف رَدَّه على من أَخَذَ منه، وإن كان من غير متعلقات المنصب بأن يكون اتَّجَر أو وَرِثَ أو استفضل من معلوم مدارسه وكَسْبه؛ فهو له، وإن كان للقاضي حاشية وأولاد يَتَعَرَّضون إلى أموال الناس، وقَطْع مصانعتهم، كما كان وَقَعَ في زمن الملك الناصر بن قلاوون بمصر من القاضي الشافعي والحنفي وعَزَلَهُمَا بسبب أولادهما؛ فإن ولي الأمر يَجِبُ عليه عَزْله إن كان ذلك بعِلْمه، وأَخَذَ ما حَصَّلَه أولاده وحاشيته بجاه المنصب ويَضَعُهُ في بيت المال ويؤدبهم، ولا تَأْخُذُهُ رأفة عليهم، ولا يَقْبَل في القاضي ولا في أولاده المذكورين شفاعةَ أحد، فإن ذَنْبَهم كبير، وفسادهم مُتَعَدٍّ.

وقد أَسْلَفْنَا أن شَرْط الباحث الكاشف عن أحوال القضاة وغيرهم الأمانة والعفة والوثوق، فبهذه الوسيلة يَقْبَل وَلِيُّ الأمر قَوْلَه في القاضي، بخلاف ما إذا كان المخبر لولاة الأمور من السعاة المشائين بالنميمة المتخلقين بالأخلاق الذميمة، فلا ينبغي أن يُقَام لقولهم في حق القضاة وَزْن ولا قيمة:

إنَّ نِصْف الناس أعداء لِمَنْ ... وَلِيَ الأحكام هَذَا إنْ عَدَلْ

كما يُحْكَى عن الخلنجي القاضي عبد الله بن محمد ابن أخت علوية الْمُغَنِّي، وكان هذا القاضي قد تَقَلَّد القضاء للأمين العباسي، وكان خَالُه علوية عدوًّا له، فجرت له قضية في بغداد فاستعفى عن القضاء، وسأل أن يُوَلَّى بعض الكور البعيدة، فتولى قضاء دمشق وحِمْص، فلما تَوَلَّى المأمون الخلافة غَنَّاه يومًا علوية بشعر للخلنجي وهو:

بَرِئْتُ من الإسلام إن كان ذا الذي أتاك به الواشون عَنِّي كما قالوا
ولكنهم لَمَّا رأوكِ غَرِيَّةً بهجْري تواصَوْا بالنميمة واحْتَالُوا
فقد صِرْت إذنًا للوُشَاة سميعةً يَنَالُونَ مِنْ عِرْضِي فَلَوْ شِئْتِ ما نَالُوا

فَقَال له المأمون: من يَقُول هذا الشعر؟ قال: قاضي دمشق، فَأَمَر المأمون بإحضاره فأشخص، وجَلَس المأمون للشرب وأَحْضَر علوية، ودعا بالقاضي فقال له: أَنْشِدْني قولك: بَرِئْت من الإسلام، الأبيات، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه أَبْيَات قُلْتُها منذ أربعين سنة وأنا صَبِيٌّ، والذي أَكْرَمَك بالخلافة وَوَرَّثَك ميراث النبوة ما قُلْتُ شِعْرًا منذ أكثر من عشرين سنة إلا في زهد أو عتاب صديق، فقال له: اجْلِس، فجَلَس وناوله قَدَحَ نبيذ كان في يَدِه، فأعول وبكى وأخذ القَدَحَ من يده، وقال: والله يا أمير المؤمنين، ما غَيَّرْتُ الماء بشيء قط مما يُخْتَلَف في تحليله، فقال: لعلك تريد نبيذ التمر أو الزبيب، فقال: لا والله يا أمير المؤمنين، لا أَعْرِف شيئًا من ذلك، فأخذ المأمون القدح من يده، وقال: أما والله لو شَرِبْتَ شيئًا من هذا لضَرَبْتُ عنقك، ولقد ظَنَنْتُ أَنَّكَ صادق في قَوْلِكَ كُلِّه، ولكن لا يتولى القضاء رجل بَدَأَ في قَوْلِه: بالبراءة من الإسلام، انْصَرِف إلى منزلك، وأَمَرَ علوية فغَيَّر هذه الكلمة وجَعَلَ مكانها: حُرِمْتُ مكاني مِنْك، فكان ما جرى للمأمون عفا الله عنه مع هذا القاضي المسكين هو المعهود من حِلْم هذا الخليفة ومكارم أخلاقه، وكان غير هذا الفعل أَوْلَى به وبرياسته، ولكن الخليفة صَانَ مَنْصِب القضاء وَوَقَّرَه وأَجَلَّه، فعفا الله عنه، وأما هذا القاضي الخلنجي رحمه الله فقد اختلج في خاطره من الوشاة ما أَضْرَبَه عند محبوبته وعند الخليفة، وهذا من كهانة الشعر ومما يَتَّفِق وقوعه للشاعر بعد مدة مديدة، وأما علوية فأَعَلَّه الله ولا أَعْلَى له كعبًا فلقد أَضَرَّ بابن أخته، وعَطَّلَه من حُلِيِّ القضاء، وقد جاء عن النبي ﷺ: «لعن الله المثلث، فقيل: يا رسول الله، وما المثلث؟ قال: الذي يسعى بصاحبه إلى سلطان، فيُهلك نَفْسَه وصاحِبَه وسلطانه.»

قال الواثق يومًا لابن أبي داود: قد سَعَى بِكَ عندي قوم، قال: فما قُلْتَ لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما قال صاحب عزة:

وسعى إليَّ بِعَيْب عَزَّة نِسْوَةٌ جَعَلَ الإله خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا

ورَفَعَ بعض السعاة إلى الخليفة السفاح قصة بسعايا على بعض عُمَّالِهِ، فوقع فيها: هذه نصيحة، لم يُرَدْ بها ما عند الله، فنحن لا نَقْبَل قَوْل مَنْ آثرنا على الله.

ومما اتَّفَقَ في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه حَضَر في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة تاج الدين كاتب المفتاح إلى الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي لما كان وزيرًا، وذَكَرَ عنده أُناسًا بكل قبيح، والْتَزَم فيهم جملة من الذهب إذا صُودِرُوا، وأُخِذَتْ منهم وظائفهم، فدَخَل الجمالي إلى السلطان وحكى له ما قاله الكاتب، فقال: أَحْضِرْه لي، فلما اسْتَحْضَرَه سَمِعَ كلامه، وقال له: هل لَكَ عِلْم بأحد في القاهرة، يَعْرِف شيئًا من هذه الأحوال؟ فقال: نعم، جماعة، وَعَدَّهُمْ، فقال للوزير: خُذْ هذا عِنْدَك، واحْتَفِظ به، وأَحْسِن إليه، وإذا حَضَرَ إليك كل هؤلاء الذين ذَكَرَهُم عَرِّفْنِي بهم، فَخَرَجَا من عنده وذَكَرَ له الكاتب جماعة، وهو يُحْضِرُهُم إلى أن لم يَبْقَ منهم أحد، ودَخَلَ الجمالي إلى السلطان وعَرَّفَهُ بهم، فقال: اخرج الآن في هذه الساعة، وجَهِّز الجميع، ولا تَدَعْ أحدًا منهم في القاهرة، فإن هؤلاء مناحيس يرافعون الناس، فنفاهم أجمعين.

وقال رجل للمهدي: «عندي لك نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال: لمن هي، ألنا أم لعامة المسلمين، أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين، قال: ليس الساعي بأعظم عورة، ولا أقبح حالًا من قابل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسِدَ نعمة فلا نَشْفِي غَيْظك، أو عدوًّا فلا نُعَاقِب لك عَدُوَّك، ثم أقبل على الناس، فقال: لا يَنْصَح لنا ناصح إلا بما فيه رِضَى الله تعالى، وللمسلمين فيه صلاح، فإنما لنا الأبدان، وليس لنا القلوب، ومن اسْتَتَرَ لم نَكْشِف له، ومن نادانا طَلَبْنَا تَوْبَتَه، ومن أخطأ أَقَلْنَا عَثْرَتَه، إني أرى التأديب بالصفح أَبْلَغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة، والقلوب لا تَبْقَى لِوَالٍ لا يَنْعَطِف إذا اسْتُعْطِفَ، ولا يَعْفُو إذا قَدَرَ، ولا يَغْفِر إذا ظَفَرَ، ولا يَرْحَم إذا اسْتُرْحِمَ.» انتهى.

وقد كان بعض الأمراء — رحمه الله تعالى — إذا جاءه أَحَدٌ ورافَعَ كُتَّابَه والمباشِرين الذين في بابه، قال: هؤلاء قد أَخَذُوا وشَبِعُوا لا تُغَيِّرُوهم، فإن الذي يَجْنِي بعدهم يكون جوعانًا، ونُقِلَ نحو ذلك أيضًا عن المرحوم محمد علي، وما أَلْطَف قول البهاء زُهَيْر — رحمه الله تعالى — وأَرَقَّه في عَدَم سماع قول الوشاة:

حبيبي ما هذا الجفاء الذي أَرَى	وأَيْن التقاضي بَيْنَنَا والتَّعَطُّفُ؟
لَكَ اليَوْمَ أَمْرٌ لا يُسِئْكَ يُرِيبُنِي	فما وَجْهُك الوجه الذي كُنْتُ أَعْرِفُ
نَعَمْ نَقَلَ الواشون عَنِّيَ بَاطِلًا	ومِلْتَ كما قالوا فزادُوا وأَسْرَفُوا
كأَنَّكَ قَدْ صَدَّقْتَ فِيَّ حَدِيثَهُمْ	وحاشَاكَ مِنْ هذا فَخُلْقُكَ أَشْرَفُ

وقَدْ كَانَ قِيلُ الناسِ في الناس قَبْلَنَا	فَكُذِّبَ يَعْقُوبٌ وسُرِّقَ يُوسُفُ
بِعَيْشِكَ قُلْ لي ما الذي قَدْ صَنَعْتُهُ	فإنك تَدْرِي ما أقول وتُنْصِفُ
فإن كان قولًا صَحَّ أَنِّيَ قُلْتُهُ	فللقَوْل تأويل وللقَوْل مَصْرِفُ
وهَبْ أنه قَوْل مِن الله مُنْزَلٌ	فَقَدْ بَدَّلَ التَّوْرَاة قَوْمٌ وحَرَّفُوا
وها أَنَا وَالْوَاشِي وأَنْتَ جَمِيعُنَا	يَكُونُ لنا يَوْمٌ عظيم ومَوْقِفُ

ولا بَأْسَ بِتَعْقِيب هذا الفصل بالتتمة مما ينبغي ذِكْرُه في رؤساء أحبار أهل الذمة؛ ليكون فيه أَوْفَر سَهْم، وأوفى قِسْط لرؤساء العبرانيين والبطاركة، فأما بِطْريق اليعاقبة فهو أَكْبر أهل مِلَّتِه والحاكم عليهم ما امْتَدَّ في مُدَّتِه، وإليه مرجعهم في التحريم والتحليل، وفي الحكم بينهم بما أُنْزِل في التوراة ولم يُنْسَخ في الإنجيل، وشِرْعَتُه مَبْنِيَّة على المسامَحة والاحتمال، والصبر على الأذى وعدم الاكتراث والاحتفال، وهو مُؤَدِّب لِنَفْسِه في الأول بهذه الآداب، وفي المدخل إلى شريعته قسيم الباب؛ أي: «بابا رومه»، وأنهما سواء في الاتباع ومتساويان، فإنه لا يزيد مصراع على مصراع، فدَأْبُه التخلق من الأخلاق بكل جميل، وأن لا يَسْتَكْثِر من متاع الدنيا فإنه قليل، فليُقَدِّم المصالحة بين المتحاكمين إليه قَبْل الفصل البت، فإن الصلح كما يُقَال: سَيِّد الأحكام، وهو قاعدة دِينِه المسيحي، ولم يُخَالِف فيه المحمدية الغراء دِين الإسلام، وليُنَظِّف صُدُور إخوانه من الغل، ولا يَقْنَع بما يُنَظِّفُه ماء المعمودية من الأجسام، وهو رأس جماعته والكل له تَبَع، فلا يَتَّخِذ له تجارة مُرْبِحة، أو يَقْتَطِع بها مال عيسوي يُقَرِّبُه، فإنه ما يكون قد قَرَّبَه إلى المذبح وإنما ذَبَحَه، وكذلك الديارات وكل عمر والقلالي فيتعين عليه أن يتفقد فيها كُلَّ أَمْر، ويجتهد في إجراء أمورها على ما فيه رَفْع الشبهات، عِلْمًا أنهم إنما اعتزلوا فيها للتعبد، فلا يَدَعُها تُتَّخَذ مُنْتَزَهَاتٍ، وأنهم إنما أَحْدَثوا هذه الرهبانية للتقلل في هذه الدنيا، والتعفف عن الشهوات، وحَبَسُوا فيها أنفسهم حتى إِنَّ أَكْثَرَهُم إذا دَخَلَ إليها لا يعود يبقى مع المطلوقين من الجماعات، فَلْيُحَذِّرْهُم مِنْ جَعْلِها مَصْيَدَةً للمال، بل خُلْوة مُنَزَّهة عن الحرام، مُرْصَدة على الحلال، لا يَأْوِي إليها من الغرباء القادمين عليه من يُرِيب، ولا يَكْتُم عن الحكومة مُشْكِل أَمْر وَرَدَ عليه من بعيد أو قريب، وليَتَجَنَّبْ ما لَعَلَّه فيما يَخُصُّ المذاهب، من طَرَف الأجانب ينوب، وليَتَوَقَّ ما يأتيه من تلقاء الحبشة، حتى إذا قَدَرَ فلا يَشُم أنفاس الجنوب، فمادة سؤدد السودان وإن كَثُرَتْ مقصرة، فإن الله تعالى جَعَلَ آية الليل مظلمة وآية النهار مُبْصِرة، والتقوى مأمور بها أهل كُلِّ مِلَّة، وكل مُوَافِق ومُخَالِف في القبلة، فليكن عَمَلُه بها على

وَجْه صحيح، وفي الكناية ما يُغْنِي عن التصريح، وبالتقوى رضا الله ورسوله، وبها أَمَرَ المسيح.

وأما رئيس اليهود فهو الضابط لطائفته على قِلَّتِهم، والمُؤَمِّن لسِرْبِهم الذي لو لم يُؤْمِنُوا فيه لأكلهم الذئب لِذِلَّتِهِم، فعليه بِضَمِّ جماعته، ولَمِّ شَمْلِهِم باستطاعته، والحكم فيهم على قواعد مِلَّتِه وعوائد أَئِمَّتِه في الحكم، إذا وَضَحَ له بأدلته، وعقود الأنكحة وخواص ما يُعْتَبَر عندهم فيها على الإطلاق، وما يَفْتَقِر فيها إلى الرضا من الجانبين في العقد والإطلاق، وفيما أَوْجَب عنده حُكْمُ دينه عليه التحريم، وأَوْجَب عليه الانقياد إلى التحكيم، وما نَصَّ فيه الأحبارُ التواترَ من الأخبار، والتوجه تلقاء بيت المقدس إلى جِهَة قِبْلَتِهِم ومكان تَعَبُّد أَهْل مِلَّتِهم، والعمل في هذا كُلِّه بما شَرَعَه موسى الكليم، والوقوف معه إذا ثَبَتَ أنه فِعْل ذلك النبي الكريم، وإقامة حدود التوراة على ما أنزل الله من غير تحريف، ولا تبديل لكلمة بتأويل ولا تصريف، واتباع ما أَعْطَوْا عليه العهد، وشَدُّوا عليه العقد، وأَبْقَوْا به ذمامهم، ووقوا به دماءهم، وما كان يحكم به الأنبياء والربانيون، ويُسَلِّم إليه الإسلاميون منهم، ويعبر عنه العبرانيون، كل هذا مع إلزام الرئيس لهم من حُكْم أمثالهم من أهل الذمة الذين أَقَرُّوا في هذه الديار، ووقاية أنفسهم بالاتصاف بالخضوع والانكسار، ومد رءوسهم بالإذعان إلى ملة الإسلام، وحِفْظ شعار الذمة بتمام الانقياد والاستسلام، وعَدَم التظاهر بما يَقْتَضِي المناقضة، ويُفْهَم معه المعارضة، وعلى هذا الرئيس ترتيب طبقات أَهْل مِلَّتِه من الأحبار فيمن دونهم على قَدْر اسْتِحْقَاقِهِمْ، وعلى ما لا يَخْرُج عنه كلمة اتفاقهم، وكذلك له الحديث في جميع كنائس اليهود المستمرة إلى الآن، المستقرة بأيديهم، من حِين عُقِد عهد الذمة، ثم ما تَأَكَّدَ بعده بطول الزمان، وتقريرهم على ما سَلَفَ عليه سَلَفُ هذه الأمة، وفي هذا كفاية وتقوى الله، وإطاعة الدولة الإسلامية رأس الأمور المهمة.

قال الشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن البرلسي المالكي في كتابه، المُسَمَّى: بالقول المرتضى في أحكام القضا.

مسألة

اختلف القرويون، هل يَجُوزُ تَمَكُّن الخَصْم مِنْ طَلَب يهودي في سَبْتِهِ، وإلزامه الحكم فيه، أو يُكْرَه ذلك؟ قال العلامة قاضي القضاة البساطي: «وعندي أنه يُمْنَع، إلا أن تَقُوم القرائن على أن المُسْلِم اضْطُرَّ إلى ذلك، ولم يَقْصِد ضَرَرًا، قال: ولقد حُكِيَ لنا أن بعض الناس يَتَعَيَّش بذلك، فيذهب إلى بعض القضاة

> ويدفع إليه ورقة، ويطلب فيها يهوديًّا، وربما كان معه ورقتان أو ثلاث من قضاة مختلفة، وإذا كان يوم السبت تَوَجَّه إلى اليهود، ومعه رسول قد أَطْلَعَهُ على سِرِّه، ويقول: طَلَبْتُكَ إلى الشرع، فلا يَسَعُهُ إلا أن يصالحه على الترك في ذلك اليوم.» انتهى كلام الشيخ بدر الدين، ثم قال في محل آخر: «تغليظ اليمين يكون في المحل المعظم، وهو الجامع للمسلمين، ولا يقوم مقامه مَسْجِد، ويَحْلِف غير المسلم حيث يُعَظِّم، فيَحْلِف اليهودي في البيعة، ويَحْلِف النصراني في الكنيسة، والمجوسي في بيت النار.» انتهى.

وعند الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان لا يحلفون في بيوت عباداتهم، وإنما يحلفون عند القاضي، فقد راعى مذهب الإمام مالك عَالِم المدينة مُعْتَقَدَهُم، ثم قال الشيخ بدر الدين أيضًا في محل آخر:

> قال الشيخ سراج الدين عمر الحنفي قارئ الهداية: إذا بَنَى الذمي دارًا عالية بين دور المسلمين، وجَعل لها طاقات وشبابيك، تُشْرِف على جيرانه، هل يُمَكَّن من ذلك؟ فأجاب بقوله: أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين، وما جاز للمسلمين جاز لهم، وإنما يُمْنَع الذمي من تَعْلِيَة بنائه إذا حَصَلَ ضَرَر لجاره مِنْ مَنْع ضَوْءٍ أو هواء، هذا هو ظاهر المذهب. انتهى.

وقال الإمام النووي في التحفة ما نَصُّه:

> وللإمام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة، والاستئمان على العدو، بشرط أن تُؤْمَن خيانتهم بأن يُعْرَف حُسْن رأيهم فِينَا، ويُشْتَرط في جواز الإعانة بهم الاحتياج إليهم ولو بنحو خدمة، أو قتال لِقِلَّتِنَا، ونَفْعَل بالمستعان بهم الأصلح من أفرادهم، أو تفريقهم في الجيش. انتهى.

ويَحْسُن هنا أن نَقُول ما قَالَه هرقل ملك الروم حين أَمَّر في جيشه بالشام جبلة بن الأيهم الغساني على مَنْ مَعَه من العرب؛ ليحاربوا معه عَرَب الإسلام، وجَعَل جبلة وقومه مُقَدِّمَة لجيش الروم، وكان جبلة قد أَسْلَم، ثم ارْتَدَّ وانضم للروم ليَخْلُص مِنْ حُكْم عُمَرَ رضي الله تعالى عنه حيث أراد أن يُسَوِّي بينه وبَيْن خَصْمه في القصاص في نَظِير لطمة لَطَمَهَا جَبَلَة، فقال هرقل حين صدر به في حرب الإسلام: لا يَقْطَع الماس إلا الماس؛ يعني: لا يَغْلب العرب إلا العرب: أي: لا يَغْلب الجنس إلا جِنْسه.

فلا شك في جواز مُخَالَطة أهل الكتاب ومُعَامَلَتِهم ومُعَاشَرَتهم، وإنما المحظور الموالاة في الدين، ومما يُقَرب ذلك حِلُّ الكتابية للمسلم، وولاية العقد له من وَلِيِّها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: حَلَّ لكم مع جواز التسري بالكتابيات اللاتي وَقَعْن في أَسْر الإسلام بحرب؛ لأنه ﷺ تَسَرَّى بصفية وريحانة قَبْل إسلامهما، وممن تزوج بالكتابيات من الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، فإنه تزوج بنصرانية كتابية، لكن أَسْلَمَتْ بعد ذلك وحَسُنَ إسلامها.

وبالجملة: فرخصة تَدَيُّن أهل الكتاب بدينهم مؤسَّسة على العهود المأخوذة عليهم عند الفتوح الإسلامي، وكل مُسْلِم يَحْفَظ العهد؛ لأن العهد في الحقيقة إنما هو لله تعالى، وفي العادة أن العهد يَلْتَزِمه من يَعْقده بالطوع والاختيار، فبهذا يجب الوفاء به، قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقد ذُكِر بعض ما يتعلق بذلك في المقدمة عند التكلم على حرية الذمة التي تُعْتَبر عند أهل الأديان، وفي الفصل الثالث الآتي بعد هذا ما يَتَعَلَّق بوفاء العهود، فليُراجع.

«ومما يُحكى» مما يناسب ذلك في الجملة: أن البرنس جِرْجِس بن جاكس الثاني ملك الإنكليز ووَلِي عَهْده الذي هو بروتستاني المذهب، لما سَافَر إلى مملكة فرنسا للسياحة ذَهَبَ لزيارة فتلون القسيس الفرنساوي صاحب التآليف الكثيرة التي منها سياحة تلماك، أَوْصَاه بقوله: «إذا آلَ الملك إليك أيها الأمير لا تُجْبِر رعيتك القاتوليقية على تغيير مذهبهم، ولا تبديل عقائدهم الدينية، فإنه لا سلطان يستطيع أن يتسلطن على القلب وينزع منه صفة الحرية، فقوة العنفوان الحسية والشوكة الجبرية الغاصبة لا تفيد برهانًا قطعيًّا في العقيدة، ولا تكون حُجَّة يطمئن إليها القلب، فلا ينتج الإكراه على الدين إلا النفاق، وإظهار خلاف ما في الباطن.» انتهى.

ومن هذا يُعْلَم أن الملوك إذا تَعَصَّبوا لدينهم، وتداخلوا في قضايا الأديان، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم؛ فإنما يحملون رعاياهم على النفاق، ويستعبدون من يُكْرِهُونَه على تبديل عقيدته، ويَنْزِعون الحرية منه، فلا يُوَافِق الباطن الظاهر، فمَحْض تعصب الإنسان لدينه لإضرار غيره لا يُعَدُّ إلا مجرد حمية، وأما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هي العليا، فهو المحبوب المرغوب؛ ولذلك كان الجهاد الصحيح لقمع العدو إنما يتحقق إذا كان القصد منه إعلاء كلمة الله عز وجل، وإعزاز الدين،

ونصرة المسلمين، لا لحيازة الغنيمة، واسترقاق العبيد، واكتساب اسم الشجاعة، وتحصيل الصيت، وطلب الدنيا، ففاعل ذلك تاجر أو طالب وليس بمجاهد، كما سَتَعْرِفُه في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

في طبقة الغزاة المجاهدين

قال ﷺ: «إن أقرب الناس درجة من درجة النبوة أهل الجهاد، وأهل العلم؛ أما أهل العلم فقالوا ما قال الأنبياء، وأما أهل الجهاد فجاهدوا على ما جاءت به الأنبياء»، «وسأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الجهاد أفضل؟ فإن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، ويقاتل ابتغاء عرض الدنيا، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: مَنْ قَاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وهذا الحديث مرآة لكل غازٍ ومجاهد بحيث يكون جهاده لله عز وجل حتى يَسْتَحِقَّ الثواب، أما مَنْ حارب للحمية، أو لِطَلَبِ الدنيا، أو لسبب من هذه الأسباب؛ فلا يكون غازيًا، ثم إن المحاربة لا تَجُوز إلا في ستة مواضع؛ الأول: محاربة المشركين وأهل الحرب، الثاني: محاربة الملحدين؛ لأنهم شَرُّ الخلائق، الثالث: محاربة المرتدين، الرابع: محاربة البغاة، الخامس: محاربة قُطَّاع الطريق، السادس: محاربة القاتلين لِيُقْتَصَّ مِنْهُم.

ومن شهامة المَلِك أن يتولى الحرب العظيم بنفسه، وأن يَتَحَفَّظ من لقاء العدو في بلاده لسلامة نفسه، كما قيل:

إن السلامة مِنْ سَلْمَى وجارتها   أن لا تَمُرَّ على حال بِوَادِيهَا

وينبغي أن يخوف الملك العدو بما يُمْكِنُه فربما رَجَعَ، ويجتهد في قَمْع العدو بالحيلة والمكيدة، فالحيلة أَنْفَع وسيلة، وإذا حَضَرَه العدو أَجْزَل العطاء للعسكر، ووفى بالمواعيد لهم؛ لئلا تَنْكَسِرَ قلوبهم، فبهذا يبيعون أرواحهم لقتال عَدُوِّهِم؛ لأنهم حماة الوطن والدين.

«قال» الحكماء: الناس حازمان وعاجز؛ فأَحْزَم الحازمين مَنْ عَرَفَ الأمر قَبْلَ وقوعه فاحْتَرَسَ منه، والحازم بَعْدَه من إذا نَزَلَ به الأمر تَلَقَّاه وعَمِلَ الحيلة حتى يَخْرُجَ منه، والعاجز مَنْ تَرَدَّدَ بين ذلك، لا يَأْتَمِر رشيدًا، ولا يطيع مرشدًا حتى تَفُوتَه النجاة، ويُقال: احْتَلْ تَغْنَمْ، وتَفَكَّرْ تَسْلَم، ويقال: تَرْك التقدم أَحْسَن من التندم، «وأوصى» مَلِكٌ قائد سريته، فقال له: كُنْ كالتاجر الكيس، إن وَجَدَ ربحًا اتَّجَرَ، وإلا حَفِظَ رأس ماله، ولا تَطْلُب الغنيمة حتى تَحْمَد السلامة، وكُنْ من احتيالك على عَدُوِّك أَشَدَّ حَذَرًا من احتيال عَدُوِّكَ عَلَيْكَ، ويُقال: لا تَنْشَب في حَرْب وإن وَثِقْتَ بقوتك حتى تَعْرِفَ وَجْهَ الهرب منها، فإن النفس أقوى ما تكون إذا وَجَدَتْ سبيل الحيلة مُدَبَّرة لها، واخْتَلِس مَنْ تُحَارِبه خِلْسة الذئب، وطِرْ منه طيران الغراب، فإن التحرز زمام الشجاعة، والتهور عدو الشدة.

ومما يجب مع التفكر على المحارب مشاورة العقلاء من النصحاء أُولِي التجارب، فقد حُكِيَ: أن قومًا من العرب أَتَوْا شَيْخًا قد أَرْبَى على الثمانين وقارب التسعين، فقالوا: إنَّ عَدُوَّنَا استاق سَرْحَنَا، فأَشِرْ علينا بما نُدْرِك به الثأر، وننْفِي العار، قال: إنَّ ضَعْف قُوَّتِي نَسَخَ هِمَّتِي، ونَقَضَ إبرام عزيمتي، ولكن شاوِرُوا الشجعاء من ذوي العزم، والجبناء من أُولِي الحزم، فإن الجبان لا يألو برأيه ما وَقَى مهجكم، والشجاع لا يألو ما يشيد ذِكْرَكم، ثم خَلِّصُوا من الرأيين نتيجة تُبْعِد عنكم مَعْرِفة نَقْص الجبان وتَهَوُّر الشجعان، فإذا نَجَمَ الرأي على هذا كان أَنْفَذَ على عَدُوِّكم من السهم الصائب والحسام القاضب، وملاك التحيل في بلوغ الأماني رَفْض العجلة واستعمال التواني، «قال» الحكماء: إياك والعجلة، فإنها تُكْنَى أم الندامة؛ لأن صاحبها يقول قَبْل أن يَعْلَم، ويُجِيب قبل أن يفهم، ويَعْزِم قبل أن يُفَكِّر، ويَقْطَع قبل أن يَقْدِر، ويَمْدح قبل أن يُجَرِّب، ويَذُم قبل أن يَخْتَبِر، ولن تصحب هذه الصفة أحدًا إلا صَحِب الندامة، وجانب السلامة، قال الشاعر:

الصَّبْرُ مفتاح ما يُرَجَّى وكل صَعْبٍ بِهِ يَهُونُ

ورُبَّمَا نِيلَ بِاصْطِبَارٍ ما قِيلَ هَيْهَاتَ لا يَكُونُ
فاصْبِرْ وإن طَالَتِ الليالي فربما أَمْكَنَ الحُزُونُ

وقال تعالى في نهي نبيه عن العجلة تعليمًا لأمته: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وقال بعض الحكماء: تأنَّ واحْزِم، فإذا استوضحْتَ فاعْزِم، فإذا اجتمع في الرجل الحزم والشجاعة فهو الذي يَصْلُح لتدبير الجيوش وشجاسة أَمْر الحروب، والناس رَجُل ونصف رَجُل ولا شيء، فالرجل مَن اجْتَمَعَ له إصابة رأيٍ وشجاعة، ونِصْف الرجل هو الذي انْفَرَدَ بأحد الوصفين دون الآخر، والذي لا شيء هو من عَرِيَ من الوصفين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الغزاة المجاهدين الذين هم أنصار الوطن والدين، بوَصْف في حَقِّهم بالخصوص فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ وقد أَعَدَّ الجنة لمن منْهُم ذاق بالشهادة طَعْم الحتوف؛ بدليل قوله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف» وحسبك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآية، ومدار فَنِّ الحرب الآن على تعليم الحركات العسكرية، وحُسْن الرأي والشجاعة، وخَيْرها أَوْسَطها، قال ﷺ: «الحرب خدعة»، وقال المتنبي:

الرأي قَبْلَ شَجَاعَة الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وهي المحل الثَّانِي
فإذا هما اجْتَمَعَا لِنَفْس مَرَّةً بَلَغَتْ مِن العَلْيَاء كُلَّ مَكَانِ
ولربما طَعَنَ الفتى أَقْرَانَهُ بالرأي قَبْلَ تَطَاعُن الأَقْرَانِ

ولو أن الشجاعة هي عماد الفضائل وَمَنْ فَقَدَهَا لم تَكْمُل فيه فضيلة، إلا أن الرأي مُقَدَّم عليها، كما حُكِيَ: أن الإسكندر حَاصَرَ قلعة سنة كاملة فَلَمْ يَفْتَحْهَا، فكَتَبَ إليه الحكماء: لو جَلَسْتَ سبعين سنة لا تَمْلِكْ فَتْحَها إلا بالمكيدة للأعداء، وأن يكون بَأْسُهُم بينهم، فبَعَثَ لبَعْضِهِم وخَدَعَهُم، ثم بَعَثَ إلى آخرين بِضِدِّ ذلك، فتَنَازَعُوا وتَحَارَبُوا، ثم سَلَّمُوا القلعة.

وعَرَّف بعضهم الشجاعة بأنها غريزة يَضَعُها الله فيمن يشاء من عباده، وقيل في تعريفها أيضًا: هي سَعَة الصدر بالإقدام على الأمور المُتْلِفَة، «وقد رُوِيَ» عن النبي ﷺ: «إن الله يحب الشجاعة، ولو في قَتْل حَيَّة»، وقال بعض أهل التجارب: الرجال ثلاثة: فارس، وشجاع، وبَطَل؛ فالفارس الذي يَشُدُّ إذا شَدُّوا، قال عامر بن الطفيل:

وإني وإن كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ	وفَارِسَهَا المشهور في كُلِّ مَوْكِبِ
فما سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ	أبى الله أَنْ أَسْمُو بأُمٍّ ولا أَبِ

ويُكْنَى بأبي علي وهو ابن أخي عامر بن مالك المعروف بمُلَاعب الأسنة أحد فرسان العرب المشهورين وكبارهم، ومُرَاد عامر بن الطفيل: أن قبيلة عامر لم تَجْعَلْه سيدًا لأجل وِرَاثَتِهِ من أبيه السيادة، بلْ لِأَمْر آخَرَ، ولَمَّحَ بعضهم لهذا المعنى بقوله:

يُسَوَّدُ مَنْ يَسُود بِغَيْر رَيْبٍ	إذا الأسباب كان لها وُجُودُ
أَلَمْ تَسْمَع أخي ما قال قَيْسٌ	لِأَمْرٍ مَا يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ

وأما الشجاع فالداعي إلى البراز، والمجيب داعيه إلى ذلك، والبطل: المحامي لظهور القوم إذا وَلَّوْا، والعرب تُسَمِّي ذلك كله شجاعة، ويجعلون أَوَّلَ مراتب الشجعان: الهُمَام، سُمِّيَ بذلك لاهتمامه وعَزْمه، ثانيها: المقدام سُمِّيَ بذلك للإقدام، وهو ضد الإحجام، ثالثها: الباسل من البسالة، وهي الجراءة والشدة، رابعها: البطل؛ أي: الذي يُبْطِل فِعْل الأقران، ويطفئ شجاعة الشجعان، خامسها: الصنديد، وهو الذي لا يُقَاوِمُهُ مُقَاوِم.

وحكم الشجاعة ومَظْهَرها وثَمَرَتُها الإقدام في مَوْضع الإقدام، والثبات في مَوْضع الثبات، والزوال في مَوْضع الزوال، وضِدُّ ذلك يُخِلُّ بالشجاعة، وقالوا: الحرب كالنار، إن تَدَارَكْتَ أَوَّلَهَا خَمَدَ إِضْرَامُها، وإن اسْتَحْكَمَ إضرامها صَعُبَ إخمادها، وهذا معنى قولهم: ينبغي أن تَتَغَدَّى بالعدو قبل أن يَتَعَشَّى بك، «وزعم» بعضهم: أن السخاء والكرم دليل الشجاعة، وأن كُلَّ سَخِيٍّ شُجَاع، والصحيح أن ذلك أَغْلَبِي غير مُطَّرِد، بل بنو آدم على أربعة أحوال؛ فمنهم: الجواد الشجاع، يَجُود بماله ونَفْسِه، وهو أَعْلاهم مَرْتَبَة، ومنهم البخيل الجبان، وهو أَذَلُّهُم وأَكْثَرُهم مَذَمَّة، ومنهم الجواد الجبان، يجود بماله ويَضِنُّ بِنَفْسِه، ومنهم الشجاع البخيل، بِضِدِّ ذلك، والأخلاق مَوَاهِبُ مِن الله، يَهَبُ منها ما يشاء

لمن يشاء، ويَجْبُل خَلْقه على ما يريد، وإنما الأخلاق الفاضلة تَتَلَازم غالبًا، وكذا الأخلاق الدنيئة.

قال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ أَجْمَلَ الناس وَجْهًا، وأَجْوَد الناس كفًّا، وأَشْجَع الناس قَلْبًا، لقد فَزِعَ أهل المدينة ليلة، فانطلق الناس ثائرين قِبَل الصوت، فتَلَقَّاهم رسول الله ﷺ راجعًا قَدْ سَبَقَهُم إلى الصوت، وسبر الخبر على فرس لأبي طلحة عرى، والسيف في عنقه، وهو يقول: لن تُرَاعوا، لن تُرَاعوا، وقال عمران بن حصين: ما لَقِيَ رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أَوَّلَ مَنْ يَضْرِب.

«وقال» الحكماء: أَصْل الخير كله في ثبات القلب، وهو الشجاعة، وأَعْظَم أهل الجند شجاعة وأَقْوَاهم جأشًا مَنْ إذا انهزم أصحابه يَلْزَم الساقة، ويَضْرب في وجوه القوم، ويَحُول بَيْنَهم وبين عَدُوِّهم، ويُقَوِّي قلوب أصحابه، فمَنْ وَقَعَ أقامه، وَمَنْ وَقَفَ حَمَلَه، ومَنْ كَبَا به فَرَسُه حَمَاه، حتى يَيْأس العدو مِنْهُم، حتى قيل: إن المُقَاتِل من وراء الفارِّين كالمُسْتَغْفِر من وراء الغافلين، ومِنْ أَكْرَم الكرم في الشجاعة الدفاع عن الحريم.

ولقد اعْتَرَفَ الجميع لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بقوة الجأش، والصبر في المَوَاطن الكريهة، وكان عمر رضي الله عنه مَوْسُومًا بالشدة والشجاعة، كان يَضَعُ يده اليمنى على أُذُن فرسه اليسرى، ويَجْمَع بَدَنَهُ، ويَثِبُ على ظَهْرِها كأنما خُلِقَ عَلَيْهَا.

وكان علي رضي الله تعالى عنه شجاعًا بَطَلًا، إذا ضَرَبَ لا يُثَنِّي، وكذلك الزبير بن العوام معدود من شجعان الفرسان، قالوا: لم يكن في عصر النبي ﷺ فارس أشجع من الزبير، ولا راجِل أشجع من الإمام علي كَرَّم الله وجهه، ومن الشجعان بنو قَيْلَة وهم الأنصار، قال لهم رسول الله ﷺ: «إنكم لتَكْثُرون عند الفزع، وتَقِلُّون عند الطمع» يريد أنهم يقاتلون ابتغاء مرضاة الله لإعلاء كلمته لا للغنيمة، ومن شجعان الأنصار معاذ بن عفراء، قُطِعَ كَتِفُه يوم بدر فبقي مُعَلَّقًا بجلده، فلم يَزَلْ يُقَاتِل جَمِيع يومه وهو مُعَلَّق حتى وَجَدَ أَلَمَه، فوَضَعَ رِجْلَه على يَدِه وتَمَطَّأ حتى قَطَعَ الجلدة، ومن شُجْعَان الصحابة خارجة بن حلافة، والمقداد بن الأسود.

ولما كَتَبَ عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو يحاصر مصر بطلب ثلاثة آلاف فارس؛ ليبعث إليه بها بَعَثَ إليه بهؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم، ولم يكن في الجاهلية ولا في الإسلام أَشْجَع من خالد بن الوليد، ولشجاعته سَمَّاه رسول الله ﷺ سيف الله، لم يَنْهَزِم في جاهلية، ولا في إسلام، ومات على فراشه، وقيل لعبد الملك

بن مَرْوان: مَنْ أَشْجَع الناس؟ فقال: العباس بن مرداس السلمي الذي يقول:

أَشُدُّ على الكتيبة لا أُبَالِي ... أَحَتْفِي كان فيها أَمْ سِوَاهَا

وقيس بن الحطيم، حَيْثُ يقول:

وإني في الحرب العَوَانِ مُوَكَّلٌ ... بإقدام نَفْسٍ لا أُرِيدُ بَقَاءَهَا

ومِمَّن اشتهر بالشجاعة أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، فَارِسٌ بَطَل، شاعر نديم، جامِع لما تَفَرَّق في غيره، حَمَلَ على فارس وَوَرَاءَه رَدِيف فطَعَنَهُما فانتظما في رُمْحه، وكان ذلك في بعض حروبه، وفيه يقول بكر بن النطاح — ويذكر طعنته:

وإذا بدا لك قَاسِمٌ يَوْمَ الوغى ... يَخْتَالُ خِلْتَ أَمَامَهُ قِنْدِيلَا
وإذا تَلَذَّذَ بالعمود وَلِينِهِ ... خِلْتَ العمود بِكَفِّهِ مِنْدِيلَا
وإذا تَنَاوَلَ صَخْرَةً لِيَرُضَّهَا ... عادت كَثِيبًا في يَدَيْه مَهِيلَا
قالوا وَيَنْظِمُ فَارِسَيْن بِطَعْنَةٍ ... يوم اللقاء ولا تَرَاهُ كَلِيلَا
لا تَعْجَبُوا لو كان مَدُّ قَنَاتِهِ ... مِيلًا إذا نظم الفوارس مِيلَا

ومن كلام أبي دِلْف العجلي المذكور:

ليس المروءة أن تَبِيتَ مُنَعَّمًا ... وتَظَلَّ مُنْعَكِفًا على الأقداحِ
ما للرجال وللتنعم إنما ... خُلِقُوا لِيَوْمِ كريهة وكِفَاحِ

وقد أَرْشَدَ الله سبحانه وتعالى عباده المجاهدين بخمسة أشياء، ما اجْتَمَعَت في فئة قط إلا نُصِرَتْ، وإن قَلَّتْ وكَثُرَ عَدُوُّهَا، وهي مجموعة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أَحَدُها: الثبات، ثانيها: كَثْرَة ذِكْره سبحانه وتعالى، ثالثها: الطاعة، رابعها: اتِّفَاق الكلمة، خامسها: الصبر، فهذه الخمسة تُبْنَى عليها قُبَّة النصر، ولما اجْتَمَعَتْ هذه القوى الخمس في الصحابة لم تَقُمْ لهم أمة من الأمم حتى فَتَحُوا الدنيا، ودَانَتْ لهم البلاد والعباد، ولما تَفَرَّقَتْ فيمن بَعْدَهُمْ وضَعُفَتْ آلَ أَمْرُهم إلى ما آلَ إليه.

ولا بأس أن نَذْكُر هنا من أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد، ونَقَلَهُ صاحب المستطرف، قال: نزل علينا بنو تغلب في بعض السنين، وكُنْتُ مشغوفًا بأخبار العرب أن أَسْمَعَهَا وأَجْمَعَهَا، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذ أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قَلَّمَا رَأَيْتُ مِثْلَه في حُسْنِه وجَمَاله، له ذؤابتان كالسبج المنظوم، وهي تُعَاتِبُه بلسان رَطْب، وكلام عَذْب تَحِنُّ إليه الأسماع، وترتاح له القلوب، وأكثر ما أَسْمَع منها أي بني، وهو يَتَبَسَّمُ في وَجْهِها قد غَلَبَ عليه الحياء والخجل كأنه جارية بِكْر لا يَرُدُّ جوابًا، فاسْتَحْسَنْتُ ما رأيت، واسْتَحْلَيْتُ ما سَمِعْتُ، فَدَنَوْتُ منه وسَلَّمْتُ فَرَدَّ عليَّ السلام، فَوَقَفْتُ أَنْظُر إليهما، فقالت: يا حَضَرِيُّ، ما حاجتك؟ فقُلْتُ: الاستكثار مما أسمع.

والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام، فقالت: يا حضري، إن شِئْتَ سُقْتُ إليك مِنْ خَبَرِه ما هو أَحْسَن مِنْ مَنْظَرِه، فقُلْتُ: فقد شِئْتُ يَرْحَمك الله، فقالت: حَمَلْتُه — والرزق عَسِر والعيش نَكِد — حَمْلًا خفيفًا حتى مَضَتْ له تسعة أَشْهُر، وشاء الله عَزَّ وجل أن أَضَعَهُ، فوَضَعْتُه خَلْقًا سَوِيًّا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أَفْضَلَ الله عز وجل وأعطي وآتى من الرزق بما كَفَى وأَغْنَى، ثم أَرْضَعْتُه حولين كاملين، فلما اسْتَتَمَّ الرضاع نَقَلْتُه من خرق المهد إلى فراش أبيه، فرُبِّيَ كأنه شِبْل أسد أَقِيه بَرْد الشتاء وحَرَّ الهجير، حتى إذا مَضَتْ له خَمْس سنين أَسْلَمْتُه إلى المُؤَدِّب فحَفَّظَه القرآن فتلاه، وعَلَّمَه الشِّعر فرواه، ورغب في مَفَاخر قومه وآبائه وأجداده.

فلما أن بلغ الحُلُم واشْتَدَّ عَظْمُه وكَمُل خَلْقُه حَمَلْتُه على عِتَاق الخيل، فتَفَرَّق وتَمَرَّس ولَبِس السلاح ومشى بين بويتات الحي الخيلاء، فأخذ في قِرَى الضيف وإطعام الطعام وأنا عليه وَجِلَة، أُشْفِق عليه من العيون أن تُصِيبَه، فاتَّفَق أن نَزَلْنَا بمَنْهل من المناهل بين أحياء العرب، فخَرَج فتيان الحي في طَلَب ثَأْرٍ لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وَعْكَة شَغَلَتْه عن الخروج حتى إذا أَمْعَن القوم ولم يَبْقَ في الحي غَيْرُه، ونحن آمنون وادعون ما هو إلا أن أَدْبَر الليل وأَسْفَر الصباح حتى طَلَعَتْ علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أَحْرَزُوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت وأنا أَسْتُر عنه الخبر إشفاقًا عليه وَضَنًّا به، حتى إذا عَلَت الأصوات وبَرَزَت المُخْدَرَات رمى دِثَاره، وثار كما يثور الأسد، وأَمَرَ بإسراج فَرَسِه، ولَبِس لأَمة حَرْبه، وأخذ رمحه بيده، ولَحِقَ حماة القوم فطعن أدناهم منه فرمى به، ولَحِقَ أبعدهم عنه فَقَتَلَه.

فانصرفت وجوه الفرسان فَرَأَوْه صبيًّا صغيرًا لا مَدَدَ وراءه فحملوا عليه، فأقبل يَؤُمُّ البيوت ونحن نَدْعُو الله عز وجل له بالسلامة حتى إذا مَدَّهُم وراءه وامْتَدُّوا في أَثَرِه عَطَفَ عليهم، ففَرَّق شَمْلَهم، وشَتَّت جَمْعَهم، وقَلَّلَ كَثْرَتَهم، ومَزَّقَهُم كُلَّ مُمَزَّق، ومَرَقَ كما يَمْرُق السهم، وناداهم: خَلُّوا عن المال، فوالله لا رَجَعْتُ إلا به، أو لَأَهْلِكَنَّ دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتَمَايَلَتْ نحوه الفرسان، وتَحَيَّزَت له الفتيان، وحَمَلُوا عليه وَقَدْ رَفَعُوا إليه الأسنة، وعَطَفُوا عليه بالأعنة، فوَثَب عليهم وهو يَهْدِر كما يَهْدِر الفحل من وراء الإبل، وجَعَلَ لا يحمل على ناحية إلا حَطَّمَها، ولا كتيبة إلا مَزَّقَها، حتى لم يَبْقَ من القوم إلا من نَجَا به فَرَسُه، ثم ساق المال وأَقْبَلَ به، فَكَبَّرَ القوم عند رؤيته، وفَرِحَ الناس بسلامته، فوالله ما رَأَيْنَا قَطُّ يومًا كان أَسْمَحَ صباحًا وأَحْسَنَ رواحًا من ذلك اليوم، ولقد سَمِعْتُه يقول في وجوه فتيات الحي هذه الأبيات:

تَأَمَّلْنَ فِعْلِي هَلْ رَأَيْتُنَّ مِثْلَهُ ... إذا حَشْرَجَتْ نَفْسُ الجَبَان مِنَ الكَرْبِ
وضَاقَتْ عليه الأرض حَتَّى كَأَنَّهُ ... من الخوف مَسْلُوب العزيمة والقَلْبِ
أَلَمْ أُعْطِ كُلًّا حَقَّهُ ونَصِيبَهُ ... من السَّمْهَرِيِّ اللَّدْنِ والمُرْهَفِ العَضْبِ
أنا ابْنُ أَبِي هِنْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مَالِكٍ ... سَلِيل المعالي والمكارم والسَّيْبِ
أبى لي أَنْ أُعْطَى الظُّلَامَة مُرْهَفٌ ... وطِرْفٌ قَوِيُّ الظَّهْر والجَوْف والجَنْبِ
وعَزْمٌ صحيح لو ضَرَبْتُ بِحَدِّهِ الـ ... ـجِبَالَ الرواسيَ لانْحَطَطْنَ إلى التُّرْبِ
وعِرْضٌ نَقِيٌّ أَتَّقِي أَنْ أَعِيبَهُ ... وبَيْتٌ شَرِيفٌ في ذُرَى تَغْلب الغُلْبِ
فإن لَمْ أُقَاتِلْ دُونَكُنَّ وأَحْتَمِي ... لَكُنَّ وأَحْمِيكُنَّ بالطَّعْنِ والضَّرْبِ
فلا صَدَقَ اللاتي مَشَيْنَ إلى أبي ... يُهَنِّينَه بالفارس البَطَلِ النَّدْبِ

هكذا فضائل شُبَّان العَرَب في الشجاعة ومكارم الأخلاق.

آراؤهم ووُجُوهُهُمْ وسُيُوفُهُمْ ... في الحادثات إذا دَجَوْنَ نُجُومُ
منها مَعَالِمُ للهُدَى ومَصَالِحُ ... تَجْلُو الدُّجَى والأُخْرَيَاتُ رُجُومُ

كما أن شجاعة شيوخهم في قوة آرائهم، المؤسسة على التجارب كما حُكِيَ قريبًا عن الشيخ الذي قارب التسعين، لَمَّا استشاره قَوْمٌ من العرب في شَأْن عَدُوِّهِم، فأشار عليهم برأي سديد.

ومن الشيوخ مَنْ يَجْمَع بين فضيلة الشجاعة والرأي كعمرو بن معدي كرب الزبيدي، فإنه بَعْد أن عَمَّرَ وضَعُفَ كان في واقعة الفرس يَحْمِل على عَدُوِّه، وذلك أنه معدود من فرسان الجاهلية والإسلام، فَلَهُ في حروب الجاهلية مَوَاقِف مذكورة ومواطن مشهورة، أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ، ثم عاد إلى الإسلام، وشَهِدَ حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه؛ قال: الحمد لله الذي خَلَقَنَا وخَلَقَ عَمْرًا، «ورُوي» عنه رضي الله عنه: أنه سأله، فقال له: يا عمرو، أي السلاح أَفْضَل في الحرب؟ قال: فَعَنْ أَيِّها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يُخطئ ويُصيب، قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خَانَك، قال: فما تقول في التُّرْس؟ قال: هو الدائر وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة.

وقيل: إنه نَزَلَ يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر على هذا الجسر، فإن أَسْرَعْتُم مِقْدَار جَزْر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي، أُقَاتِل به تِلْقَاء وَجْهِي، وقد عَرَفَنِي القوم وأنا قَائِم بينهم، وإن أَبْطَأْتُم وَجَدْتُمُوني قتيلًا بينهم، ثم انْغَمَسَ فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد، علام تَدَعُون صاحبكم؟ والله ما نَظُن أنكم تُدْرِكُونَه حيًّا، فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فَرَسِه، وقد أَخَذَ بِرِجْل فَرَس رَجُل من العجم فأَمْسَكَها والفارس يَضْرِب فَرَسَه، فلم تَقْدِر أن تَتَحَرَّك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نَفْسَه وخَلَّى فَرَسَه، فركبه عمرو، وقال: أنا أبو ثور، كِدْتُم والله تَفْقِدُونَني، فقال: أين فَرَسُك؟ فقال: رُمِيَ بنُشَّابة فعَارَ وشب فصرعني.

«ويُرْوَى»: أنه حمل يوم القادسية على رستم، وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو، وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه، مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقُتِلَ رستم وانْهَزَمَت العجم، وكان عمرو من الشعراء المعدودين، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عَمْرٌو قُلْتُ للخيل أَوْطِئِي زَبِيدًا فَقَدْ أَوْدَى بِنَجْدَتِهَا عَمْرُو

وما أحسن قَوْلِه في وَصْف السيف: ذاك العدة عند الشدة، فقد كان له سيف، يُسَمَّى: الصمصامة، فكان يُضْرَب به وبِسَيْفِه المثل؛ إذ هو أَشْرف سيوف العرب، فيقال: ما كل من يَسْطُو بصمْصَامَةٍ عَمْرٌو، ويقال له الصمْصَام، قال نَهْشَل مُتَمَثِّلًا به:

أَخٌ مَاجِدٌ ما خانني يَوْمَ مَشْهَدٍ　　　كما سَيْفُ عَمْرو لَمْ تَخُنْه مَضَارِبُهْ

وَهَبَه عَمْرو لخالد بن سعيد بن العاص ولَمْ يَزَل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام، فَلَمْ يَزَلْ عند بني مروان حتى جد الهادي العباسي في طَلَبِهِ فأَخَذَهُ، قال ﷺ: «الخير في السيف، والخير مع السيف، والخير بالسيف» قال السموءل:

وما مات مِنَّا سَيِّد حَتْفَ أَنْفِهِ　　　ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كان قَتِيلُ
تسيل على حَدِّ الظباة نُفُوسُنَا　　　وليست على غَيْر الظُّبَاة تَسِيلُ

وقال ابن الرومي:

لَمْ أَرَ شَيْئًا حاضرًا نَفْعُهُ　　　للمرء كالدرهم والسَّيْفِ
يَقْضِي له الدرهم حَاجَاتِهِ　　　والسيف يَحْمِيه من الحَيْفِ

وما أحسن قول الطغرائي:

وعَادَة السيف أن يُزْهَى بجَوْهَرِهِ　　　وليس يَعْمَلُ إلا في يَدَيْ بَطَلِ

ولذلك لما انتصر بعض الأمراء على أعدائه، وأَطْلَقَ أَسْرَاهُمْ مَنَّ عليهم بسلاحهم، فقال مُوَقِّع جيشه يَصِفُ ذلك: مَنَنَّا عليهم من الأسلاب بالبيض القواطع؛ ليجعلوا حليها أساور في أيدي البيض ذوات البراقع، وحلية السيف لا يَحْسُن إلا بِكَفٍّ يكون به ضاربًا له لا جالبًا وإِذَا عُطِّلَ في مواقف الجهاد، فالأولى له أن يُجْعَلَ عاطلًا، كما قال أبو العتاهية:

فصُغْ ما كُنْتَ حَلَّيْتَ　　　بِهِ سَيْفَكَ خُلْخَالَا

فما تَصْنَعُ بالسيف   إذا لـم تَـكُ قَـتَّـالَا

ومَدَحَ أعرابي قومه، فقال: قومي لُيُوث حَرْب، وغُيُوث جَدْب، ليس لأسيافهم أَغْمَاد غير الهَام، ولا رسل للمنايا غير السهام، قال الشاعر:

كأن سُيُوفَه صِيغَتْ عُقُودًا   تَجُول على الترائب والنُّحُورِ
وسُمْر رِمَاحِهِ جُعِلَتْ هُمُومًا   فَمَا يَخْطُرْنَ إلا في الضَّمِيرِ

وقال عبد الله بن طاهر:

يبيتُ ضجيعي السَّيْفُ طَوْرًا وتارةً   تَعَضُّ بهامات الرجال مَضَـارِبُهْ
أخو ثِقَةٍ أَرْضَاهُ في الروع صَاحِبًا   وفَـوْقَ رِضَـاهُ أَنَّنِـي أنـا صَـاحِبُـهْ
ولـيس أخـو العـليـاءِ إلا فَـتًـى لَـه   بـهـا كَـلَـفٌ مـا تَـسْـتَـقِرُّ رَكَـائِبُـهْ

وقال ابن الرومي:

كَتَبَتْ لنا أيدي النزال صَحَائِفًا   عَجَمًا مِن الإعراب والإفصاحِ
أَطْرَاسُها جُثَثُ الكُمَاةِ وحِبْرُهَا   مِـمَّـا أَسَـلْـنَـا مِـنْ دَمِ الأرواحِ
فالشكل فَوْقَ سُطُورِهَا بصَوَارِمٍ   والنَّقْطُ فَوْقَ حروفِهَا برِمَاحِ

وقد تَنَازع الأدباء في التفضيل بين السيف والقلم، ففَضَّلَ بعضهم السيف في قوله:

الـسـيـف أَصْـدَقُ أنـبـاء مِـن الـكُـتُـبِ   فـي حَدِّهِ الـحَـدُّ بَيْنَ الـجَدِّ والـلـعِـبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي   مُـتُـونِـهِـنَّ جَـلَاءُ الـشـك والـرِّيَـبِ

وأشار بعضهم إلى تفضيل القلم على السيف بقوله:

الكتْبُ عَقْلُ شَوَارِدِ الكَلِمِ   والخَطُّ خَيْطُ فَرَائِدِ الحِكَمِ
بـالـخَطِّ نُظِّمَ كُلُّ مُنْتَثِرٍ   منها وفُصِّلَ كُلُّ مُنْتَظِمِ
والسيفُ وَهْوَ بِحَيْثُ تَعْرِفُهُ   فَرْضٌ عليه عِبَادَةُ القَلَمِ

ولو أن بِكُلٍّ من السيف والقلم قَوَام الممالك إلا أن تقديم الثاني على الأول أَقْرَب؛ لأن بالأقلام تُسَاس الأقاليم، فالقلم أَنْفَع من السيف، وإن كان السيف أَرْفَع منه، قال الشاعر:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ المنيع مِن الأذَى حتى يُرَاقَ على جَوَانِبِهِ الدَّمُ

فكيف وبه دوام المَجْدِ وتَمَامُ السَّعْد، فمما يُنْقَش بالذهب على سيوف بعض العرب:

إنَّ أَسْيَافَنَا القصار الدوامِي صَيَّرَت مَجْدَنَا طويل الدَّوَامِ
باقتحام الأهوال مِنْ وَقْتِ حَامٍ واقْتِسَامِ الأموال مِنْ وَقْتِ سَامِ

ثم إن التعبير في المواطن الحربية بالسيف القَصْدُ منه آلات الحرب وعُدَّتُه؛ إذْ هو في الأزمان القديمة كان أَشْهَرَهَا، وإلا فليس للأهوان والمدافع في وَقْتِ الأهوال مِنْ دَافِعٍ ولا مُدَافِع، فهي أَوْلَى من الرمي بالسهام والنبال في قَوْل مَنْ قال:

نالوا بها مِنْ أَعَادِيهِمْ وإن بَعُدُوا ما لم يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرَفِيَّاتِ

فإنها في العدو أَنْكَى وأَبْلَغ في الانتقام والبلية، وأَهْلَك للأخصام، وأَمْلَك في قَطْع المنازَعات الحربية بين أُمَم البرية، إلا أنه لم تَزَل الشهرة للمرهفات، وأيضًا القوة كانت في قديم الزمان الرمي بالنبال، حيث فَسَّرَ النبي ﷺ القوة به حين مَرَّ على أناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» وأراد بالقوة: القوة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ مُشْتَمِل على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة، فالآية الشريفة جامعة لأبواب الحرب، وهي الأصل في تدبير الحروب التي وَضَعَ الناس لها كُتُبًا، ورَتَّبُوا فيها تراتيب خاصة، وتَفَنَّنُوا فيها تَفَنُّنًا عجيبًا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾، ومن المعلوم أنه ليس ثَمَّ بناء مرصوص أَتَمَّ ولا أَنْظَمَ من تشكيل الشكل المربع المُسَمَّى بالقلعة في التعاليم الجديدة النظامية، التي تَجَدَّدَتْ منذ سنين عديدة في مصر المحمية، فهذه النظامات الحديثة الأخيرة مِنْ أَعْظَم ما تَكُون به ديار الإسلام جديرة، والفضل

في إدخالها الديار المصرية، واقتفاء الاقتداء بها، وتأليفها في الديار الإسلامية للحضرة المحمدية العلية، ثم قَوِيَتْ واتَّسَعَتْ دائرتها برياسة نجله الأكبر سَمِيِّ الخليل، ثم تَشَكَّلَتْ أشكال متنوعة إلى أن قَوِيَتْ شوكتها بالخديو الجليل عزيز مصر إسماعيل، فإنه فَرْع تَبَع الأصل الأصيل في كَسْب المجد الأثيل:

وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلَّا وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلا في مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

فإنه رَبَّى للسجال رِجَالًا، لهم في ميادين الحرب أَعْلَى مَجَالٍ.

يبني الرِّجَالَ وغَيرُه يبني القُرَى شَتَّانَ بين قُرًى وبين رِجَالِ
قَلِقٌ بكَثْرَةِ مَالِهِ وجِيَادِهِ حتى يُفَرِّقَهَا على الأبطال

وقال آخر:

وَشَرْط الفِلَاحة غَرْسُ الثِّمَارْ وَشَرْطُ السِّيَاسة غَرْسُ الرِّجَالْ

ولا بأس أن تُذْكَر هنا عِظَة تمثيلية، وَصَّى بها الحكيم منطور تلميذه تليماك حين رياسته على بعض السريات اليونانية، وإن كانت الواقعة في حَدِّ ذاتها خيالية إلا أنَّ لها مَعْنًى من المعاني الصحيحة، يجب أن يَتَمَسَّكَ به أمراء الجنود في سفراتهم النجيحة، فنقول: قال منطور لتليماك: «اذهب إلى أي خطر كان واقْتَحِم المَخَاوِف والمَهَالِك متى احتاج الأمر لذلك، فإن المرء يَتَدَنَّس عِرْضُه إذا هَالَهُ الخوض في المَعارك، ولم يَقْتَسم الأخطار مع أربابها، ولم يُشَارِك ولم يقْتَحِمْ معًا مع الحرب والجدال، فإن هذا يُلَوِّثُه أَزْيَدَ مما إذا مُنِعَ من السفر؛ لحضور الحرب والنزال.

ولا ينبغي لمن يَقُود الجيوش وله عليهم أَمْرُه أن تَكُون شجاعَتُه مُتَرَدِّدة، بل مُحَقَّقة ليَنْفُذَ على الجميع نَهْيُه وأَمْرُه، فإذا كانت الرعية تحتاج لِحِفْظِ مُلْكِهَا وبقائه فهي أَحْوج لأن تَجِدَ شُهْرَتَهُ مترددة، يُخْشَى عليها من السقوط، ومن شماتة أعدائه، ولا تَنْسَ أن الذي يَحْكم العساكر ويقودها في الكفاح لا بد أن يكون أنموذج الجمع وشاكي السلاح، وبشجاعته الجاسرة الباسلة يُحْيِي قلوب الجنود الفاضلة، فإياك أن تَهَاب الأخطار، بل مُتْ في ميدان الحرب ونَقْع الغبار، فهذا خَيْر من أن يَرْمِيَكَ الناس بالجبن، ويَصِفُوك بالذل والصغار.

وأما المداهِمون الذين يَصُدُّونك عن التعرض للخطر عند الاقتضاء واللزوم فهم أَوَّل من يَقُولُ في حَقِّكَ سرًّا: إنك مَلُوم ومذموم، وإنك ضعيف الفؤاد والجأش، وجهْدك جهْد الأوباش، ويَفُوقُونَك بسهام الملام متى وَجَدُوا أن يَسْهُل عليك الاحتجاب والإحجام والتأخر عن الإقدام، ولكن لا ينبغي لك أن تَنْهَض وَقْتَ الرخاء والسعة؛ لِتَطْلُب الأخطار بدون منفعة، فإن الشجاعة ليست محمودة العلقة والارتباط، إلا إذا كانت موزونة بِقِسْطَاس العقل وميزان الحَزْم والاحتياط، وإلا فهي بدون ذلك عبارة عن احتقار النفس النفيسة، والمُخَاطَرة بها بدون رأي ولا تدبير، فهي إذن خسيسة، فتَرْجع إلى الحمية الشهوانية والصفة الغَضَبِيَّة الحيوانية، فلا تُنْتِجُ نتيجة محققة مأمونة، ولا تُثْمِر ثمرة عن الهوان مصونة، مع أن النفس جوهرة مكنونة، فيجب أن تكون دماؤها محقونة، فالإنسان الذي لا يملك نَفْسَه في وقت الأخطار هو إنسان غَضَبِي ورجل أحمق، لا شجاع باسل حليف انتصار، ولا هو معدود من فحول الرجال، بل محتاج أن يَخْرُج من مركز العقل ويَدْخُل في زوايا الاختلال؛ ليغلب الخوف بصولة الغضب وجَوْلَتِه، ولا يقتدر على غايته لقوة قلبه وحضور عقله واستحضار فكرته.

فهو في هذه الحالة لا يَكِرُّ ولا يَفِرُّ ولا يُقْبِل ولا يُدْبِر، وإنما يَتَعَكَّر ويَتَكَدَّر ولا يَتَذَكَّر ولا يَتَفَكَّر، بل يَخْتَلِطُ ولا يَتَدَبَّر، ويَخْسَر حُرِّية عَقْله وفِكْره مما لا يلزم لتنظيم حاله، واغتنام تدمير عَدُوِّه، وتدبير أَمْره، وينسى خدمة الأوطان ومَنْفَعة البلدان، وهذا عَيْن الهوان، فإذا كان عند ذلك المُجَازِف شجاعة النفر العسكري المُجَالِد؛ فليس عنده فطانة الرئيس الكامل، ولا إمارة الأمير القائد، بل ليس مُتَّصِفًا في الحقيقة بحقيقة شجاعة النفر الصحيحة، ولا يسأله آحاد الجنود وأفراد العساكر الرجيحة؛ لأن النفر العسكري من واجباته أن يُحَافِظَ في المعركة على استحضار عَقْله، والاعتدال والحِلم حتى يكون ملازمًا للطاعة في جميع فِعْلِه.

فأي مُحَارِب تَعَرَّض للمجازفة في الحرب العوان كَدَّرَ نظام العساكر، وأَخَلَّ بالتعليمات والحركة العسكرية في حَوْمة الميدان، وكان قُدْوَة للمُجَازَفة والمُخَاطَرة والمُثَابَرة والمُكَابَرة، وعَرَّضَ الجيش بتمامه بِفَقْدِه استحضار العقل الصائب للوقوع في مَكَايِد الخطر والمصائب.

فكُلُّ مَنْ يُؤْثِر مَطَامِعَه الفاسدة، ويُقَدِّم وسائله ومَقَاصِدَه، على مقتضيات العدل والمصلحة العامة؛ يَسْتَحِقُّ الجزاء والعقاب، لا المكافأة والثواب على رأي الخاصة والعامة، فاحذر يا بُنَيَّ أن تَطْلُب الفخار بدون صَبْر ولا تؤدة، بل أقرب الوسائل في الحصول

عليه أن تَنْتَظِر اغتنامه بالفرصة لتستعبده، فلا يَكُنْ سَعْيُك إليه سعيًا خائبًا، ولا تَرْمِ سَهْمَكَ صَوْبَه إلا صائبًا، فإن الخصلة الحميدة في الإنسان صاحب الكمال تُحْمَد ما دامت مبنية على الرفق والاعتدال، فهي مُعَادِية للزينة وحُبِّ الرياء والسمعة، وقَصْد التعمق في المطلوب والوسعة، فمتى زادت الحاجة الداعية لاقتحام الأخطار، ودَعَت الدواعي لاقتحام العقبات الكبار؛ وَجَبَ أيضًا الاستحصال على وسائل التبصر والاستبصار، والحزم في الشجاعة لبلوغ الأوطار، فتقوى الشجاعة بقوة الحاجة إليها، ويَجِبُ توسيع دائرة البالي في الحصول عليها.

وبالجملة: فَتَنَبَّه لأن تَسْلُك في أمورك كلها مَسْلَكًا لا يَجْلِب إليك غَيْرة الباقين، ولا يُوجِب لك عداوة الآخرين، فامْدَحْهُم فيما يستحقون عليه المدح، وليكن مَدْحُك مصحوبًا بتمييز كُلٍّ على قَدْر حَالِه؛ لئلا يستحيل إلى القدح أن تَذْكُر حَسَنَاتِ ذوي الإحسان والخصال الملاح مِنْ خَالِص قَلْب مُتَهَلِّل بالفرح والانشراح، تَضْرِب صَفْحًا عن سيئاتهم، وترثي لحال فاعلها وتَتَأَسَّف على وقوعه في الفعائل القباح، ولا تحكم بشيء وتقضي به استقلالًا بحضور هؤلاء الرؤساء الأفاضل الذين مارسوا الأمور، وجربوا الوقائع والنوازل، فإنك خَلِيٌّ عن ذلك، ولَسْتَ مِثْلَهُم في سُلُوكِ هذه المسالك، فاسْمَعْ قَوْلَهُم مع الأدب والاحترام، وشَاوِرْهُم في الأمر تَبْلُغ صحيح المرام، واخضع لأرباب المعارف والعوارف، وافْزَع إليهم وتَضَرَّع ليعلموك ما لم تَعْلَمْه من اللطائف.

ولا تَسْتَحِ مِنْ أَنْ تَعْزُوَ إلى من تَعَلَّمْتَ منهم جميع ما يَصْدُر عنك من الأمور الصائبة، فانْسُب لهم وأَضِفْ إليهم مَحَاسِنَه وأَطَايِبَه، ولا تَسْمَع أبدًا مَقَالَة من يُثَبِّط هِمَّتَكَ بالبعد عنهم وأَخْذ الحِذْر منهم؛ ليُوقِع المنافَسة والعداوَة والمناقَشة والقساوة بينك وبين هؤلاء الرؤساء السادة وأمراء القادة، وإذا تَحَدَّثْت معهم فاعتمد عليهم كُلَّ الاعتماد، واركَنْ إليهم، وثِقْ بهم، وَسَلِّمْ لهم القياد، ولا تَشُكَّ فيهم، ولا تَتَوَسْوَسْ، ولاطِفْهُمْ في الخطاب؛ لِيَتَمَكَّنَ الحُبُّ ويتأسس، وإذا ظَنَنْتَ أو رَأَيْتَ أن أحدًا منهم حَصَلَ منه تقصير في حقك به عليه يُعَاب؛ فعَاتِبْه برِفْق، وأَصْفِ نِيَّتَك في العتاب، واصْدُقْه في الدعاوى والأسباب، فإن وَجَدْتَ فيه أهلية لِفَهْمِ مَقْصِدِكَ الشريف بالإنصاف والعود على نَفْسِه بالإذعان والاعتراف؛ فَحَدِّثْه بما يَشْرَح صدره، ويَرْفَع قَدْره، ويُعْلِي ذِكْرَه، فبهذا تَأْمَلُ منه نَوَالَ ما تحتاج إليه، واستكمال ما تَطْلُبه لديه، وأما إذا رأيته لا عَقْل له في موافَقة رَأْيِك الصائب؛ فصَبِّر نَفْسَك على ما تَجِده عنده من التعسف، فهو إحدى المصائب، ولا تَجْزَع وتَجَلَّدْ إلى أن يَنْتَهِي الحرب على أَحْسَن حال، فإنه لا يُلَام عليك في التمسك بآداب

الحرب على هذا المنوال، ولكن احترس أيضًا أن تُفْشِي لبعض المتملقين والسعاة والوشاة من المنافقين شَكْوى ما تَظُنُّه ظُلْمًا عن هؤلاء الرؤساء الموجودين في الوجاقات والمواقع التي أَنْتَ فيها معهم في الحروب والوقائع واقع.» انتهى.

وقد عَمِلَ بعض الملوك وَصِيَّة لناظر الجيش، قال فيها: «وليأخذ أمير هذا الديوان بكُلِّيَّتِه، ويَسْتَحْضِر كُلَّ مُسَمًّى فيه إذا دُعِيَ باسمه وحليته، وليقم قيامًا بغيره لم يَرْضَ، وليُقَدِّم مَنْ يُحِب تقديمه في العرض، وليقف على معامل هذه المباشرة، وجرائد جنودنا بما يُحْصى له من الأعلام ناشرة، وليقتصد في كل مُحَاسَبَة، ويُحَرِّرها على ما يَجِب أو ما قَارَبَه أو نَاسَبَه، وليسْتَنْصِح أَمْر كُلِّ مَيِّت يأتي إليه من ديوان المواريث الحشرية وَرَقَة وفاته، أو يُخْبِره مُقَدِّمه أو نقيبه إذا مات معه في الأسفار عند موافاته، وليحرر ما تَضَمَّنَتْه الكشوف، وتحقق ما يُقَابَل به من إخراج كل حال على ما هو معروف، حتى إذا سُئِل عن أَمْرٍ كان لم يُخْفِ، وإذا كشف على شيء أَظْهَرَ ما هو عليه حقيقته، ولا يُنْكِر هذا لأهل الكشف، وليحرر في أَمْر كل مربعة وما فيها من الجهات المقطعة، وكل منشور يكتب، ومثال عليه جمع للأمر يترتب، وما يثبت عنده وينزل في تعليقه، ويرجع فيه إلى تحقيقه.

وليعلم أن وراءه من ديوان الاستيفاء مَنْ يُسَاوِقُه في تَحْرِير كل إقطاع وفي كل زيادة وإقطاع وفي كل ما يُنْسَب إليه، وإن كان إنما فَعَلَهُ بأمرنا المطاع، وليتبَصَّر بمَنْ وراءه، وليتَوَقَّ اختلاف كُلِّ مُبْطِل وافتراءه، وليَتَحَقَّق أنه هو المشار إليه دُون رُفْقَتِه، والموكل به النظر، والمُحَقَّق به جملة جُنْدِنَا المنصور من البدو والحضر، وإليه مدارج الأمراء فيما يَنْزِل، وأَمْر كل جندي لهم ممن فَارَقَ أو نَزَلَ، وكذلك مساوقات الحساب، ومن يأخذ بتاريخ المنشور الشريف أو على السباقة، ومن هو في العساكر المنصورة في الطليعة أو في الساقة، وطوائف العرب والتركمان والأكراد، ومَنْ عليهم تقدمه أو درك بلاد ملزمه، أو غير ذلك مما لا يَفُوتُ إحصاؤه القلم، وأقصاه أو أدناه تحت كل لواء يُنْشَر أو عَلَم، فلا يزال لهذا كُلِّه مُسْتَحْضِرًا، وله على خاطره مُحْضِرًا؛ لتكون لفتات نظرنا إليه دون رفقته في السؤال رَاجِعَة، وحافِظَتُهُ الحاضرة غَنِيَّة عن التذكار والمراجَعَة، وملاك الوصايا تقوى الله، وهي مِنْ أَخَصِّ أَوْصَافه، والجمع بين العدل والإحسان، وهما من نتائج اتِّصَافه، فليجعَلْهُما عُمْدَتَي حُكْمِه في القول والعمل، والله يَجْعَلُهُ من أوليائه المتقين وقد جعل.» انتهى.

ومما ينبغي ذِكْرُه أن أمراء الجيوش هم نُوَّاب الإمام في الجهاد، فكما يَجُوز لهم قتال أَهْل الحرب مُقْبِلين ومُدْبِرين، ونصب المنجنيقات والفرادات، وإلقاء الحيات، ورَمْي النيران بجميع آلاتها، وقَطْع أشجار العدو ولو مُثْمِرة عند الاقتضاءات والضرورات، وقتل الشبان والشيوخ، ومَنْ يَتَعَرَّض للطعن والضرب، لا قَصْد قَتْل النساء والصبيان، فكذلك يجوز لهم بمقتضى رُخْصَتِهم أن يعقدوا عقود العهود والأمانات، ويُؤَمِّنُوا من ألقى السلاح مما شُرِعَ لجلب المصلحة ودَرْء المَفْسَدة، ومتى عَقَدُوا العقود وعاهدوا العهود فلا يجوز نَكْثُها بوجه من الوجوه، إلا إنْ ظَهَرَ لهم من العدو المتعاهدين معه خيانة مستورة وخوف مَضَرَّة، فيُنْبَذ العَهْد إليهم حتى يَسْتَوُوا في مَعْرِفَة نَقْض العهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، وكذلك إذا كان العهد مؤجلًا بمدة فانْقَضَت المدة، فبانقضائها يُنْقَض العهد ويُنْبَذ إذا كان الغرض عَدَم تجديده، بل العزم على المحارَبة والمقاتَلة، ولا يجوز نَقْضُه في غير ما ذُكِرَ؛ لأن نَقْضَه يجري مَجْرَى الغدر وخُلْف القول، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾، ومتى جاز نَقْض العهد وَجَبَ إخبار المعاهَدِين بذلك ليكونوا على بصيرة؛ لأن النبي ﷺ حين نَقَضَ العهد مع أهل مكة بَعَثَ مُنَادِيَه، وهو عَلِيٌّ رضي الله تعالى عنه في الموسم، فنادى يَوْمَ النَّحْر عند جَمْرَة العقبة بنَقْضِ الصُّلْح، فينبغي لكل أمير أن يَتَأَدَّب بآدابه ﷺ في حِفْظِ العهود، وإجرائها على وَجْه معهود.

يُحكى أن خالد بن الوليد لما حَارَبَ بني حنيفة بأرض اليمامة، وقَتَلَ مسيلمة الكذاب حتى صار إلى حِصْن لبني حنيفة، فخرج إلى خالد رَجُل من الحصن، فأَسْلَم على يده، ثم قال: إن في هذا الحصن ضَعَفَة ونساء وصِبْيَة، فأعْطِهم أمانًا ليَخْرُجوا إليك، فلَيْسَ فيهم درك، فأَخَذَ أمانًا مِنْ خَالِد للجميع، ثم أَخْرَجَهُم فخَرَجَ فيهم رجال كأنهم الأُسْد، فقال خالد: لَمْ أُعْطِكَ لهؤلاء أمانًا، وإنما أُعْطِيك للضعيف، قال الرجل: فهم كُلُّهُم ضعيف؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾، فكتب في ذلك إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأجاز الأمان على خالد، وما قاله الرجل الأسلمي لخالد يُعَدُّ من باب دَفْع المكروه بقَوْل صَادِقٍ في حَدِّ ذاته، كما يُحْكَى: «أن رجلًا مَرَّ برسول الله ﷺ وهو بمكة قبل هِجْرَتِه إلى المدينة، فقال: يا محمد، أَغِثْنِي فإن خَلْفِي من يَطْلُب دمي، فقال رسول الله ﷺ: امْضِ لوجهك لأَصُدَّ الطلب عنك، ثم قام عليه السلام وجَلَس بعد نفوذ الرجل، فإذا قَوْم يَتَعَادَوْنَ بالسيوف، فقالوا: يا محمد، هَلْ مَرَّ بِكَ رَجُل هارب، من

صِفَتِه كذا وكذا، فقال عليه السلام: أَمَّا مُنْذُ جَلَسْتُ فلا، فصَدَّقَهُ القوم وانْصَرَفُوا في غير ذلك الطريق.»

وقال بعض المؤرخين لما غزا أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه مدينة دمشق في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وكان قد نَازَل هذه المدينة من جهة باب الجابية، ونازَلَها خالد من جهة الباب الشرقي، ونازَلَها عمرو بن العاص من جهة باب ثوما، ونازَلَها يزيد بن أبي سفيان من جهة الباب الصغير، وحاصَرُوها قريبًا من سبعين يومًا، وكان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه مُصَمِّمًا على أَخْذِها بأي وَجْه كان صُلْحًا أو عَنْوَة، وكان عساكر الروم بدمشق قد أَيْقَنُوا أن حِصَارَها على هذه الحالة لا بد أن يَعْقُبَه الفتوح الإسلامي، وأنه لا مَفَرَّ له من وقوعهم في أَسْر المسلمين، وكان محافظ دمشق الأمير ثوما صِهْر القيصر هرقل، فدَبَّرَ حيلة عسى يكون بها نجاة نَفْسِه وجُنْده من الوقوع في أيدي المسلمين، فخَرَج بجنده من المدينة عدة خرجات عساه أن يدافع جيوش المسلمين عن المدينة ويَنْتَصِر عليهم، وكان يَعْتَمِد على أنه سيصله إمدادات من القيصر، فخاب رجاؤه وانْهَزَمَ في جميع خرجاته، ثم لما أيس من النصرة والإمداد القريب، وجَزَمَ بأنه واشِكٌ بالوقوع في قَبْضَة الإسلام؛ شرع في التماس المُسَالَمة بعقد الصُّلْح مع أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه.

وكان قد بَلَغَهُ موت الخليفة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، واستخلاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، وكان أبو عبيدة هَيِّنًا لَيِّنًا صاحب رأفة ورحمة على عباد الله، غير مُتَعَصِّب ولا مُشَدِّد على أهل الكتاب بدون حق، وكان شريف النفس، عالِيَ الهمة، يَمِيلُ إلى العدل والحِلم، وكان قد اشْتَهَرَ عند الروم بحُسْن الشمائل، ومكارم الأخلاق، وصِدْقِ المقال، فلما الْتَمَسَ أَهْلُ دمشق الصُّلْح من هذا الأمير وفاتحوه في شأن ذلك؛ صَالَحَهُم على أن يُؤَمِّنَهُمْ على نفوسهم، ورَخَّصَ لمن لم يُسْلِمْ إذا أراد أن يَخْرُجَ من دياره خَرَجَ منها بجانب من أمواله، واشترط عليهم أن يَبْلُغوا مأمَنَهُم بعد مُضِي ثلاثة أيام بلياليها من زَمَنِ جلائهم، يجِدُّون فيها السير كما يشاءون، ولا يَقْفُو أَثَرَهُم أَحَدٌ من جيش الإسلام إلا بَعْد مُضِيِّها، فعلى هذا الصلح سَلَّمُوا له مفاتيح المدينة، فلما دخل فيها بجُنْدِه ووَصَلَ فيها إلى ميدان عامٍّ في وسَطِها؛ رأى في هذا الميدان جُنْدَ خالد بن الوليد، فكانوا نَقَبُوهَا وأَخَذُوها عَنْوة من الأبواب المسامتة للباب الذي دَخَلَ منه أبو عبيدة عَقِبَ الصلح، فكانت عساكر خالد بِوَصْف كَوْنِهم فَتَحُوها عَنْوَة يَقْتُلون مَنْ يَجِدُونه في مَمَرِّهم، فنَهَاهم عن ذلك بالتي هي أحسن، وأَمَرَهُمْ بتقوى الله والرفق بعباده، وأَخْبَر الأمير خالد

بن الوليد بما صالحهم عليه؛ لأن خالدًا رضي الله تعالى عنه كان بمنزلة عظيمة عند أمير المؤمنين، وكان قد أتاه كتاب من عمر رضي الله تعالى عنه بتقليده إمارة جَيْشِه، فأَقَرَّ خالد ما صَالَحَ عليه أبو عبيدة، ووَعَدَهُ برفع السلاح عنهم، وأن لا يَقْفُوَ أَثَرَهُمْ إلا بعد مُضِيِّ الثلاثة أيام المُتَّفَقِ عليها، وأَنْجَزَ حُرَّ ما وَعَدَ، فاقْتَفَى أَثَرَهُمْ بعد مُضِيِّهَا، ثم جَدَّ المسير فأَدْرَكَهُمْ وبَدَّدَ شَمْلَهُمْ، وسَلَبَهُمْ ما عِنْدَهُم، واغْتَنَمَ منهم ما اغْتَنَمَ، ثم عاد سالمًا غانمًا إلى دمشق، وبَعَثَ أبو عبيدة بالفتح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما فمدحه المؤرخون بوفائه بنَفْسِه، وبتوسطه إلى خالد بن الوليد، وحمله على ذلك.

قال بعض مَنْ وَقَفَ على هذه الواقعة من مؤلفي أوروبا: «لو كانت أوصاف هذا الصحابي الجليل الذي كان أمير الجيش الإسلامي في ذلك الجيل مُجْتَمِعَة في أمراء الجنود بالأجيال الجديدة، المشهورة بالتمدنات المتنوعة والتقدمات العديدة؛ لأفادَتْهُمْ غاية المَجْد والشرف، ونَفَتْ عنهم مَثَالِبَ الجور والسَّرَف، فأَجَلُّ أمراء جيوش الدول العظيمة التَّمَدُّن في عَهْدِنا هذا لم تَبْلُغ درجة ذلك الأمير الخطير الذي هو من بين الفاتحين عديم النظير، فكل مَنْقَبَة من مناقِب عَدْلِه وحِلْمِه ووفائه تُخْجِل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة، وتَزْدَرِي بأمرائه.» انتهى، وهذا من قَبِيل: «ومليحة شَهِدَتْ لها ضراتها.»

ومع ذلك فنقول: إن تَمَدُّن الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين وتابعيهم هو تَمَدُّن حقيقي مُكْتَسَب من أنوار النبوة واتباع هَدْي مَنْ لا يَنْطِق عن الهوى، مع سلامة طَبْع أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي قال في حَقِّه عليه الصلاة والسلام: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح» وقد كانت شَفَقَتُه على نصارى الروم بدمشق واجبة؛ لأنها نتيجة المُصَالَحة والمُعَاهَدة، وإلا فكان لا يَخْشَى في الله لَوْمَة لائم، فهكذا مَكَارِم أخلاق الصحابة، فمن أَرَادَ أن يَقْتَدِيَ بهم فهو من أهل السداد والإصابة، وما أَسْعَد مَنْ يَتَنَزَّه من أول شَبِيبَتِهِ عن الجهالات، ويَتَمَسَّك بناموس المروءة والشريعة، ويُخَالِفُ أهواء النفس اللوامة، ويُخَالِف معالي الأمور المؤسسة على ما في الكتاب العزيز من الآيات البينات، فلا أَحْمَق ممن تَجَرَّدَ عن الشفقة والمرحمة، وأَفْضَى به الجهل إلى ارتكاب الأمور المُحَرَّمة، فكأنما هو تَرَبَّى في الجبال، ورَضَعَ ألبان الوحوش والوعال، كما يُحْكَى عن نية غَدْر من مغربي مُسْلِم بأسير من نصارى الإسبانيول، مُنْقَاد لقضاء الله عليه بالأسر ومُسْتَسْلِم، وذلك أن أَكْثَرَ عَرَب المغاربة المُتَوَطِّنِين ببلاد إفريقية أَصْلُهُم من

عَرَب الأندلس الذين أَجْلَاهُم الإسبانيول مِنْ ديارهم بعد تَغَلُّبِهِم عليها، وكانوا بقايا مَنْ نَجَا من القتل، فكانت العداوة باقية بين الفريقين.

وكان أَغْلَب المغاربة يَعْتَقِدُون حل التقرب إلى الله تعالى بقتل النصارى لمخالفة الدين، لا سيما إذا كانوا من نصارى الإسبانيول المعتدين، وكان من قواد المغاربة الذين يُغِيرُون على بلاد الإسبانيول الساحلية أمير، يقال له علي بن جرمي من قواد ملوك إفريقية، فانتصر مرة في حربه مع الإسبانيول نَصْرَة عظيمة، وقَتَلَ وأَسَرَ وشَحَنَ سَفِينَتَه من أَسْرَاهُم حتى أرسى على سواحل إفريقية وأَنْزَلَهُمْ إلى البر، فحَضَرَ إليه شَخْص من حَمْقَى العرب مُتَمَثِّلًا بين يديه، وجَعَلَ يُقَبِّلُ قَدَمَيْه وقال له: يا أيها الأمير، لقد أَسْعَدَك الله تعالى بالظفر والتأييد، ووَفَّقَكَ لجلب عَدَدٍ كَثير من النصارى الأسارى، فهم لجنابك العالي من قبيل الأرقاء والعبيد، وطَالَمَا انْتَهَزْت الفرصة في سَفْك دمائهم، وسَبْي رجالهم ونسائهم، وفي طَاقَتِك أن تَقْتُل منهم ما تشاء من العدد الكثير والجم الغفير، فلا شك أن مِثْلَكَ من أهل الجنة حَيْث وَفَّقَه الله تعالى إلى الحصول على هذه المنة، وأما أنا فَلَمْ أَحْظَ في عمري بهذه الفضيلة، ولا تَيَسَّرَتْ لي هذه النعمة الجزيلة، فأناشِدُك الله إلا تَفَضَّلْتَ عليَّ من إحسانك وجميل فَضْلِك وامتنانك بأَحَدِ هؤلاء الأسرى أعداء الدين؛ لأَتَقَرَّب به إلى طاعة رب العالمين. فأَظْهَرَ له الأمير حُسْن الإجابة، وأنه لَبَّى دَعْوَتَه لِيَنَال الأجر والإثابة، وأَفْهَمَه أنه يُرسل إليه هذا الشاب طويل النجاد في الغابة، وأَمَرَهُ أن يَنْتَظِرَه فيها هذه الساعة لِيَفْتِكَ به سِرًّا بدون إشاعة، ثم أَمَرَ الأسير بالمسير، وأَطْلَعَهُ على خَبِيئَة هذا الأحمق وحَذَّرَه منه وأَنْذَرَه حتى يَعْمَل لنفسه في الذب عنها أَحْسَن التدبير، فاقْتَحَمَ الأسير الغابة شاكِيَ السلاح، مُصَمِّمًا على المناضلة والكفاح، فلما رآه خَصْمُه على أُهْبَة بهذه الحالة لَمْ يَجِد من الهروب بدًّا، فنَجَا بِنَفْسِه ولا محالة، ورَجَعَ إلى الأمير يَرْجُف فؤاده وقَدْ فَاتَهُ مُرَادُه، فقال له الأمير بِصَوْت جهوري، بغاية من الحماس، يُسْمِعُه كُلَّ مَنْ حَضَرَ من الناس: يا أيها الشقي الأحمق، والعدو الأزرق، كيف عِشْتَ بين أَظْهُر مؤمني البرية، ولم تَعْلَمْ حُرْمَة قَتْل النفس البرية؟ وهل مَحْض اختلاف الأديان يُبِيح التعدي بقَتْل الإنسان؛ ابتغاء مرضاة الشيطان؟ وكيف تَظُنُّ أن بتصميمك على هذه النية تُرْضِي الله سبحانه وتعالى أو نبيه؟ وهل من المروءة والسماحة قَتْل مَنْ ألقى سِلَاحه؟ أَمَا تَعْلَم أَنَّ قَتْل النفس بغير حَقٍّ مِنْ أَعْظَم الآثام عند الله، فخجل المغربي بالخزي والخجل، يَطْلُب الغفران من الله عز وجل، واسْتَحْسَن جميع الحاضرين ما دَبَّرَه الأمير، فما أَحْسَن العدل المرفوق بحُسْنِ التدبير لا سيما من قائد خطير.

ويُحكى أن عَمْرو بن معدي كرب مَرَّ بِحَيٍّ من أحياء العرب فرأى فَرَسًا مشدودًا ورُمْحًا مركوزًا ورجلًا في وهدة يقضي حاجته، فقال له عمرو: خُذْ حِذْرَكَ، فإني قَاتِلُكَ، فقال له: مَن أنت؟ قال: أبو ثور عمرو بن معدي كرب، قال: وأنا أبو الحرب، ولكن ما أَنْصَفْتَنِي، أنت على ظَهْر فَرَسِكَ وأنا في موضعي، فأَعْطِنِي عهدًا أن لا تُقَاتِلَنِي حتى أَرْكَبَ فَرَسِي وآخُذَ حِذْرِي، فعَاهَدَهُ على ذلك، فخرج من الموضع الذي كان فيه وجَلَسَ مُحْتَبِيًا بسيفه، فقال له عمرو: وما هذا الجلوس؟ قال: ما أنا براكب فرسي ولا أنا مُقَاتِلك، فإن نَكَثْتَ العهد فأنت أَعْلَمُ بما يَلِيقُ بالناكث، فتركه عمرو ومضى، وقال: هذا أَجْبَن مَن رَأَيْتُ، فانظر إلى حِفْظ العهود، فهو وإن كان واجب الوفاء به في حَدِّ ذاته إلا أن أَحَقَّ الناس به الأمراء والجنود، وفي هذا القدر كفاية فيما يَتَعَلَّق بالطبقة الثالثة التي هي طبقة الغزاة.

الفصل الرابع

في طبقة أهل الزراعة والتجارة والحِرَف والصنائع

قد أَسْلَفْنا الكلام على هؤلاء بالبيان الشافي في عدة مواطن، لا سيما في الباب الثاني من هذا الكتاب، فلا فائدة في الإعادة، وإنما نقول هنا: إنه ينبغي لأبناء الوطن أن يُؤَدُّوا ما يَجِب عليهم من الحقوق لوطنهم أيًّا ما كانت طَبَقَتُهُم؛ لاتحادهم في وَصْف الأهلية، وأن يتعاونوا على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم السياسية، وأن يَبْذُل المستطيع ما عنده في إصلاح حالهم ومآلهم، حتى يَصْدُق عليه أنه ممن أحيا نخوة الملة، وأَنْعَشَ قُوَّة الدولة، فيشكره وطنه الذي هو مِصْرُه، ويَحْمَدُه زَمَنُه الذي هو عَصْرُه، فيكون مُخَلَّد الذِّكْر في دفاتر أخبار الذين اشْتَهَرُوا في سلسلة الأعصار، وأن يَتَّصِف كل عضو من أعضاء الجمعية الأهلية بالأمانة التي هي أشرف الخصال، التي يُحْتَاج إليها في المعاملات، وقد كانت هذه الفضيلة قديمًا في الديار المصرية على غاية من التمسك بها ولو عند عرب البادية.

ومن غريب ما يُحْكَى في ذلك ما أَخْبَر به الشيخ عبد الرازق القفطي: «أنه جاء إليه الشريف الأحمر ومعه بدوي، فقال لعبد الرازق: أشتهي أن تُقْرِضَنَا دينارين وتَرْكَب مَعَنا لله تعالى، قال: فدَفَعْتُ لهما دينارين ورَكِبْتُ معهما، فسُقْنَا في الحاجر ساعة، فقلت للشريف: ما تقول لي إيش أنت تطلب بنا؟ فقال البدوي: كان أودع ناسًا من العرب سخلة في الحجاز من إحدى عشرة سنة، وهو يطلب وديعته، قال: فَقُلْتُ له: ضَيَّعْتَ عليَّ دينارين وأتعبتنا، فقال لي: الدينار الواحد معي، والآخر اشتريت به هذا الحمار، فإن

وَجَدْنَا شيئًا وإلا رَدَدْنَا لك مالك، فَسِرْنَا إلى أبيات عرب هناك، فجلسنا بعيدًا، وتَقَدَّمَ الأعرابي ونادى: يا أبا فلان، فكَلَّمَه إنسان، فقال: مَنْ تكون، أو قال مَن تريد؟ فقال: الله تعالى يَعْلَم أني كُنْتُ أَوْدَعْتُ لك بوادي الصفراء في الحجاز في السنة الفلانية سخلة، قال: فجاء الرجل الذي كَلَّمَه ونحى القرمزية عن رأس البدوي، ونظر إلى شجة في رأسه، وقال: والله أنت هو وأبو فلان مات وأنا أخوه، اقْعُد حتى تَرُوح إبِلُنا، فقعدنا حتى راحت الإبل عليهم، فعزل البدوي منها تِسْع نُوقٍ، وقال: اللهُ تعالى يَعْلم أن السخلة وَلَدَتْ وَوَلَدَ أولادها، فبِعْنَاهَا واشترينا تلك الناقة، فولَدَتْ وتَوَالَدَتْ، فالذي كان منها ذكورًا بِعْنَاه، وأَبْقَيْنا الإناث، وأَخْرَجْنَا عنك الزكاة، وأَخْرَج صُرَّة زرقاء مربوطة بخيط من شعر، فقال: هذا مِنْ ثَمَن الذكور فَفَتَحْنَاها فوَجَدْنَا فيها، إما قال: تسعة عشر دينارًا، أو قال: اثنين وثلاثين دينارًا، غاب عني أيهما قال لطول المدة، فقال الأعرابي: أما هذا الذهب فَخُذُوه، ولا حاجة لي به، وتكفيني النياق، فقلنا: والله ما نأخذ إلا الدينارين، فأخذناهما ورَجَعْنَا.»

انتهى، فانظر إلى قيمة قَدْر الأمانة عند عَرَب البادية المؤْتَمَنِين، والتعفف من المتوسطين، وسماحة الأعرابي الذي أراد أن يَتْرُك الذهب لهم، فلا يُدْرَى أي الفرق الثلاثة أَكْرَم وأَعْظم مروءة، فعلى العاقل أن يَتَمَسَّك بكل فضيلة يتَمَدَّح بها، وتَبْيَضُ بها صَحِيفَتُه دنيا وأخرى من كل ما يُحْرِز المنافع العمومية دنيوية أو دينية، مما يكون به لأهل مِلَّتِه تمام النظام، وتَعُود مَنْفَعَتُه عاجلًا أو آجلًا على قوة دولة الإسلام.

وقد أَسْلَفْنَا في الفصل الأول من الباب الأول في بيان المنافع العمومية ما يَتَعَلَّق بفعل الصدقات الجارية، وأن مِنْ جُمْلَتها بناء العمائر الخيرية، وأن كثيرًا من الأمراء تَشَبَّثوا بذلك، ونقول الآن: إن مِنْ جُمْلَة مَنْ اجْتَهَدَ في فِعْل الخير الجاري على الدوام ما فَعَلَتْهُ صاحبة الدولة والعصمة والدة الخديو الأكرم وَلِي النعمة، فإن بناءها المسجد المنير للقطب الشهير ولي الله تعالى الشيخ صالح أبو حديد هو مِنْ أعظم الخيرات، لا سيما ما أَجْرَتْهُ عليه من الأوقاف الدارة والوظائف البارة، ومثل ذلك شروع حَضْرَتِها السنية في بناء مسجد القطب الرفاعي الجاري فيه العمل الآن أمام السلطان حسن، فإنه أيضًا صار توسيعه بما لا مزيد عليه من الدور المُتَّخَذَة له بالشراء، وتطييب خواطر أربابها مع الجد والاجتهاد في العمارة التي يَظْهَر أنها تصير ضخمة جدًّا، وتنافس جامع السلطان حسن المواجه لها، مع ما سيرصد عليها من الأوقاف الجزيلة، مما أرادت حضرتها العلية تَحْصِيله، ومن المعلوم أن لحضرتها المشار إليها من جزيل الخيرات ما لا يُحْصَى، ومن جميل المَبَرَّات ما لا يُسْتَقْصَى، والرأفة الكاملة الكافلة بالتعطف على كل فقير، والتلطف

بجَبْر كُلِّ كَسِير، وتوزيع الصدقات على الجم الغفير، فهي سَارَّةُ مِصْرِهَا، وأين منها زُبَيْدَة في عَصْرِهَا.

وقد سَبَقَ في الفصل الأول من الباب الأول ذِكْرُ ما فَعَلَه من الخير العميم، وحُسْن الصنيع الجسيم حَضْرة خليل أغا باش أغاوات الجهة السامية المشار إليها من المدرسة والتكية؛ ابتغاء مرضاة الله تعالى مما ازداد به وَجْه مصر ضياءً وتَلَأْلَأَ، هكذا هكذا وإلا فَلَا لا وكُنَّا قَدْ ذَكَرْنا في الفصل المذكور ما أنشأه من الخيرات الأمير الجليل والشريف النبيل سعادة راتب باشا بالجامع الأزهر، ثم بَلَغَنَا فيما بعد أنه أَنْشَأَ مسجدًا جليلًا بالإسكندرية، ومدرسة جليلة عمومية بالإسكندرية أيضًا، وأَرْصَدَ لذلك ما فيه الكفاية لِدَوَامِهِ، وأَرْصَدَ جرايات لها وَقْع كبير على الأضرحة والمشاهد والمقاري بالمحروسة، وأحيا تكية للنساء العجائز الفقراء مُرْصَدَة على إحدى وعشرين امرأة، كان أَنْشَأَهَا المرحوم عبد الرحمن كَتْخُدَا ثم دَثَرَتْ، وبَلَغَنَا أن حضرة الباشا المشار إليه مُصَمِّم على تجديد مارستان للفقراء والضعفاء، وأوقف الأمير المذكور من أراضيه وعقاراته على ذريته، وشَرَطَ أنها تئول من بعدهم إلى محالِّ خيراته توسيعًا لها زيادة، هكذا يكون الكرم الواسع من الأشراف أهل الديانة والصيانة والعفاف، أَطَالَ الله بَقَاه، ومن الأسواء حَفِظَه وَرَقَاه، وكثير من الأمراء والأعيان ممن لا تُعْلَم حقيقة أَوْقَافِهِم الخيرية إلا إجمالًا، تَصَدَّى لفعل الخيرات على قَدْرِ حاله، وبَذَلَ فيها جزءًا عظيمًا مِنْ مَالِه، فالحمد لله الذي وَفَّق كثيرًا من الأمراء والأهالي المصريين رجالًا ونساء بالمحروسة أو بالأقاليم على التشبث بأسباب الخير العميم، والناس — كما يُقال — على دين ملوكهم، وهو أدب قديم، ومع أن هذه الخيرات تُعَدُّ نَوْعًا من المنافع العمومية إلا أن هناك خيرات أَعَم منها نَفْعًا وأَتَم وَقْعًا؛ كالشركات السلمية الشرعية، وجمعية الافتراضات المرعية، فإنها نافعة كُلَّ النفع لِفَكِّ المضايَقات عن أرباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة لِسَدِّ خِلَّتِهِمْ، والقيام عند الاقتضاء بقضاء حاجتهم، فإن هذه الشركات السلمية والجمعيات الاقتراضية مِنْ أَهَمِّ الأمور، ومُفَرِّجة على الجمهور، وبها تَتَقَدَّم التجارة والزراعة، وتَرْقَى الدولة والملة في المالية واللوازم الأهلية إلى أَوْج الفخار ودرج الاعتبار، كما بَيَّنَّا ذلك في الفصل الأول من الباب الأول.

فلله مَنْ بَيَّض من الأهالي صحائف أعماله النافعة، وجَعَلَ أنوار فِعَاله على آفاق وَطَنِه مُشْرقة ساطعة، وأما مَنْ بَخِلَ بذلك فَقَدْ خلا عن فضائل النفع العامِّ، وسَوَّدَ سطور صحائف أعماله بمداد الآثام، وأَخْجَلَ عَصْره الموجود فيه، حيث غَدَرَهُ وخَانَهُ بدون أن

يُوَافِيَهُ أو يُصَافِيَهُ، بل كَدَّرَ رائق نَفْعِه وزلال صافيه، وهذا القَدْر من المكروه كافيه، فعلى وَلِيِّ الأمر العادل أن يُرْشِدَ بأفعاله السنية رَعِيَّتَه إلى سبيل الرشاد السنية، وأن يُعِينَهُم على ذلك بالحصول على كمال الحُرِّيَّة، متى وَجَدَ أن رَعِيَّتَه بتلك الحُرِّيَّة حَرِيَّة، حتى يُحِبَّ الناس أوطانهم، ويديموا شُكْرَهم لمن حَسَّنَ حالهم، وأَصْلَحَ شأنهم.

فالحمد لله الذي وَفَّقَ خديوي مصر الأكرم لِفِعْلِ ذلك بفك عهد المتعهدين للبلاد، وبتأسيس نظامات الدوائر البلدية المبني على تحرير رقاب أهالي النواحي من شِبْه الاستعباد، فإن هذا — لا محالة — قوام الإنصاف والعدالة، فإن مَنْ مَلَكَ أحرارًا طائعين كان خيرًا ممن مَلَكَ عبيدًا مُرَوَّعين، ولا شك أن قلوب الرعية هي خزائن مَلِكِها، فما أَوْدَعَه فيها فهو مُسْتَوْدَع في أنحاء مَسَالكها، ولا يكون الملك عَظِيمَ القَدْر إلا بأهالٍ دونه عَظَّمُوه، ولا تقوى قُوَّتُه إلا برجال أطاعوه، ولا تَشْرُف مَنْزِلَتُه إلا بعَوَامَّ اتضعوا له بالإزعان واتَّبَعُوه، فعليه أن يَمْنَحَهُم وسائل التعزيز والتكبير، وأن يَمْنَعَ عنهم رذائل التصغير والتحقير، فرُبَّ صغير تَرَفَّع عن دناءة الهمة وتَفَرَّغَ لجلائل التدبير، وعلى الملك أن يُعَامِلَ أحرار الناس بمَحْض المودة والعامة بالرغبة والرهبة، وأن يَسُوس السفلة بالمخالفة الصريحة، وأن يُحْسِن سياسة جميع رعاياه على اختلاف أنواعهم؛ لاجتناب الأسباب التي تَبْعَث قلوبهم على مَعْصِيته؛ ليقود أبدانهم إلى طاعته، فبهذا يَسْتَقيم أَمْره إلى مُدَّته، «وسأل» رَجُل بعض حكماء بني أمية: «ما كان سَبَب زوال نِعْمَتكم؟ فقال: قد قُلْتَ ما سُمِعَ، وإذا سَمِعْتَ فَافْهَمْ، إنَّا شُغِلْنَا بِلَذَّتِنَا عن تَفَقُّدِ ما كان تَفَقُّدُه يَلْزَمُنَا، ووَثِقْنَا بوزرائنا فآثَرُوا مَرَافِقَهُمْ على مَنَافِعِنَا، وأَمْضَوْا أُمُورًا دُونَنَا، أَخْفَوْا عِلْمَهَا عَنَّا، وظُلِمَتْ رَعِيَّتُنَا فَفَسَدَتْ نياتهم لنا، ويَئِسُوا من إنصافنا، فَتَمَنَّوا الراحة لِغَيْرِنَا، وخَرِبَتْ معايشهم فخَرِبَتْ بيوت أموالنا، وتَأَخَّرَ عطاء جُنْدِنَا، فزالَتْ طَاعَتُهُمْ لَنَا، واسْتَدْعَاهُم مُخَالِفُونَا فتَظَاهَرُوا على أَمْرِنَا، فطَلَبَنَا أَعْدَاؤُنا فعَجَزْنَا عنهم؛ لِقِلَّة أنصارنا، وكان أَوَّل زوال مُلْكِنَا استِتَار الأخبار عنا.» انتهى.

وقال المنصور يومًا: «ما كان أَحْوَجَنِي أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أَعَفُّ منهم، قيل: يا أمير المؤمنين، ومَنْ هُمْ؟ قال: هُمْ أركان المُلْك، لا يَصْلُح المُلْك إلا بهم، كما أن السرير لا يَصْلُح إلا بأربع قوائم إنْ نَقَصَتْ قائمة واحدة، وهي: أما أَحَدُهم فقاضٍ، لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة، يُنْصِف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج، يَسْتَقْصِي لي ولا يَظْلِم الرعية، فإني غَنِيٌّ عن ظُلْمِها، ثم عَضَّ

على أصبعه السبابة، يقول في كل مرة: آه آه، قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد، يَكْتُب بخبر هؤلاء على الصحة.» انتهى.

ومما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على الديار المصرية أن خديويها الأكرم يُحْسِن انتخاب وكلائه، وينقدهم بعين البصر والبصيرة، وأنه بترتيبه لراحة الرعية الدوائر البلدية، وتنظيمه المجالس المَحْكَمية، وحُسْن تربيته لأبناء الرعية، وتقليدهم بالمناسب الإدارية؛ تستحوذ مصر — التي هي مَنْبَع كُلِّ خَيْر، وفَضْل ومَحَطُّ رحال كُلِّ شَرْقٍ وغَرْبٍ وبُعْدٍ وقُرْبٍ — على الفضائل العليا، ويَصْدُق عليها اسْمُها القديم وأنها أم الدنيا.

ومن أَمْعَن النظر في حُسْن تقسيمها في حلبة السياسة، وأَمْعَن التفكير في نظام تقويمها في رتبة الرياسة؛ وَجَدَها الآن على حالة أَحْسن تقسيمًا وتقويمًا مما كانت عليه في أيام أن كان كرسي الملك ودارِ الخلافة في تلك الأزمان، كما يُفْهَم مِنْ ذِكْر تخطيطها في تلك الأيام لبعض العلماء الأعلام، حيث يقول: لمصر وجهان قِبْلِي وبَحْرِي، فالقبلي هو أَجَلُّهما قَدْرًا، وأَطْوَلهما مَدًى، وأَكْثَرهما جدًى وهو الجيزة، وهي أَقْرَبُها إلى القاهرة غرْبِيَّ النيل، ويَقَعُ قُبالة القبلي منها بلاد طفيح شرْقِيَّ النيل في بَرِّ القاهرة، تصاقب بركة الحبش وبساتين الوزر، ثم يلي الجيزة مقبلًا في بَرِّها بلاد البهنسا، تصاقب البهنسا من غربها بلاد الفيوم وبينهما منقطع رمل، والفيوم هو الذي بَحْرُه دائمًا مُسْتَمِر، وينقسم به الماء في مقاسم، ولا يعرفون قسمة الماء إلا بالقصبات، ثم يلي البهنسا مقبلًا الأشمونين وفيها الطحاوية، ثم يليها بلاد منفلوط، ثم يليها بلاد أسيوط، ثم يليها بلاد أخميم شَرْقِيَّ النيل، ويقابِل دمنتها البرابي المشهورة في البلاد المضروب بها المثل على الألسنة، وهي وإن كانت شرقِيَّ النيل فكل بلادها ومزارعها غربِيَّ النيل، ثم يليها بلاد قوص، وقوص أيضًا شرقِيَّ النيل، وهناك جُلُّ العمارة ومَوْضِع الحرث والزرع، وفي غربِيِّ النيل قُبَالَتَهَا البلاد المعروفة بغرب قمولا، وهي من مضافات قوص وبلادها، ثم أسوان وهي مِنْ عمل قوص، وواليها نائب عن واليها، ويخرج ما بين قوص وأسوان إلى صحراء عيذاب حتى ينتهي إلى عيذاب، وهي قرية حاضرة البحر، ومنها يتعدى إلى جدة، ويكون بها جند من قوص وواليها، وإن كان من قِبَل السلطان فإنه نائب لوالي قوص، ووالي قوص أَعْظم ولاة مصر وأَجَلُّهم، فهذه جملة الوجه القبلي، وفيه الصعيدان الأدنى والأعلى، والأدنى كل ما سَفُلَ عن الأشمونين إلى القاهرة، والأعلى كل ما علا عن الأشمونين إلى أسوان، وغالب زَرْعِه ورَفْعِه وجَلْب قُوتِه وحَلْب ضَرْعِه غَرْبِيَّ النيل، وما يوجد شَرْقِيَّ النيل قليل، وهو تَبَع لا متبوع، فأما الوجه البحري فهو كل ما سَفُل عن الجيزة إلى حيث مصب النيل

في البحر الشامي بدمياط ورشيد، وهو أَعْرَض من الوجه القبلي، وبه الإسكندرية وهي مدينة مصر العظمى، فأما ما وَقَعَ منه شرقي النيل في بر القاهرة المتصل بها فأقربها منه الضواحي، وهي القرى التي أَمْرُها بِيَدِ والي القاهرة، ثم قليوب، ثم الشرقية ومدينتها بلبيس، وأما ما وَقَعَ غَرْبِيَّ أحد مَرْمَى النيل الفرقتين في هذا الوجه، فأَقْرَبُها إلى الجيزة جزيرة بني نصر ثم مَنْف، وكلاهما عَمَل واحد، والاسم لَمْنْف، وهي كانت مدينة مصر العظمى زمن فرعون موسى، ثم أبيار وهي مِنْ عَمَل مَنْف أيضًا، ثم يليها بلاد الغربية ومدينتها محلة المرحوم، وهي عَمَل جليل مُتَّسِع يُضَاهِي قوص، ثم يليه أشموم وتُعْرَف بأشموم الرمان؛ لكثرة وجود الرمان بها، وهي بلاد الدقهلية والمرتاحية، ثم يليها دمياط حماها الله، وهي أحد الثغور والضالة المستنقذة بعد طول الدهور، وإليها أحد مَصَبَّي النيل، ثم ما هو غربي الفرقة الثانية من النيل، فأقربه إلى الجزيرة بلاد البحيرة ومدينتها دمنهور، وهذه البلاد تشتمل على بلاد مُقْفِرة، وطوائف من العرب، وبها بركة النطرون التي لا يُعْلَم في الدنيا أن يُسْتَغَلَّ من بقعة صغيرة نَظِيرَ ما يُسْتَغَلُّ منها، فإنها نحو مائة فدان تُغِلُّ نحو مائة ألف دينار، ثم يلي بلاد البحيرة مدينة الإسكندرية ثغر الإسلام المُفْتَرُّ، وحِمَى الملك المحضر، حَرَسَهَا الله تعالى، وهي مدينة لا يَتَّسِع لها عَمَل، ولا يكثر لها قرى، فهذه جملة الوجه البحري، ثم لم يَبْقَ ما تنبه عليه إلا قطيا وهي قرية في الرمل، جعلت لأخذ الموجبات، وحِفْظ الطُّرقات، وأَمْرُها مُهِمٌّ، ومنها يُطَالَع بكل وارد وصادر، وأما الواحات فجارية في إقطاع أمرائهم، يُوَلُّون عليها كل مقطع في إقطاعه ومغلها كأنه مصالحة، لعدم التمكن من استغلاله أسوةَ بقية ديار مصر، لوقوعه منطقًا في الرمال النائية والقفار النازحة، وهذه جملة نطق القاهرة المحيطة بمصر سُفْلًا وعُلُوًّا. انتهى.

والظاهر أن في عصر هذا المؤرخ كانت قصبات الصعيد الأعلى قوصًا وأخميمًا، ولم تكن جِرْجَا من القصبات المشهورة شهرةَ غيرها، وأنها صارت فيما بعد متصرفية، وقد أَنْزَل إلى ناحيَتِها السلطان الظاهر برقوق بعد واقعة بدر بن سلام هناك هوارة الصعيد في نحو سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وكانت خرابًا ليعمروها، فأقطع هذه الناحية لإسماعيل بن مازن منهم، وأقام بها حتى قَتَلَه علي بن غريب، فولى بعده عمر بن عبد العزيز الهواري حتى مات، فولى بعده ابنه المعروف بأبي الشوشة، وفَخُمَ أَمْرُه وكَثُرَت أمواله، فإنه أَكْثَرَ مِنْ زراعة النواحي، وأقام دواليب السكر واعتصاره حتى مات، فتولى بعده أخوه يوسف بن عمر وهكذا، وهؤلاء الهوارة أَصْل ديارهم من عَمَل سرت بالمغرب إلى طرابلس، قَدِم منهم طوائف إلى أرض مصر، ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها مِنْ قِبَل

السلطان، ونَزَلَ منهم هوارة بالصعيد، كما ذَكَرْنَا، ونزلوا جهة جرجا التي نابت فيما بَعْد عن قوص وعن أخميم، وصارت ولاية في التقسيم، فتقاسيم مصر الآن أَكْثَر تنوعًا، وأَعْظَم استقصاء وتَتَبُّعًا وإن لم تَصِل فيما يَخُص العلم والعلماء دَرَجَة ذلك الزمن البعيد الذي يُعْلَم كثرة علمائه وفضلائه لمن طَالَع مثلًا الطالع السعيد في نجباء الصعيد، إلا أن المعارف الآن سائرة بسيرة مُسْتَجِدَّة في نظريات العلوم والفنون الصناعية التي هي جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية والطرق المعاشية، ومع هذا فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية، والأدبية ومعرفة اللغات الأجنبية، والوقوف على معارف كل مملكة ومدينة؛ مما يُكْسِب الديار المصرية المنافع الضرورية ومحاسن الزينة، فهذا طراز جديد في التعلم والتعليم، وبَحْث مفيد يَضُم حديث المعارف الحالية إلى القديم، فهو من بدائع التنظيم، وإذا أَخَذَ حَقَّه مِنْ حُسْن التدبير والاقتصاد فيه اسْتَحَقَّ مرتبة التعظيم، ولا ينبغي لأبناء الزمان أن يعتقدوا أن زَمَنَ الخَلَف تَجَرَّدَ عن فضائل السَّلَف، وأنه لا يَنْصَلِح الزمان إذ صار عُرْضة للتَّلَف، فهذا من قبيل البهتان، فالفساد لاعتقاد ذلك لا فساد الزمان، كما قال الشاعر:

نَعِيبُ زَمَانَنَا والعيب فِينَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
ونَهْجُو ذا الزمان بِغَيْر عَيْبٍ ولو نَطَقَ الزمان بنا هَجَانَا

وإنما حصول مثل هذه الأوهام السوفسطائية ناشئ مِنْ فَهْم كلام العلماء الراسخين على خلاف المعنى المقصود منه، وأَخْذه على ظاهره، فإذا حَفِظَ الإنسان من جوهرة التوحيد قول الناظم:

وكُلُّ خَيْر في اتِّبَاع مَنْ سَلَفْ وكُلُّ شَرٍّ في ابْتِدَاع مَنْ خَلَفْ

أَخَذَه على ظَاهِرِه في أَمْر الدين والدنيا والمعاد والمعاش والترقي في الرفاهية والزينة، مع أنه خاصٌّ بالأمور الدينية، واتباع الأحكام الشرعية من الحلال والحرام دون المباح، كما أَوْضَحَهُ بَعْدُ قَوْلُهُ:

وكُلُّ هَدْيٍ للنبي قَدْ رَجَحْ فما أُبِيحَ افْعَلْ ودَعْ ما لَمْ يُبَحْ

فيا ليت مَنْ تَمَسَّك بتلك الأفهام، وتَنَسَّكَ بمضامين تلك الأوهام استمسك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ فليس كُلُّ مُبْتَدَع مَذْمُوم، بل أَكْثَرُه مُسْتَحْسَن على الخصوص والعموم، فإن الله سبحانه وتعالى جَرَتْ عادته بِطَيِّ الأشياء في خزائن الأسرار؛ ليَتَشَبَّثَ النوع البشري بِعَقْلِه وفِكْرِه، ويُخْرِجها مِنْ حَيِّز الخفاء إلى حيز الظهور، حتى تَبْلُغ مَبْلَغ الانتشار والاشتهار:

إذا حار وَهْمُكَ في مَعْنَيَيْنِ ... وأَعْيَاكَ حَيْثُ الهُدَى واليَقِينْ
فَخَالِفْ هَوَاكَ فإنَّ الهَوَى ... يَقُودُ النُّفُوس إلى ما يُهِينْ

فمُخْتَرَعَات هذه الأعصر المتلقاة عند الرعايا والملوك بالقبول كانتا من أَشْرَف ثمرات العقول، يَرِثُها على التعاقب الآخَرُ عن الأَوَّل، ويُبْرِزُها في قالب أَكْمل من السابق وأَفْضَل، فهي نَفْعٌ صِرْف لرفاهية العباد وعمارة البلاد، ومَنْ ذا الذي يُخَطِّئُ صواب رأي هذه الاستمدادت المعينة على المهمات المعاشية، بطرقها النافعة وأنوارها الساطعة، التي لظلام الأرجاء دافعة، وبسط الكلام على المخترعات كغيرها من المحسنات البديعات، مبسوطة في أَقْوم المسالك في مَعْرفة أحوال الممالك لحكيم السياسة خير الدين باشا، وعَمَل مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ يُورِث القلب انتعاشًا مربع لبعضهم:

بُدُورٌ لَهُمْ مَغْرِبُ ... بِقَلْبِي وإن أَغْرَبُوا ... فوَجْدِي بِهِمْ مُعْرِبُ ... عن الحال ما أَصْنَعُ
لِكُلِّ هَوًى مُنْتَهَى ... وحُبِّي إذا ما انْتَهَى ... أَأَسْلُو وأَهْلُ النُّهَى ... على حُسْنِهِم أَجْمَعُوا؟

فما أشار به في كتابه من الإشارات القولية جُلُّه في مِصْرِنَا من قبيل الدلالات الوضعية، ودلالة الفعل في الأصول أقوى من دلالة القول، فما أَجْدَر ما تَجَدَّدَ الآن في مِصْرِنَا مِنْ حُسْن التنظيم، الْمُسْتَحِق مِنْ أهل الوطن كمال التبجيل والتعظيم مما به عَظُمَ قَدْر الوطن، وشَرُفَتْ مَنْزِلَتُه، ومَجُدَتْ فخامته، حيث استأثر بالفوائد الجمة، بِهِمَّة وأي هِمَّة، مما لا يَحْصُل إِلَّا مِن البررة المشفقين، ومن أبناء الوطن الصادقين مِمَّن رَوَّضَ نَفْسَه

لخدمة الوطن الحقيقية من الراعي والرعية، وقد خرجوا من درجة التصغير والتحقير، إلى درجة الترفع والتكبير، بِصَرْف الهمة في حُسْن التدبير؛ لتنمية المنافع الوطنية الحسية والمعنوية.

ومما ينبغي للعاقل أن يُنَوِّه بِذِكْرِه، ولا يُخْرِجُه العارف مِنْ مرآة بَصِيرَتِه وفِكْرِه، أن ملوك الإسلام على كَثْرَتِهم، وإن كان يجب عليهم جميعًا أن يكونوا على قَلْب رَجُل واحد في تقديم أُبَّهَة الإسلام، وأن يَهْتَمُّوا بتأييد الأوطان المحمدية بالعلوم النافعة والمنافع العمومية لتَرْقَى الديار الإسلامية درجة الكمال العلية؛ إلا أن الأَوْلَى بالمسارعة في ذلك لسهولة سلوك أقوم المسالك الدولة العلية العثمانية والخديوية الجليلة المصرية، فإن حَصَلَ منهما براعة المخلص وحُسْن المقطع، على شاكلة براعة الاستهلال على وَجْه أَبْدَع، بَلَغَتْ شهامة الأوطان الإسلامية بالنسبة إلى قوة الدولة ونخوة الملة المحل الأرفع.

فأما تَشَبُّث الدولة المحروسة العلية بذلك الآن؛ فغَنِيٌّ عن البيان، وغَيْر مُحْتَاج إلى بُرْهَان:

إذا ما رَحَاءُ الخَيْرِ دارَتْ على الوَرَى   فإنَّكَ منها قُطْبُها وعَمُودُها

وأما خديوينا الجليل فلا زال يُنْجِز ما وعد به عند الولاية، ويُجَدِّد عند انتهاز الفُرَص ما يستطيعه بكمال العناية، فكأن الفرصة تُنَاجِيه بقولها:

مولاي هذا المُلْك قَدْ نِلْتَهُ   بِرَغْم مَخْلُوقٍ مِن الخَالِقِ
والدهر مُنْقَاد لِمَا شِئْتَهُ   وذا أَوَان المَوْعِد الصادقِ

هل مِثْلُه وامق إن قَدَرَ يرمقها بصحيح النظر، وإلى ما تدعو يجيبها، ولكن ملء عَيْن حَبِيبِهَا، فلا يزال لسانه يلهج بمعنى القائل:

إِنَّا لَنَأْمَلُ ما كَانَتْ أَوَائِلُنَا   مِنْ قَبْلُ تَأْمَلُهُ إن سَاعَدَ الْقَدَرُ

ولسان حال النصر الحقيقي يُنْشِد لنَيْل أَكْرَم مرام وأَعْظَم مَقْصِد:

مَنْ جَعَلَ الْحَقَّ له ناصرًا   أَيَّدَهُ الله عَلَى نُصْرَتِهْ

وهاتف السعادة، يَحُثُّهُ على كمال نَيْل المجادة، وكَسْب السعادة، بقوله:

وكُنْ فاعلًا مِثْلَ فِعْلِ الزَّمَان فإنَّ الزمان فَعُولُن فَعُول

ولسان الاعتراف يبث على سبيل الإجمال ما فَعَلَه لوطنه من المحاسن والجمال بإنشاده:

لقد نَبَتَتْ في مصر مِنْكَ مَنَافِع كما نَبَتَتْ في الراحتين الأصابع

ولا عجب لمن توفيق العزيز رَفِيقُه، أن يستمد القُطْر المصري جَمِيع ما يُعْجِبه من الكمالات ويروقه، كما قال بعضهم في هذا المعنى:

قَدْ أَطْلَعَ اللهُ لَنَا كَوْكَبًا أَضَاءَ شَرْقَ الأرض والمَغْرِبَا
صَاحِب سَعْد يقتضي سَعْدُهُ سعادة الوالِدِ إِذْ أَنْجَبَا
والأَصْل إِنْ طَابَ يُرَى غَرْسُهُ أَنْبَتَ فَرْعًا مُثْمِرًا طَيِّبَا
مع هِبَةٍ خَصَّ بِهَا الله مَنْ أَصْبَحَ للنعمة مُسْتَوْجِبَا
فَدُم قَرِير العين حتى تَرَى خَلْفَكَ مِنْ أولاده مَوْكِبَا

ولما كانت حسنات ولي النعم تُكَاثِر النجوم عَدَدًا والأنفاس مَدَدًا؛ هَتَفَ لسان الجميع عن خالص الود الشاكر على حُسْن الصنيع بالدعاء له بِبَسْط الأكف إلى المولى السميع، فقالوا: اللهم أَدِم علينا إحسانه العديد، وبَحْر إنعامه المديد، حتى لا يزال يقول طالِبُ رِفْدِه وإحسانه: هل مِنْ مَزِيد؟

وهذا آخر ما يَسَّرَ الله جَمْعَه جَمْعَ سلامة، مما يلوح عليه من القبول أَبْهَى علامة، وهو جدير باسم مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية.

وإذا انْتَهَيْتُ إلى السلا مَةِ في مَدَاكَ فلا تُجَاوِزْ
إن السَّفِينَ متى يَصِلْ بَرَّ السَّلَامَةِ فَهْوَ فَائِزْ
حَسْبُ الفتى أَمْنًا إِذَا في سَيْرِهِ جَابَ الْمَفَاوِزْ
وهَلِ السَّلَامة للرئيـ ـسِ سِوَى مُصَادَقَةِ الجَلَاوِزْ

والحمد لله وَلِيِّ النعمة، والصلاة والسلام على من هُدِيَتْ به الأمة، وعلى آلِهِ وأصحابه الذين تَلَأْلَأَتْ أنوارهم، وأضاءت في آفاق المعالي أَقْمَارُهُمْ، وتَفَتَّحَتْ للسعادة بصائرهم وأبصارهم، صلاةً وسلامًا دائِمَيْنِ إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.


هنـــداوي